

الأدب الأندلسي النبوء والتجديد

تأليف
د. محمد عبد النعم خفاجي
الأستاذة الفخرية بجامعة الأزهر

دار الحديث
بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجليل
الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ٢٠٩٢ م

الأدب الأندلسي
الطبعة والتجديد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سلام عليك يا أندلس

سلام عليك يا أندلس حقا

لا أقولها عن نزعات قومية، ولا عن تمجيد لتاريخ مضي فحسب ،
وإنما أقولها مع ذلك تمجيداً للحضارة، وللإنسانية، وللبناء والتقدم من
أجل سعادة الانسان

ولا أقولها هُدُورا عن بواعث روحية فقط، وإنما أقولها مع هذا إعجابا
بروح العربي الطامح إلى أعلى درجات العزة والسُؤدد، والذي لم يقصُر
عمله وكده على مكان دون مكان في الأرض، ولا على قوم دون قوم
من الناس؛ لان الأرض كلها، والناس جميعا ملك للإنسانية، للبشرية
المجددة، للتقدم والنهضة والعمل الشريف المثمر

وحين كتبت هذا الكتاب في دراسة الأدب الأندلسي، ومواقفه ومذاهبه
وتياراته ومدارسه بين التطور والتجديد، كنت أعمل على استكمال حلقة
من حلقات تاريخنا الأدبي تسميها لموسوعي عن الأدب العربي التي تناهز
المائة كتاب؛ وكنت أحاول الكشف عن تاريخ أسلافنا الذين صعّدوا
بكفاحهم إلى ذروة المجد والحلود؛ وكنت أحرص على أن أستشفّ روح

آبائنا الذين سعوا إلى كل مجال شريف من الحياة، ودفعتهم هذه الروح
إلى كل عمل عظيم خلد ذكرهم من تاريخ الفكر الانساني.
وإني لسعيد حقا أن أقدم هذا الكتاب الى قراء العربية وأدبائها ...
من أجل التاريخ .. والحضارة .. والانسان
عبد المنعم خفاجي

الحضارة العربية في الأندلس

حضارة شامخة، خالدة على مر الزمان، هي حضارة العرب والأندلس، حضارة هزت الدنيا، وخلدت على صفحات التاريخ، ولا تزال حديثاً عذبا في الأفواه. إن قصة الحضارة العربية في الأندلس لا يمكن أن يستوعبها باحث، فقد ضاع الكثير من وثائقها في مأساة مصرع الأندلس وطرد العرب عنها، حين هب الأسيانيون بمرقون الكتب العربية، ويهدمون المكتبات والجامعات ويذبحون العلماء والمفكرين والأدباء، ويقضون على آثار العرب في الأندلس القضاء الأخير، ولسوء الحظ أتلفت مكتبة العرب في أسبانيا. وكانت تحوي كثيراً من آثار مفكري وشعراء الأندلس وأدبائها الذين صقلوا أدبهم بالبيئة الأندلسية الجديدة؛ التي أضافت إلى بلاغتهم في التعبير مقدرة فائقة في الخيال والتصوير مما جعل الأدب العربي في الأندلس — كما يستدل من البقية التي تحفظت لنا — من أجود آداب اللغة العربية منذ قدمها. وبعد طرد العرب من الأندلس، احتفظ بعض القساوسة بشيء من الآثار الأدبية العربية التي كانت في مكتبات العرب هناك، ولا يزال هذا البعض موجوداً لهذا الوقت في مكتبة الاسكوريال بمدريد، وهي المكتبة الوحيدة التي تعد من أهم مكتبات العالم التي تحوي كمية من المخطوطات العربية في عصر العرب بالأندلس. كذلك احتفظت مكتبة روما وكذا مكتبة برلين بشيء من تلك الآثار الأدبية، هي للآن المرجع الوحيد الذي يعتمد عليه جماعة المستشرقين والباحثين في دراساتهم

وبحوثهم عن قصة الأدب والحضارة في الأندلس. وعلى الرغم أن كتب العرب في الأندلس، لم تفقد كلها، فإن مما لا شك فيه أنه يحتمل أن يكون ضمن الجزء المفقود منها شيء غير قليل من الآثار الفكرية والأدبية التي ربما كان يحق للغة العربية أن تفخر بها. ومع ذلك فإن كثيراً من شعر شعراء الأندلس المعروفين غير كامل، وكثيراً من القصائد ناقصة ومبتورة، بل إن ثمة شعراء يعرفون بالاسم وأشعارهم بالوصف، وأما أين أشعارهم وأثارهم، فهذا مما لم نطلع عليه، لأنها من الآثار الأدبية المفقودة.

ومكتبة «الاسكوريال» بمدريد لا تحتوي اليوم على الكثير من التراث الأندلسي الفكري والعلمي والأدبي، ولما أنشئت أودع فيها عدة آلاف من المخطوطات العربية الأندلسية، وذلك منذ أواسط القرن السابع عشر، ومع ذلك فقد كانت هذه المخطوطات القليلة أنفس مجموعة من نوعها؛ ولكن حدث بها عام ١٦٧١ حريق التهم ثلاثة أرباع هذا الكنز الفريد، وبقي منها نحو ١٨٥٠ مخطوطاً عربياً. وإن الكردينال كمينيس مطران طليطلة الذي أمر بإحراق الكتب والآثار العربية في ساحات غرناطة عام ١٤٩٩ قد ارتكب عملاً يخالف الإنسانية، إذ لم يستثن من الكتب العربية سوى ثلاثمائة من كتب الطب العربية وهيئة لجامعة «الكالا».

ويضاف إلى هذا السبب — قلة المصادر العربية التي نجت من معركة الإغناء المسيحي لآثار العرب في الأندلس — سبب آخر هو تعصب المسيحيين في إسبانيا من قديم ومحاولتهم طمس الحقائق الساطعة عن تاريخ العرب الحضاري والفكري في الأندلس.

ومع ذلك فقد بقيت لنا وسط هذه الخيرة والضلال مجموعة من الوثائق التاريخية تثبت لنا الكثير من روائع العرب في الأندلس وحضارتهم، وأصول مدنيتهم في الفكر والاجتماع والسياسة والعلوم الآداب والفنون،

مما يعد شهادة ناطقة بذكاء الشعب العربي وموهبته الخارقة، والمعجزات الكثيرة التي قام بها.

إن قصة الحضارة في الأندلس تنطق بها شهادات المستشرقين المنصفين، وقد جاء في صحيفة مدرسة أدنبرج الكلية : « إنا لمدينون للعرب كثيراً، ولو قال غيرنا بخلاف ذلك، فإنهم الحلقة التي وصلت مدينة أوربا قديماً بمدنيتها حديثاً، وبنجاحهم وسمو همهم تحرك أهل أوربا إلى إحراز المعارف، واستفاقوا من نومهم العميق في العصور المظلمة، ونحن مدينون لهم أيضاً بترقية العلوم والفنون النافعة وكثير من المصنوعات والمخترعات التي نعتت أوربا علماً ومدنية.

ويقول المسيو لاجيردو مستم : « أما العرب فقد تركوا في البلاد التي احتلوها أثراً لا يزالون يذكرون به للآن، لأنهم لم يقتصروا على إدارة شئون البلاد بل قاموا بعمارها على أساس من الحضارة والمدنية، ولقد كان شانسوا يذهب إلى بلادهم لاستشارة أطبائهم بالذات، كما ان الراهب (جريزا) تعلم في مدارسهم قبل أن ينتخب لكرسي البابوية، وإلى القرن الخامس عشر ما كانت فرنسا تعرف أسماء المؤلفين اليونانيين إلا من طريق ترجمة كتبهم في إسبانيا الإسلامية، وأخذت فرنسا عنهم العلوم المختلفة^(١). ويقول استانلي بول في نكبة العرب بإسبانيا وتنكيل الأسبان بهم في نهاية عهدهم : « ولكن الإسبان لم يدركوا أنهم قتلوا الأوزة التي تبيض بيضة من ذهب في كل يوم، فقد بقيت إسبانيا قروناً في حكم العرب وهي مركز المدنية، ومنبع العلوم والفنون، ومثابة العلماء والطلاب، ومصباح الهداية والنور، ولم تصل أي مملكة في أوربا إلى ما يقرب منها في ثقافتها وحضارتها، ولم يبلغ عصر فرديناند وإيزابيلا القصير المتلائي، ولا امبراطورية شارل الخامس الأوج الذي بلغه المسلمون

(١) « رحلة الأندلس » لمحمد البتوني.

في الأندلس، وقد بقيت حضارة العرب إلى حين بعد خروجهم من إسبانيا وضاعة لامعة^(١)... هـ. ونحن نعلم أن حضارة العرب الزاهية في الأندلس كانت مثار إعجاب كل أوربي، سواء في أثناء حياة العرب هناك أو بعد ذلك، بل لقد ترجمت بعض الآثار العربية إلى اللغات الأوربية من قدم، ويروى أن أحد القساوسة أنشأ عام ١١٣٠ م معهداً في طليطلة لترجمة الكتب العربية في شتى فروع الثقافة إلى اللاتينية. وقد ذاع في الأندلس فن البناء والهندسة والموسيقى والنحت والتصوير والغناء.

ومن مثل فن العمارة : مدينة الزهراء التي أنشأها الناصر، ومدينة الحمراء التي شادها بنو الأحمر، ومسجد قرطبة الذي شاده الداخل وأتمه ابنه هشام.

وكثرت القصور والمساجد وسواها من الأبنية العامة، وكان في قصر قرطبة نحو خمسمائة دار، وعدد دور العامة بها ثلاثة آلاف ومائة ألف دار، وعدد دور الخاصة نحو خمسمائة وستة آلاف، وعدد المساجد فيها ٣٨٣٧ مسجداً، وعدد الحمامات ١٧٠٠^(٢).

واتخذ عيد الرحمن الثاني القصور والمنتزهات، وجلب إليها الماء من الجبال، وأقام الجسور، وبنيت في أيامه المساجد الكثيرة والدور.

وذاعت الموسيقى ذيوماً كبيراً، وكان لزياب تلميذ إسحاق الموصلي أثر في ذلك كبير .. ويقول مؤرخ : إن للعرب اليد الطولى فيما تركوه من فنون الموسيقى التي ساعدت أهل أوربا على الوصول إلى الدرجة التي وصل إليها هذا الفن الجميل الآن، فإن بمكتبة طليطلة آثاراً عظيمة

(١) قصة العرب في أسبانيا لاستانلي بول ص ٢٢٢.

(٢) ١ : ٣٥٥ نفع الطيب طبع أوربا.

تدل على ما كان للعرب من التقدم في ذلك الفن، وهناك جزء من المخطوطات في الموسيقى عليه بعض ملاحظات بخط ألفونس العاشر الذي كانت كل معلوماته وتربيته العقلية مكتسبة من الثقافة العربية^(١).

وقد انتشر الغناء في الأندلس انتشارا لا مثيل له حتى لقد كان الطرب يغشى كل دار، وكان لقدم زرياب تلميذ إسحق الموصلي يد مشكورة في رقي الغناء وتنسيق ضروبه وسرعة ذبوعه، فقد غنى الخلفاء والأمراء فهز أعطافهم وحرك أوتارهم، وأصاخ لمعازفه الخاصة والعامه على السواء.

وكان المغنون يروون الكثير من الأشياء الرائقة ويتخنون بها، ويقال إن زرياب كان يستظهر زهاء عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها، وكثر المغنون والمغنيات في ربوع الأندلس كثرة تستلفت النظر، وفي طليعتهم : حمدونة بنت زرياب، وهندية، وغزالان، وعبد الوهاب الحاجب فريد عصره، ونسيح وحده في براعة الغناء وعذوبة الألحان ورواية الأشعار، ثم ابن الصائغ السرقسطي الأديب المطرب، ثم فضل وعلم من مطربات القصور، ثم قمر جارية ابن حجاج اللخمي صاحب إشبيلية، وكانت تقول الشعر وتلحنه وتتغنى به، فمن ذلك قولها في مولاهما :

ما في المغارب من كريم يرتجي إلا حليف الجود أبراهيم
إني حللت لديه منزل نعمة كل المنازل ما عداه ذميم
وكان الأمير أو السري إذا سمع بمغن أو مغنية بعث في طلبها، كتب أبو عامر بن ينق إلى هند جارية محمد بن عبد الله الشاطي يدعوها إلى مجلسه لتونق الاسماع، وكانت أديبة شاعرة :

يا هند هل لك في زيارة فتية نبذوا المحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلايل قد شدت فتذكروا نغمات عودك في التقييل الأول

(١) كتاب غارودو ج ٢

فأجابته :

يا سيداً حاز العلا من سادة شم الأنوف من الطراز الاول
حسبي من الإسراع نحوك أنسي كنت الجواب مع الرسول المقبل

وكان الأندلسيون جميعاً يهيمون بالغناء الرقيق، لا يتورع عن سماعه
عالم أو فقيه. ذكر المقرئ في نفع الطيب أن محمد بن سعيد القاضي
خرج إلى جنازة فرج على منزل صديق له، وبعد أن طعم، غنت جارية
رب المنزل :

طابت بطيب لثاتك الأقداح وزها بمحبرة خدك التفاح
وإذا الربيع تنسمت أرواحه نمت بعرف نسيك الأرواح
وإذا الخنداس ألبست ظلماؤها فضياء وجهك في الدجى مصباح

فطرب القاضي طرباً عظيماً، وبلغ من إعجابه بتلك الأبيات أن كتبها
على ظهر يده.

ودخل ابن حوقل عام ٣٧١ هـ الأندلس، ووصفها بأنها « تغلب
عليها المياه الجارية، والشجر، والتمر، والرخص، والسعة في الأحوال،
من الرقيق الفاخر، والخصب الظاهر، إلى أسباب التلك الفاشية فيها؛
ولما هي به من أسباب رغد العيش، وسعته وكثرته، يملك ذلك منهم
مهيمن، وأرباب صناعتهم؛ لقلة مؤوتهم وصلاح معاشهم ».

وذكر ابن بشكوال، أن جباية الأندلس بلغت، في مدة عبد الرحمن
الناصر، خمسة آلاف ألف دينار، وأربعمائة ألف وثمانين ألفاً.

أما عوامل تأسيس الحضارة فقد كانت كلها ممكنة للعرب في الأندلس،
فمن امتزاج العناصر وتوحد الأجناس واختلاط الدماء، مما نشأ عنه جيل
عربي جديد يجمع خصائص العرب والآريين الفكرية والاجتماعية

والنفسية^(١) إلى جمال البيئة^(٢) وخصبها واعتدال الجو فيها، ورونق الطبيعة وتبرجها وسحرها، وهذا مما بعث على أن لانت من أجله طباعهم، ورقت عواطفهم، فنشأ جيل جديد يجري في عروقه الدم العربي، ويتصف بصفات العرب : من غيرة وكرامة، وصفاء في القريحة، واكتسب صفات الجنس الآري، من دقة الإدراك، وسعة الخيال، وقوة الفكر والتحصيل، فكان هذا الشعب الجديد لا شرقياً صرفاً ولا غربياً بحتاً، وامتاز في كثير من

(١) وقد سكن هذه البلاد أمم مختلفة قبل دخول العرب : فنزلها أول فجر التاريخ قبائل من جبال البرانس، ونزلها من الشمال الشرقي من بلاد الغال قبائل السلتي والبيسك والجلالقة؛ سكن بعضهم الشواطئ واستقر بعضهم وسط البلاد ونزل بها كثير من البربر سكان إفريقية الشمالية. ثم نزلها الفينيقيون وأهل قرطاجنة قبل الميلاد بقرون. ثم استولى الرومان عليها أوائل القرن الثالث الميلادي (٢٠١م) وسموها هسبانيا أو إسبانيا. ثم أغار على الرومان قبائل الفندال، فأخرجوهم من هناك، وأسسوا على نهر الوادي الكبير مملكة سموها باسمهم « الفندال »، ومنها جاءت كلمة « فندلس » التي نطق بها العرب « أندلس »، وأطلقوها على هذه البلاد. وبعد هؤلاء ملكها القوط، ثم دخلها العرب وملكوها في أواخر القرن الأول الهجري. فسكان هذه البلاد خليط من أمم مختلفة وقبائل متعددة. وقد نشأ من هذا كله جيل عربي جديد، له شتى الخصائص الحضارية.

(٢) الأندلس كانت ولا تزال من أجمل بقاع الأرض وأنضرها، مما يأخذ بالأنياب، ويسبح في روعته الخيال، ويبعث على تدفق الجمال، ومجاراة الطبيعة في بهائها وتضرتها، وقد امتازت هذه البلاد بين الأقطار التي فتحها العرب بجمال طبيعتها : من أشجار باسقة، وثمار يانعة، وأنهار جارئة، وجبال خضراء، وطيور مفردة، وأبنية شاهقة، وقصور جميلة، ووجوه نظرة، ونسيم عليل. فملك كل ذلك من نفس العربي، ورقق من شعوره، وهذب من خياله، وصفل من ذوقه، وزاد في جمال شعره وفنون الكتابة لديه. وميزه ذلك عن أهل المشرق، وجعل للأندلسيين صبغة خاصة في الأدب العربي، وفتح أمامهم باباً واسعاً من الخيال.

ولما استقرت قدم المسلمين هناك، نزح إليها العرب من كل قبيلة، وهاجر إليها كثير من أهل المدن الإسلامية التي فتحها العرب، واتصل كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين : من قوط وغيرهم وتصادقوا وتحابوا وتزوجوا، وأسلم كثير من المسيحيين واليهود، واندمج بعضهم في بعض بالمصاهرة وغيرها، وكونوا شعباً واحداً، وتشاركوا في إدارة البلاد، فقد وكل العرب إلى هؤلاء السكان كثيراً من الأعمال.

صفاته وأخلاقه عن أهل الشرق من المسلمين. ويضاف الى ذلك أن الإسلام دين الثقافة والمعرفة، ومع ما حمله العرب من روح دينهم، فقد أتاحت لهم ثقافات أخرى، هي ثقافات الأصليين التي هضموها وتأثروا بها، وزادت من معارفهم واستعدادهم.

لذلك لم يلبث العرب بعد قليل من مقامهم في الأندلس أن بنوا القصور^(١) وأنشأوا الجامعات، وأقاموا المكتبات، وبنوا المدن والمباني

(١) بنى عبد الرحمن الداخل جامع قرطبة الأعظم، فأنفق عليه ثمانين ألف دينار، وقد ذكروا أنه قد كان فلماً في نوعه، وأن من بدائمه احتوايه نحو ٣٦٠ طاقاً على عدد أيام السنة، يدخل الشمس كل يوم من طاق، وكان به ثلاث وتسعون ومائتان وألف سارية، وفيه المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب المطعم، وكان باب المقصورة من الفضة وكان بها تفاحات من الذهب والفضة محيط كل تفاحة ثلاث أشبار ونصف، والثاني منها من الذهب الإبريز. وكان عدد بوابه تسع عشرة من الشرق إلى الغرب، وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب، وبه واحد وعشرون باباً طلعت بالنحاس الأصفر اللامع؛ أما المنبر فقد صنع من العاج ونقيس الخشب، وهو مؤلف من ستة وثلاثين ألف قطعة منفصلة رصع أكثرها بالأحجار الكريمة، وسمر بمسامير من الذهب، وقد بقي من جمال هذا المسجد ما هو مائل إلى الآن، فإن السائحون يقفون اليوم دهشين أمام هذه الغاية من السواري، يروعهم فيها منظر لا يكاد ينتهي من كل جانب، ولا يزال الزجاج الفاخر يلمع لمعان الجواهر، ولا يزال المحراب بقيابه المتلافة يملأ العيون والقلوب، ولا تزال أشجار البرتقال مورقة يصحح الجامع تسائر امتداد السواري، فإذا وقف المرء أمام عظمة هذا المسجد وجماله عادت به الذكرى إلى أيام مجد قرطبة وازدهارها أيام الخليفة العظيم الناصر لدين الله التي لن تعود، ويروي المؤرخون كثيراً من أعاجيب قصور الأمير عبد الرحمن وما كان بها من الأبواب الفاخرة التي تفتح على الحدائق حولها أو على النهر، وكان بعض هذه القصور يسمى بالزاهر وبعضها بالمعشوق وبعضها بالمؤنس، ثم الكامل والمجدد والتاج وغيرها مما خلدهت ألسنة الشعراء، وبعض هذه القصور يحتفظ باسم حاضرة الأمويين بالشرق «دمشق» وكان يقوم على أعمدة من الرخام، وقد رصفت أرضه أحسن رصف، وبلغ غاية الروعة والجمال. وكان حوله مائة ألف بيت للعامّة، ونحو سبعمئة مسجد، وتسعمائة حمام، هذا عدا المتنزهات والبساتين، وقد بنى الناصر كذلك مدينة الزهراء التي كانت من عجائب الدنيا وقد بناها الناصر في سفح جبل العروس على بضعة =

الجليلة^(١)، وشجعوا العلوم والثقافات والفنون والآداب، ونبغ في هذه البيئة العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة والمفكرون، وحسبك ابن رشد وابن باجة وابن طفيل وابن زهر، وسواهم من أعلام الفكر الأندلسي الذي أثمر في « تطور » الفكر الإنساني، وفي تعجيل بدء النهضة في أوربا. وقد بدأ سير الحضارة في الأندلس حينما استقر الأمر لبني أمية في الأندلس أواسط القرن الثاني الهجري سنة ١٤٦ هـ، وكان العباسيون قد اتصلوا بالسريان وغيرهم من العلماء الذين نشروا علم الإغريق في بلاد الجزيرة فيما بين النهرين، وأسسوا هناك مدارس للعلم منذ القرن الخامس الميلادي، فاستعان بهم الخلفاء في نقل هذه العلوم إلى اللغة العربية، كما استعانوا بالفرس أيضا. وكانت مدينتنا البصرة والكوفة مقراً لعلماء اللغة والأدب، ومكة والمدينة مهبط علماء الدين ومأوى علوم الشريعة الإسلامية، وصارت بغداد مركزاً للعلوم الكونية. فكان الشرق منذ أوائل

== أميال من قرطبة، استجابة لرغبة جاريته « الزهراء » التي كان يهيم بها حياً، وقد أنفق في بنائها ٤٦٠ قطاراً من الفضة، وطولها من الشرق ٢٧٠٠ ذراع، وعدد السوراري بها أربعة آلاف وثلاثمائة « وكان بها عسمة عشر ألف باب ملبس بالحديد أو النحاس المموه، وكان سقف بهو الخليفة وحيطاته من الرخام والذهب وفي وسط بهو حوض مليء بالزئبق الرجراج، إلى جانب كل منه ثمانية أبواب من العاج والأبنوس وقد رصعت بالجواهر، فإذا دخلت أشعة الشمس من هذه الأبواب ولاقت اهتزاز الزئبق، ملأت البهو ببريق يشبه لمعان البروق، حتى لقد يحجب رجال الدولة عيونهم بأيديهم لشدة، وقد أجمع كل من رأى قصر الزهراء على أنه لم يبن مثله في الإسلام أئنة، وما دخل إليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة إلا وقطع أنه لم ير له شبيهاً، بل لم يسمع، بل لم يكن يتوهم كون مثله ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرد، والقبة وعجيب ما تضمنته من إتقان الصنعة، وفخامة الهمة، وبراعة الأثام والقرش والسجف، ما بين مرمر مستون، وذهب مصون، وعمد كأنها أفرغت في القوالب، ونقوش كالرياض، لكفاه بعض ذلك شرفاً ونبلاً.

(١) في أيام عبد الرحمن الثاني (٢٠٦-٢٣٨هـ) كثرت الأموال، فاتخذت القصور والمنتزهات، وجلب إليها الماء من الجبال وأقيمت الجسور، وبنيت في أيامه الجوامع، وزاد في جامع قرطبة رواقين.

القرن الثاني الهجري مورد العلوم ومنبع الثقافة، ومن ثم لم ير الأمويون بدأ من الأخذ عن أهل الشرق والرجوع إليهم عندما أرادوا نشر العلم في الأندلس؛ فاقفوا آثار المشرقين وأخذوا عن أئمتهم كل شيء؛ فساد مذهب الإمام مالك هناك، وكان من زعمائه يحيى الليثي الذي رحل إلى الشرق وأخذ عن الإمام مالك، وتوفي بقرطبة سنة ٢٣٤ هـ.

وكان أبو علي القالي البغدادي إمام الأدب هناك؛ وفد إلى الأندلس سنة ٣٢٨ هـ، وأخذ عنه جلة العلماء... ومنهم أبو بكر محمد الزبيدي صاحب «مختصر العين».

ورحل كثير من علماء الأندلس إلى بغداد وغيرها من بلاد المشرق، وأعجبوا بما كان هناك من علم وأدب. وقد ولع الخلفاء والأمراء بمجاراة أهل المشرق في علومهم ومدنيتهم، فنقل عبد الرحمن الناصر ما كان منها عند العباسيين، وأفسح صدره للعلماء والأدباء، فكانوا يقدون من المشرق حاملين علومهم وجهود عقولهم، وكان الحكم مشغوقاً بالعلوم، وهو الذي بعث إلى أبي الفرج الأصفهاني بألف دينار من الذهب ليرسل إليه بكتابه «الأغاني» قبل أن يخرج به ببغداد. وقد ذاعت ثقافة العرب ببلاد الأندلس، وانتشرت لغتهم وأصبح بين اليهود والنصارى من سكان تلك البلاد كثير من الشعراء المجيدين والكتاب البلغاء، الذين يحسون في مقدمة شعراء العرب وكتابهم. وبعد أن كانت الثقافة اللاتينية تسيطر على عقول الخاصة من السكان، أصبحت اللغة العربية أو الثقافة العربية هي لغة البلاد وثقافة الخاصة من السكان، حتى تسربت إلى الكنائس. وكانت الحياة الأدبية أكثر ذيوفاً من الحياة الفلسفية إذ لم يكن أحد بالاشتغال بالفلسفة إلا قليلاً.

ثم تطور سير الحضارة وازدهارها في الأندلس العربية، حينما أخذت قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس الشهيرة تنافس بغداد في العلوم والفنون، واقتناء الكتب واستهواء العلماء للمكث بها، جاء إليها كثير من العلماء،

ولا سيما عند ما أخذ بنو أمية في مجارة خلفاء بني العباس في الإفاضة على العلماء والأدباء بالعطايا، وقلدهم في ذلك ملوك الطوائف بعدهم، وكان يفد إليها جلة علماء المشرق، وكان لزياب المغني الذي قدم من بغداد أثر عظيم في إصلاح صناعة الغناء وبث بعض العادات التي كانت ذاتها في مجتمعات بغداد. وغير هؤلاء كثير يعدون بالمئات من الوافدين إلى بلاد الأندلس. فكانت الصلة العلمية لا تنقطع بين البلدين، وكان الطريق من بغداد إلى قرطبة أهلا بالراحلين من العلماء والأدباء؛ فقد كانت قرطبة مركز العلوم في بلاد المغرب يفد إليها الطلاب من كل مكان، ويرحل إليها الأدباء والشعراء.

كما رحل إليها من جزيرة صقلية عبد الجبار بن حمد يس الشاعر المعروف، والتحق بحاشية المعتمد بن عباد أحد ملوك الطوائف. وكذلك كان يرحل إلى بلاد المشرق كثير من العلماء والأدباء للأخذ عن أئمة الأدب والدين هناك، كما رحل إلى مكة وبغداد الإمام الفقيه يحيى بن يحيى الليثي والتقى بالإمام مالك بن أنس، وأخذ عنه مذهبه ونشره في بلاد الأندلس، وكانوا قبل ذلك يتبعون مذهب الأوزاعي.

وكانت الرحلة بين المشرق والمغرب من أعظم الوسائل التي وطدت الصلات العلمية، ونشرت هنا وهناك من آثار علماء المسلمين وجهودهم ما يعد مفخرة لجيل هذه الأيام. وقد نقل العرب إلى بلاد الأندلس كثيرا من معالم الحضارة الشرقية الإسلامية، وأنشعوا معاهد العلم في قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية، وغيرها من البلدان، فانبعث من هذه العواصم ضوء العلوم في سماء أوربا، وانتشرت اللغة العربية بين الخاصة والعامّة، ودخل كثير من ألفاظها في اللغة الإسبانية، وهجر الإسبان اللغة اللاتينية، واشتغلوا باللغة العربية وآدابها، حتى أصبحوا لا يكتبون غيرها، وصار شبانها لا يعرفون غير لغة العرب، حتى اضطر أحد القساوسة من أهل إشبيلية إلى أن يترجم التوراة إلى اللغة العربية ليقرأها تلاميذه،

كما ترجم غيره من القسيسين كتب الكنيسة إلى لغة العرب. وقد قال بعض المؤرخين الإسبانين : « إن من آداب أهل إسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به. وإنه لا شك في أن الإسبانين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعرفتهم بالفلسفة اليونانية ». وظهرت آثار اللغة العربية والشعر العربي في لغة أهل الشمال من سكان إسبانيا، ومن هناك انتقلت إلى جنوب فرنسا، وأثرت في الشعر الغنائي وفي المقطوعات الشعرية الملقاة، التي هي أشبه بالشعر العربي ومعانيه. ومن العرب اقتبس أهل أوروبا بعض أنواع الشعر ونقلوا عنهم حكم الفرس وأمثالهم. وظهرت حضارة العرب في العلوم والآداب حين كانت أوروبا أواخر القرن الحادي عشر في جهالة، فلم تنتسم ربح العلوم والحضارة إلا بعد أن أخذت ذلك من عرب إسبانيا وعلماء المسلمين، الذين بثوا بذور الحضارة هناك. ففي نحو سنة ١١٣٠ م أنشأ أحد القساوسة في طليطلة معهداً لترجمة كتب العرب الشهيرة إلى اللغة اللاتينية. فكان هذه الكتب التي ترجمت أثر عظيم في إيجاد حياة علمية جديدة، وقد بقيت حركة هذه الترجمة من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ولم تكن هذه الترجمة مقصورة على مؤلفات العرب الشهيرة، كمؤلفات الرازي وابن رشد وابن سينا، بل اشتملت على ترجمة كتب حكماء اليونان من العربية إلى اللاتينية. فترجمت كتب أرسطيدس وأفلاطون وأرسططاليس وغيرهم ممن نقل العرب كتبهم إلى لغتهم. وقد ذكر أحد العلماء الفرنسيين في تاريخ الطب أكثر من ثلثائة كتاب عربي ترجم إلى اللغة اللاتينية، وقال : « ولم يعرف أهل القرون الوسطى من سكان أوروبا كتب اليونان إلا بعد نقلها عن كتب العرب. فيفضل هذه الترجمة العربية أمكن الوقوف على الكتب اليونانية التي ضاع أصلها اليوناني، فأوربا مدينة للعرب وحدهم بحفظ هذه المؤلفات الجليلية القدر ». وقد بقي أهل أوروبا لا يعرفون غير كتب العرب إلى القرن الثاني عشر، فكان العلماء هناك تلاميذ العرب أو ناقليهم. وكان فلاسفتهم تلاميذ ابن رشد وابن سينا، كما شهد بذلك

الفيلسوف ريتان. وعلى هذه الترجمة العربية سارت جامعات أوروبا. واتخذتها أساساً للدراسة والتعليم مدة ستة قرون. بل بقيت بعض كتب العرب الطيبة تدرس إلى زمن قريب في بعض جامعات أوروبا. وكانت كتب ابن سينا تدرس في جامعة مونبلييه جنوب فرنسا إلى أواخر القرن الثامن عشر. وبقيت كتب الفلسفة العربية تدرس في جامعات فرنسا، لاسيما كتب ابن رشد إلى أوائل القرن الثالث عشر. كذلك كانت كتب العرب وعلومهم منتشرة في بلاد إيطاليا. فوجود العرب في أوروبا نشر فيها كثيراً من العلوم والآداب التي كانت مهملة في كل بلد آخر من هذه القارة حتى في القسطنطينية نفسها فإنه لم يكن إذ ذاك معهد علمي إلا في بلدان الشرق الإسلامية وفي إسبانيا العربية من بلاد المغرب. ففي هذه المعاهد كانت تدرس العلوم والآداب، وإليها كان يفد طلاب العلوم من كل مكان. وفي هذه المعاهد تعلم «جوبرت» الذي كان بابا للديانة المسيحية سنة ٩٩٩ ميلادية وعرف باسم سلفستر الثاني وأعجب بعلوم العرب حتى اتهم بالمروق من الدين عندما أراد أن ينشر في أوروبا ما أخذه عن العرب. وبمجهود العرب قامت أوروبا من سباتها وبدأت نهضتها العلمية. فإنه حينما اتسعت الفتوح العربية حتى شملت بلاد الأندلس، أصبح للثقافة العربية وطن جديد في القارة الأوربية، أزهرت فيه وأنبعت، وأصبح ميسوراً لطلاب العلم والفلسفة من أبناء الشعوب الأوربية أن يردوا هذا المنهل القريب من ديارهم وأوطانهم، في أثناء ذلك العهد الطويل، الذي يسمى أحياناً العصور الوسطى، وأحياناً العصور المظلمة، أي الزمن الذي لم يكن للعلم والفلسفة فيه شأن خطير في القارة الأوربية. وأثر الحضارة العربية واضح في مختلف نواحي الثقافة التي اقتبسها شعوب أوروبا، سواء في ذلك الطب والفلسفة والكيمياء والفلك والرياضيات، والموسيقى وفن العمارة، وكثير من الصناعات. ولا يتسع المجال هنا لشرح هذه النواحي جميعاً، ولكن حسبتنا أن نذكر أن الفلسفة اليونانية نفسها قد وصلت إلى أوروبا في ذلك العصر بواسطة التراجم والمؤلفات العربية،

وأن كثيراً من المؤلفات العلمية العربية قد نقلت إلى اللاتينية، حتى إن بعضها فقد أصله العربي، ولم يبق منه اليوم سوى الترجمة اللاتينية، وأن أسماء الفلاسفة العرب لكثرة تداولها على ألسنة الإفرنج قد اتخذت صورة إفرنجية، مثال هذا ابن سينا وابن رشد والرازي. وكان طلاب العلم والمعرفة يفتدون إلى الأندلس من أقطار أوروبا المختلفة لا من الجهات المجاورة لأسبانيا وحدها، فكثير منهم جاء من إنجلترا مثل أديلارد الباقي وكثير جاء من إيطاليا. وكانت صقلية تشارك الأندلس، وذلك لقربها منها، فلم تكن الأندلس هي السبيل الوحيد الذي نفذت منه الحضارة العربية إلى أوروبا، بل لقد استطاع العرب في أثناء المائة والثلاثين عاما التي حكموا فيها صقلية أن يفرسوا فيها دوحه العلم قوية وارقة الظلال، حتى لقد بقي أثرهم وعلمهم فيها بعد أن استولى عليها النورمانديون في سنة ١٠٩١ م، وقد قام ملوكها أمثال روجر الأول ومن جاء بعده بتشجيع العلماء من العرب، وبمساعدة المترجمين الذين تولوا نقل الآثار العربية إلى اللاتينية. وحسبنا أن نشير هنا إلى أن الجغرافي العربي الشهير أبا عبد الله بن محمد الإدريسي، كان يضع مؤلفاته العربية وبعضه في عمله روجر الثاني (١١٠١ - ١١٥٤)، فإن هذا الملك قد كلف الإدريسي أن يضع بالعربية مؤلفاً يشتمل على الوصف الجغرافي لجميع أقطار المعمورة، وفي هذا اعتراف صريح بما للعلماء العرب من المنزلة الرفيعة والمكانة الملحوظة.

ومع هذه النهضة الثقافية التي وصلت إلى أوروبا من طريق الأندلس وصقلية، فقد تأثر الأوربيون من غير شك في أثناء الحروب الصليبية بالحضارة العربية في سوريا وفلسطين ومصر. وليس من السهل اليوم أن نقدر تقديراً صحيحاً ذلك الأثر العظيم الذي تركته الحضارة العربية في بلاد أوروبا المختلفة، وذلك لأسباب كثيرة أهمها ما يأتي :

أولاً : أن تاريخ أوروبا في العصور الوسطى تخيم عليه سحب كثيرة

من الغموض والإيهام، تجعل من المتعذر تتبع هذه المؤثرات — في دقة — من منابعها إلى الجهات التي انتشرت فيها.

وثانياً : أن الحروب الطويلة التي دارت بين المسلمين والنصارى في الأندلس وانتهت بزوال الحكم الإسلامي عن هذا القطر، وما أعقبها من انتشار روح التعصب والجهل، قد أضاعت كثيراً من الآثار العربية.

وثالثاً : أن العلماء الأوربيين — حتى الآسيان منهم — قد انتشرت بينهم في الأزمنة الحديثة نكرة شعبية خاطئة دفعتهم إلى إنكار المؤثرات العربية في الحضارة الأوربية الحديثة أو التقليل من شأنها، كما شهد بذلك الكتاب الذين اشتركوا في تأليف كتاب « تراث الإسلام » وهذه النزعة ستزول في الغالب على مدى الزمن، ويتخذ البحث العلمي سبيلاً قوامها الإنصاف والبعد عن الهوى. وقد شهدنا هذا الاتجاه الجديد في مؤلفات الكاتب الآسياني الكبير دون جوليان ريبوا. وإذا كان من العسير اليوم رسم صورة كاملة لأثر الحضارة العربية في الثقافة الأوربية الحديثة في العلم والفلسفة والفنون، فإن إيضاح أثر الأدب العربي الأندلسي منظومه ومنتوره في الآداب الإفرنجية أشق وأعسر. ويرجع هذا إلى أن العلوم والمعارف كانت تنتقل بالتأليف والترجمة، وكثير من المؤلفات العربية قد وصلت إلينا ترجمتها اللاتينية، وكذلك لا يستطيع أحد أن ينكر أثر الفنون والصناعات العربية التي تظهر بوضوح في الموازنة مثلاً بين آثار العمارة العربية، ونظائرها في الأقطار الغربية، ولئن جاز لإنسان أن ينكر أثر العرب في الموسيقى الأوربية، فلا بد من الاعتراف بأن بعض الآلات الموسيقية التي شاع استعمالها في أوربا قد أخذت عن العرب، وبعضها مثل العود لا يزال يسمى باسمه العربي في جميع اللغات الأوربية. أما في الأدب فتعوزنا هذه الآثار إذا أردنا أن نتحدث عن آثار الأدب العربي في الآداب الأوربية، لأن ترجمة الآثار العلمية في العلم والفلسفة قد لقيت إقبالاً شديداً، وتعصيماً كبيراً، هيئات أن تظفر بمثله الآثار الأدبية،

فإن عامل المنفعة، والفائدة العملية، كان قوياً في الأولى، ضعيفاً في الثانية. وبعض الباحثين قد اضطروا لأن يفترض أن بعض الآثار الأدبية لا بد أن يكون قد ترجم أيضاً إلى اللاتينية، أو إلى بعض اللغات الشعبية، ولكن ليس في أيدينا اليوم دليل مادي على هذا. ولذلك فإن الباحث عن أثر الأدب العربي في الأدب الإفرنجي يتبع في بحثه طريقة أخرى، وهي طريقة المقابلة والمضاهاة بين الأدبين، وملاحظة وجوه التشابه التي لا يجوز أن تحميء عفوياً. فالباحث الذي يرى تشابهاً دقيقاً بين أشعار «دانتى» وبعض مؤلفات المعري مضطراً لأن يفترض أن بعض آثار المعري قد ترجم إلى اللاتينية أو الإيطالية، وإن لم نعلم على مثل هذه الترجمة بعد. وكذلك الباحث الذي يرى أن استخدام القافية في الشعر قد انتقل إلى أوربا بواسطة العرب، قد تعوزه الأدلة المادية على تأييد هذه النظرية. ولكنه مضطراً لأن يرجح أن للأدب العربي شأناً كبيراً في مثل هذا التطور، لأن الآداب الأوربية القديمة، وعلى الأخص الأدب اليوناني والأدب اللاتيني الواسع الانتشار كانا خاليين من القافية. ونحن نلاحظ أن القافية تأتي سهلة طبيعة في الشعر العربي. ولا تأتي بمثل هذه السهولة في اللغات الإفرنجية. فمن المعقول أن يكون ظهورها في العصور الوسطى الأوربية، نتيجة المؤثرات الأدبية العربية. وما يجعل المؤثرات العربية في الأشعار الغربية غامضة صعبة التحقيق، أن أكثرها قد انتقل بواسطة الأغاني والأنشيد والقصص الشعبية التي يتداولها الناس ويتناقلونها شفاهاً، ولا يكاد أحد يعنى بتدوينها، ولكن من البدهي أن انتقال الآلات الموسيقية نفسها من الأندلس إلى أوربا، مع ما يصحب هذا من وسائل الإرشاد إلى كيفية استخدامها والعرف عليها، يستدعي من غير شك أن تنتقل معها الأغاني والأشعار، وكثير من محترفي الغناء الأندلسيين كانوا ينتقلون من بلد إلى بلد، ويزورون بلاداً غير إسلامية، فينشدون ويوقعون، وكان الإقبال على غنائهم وعزفهم عظيماً في بلاط الأمراء المسيحيين في أسبانيا وفي بروفانس وإيطاليا. ومن البدهي أن كثيراً من سكان الأندلس الذين

اعتنقوا الإسلام كانوا يجيدون اللغتين العربية والأسبانية، وكان الأدباء منهم قد اطلعوا على الأدب العربي وتذوقوه، وكانوا واسطة لنقله إلى الأطراف الشمالية في أسبانيا، ومن ثم إلى جنوب فرنسا.

وفي القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلادي ظهرت في أوروبا طائفة جديدة من الشعراء المنشدين، الذين يجمعون بين التغني بشعرهم والتوقيع على العود، يبدو في أشعارهم الطابع العربي الذي لا يحتمل الشك، وقد أطلق على هؤلاء الشعراء اسم الطروبادور، وهي كلمة يرى روبرا أنها مشتقة من لفظ الطرب. وقد امتاز هؤلاء الشعراء بتنظيم أناشيد تدور كلها حول النسيب، وتبدو فيها الصفات المألوفة في النسيب العربي : من هوى عذري مبرح، ومن حنين وشوق إلى محبوبه ممنعة، عزيزة المنال، ومن وفاء ونبل عاطفة. وقد ظهرت في هذا العصر قصص كثيرة لا يشك الباحثون في أنها مقتبسة من القصص العربية. وخاصة أخبار العشاق، أمثال عروة بن حزام وعفراء، أو قيس بن ذريح ولبنى. وكذلك كانت أشعار الطروبادور مشابهة للأناشيد الأندلسية في نظام وزنها وقوافيها، وقد انتشرت في أول الأمر في بلاد أسبانيا، ثم في جنوب فرنسا وإيطاليا، ولم تزل تنتشر حتى عمت أوروبا الغربية والوسطى. وهذه الأشعار قد أثرت تأثيراً كبيراً في أشعار الأمم الأوروبية، فهي أساس من أسس الشعر في الآداب الأوروبية الحديثة.

وليست الأناشيد والأشعار العربية وحدها التي أثرت في آداب العصور الوسطى الأوروبية، بل لقد كان للقصص والحرفات والأمثال والنوادر العربية المنتورة أثر كبير أيضاً، بل لعل أثر النثر في ذلك العصر أوضح، فقد ظهرت قصص في الأدب الفرنسي مثلاً تحمل طابعاً عربياً لا شك فيه، وحسبك أن قصة من أشهرها، وهي قصة « أوقاسين ونيقوليت » ذات صبغة عربية واضحة، واسم البطل فيها ما هو إلا تحريف للاسم العربي : القاسم. وقد ترجمت في هذا العهد مجموعات من القصص منقولة

عن اللغة العربية، أهمها من غير شك كتاب كلية ودمنة الذي ترجم إلى الأسبانية واللاتينية في القرن الثالث عشر، وانتقل إلى البلاد الأوربية المختلفة، وكان النواة التي نشأ من حولها أدب قصصي عن الحيوان والطير، وكان له أثره حتى في أشعار لافونتين ناظم الخرافات الشهير. وإذا كانت القصص التي ترجمت واضحة الأثر في الآداب الغربية الناشئة فإن هناك قصصاً شعبياً كبيراً كان ينقل بالرواية، وليس من السهل ان ندرك مدى تأثيره. ومع هذا فإن من الواضح أن قصص «ديكاميرون» للكاتب الإيطالي بوكاكسيو تشتمل على قصص عربي مما كان متداولاً في عصره. وأما تأثير الشاعر الإيطالي الأكبر دانتي بالأدب العربي فله أنصار غير قليلين. والذي يبعث على رجحان هذا الرأي أن الأدب العربي والعلوم العربية كانت تدرس دراسة واسعة في إيطاليا في عصره. وليس بمعقول أن يكون هذا الشاعر بمعزل عن هذه التيارات الثقافية القوية التي كانت منتشرة في زمنه. ولم تكن رسالة الغفران وحدها هي المورد العربي الوحيد الذي استقى منه الشاعر، بل هنالك مثلاً أحاديث المعراج، التي وصلت من غير شك مع الفتح الإسلامي إلى صقلية، على أننا لو نظرنا إلى رسالة الغفران وحدها لرأينا أن وجوه الشبه بينها وبين الكوميديا المقدسة ليس تشابهاً سطحيًا، بل إن هنالك اتفاقاً في التفاصيل ليس من السهل أن نفترض أنه جاء عفواً. مثال ذلك أن الشاعر الإيطالي يلتقي في أثناء طوافه في الجحيم بالشعراء اللاتينيين الذين ماتوا قبل المسيحية، كما قابل صاحب المعري امرأ القيس والنابغة وغيرهما من شعراء الجاهلية ورآهم في النار. وهنالك غير هذا صور للنار وسكانها لم يستطع الباحثون أن يجدوا لها نظيراً في الأدب المسيحي، ولها مشابهة في المؤلفات الإسلامية. وليس في هذا الاقتباس ما يقلل من شأن الشاعر الإيطالي، فإن كبار الأدباء كثيراً ما اقتبسوا موضوعاتهم في المؤلفات المتداولة في عصرهم. وبعد، فإن الأدب العربي كان ذا أثر كبير في الآداب الأوربية في

القسم الأخير من العصور الوسطى، أي في الزمن الذي كانت فيه اللغات الأوربية في دور النشوء والتكوّن.

ويبدو تأثر أدباء الأسيان بالعرب الذين غزوا بلادهم واضحا جليا أمام العقل، هؤلاء قد اتخذوا الأندلس موطناً لهم وظلوا ثمانية قرون يتنقلون في أنحاء البلاد. وكانت لهم حضارة هي التي وصلت الحضارات القديمة بالحضارة الحديثة.

ولقد أثبت مؤرخو الأدب أن قصة «المعتمد بن عباد» آخر الحكام المستقلين في اشبيلية (١٠٧٨ - ١٠٩١ م) كانت من بين القصص التي تناولها شعراء الإسبان في القرون التالية. بل الثابت أن «دون جوان مانول» وهو أحد قصاصي القرن الرابع عشر الميلادي، كتب هذه القصة وأضفى عليها خيالا حبيبا إلى القراء في إسبانيا. بل لقد أثبت مؤرخو الأدب كذلك أن كثيراً من القصص قد نقلها العرب من الهند وفارس فلقيت جوا صالحا في إسبانيا. وانتشرت بعد ذلك حتى بلغت جنوب فرنسا، وما زالت تتقلب في غرب أوروبا حتى اتسحت بثياب مسيحية أوربية لا يستطيع القارئ العربي أن يتعرفها إلا بجهد. ومن تلك القصص خرافات وحكايات غناها شعراء متنقلون سماهم التاريخ الأدبي «تروبادور»، بل لقد ذهب كثير من دارسي الأدب إلى أن أوزان الشعر العربي نفسها قد أثرت في هذا الضرب من الأدب المنقل، لأنهم استطاعوا أن يوازنوا بين أساليب الوزن والتقفية في الشعر العربي وبين الأوزان والقوافي في شعر هؤلاء.

ولكن هل نستطيع أن نكتشف قصة واحدة في الأدب العربي هي التي نسجت على منوالها «دون كيشوت»؟ وهل في الأدب العربي جاهليا كان أو إسلاميا قصة تشبه هذه في موضوعها أو أسلوبها؟

فهل تأثر سرفنتس مؤلف «دون كيشوت» بالأدب العربي وبخاصة حين أقام بالجزائر؟ وهل كان للتصعلك كما يعرفه العرب أثر في صوغ

القصة؟. وهل تأثرت القصة بجنون الحب الذي ورثته القصة العربية، من مثل حديث مجنون ليلي. أسئلة قد تجيب عنها حياة سرفنتس نفسه.

ولد ميغل سرفنتس في سنة ١٥٤٧ ونشأ محباً للكتابة. وأتيح له أن يزور إيطاليا ولما يبلغ العشرين. ولبت فيها أربع سنين حتى سنة ١٥٧٠ حينما دعت الحاجة إلى أن يلتحق بالجيش الإسباني ويحارب الأتراك في موقعة لينتو، وفي لينتو فقد ذراعه وانتصرت الحليفات الثلاث : إسبانيا والنمسا والبندقية على القوة البحرية التركية لأول مرة في تاريخ الإمبراطورية التركية. فكان ذلك إيذاناً بعهد جديد لأوربا، وكان ذلك أيضاً مبدءاً لشقاء الكاتب الجندي صاحب الذراع المفقودة، وحاول سرفنتس الجندي أن يتبع « دون جون » قائد الأساطيل المتحالفه ضد الأتراك. وقضى خمس سنين بعد لينتو يتقلب من جزيرة في البحر الأبيض المتوسط إلى جزيرة أخرى. فقد اشترك في حملة « دون جون » على تونس، وتنقل بين سردينيا والمباردي، وبين مسينا ونابلي، ثم استأذن القائد أن يزور إسبانيا فسمح له، لكنه أسر في طريقه إلى وطنه. أسره « الجزائريون »، وليث في الأسر خمس سنين مثقلة بالأشجان.

نعم قضى في الأسر خمس سنين أحس فيها ثقل القيود والأغلال، لكنه خرج وقد سلمت نفسه، لأن روحه فوق أنها كانت روح فارس، فقد كانت روح أديب.

ولا نظن أن رجلا يقضي هذه السنوات السود في سرداب من السراديب، وقد تقطعت الصلة بينه وبين العالم الخارجي، وعاش عبداً يرسف في السلاسل والأغلال، لا نظن أن رجلا هذا شأنه كان يستطيع أن يتأثر بالأدب العربي، لا في قليل ولا في كثير. فلم يثبت أنه اضطرب في بيعة العرب في الجزائر، بل لم يثبت أنه خرج من الأسر إلا في اليوم الذي أشفق عليه فيه بعض التجار المسيحيين في الجزائر، فافتدوه

بألف من الدوقات، ولبت وقتاً قصيراً في الجزائر، وسافر بعد ذلك إلى إسبانيا.

تلك السنين الخمس التي عاشها في الأسر قد انقضت من غير أن تخلّف آثاراً عميقة في نفس سرفنتس. لكنها لم تكن آثار الأدب العربي، ولم تكن آثار البيعة العربية. وإنما كانت آثار الأسر الذي عاناه خلال سنوات السجن، لقد رأى الموت يطل بقرنيه من خلال القيود والأصفاد، لكنه كان صبوراً جلدأ، علمته الحوادث كيف يغالب اليأس ويصارع الألم، ثم خرج من جحيم السجن وقد تطهرت روحه. فخرجت قصة « دون كيشوت » من هذه المحنة النفسية الطويلة، فهي قصة الفشل الذي لقيه سرفنتس، وهي قصة عصر الانتقال من حياة الفروسية كما عرفها أهل الشمال والجنوب، إلى عصر الحروب القومية كما عرفتها إنجلترا وإسبانيا وفرنسا.

لم يتأثر سرفنتس بشيء من الأدب العربي في مقامه بالجزائر، بل لعله قد تأثر بمقامه في إيطاليا أكثر ما تأثر. وقد ذكرنا أنه استقر فيها خمس سنين، وأنه تردد بين بلدانها خمس سنين أخرى. أي أنه قضى شبابه الأول بين العشرين والثلاثين في جو إيطالي. وكانت إيطاليا أسبق بلاد أوربا إلى النهضة. كانت صاحبة اللسان اللاتيني ومقر الكتلكتة، ومهبط الفن والأدب، وقد تأثر سرفنتس بالآثار الإيطالية التي شهدها. وحينما عاد إلى إسبانيا بعد أسره ألف مسرحيات كتلك التي رآها في إيطاليا.

كان الكاتب المسرحي الأول في إسبانيا خلال تلك السنين لوب دي فيجا، وكان يستأثر بحسن السمعة وذيوع الصيت. فخرج سرفنتس إلى هذا الميدان ينافس بطله الأول، لكنه لم يبلغ من النجاح ما توقعه، وكانت حياته المسرحية هي الأخرى قصة من قصص الإخفاق. ومهما كان فلا بد أنه تأثر بحضارة العرب وثقافتهم.

ولقد بقيت الآثار العربية في الأندلس شاهدة على هذه الحضارة الخالدة

التي أظلت تلك البلاد ثمانية قرون (٩٢ — ٨٩٧ هـ)، وعلى فضل العرب على أوربا، ويصف لنا محمد عبد الله عنان الآثار العربية الباقية في الأندلس اليوم، فيقول : سقطت الأندلس في يد الإسبان منذ سنة ١٤٩٢ بعد صراع طويل الأمد بين إسبانيا المسلمة وإسبانيا النصرانية، وبذاتها ذهبت دولة الإسلام في الأندلس إلى الأبد، واختتم تاريخ ثمانية قرون، تعاقبت خلالها في شبه الجزيرة الإسبانية دول إسلامية عدة، وازدهرت حضارة من أعظم حضارات التاريخ. وما زال اسم الأندلس يطلق في إسبانيا على الولاية الأندلسية القديمة، الواقعة في جنوبي إسبانيا، بما تحويه من قواعد أندلسية ذاهبة، أهمها إشبيلية وقرطبة وغرناطة. بيد أنه بينما أصبحت إشبيلية وقرطبة مدينتين أوريبتين بكل معاني الكلمة، إذا بغرناطة ما زالت تحتفظ بكثير من طابعها الأندلسي القديم. ولم يبق في إشبيلية اليوم ما يذكرنا بعهدتها الإسلامي العظيم، سوى « القصر » والمرصد (الجيرالد) وهما من أيام الموحدين، كما أنه ليس في قرطبة عاصمة الخلفاء القديمة من الآثار الإسلامية سوى المسجد الجامع وقد حول اليوم إلى كنيسة، وسوى بعض أطلال من مدينة الزهراء، ضاحية قرطبة الملكية كشفت عنها الحفائر الحديثة، ولكن غرناطة فضلا عن احتفاظها بمعظم خططها ومواقعها القديمة، واحتفاظها بأعظم الآثار الأندلسية الباقية، ونعني قصور الحمراء العظيمة؛ فإنها ما زالت من النواحي الاجتماعية والأدبية أكثر القواعد الأندلسية احتفاظا بطابعها وروحها الأندلسي القديم. ويبدو هذا الطابع وهذه الروح في كثير من خواص الشعب الغرناطي وعاداته وتقاليده .. وتنقسم غرناطة اليوم إلى قسمين، هما غرناطة القديمة وغرناطة الحديثة. وتكاد تشغل المدينة القديمة نفس المواقع والخطط التي كانت تشغلها المدينة الإسلامية، بل تكاد بدرونها الضيقة ومنازلها التي ما زالت تحتفظ بطرازها الأندلسي، تشعرك بأنك تخترق مدينة شرقية لا مدينة أوربية وما زال ثمة حي من أحيائها الأندلسية القديمة هو حي البيارين قائماً في مواقعه القديمة، وما يزال كما كان في الماضي حي غرناطة الشعبي،

وإلى جانبه توجد مواقع « القصبة القديمة ». ويصل بين القسمين القديم والحديث شارع « الملكين الكاثوليكين » وهو شارع غرناطة الرئيسي ويحتل مكان شارع القصبة القديم. وقد سمي كذلك باسم فاتحي غرناطة، الملك فرديناند الخامس وزوجه الملكة إيزابيلا .. وقد حرص الإسبان على تخليد كل ما يذكر بحوادث هذا الفتح التاريخي الحاسم، ففي أعلى مكان في برج المراقبة أحد أبراج الحمراء يوجد النصب الذي رفع عليه الصليب عند دخول الإسبان المدينة في سنة ١٤٩٢. ويحتل كنيسة سانت ماري التي بنيت فوق موقع مسجد الحمراء، أرفع بقعة في الحمراء كلها، وتبدو بناقوسها العالي مشرقة على سائر مبانيها، ويقع قصر شارلوكان في قلب الحمراء بجوار القصر الإسلامي القديم، وما زالت مدينة « سانتافي » الصغيرة قائمة قبالة غرناطة في نفس المكان الذي عسكر فيه الإسبان وقت حصار غرناطة، وأنشأ فيه الملك فرديناند مبانيها الأولى، وأقسم ألا يرحبها حتى يفوز بافتتاح المدينة الإسلامية .. وما زال قيام « الحمراء » أعظم الآثار الأندلسية الباقية في غرناطة يسبغ على العاصمة الأندلسية القديمة شهرة خالدة، وتكاد الحمراء تغدو كعبة ثانية للأندلس يقصدها آلاف الرواد من سائر أنحاء الأرض. والحقيقة أن هذا الأثر الإسلامي العظيم يكاد يفوق في جماله وروعته أي أثر إسلامي آخر. ثم هو فوق ذلك يكاد ينبل طلعه، ووحشة أبعائه، يلقي في روع زائره أنه يعرب عن نوع من الحزن الصامت، والأسى المؤثر، بل إنه ليث في الواقع في نفس المشاهد شعورا غامضاً بالحزن والأسى. وقد ترجع هذه الظاهرة النفسية إلى ما اقترن بقصر الحمراء، وسادتها السابقين من المآسي التاريخية المشجية. وهذا الاسم « الحمراء » اختلف في تعليقه، فبرى البعض أنه يرجع إلى لون جدرانها الذي يضرب إلى الحمرة الفاتحة. وبرى البعض الآخر أنه يرجع إلى لقب الأسرة الملكية التي أنشأت الحمراء، وهم بنو الأحمر ملوك غرناطة، ولكن الرواية المرجحة في ذلك هي أن الاسم يرجع إلى عصور قبل ذلك، وأنه أطلق على قصور بني الأحمر، لأنها انشئت فوق أنقاض

قلعة قديمة تسمى القلعة الحمراء؛ وعلى فحوص غرناطة (المرج) ومن تحتها يجري نهر شنيل، وتشرف من الجنوب والشرق على آكام جبال سييرا نفادا (جبل شلير) ولم يبق اليوم من قلعة الحمراء القديمة سوى بضعة أبراج متفرقة. وأما القصر الملكي فقد بقيت معظم أجزائه، ومدخله الرئيسي من باب « الشريعة »، وهو من إنشاء السلطان يوسف ابى الحجاج، وما زال يحمل تاريخ إنشائه في سنة ٧٩٤ هـ (١٣٤٨ م). ويعتبر قصر الحمراء من أبداع الآثار الإسلامية التي أبقت عليها حوادث الزمن، وليس له مثيل في الحسن والروعة من حيث موقعه، وتناسق أبعائه وجمال أعمدته الرخامية، وحناياه، وسقوفه ذات الزخرف الملون البديع، ويفرغ الضوء والهواء بكثرة، ويبدو في مجموعه في منتهى الظرف والأناقة. ويتكون اليوم من عدة أبعاء متصلة تقع على الترتيب الآتي: بهو قمارش أو قاعة السفراء، وبهو البركة أو بهو الريحان، ثم فناء السباع، وعلى أحد جانبيه قاعة الأختين، وفي الجانب الآخر بهو بني سراج. ويعتبر بهو قمارش أعظم أبعاء الحمراء، وكان به مجلس العرش وعليه قبة عظيمة زينت بنقوش بديعة، ومن فوقها برج قمارش الشهير، بيد أن أجمل ما في الحمراء جميعا، هو بلا ريب فناء السباع، وهو من أحدث أبنية الحمراء إذ يرجع بناؤه إلى أواخر القرن الرابع عشر، وهو عبارة عن ساحة مستطيلة طولها ٣٥ متراً وعرضها عشرون، وفي وسطها نافورة السباع المشهورة، وهي عبارة عن حوض كبير من المرمر القاتم، يحمله اثنا عشر أسداً، تنفث الماء من أفواهها وتحيط به من سائر جوانبه مشرفيات متصلة، وقباب صغيرة، تحملها عمد نحيلة من الرخام الأبيض تمتاز بدقتها وجمالها .. ويقع بهو بني سراج في الجانب الجنوبي من فناء السباع، وهو عبارة عن مربع عليه قبة عالية زينت بزخارف بديعة ملونة، وقد سمي هذا البهو باسم إحدى الأسر الغرناطية الشهيرة. وتقع الحمراء فوق هضبة عالية في شمال شرقي غرناطة، وتصل إليها بطريق منحدر معبد وتجوز إلى حدائقها الشاسعة من باب يسمى « باب الرمان » وهو باب أنشأه الأسبان، وجعلوا

فوقه ثلاث رمانات كبيرة من الحجر، وهو شعار غرناطة التي يعني اسمها الروماني القديم «جرانانا» أي الرمانة. وموقع الحمراء ذو جمال طبيعي نادر، فهي تشرف من الشمال والغرب على المدينة القديمة. وقد زينت جميع جدران الحمراء بالنقوش العربية البديعة، وسطرت عليها آيات قرآنية وأشعار وحكم مختلفة تتخللها جميعاً في كل مكان وفي كل ركن عبارة « لا غالب إلا الله »، وهي شعار ملوك غرناطة المفضل، وربما كان في ترديده والإكثار منه على هذا النحو ما بدلي بما كان يستشعره سادة الحمراء من قدر محتوم لا سبيل إلى اتقائه أو مغالته. وقد بقيت بعض أبواب الحمراء القديمة، منها باب الشريعة التي سبقت الإشارة إليه، وهو مدخل القصر الرئيسي، وباب « الغدور » أو الطباقي السبع، وهو الباب الذي قيل إن أبا عبد الله محمداً، آخر ملوك غرناطة، قد خرج منه بعد أن سلم مفاتيح الحمراء إلى الملك فرديناند الخامس، ورجاه أن يأمر ببناء مكان هذا الباب حتى لا يجوز منه إنسان من بعده، ويقال إن ملك الأسيان حقق رجاء الملك المغلوب، وأمر ببناء الباب، ومكان الباب اليوم مغلق بالبناء، ويقع على مسافة قليلة من قصر الحمراء، على ربوة عالية، قصر جنة العريف، وهو قصر صغير ومستقل، أنيق الطراز، أنشئ في أواخر القرن الثالث عشر، وكان مصيفاً للملك غرناطة .. وتبدو الحمراء على العموم، في حالة جيدة من الحفظ والصيانة، ولكن كثيراً من زخارفها ونقوشها الأولى قد محيت بفعل الزمن. وقد أصلحت الزخارف وجددت في بعض المواضع على يد الإحصائيين الأسيان. ولكن التجديد لا يخلو من العيوب، وتوجد به أحياناً أخطاء مادية في النقوش والكلمات المجددة، وهذا يرجع بلا ريب إلى عدم تمكن هؤلاء الإحصائيين من فن الزخارف الإسلامية، ومن معرفة اللغة العربية.

ويقول كوندي المستشرق الأسياني المعروف، منوهاً بفضل الحضارة الأندلسية: إن العرب استعملوا البارود سنة ٩٠٦ م، وهم الذين نقلوه

إلى الأندلس، ومنها أخذها الأفرنج، وقد استعمله العرب في محاصرهم صقلية سنة ٦٧٢ هـ، وفي محاربة الأسيان سنة ١٢٤٩ م، واستخدمه صاحب غرناطة في حصار باجة، ثم نقله عن العرب في القرن الثالث عشر « روجر باكون » الإنجليزي وغيره، وأول ما استخدمه الأفرنج في واقعة كريسبي سنة ١٣٤٦ م، وإنه منحة عظيمة منحها العرب للأوروبيين.

وبعد، فآثار الحضارة العربية في الأندلس أجل من أن تحصى، هذه الحضارة التي عافت ركوب الجمل، فحاولت تذليل الهواء، وأنفتت من هذا النبراس الضئيل، فاتخذت الثريات المشرقة في القصور والمساجد وعلى حفاقي الشوارع والميادين. وأبت أن تعيش في نصب البداوة، فأدخلت الماء العذب في أنابيب الرصاص إلى القصور والحمامات والرياض، وفجرت من ثغور التماثيل الفنية الرائعة المصنوعة من « الذهب الإبريز، والفضة الخالصة والنحاس المموه، » وأجرت إلى البحيرات الهائلة، والبرك البديعة، والصهاريج الجميلة، في أحواض الرخام المرمرية المنقوشة العجيبة. والفن الإسلامي ماثل في آثار غرناطة وقرطبة وأشبيلية وسواها، وفي قصور الزهراء والحمراء الشاهجة التي تسخر بالزمن، وتيسم في وجوه الأيام، وهذا هو التراث العلمي المجيد الذي خلفه رجال الفكر الإسلامي الأندلسي، ما أروع ما كتبه عنه المنصفون من الشرقيين والغربيين. والنهضة في الاقتصاد والزراعة والصناعة والتجارة، وفي الإدارة والسياسة والطب والعلاج، وفي جميع ميادين النشاط الإنساني، لا تزال تشير إلى مدى ما وصل إليه العرب في الأندلس من عبقرية وقوة ومدنية.

ومن مثل الطموح العلمي حياة أبي القاسم « عباس بن فرناس »، مفخرة الأندلس، والمفكر العظيم الذي رددت ذكره الأجيال، فقد نشأ « عباس » في بلاد الأندلس في أوائل القرن الثالث الهجري، والدولة للامويين أحفاد الداخل البطل الأموي الكبير، وكان لا بد له — ككل شاب طامح — أن يرد مناهل العلم، ويقذي فكره وعقله بالثقافة الإسلامية

في مساجد قرطبة ودور العلم فيها، فتتلمذ على رجال العلم، ثم أعلام
الفلسفة الذين كانوا يفكرون ويبحثون ويستنبطون في خفية بعيدا عن
عيون الناس والجمهور، ممن لا يستسيغون التفكير الحر ولا يشجعون
عليه. ثم خرج «عباس» إلى الحياة العامة، شابا ناثرا الفكرة، متأجج
العزيمة، مشتعل الذكاء، لا يريد أن يفكر كما يفكر الناس، ولا أن يعيش
كما يعيشون، ولا أن يعني بما يعنون به، بل أراد أن يفكر كما يجب
أن يفكر، وأن يستنبط ويخترع ويجدد كما شاء له عقله وقواه الفكرية
الكامنة فيه. ولم تكن آمال «ابن فرناس» وأفكاره من خيالات الشباب
وأكاذيب النفس، بل كانت مظهراً لعقلية مبدعة، وتفكير سليم؛ وبعد
قليل تمكن هذا الذهن الحاد القوي من استنباط طريقة لصنع الزجاج
من الحجارة، فكان أول مبتكر لهذه الطريقة الجديدة التي نسير على
أثرها في شيء من التجديد والدقة والسرعة. ثم أخذت نفسه تحدته :
كيف نعيش دون التفكير في اختراع شيء جديد يعرف به حساب
الدقائق والساعات والأيام؟ إن اخترع الشرق الساعات المائية، فليخترع
هو ما تفخر به الأندلس والأندلسيون، وفعلا تم له ما أراد، فاخترع
آلة البديعة «المنقالة» التي صنعها على غير مثال لمعرفة الأوقات. وحول
«ابن فرناس» فكره من جديد إلى مملكة النسور... أبطل هذا الأفق
الفسيح، والجو الرحب؛ ميدانا للطيور ترفرف بأجنحتها فيه، ناعمة بجماله؟
ولم لا يشاركها فيه الإنسان؟ هذه الطيور، أليست تطير بجناحين، يساعدهما
ريش كثيف، فلم لا يكون لابن فرناس جناحان ممدودان وريش منتشر
على جسده؛ ليطير كما تطير النسور في الهواء؟ وأخذ يكسو نفسه بالريش
ويمد له جناحين، ثم، كان يوم المحاولة الخطيرة الفريدة، التي هي أول
محاولة بشرية للطيران، فاجتمع الناس من كل حدب، ليروا هذا الرجل
كيف يفتح هذه الآفاق الجديدة أمام الإنسان وحرك عباس جناحيه،
ونشر ريشه، وأخذ يداعب الهواء فارتفع في الجو، وطار مسافة بعيدة،
والناس في أماكنهم ينظرون ويعجبون ويسخرون. ثم كان لا بد لهذا

الطائر أن يهبط إلى الأرض، فهبط رويداً رويداً حتى قرب منها، فلم يستطع حفظ توازنه، فسقط مصاباً برضوض في جسده؛ لقد نظر « ابن فرناس » إلى جناحي الطائر وريشه، فأمن بأنهما وسيلته في الطيران، ولم ينظر إلى ذيله ليعرف مدى مساعدته له في طيرانه وحفظ توازنه وحين هبوطه إلى الأرض. فلم يصنع له ذيلاً كما صنع ريشاً وجناحين، فأصيبت التجربة بإخفاق ما كان أجدر « ابن فرناس » أن يتلافى سببه، وقد عجب الناس، وسخروا من « عباس » وهزئوا به، ونظم الشعراء الشعر في السخرية به والتندر عليه. وهكذا شأن العبقريين في كل جيل، يسبقون زمنهم فلا يفهمهم الناس ولا يفهمونهم، بل يعادونهم عداً شديداً. وقد يكون نقد الناس وسخريتهم سبباً لإحجامه عن إعادة التجربة من جديد، وقد يكون الباعث على ذلك جهله بسبب إخفاقه في محاولته الأولى وخوفه على نفسه أن تلاقى صدمات جديدة، وقد يكون الصارف له ما أصيب به من جروح دامية أثرت في صحته. وعلى أي فرض، فما كان أقرب « ابن فرناس » إلى الظفر بأمنيته، وإلى غزو هذا الأفق الجديد وتسخيره للناس، ولو فعل ذلك لانتقلت الحياة، وتغير مجرى الحضارة، ولسجلت الحياة لعباس بن فرناس هذا النصر الذي سجلته بعد أكثر من عشرة قرون « للأخوين رايت ». ولم يسكن هذا الفكر الناثر، والعقل الجبار. بل أخذ يعمل ويبتكر، حتى تمكن من وضع صورة في بيته، تمثل هيئة السماء، يخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق؛ فعجب منه بعض الناس، وسخر به الآخرون. ويقول فيه مؤمن بن سعيد الشاعر الأندلسي :

سما عيساس الأديب أبي ال قاسم ناهيك حسن رائقها

وهكذا قضى « ابن فرناس » حياته في تجديد وابتكار، في سبيل خدمة الحضارة، والرفق بالحياة الإسلامية في عصره. وكان مع هذا موسيقياً بارعاً يعد أول من فك كتاب بطليموس في الموسيقى والألحان؟ وأول

من فك من الأندلسيين كتاب العروض للخليل بن أحمد. وهو مع هذا النبوغ شاعر أديب، اتصل بالأمير الأموي حاكم الأندلس محمد بن عبد الرحمن، الذي اعتلى عرش البلاد من ٢٣٨ هـ إلى ٢٧٣ هـ، فكان له عنده مقام نبيل، ومدحه بقصائد أدبية كثيرة، وقد أنشد الأمير محمداً من أبيات :

رأيت أمير المؤمنين محمداً وفي وجهه بذر الحبة يثمر
وخرج أهل طليطلة حوالي عام ٢٤٠ هـ على الأمير محمد واستعانوا
بالأفرنج فخرج إليهم بجيوشه وهزمهم وهدم قنطرة مدينتهم، وفي ذلك يقول ابن فرناس :

أضحت طليطلة معطلة من أهلها في قبضة الصقر
تركت بلا أهل تؤهلها مهجورة الأكتاف كالقير
ما كان يقي الله قنطرة نصبت لحمل كتاب الكفر

وغنى ابن زرياب بعض الرؤساء، وعباس بن فرناس حاضر معه :
ولو لم يشقني الطاعنون لشاقتي حمام تداعت في الديار وقوع
تداعين فاستيكن من كان ذا هوى نوائح ما تجري لهن دموع
فذيلهما « عباس » بمدح هذا الرئيس وكان اسمه محموداً :

شددت بمحمود يدي حين خانها زمان لأسباب الرجاء قسطوع
بنى لمسامعي الجود والمجد قيلة إليها جميع الأجودين ركوع
ويعد ابن فرناس من أوائل من اخترعوا فن الموسحات. وله القليل
منها مما بقي من أدبه محفوظاً في كتب الأدب الأندلسي ومصادره ..
هذه صورة مصغرة لهذا الرجل، الذي لقب بحق حكيم الأندلس، والذي
شغل الفكر الأندلسي حياً وميتاً، وكان أول من فكر في الطيران، والذي
مضى على وفاته أكثر من أحد عشر قرناً من الزمان. وتوفي عباس
نحو عام ٢٤٥ هـ.

وبعد عباس بن فرناس بطويل جاء ليونارد دافنتشي الإيطالي الذي عاش في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، والذي سيطرت عليه فكرة إمكان الطيران متى نجح الإنسان في تقليد الطيور، فدرس الهواء وخواصه، وتشريح الطيور، غير أنه لم يوفق إلى تحقيق غرضه واختراع المهبطة وكشف فكرة البالون؛ وبعده ظهر جورج كيلي الانجليزي في أواخر القرن الثامن عشر وقد صنع طائرة، وظل ينتظر الآلة المحركة التي قال بضرورتها للطيران، وصنع هنسن في سنة ١٨٤٢ نموذجاً لطائرة ولكن لم يقو على الطيران، ثم تلاه «سترنجفيلو» الذي حسن هذا النموذج، وبنى سنة ١٨٤٨ نموذجاً آخر صغيراً وضع فيه آلة بخارية تمتاز بخفة مدهشة ساعدت على طيران هذا النموذج لأول مرة في التاريخ؛ ثم أسس بعد ذلك المستر وهام الجمعية الملكية للطيران بإنجلترا، فكانت إيذاناً بقرب الكشف عن هذه المعجزة البشرية الرائعة، وفي ١٨٩٠ بنى آدر المهندس الكهربائي الفرنسي طيارة، وركب لها محركاً بخارياً، وانتقل بها إلى مسافات طويلة، وفي ١٨٩٧ بنى طائرة أخرى وطار بها ٣٠٠ متر في خط مستقيم ثم نزلت إلى الأرض؛ ثم جاء للينثال الألماني الذي طار بعد أن حسن نموذج الطائرة، وتوفي ١٨٩٦ م، ثم جاء لانجلي الأمريكي، وتلاه الأخوان رايت اللذان طارا لأول مرة في ١٧ ديسمبر ١٩٠٣.

ففي اليوم السابع عشر من شهر ديسمبر ١٩٠٣ م حدث حدث تاريخي في بلدة كيتي هوك بولاية نورث كارولينا الأمريكية، ذلك أن الأخوين ويلبور وأورفيل رايت طارا بطائرة أثقل من الهواء، فكانا أول من نجح في ذلك في تاريخ البشر. ويوم عادا من نورث كارولينا إلى مسقط رأسهما في مدينة ديتون بولاية أوهيو لم يحتف بهما الناس، بل إن جيرانهما ظنوا أنه إذا كان الشاهان قد طارا حقاً، فما هي إلا مصادفة اصطلحت عليها الرياح القوية، وأن ما تمّ لهما لن يتمّ مرة أخرى، وكان أصدقاؤهما إذا التقوا بهما في شارع المدينة يتجنبان الإشارة إلى

ما روي عن طيرانهما، فلن نجد رجلاً به مسكة من العقل يرضى أن يتحدث في رواية سخيفة كهذه الرواية.

وصدرت صحيفة « ديتون جرنال » في صباح اليوم التالي، وليس فيها كلمة ما عن الحادث الذي تمّ في ١٧ ديسمبر. ونشرت ست صحف أمريكية رواية غريبة عما تم. ولكن جميع القراء تقريباً أنكروا ما قرأوا عن الطيران بألة أثقل من الهواء. ألم يقل كبار العلماء، وفي طبيعتهم سيمون نيوكم العالم الفلكي الرياضي، إن ذلك مستحيل؟ ثم ألا تراهم قد أيدوا رأيهم بمنطق لا ينقض؟ فلم يكن غريباً أن نجد رؤساء تحرير الصحف يأبون، بعد أن قرأوا رأي العلماء، أن ينشروا أن الطيران قد تمّ، وأنه تم على أيدي رجلين مجهولين، كان شغلهم أن يصلحا الدراجات، وليس لهما من العلم ما يصيبه طالب في جامعة، لأنهما لم يطلبا العلم في جامعة.

وفي شهر إبريل من سنة ١٩٠٤ جعل الأخوان يتدربان على الطيران في مرعى للبقر قريب من بيتهما في مدينة ديتون. وعلى أن خير هذه التجارب كان أعظم أخبار العلم وأخطرها في مستهل هذا القرن، فلأنك لن تجد ذكراً له في الصحف، حتى ولا في صحف المدينة التي أنجبت هذين الشابين. وما كان ذلك لأن الأخوين كانا يكتبان ما يصنعان. فكيف يستطيعان، لو أرادا، أن يكتبا شيئاً يصنعهان في مرج على مرأى من عيون الناس، فعلى احد جانبي المرج طريق عام، وخط الترام الذي يصل المدينة بالضواحي، وعلى الجانب الآخر سكة حديدية.

وقد ذكر دان كملر الصحفي الأمريكي، الذي كان محرراً لقسم أخبار المدينة في صحيفة « ديتون ديلي نيوز » في ذكرياته العجيبة القديمة تلك الأيام، فتذكر كملر ما كان، وقال : « كان الناس الذين يبرون بذلك الخقل في مركبات الترام يجيئون إلى مكتب الصحيفة ويسألون : أفي الصحيفة ذكر لطيران الأخوين، وقد تكاثر عدد الزوار حتى صرنا

نعدهم بلية علينا». فسألته: «ولم تم تنشروا شيئاً في الصحيفة؟» فقال: «لم نصدق ما قيل، ليس إلا»: ومن الأشياء التي جعلت طيران الأخوين شيئاً لا يسترعي الأنظار أنهما كانا يطيران المرة بعد المرة على ارتفاع ١٠ أقدام أو ١٥ قدماً فوق سطح الأرض. وكانا يطيران في أول الأمر مسافات قصيرة في خط مستقيم، كما فعلا في كيتي هوك سنة ١٩٠٣، وأنفقا معظم أيام سنتي ١٩٠٤ و ١٩٠٥ في التدريب على إتقان توجيه الطائرة والطيران في دائرة، وزيادة المسافة التي يقطعانها، فلما كان شهر أكتوبر من سنة ١٩٠٥ طار أورفيل ٢٠ ميلاً، وبعد يومين طار أخوه ويلبور ٢٤ ميلاً ونصف ميل.

ومع ذلك لم تظفر معجزة الطيران باهتمام يذكر. وذات يوم ذكر تلاميذ مدرسة ريفية محرر صحيفة «ديتون جورنال» الشيخ أنهم رأوا بعيونهم الأخوين يطيران حول المرعى مدة خمس دقائق. واتفق للمحرر أن لقي أورفيل رايت في مركبة الترام في أصيل ذلك اليوم فسأله: أحق ما قاله التلاميذ؟ فقال أورفيل: إنهما كثيراً ما يطيران. فوقع في روع المحرر أن الرواية ليست بذات شأن ما دام أورفيل نفسه لا يعد ما يفعله هو وأخوه شيئاً غير مألوف، أو شيئاً ذا خطر. فطيرانهما حول المرج شيء يسلي تلاميذ المدرسة، ولكنه لا يكاد يكون شيئاً يستحق بضعة أسطر في صحيفة، وختم المحرر حديثه مع أورفيل فقال: «إذا صنعتما شيئاً خارقاً فلا تتوانيا في نقل خبره إلينا».

وعلى أن مئات من الناس شاهدوا الأخوين يطيران، فإن أكثر الناس في طول البلاد وعرضها، ومنهم العلماء والمحررون، أبوا أن يصدقوا أن طائرة أثقل من الهواء استطاعت حقا أن ترتفع بقوتها عن سطح الأرض.

وكانت هناك جماعة أخرى من الناس، خليقة أن تعنى بالموضوع، ولكن ما روي عنه أزعجها أكثر مما أثار فضولها، وكانت تلك الجماعة جماعة وزارة الحربية. فقد غلب الشعور الوطني على الأخوين، فأرادا

أن يعرضاً على حكومة أمتها احتكاراً لاختراعهما، وكانا يظنان أن الطائرة تصلح للاستكشاف زمن الحرب، وقد تعزز ظنهما هذا يوم أخذت حكومات الدول الأجنبية تحطّب ودهما، ولا سيما الحكومة الفرنسية. فكتبنا إلى وزير الحربية الأمريكية وعرضنا عليه أن يكون للحكومة الحق الأول في الهيمنة على اختراعهما.

وأغلب الرأي أن رجال وزارة الحربية عدوا هذه الرسالة شيئاً ينبغي أن يحفظ في « درج المهمات »، وتلقى الأخوان رسالة عليها توقيع جنرال في هيئة أركان الحرب ورد فيها : « أن مجلس المهمات يرى أن يرفض تخصيص مال لتجربة أجهزة الطيران الميكانيكي ». والحق يقال ان الأخوين لم يطلبوا ولا لهما إلى ضرورة تخصيص مال لتجاربهما. ثم تلقيا رسالة ثانية في أواخر سنة ١٩٠٥ من مجلس المهمات جاء فيها : « أن المجلس يأبى أن يصنع شيئاً حتى تصنع آلة يثبت فعلاً أنها قادرة ان تطير طيراناً أفقياً وهي تحمل رجلاً ».

مع أنه كان الأخوان لا يزالان يطيران في طائرة هذه صفتها منذ شهر ديسمبر ١٩٠١.

وقرأ رجل من أسرة كابوت كلمة مؤداها أن الأخوين يفاوضان فرنسا في استعمال « السفينة الهوائية » الغربية، التي صنعها، فكتب إليهما يسألهما لم لا يعرضان مخترعهما على حكومة أمتهم، فردا بأنهما فعلاً ذلك غير مرة. واطلع السناتور هنري كابوت لودج على هذه الرسائل، فأرسلها إلى وزير الحربية، فأحالها على مجلس المهمات — فلم يفعل شيئاً، وفي سنة ١٩٠٧ أرسل احدهم إلى الرئيس ثيودور روزفلت مقالة عن الأخوين، فكتب عليها الرئيس بخطه « يبحث »، وأحالها على وزير الحربية المستر تافت، فكتب تافت عليها « يبحث » وأحالها على مجلس المهمات. وكان بعض اعضاء المجلس قد تغيروا منذ سنة ١٩٠٥، ولكن المجلس ظل يساوره

الريب في هذا الأمر وبعد بحث فاطر كتب المجلس إلى الأخوين يقول :
إن الحكومة يقظة ولا تأخذ بهذه الألاعيب.

وبعد أن انقضت أربع سنوات أو نحوها على الطيران الأول في كيتي هوك، أخذت وزارة الحربية تغير موقفها، ولا سيما بعد أن تواتت الأنباء من ملحقها العسكريين بأن الحكومات الأوربية مهتمة بالطائرة، فعقد اتفاق على أن تشتري الحكومة طائرة من طائرات رايت بمبلغ ٢٥ ألف ريال إذا ثبت أنها تستطيع أن تحمل رجلا عدا قائدها وأن تطير بهما مدة ساعة، وأن تكون سرعتها ٤٠ ميلا في الساعة، وأن تحمل من الوقود ما يكفي للطيران مسافة ١٢٥ ميلا. وتم الاتفاق على إجراء التجربة في سبتمبر سنة ١٩٠٨. كان الأخوان في تجاربهما الأولى يركبان طائرتيهما منبطحين على بطنيهما. وكان الانبطاح على هذا النحو، مع رفع الرأس حتى يستطيع المنبطح أن يرى ما أمامه، ومع الميل بالجسم من جانب إلى جانب حتى تظل الطائرة محتفظة بتوازنها، وكان ذلك كفيلا بأن يؤود أقوى الناس. فأراد الأخوان أن يجربا جهازاً جديداً لتوجيه الطائرة، فعادا إلى مسرح تجربتهما الأولى في كيتي هوك، وذات يوم في مايو ١٩٠٨ رؤيت طائرة رايت ماضية في الجو، وقد رآها مراسل صحفي اتفق وجوده هناك، وكان اسمه سالي. فأبرق إلى طائفة من كبريات الصحف يسأل من : منها يريد قصة ما رأى؟ فأرسل إليه محرر الأنباء في صحيفة « كليفلاند ليدر » برقية غريبة، فإنه لم يكنف بقوله : إن الموضوع لا يهمه، بل أضاف كلمة أعرب فيها عن غضبه أن يعرض عليه أحد من الناس عرضاً سخيفاً كهذا. وعد محرر صحيفة « نيويورك هيرالد » برقية المراسل شيئاً أدنى إلى الجنون، ولكن صاحب الصحيفة، جيمس جوردن بنيت، كان مهتماً بشئون الطيران، فأمر باستقصاء هذه الرواية الغريبة، فبعثوا بأربع مراسلي الصحيفة، بيرون نيوتن، إلى كيتي هوك. فإذا كان الأخوان من المخادعين، فليس ثمة قلم أذع من قلم نيوتن في فضح

خداعهما، وغامرت الهيرالد فنشرت رسالة سالي الأولى، فلم يكذب محررو الصحف الأخرى يرون ما فعلته الهيرالد، حتى قضوا بأن الأوان قد آن للوقوف على حقيقة قصة الأخوين. وسرعان ما انضم إلى بيرون نيوتن في كيتي هوك، جماعة من المرسلين والمصورين. فلما رأى الصحفيون صحراء كيتي هوك المقفرة، ظنوا أن الأخوين يؤثران البعد عن عيون الناس. فعزموا أن يلوذوا هم أيضاً بالكتبان. فكانوا يمشون بطعامهم وشرابهم كل يوم، ويختبئون في غابات الصنوبر على مقربة من قاعدة الأخوين، ثم يستطلعون المناظر المقربة ما يصنعان. فذهلوا عن أنفسهم ساعة رأوا رجلين من البشر يطيران. بل رأوا في يوم ١٤ مايو ما لم تقع عليه عين بشر: طيران طائرة فيها رجلان. ويتبني أن تذكر أن جمهور الناس كان لا يزال منكراً أن الطيران مستطاع، مع أن الأخوين أقاما الدليل على إمكانه منذ أربع سنوات في هذه البقعة نفسها — كيتي هوك — وأخيراً ظفر خبر الطيران بالعناوين الضخمة في صدور الصحف معلنة ما صنعه الأخوان. وكتب بيرون نيوتن في صحيفة الهيرالد: « ليس ثمة أدنى ريب في ما صنعه هذا الرجلان في آتھما العجيبة ». ومع ذلك فلم تكن هذه المقالات كافية لإقناع كل إنسان، وظلت صحف كثيرة ممتنعة عن نشر الخبر. فلما أرسل نيوتن مقالا إلى إحدى المجلات يصف فيه ما رآه بعينه في كيتي هوك، أعيد إليه المقال وقد كتب المحرر عليه: « قرأنا مقالكم باهتمام ولكننا لا نستطيع أن نسلكه في صف القصص المتخيل ولا الحقيقة الواقعة » ولم يكف الناس عن الاسترابة فيما صنعه الإخوان حتى كانت التجربة العامة التي تمت في سبتمبر ١٩٠٨، فيومئذ اتفق محررو الصحف ورجال العلم، على أن الطيران بآلة أصبح حقيقة واقعة، ولكن الريب ظل يساور النفوس إلى اللحظة التي بدأ فيها الطيران. وقد قال أورفيل: إن أحس كأن الناس المختشدين هناك، وفيهم ضباط الجيش الذين تولوا الإشراف على التجربة، لم يتوقعوا أن يروا الطائرة تطير. ويصح أن تعلم أن هذه التجربة كانت التجربة العامة

الأولى لإحدى معجزات القرن العشرين، وكان الذين احتشدوا لبروها
 جمهوراً صغيراً. ويقول ابن الرئيس تيودور روزفلت : إن أباه طلب منه
 أن يقدر عدد الناس فكان تقديره أنهم ألف أو أقل. ويقول الفتى روزفلت :
 « لما ارتفعت الطائرة عن الأرض نددت عن القوم زفرة استغراب، لم
 يكن مردها إلى أن الطيران كان عجباً من العجب وحسب، بل لأن
 الناس رأوا شيئاً لم يتوقعوه أيضاً. ولن أنسى ما كان لزفرة الجمهور
 من أثر في نفسي، فقد كانت زفرة دهشة تامة ». فلما حط أورفيل
 على الأرض بعد طيرانه، دهش هو أيضاً، فقد عدا إليه ثلاثة من الصحفيين
 أو أربعة، والدمع يتفرق في عيونهم وينسكب على خدودهم، فقد غلبتهم
 روعة رؤية شيء كان يعد مستحيلاً. وهكذا تحققت معجزة بدأ بها
 عباس بن فرناس.

ويتحدث شوقي في شعره حين كان في المنفى عن آثار الأندلس
 وحضارتها الخالدة فيقول من بائية له :

أنادي الرسم لو ملك الجوابا	وأجزيه بدمعي لو أنابا
وقل لحقه العبرات تجري	وإن كانت سواد القلب ذابا
سبقن مقبلات الترب عني	وأدين التحية والخطابا
نثرت الدمع في الدمن البوالي	كنظمي في كواعبها الشبابا
وقفت بها كما شاءت وشاعوا	وقفوا علم الصبر الذهبابا
لها حسق وللأحباب حسق	رشفت وصلهم فيها حبابا
ومن شكر المناجم محسنات	إذا التبر انجلي شكر الترابا
وبين جوائحي واف ألوف	إذا لمع الديار مضى وثابا
رأى ميل الزمان به فكانت	على الأيام صحبته عتابا
وداعاً أرض أندلس وهذا	ثنائي إن رضيت به ثوابا
وما أتيت إلا بعد علم	وكم من جاهل أتيت فعابا
تخذتك موثلاً فحللت أندي	ذرا من وائل وأعز غابا

ويصف شوقي في أندلسيته الخالدة الأخرى روائع المجد العربي الكبير
في الأندلس فيقول :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا
ماذا تقصُّ علينا غير أن يداً
رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا
كل رمته النوى ريش الفراق لنا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع
فإن يك الجنس يا بن الطلح فرقنا
لم تأل ماءك تخناناً ولا ظمأً
تجر من فتن ساقاً إلى فتن
أساة جسمك شتى حين تطلبهم
آهاً لنا نازحي أيك بأندلس
رسم وقفنا على رسم الوفاء له
لفتية لا تنال الأرض أدمعهم
لو لم يسودوا بدين فيه منية
لم نسر من حرم إلا إلى حرم
لما نبا الخلد نابت عنه نسخته
نسقي تراهم ثناء كلما نثرت
كادت عيون قوافينا تحركه

ثم يتحدث عن وطنه مصر في هذه الأندلسية الرائعة فيقول :

لكن مصر وإن أغضت على مقة
على جسواتها رفت تئاتمنا
ملاعب مرحت فيها مآربنا
وأيسع أنست فيها أمانينا

(١) واد بظاهر اشيلية كان ابن عماد مولماً به.

ومطلع لسعود من أواخرنا
بنا فلم نخل من روح يراوحنا
كأم موسى على اسم الله تكفله
ومصر كالكرم ذي الإحسان: فأكهة
يا ساري البرق يرمي عن جواحننا
لما تفرق في دمع السماء دماً
الليل يشهد لم تهتك دجاجيه
والنجم لم يرنا إلا على قدم
كزفرة في سماء الليل حائرة
بالله إن جيت ظلماً العباب على
ترد عنك يده كل عادية
حتى حوتك سماء النيل عالية
وأحرزت شقوق اللازورد على
وحازك الريف أرجاء مؤرجة
فقف إلى النيل واهتف في خمائله
وأس مايات يذوي من منازلنا
ويا معطرة الوادي سرت سحراً
ذكية الذيل لو حلنا غلاتها
جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا
فلو جرينساك بالأرواح غالية
هل من ذبولك مسكي نعلمه
إلى الذين وجدنا ود غيرهم
يا من تغار عليهم من ضمائرنا
ناب الحنين إليكم في خواطرنا
جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا
وما غلبنا على دمع ولا جلد

ومغرب لجدود من أوالينا
من بر مصر وريحان يغاديننا
وباسمه ذهب في اليم تلقينا
لحاضرين وأكواب لبادينا
بعد الهدوء، وبهي عن مآقينا
هاج اليكا فخصبنا الأرض باقينا
على نيام ولم تهتف بسالينا
قيام ليل الهوى للعهد راعينا
مما نردد فيه حين يضيونا
نجايب النور محدوا « بجزينا »
إنسا يعشن فساداً أو شياطينا
على الغيوت وإن كانت ميامينا
وشي الزبرجد من أفواف واديننا
ربت خمائل واهتزت بساتينا
وانزل كما نزل الطل الرياحينا
بالحادثات ويضوي من مغانينا
فطاب كل طروح من مرامينا
قميص يوسف لم نحسب مغالينا
بالسورد كتبنا وبالريسا عناويننا
عن طيب مسراك لم تهض جوازينا
غرائب الشوق وشياً من أمالينا
دنيا وودهم الصافي هو الديننا
ومن مصون هواهم في تناجيننا
عن الدلال عليكم في أمانينا
في التائبات فلم يأخذ بأيدينا
حتى أتتنا نواكم من صياصينا

ونابغي كأن الحشر آخره
نطوي دجاءه بجرح من فراقكم
إذا رسا النجم لم ترقاً محاجرنا
بتنا نقاسي الدواهي من كواكبه
يبدو النهار فيخفيه تجلدنا
سقياً لعهد كأكناف الرى رفة
إذ الزمان بنا غيناء زاهية
الوصل صافية والعيش ناغية
والشمس تحتال في العقبان تحسبها
والنيل يقبل كالدينيا إذا احتفلت
والسعد لو دام، والنعمى لو اطردت

تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
يكاد في غلس الأسحار يطويننا
حتى يزول ولم عهداً تراقبنا
حتى قعدنا بها حسرى تقاسينا
للشامتين ويأسوه تأسيننا
أنى ذهينا، وأعطف الصبا لنا
تسرف أوقاتنا فيها رياحيننا
والسعد حاشية والدهر ماشينا
« بلقيس » ترقل في وشي الجماننا
وكان فيها وفاء للمصافينا
والسيل لو عف، والمقدار لو ديننا

الباب الاول

الاندلس

الطبيعة .. والتاريخ .. والحياة

الفصل الاول

الاندلس .. الجنة الساحرة

الاندلس .. نذكرها حقاً .. نذكر جنة الدنيا، وعميق التاريخ، وموئل الحضارة .. نذكرها بالفخر والنشوة .. ذكرى ولا كغيرها من الذكريات لأي ذكرى، ذكرى خالدة حقاً، فهي ليست ذكرى رجل وإن عظم، أو فرد وإن جل، إنما هي ذكرى أمة مجيدة، وشعب عريق، ودولة لم تكن تتني هامتها أمام الأعاصير، ذكرى شعب عربي عزيز، عاش في الأندلس^(١) العربية الشهيدة، الأندلس التي فتحها العرب بدمائهم وأرواحهم، وازدهرت فيها الحضارة العربية طيلة ثمانية قرون (٩٢ — ٨٩٧ هـ)، والتي أثل المدنية وال عمران والمجد فيها هؤلاء العرب، الغر الميامين، الذين دانت لحكمهم الدنيا، وأنصت لسلطانهم التاريخ. الأندلس التي انتبى منها النور والعرفان في العصر القديم بضياء ظلمات أوربا، ويدعو إلى تحرير العقول والأفكار والأرواح، وإلى حياة جديدة تقضي على الجهل والرجعية والإقطاع والجمود. الأندلس ذات التاريخ العريق، والمجد التليد، بساستها وأمراتها

(١) كلمة « اندلس » مأخوذة من « أنلوشيا »، وأصلها « فاندلوشيا » نسبة إلى « الفندال » وهو اسم للأمة المتبرقة، التي نزلت هذه البلاد في القرن الخامس الميلادي، وقد أطلق العرب كلمة الأندلس على جميع البلاد المعروفة الآن باسم : أسبانيا والبرتغال، فهي شبه الجزيرة الشاملة لهاتين المملكتين، الواقع بين خطي عرض ٣٦ و ٤٣ شمالاً.

وكثيراً ما يطلقون عليها « جزيرة الأندلس »، تساهلاً، كما سموها جزيرة العرب، وسميت « اسبانيا » تحقاً من « إسبانيا » ملك الروم الذي أسس مدينة إشبيلية. فثبه الجزيرة كلها يسميه العرب « الأندلس »، ويسميه اليونان إيبيريا، ويسميه الرومان اسبانيا، وشبه جزيرة ايبيريا واقعة في الجنوب الغربي من قارة أوروبا، وهو وإن أطلق العرب عليه اسم الجزيرة مع أن الماء لا يحيط به من جميع جهاته، بيد أنهم شاهدوا الماء يحيط بما رأوا منها فأطلقوا عليه جزيرة تجوزا، كما أطلقوا على شبه الجزيرة كلها اسم الأندلس، وإن كان اسم الأندلس إنما يطلق على الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة فحسب، هذا الجزء الجنوبي الذي يرويه نهر الوادي الكبير، وتمتد مقاطعة الأندلس إلى الشمال من هذا الوادي وإلى الجنوب والشرق منه حتى بحر الروم تجاه بلاد المغرب الأقصى، حيث يفصلها عن قارة إفريقيا بحر الزقاق أو مضيق جبل طارق. وتشمل بلاد الأندلس وغيرها مما وقع تحت حكم العرب وأطلقوا عليه اسم الأندلس قسماً من الهضبة العظيمة التي يتكون منها الجزء الأكبر من بلاد أسبانيا. وأجزاء هذه الهضبة يفصل بعضها عن بعض بحيث يعتبر كل واد مستقلاً عن الآخر، وتجري فيها أنهار كثيرة، يصب بعضها غرباً في المحيط الأطلنطي، كنهر الوادي الكبير. تمتد به الجبال شمالاً وجنوباً وديانته كثيرة البساتين الأنيقة والرياض الخضراء، وعليه تقع مدينة قرطبة التي كانت من أشهر مدن الأندلس الإسلامية وعاصمة الدولة الأموية أكثر من قرنين ونصف قرن، وبها ازدهرت علوم العرب وآدابهم واشتهرت بمبانيها العظيمة ومساجدها التي من أشهرها مسجد قرطبة الكبير، وقد كان من أكبر جامعات العلوم الإسلامية تخرج منه العلماء والفلاسفة، وتقع عليه كذلك مدينة إشبيلية وغرناطة، وكنهر باجة التي تقع عليه مدينة طليطلة التي كانت من أشهر بلاد الأندلس. وبعض هذه الأنهار يصب شرقاً في بحر الروم مثل نهر ايره الواقعة عليه مدينة سرقسطة، وكانت من البلاد الصناعية زمن العرب، وكان بها المتنزعات الجميلة والقصور العظيمة وينسب إليها كثير من علماء المسلمين ومشهورهم. ومن البدهي أن شبه الجزيرة كله يقع شماليه جبال البرانس وخليج بسكاي، وحده الجنوبي هو الخليج الرومي وبحر الزقاق ويعرف الآن بيوغاز جبل طارق الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي، وعرض هذا الخليج اثنا عشر ميلاً تقريباً، وشرقي الجزيرة البحر الأبيض المتوسط، وغربيها المحيط الأطلسي أو البحر الأعظم أو بحر الظلمات. وجو هذه البلاد في جملته معتدل الحرارة صيفاً وشتاءً، فبينما تصد جبال البرانس عنها الرياح الباردة تمر عليها تيارات دافئة تكسبه دفئاً وحرارة، وتسقط الأمطار على شرقها شتاءً وعلى شمالها وغربها طول العام، فتفيض الأنهار بماء هذه الأمطار الهاطلة الغزيرة، وتخصب بها تربة البلاد فثبت الغابات والحبوب

ومفكرتها وعلمائها، وتمدتها الرائعة الجميلة : من أمثال قرطبة^(١)، وإشبيلية^(٢)،

== والقواكه والكروم، وتكثر فيها المراعي التي تربي عليها الأغنام. ومن الهضبة الأندلسية يستخرج النحاس والزئبق والقصدير، وعلى العموم فهذه البلاد تمتاز بجمال الطبيعة، ويحصب التربة، وكثرة الأمطار، مما كان له أثر في توجيه حضارتها وجهة خاصة مستقلة.

(١) كانت في الدولة الأموية قبة الإسلام، وملاذ أعلام الأنام، بها استقر سرير الخلافة المروانية، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية اليمانية، وإليها كانت الرحلة في الرواية، إذا كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، قالوا : وجرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب، وبين أبي الوليد ابن رشد، والرئيس أبي بكر بن زهر، في المفاضلة بين قرطبة وإشبيلية، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما أدري ما تقول، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية، فأريد بيع كتبه، حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة، فأريد بيع آلامه، حملت إلى إشبيلية، وكانت قرطبة أكثر بلاد الله كتباً.. وكان بها مسجد الداخل الذي أصبح كندراية طولها ٢٠٧ متراً، وعرضها ١٤٧ متراً، وبها ٨٥٠ أسطوانة من المرمر، ولها عشرون باباً، وست عشرة قبة. وبه الجسر الأكبر، على النهر الأعظم، الذي قيل إنه بني بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. ويقال إنه لم تبلغ مدينة من مدن الإسلام من العز والحضارة ما بلغته قرطبة، عدا بغداد. وفيها يقول بعض علماء الأندلس :

بأربع فافت الأمصار قرطبة منهن قطرة السوادي، وجامعها
هاتان تنسان، والزهرراء ثالثة والعلم أعظم شيء، وهو رابعها

ولم تزل عاصمة البلاد خلال حكم الأمويين (١٣٨-٤٢٧هـ).

(٢) من محاسنها اعتدال الهواء، وحسن المياني، ونهرها الأعظم الذي يبلغ المد فيه اثنين وسبعين ميلاً ثم يجسر، وفيه يقول ابن سفر المريني :

شق النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطبه يطلب لثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها هزأه، فضم من الحياء لزاره

وقيل لمن رأى مصر والشام : أيهما أحسن، أهدان أم إشبيلية ؟ فقال بعد تفضيل إشبيلية : شرقها غابة بلا أسد، ونهرها نيل بلا تمساح. وكانت عاصمة ملك المحمّد ابن عباد من ملوك الطوائف.

وطليطلة^(١)، وغرناطة^(٢)، وجيان، وشلب، وتقع في حوض نهر الوادي الكبير، ما

- (١) طليطلة تطل على نهر باجة، وكانت قاعدة القوط، وفيها وجد طارق بن زياد مائدة سليمان بن داود، وكانت من ذخائر اشيان ملك الروم، أخذها من بيت القدس، وقومت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار؟ وقيل إنها كانت من زمرد أخضر، وإنها الآن برومة. وكذلك أصاب فيها طارق من الذخائر العظيمة ما لا يكاد يصدق العقل. وقد صارت في الإسلام قاعدة بني ذي النون من ملوك الطوائف، وكان ابتداء ملكهم صدر المائة الخامسة.
- (٢) غرناطة هي مولد لسان الدين بن الخطيب، وفيها يقول الشاعر:

غرناطة ما لها نظير ما مصر، ما الشام، ما العراق؟
ما هي إلا العروس تجلسي وتلك من جملة الصداق

وتسمى كورة البيرة، التي منها غرناطة دمشق، لأن جند دمشق تزولوها عند الفتح، وقيل إنما سميت بذلك لشبهها بدمشق في غرارة الأنهار، وكثرة الأشجار، وكانت غرناطة قاعدة بني الأحمر (٦٢٩-٨٩٧هـ)؛ وبها قصر الحمراء المشهور، وعنها رحل الإسلام من بلاد الأندلس.

وقد نشأت غرناطة في أواخر القرن الثامن، وبنائها ملوك الإسلام في الغرب؛ فبنى غرناطة أحد ملوك الأندلس، كما بنى فاس أحد الملوك الأدارسة، وكناتهما تقوم في بقعة من بقاع الأرض متشابهة برياضها وتلالها وجداولها. وقد ازدهرتا معاً، وقامت بينهما صلات وثيقة تجارية وغير تجارية، وخاصة في عهد المرابطين. وقد لاحظ المؤرخون والكتاب الأسيانيون هذا الشبه منذ القرن السادس عشر، وتوهوا بتلك القرى التي ظلت قائمة على وجه الزمان من حيث موقع المدينتين الطبيعي؛ ولكنهما اختلفتا بعد ذلك، لأن مدينة فاس ظلت محتفظة بطابعها الإسلامي الذي نشأت عليه، في حين أن غرناطة تبدل وجهها وتغير منذ استولى عليها فردينان وإيزابيل ملكا قشتالة، وبنيا فيها الكاتدرائية الجميلة. وأشهر ما اشتهرت به غرناطة قصر الحمراء الذي طالما تغنى بحمالة الشعراء، ووصف محاسنه الأدباء، وألهم أكثر من فاس حكايات بارعة جميلة. وكان من هؤلاء وأولئك «واشنطن إيرفينج» و«شاتو بريان» و«توفيل جوتيه» و«مانويل أفابا» و«فريدريك أوسيفايا»، فوصفوا روعته وبنائه، وأحاطوا بألوان الحياة التي كان يحياها أمراؤه في أوائل القرن الرابع عشر. وتختلف غرناطة عن بقية مدن أسبانيا الكبيرة بأن المسلمين بنوها لا الأسبانين، وقد أقاموها بالقرب من خرائب مدينة أسبانية قديمة اسمها «أفيرا»، ويلاحظ أن الناس كثيراً ما استعاروا أسماء المدن ليطلقوها على أبنائهم. فالقيرا كان اسم مدينة فنقلوه إلى اسم سيدة. =

عدا طليطلة. والمرية ومرسية وبلنسية ومالقة ودانية وشاطبية
وبرشونة وطرطوشة، وتقع على الساحل المشرف على البحر الرومي، والجزيرة

== وأطلقه « لارنتين » على بطلته قصته المشهورة. وأسمى العرب مدينتهم غرناطة، وهو اسم مأخوذ من اسم الرمان باللغة الرومانية، لأن المدينة كانت في شكلها بين التلال المحيطة بها تشبه نصف رمان. وقد تم بناء المدينة في سنة ١٢٣٥م واستمرت بأيدي العرب إلى سنة ١٤٩٢ فكانت آخر معقل سقط بأيدي الأسيان، وأبرز خطوط تاريخها أن محمد بن الأحمر استولى عليها فيما استولى عليه من مدن الشاطئ الأسياني، وهو الذي شرع فيها في بناء قصر الحمراء، وقد أتمه خلفاؤه من بعده، وخاصة محمد الثالث الذي شيد أبواب القصر وبنى المدرسة. وكانت العلاقات بين ملوك بني الأحمر وملوك أسبانيا تختلف بين حروب ومهادنات استمرت قرناً كاملاً، وانتهت في عهد أبي عبدالله محمد بن عبدالله الذي سلم إلى فردينان وإيزابيل مفتاح أبواب المدينة في ٢ يناير سنة ١٤٩٢، أي في نفس العام الذي اكتشفت فيه أميركا واخترعت المطبعة، ودخل الملكان المدينة في يوم الغطاس (٦ يناير) من تلك السنة. وكان أبو عبدالله قد غادر غرناطة إثر مقابلته للملكين وتسليمه لهما مفتاح المدينة، ورحل إلى مراكش. ويروى أن أمه، وكان اسمها ثريا، سمعته وقتئذ يفر ويكي فقالت له: « لا تيك كامرأة على ملك لم تعرف كيف تدافع عنه كرجل! ». وبعد سقوط غرناطة لم يلبث الشعراء أن نظموا شعراً كثيراً وصفوا فيه عهد العرب، ورتوا عزهم بالباد. وكانت غرناطة قد عرفت في خلال تاريخها العربي باليسر والرخاء، واتسع ملك أمرائها إلى المرية ومالقة وغيرها، وكان أهلها يتكلمون بلغة يخالفها ألفاظ رومانية. وكان بالقرب منها ضاحية جميلة تسمى ريف البازيين تسكنها طبقة الأعيان والوجهاء. ويلاحظ أن هذه الطبقة الأرستقراطية كانت تأنف سكنى المدن الكبيرة وتختار لها مكاناً خارج المدينة تبني فيه منازلها الأنيقة، وقديماً قالوا: « إن الأطراف مساكن الأشراف »، وكان كذلك بالقرب من المدينة دير صغير يقال له دير سيدة كرمين، إشارة إلى العذراء مريم، وهو تشويه لاسم جبل الكرميل بفلسطين. وقد نحتوا منه اسم « كرمين » الذي صاروا يسمونه به. وكان الدير قائماً على أحد التلال المحيطة بالمدينة، وموقعه ذو مناظر تعد فرقة للعيون وبهجة للنفوس. وأما قصر الحمراء فكان مقر الملوك؛ كان كأنه حصن قائم على مرتفع يشرف على المدينة في مهابة وجلال، بل إنه كان مدينة صغيرة تشبه « فرسايل » و « سان ديني » مقري ملوك فرنسا؛ وهذا كان من عادة ملوك ذلك العصر أن يتوا قصورهم خارج المدينة وفي ضاحية منها. وكانت الحمراء ذات أسوار مزدوجة، وفيها مسجد هو ==

الحضراء وتقع بالقرب من ساحل بحر الزقاق؛ أما طليطلة فتقع هي ومدريد (أو مجريط) داخل الهضبة الأيبانية؛ هذه المدن ذات الذكريات المجيدة، والتي خرج

الجامع الكبير، وسوق، وبعض المنازل بين كبير وصغير، وفيها مدافن الملوك وكانت تسمى الروضة، وكانت ذات فخامة وأبهة. ويحكى أنه لما ماتت الملكة إيزابيل أوصت بأن تدفن في قبر بسيط بكنيسة المدينة لتظهر الفرق بين الفخامة التي كانت من مظاهر ملوك العرب والبساطة التي كانت تتوخاها. وبعد قصر الحمراء أبرع مطهر للفن الإسلامي بالأندلس، وأوفى دليل على حياة العز التي كانوا يتمتعون بها. وكان يحوي كل أسباب الطمأنينة والهدوء. وهو سلسلة أبنية جميلة وردعات واسعة، وكان له عدة أبواب منها باب العدل الذي كتب فوقه « لا غالب إلا الله ». وكانت هذه الأبواب وتلك الغرف مزينة بأجمل الزينات، مرصعة بالعاج والصدف والفضة، مزخرفة على أحسن منوال، فيها الفسيفساء والنقوش. وفي سنة ١٥٢٦ أمر الملك شارلوكان الذي كان يتردد كثيراً على قصر الحمراء أن تهدم بعض أجزائه ليبنى موضعها قصراً لإقامته. وقد تم له ما أراد، ولكن بناء القصر لم ينته فظل بلا سقف يظلمه... وما أحسن قول ابن خفاجة في الأندلس ومدنها :

إن للجنة بالأندلس محتلى حسن، وربما نفس
قسنا صحتها من شنب ودجا ليثها من لشمس
وإذا ما هب الريح صبا صحت : واشوقني إلى الأندلس

وقول ابن سفر المريني :

في أرض أندلس تلشد نغماء ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس في غيرها بالعيش متنعج ولا تقوم بحق الأوس صهواء
وأين يعدل عن أرض يحض بها على المدامة أسواء وأقياء؟
وكيف لا يهيج الأيصار رؤيتها وكل روض بها في الوشي صنعاء؟
وللهواء بها لطيف يسرق به من لا يرق، وتبدو منه أهواء
ليس التسيم الذي يهغو بها سحراً ولا انتشار لأكي الطلل أنداء
وإنما أرج الند استشار بها في ماء ورد، فطابت منه أرجاء
وأين يبلغ منها ما أضنقه وكيف يحوي الذي حازته إحصاء
قدميزت من جهات الأرض حين بدت فريدة، وتولسى ميزها المساء
دارت عليها نطقاً أبحر خفقت وجداً بها إذ تبدت وهي حسناء
لذلك يسم فيها الزهر من طرب والظير يشدو، وللأغصان إصغاء
فيها خلعت عذارى، ما بها عوض فهي الرياض، وكل الأرض صحراء

منها أئمة الفكر والعلم والأدب والفلسفة؛ خلال العصور السالفة الزاهية التي حكم العرب فيها الأندلس؛ الأندلس الشهيدة التي تأمر عليها وعلى حضارتها أعداء الإسلام من متعصي المسيحيين، فأحرقوا مدينتها، وهدموا جامعاتها، وبددوا مكتباتها، وشردوا أهلها، وقضوا على آثار الحضارة فيها ظلما وجهلا واستبدادا، مما لا نسميه حركة تحرير، لأن الشعب الأسباني كان قد اختلط حينئذ بالشعب العربي، وصار أهل البلاد شعبا واحدا له خصائصه الفكرية والثقافية، ولأن حركة التحرير لا ترادف الجهل والرجعية والوحشية ولا يعنى بها سفك الدماء، وتمزيق الأشلء، وهدم الجامعات، وحرق المكتبات، واستباحة الأعراض، وانتهاك الحرمات، والقضاء على شعب كبير له تاريخه وسماته وخصائصه في تاريخ الحضارة الإنسانية، وما أصدق ما يقول الشاعر الأندلسي :

قلت يوما لدار قوم تقانوا أين سكانك العزاز علينا؟
فأجابت : هنا أقاموا قليلا ثم ساروا ولست أعلم أيننا

= ويقول لسان الدين بن الخطيب في خصائص الأندلس :

« وحسب الله تعالى بلاد الأندلس من الربيع، وغدق السقا، ونفاذة الأقوات وفراحة الحيوان، ودرور القواكه، وكثرة المياه، وتبحر العمران، وجودة الناس، وشرف الآنية، وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وايضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وفنون الصنائع، وشهامة الطباغ، ونفوذ الإدراك، وإحكام التمدن والاعتماد بما حرمة الكثير من الأقطار مما سواها »؛ ونقل المقرئ عن الرازي : « بلد الأندلس هو آخر الإقليم الرابع إلى المغرب، وهو عند الحكماء : بلد كريم البقعة، طيب التربة، خصب الجنان، منجس الأنهار العزاز، والعيون العذاب، قليل الهوام ذوات السموم، معتدل الهواء والحو والتسيم. ريحه، وخريفه، ومشتهاه، ومصيفه، على قدر من الاعتدال، وسطة من الحال... تتصل فواكهه أكثر الأزمنة، وتدموم متلاحقة غير مفقودة. أما الساحل منه ونواحيه، فيادر بياكورة، وأما الثغر وجهاته، والجنال المخصوصة ببرد الهواء فيتأخر بالكثير من ثمره؛ فمادة الخبرات متمادية في كل الأحيان، وفواكهه على الحملة غير معدومة في كل نوان، وله خواص في كرم النبات توافق في بعضها أرض الهند، المخصوصة بكرم النبات وجواهره، منها : أن المقلب، وهو المقدم في الأفالويه والمفضل في أنواع الأشنان، لا ينبت بشيء من الأرض، إلا بالأندلس والهند. وللأندلس المدن الحصينة والمعقل المنبغة، والقلاع الحريرة، والمصانع الجليلة، ولها البر والبحر، والسهل والوعر.

إن الأندلس وفلسطين لشيدان رائعان من أناشيد المجد والعظمة والجلال، ولن ينسى العرب والمسلمون قصة مصرع الأندلس في القديم، ولا قصة مصرع فلسطين في الحديث، لأنهما قصتان يجب ان يلتفت إليهما الضمير الإنساني، وأن يرددهما شباب العرب في كل جيل وزمان ومكان.

وكيف ننسى أجيالا من الكفاح والبطولة والتضحية والبناء والعمل الشاق لخير الإنسانية جمعاء، وقرونا ثمانية قضاها العرب في الأندلس يرفعون لواء الحضارة، وبينون روائع العمران، ويشجعون الفنون، وينهضون بالعلوم، ويتفانون في بعث النهضة في قلب أوربا الجاهلة الشقية المحرومة المخذولة، التي سرقت أجداد العرب ومدنيتهم، ثم جحدت فضلهم، وأنكرت أيادهم البيض على أوربا المسكينة المحرومة يومذاك.

ونحن نعلم أنه لولا معركة تور لما تأخرت النهضة في أوربا نحو تسعة قرون طوال، هذه المعركة التي أدت إلى انتكاس الإنسانية والحضارة بانتصار شارل مارتل على عبد الرحمن الغافقي في خريف سنة ٧٣٢ م، وهي التي قال فيها مسيو كلود فارير الأديب الفرنسي الأشهر : « في سنة ٧٣٢ م (١١٤ هـ) حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التي انقضت على الإنسانية في القرون الوسطى، وكان منها أن عمرت العالم الغربي — مدة سبعة قرون أو ثمانية إن لم نقل أكثر — طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة (رونسانس) ... هذه الفاجعة هي التي أريد أن أمقت حتى ذكراها، وأعني بها الانتصار البغيض، الذي ظفر به على مقربة من بواتيه^(١) — أولئك البرابرة المحاربون من الافرنج بقيادة الكارولنجي شارل مارتل — على كتاب العرب المسلمين الذين لم يحسن عبد الرحمن الغافقي جمعهم على ما ينبغي من الكثرة فانهمزوا راجعين أدراجهم، في ذلك اليوم المشؤم تراجعت المدينة ثمانية قرون إلى الوراء. ويكفي المرء أن يطوف في حدائق الأندلس

(١) بقعة من الأرض الفرنسية قريبة من بلدة (تور) في مقاطعة شمبانيا.

أو بين الآثار العربية التي لا تزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من عواصم
السحر والخيال (إشبيلية وغرناطة، وقرطبة، وطليطلة)، ليشاهد — والألم
الغريب آخذ منه .. ما عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام
العمرائي الفلسفي السلمي المتسامح — لأن الإسلام مجموعة كل هذا —
فخلصها من الأهويل التي لا أسماء لها. وكان من ذلك أن نتج خراب
(غاليا) القديمة، التي استعبدتها أولاً لصوص أوسترازيا، ثم اقتطع جزءاً
منها قرصان النورماندين، ثم تجزأت وتمزقت وغرقت في دماء ودموع،
وفرغت من الرجال بما انبعث في أرجائها من الدعوة للحروب الصليبية،
ثم انتفخت بالأشلاء والجثث بما دهنتها من الحروب الخارجية والأهلية
الكثيرة العدد. حدث ذلك في حين كان العالم الإسلامي — من نهر الوادي
الكبير في أوريسا إلى نهر السند في قلب آسيا — يزدهر كل الازدهار
في ظل الإسلام ... ليس ما كتبه فصلا من التاريخ الرسمي، بل هو
التاريخ الحقيقي الذي يتعلمه المرء بنفسه، مما يجتازه من بحار، ويقطعه
من فياف وأفاق، ويقليه من خزائن الكتب الأجنبية، وليس هذا يعزير
على حياة سائح يريد أن يفضح — عقب رحلة له — ما كان يلتمسه
بأطراف بنانه من تلك الأكاذيب الكبرى السفية التي أراد معلمونا —
ولا يزالون يريدون — وضعها أمام أعيننا كأنها حقيقة بل هي حقيقة ».

ويقول أديب فرنسي كبير آخر، هو المسيو هنري دي شامبوت مدير
مجلة (ريفو بار لنتير) هذه الشهادة الصريحة : « لولا انتصار جيش
شارل مارتل الهمجي على تقدم العرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في
ظلمات القرون الوسطى، ولما أصيبت بفظائعها، ولما كابدت المذابح الأهلية
الناشئة عن التعصب الديني والمذهبي. ولولا ذلك الانتصار البربري على
العرب لنتجت اسبانيا من رحمة محاكم التفتيش، ولولا ذلك لما تأخر سير
المدنية ثمانية قرون. إننا مدينون للشعوب العربية بكل محامد حضارتنا :
في العلم، والفن، والصناعة، مع أننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة

على تلك الشعوب العريقة في الفضائل، وحسبها أنها مثال الكمال البشري مدة ثمانية قرون، بينما كنا يومئذ مثال الهمجية. وإنه لكذب وافتراء ما ندعيه من أن الزمان قد اختلف، وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى»

ونعلم كذلك إنه لولا التعصب المسيحي في أسبانيا، ومأساة طرد العرب منها، وما صنعتته محاكم التفتيش في أهلها العرب المسلمين وغيرهم، لولا ذلك كله لكانت أسبانيا اليوم أعز دولة في العالم، ولما تأخر بدء النهضة في أوروبا، وما أجل ما يقول نيتشة فيلسوف ألمانيا الأشهر: «لقد حرمتنا المسيحية ميراث العبقريّة القديمة، ثم حرمتنا بعد ذلك الإسلام، لقد ديست بالأقدام تلك المدينة العظيمة، مدينة الأندلس المغربية، ولماذا؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة، ومن غرائز شريفة، نعم من غرائز رجال. إن تلك المدينة الإسلامية لم تنكر الحياة، بل أجابتها بالإيجاب، وفتحت لها صدرها.

وفي تصوير مدى الجرم الإنساني العظيم الذي ارتكبه الأسبانيون في حق العرب يقول محمد عبد الله عنان في كتابه «ديوان التحقيق» (١):

« في سنة ١٤٩٩ ذهب الكردينال كمنيس إلى غرناطة، وحث مطرانها والدوق تالافيرا على اتخاذ وسائل جديدة لتنصير المسلمين، وجمع فقهاء المدينة وشرح لهم أصول النصرانية ودعاهم إلى اعتناقها، وأغدق عليهم التحف والهدايا، فأقبل بعضهم على التنصير، إما اتقاء للاضطهاد، أو اغتناما للحظوة، وتبعهم جماعة كبيرة من العامة. ولما حاول بعض أعيان المسلمين التدخل والاحتجاج بأن هذه السياسة تنافي روح اليهود المقطوعة ونصوصها، أجاب كمنيس بالوعيد، وهدد باتباع الشدة والعنف، وعمد إلى ارتكاب جريمة من أشنع الجرائم البربرية، إذ أمر بجمع كل ما استطاع

(١) ديوان التحقيق - محمد عبدالله عنان - ص ٣٥.

جمعه من الكتب العربية، ونظمت أكديسا في أكبر ساحات المدينة، وكان منها عدد كبير من المصاحف المزخرفة وكتب الفقه والكلام، ومنها أيضاً كثير من كتب الآداب والعلوم، وأضرمت فيها النار جميعاً، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة كتاب في الطب. ويختلف المؤرخون في تقدير عدد المخطوطات العربية التي ذهبت فريسة هذه الجريمة الشائنة. فيقدرها بعضهم بأكثر من مليون، ولكن (كوندي) يقدرها بنائين ألفاً، وتقديره أرجح وأقرب إلى المعقول، لأن المكتبة الأموية الشهيرة في قرطبة لم تزد على ستائة ألف مجلد، وقد بددت هذه المجموعة الكبيرة أيام ثورات البربر واقتحامهم لقرطبة، ولم يجتمع في غرناطة في مجموعة واحدة مثل هذا القدر، ولكن أنشئت بها مجموعات مختلفة ما بين خاصة وعامة، وكان طبيعياً أنها وهي مركز العلوم الإسلامية، بعد قرطبة، تحتوي على أنفس الآثار الإسلامية من حيث التفكير والفنون، ويؤيد كوندي تقديره بقرائن وشواهد لا بأس بها.

وها هوذا احد الشعراء الأندلسيين يبكي ما ضاع من ثمرات العقول والأفكار الإسلامية في الأندلس، فيقول من قصيدة وجهها إلى بايزيد العثماني مستغثاً من ملك الروم وتنكيله بالمسلمين، وقضائه على تراثهم الفكري :

وخان عهدا كان قد غرنا بها ونصرنا كرها بعنف وقسوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف وخلطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان من أمر ديننا فقي النار ألقوه بهزء وحقرة
ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم ولا مصحفاً يحل به للقراءة

الطبيعة الأندلسية الفاتنة

— ٩ —

بلغت فنته الطبيعة في الأندلس وجمالها حداً لا يوصف، هذه الطبيعة الساحرة التي انتظمت الجبال والأنهار والوديان والحقول الواسعة وشواطئ البحار، والمدن الجميلة، مثل : قرطبة، وغرناطة وطليطلة وأشبيلية، وغيرها. وكانت مناظر الطبيعة في الأندلس أجمل من أن توصف، فهذا وادي الأشات^(١)، وقد أهدقت به البساتين والأنهار، وفيه يقول أبو الحسن ابن نزار :

لله ظلك والهجير مسلط قد بردت لفحاته الأنداء^(٢)
والشمس ترغب أن تفوز بلحظة منه فتطرف طرفها الأفياء^(٣)
والنهر ييسم والحباب كأنه سلخ نضته حية رقصاء^(٤)
فلذلك تحذره العيون فميلها أبداً على جنباته إجماء

(١) قرية صغيرة من أعمال غرناطة.

(٢) الهجير : شدة الحر، والفتحة النار : الهبة من حرها.

(٣) الأفياء : جمع فيء، وهو ما كان شمساً فنسخه الظل، والمعنى في « تطرف طرفها الأفياء » أن الظل يرد عين الشمس عن التفتح في موضعه، فكأنها طرفت فأغمضت.

(٤) الحباب : معظم الماء، والمراد هنا ظهوه. السلخ : بالفتح اسم ما نزع عن الشاة من جلدعاء، والقعل من باب نصر وقطع، نضا التوب (كصير) خلعه. الرقصاء : الحية المنقطة بسواد.

وهذا وادي عذراء، بمدينة برجة التي سميت « بهجة » لبهجة مناظرها،
وفيه يقول أبو الفضل بن شرف القيرواني المتوفى عام ٤٦٠ هـ :

رياض تعشقها سندس توشت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق عدي ربا لها نظيرة فتنت من نظر
وكل مكان بها جنسة وكل طريق إليها سقر
وفيا أيضا قوله :

حط الرحال ببرجه وارتد لنفسك بهجه
في قلعة كسلاح ودوحة مثل لجه^(١)
فحصنها لك أمن وروضها لك فرجه
كل البلاد سواها كعمرة وهي حجه

وقد ذكروا عن إشبيلية أنها من أحسن مدن الدنيا، وبأهلها يضرب
المثل في الخلاعة، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة، يعينهم على
ذلك واديا الفرّج، وناديا البهجة، ولها جبل الشرف، وهو تراب أحمر
مترامي النواحي، يشتمل على مائتين وعشرين قرية، قد التحفت بأشجار
الزيتون واشتملت، وذكروا عن نهرها أن المد يصعد فيه اثنين وسبعين
ميلا ثم ينحسر، وفيه يقول ابن سفر :

شق النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها هزءاً فضم من الحياء إزاره
إلى غير ذلك من شتى مناظر الطبيعة الفاتنة الساحرة.

(١) السلاح معروف، والمعنى : أن القلعة — وهي في الأصل موضع الخوف — صارت
كأنها السلاح، وبروي « كسلام » ولا معنى له.

وقد كان الأندلسيون أكثر الناس حباً للأندلس، وافتاناً بمفاته وهياماً بجماله وحسنه.

وقد بلغ من حبه لبلادهم، وغرامهم بمحاسنها، ان أديباً من أهلها وهو أبو عمران موسى بن سعيد، كتب إليه أحد الوزراء يرغبه في النقلة إلى مراكش فأبى وكتب إليه : « كيف أفارق الأندلس !! وقد علم سيدي أنها جنة الدنيا بما حباها الله من اعتدال الهواء، وعذوبة الماء، وكثافة الأفياء، وأن الإنسان لا يبرح فيها بين قرّة عين وقرار نفس : أفق صقيل، وبساط مدبج، وماء سائح، وطائر مترنم، فكيف يعدل الأديب عن أرض على هذه الصفة !؟ فيا سموعل الوفاء، وبيا حاتم السماح، وبيا جذيمة الصفاء»، كمل لمن أملك النعمة، بتركه في موطنه، غير مكدر لخاطره بالتحرك من معدنه .. الخ ».

ولما رقت حال أبي القاسم عامر بن هشام بقرطبة، وزين له بعض أصحابه الرحلة إلى حضرة ملك الموحدين بمراكش قال وذكر المنتزهات بقرطبة. وتسمى هذه القصيدة عند أهل الأندلس كنز الأدب :

با هبة باكرت من نحو دارين واقت إلي على بعد تحييني
سرت على صفحات النهر ناشرة جناحها بين نخيري ونسرين

(١) هو جذيمة بن مالك بن عامر التنوخي، أول من قاد العرب وملك على قضاة، وكانت منازل الحيرة والأنبار، وولايته من قبل أردشير بن بابك، وكان أحرص فعديل عن الاسم قبيل الأبرش، وهو الذي يقال له نديم الفرقتين، وكان إذا شرب قدحاً صب لهما قدحين، وهو الذي تزوج الزباء، وكان لها وتر عنده، لأنه قتل أباه عمرو بن الظرب العاملي فملكته بعده ابنته « الزباء » فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بالمضي، إلا قصير بن سعد، فلما كان عندها قطعت رواهش واستنزفته حتى مات، فخلفه على الملك ابن أخته عمرو بن عدي ثم احتال قصير على الزباء ودبر لها مكيدة أهلكتها.

ردت إلى جسدي روح الحياة وما
لولا تيسمها عن نشر أرضكم
ومنها :

وأين يعدل عن أرجاء قرطبة
قطر فسيح ونهر ما به كدر
يا ليت لي عمر نوح في إقامتها
كلاهما كنت أفنيه على نشوا
وإنما أسفسي أني أهيء بها
يا أمري أن أحث العيش عن وطني
نصحت لكن لي قلباً ينازعني
لأزمن وطني طورا تطاوعني

من شاء يظفر بالدنيا وبالدين
حفت بشعبيه الغاف البساتين^(١)
وأن مالي فيه كثر قارون
ت الراح نهياً ووصل الحور والعين
وأن حظي منها حظ مغبون
لما رأى الرزق فيه ليس يرضيني
فلو ترحلت عنه حله دوني
قود الأمانى وطوراً فيه تعصيني

— ٣ —

وما أكثر ما ليج أهل هذه البلاد بالثناء عليها نثراً ونظماً، حتى يكاد
قولهم يكون مقصوراً على وصف نعيمهم بها، والتلهف على ما فاتهم
منه حين أقصوا عنها، ومن تمدحهم بحاسنها قول ابن سفر المريني^(٢) :
في أرض أندلس تلتذ نعماء ولا يقسرق فيها القلب سراء
وليس في غيرها بالعيش منتفع ولا يقسوم بحق الأنس صهباء
وكيف لا تبهج الأبصار رؤيتها وكل روض بها في الوشي صنعاء^(٣)

- (١) الألفاف : الأشجار الملتفة، جمع لف « مثلنا » وهو جمع لقاء، فيكون ألفاف جمع الجمع.
(٢) نسبة إلى بني مرين. قال في شرح القاموس : بنو مرين كانوا من ملوك العرب، منهم : أبو يعقوب عبد الحق وأولاده وطائفة من آل مرين.
(٣) بهج ككرم وفرح : سر. وكمنع : أفرح كأبهج.

أنهارها فضة والمسك تسربتها
ليس النسيم الذي يهفو بها سحرأ
وإنما أرج الند استثير بها
وأين يبلغ منها ما أصفه
قدميزت من جهات الأرض حين بدت
دارت عليها نطاقا أبحر خفقت
لذلك يسم فيها الزهر من طرب
فيها خلعت عذارى ما بها عوض

وقول ابن خفاجة (٤٥٠ - ٥٣٣ هـ) :

إن للجنة بالأندلس
فستأ صبحتها من شنب
فإذا ما هبت الريح صبا

ويقول ابن الزقاق البلسي في بلنسية :

بلنسية إذا فكرت فيها
وأعظم شاهدي منها عليها
كساها ربا دياج حسن

- (١) الأرج : توهج ربح الطيب. روى هذا البيت في نفع الطيب « استار » ولا يكون هذا الفعل إلا متعدياً فلا يناسب في هذا الأسلوب إلا بناءه للمجهول. الأرجاء : جمع رجا وهو الناحية.
- (٢) العذار : ما سال من اللجام على خد القرس، ولا يخلع اللجام من فرس في الركوب إلا إذا أريد أن ينطلق ملء فروجه. ويقال : خلع فلان عذاره في هذا الأمر : أن أطلق لنفسه حرية لا يرد لها راد.
- (٣) الربا : الربح الطيبة.
- (٤) الشنب : نقط بيض في الأسنان.
- (٥) علم الثوب : نقشه. يريد أن البحر والوادي كأنهما نقش وزينة لبلسية، التي شبهها بالثوب.

ويقول مروان بن عبد الله بن عبد العزيز ملك بلنسية :

كأن بلنسية كاعب وملبسها سندس أخضر
إذا جنبها سترت نفسها بأكامها فهي لا تظهر
وفي قرطبة أو غرناطة يقول بعضهم :

أغرناطة الغراء هل لي أوبة إليك وهل يدنو لنا ذلك العهد^(١)
سقى الجانب الغربي منك غمامة وقعق في ساحات روضتك الرعد^(٢)
لياليك أسحار وأرضك جنة وتربك في استنشاقها عنبر ورد^(٣)

وقال ابن مالك الرعيني يصف الحمراء :

رعى الله بالحمراء عيشاً قطعته ذهبته به للأنس والليل قد ذهب^(٤)
ترى الأرض منها فضة فاذا اكتست بشمس الضحى عادت سيبتها ذهب^(٥)

ولابن خفاجة في وصف منظر راقه :

لله نهر سلال في بطحاء أشهى وروداً من لمى الحسناء^(٦)
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكنفه بحر سماء

- (١) غرناطة : بفتح أوله. قال في معجم البلدان : والصحيح أغرناطة بالهمز في أوله، أسقطها العامة كما أسقطوها في أنبيرة، فقالوا : لبيرة. قال ومعنى غرناطة رمانة بلسان أهل الأندلس، وهذه البلدة هي ثلاثة عواصم الأندلس بعد قرطبة وإشبيلية، وقد ازدهرت فيها مملكة بني الأحمر؛ وهي على نهر شيل في الجنوب والشرق من قرطبة. ويروى : « قرطبة ».
- (٢) القففة : صوت الرعد.
- (٣) العنبر هنا : الزعفران. والورد : الذي يشوب بياض حمرة.
- (٤) قوله ذهبته به للأنس أي صرفته نحو الأنس.
- (٥) اللغة القصبى في الوقف على المتون المنصوب ان يكون بالألف، ولكن ربيعة تفت عليه كما يوقف على المرفوع والمجرور.
- (٦) اللى : سمرة الشفة والمراد بها هنا موضعها.

قد رق حتى ظن قرصا مفرغا من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها هذب تحف بمقلة زرقاء"^(١)
وهكذا فتن الأندلسيون بطبيعة بلادهم، وتحدثوا عنها في شعرهم
ونثرهم .. وهذه الطبيعة السمحة كان لها أثرها في الأخيلة والعقول الأفكار؛
وكان لها الفضل فيما عرف به الأندلسيون من توقد الذهن، وكثرة
النشاط، والإقبال على الحياة، والعمل من أجل الرخاء والأمن وتأسيس
الحضارة.

(١) الهدب : بالضم وبضمين : شعر أشجار العينين، واحداها هدية، ومن هنا بين وجه
تأنيث الفعل في قوله تحف.

الفصل الثاني العرب في الأندلس

التاريخ القديم للأندلس

دخلت بلاد الأندلس في عصور التاريخ الأولى قبائل من الجلائقة والسلت واليسك، واستقر البعض في الشواطئ الساحلية، ثم هاجرت إليها سلالات حامية من البربر سكان إفريقيا، وقبل الميلاد بعشرة قرون دلف إليها سلالات سامية من الفينيقيين الذين استوطنوا قرطاجنة، وأثرت البيعة الأندلسية في هذه الأمم المختلفة إلى حد كبير. وفي عصور الحضارة الإغريقية الأولى دخل إلى البلاد كثير من اليونانيين، ثم استولى الرومان عليها في أوائل القرن الثالث الميلادي، وكانت حاضرة البلاد في عهدهم مدينة « طالقة » القريبة من اشبيلية، وقد أطلق الرومان على البلاد اسم هسبانيا، واستمر حكمهم لها زمناً طويلاً، حتى أترفوا واحمت من نفوسهم أخلاق أجدادهم الفاضلة فغلبتهم على حكم البلاد قبائل الفندال الجرمانية التي أسست لها على نهر الوادي الكبير مملكة سميت باسمهم « فندلس »، ومن هذا الاسم أخذت كلمة أندلس، ثم أغار القوط على الفندال فنسخوا الحكم الفندلسي من البلاد، واتخذوا مدينة طليطلة عاصمةً للملكهم، وقد دام حكم القوط ثلاثة قرون بلغ فيها منتهى الفخامة والترف، وانتشر

في ظلالة الدين المسيحي، بعد أن تغلب على الوثنية الأولى، وكان آخر ملوكهم « رودريك » الذي اغتصب العرش لنفسه، وأقام ملكه على العسف والاستبداد، وروع الشعب، فهاجر الكثير إلى بلاد الإمبراطورية الإسلامية الناشئة، ينعمون في ظلالتها بالعدل والأمن والحرية، وينشدون لوطنهم السلام والرفاهية ولو في ظللال الحكم الإسلامي النبيل.

وكان المسلمون قد فتحوا مصر عام ٢٠ هـ، وتوغلوا في شمال إفريقيا بعد ذلك، وأسسوا مدينة القيروان عام ٥٠ هـ، واستمروا في فتوحاتهم، حتى بلغ عقبة بن نافع إلى شاطئ بحر الظلمات ونزل بفرسه فيه وهو يقول :

« اللهم فاشهد لو كان وراء هذا البحر قوم لحضته اليهم ».

الفتح العربي للأندلس

خلف موسى بن نصير عقبة بن نافع عام ٨٨ هـ في ولايته، وفي عزيمته وهمته، وكانت ولايته من قبل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ)، ففطلع موسى إلى فتح جديد يجدد به معجزات البطولة العربية، فلم يجد أمامه إلا بلاد الأندلس.

وفي هذه الفترة كان « رودريك » على عرش اسبانيا يترىص به شعبه ريب الحوادث، وأنصار الملك المخلوع ملك الجوت الذي اغتصب رودريك عرشه يدبرون له المكائد، والكونت يليان حاكم سبنة يؤازرهم مؤازرة الذائد عن شرفه وكرامته، فأخذ يرشد موسى بن نصير إلى مواطن الضعف من القوط، ويحبب إليه فتح البلاد، ويضع أسطوله تحت تصرفه، ورأى موسى أن الفرصة سانحة، فأرسل طريف بن مالك في حملة إلى بلاد الأندلس طليعة للجيش، ثم أتبعه بحملة أخرى يقودها طارق بن زياد عامل طنجة.

يروى أن الأمراء كانوا يرسلون بناتهم إلى بلاط الملك وصانف، وأن جوليان (يوليان) حاكم مدينة « سبتة » أرسل ابنته حفيدة الملك وتيزا (غيطشه) إلى القصر الملكي، فأغواها رودريك من عفافها، ثم استفاقت فأبلغت أباهَا أمرها، فعزم على أن يكيد لرودريك انتقاماً منه، ولم يد بما في نفسه شيئاً إلا أنه عرض بما أراد؛ إذ كان رودريك يطلب منه أن يهدي إليه صقورا للصيد فأجاب جوليان : لأرسلن اليك صقورا ما رأيتها من قبل. وربما كان جوليان أراد أن ينتقم للملك المخلوع الذي كان صهره.

وربما كان جوليان أراد أن يأمن غارة العرب الذين يحيطون به وتقض قوتهم مضجعه؛ فجعل يغري موسى بن نصير والي إفريقية من قبل الوليد ابن عبد الملك بملك رودريك وجمال بلاده ووفرة الخيرات وقلة الخطر، فلعل ذلك مانعه من العرب أو مفيقه إلى ظلمهم الظليل، ولعله يظفر بتاج رودريك أو يستطيع رده إلى أحماه أولاد وتيزا. ومن البدهي أن موسى بن نصير كتب إلى الخليفة الوليد يبلغه ويأتمر بأمره، فكتب إليه الخليفة يحذره أن يجازف بدماء المسلمين وأرواحهم ويأذن لهم في خفيف الغزوات ومأمون السرايا.

وأرسل موسى مولاه طريفا عام ٩١ هـ — ٧١٠ م، ومعه خمسمائة مسلم اجتازوا الطريق المسمى الآن بوغاز جبل طارق، وكان العرب يسمونه بحر الزقاق على أربع سفن قدمها إليهم جوليان تنفيذاً لما كان قد تعهد به لموسى بن نصير من حمل المسلمين في البحر ودلاتهم في البر وتعريفهم بعورات البلاد ومسالكها، وقد كانت سرية طريف موقفة، فتح بها المدينة الخضراء، واستيقن إخلاص جوليان وسهولة البلاد.

وأغرى هذا التوفيق الميسر موسى بن نصير فأرسل في عام (٩٢ هـ : ٧١١ م) طارق بن زياد في سبعة آلاف نزل بهم على صخرة صارت تسمى من ذلك الحين جبل طارق ودخل بهم كأنما هو يسعى

في البلاد دون مقاومة، إلى أن وصل نهر جواديليت « نهر بقة » وإذا جيش كثيف زاحف إلى المسلمين يقوده رودريك في خمسة أمثال جيشهم أو يزيد، وأعد طارق جيشه وخطب فيهم خطبته المشهورة، ثم اجتمعوا على عدوهم وحاربوا جيوشه سبعة أيام حتى انتصروا نصراً خالداً، ورنى حذاء رودريك وجواده على شاطئ النهر فقيل إنه مات غريقاً، وهكذا تم النصر، فقد كانت الحالة النفسية بين الجيشين مختلفة، فالمسلمون يجاهدون في الله حق جهاده، والجوت توزعت أهواءهم المظالم التي كان يصيها الملوك عليهم صبا.

وكان جيش المسلمين على قلب رجل واحد، وجيش الجوت خليطاً من الرعايا والعييد المرتزقين الذين ليس لهم في الحرب فائدة ولا غناء، وكان قائد المسلمين كالمسلمين أو هو أشد منهم، يفيض حماسة وقوة إيمان وتلتبب كلماته في خطابه فتذكهم حمية وتضيء لهم الطريق، حين كان رودريك في أبهة الملك على وسادة حريرية في محفة تجرها بغال بيض.

وكان اليهود مستضعفين يسومهم رودريك وجنوده سوء العذاب، وقد تنفسوا الصعداء لما رأوا جيش المسلمين فأمدوهم بالعونين الأدبي والمادي، وظهروا المسلمين على الإسيان وكان أبناء الملك (وتيزا) قوادا في جيش رودريك وكانوا تواطئوا مع جوليان أن ينهزموا بمجنودهم إبان المعركة ففعلوا؛ وكان المسلمون في موقف لا خيرة فيه، ولا احتمال : فالبحر من ورائهم والعدو أمامهم، والله تعالى وعدهم إحدى الحسنين أنها لهم، هذا كله عجل للعرب بالنصر المبين.

ويروى أن طارقاً لما بلغه قرب جيش رودريك منه قام في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حث المسلمين على الجهاد ورجبهم فيه، فكان مما قال: أيها الناس، أين المقر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم وليس لكم، والله إلا الصدق والصير. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيح من الأيتام في مأدبة اللقاع. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه؛

وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً — ذهب ربحكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة عن أمركم بمناجزة هذا الطاغية؛ فقد ألفت به إليكم مدينته الحصينة. وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم بأوفر من حظي. وقد بلغكم ما حوت هذه الجزيرة من الخيرات العميمة. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك، أمير المؤمنين، من الأبطال عرباناً، ورضيكم للملك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً؛ ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستياحكم بمجالد الأبطال والفرسان — ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين. والله تعالى ولي إنجازكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين. واعلموا أنني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه. وإني — عند ملتقى الجمعين — حامل بنفسي على طاغية القوم « لذريق » فقاتله إن شاء الله تعالى. فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتمكم أمره، ولم يعوزكم بطل عامل تسندون أموركم إليه. وإن هلكت قبل وصولي إليه فاحلفوني في عزيتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا من فتح هذه الجزيرة بقتله.

وبعد أن تم النصر وجد طارق من سهولة الفتح ما أغراه بالإمعان في أن يشحن في الأرض، فوالى حركاته الحربية، وتوالت انتصاراته حتى لم يلبث أن أرسل سيمعانة من رجاله فتحوا كوردبا (قرطبة)، ورأى طارق أن يعجلهم ويسرع إلى طليطلة قبل أن يولوا عليهم ملكاً يجمع كلمتهم ويلم شعنتهم، فتقدم قاصداً طليطلة، بعد أن فرق جيشه فرقا. فأرسل فرقة إلى قرطبة. وأخرى إلى مالقة. وثالثة إلى غرناطة. فاستولت كل فرقة على البلد الذي قصدته. وسار هو إلى طليطلة، عاصمة البلاد،

فوجدتها مغلقة الأبواب، حصينة الأسوار، فحاصرها زمنا، حتى اضطروا أهلها إلى الصلح، فصالحهم على أن لهم الحرية في الخروج إن شاءوا. وهم أحرار في دينهم إن بقوا. وترك لهم كنائسهم.

وبلغت هذه الأنباء والانتصارات الباهرة موسى بن نصير، فكتب يخبر الخليفة الوليد بما أفاء الله على جيش المسلمين، وبأدب فشخص في حملة عسكرية وجند كثيف يتمم الفتح ويساعد طارقا على التمهيد للإسلام وللحرب في هذه البلاد، وذلك بعد أن استخلف على القيروان ابنه عبد العزيز عام ٩٣ هـ. ولما بلغ موسى بن نصير ميدان القتال وجد طارقاً قد كاد يبلغ الشمال فاستدعاه إليه والتقى عند مدينة (تلاقيرا) فساط موسى طارقاً على وجهه، واستكان المولى إلى مولاه فلم يبد امتعاضاً وحمل إليه طارق الغنائم فلذلك نسب الفتح إلى موسى لأن طارقاً من قبله، ولأنه أتم فتح ما بقي، ويقول بعض المؤرخين إنه إنما ضرب طارقاً بالسوط لأنه حسده أن يستأثر بهذا المجد العظيم دون سيده، وإن ابن نصير كان يجب أن يكون هو الفاتح وليس طارقاً، والحقيقة أن موسى كان يخاف على المسلمين، وكانت سياسته أن يتم فتح البلاد على التدرج، فقد روي أن ابن نصير قال لمولاه طارق عند اللقاء: كيف غررت بنفسك وبالمسلمين ولم تخف ألا أستطيع أن أمدك بمال ولا رجالاً!

وروي أن موسى بن نصير لم يخلع طارقاً عن القيادة، ولم يستبد هو بهذه القيادة، بل اقتسما البلاد بجيشهما فجعلتا يشترقان ويفرغان ويصعدان وينحدران ويتلاقيان ويفترقان أربع سنين عدداً، حتى ملكوا وسط البلاد وشرقها وبلاد جيليقيا (البرتغال) في غربها، ولم يتركوا في الشمال إلا نفرا يسيراً من المسيحيين استهانوا بهم، وإن كانوا فيما بعد من أسباب البلاء على المسلمين والإسلام في الأندلس.

وأقام موسى بالأندلس مجاهداً، وجامعاً للأموال والغنائم، ومرتباً للأمور، إلى عام ٩٥ هـ. وقبض على طارق، ثم استخلف ابنه عبد العزيز، وذهب

إلى القيروان فدمشق ومعه طارق، ومات الوليد عام ٩٦ هـ. وموسى بطبرية، ويقال إن موسى وصل وأدرك الوليد حياً، وكان موسى من صنائع الوليد، وكان سليمان بن عبد الملك يحقد عليه، ولذلك لم يلبث أن تولى سليمان الخلافة، فاتهم موسى بالخيانة والغلول في الغنم، واستخصم طارقاً لديه بأن موسى نفسه عليه جهاده وبلاءه، ويروى أن سليمان قال لموسى: من فتح الأندلس؟ فقال: أنا يا أمير المؤمنين، فقال طارق: سله يا أمير المؤمنين عن الرجل المفقودة من مائدة سليمان أين هي؟ فلم يعلم موسى عنها شيئاً، فقال طارق: هي عندي يا أمير المؤمنين وأحضرها فأقروا له أنه فاتح الأندلس لا مولاه^(١) ونفى سليمان موسى إلى المدينة فمات بها سنة ٩٨ هـ.

الشعب العربي في الأندلس

دخل العرب الأندلس فاتحين، وتبع الجيش الإسلامي الفاتح القبائل العربية من كل مكان، فنزل بها من قبائل العرب وساداتهم جماعة ورثوها أحفادهم: نزل بها من العدنانية خندف وقريش، ومن قريش جماعة من بني هاشم من ولد إدريس بن عبدالله مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب، ومنهم بنو حمود ملوك الأندلس بعد الدولة الأموية في الأندلس؛ ونزلها كذلك بنو أمية، ومنهم خلفاء الأندلس، ومن بني مخزوم الشاعر أبو بكر المخزومي الأعمى، والوزير أبو بكر بن زيدون، ومن عقيل القيسيين جماعة من خفاجة وغيرهم. ومن خفاجة ابن خفاجة الأندلسي شاعر الطبيعة. ونزل بها من كنانة كثيرون أقاموا في طليطلة، والعدنانيون بقبايلهم وأفخاذهم كانوا ممثلين في الأندلس تمثيلاً كاملاً. أما البجانية فكانوا أكثر انتشاراً من المضربية، ومنهم محمد بن هانيء الأزدي، ومنهم بنو مازن

(١) تاريخ الأندلس - لعبد الفتح بدوي ط ١٩٤٠.

ويتنسبون إلى غسان الأزديين، ومنهم من الأنصار جمع غفير نزلوا الأندلس وأقاموا فيها، ومن الخزرج بالأندلس أبو بكر عبادة بن عبد الله بن ماء السماء من ولد سعد بن عبادة صاحب الرسول، وقد توفي عام ٣٣ هـ. وشهر بالموشحات، وإلى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر ملوك غرناطة، وكان من وزرائهم لسان الدين بن الخطيب، وفي آخر أيامهم انقرض ملك العرب بالأندلس.

اتصل العرب بسكان البلاد الأصليين من قوط وغيرهم، وأسلم كثير من المسيحيين واليهود، واندمج بعضهم في بعض بالمصاهرة وغيرها، وكونوا شعباً واحداً وتشاركوا في إدارة البلاد، واقتبس الإسبان كثيرًا من عادات العرب وأخلاقهم، واخذ العرب كذلك بعض مظاهر حياتهم، وجاروهم في كثير من أحوالهم الاجتماعية، وورثت الناشئة الجديدة صفات العرب من غيرة وكرامة. وصفات الأوربيين من دقة الإدراك وسعة الخيال وقوة الفكر.

وهكذا دخل الأندلس العرب فصادقوا البلاد، وقد انطبعت فيها مزايا هذه الأمم. فما لبثوا أن أحدثوا أثرهم، وأنت أعلم الناس بطباع العربي في باديته، وما أفاده بالإسلام من خلق فاضل، ودين قويم يدعو إلى الفضيلة، وبأمر بالإنصاف في المخالطة، ويحض على العلم، ويبعث الهمم للسعي في الرزق والضرب في الأرض، واستثارة ما فيها من خير.

يروى لسان الدين ابن الخطيب عن ابن غالب مؤلف كتاب « فرحة الأنفس » في وصف الشعب العربي الأندلسي :

« أهل الأندلس عرب » في الأنسان والعزة. وعلو الهمة، وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل، والسماحة بما في أيديهم، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية، « هندیون » في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم لها، وضبطهم لها وروايتهم، « بغداديون » في نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهة ذكائهم، وحسن نظرهم، وجودة قرائحهم

ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خوطارهم، « يونانيون » في استنباطهم للمياه، ومعاناتهم لضروب الفراسات، واختيارهم لأجناس الفواكه، وتديبرهم لتركيب الشجر، وتحسينهم للبياتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر. فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة، وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال ومقاساة النصب في تحسين الصناعات، وأحذق الناس بالفروسية، وأبصرهم بالطنن والضرب.

وقد ظل هذا شأن الأندلس مدة استيطانهم لهذه البلاد، وهي زهاء ثمانية قرون، فلما نفذ قضاء الله تعالى عليهم بخروج أكثرهم — وهم المسلمون — وحرمانهم من هذا الوطن الذي كان أعز عليهم من نفوسهم، تفرقوا في بلاد المغرب الأقصى بئر العدة، فأما أهل البادية فقد نزلوا البوادي وخالطوا أهلها وأفادوهم ما كانوا درجوا عليه في موطنهم الأول، فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار، وأحدثوا الأرحى^(١) الطاحنة بالماء، فصلحت بذلك حال مضيعيهم، وكثرت غلاتهم، وعمت الخيرات فيهم. وأما أهل الحواضر، فمالوا إليها في وطنهم الجديد، فأهل الأدب كان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجباة الأموال، حتى كان لا يستخدم بلدي ما وجد أندلسي، وقد فاق أهل الصناعات أهل البلاد، وتولوا إدارة الأعمال.

الحكم العربي في الأندلس

١ — حكم الأندلس الولاية العرب للدولة الأموية بدمشق، وعددهم عشرون، وقد حكموا البلاد ستة وأربعين عاماً (٩٢ — ١٨٣ هـ)^(٢). ولم تكن الأندلس في عهد الولاية ذات صيغة خاصة مستقلة، بل

(١) جمع رحي كما ذكره القاموس.

(٢) هم : طارق بن زياد (٩٢هـ)، وموسى بن نصير (٩٣-٩٥هـ)، وعبد العزيز بن موسى

كانت تابعة لسياسة الدولة، وكان ولائها يتلقون التعليمات من الحاكم العربي الأكبر في القيروان. ويأخذون الولاية من هذا الحاكم، ومن الخليفة نفسه، وفي هذا العهد كثرت الفتوحات :

فقد حمل عبد الرحمن الغافقي لواء الجهاد في سبيل الإسلام فاتحاً مظفراً في جنوب فرنسا حتى استولى على مدينة (بور دو) وكان بينه وبين باريس نفسها أربعون كيلومتراً. وكان المسلمون رضي الله عنهم يأملون — لما لم ييأهم فتح القسطنطينية من الشرق — أن يفتحوا بلاد أوربا إلى أن يصلوا إليها من الغرب، ويصبح الأوروبيون بالإسلام إخواناً.

ولما اجتاز عبد الرحمن « بواتيه » في طريقه إلى باريس لقيه جيش من الفرنسيين عام ١١٤ هـ، ويقود هذا الجيش أمير اسمه « شارل » وكان كبير وزراء فرنسا، التقى الجمعان فصبروا وصابروا سبعة أيام كاد

ابن نصير (٩٥ — ٩٨ هـ) وقد مات مقتولاً، وأبو أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير (٩٨—١٠٠هـ)، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي (١٠٠—١٠٣هـ) والسمح بن مالك من قبل عمر بن عبد العزيز (١٠٣—١٠٤هـ)، وقد بنى قنطرة قرطبة وأوغل في فتح شمال اسبانيا مما بناه جنوب فرنسا حتى استشهد بالقرب من مدينة « ليون »، ونجا قائد جيشه عبد الرحمن الغافقي، ثم عتبة بن سحيم الكلبي (١٠٤—١٠٨هـ)، ثم عزرة بن عبد الله الفهري (١٠٨هـ)، ثم يحيى بن سلمة (١٠٨—١٠٩هـ)، ثم عثمان بن أبي نسة (١٠٩—١١٠هـ)، ثم حذيفة بن الأحوص (١١٠—١١١هـ)، ثم الهيثم بن عدي (١١١—١١٢هـ)، ثم عبد الرحمن الغافقي (١١٢—١١٤هـ) وهو بطل معركة تورعام ١١٤هـ على أرض فرنسا، وقد قتل فيها وهزم جيشه، ثم عبد الملك بن قطن الفهري (١١٤—١١٦هـ) وقد عزل، ثم عفة الحجاج السلولي (١١٦—١٢١هـ)، ثم تلا ذلك عهد الثورات : ثورة ابن قطن في الأندلس وثورة كلثوم بن عياض القشيري في المغرب، ثم ثار الجنود البرابرة في الأندلس على ابن قطن وعرب الأندلس، ثم ثورة جنود الشام على ابن قطن حيث قتل، وتولى حسام بن ضرار الكلبي (١٢٥—١٢٨هـ)، ثم ثوابة بن سلامة الحضامي (١٢٩—١٣٢هـ) ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري (١٣٢—١٣٨هـ). ودخل عبد الرحمن الداخل بلاد الأندلس، واستولى على مقاليد الأمور فيها، حيث انتزعها بالقوة من يوسف الفهري.

المسلمون يجنون من ورائها النصر، لولا ما كانوا قد حلوا معهم من أسباب الفشل والخذلان، فقد كان المسلمون اصطحبوا معهم الأسلاب والسبايا والأموال التي غنموها في المعارك التي كانت قبل هذه المعركة، فكثرت بها أتعالمهم وثقلت بها معونتهم، واحتاجوا لرعايتها إلى عنت غير يسير. وبدأ للفرنسيين وقد أذنت الشمس بالمغيب أن يهجم فريق منهم، يستنقون هذه الأسلاب يشاغلون المسلمين بذلك، فتجحت الخطة وانقسم الجيش الإسلامي : فريق إلى الضمائم يحميها وفريق يحارب المقاتلين. وعاجل القتل الأمير عبد الرحمن العافقي فقتلته في الأعضاد ومزق وحدة الجيش فتوزعت الأهواء، فلما جن الليل وتحاجز الفريقان تحمل المسلمون في جنح الظلام وعجلوا حتى عن جنودهم الجرحى فلم يحملوهم معهم، فأصبح شارل مارتل وقد تبدل خوفه أمانة وغير في رأيه النهار ما كان الليل قد أنذره به من موقعة حامية الوطيس يخشى مغبتها، ووجد الميدان بلقعا إلا من أنين الجرحى فأجهز عليهم، ولكنه لم يجرؤ أن يتبع جيش المسلمين.

عرفت هذه الموقعة بواقعة بلاط الشهداء، أولئك الذين سقوا أرض فرنسا بدمائهم الذكية لتتهز فتربو بالإيمان وبالإسلام، ولكن كان غير ما كانوا يريدون، ويعتبرها التاريخ من مواقفه الحاسمة، فقد حيل بها بين المسلمين وبين ما كانوا يشتهون، وانتصبت حدا فاصلا بين المسيحية وبين تقدم الإسلام^(١).

٢ — ثم دخل الأندلس اموي طموح هو عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام الأموي واستولى على مقاليد الحكم فيها بالسياسة والدهاء، وكان عبد الرحمن أحد الذين تمكنوا من النجاة من أيدي العباسيين وطلبهم. ولد عبد الرحمن عام ١١٣ هـ في دمشق، وجده هشام خليفة للمسلمين (١٠٥ — ١٢٥ هـ)، وتوفي والده في حياة أبيه، وكان الناس يتنبأون

(١) ١٢ تاريخ العرب في الأندلس — عبد الفتاح بدوي.

لعبد الرحمن بمستقبل كبير حتى قال مسلمة بن عبد الملك فيه : « سيكون لهذا الفتى بالمغرب الأمر العظيم »، وانتهت الدولة الأموية وخلفتها الدولة العباسية. وكان السفاح أول خلفائها أشد الناس قسوة على الأمويين وقتلا لزعمائهم وسفكا لدمائهم، دهم بيت عبد الرحمن، وقتل يحيى أخوه، وتمكن عبد الرحمن من الفرار، ومحدثنا هو عن فراره فيقول: (١)
 إنني لجالس يوماً في تلك القرية في ظلمة بيت توأرت فيه لرمد كان بي وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدامي إذ دخل الصبي فرعاً باكياً، فأهوى إلى حجري، فجعلت أدفعه لما كان بي، ويأبى إلا التعلق وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأنظر فاذا الروع قد نزل بالقرية ونظرت فاذا الرايات السود عليها منحطة وأخ لي حدث السن كان معي يشتد هاربا ويقول : النجاة يا أخي فهذه رايات المسودة، فضربت بيدي إلى دنائير تناولتها ونجوت بنفسي والصبي معي، وأعلمت أخواتي متوجهي وأمرتهم أن يلحقنني ومولاي بدر معهن وخرجت، فكمنت في موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعة حتى اقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم تجد أثراً ومضيت ولحقتي بدر فأتيت رجلاً من معارفي بشط الفرات، وأمرته أن يتناع لي دواب وما يصلح لسفري فدل على عبد سوء له فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا تنادينا من الشط : ارجعا لا بأس عليكما، فسيحت حائماً لنفسي وسبح الغلام أخي فلما قطعنا نصف الفرات قصر أخي فالتفت لأقوي من قلبه وإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه عن نفسه وناديه : تقتل يا أخي، لي لي، وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشي الفرق فاستعجل الانقلاب نحوهم وقطعت أنا الفرات ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه فاحتملت فيه ثكلاً ملائياً مخافة ومضيت إلى وجهي أحسب أنني طائر فلجأت إلى غيضة فتوأرت فيها حتى انقطع عني الطلب، ثم خرجت هارباً حتى وصلت إلى افرقيا.

(١) راجع ٢٢ تاريخ الأندلس - عبد الفلاح البديوي، وكتاب « صقر فريش » لعلي أدهم.

وظل عبد الرحمن يتقلب في البلاد بالمغرب خمس سنين، وأراد الذهاب إلى الأندلس : لأن فيها أملاك جده هشام وقد وهبها لحفيده عبد الرحمن، ولطموحه في إمارتها، وفي ربيع الآخر ١٣٨ هـ - ٧٥٥ م دخل عبد الرحمن البلاد ونودي به أميراً على الأندلس بتدبير اليمانية وجنود الشام في الأندلس في ألبيره، وسار عبد الرحمن إلى أشبيلية وانتصر فيها في يوم عيد الاضحى (١٣٨ هـ - ٧٥٦ م) على جيوش أمير الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري وبعد مناوشات كثيرة عقد صلح بين يوسف وعبد الرحمن، تنازل فيه يوسف عن الإمارة لعبد الرحمن، على أن يأمن يوسف على نفسه وأتباعه، ودخل عبد الرحمن بعد ذلك عاصمة قرطبة ظافراً منصوراً في صفر ١٣٩ هـ يوليو ٧٥٦ م، ثم نكث يوسف قتل، وقتل الصميل، وانتصر على العلاء بن مغيث الذي دخل الأندلس واليا من قبل الخليفة المنصور عام ١٤٦ هـ، كما انتصر على أتباع يوسف الفهري في طليطلة، وعلى اليمانيين، وعلى ابن أبي الصباح حاكم أشبيلية لعبد الرحمن، وعلى البربر الثائرين، وعلى كثير من الثورات الداخلية، وعلى جيوش شارلمان الذي تحرك للقضاء على ملك الداخل تنفيذاً لأغراض هارون الرشيد في بغداد. وأسس عبد الرحمن لنفسه ولأحفاده دولة عظيمة واسعة الأرجاء امتد حكمها نحو ثلاثة قرون (١٣٨ - ٤٢٨ هـ)...

هذا هو صقر قريش الذي انقض على الأندلس فاختطفها واستأثر بها لنفسه وبنيه من بعده حتى حين، قال أبو جعفر المنصور يوماً لجلسائه : تعلمون من صقر قريش ؟ قالوا: أمير المؤمنين أيده الله، قال: ليس ذلك، قالوا: فعبد الملك بن مروان، قال: لا، قالوا: ما هو، وضربوا في عرض الحديث فقال أبو جعفر : فتى قريش الأحوذى الفذ الذي قذف بنفسه في لجج المهالك لا ابتناء مجده؛ فافتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع، عصبية الجند، ضرب بين جنودها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، حتى انقاد له عصبهم، وذل أبهم، وإن ذلك هو الفتى كل الفتى، لا يكذب مادحه، وقد سكن قرطبة وبنى بها القصر والمسجد الجامع،

ولقب نفسه بالداخل لأنه أول من دخل الأندلس من بني مروان، ولقب هو وذريته بالأمراء أبناء الخلفاء، حتى جاء عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ هـ — ٣٥٠ هـ). فلقب نفسه «أمير المؤمنين» .. وما أصدق أبا جعفر المنصور إذ نوه بعصامية الداخل وعيقريته، ويروي عن المنصور في رواية أخرى :

« لا تعجبوا لامتناد أمرنا، مع طول مراسه وقوة أسبابه، فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذى القذ في جميع شؤونه، وعدمه لأهله ونسبه، وتسليه عن جميع ذلك ببعده مرق همته، ومضاء عزيمته، حتى قذف بنفسه في لج المهالك لا ابتناء مجده، فاقتمح جزيرة شاسعة المحل، نائية المطمع، عصبية الجند ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته. واستمال قلوب رعيته بقضية سياسته، حتى انقاد له عصيهم، وذل أبيهم، فاستولى فيها على أريكته، ملكا على قطيعته، قاهرا لأعدائه، حاميا لذماره، مانعا لحوزته، خالطا الرغبة إليه بالرهبة منه، إن ذلك لمو الفتى كل الفتى، لا يكذب مادحه.

وقد ظل الأمر لبني أمية إلى سنة ٤٢٨ هـ، وتولى الحكم منهم ستة عشر اميرا^(١)، وكان المستعين بالله الأموي قد استعان بالقاسم وعلى ابني

(١) هم : عبد الرحمن الداخل (١٢٨-١٧٢هـ)، هشام الأول ابن الداخل عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام (١٧٢-١٨٠هـ)، والحكم الأول ابن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ) وعبد الرحمن الثاني ابن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ) وفي عهده قدم زرباب المغني إلى الأندلس فأكرم وفادته، ومحمد الأول ابن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣ هـ)، ولعباس بن فرنانس شعر فيه (ج ٣ العقد القريد)، والمنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥هـ) وعبدالله ابن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ)، وعبد الرحمن الثالث ابن محمد (٣٠٠-٣٥٠هـ) والحكم الثاني (٣٥٠-٣٦٦هـ) وهشام الثاني المؤيد (٣٦٦-٣٩٩هـ) وقد استبد بالأمر في دولته حاجبه المنصور بن أبي عامر المتوفى عام ٣٩٣ هـ ومحمد المهدي (٣٩٩-٤٠٠هـ)، وسليمان المستعين (٤٠٠-٤٠٧هـ)، وعبد الرحمن الرابع (٤٠٧-٤١٢هـ)، وعبد الرحمن الخامس (٤١٢-٤١٦هـ) وهشام الثالث المعتمد (٤١٦-٤٢٨هـ).

حمود وهما من أعقاب الأدارسة الذين حكموا المغرب من عام ١٧٢ حتى عام ٣١٣ هـ وذلك بعد انقراض دولة الأدارسة بفاس، وجعلهما قائدين على البربر والعبيد في بعض حروبه، ثم عقد للقاسم على الجزيرة الخضراء، ولعلي على طنجة. فطمع علي في الخلافة، وادعى أن هشام الثاني كتب له بالعهد، ودخل قرطبة ولقب نفسه بالناصر، وبقي حكم الأندلس بين بني حمود وبني أمية ست سنين (٤٢٢ - ٤٢٨ هـ)، وهو عام انتهاء الحكم الأموي في الأندلس وملك بني حمود لها واستمر حكمهم لها حتى عام ٤٥٠ هـ.

وقد بلغت الدولة في عهد الأمويين ذروة المجد، وخطب ودها ملوك الغرب، وأصبحت قرطبة قبلة الملوك، وكعبة العلماء، وملاذ الحضارة والثقافة، ولقب الناصر نفسه بالخليفة، ولما ضعفت الدولة في آخر عهدها كان الحجاب هم كل شيء في الدولة، فالمنصور بن أبي عامر حاجب هشام الثاني كان بيده كل الأمور، فلما مات عام ٣٩٤ هـ خلفه ابنه أبو مروان عبد الملك بن أبي عامر على الوزارة والحجابة لهشام ولقب نفسه بالمظفر، وكان أحرص الناس على جمع علوم الأدب واللغة والتاريخ، وانتخب مما جمع له كتاباً كبيراً سماه «المظفري»، واستمر أبناؤه يحكمون بطليوس إلى عام ٤٨٥ هـ، وكانت أيامهم مواسم للأدب، وملاذاً للعلم والعلماء، وفيهم نظم الوزير ابن عبدون المتوفى عام ٥٢٠ هـ قصيدته الرائية المشهورة.

وأشهر ملوك الأندلس هو الناصر، الذي شجع العلوم والآداب والثقافة تشجيعاً كبيراً.

« ولما استفحل ملك الناصر^(١)، صرف نظره إلى تشييد المباني والقصور وكان جده الأمير محمد، وأبوه عبد الرحمن الأوسط، وجده

(١) عن ابن خلدون.

الحكم، قد اختلفوا في ذلك وبنوا قصورهم على أكبر الأنفاق والضخامة، وكان منها المجلس الزاهر والبهو الكامل والقصر المنيف، فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم وسماه دار الروضة، وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل، واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية، ثم أخذ في بناء المنتزهات، فاتخذ مينا الناعورة خارج القصور، وساق لها الماء من أعلى الجبل — على بعد المسافة.

ثم اختط مدينة الزهراء، واتخذها منزله، وكرسيا للملك، فأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما علا على مبانيهم الأولى، واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء، متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظلمة بالشياك، واتخذ فيها داراً لصناعة آلات السلاح للحرب والحلى للزينة، وغير ذلك من المهن.

وأمر أن تعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة، وقاية للناس من حر الشمس^(١).

وقد عني الناصر عناية خاصة بإنشاء نافورات من المرمر الجميل في جوامع قرطبة وإشبيلية، يكتنفها بوح يفرس فيها شجر البرتقال والآس وغيرهما.

وأصلح قنطرة النهر الكبير، وضرب نقوداً جديدة وضع عليها اسمه وألقابه^(٢).

ومما استدل به بعض المؤرخين على رقي عصره، ما حكوه من أنه أراد الفصد ذات يوم، فقعده بالبهو في المجلس الكبير، المشرف على مدينته

(١) عن ابن خلدون.

(٢) وكان ذلك في السنة التي تلقب فيها بالخلافة أي في سنة (٣١٦هـ). فأمر بإقامة دار السكة داخل قرطبة، لضرب الدينار والدراهم، وكانت مثاقيله ودراهمه محضاً من نحاس الذهب والفضة.

بالزهراء، واستدعى الطبيب لذلك، وأخذ الطبيب الآلة، وحس يد الناصر،
وإنه لكذلك، وإذا برزور قد أطل، فصعد على إناء ذهب بالجلس،
وأنشد :

أيها الفاصد رققا بأمر المؤمنين
إنما تفصد عرقا فيه محيا العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة، فاستطرفه الناصر وسريه، وسأل
عمن اهتدى إلى ذلك وعلم الزرور، فذكر له أن السيدة الكبرى مرجانة
أم ولده ولي عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك وأعدته لهذا الأمر.
قالوا : « فوهب لها ما ينيف على ٣٠ ألف دينار! ».

وقد أصاب المؤرخون في تسميتهم هذا العصر الأندلسي بالعصر الذهبي
فقد نفقت فيه سوق العلم والأدب وارتقت فيه الفنون، فكنت ترى
أتى ذهبت مجالس أدب ومجالس علم ومجالس غناء، وكان بلاط الناصر
مزدهجاً بالعلماء ورجال الأدب والفن.

ولما عظم أمر الناصر، وارتفع شأنه، رغب في مخالفته حتى أشد
الملوك صلفاً — كما يقول دوزي — وكان من بين هؤلاء الملوك قسطنطين
ملك الروم الذي بعث إليه بهديته المشهورة وأرسل معها كتاباً يرغب
فيه تجديد المخالفة القديمة التي كانت بين أسلافهما عوضاً مما كان منها
مع خلفاء بغداد. قالوا : « وكتب هذا الكتاب بحروف من ذهب في
رق سماوي اللون، وفيه طرس سماوي أيضاً كتب بحروف من القضة
يصف الهدية وأصنافها بالخط الأغرقي. »

وكان الناصر يرسل إلى القسطنطينية والعراق والحجاز والشام ومصر
وإفريقية من يشتري له الكتب ويحصل له من ذخائرها وأصولها المهمة^(١)

(١) نفع الطيب ١٧٠ : ١.

وأرى خلفه المستنصر على الغاية، فجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد قبله من الملوك، حتى بلغ عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعة وأربعين في كل واحدة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين، وبعث في كتاب (الأغاني) بألف دينار ذهباً، ويتجلى حبه للعلم والعلماء في استقباله العظيم لأبي علي الفاي، واحتفائه به، وقد اجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وقد حققوا أنها بلغت سبعين مكتبة كانت تحفل بأربعمئة ألف مجلد^(١)، وكان هو نفسه واسع الاطلاع، قلما يوجد كتاب في خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظراً، في أي فن.

٣ — ثم حكم الأندلس ملوك الطوائف نحو ست وخمسين سنة، حين انقرض ملك الأمويين، وانقرض عقد الدولة، وانتثر سلك الخلافة، وقام في كل جهة أمير؛ وكان من أشهر الأمراء: بنو جهور بقرطبة (٤٢٥ — ٤٦١ هـ)^(٢) وبنو عباد باشبيلية (٤١٤ — ٤٨٤)^(٣) وبنو حماد

(١) المرجع ١٨٤ : ١.

(٢) منهم أبو الحزم بن جهور المتوفي عام ٤٣٥ هـ وتولى ابن زيدون له الوزارة ولما غضب عليه استعطفه بالرسالة الجديدة، وبتنهى نسبه إلى أبي عبدة الكلبي جدهم الذي قدم الأندلس، وكانوا ذوي شرف في قرطبة. وتولوا الوزارة أيام المستنصر وبنو عامر، ولما خلت قرطبة من الأمويين وبنو حمود اجتمع الناس على جهور بن محمد ابن جهور سنة ٤٢٢ هـ، إذ كان حازماً عاقلاً، لم يخف غمار الفتن التي تداولت قرطبة، بل ترك الأمور للعصبة تشيع نهمها وتشفي غلتها. وقد علم أن هذه الفتن الهوج لا ينشأ عليها ملك، ولا يستقر سلطان، فترك الفتن حتى فني فيها ذووها فلما خلا له الجو، وصفر الفناء، وأقفر النادي من الرؤساء، وأمكنته الفرصة وثب عليها، ولم يتحول عن داره إلى قصر الخلافة، وكان على سنن أهل الفضل، يعود المرضى ويشهد الجنائز، ولا يحتجب عن الناس، وقد نشر الأمن والطمأنينة، ووسط الأمور بحكمة وسداد، ورفع لواء الحضارة، حتى عادت به قرطبة إلى أكمل حالاتها من الحضارة والرخاء والأمن، إذ منع عنها من كان يطلها من البرابرة، بخفض الجناح، والرفق في المعاملة حتى حصل على سلمهم واستقرار مرافق بلادهم. وقد تضاعف ثراؤه حتى صار لا تقع العين على أغنى منه. إلا أنه حاط ذلك بالخل الشديد، والمنع الخالص؛ اللذين لولاهما ما وجد عاليه فيه طمناً، وكان مع =

== هذا من أشد الناس تواضعاً، وأشبههم ظاهراً بباطن؛ وكان أديباً يتذوق الأدب، وشاعراً يشدو بالشعر، من ذلك قوله في تفضيل الورد :

الورد أحسن ما رأيت عين وأذ	كبي ما سقى ماء السحاب الجائد
خضعت نولوير الرياض لحسنه	فذللت تقصاد وهي شوارد
وإذا تبدى الورد في أغصانه	يزهو فذا ميت وهذا حامد
وإذا أتى وفد الربيع مبشراً	يطلووح صفحته فنعيم الوافد
وإذا تعرى الورد من أوراقه	بقيت عوارقه فهسن عوالد

ولم تزل قرطبة به مشرقة، وغصون الأمل فيها مورقة، حتى مات سنة ٤٣٥هـ فتولى بعده ابنه أبو الوليد غافر الأمور على ما كانت عليه أيام والده، حتى جاء بعده ابنه عبد الملك، فقلبه ابن ذي النون على قرطبة، ثم استولى عليها المعتد ابن عباد سنة ٤٦١ هـ.

(٣) تولى أبو القاسم بن عباد القضاء على إشبيلية، والقتن عاصفة، والثورات جامحة؛ ثارت قرطبة على القاسم بن حمود حتى خرج عنها، وقصد إشبيلية، ولكنها حذت حذو قرطبة بزعامه هذا القاضي، ونجحت في صد اللاجيء. واجتمع أهل إشبيلية على القاضي ابن عباد؛ فقام الأمر حتى مات سنة ٤٣٣هـ، فخلفه ابنه المعتد وكان شديداً حازماً قاسياً داهية، أوتي من جمال الصورة، وتمام الخلفة. وقخامة الهيئة، وسياسة البنان. وحضور الخاطر، وصدق الحسن ما فاق به نظرائه، وكان إلى هذا شاعراً بحسن الصنعة، ويعرف للشعراء قدرهم. وتولى بعده ابنه المعتد سنة ٤٦١هـ. وكان يشبه بهارون الواثق بالله من ملوك بني العباس : ذكاء نفس، وغزارة أدب. وكان شعره كأنه الحلل المنشرة، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من الملوك. وكان أندى ملوك الأندلس راحة. وأرحبهم ساحة، وكانت حضرته ملتقى الرجال، وموسم الشعراء وأفاضل الأدباء. وكانت قرطبة أشهى عمله، وكان روم أمرها منتهى أمه، فما زال يعمل الحيلة حتى استولى عليها، فأعطى زمامها لابنه الظافر حتى قتل بها سنة ٤٦٦هـ في حالة مؤثرة وصفها صاحب الفلاحة، ثم ابنه المأمون حتى قتل كذلك أيضاً، وكانت دولة بني عباد من أبهج الدول كرمياً وفضلاً وأديباً، حتى قال أبو بكر الداني : إنها أشبه شيء بالدولة العباسية بغداد : سعة مكارم وجمع فضائل، ولذلك ألف فيها كتاباً مستقلاً أسماه « الاعتماد في أخبار بني عباد ». أما نهاية المعتد فقد كانت من أفجع النهايات، وحسبك أن تقرأ شعره الذي يصور فيه نكته « كان المعتد أكبر ملوك الطوائف، وأكثرهم بلاداً، وكان ==

في مالقة (٤٠٧ - ٤٤٩ هـ) وبنو الألفس بيطليوس، ومنهم المظفر صاحب التاريخ المظفري واستمر حكم أبنائه فيها إلى عام ٤٨٥ هـ، وبنو هود بسرقسطة (٤١٢ - ٥٢٦ هـ)، وبنو ذي النون بطليطلة (٤٢٧ - ٤٧٨ هـ)، وبنو زيري بن مباد يغرناطة (٤١٢ - ٤٨٣ هـ)، وبنو صمادح في المرية الذي انتهى عام ٤٨٤ هـ، والعامريون بشاطبة، وهكذا انقسمت البلاد فرقا ودولا، وأصبح كل أمير في جهة من الجهات ملكا.

يؤدي الضريبة للأدقونش، فلما ملك هذا طليطلة لم يعد يقبل ضريبة المعتمد طمعاً في أخذ بلاده، فأرسل إليه يتهدده. فغضب المعتمد الرسول وقتل من معه، فأستعد الأدقونش لقتاله، فاستعان المعتمد بالأمير يوسف بن تاشفين، فتم له النصر، وهرب الأدقونش، وفي العام التالي غدر يوسف هذا بالمعتمد بتأثير الدس والوشاية، فأغار على بلاد المعتمد، وانتزعها من أبنائه، ثم حاصر المعتمد باشبيلية وقبض عليه واعتقله بمدينة «أغمات»، وأودعه ذل قيدها وظلام سجنها، وشرد أبنائه، وذلت بناته، وتحطم ملكه الشامخ، وانطوى بساط عزه ومجده، ودخلت عليه بناته في سجنه يوم عيد، وكان يفرق للناس بالأجرة في «أغمات» حتى إن إحداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذي كان في خدمة أبيها وهو في سلطانه، فرأهن المعتمد في أطمار بالية وحالة رثة، فصدعن قلبه فقال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً	فجاءك العيد في أغمات مأسوراً
ترى بناتك في الأطمار جائعة	يفزلن للناس لا يملكن فطميرا
برزون نحوك للتسليم خاشعة	أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطآن في الطين والأقدام حافية	كأنما لم تظأ مسكا وكلقورا
من بات بعدك في ملك يسر به	فلنسا بات بالأحلام مغرورا

وما زال يرسل من زفراته، ويسكب من دموعه، حتى مات بالسجن سنة ٤٨٨ هـ، فلما مات زار قبره جماعة من الشعراء منهم ابن اللبنة الذي وقف في يوم عيد والناس عند قبور أهلهم، فأنشد بصوت عال:

ملك الملوك أسامح فأنسادي	أم قد عدتلك عن السماع عواد
لما نقلت عن القصور ولم تكن	فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعاً	وجعلت قبرك موضع الإنشاد

وعلى الرغم من الضعف السياسي الذي كانت عليه الأندلس في عهد ملوك الطوائف حيث احتدمت الخصومات والحروب بين الحاكمين، واستعان كل أمير على خصومه بأية قوة تنصره، ولو كانت هذه القوة هي قوة المسيحيين أعداء البلاد والإسلام؛ فإن العلوم والفنون والآداب ازدهرت في هذا العهد ازدهارا كبيرا، وتنافس الملوك في تشجيع العلماء والأدباء، وحاول كل أمير أن يتشبه بالخلفاء في بسطة اليد وتقريب الشعراء، يقول أبو علي الحسن بن رشيق المتوفى عام ٤٥٦ هـ، الذي عاش في عهد ملوك الطوائف :

مما يزهديني في أرض أندلس أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كاطر يحكي انتفاخا صولة الأسد

٤ — وبعد عهد ملوك الطوائف صارت الأندلس خاضعة لحكم دولتي البربر الملتصين أو المرابطين، والموحدين — وذلك نحو خمس وأربعين ومائة سنة (٤٨٤ — ٦٢٩ هـ)، وفي عهد هاتين الدولتين صارت الأندلس بعد عصرها الذهبي ولاية تابعة للمغرب، حكمها الملتصون^(١) ثمانيا وخمسين سنة (٤٨٤ — ٥٤١ هـ)، وهم من قبائل صنهاجة، كانوا قبل الفتح الإسلامي متوطنين في القفار، وكانوا على دين الجوسية، قد اتخذوا اللثام شعاراً لهم، وكانت الرياسة فيهم في لمتونة، وأول من حكم الأندلس منهم يوسف بن تاشفين، استصرخ به أهل البلاد، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد، لما طمع ملك الجلالقة فيها، فلبى يوسف الدعوة، وقصد إشبيلية، فخرج ملكها للقاته وكذلك فعل غيره من الملوك، وساروا معه بجيوشهم شاربة الطاغية، فأزاح كابوسه عن بعض بلاد المسلمين، وانتصر على الفونس في موقعة الزلاقة يوم الجمعة ١٣ رمضان سنة ٤٨٠

(١) كانت دولة الملتصين أو المرابطين قائمة بالمغرب الأقصى، وقد أسسها يوسف بن تاشفين الصنهاجي، واتخذ لمتونة عاصمة له.

هـ، ثم عاد إلى المغرب فاستشرى الطاغية ثانية فعاد إليه يوسف فرد اعتدائه، ودانت له ملوك الطوائف حين رأوا أنهم من الضعف إما أن يخضعوا له أو للطاغية. وأسر ابن تاشفين المعتمد بن عباد، وسجنه بأغمار من بر العدو حتى مات سنة ٤٨٧ هـ، وقيل إن الذي أوقع به عند ابن تاشفين هو المعتصم بن صمادح صاحب المرية، وكان يحقد على المعتمد بن عباد^(١) وقد اتخذ يوسف قرطبة عاصمة للملك، وكان يدعو على منابر قرطبة للخليفة العباسي، ودانت بلاد الأندلس لحكمه واستمر يجاهد ويغزو الإفرنج حتى مات سنة ٤٩٣ هـ، فقام من بعده ابنه علي ولقب نفسه بلقب أبيه : أمير المسلمين وأخذ يصد الإفرنج عن البلاد، وكان لا بيت في صغير ولا في كبير إلا بمحضرة أربعة من الفقهاء، كما كان يبغض مباحث الفلسفة والجدل والكلام، فأمر أن لا يخوض فيها أحد، وتوعد من وجد عنده كتاب فيها، ولما وصلت إلى بلاد المغرب كتب الغزالي أمر بإحراقها، وانقطع للعبادة فذهبت ربح دولة المرابطين؛ وكثرت الفتن والثورات حتى مات عام ٥٣٧ هـ؛ وخلفه ابنه تاشفين ابن علي الذي مات مقتولاً عام ٥٤٠ هـ.

وفي وسط الاضطراب والضعف قام ابن تومرت المهدي بسوس، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فأزره في دعوته عبد المؤمن بن علي، وباع الناس محمد بن تومرت^(٢) بالإمارة فأنشأ في المغرب دولة جديدة سميت

(١) نظم المعتمد قبل وفاته قصيدة مؤثرة أمر أن تكتب على قبره ومطلعها :

قبر الغريب سقاك الراح الغادي حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد
وكان للمعتمد ولد يلقب بفخر الدولة وكان ولي عهده، فما برحت به الحوادث حتى تعلم صنعة الصياغة فمر به ابن اللبابة فخأثر مما رأى وأنشد قصيدته :

أذكى القلوب أسى، أبكى العيون دما عطب وجدناك فيه يشبه العدماء

(٢) ألف ابن تومرت كتاباً في أصول الدين على مذهب الأشاعرة، وكان أشعرياً في أكثر مسائل علم الكلام، وقد تأثر بأراء أستاذه الغزالي، وحاول نشرها في المغرب =

دولة الموحدين، وصارت بلاد المغرب ومراكش كلها تحت حكمهم، ومات ابن تومرت عام ٥٣٤ هـ، فخلفه عبد المؤمن بن علي الذي فتح البلاد وطوى الممالك، ولما مات علي بن تاشفين عام ٥٣٧ هـ فتح عبد المؤمن الأندلس عام ٥٣٨ هـ فانتزعها من أيدي الملثمين، واقتصر أثر تاشفين بن علي حتى قتله عام ٥٤٠ هـ، وبذلك انتهت دولة المرابطين.

ولما استتب الأمر لعبد المؤمن بن علي ولى ابنه يوسف علي اشبيلية؛ وولى ابنه عثمان علي غرناطة، ثم عاد هو إلى مراكش ظافراً منصوراً فأقام بها حتى توفي عام ٥٥٨ هـ، وكانت دولة الموحدين تشمل شمال بلاد المغرب من طرابلس إلى مراكش، كما كانت تشمل الأندلس، وترك عبد المؤمن لأسرته عرشاً وطيداً وملكاً كبيراً، خلفه عليه ابنه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن علي الملك والولاية (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ)، ثم خلفه المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ)، ثم ابنه الناصر أبو عبد الله محمد بن يعقوب (٥٩٥ — ٦١٠ هـ)، ثم ابنه يوسف (٦١٠ — ٦٢١ هـ)، وحكم الموحدون البلاد نحو سبع وثمانين سنة (٥٤١ — ٦٢٩ هـ) إلى أن تغلب ابن هود عليهم في بعض البلاد عام ٦٢٢ هـ؛ وزالت دولتهم ودولة ابن هود عام ٦٢٩ حيث حكم البلاد بنو الأحمر عام ٦٢٩ هـ.

٥ — ولما ضعفت دولة الموحدين، ودخلها الوهن قام ابن الأحمر وقضى على دولة الموحدين بالأندلس عام ٦٢٩ هـ، وأسس لنفسه مملكة صغيرة عاصمتها غرناطة واستمر الملك في بيته أمداً طويلاً (٦٢٩ —

== ووافق المحترلة في نفي الصفات وفي مسائل أخرى قليلة، وقد توفي ابن تومرت عام ٥٣٤ هـ، وقد سماوا الموحدين تسجيلاً لتوحيدهم الله وتمريضاً بمن جنح عن التأويل ووقف عند الظاهر.

٨٩٧ هـ) وقد حكم من ملوك هذه الدولة

(١) ألف لسان الدين ابن الخيبر كتاباً في ملوك هذه الدولة حتى عصره سماه «اللمحة البدرية في الدولة النصرانية» وقد نشر بالقاهرة عام ١٣٤٧هـ وعاصمة هذه الدولة وهي غرناطة بينها وبين قرطبة تسعون ميلاً وفحصها الأفيح — المشبه بالقوطة — حديث الركاب وسمر الليالي. قد دحاه الله في بساطه تخترقه الجداول والأنهار، وتتراحم به القرى والجنات : في أحسن الوضع وأجمل البناء، ذرع أربعين ميلاً، تحديق الهضاب والجبال المتطامنة منه بشكل ثلثي دائرة، فعدوات المدينة منه فيما يلي المرك، مستدة إلى أطواد سامية، وهضاب عالية، ومناظر مشرفة.

ويشمل شكل هذه المدينة العظيمة — وما يرجع إليها من أرباضها — على جبال خمسة، وسهل فسيح الساحة، بعيد الأقطار، متراكب العمارة، لا يتخلله خراب ولا بياض على حد ما. عليه كور النخل قد ضم من السهم ما لا يحيط به إلا من كتب الحركات وأحصى الأنفاس. إلى الجسور المحكمة، والمساجد العتيقة، والأسواق المنتظمة. يشق البلد النهر الشهير المسمى بهدارة. أتياً من جهة الشرق، ويجمع بغارجهما بوادي شنجل الآتي من قبلها، فيشق الفحص الأفيح، ولا يزال مدة بما ينضاف إليه من فضول السقي ومواقع الأنهار بأحوازها، إلى أن يمر باشيلية وقد صار نبلاً عظيماً، وفي ضواحي غرناطة مدينة الحمراء، وهي دار الملك مظلة على معمورها في سمت القبلة، تشرف عليه منها الشرفات البيض، والأبراج السامية، والمعازل المنبجة والقصور الرفيعة، تمشي العيون، وتبهر العقول. وتتحدر من فضول مياهها وأفياض حواثرها وبركها في سفحه جداول تسمع على البعد أمزاجها، ويحف بسور المدينة البساتين العريضة المستخلصة، والأدواح الملتفة، فيصير ذلك خلف سياج تلوح نجوم الشرفات البيض أثناء حضراته، فلا تمرى جهة من جهاته عن الجنات والكروم والبساتين. وأما ما حازه السهل من جوفه فمسي عظيمة الخطر، متناهية القيم، تضيق جدة من عدا أهل الملك عن الوفاء بأثمانها. منها ما يفل في السنة شطر الألف من الذهب على عمول أثمان الخضر بهذه المدينة، يختص منها بمستخلص السلطان ما يناهز الثلاثين مئة. ويحيط بها ويتصل بأذيالها من العقار الثمين الذي لا يعرف الجحام ولا يقارق الربيع ما ينتهي المرجع العملي منه إلى نحو خمسة وعشرين ديناراً من الذهب، وفيه من مستخلص السلطان ما تضيق عنه بيوت الأموال ذرعاً، ويرجع إلى دور ناجمة وبروج سامية وبيادر فسيحة وقصاب للحمام والدواجن مائة، منها في حصى البلدة وطلوق سورها من مستخلص السلطان ما يتف على العشرين، بها الحمل الضخمة من الرجال، والفحول الفارحة من الحيوان للثارة وعلاج الفلاحة، وفي كثير منها الحصون والأرجاء والمساجد. ويتخلل هذا المتاع القبيط الذي هو لباب الفلاحة =

كثيراً»، وكانوا يلقبون انفسهم أمراء المسلمين.

وقد استردوا معظم بلاد الأندلس من الاسبانيين، ومنعوا الإتاوة التي كان المسلمون يدفعونها لملك أسبانيا، واستكفروا من الجيوش والأساطيل، وحكموا البلاد أكثر من قرنين ونصف من الزمان، انتعش فيها الأدب، وتقدمت العلوم والفنون، ثم ضعف السلاطين، لكثرة الخلافات والثورات والخصومات؛ ورضوا بأن يقدموا الجزية لفرديناند ملك أرغونة وزوجته ملكة قشتالة؛ ثم أخذ الاسبانيون يحيطون بغرناطة ويحاصرونها من كل جهة، حتى أتم فرديناند محاصرتها عام ٨٩٦ هـ، فاضطر آخر ملوك غرناطة أبو عبد الله إلى عقد معاهدة صلح بينه وبين الاسبانيين الذين لم يلتزموا

وعين هذه المدرة الطيبة سائر القرى والبلاد التي بأيدي الرعية، مجاورة لحدود ما ذكر بلاد عريضة وقرى آهلة : منها ما انبسط وتمدن فاشترك فيه الألوفا من الخلق وتمددت فيه الأشكال، ومنها ما انفرد بمالك واحد أو اثنين فصاعداً وتيف أسماؤها على ثلاثمائة، وتصب في نحو عشرين منها منابر الجمعيات وتمد الأكف البيض وترفع الأموات الفصيحة لله. ويشتمل سور هذه المدينة وما رواه من الأرحاء الطاحنة بالماء المعين على أزيد من مائة وثلاثين رحي.

(١) يتنسب بنو الأحمر إلى سعد بن عباد، وأول ملوكهم هو أبو عبدالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الأنصاري من أبناء الأنصار، وقد ملك غرناطة في رمضان ٦٣٥ هـ إلى أن توفي عام ٦٧١ هـ، وخلفه ابنه أبو عبدالله (٦٧١-٧٠١ هـ)، ثم ابنه أبو عبدالله محمد (٧٠١-٧٠٨ هـ) وقد خلع من الإمارة في يوم الفطر عام ٧٠٨ هـ وتوفي في شوال عام ٧١١ هـ، وخلفه أخوه نصر الذي خلع أخاه (٧١١-٧١٣ هـ) وخلفه ابن عم أبيه، وهو السلطان أبو الوليد اسماعيل بن فرج بن اسماعيل (٧١٣-٧٢٥ هـ)، أما نصر المخلوع فقد مات في مدينة وادي أش عام ٧٢٢ هـ؛ وخلف اسماعيل ابنه محمد (٧٢٥-٧٣٤ هـ) وقتل بظاهر جبل الفتح بأيدي جنده من المغاربة، فتولى الحكم بعده أخوه أبو الحجاج - يوسف (٧٣٤-٧٥٥ هـ)، حيث اغتاله أحد الرعية فخلفه ابنه محمد (٧٥٥-٧٦٠ هـ)، ثم ثار عليه أخوه اسماعيل وتولى الحكم بعده (٧٦٠-٧٦٦ هـ)، ولكن ابن عم له قتله واستولى على الملك.. ومن ملوك بني الأحمر أبو الحجاج يوسف (٧٣٤-٧٥٥ هـ)، وابنه محمد (٧٥٥-٧٦٠ هـ) وقد تولى لهما الوزارة لسان الدين بن الخطيب المتوفى في عام ٧٦٦ هـ. وآخر ملوك بني الأحمر هو أبو عبدالله.

شروطها، فجلا الكثير من العرب إلى بر العدو، وأكره من بقي منهم على التنصر، وأخذهم الاسبانيون قتلاً ونهباً وتشريداً وسجناً وتعذيباً، وبذلك انتهت دولة المسلمين في الأندلس، فلا حول ولا قوة إلا بالله .. وكان نهاية مصرع الأندلس عام ٨٩٧ هـ - ١٤٩٢ م، ولم يكف الاسبانيون عن نفي المسلمين عن البلاد، وإحراق كتبهم، وتبديد تراثهم. وبخروج العرب من هذه البلاد انطفأ مصباح مضيء من مصابيح الإسلام التي بعثت للحياة والنهضة في أوروبا نحو ثمانية قرون.

ولا يمكن وصف معاملة مسيحيي اسبانيا للمسلمين بعد أن طردوهم من البلاد ولا الفظائع التي ذكر صالح الرندي القليل منها دون الكثير، في قصيدته النونية التي يقول فيها :

يا من لذلة قوم بعد عزهم	أحال حالهم جور وطغيان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم	عليهم في ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم	هالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفل حيل بينهما	كما تفسرق أرواح وأبدان
وظفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت	كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العالج للمكروه مكرهه	والعين باكية والقلب ولهان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد	إن كان في القلب إسلام وإيمان

ويقول منها في موضع آخر :

فجائع الدهر أنواع منوعة	وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها	وما لما حل بالاسلام سلوان

ومنها :

يا غافلا وله في الدهر موعظة	إن كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحا يلبيه موطنه	أبعد حمص تغر المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها	وما لها من طوال الدهر نسيان

ومنها :

يا راكبين عناق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقع نيران
وراعمين وراء البحر في دعة لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ عن آل اندلس؟ فقد سرى بحديث القوم ركيان
ألا تفوس أبيات لها هم أما على المجد أنصار وأعوان؟

والقصيدة طويلة وقد اخترنا بعضها وهي تدل على شعور صادق
ونفس متألمة .. ثم هي أيضا تقرر حقيقة تاريخية ووقائع ثابتة، ليس
من شك في وقوعها.

ولم تسقط غرناطة إلا بعد أن حاصر الأسبان والبرتغال سواحل الأندلس
الجنوبية، واستولوا عليها قبل ذلك بمدة كبيرة، فاستولوا على سبتة عام
٨١٨ هـ وعلى جبل طارق عام ٨٦٩ هـ، وعلى طنجة عام ٨٦٩ هـ أيضاً؛
واستولوا كذلك على جميع المدن الأندلسية ما عدا غرناطة وإقليمها وكان
يحتوي نحو مائة مدينة ومائة قرية ونحو مائتي حصن وقلعة.

وقد سقطت غرناطة بعد أربعين عاما من سقوط الأستانة في أيدي
الأتراك عام ٨٥٧ هـ؛ وكان سقوط غرناطة بعد حصار دام سبعة أشهر،
أنهك العرب، حتى كاد الناس يأكل بعضهم بعضاً.

وكان سقوطها نتيجة كذلك لضعف بني الأحمر السياسي؛ وكان حكام
المغرب عاجزين عن نجدة المسلمين في الأندلس إذ كانوا في ضعف وتخاذل
وانقسام شديد، وكان ملك المغرب من بني مرين هو السلطان عبد
الحق بن سعيد المتوفي عام ٩٦٠ هـ، وقد وفد عليه في فاس سلطان
غرناطة بعد تسليمه المدينة لفرديناند وزوجه إيزابيلا، وقد أكرم سلطان
المغرب وفادته هو وأسرته.

وقد اشتملت شروط الصلح التي وضعها أبو عبد الله بن علي آخر

ملوك بني الأحمر على سبعة وستين شرطا تنصب كلها على تأمين المسلمين في الأندلس على أموالهم وأرواحهم وأعراضهم وحريةهم الدينية، وعدم الخيلولة بينهم وبين الهجرة متى شاء واحد منهم ذلك، ولم يف الأسبان المقتصبون بشيء من هذه الشروط.

وكان تسليم أبي عبد الله محمد بن الأحمر في ٢ ربيع الأول عام ٨٩٧ هـ، وهاجر إلى المغرب واستوطن مدينة فاس وعاش بها حتى مات عام ٩٤٠ هـ.

وقد عامل الأسبان المسلمين بقسوة لا مثيل لها، ولما ثار جماعة من البيازين وهم من عرب الأندلس في مدينة غرناطة أتمدت ثورتهم، وقامت محاكم التفتيش تنكل بالمسلمين. وفي عام ١٥٦٣ م ثار أحد سلالة بني سراج، واسمه فرج بن فرج، ولجأ إلى جبال البشترات، وتبعه كثيرون من غرناطة، ونادوا بأحد حفدة خلفاء قرطبة ملكا عليهم باسم محمد ابن أمية، واستمرت هذه الثورة عامين، وقد خلع المسلمون في أثنائها ابن أمية، وولوا أمرهم عبد الله ابن أبيه، وهو أحد الزعماء المشهورين بالبطولة، وما زالوا يجاهدون حتى غلبوا على أمرهم وعلق الأسبان رأس عبد الله على أحد أبواب قرطبة ثلاثين سنة. وأخذوا يطردون العرب من بلادهم جملة، حتى وصل عدد الذين طردوا من الأندلس أكثر من ثلاثة ملايين.

وكانت نكبة الأندلس في عهد بايزيد الثاني سلطان تركيا وقايتاي سلطان مصر، وقد اتفق الملكان على أن يُغزوا أسبانيا بأسطول كبير يسيره ملك تركيا وجيش بري يسيره قايتاي من مصر، ولكن بايزيد شغل بثورة سياسية في مملكته، وقايتاي أرسل إليه الإسبان رسولا أدل له بمعلومات كاذبة عن مصرع الأندلس، ولم تجد رسائل بايزيد الثاني وقايتاي إلى البابا وملكي أسبانيا والبرتغال شيئا في تخفيف معاملة الأسبان للمسلمين المغلوبين في بلادهم، وهكذا أراد الله ولا راد لمشيئته، قل

اللهم مالك الملك تعطي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء^(١).

ويتحدث الأستاذ محمد عبدالله عنان عن أبي عبد الله آخر ملوك الأندلس من بني الأحمر في بحث له فيقول فيما يقول :

كانت ظروف مملكة غرناطة تدعو إلى الألم والأسى، فقد مزقتها الحرب الأهلية شيعا، ونشب النضال من أجل الملك والرياسة بين السلطان أبي الحسن وأخيه محمد بن سعد المعروف بالزغل، ثم بين السلطان الشيخ وابنه الأمير الفتى أبي عبد الله محمد، وانتهى الأمر بأن ظفر الأمير الفتى بالعرش. وفي أثناء ذلك كانت المعارك تضطرم باستمرار بين المسلمين والاسبان حول قواعد الأندلس القليلة الباقية. وفي شهر مارس سنة ١٤٨٣ هزم الإسبان في معركة الشرقية الشهيرة بجوار مالقة، على يد بطل الأندلس يومئذ مولاي الزغل. فانتعشت آمال المسلمين وسرت الحماسة في كل مكان. وأراد السلطان أبو عبد الله أن ينتهز هذه الفرصة لمحاربة النصارى؛ فخرج على رأس قواته من غرناطة ربيع سنة ١٤٨٣ متجها نحو قرطبة. واجتاح في طريقه عدداً من الحصون والضياع، وهزم النصارى في عدة معارك محلية. ولكنه حين عودته أدركه النصارى في ظاهر قلعة « اللسانة » ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ارتد فيها المسلمون إلى ضفاف شينل، وقتل وأسر كثير من قادتهم وفرسانهم. وكان بين الأسرى السلطان أبو عبد الله محمد نفسه، عرفه الجند النصارى أو عرفهم بنفسه نخشية الاعتداء عليه، فأخذوه إلى الكونت دي كابرأ (قبره)، فاستقبله بحفاوة وأدب، وأنزله بأحد الحصون القريبة تحت حراسة قوية. وأخطر في الحال مليكه (فرديناند الكاثوليكي) بالنيا الأليم. فطلب فرديناند أن يؤق بالأسير الملكي إلى قرطبة، وقرر أن يستقبل كما كان يستقبل الأمراء، وأن يحتشد لاستقباله جميع الأشراف والكبراء.

(١) راجع ص ٦١٥ ج ٢ نفع الطيب في سقوط غرناطة .

وهكذا أتى بالسلطان أبي عبد الله من حصن اللسانة في حرس قوي. واحتشد أهل قرطبة أمام الأبواب لرؤية موكب الملك المسلم وكان أبو عبد الله يرتدي ثوباً من القطيفة السوداء، ويركب حصاناً أسود عليه سرج ثمين. وكان وجهه يشع كآية. وكان الشعب القرطبي يحتشد جموعاً غفيرة أمام الأبواب وفي الطرقات ويتدافع بالمناكب لرؤية السلطان المنكود، وأخذ أبو عبد الله أولاً إلى دار الأسقف المواجه للمسجد الجامع، ثم أخذ بعد ذلك إلى قلعة «أو ميناسي» الحصينة. وعومل هناك بكل ما يقتضيه مقامه الملكي من الإكرام، وألحق بخدمته عدة من الحشم المسلمين وأقام في أسره تغلب عليه الكآبة، وهو ينتظر يوم الخلاص.

وكان الاضطراب قد ساد غرناطة على أثر هزيمة مليكها وأسرته. وبادرت أمه السلطانة عائشة الحرة بإرسال سفارة على رأسها الوزير ابن كاشة ليقاوض الملك الإسباني في الإفراج عن الأسير مقابل الشروط التي يرضاهما. وحاول السلطان أبو الحسن والد الأمير الأسير، وكان قد استولى عندئذ على غرناطة، أن يسعى كذلك لدى الملك الكاثوليكي لكي يظيل أسر ولده ويكفيه مؤونة منافسته، أو أن يسليه إليه مقابل الإفراج عن بعض أكابر الأسرى النصارى الذين يحتفظ بهم، فأبى فرديناند هذا العرض واستنكر صدوره من الوالد الحقود.

وعقدت الملكة إيزابيلا الكاثوليكية مجلساً من أكابر رجال البلاط والقادة للبحث فيما إذا كان من الأفضل أن يفرج عن الأسير لقاء شروط حسنة أو أن يبقى في أسره، وبعد مناقشات طويلة روي أن يفرج عنه نظير أفضل الشروط التي يمكن الحصول عليها لأن هذا الإفراج من شأنه أن يزيد في اضطراب الحرب الأهلية بين المسلمين، وأن يعاون بذلك في إضعاف قواهم والتهديد لسحقهم.

وانتهت المفاوضات بين رسل أبي عبد الله وبين الملكين الكاثوليكين على ما يأتي :

ان يعترف أبو عبد الله بطاعة الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابيلا، وأن يدفع لهما جزية سنوية قدرها إثنا عشر دويلا من الذهب، وأن يسلم إليهما في الحال أربعمائة أسير من النصارى الموجودين في سجون غرناطة. ثم يسلم إليهما بعد ذلك كل عام سبعين أسيراً لمدة خمسة أعوام، وأن يقدم ولده الأكبر وإثني عشر عضواً آخرين من أكابر أسرته، وذلك ضماناً بحسن وفائه لشروط المعاهدة.

وتعهد الملكان الكاثوليكيان من جانبهما بالإفراج عنه فوراً، وألا يكلف في حكمه بأي أمر يخالف الشريعة الإسلامية، وأن يعاونه في افتتاح المدن الثائرة عليه في مملكة غرناطة، وهذه متى تم فتحها تغدو واقعة تحت طاعة ملك قشتالة، وأن تستمر هذه الهدنة لمدة عامين من تاريخ الإفراج عن السلطان الأسير.

وفي يوم ٢ سبتمبر سنة ١٤٨٣ بعد أن قضى أبو عبد الله في الأسر بضعة أشهر قدم إلى قرطبة وفد من أكابر الغرناطيين لاستقبال أبي عبد الله واستصحابه. وأقبل أبو عبد الله في ثياب زاهية، وسار الجميع إلى حضرة ملك قشتالة. فاستقبل الملك النصراني أسيره المسلم بحفاوة ورقة، وأعرب أبو عبد الله بواسطة ترجمانه المسلم عما ينتظره من عون ملك قشتالة ورعايته، واقتيد الرهائن المشروط تسليمهم إلى أحد الحصون لحفظهم، وأمر فرديناند أن تقدم إلى أبي عبد الله هدية نفيسة من السهام والثياب والخيل، وسار أبو عبد الله ومعه سرية قوية من الجند القشتاليين حتى وصل إلى أول قلعة أمينة من قلاع المسلمين.

وللملك أبي عبد الله صورة أخذت له خلال أسره وكانت في حوزة أسرة معروفة من الأشراف هي أسرة دي كوردوبا (قرطبة) الإسبانية التي ترجع أصولها إلى أيام الفروسية والحروب بين المسلمين والنصارى. وكان من أعلام هذه الأسرة القائد دون ديجودي كوردوبا، كونت كابرا (قبرة) بطل واقعة اللسانة التي أسر فيها السلطان أبو عبد الله.

والمرجح أن صنع هذه الصورة لأبي عبد الله يرجع إلى فترة أسرته.
وفي بواعث صنعها رأيان أو نظريتان :

١ - أنها صنعت للملك الأسير تحقيقاً لرغبة الكونت دي كابر،
وذلك أنه كان من تقاليد الأشراف الظافرين في المعارك الحربية أن تزين
قبورهم بعد الموت بما غنموا من خصومهم من السلاح والثياب. وقد
رأى الكونت وبعض زملائه أن يعهدوا إلى بعض المصورين برسم صورة
للملك الأسير تكون تذكراً للمعركة، ورمزاً للظفر، ثم يزين بها قبو
مدفنه بعد وفاته مع باقي متعلقات الملك المسلم. ثم تناقل ورثة الكونت
ملكية هذه الصورة بالتعاقب.

٢ - أن يكون الملك فرديناند الكاثوليكي نفسه أو زوجه الملكة
إيزابيلا قد رغب أو رغبت في رسم صورة للملك الأسير لتكون عنواناً
للتصريح، ولتضم إلى الذخائر الملكية. وقد عهد برسمها إلى أحد مصوري
البلاط. ومن المعروف أنه لما توفيت الملكة إيزابيلا، بيعت مجموعة الصور
التي كانت في حوزتها بالمزاد، وكان منها صور للملكين الكاثوليكين
وأعضاء الأسرة المالكة، وصور أخرى لبعض الملوك والأمراء الأجانب،
ومن المحتمل جداً أن تكون صورة الملك المسلم قد آلت بالشراء إلى
أسرة القائد الذي ظفر بأسره أو إلى أحد من المعاصرين الذين اشتركوا
في المعركة، أو غيرهم ممن يهتمون أن يبقى هذا التذكار لديهم، ثم آلت
بعد ذلك إلى أسرة كابر.

وعلى أي حال، ففي أوائل القرن التاسع عشر، كانت صورة السلطان
أبي عبد الله ضمن مجموعة « الدون كرسطوبال رافاييل فرناندث دي
كردوبا كونت دي لوكي »، وهو من أكابر أشراف غرناطة، وكان يعيش
في قصره عيشة هادئة رغدة.

ودخل في خدمة الكونت في سنة ١٨١٨ محام قنّى يدعى خوسيه
فرناندث جيرا وعمل سكرتيراً له، وأبدى في خدمته غيرة ووفاء، وتوثقت

عرى الصداقة بين الرجلين. ووهب الكونت سكرتيره أرضاً من أملاكه. هذا فضلاً عما كان يقدّمه عليه من الهدايا والتحف، وكان مما أهداه إليه قبل وفاته في سنة ١٨٣٣ صورة السلطان أبي عبد الله، وبذلك آلت هذه التحفة الفريدة إلى أسرة فرناندث جيرا.

واللوحة التي رسمت عليها الصورة، صغيرة الحجم، طولها ٣٧ سنتيمتراً وعرضها ٢٦، وفيها يبدو أبو عبد الله فتى في نحو الرابعة والعشرين، وهي سنة وقت الأسر، بوجه عريض وأنف منسق، وعينين خضراوين، ونظرات حادة تغشاها الكآبة، وتظلل فمه من الأسفل ثغرة خفيفة تجعل الشفتين أكثر وضوحاً. وله شعر كستني غزير، ولحية صغيرة مدببة. وتزين تاجه الذهبي أحجار من الزمرد والياقوت، وهو موضوع فوق قلنسوة خضراء. أما هذه السلسلة التي تتصل بعنقه فهي طابع الهزيمة وشعار الأسر، مما يعزز الرأي القائل بأن الصورة قد رسمت حقاً خلال أسره في قرطبة.

ويرتدي الملك الأسير في الصورة سترة ذات لونين، الأخضر وهو موشى بأسلاك الذهب، والآخر قرمزي وهو موشى بالورود الذهبية. والجزء الأسفل من الثياب مصنوع من قטיפه زاهية تزينها من الجانب الأيمن أزرار سوداء، ويرى من زاوية السترة المفتوحة، وشي قميصه العربي. ويبدو السلطان هادئ الحياء، رصيناً، يحفه الجلال، وتشع نظراته بالكآبة والعدوية.

وكانت الصورة حينها أهداها الكونت دي لوكي إلى صديقه الدون خوسيه فرناندث بلا إطار، فصنع لها الدون إطاراً بيضاً مذهباً على الطراز العربي، ونقش عليها اسم أبي عبد الله وشعار بني نصر ملوك غرناطة، وآلت الصورة إلى آل كولي ثم إلى أسرة فرناندث جيرا الغرناطية، وهي الصورة الوحيدة الحقيقية للسلطان المسلم.

الفصل الثالث

الحياة الأندلسية في ظلال الحكم العربي

أولا - الحياة الاجتماعية

اختلط العرب^(١) بسكان البلاد الأصليين وعاشروهم وصاهروهم

(١) يقول لسان الدين بن الخطيب في كتابه اللوحة البدرية : « ولما استقر الفتح وبلغ حيث بلغ من الترخوم سكنت العرب الأقطار وتوأت الديار. ثم دخلت بعد ذلك العرب الشاميون مع الأمير بلج بن بشر القشيري في عشرة آلاف فارس من أعلام أهل الشام، وتسمى « الطالمة البلجية » : « فالداخلون مع موسى وطارق يسمون بالشاميين، في الرسوم والحفوظ والأقطاعات بالبلدتين، والداخلون مع بلج بن بشر يسمون بالشاميين، واختص بكورة البيرة وهي التي أوقفوا عليها اسم دمشق جند دمشق، وبكورة جيان جند قسرين، وبأشبيلية جند حمص، وسواها من الكور بهذه النسبة. ونزلت بهذه الكورة الإلبيرية من أعلام العرب الذين بها إلى هذا العهد بيوتهم جملة من القبائل : منهم بيوتات من قيس عيلان، ومن عيس ابن بغيض، ومن أشجع بن ريث، ومن باهلة، ومن سليم بن منصور، ومن جديلة، ومن كلاب بن ربيعة، ومن عقيل بن كعب، ومن علال بن عامر، ونمير بن عامر، ومن سلول، ومن ثقف، ومن غافق ابن الشاهد، ومن عك، ومن الأنصار وهم بنو الأوس والخزرج، ومن غسان، ومن الأزدي ومن الغوث، ومن بجيلة، ومن نخع، ومن كندة، ومن السكاسك، ومن نجيب، ومن جذام بن عددي، ومن خولان بن عمرو، ومن المعافر بن يعفر، ومن حكيم، ومن حضرموت، ومن جعفي، ومن سعد العثيرة، ومن همدان، ومن حمير، ومن =

وامتزجوا بهم، وقد عاشوا معهم في ظلال وحدة واحدة^(١) وإخاء تام،

== شرعب، ومن ذي رعين، ومن ذي أصبح، ومن يحصب بن مالك، ومن كلب بن وبرة، ومن جهينة، إلى كثيرين.

(١) لم يحدث بين المسلمين وسكان البلاد الأصليين خلاف ديني ما عدا حوادث قليلة، كانت اليباعث عليها تعصب بعض المسيحيين تعصباً دينياً أعمى؛ ففي القرن الثالث قامت حركة باسم الدعوة الدينية، هي حركة الاستشهاد، وقاد هذه الحركة القسيس يولوجيوس معتمداً على زعيم من أغنياء الطائفة اسمه الفارو، وكانت تعيش في قرطبة قاعة اسمها فلورا « الزهرة » كان أبوها مسلماً مات في حادثة سنها فكفلتها أمها المسيحية ولقبتها مبادئ النصرانية وشيت عليها، فلما كبرت جعلت تتردد على الكنائس فتدخل في الأمر أخوها المسلم لأبيها ووثق يولوجيوس بها صلته حتى ألقى في روعها أن المسيح لا يرضى عنها إلا إذا جهرت باعتقاد النصرانية وجاهدت في سبيل المسيح. فرجع أخوها أمرها إلى القاضي فادعت أمامه أنها لم تكن يوماً مسلمة وأنها لا تعرف إلا المسيحية ديناً وأمر القاضي بجلدها شفقة عليها، ولعلها تعود إلى دينها الأصلي وكفلها أخوها، ولكنها هربت إلى بيت صديق لها مسيحي فأواها ثم غابت في قرطبة وتوارت عن الأنظار؛ وفي غيبتها جهر قسيس اسمه برفكتوس بالطعن في الدين الإسلامي، فحكم القاضي باعدامه ونفذ الخصى نصر الأعدام عند غروب الشمس يوم عيد الفطر. وجعل تاجر مسيحي اسمه حنا يكثر من التعريض بالنبي ﷺ فرجع أمره إلى القاضي، وحكم عليه بالجلد أربعمئة جلدة. وحفر هذا العمل المتعصين إلى التقدم لإرضاء المسيح بتقديم أنفسهم إلى السيف. وتقدمهم في ذلك قسيس اسمه اسحق. ذهب إلى القاضي يوماً وقال له: أريد الدخول في دين الإسلام، فسر به القاضي وجعل يحادثه في سماحة الإسلام وعدالته وحقيقته شرعته فقاطعه القس قاتلاً: لقد كذب نبيكم وخذعكم بكذبه واقترانه ثم سبه ولغمه، فلطمه القاضي وقال له: لعلك تمل من شراب أو بك مس جنون فثبت. فأجاب: إنني أملك قواي كاملة ولم أذق شراباً في يومي، وإنما دفعني إلى ما كان مني إخلاصي لديني، فسجنه القاضي معتقداً أنه مجنون حتى يتبين أمره، ولكن عبد الرحمن لما بلغه ما فعل القسيس هاله الأمر، فأمر بقتله ثم صلبه وإحراقه. وتعاقت حوادث مثل حادثة إسحاق حتى بلغ عدد الذين قطعت رقابهم في هذا السبيل أحد عشر في أقل من شهرين، فوجدت الحكومة الإسلامية نفسها تلقاء حالة اجتماعية يجب علاجها، فصدر أمر عبد الرحمن بعقد مؤتمر يبحث هذا الأمر ويسومه بما ينبغي أن يساس به، وأخذت الحكومة الإسلامية في الأندلس يباعث من التسامح الديني تفكر في حل لهذا، ورأت أن تدعو الحكومة ذوي المكانة والنفوذ من المسيحيين للنظر في في الوصول إلى حالة تحقن دماء الناس، وتمنع من التطاول على الإسلام==

وأخذ السكان الأصليون يتعلمون اللغة العربية، ودخل كثير منهم في الإسلام طوعاً ورضياً، وتبادلوا العادات والتقاليد. وأصبح المجتمع الأندلسي عربياً الملاح والسماط، وأقامت القبائل العربية الوافدة في كل مكان من هذه البلاد الجميلة^(١)، وتركت كل العوامل ويضاف إليها عامل آخر هو

أو الطعن فيه، وللدلالة على أن هذه الحركة التي تقدم بها المستهدفون للسير ليست من الدين في شيء وأنها لا تؤدي إلا إلى تعرض المسيحيين للابادة والفتنة، ومثل الحكومة في هذا المؤتمر شخص اسمه جوميز بن أنطونيان، صار له شأن في عهد خلف عبد الرحمن، وصدر قرار المؤتمر بأمرين:

الأول: أن حركة الاستشهاد هكذا عاطفة لا صحة لها.

الثاني: أنه يجوز للفساوسة أن يأمرؤا بسجن من تظهر عليه أعراض مثل هذه الفن.

ولم يؤد المؤتمر إلى النتيجة التي كانت منتظرة، فان يولوجيوس وأشياعه لجوا في عملهم فطوردوا من مكان إلى مكان وسجنوا كلما وجد مبرر لسجنهم، وسجن يولوجيوس فالتقى في سجنه وفلورا مرة أخرى. وفي ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥١ أعدمت تلك الفتاة وزميلة لها تسمى ماري.

(١) لما استقرت قدم المسلمين بالأندلس وتم فتحها، صرف أهل الشام وغيرهم من العرب همهم إلى الحلول بها. فنزل بها من جرائيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم إلى أن كان من أمرهم ما كان. فأما العدنانيون فتمت خندق ومنهم قريش، وأما بنو هاشم فمنهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الأندلس بعد انتشار سلك بني أمية، ومن بني مخزوم أبو بكر المخزومي الأعمى الشاعر المشهور من حصن المدور ومنهم الوزير الفاضل في التنظيم والنشر أبو بكر بن زيدون، ووالده الذي هو أعظم منه أبو الوليد بن زيدون وزير معتضد بن عباد. ومن الكنانيين ابن جبير صاحب الرحلة. ومن نزل الأندلس من قحطان، الأزد، ومنهم محمد بن هاشم الشاعر المشهور الأثبيري، وهو من بني المهلب، ومن الأزد من ينتسب إلى الأنصار على العموم وهم الجسم الغفير بالأندلس، قال ابن سعيد: والمعجب ما يشد عن العدد كثره، ولقد أخبرني من سألت عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد منه إلا شيخاً من الخرج وعجوزاً من الأوس، قال ابن غالب: وكان جزء الأنصار بناحية طليطلة، وهم أكثر القبائل بالأندلس في شرقها ومغربها.

ومن الخرج بالأندلس أبو بكر بن عبدالله بن ماء السماء من ولد سعد بن عباد =

بيعة الأندلس الغنية الجميلة الشاعرة، تركت آثارها في العقول والأفكار والنفوس والأرواح، وقد اشتهر المجتمع الأندلسي بعلو الثقافة وانتشارها،

صاحب رسول الله ﷺ وهو المشهور بالموشحات، وإلى قيس بن سعد بن عبادة ينسب بنو الأحمر سلاطين غرناطة، الذين كان لسان الدين بن الخطيب أحد وزراءهم وعلى عهدهم انقضى ملك الأندلس من المسلمين.

وعلى الجملة فقل أن تجد قبيلة من القبائل العربية ليس من بينها من اتخذ الأندلس موطنه لكثرة خيراتها وطيب هوائها. وكان أكثر الوافدين عليها من أهل الشام حتى اضطر أحد أمراءها إلى أن يفرقهم في البلاد، فأترل أهل دمشق الكبيرة وسماها دمشق. وأترل أهل حمص أشيلية، وسماها حمصاً، وأهل قنسرين : جيان وسماها قنسرين. وأهل الأردن ناحية ربة ومالقة وسماها الأردن، وأهل فلسطين ناحية شذونة وشربش وسماها فلسطين.

ورحل إلى الأندلس أيضاً كثير من أهل مصر والعراق، كما عبر إليها من مراكش وشمال إفريقية جماعة من البربر، واختلط كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين من قوط وغيرهم بالمصاهرة والمصادقة، وجمعهم الإسلام، فكان صلة أخرى غير صلة الاجتماع في بقعة واحدة، وامتزجت كل هذه الأجناس بعضها ببعض امتزاجاً تسرب في عقولهم كما تسرب في دماهم. وتمت مواهبهم الفطرية وساعدتهم على ذلك انتجاعهم بلاداً واسعة غنية جميلة مختلفة المناظر متعددة المناحي. فكان أثر ذلك كله أن تقوم فيها حالة اجتماع خاصة، وأن تصبح لهم مميزات وصفات في الاجتماع والعلم والفن لم تكن لغربهم من العرب الخالص، بل اشتقت من غير ما حملت عناصر هذا المجتمع الجديد من مميزات وما ركب من طابعها من صفات، فكانوا أخف الناس أرواحاً وأصفاهم نفوساً وألطفهم أذواقاً وأحدهم أذهاناً، حتى صح فيهم ما نقل عن ابن غالب في (فرحة الأنفس) : « أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة، وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل والسماحة بما في أيديهم، والزراعة عن الخضوع وإتيان الدنية. هندیون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم لإياها، وضبطهم وروابيتهم لها. بغداديون في نظافتهم وطفهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكاتهم وجودة قرائنهم ولطافة أذهانهم، وحدة أفكارهم، يونانيون في استنباطهم للمعاني، ومعانيتهم لضروب الصناعات واختيارهم لأجناس الفواكه، وتديبرهم لتركيب الشجر، وتحليلتهم البساتين بأنواع الخضضر، وأصناف الزهر، فهم أحكم الناس لأعمال الفلاحة، ومنهم ابن بصال صاحب كتاب الفلاحة الذي شهدت التجربة له، وهم أصبر الناس على مطاولة الشعب في تجويد الأعمال، وتحسين الصنائع. وأحذقهم بالقروسية، وأبصرهم بالظعن والضرب.

فالفلاح في حقله والتاجر في متجره والصانع في مصنعه، كل هؤلاء فضلاً عن سواهم من الطبقات الراقية، كانوا يجيدون المشاركة في أمور الثقافة والأدب والشعر، ويمتاز المجتمع الأندلسي كذلك بعلو الذوق ولطفه وانتشار الآداب الاجتماعية الرفيعة فيه. وكانت الفنون والآداب والغناء والموسيقى ذاتة في كل وسط .. وستحدث عن كثير من مظاهر هذه الحياة الاجتماعية الرفيعة في الفصول التالية .. وكانت اللغة العربية التي يتحدث بها هذا المجتمع لغة راقية مهذبة رقيقة يتحدث بها الناس على أنها لغة راقية، لغة الثقافة والآداب» وإن كانت الآداب الشعبية كالزجل قد ذاعت ذيوها كثيراً.

(١) يقول الأستاذ حسن جاد « ص ٤٠ ابن زيدون » :

كانت حالة اللغة في الأندلس تختلف عنها في الشرق، فقد كانت قواعد التعليم هناك تقوم على علوم الدين وشواهد العرب وأمثالهم ومنثورهم ومنظومهم، وكانوا كذلك عرباً يدهم الفوز والسلطان ولغتهم القهر والعفة، ولا مزاحم لها من اللغات الأخرى، لأن العرب في الأندلس انتصروا انتصاراً عاماً، فملكتم لغتهم ألسنة أهلها بما لهم من الفوذ. حتى إن هشام بن الداخل حظر على النصارى أن يتكلموا بغير العربية. فبقيت لهذا نية من المعجزة، غضة الإهاب، ناضرة الشباب، زمناً طويلاً. على حين كانت تموت في المشرق بمزاحمة أضدادها ولا سيما الفارسية، التي انهزم الشريون أمام حضارة أهلها؛ ثم إن الدولة العباسية ورثت حضارات وثقافات عربية ظهر أثرها في اللغة فجنى على مادتها باللحن والمعجزة، ولكنها لم تصب في الأندلس لخلوها من هذه الثقافات. وكانت مع هذا لغة الخاصة والعامة في معظم عهد العرب بالأندلس، في الوقت الذي كانت فيه لغة الخاصة فقط بالشرق، ولئن امتازت فيه بشدة الأسر ورسالة الأسلوب، فحسبها في الأندلس أنها كانت تذهب مذهب النسيم : رقة لفظ، وأناقة أسلوب.

ولهذا فتن بها الإسبان. وشغفوا بها كل الشغف، حتى أساهم ذلك لغتهم. اللاتينية، وحتى جأ بالشكوى من هذه الحال « الفارو » كاهن قرطبة إذ يقول : « إنا نحب أن نقرأ الشعر والقصص وندرس الدين والفلسفة في اللغة العربية، فنعلم لغة عذبة الألفاظ، بلغة الأداء، جميلة الإنشاء، ولا تكاد نجد فيها من يقرأ الكتب المقدمة باللغة اللاتينية، وشباننا الأذكيا جميعاً لا يعرفون غير لغة العرب وآدابهم، وكلما قرأوا كتبها، ودرسوا أديها أعجبوا بها، فإذا حدثهم عن كتاب من الكتب اللاتينية»

ويقول استانلي بول : « ... أخذ النصارى ييغضون لغتهم اللاتينية القديمة، ويصدفون عن آدابها، فتعلموا العربية، واستطاعوا بعد حين أن يكتبوا لها، كما يكتب العرب انفسهم، وقد ندد يولوجيوس نفسه بهذه الحال إذ يقول : إن النصارى يولعون بقصائد الشعر العربي وقصصه، ويهجرون الكتاب المقدس وآثار القديسين. ومما يوجب الحزن والأسى أن الجيل الناشئ لا يعرف غير العربية، فهو يقرأ كتب المسلمين بشغف، وينشئ لها الخرائن، ويراها جديرة بالإعجاب، في حين أنه يبخل بنظرة إلى كتاب مسيحي. ثم يقول : لقد نسي النصارى لغتهم، ومن العسير أن نجد واحداً منهم في كل ألف يكتب حرفاً لاتينياً كتابة سائغة، وهم مع ذلك يستطيعون أن ينظموا شعراً عربياً رائعاً^(١) ».

ويقول أحمد ضيف في بلاغة العرب في الأندلس نقلا عن مؤرخي الفرنجة : « هجر أهل إسبانيا اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها وكانوا لا يكتبون بغيرها حتى إن أحد العلماء المشهورين منهم شكوا من ذلك وقال : إننا نحب قراءة الشعر والقصص العربية، وندرس المسائل الدينية والفلسفة الإسلامية، باللغة العربية لتتعلم لغة رشيقة وعبارة بليغة ولا يكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية، وكل شبانا الأذكىاء لا يعرفون غير لغة العرب وآدابها لأنهم يقرأون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة ويدعوهم كثرة اطلاعهم على تلك الكتب إلى الإعجاب بآداب العرب، فاذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منها وقالوا إنها لا تستحق عناية قارئ أو مستفيد، من أجل ذلك نسي المسيحيون لغتهم فلا تكاد نجد في الألف منا واحداً يمكنه

== سخروا منه وقالوا : إن الفائدة منه لا تساوي التعب في قراءته، وهكذا نسي المسيحيون لغتهم وجعلوا كتابتها وبلاغتها، وحذقوا اللسان العربي حتى ليكتبونه تقرأ ونظماً في أسلوب أنيق، وتصوير دقيق، يفوقون فيه العرب أحياناً .
(١) نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي - كامل كيلاني

أن يكتب رسالة باللاتينية أما إذا أرادوا أن يكتبوا بالعربية فإن كثيراً منهم يكتب بعبارة بليغة وأسلوب منمق، وقد يفوقون العرب أنفسهم في ذلك حتى في الشعر وكتابة القوافي .»

ويقول نقلاً عن مؤرخ آخر : « في أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هي لغة الوثائق الرسمية، وفي هذا الوقت ترجم قسيس من أهل اشبيلية التوراة إلى اللغة العربية لتلاميذه، فوجد أحد العلماء هناك على أهل دينه واهتمامهم بالمساعدة على نشر اللغة العربية. والعمل على ترك اللاتينية. وقد دامت هذه الحال زمناً طويلاً في قرطبة وطلطلة حتى إن القسس لجهلهم اللاتينية اضطروا إلى ترجمة كتب الكنيسة إلى اللغة العربية وبقي ذلك إلى أواخر القرن الحادي عشر إلى أن استولى الفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ م .»

أولاً: مشاهد من الحياة الأندلسية

— ١ —

قدم الأندلس علي بن نافع زرياب المغني — الزرياب طائر أسود اللون حسن الصوت وسمي به لسمره كانت فيه مع جمال الصوت — وقد تخرج زرياب على يدي إسحق الموصلي فنيغ حتى نال من أستاذه كل تقدير، وقال الرشيد يوماً لإسحق: أحب يا إسحق أن تبغيني شاباً ظريفاً تؤدبه أدبك حتى ندخره لوقت قد لا نجدك فيه، فقال إسحق: لدي يا أمير المؤمنين بغيتك التي تريد، شاب لم تقع عيناي على أحسن منه صوتاً وأدباً وألحاناً، وهو بالباب إذا شاء مولانا أمير المؤمنين: قال الرشيد: علي به، فدخل زرياب. واستجوبه الرشيد فأبان عن ظرف ولباقة، فأعجبه وطلب منه الغناء فقال: أريد العود. فجيء له بعود أستاذه إسحق، فأبى وقال: أريد عودي وهو بالباب، فقيل له: أليس عود أستاذك عوداً؟ فأجاب: إن كان مولانا يريد أن أغني غناء أستاذي فأبى أغني على عوده، وإن كان مولانا يريد غنائي فأبى أغني على عودي، فأعجبت هذه الفطنة الرشيد وارتاح لها، ولما جيء بعود قال له الرشيد: أراه كهود إسحق، فأجاب نعم يا مولاي هو مثله في الشكل، وأمير المؤمنين صادق، ولكن أوتار العيذان يتخذونها من الحرير، وأنا أتخذ أوتار عودي من مصارين الأشبال، فأكبر هذا الجواب زرياباً في عيني هارون،

ثم انطلق فغنى الصوت الذي فيه :

يا أيها الملك الميمون طائرته هرون راح اليك الناس وابتكروا

فطرب الرشيد طرباً ما رثي مثله عليه من قبل وأبدع فيه زرياب وأغرب فأطرب وأعجب وشاءت المقادير أن تنقل زرياباً من بغداد إلى قرطبة، فقد أوجس الموصل في نفسه خيفة على صيته وجاهه في بلاط الرشيد أن يسقطه هذا الغلام الناشئ المبدع، فخلا الأستاذ بتلميذه وقال : يا زرياب إنك تلميذي وإنني أحبك كإني ولكنني أيضاً أحب نفسي، وليس إلا اثنتان فواحدة بنعماها وأخرى أظنك تأبأها ولا ترضاها، فإذا أن نقيم هنا وأنا والله دائب وراء قتلك حتى يكون ولو بذلت في ذلك نفسي لأنك قاتلي ولا محالة، وإما أن تختار لك بلداً ترحل إليه بعيداً لا تعود ما أنا حي ولك حين ذاك كل ما يعينك على الوصول إلى ما تريد من جاه ومن مال. وكان لا جرم أن يختار زرياب الرحيل وهو يرى هذا الوعيد والتهديد ويعلم جاه إسحق عند الرشيد فرحل يضرب آباط الأسفار إلى الأندلس وقد كانت شهرتها وقتئذ بلغت بغداد فيما بلغت من بلاد الشرق فلم تعد ولاية من ولايات الأمويين ولا إيالة يطمع فيها العباسيون ولكن ملك دولة وفخامة يغدق فيها الحكم ابن هشام حتى يستقدم اليه من المشرق كثيراً من جلة العلماء كآبي علي القالي.

ولما أشرف زرياب على الأندلس كان الحكم قد أشرف على الموت فلم يجد زرياب من الحكمة أن يجتاز إلى الأندلس، ولبت في إفريقية ينتظر، فلما تولى عبد الرحمن بن الحكم أرسل الألفاظ والهدايا ورسلا يبشرون زرياباً بعيش ومجد وبخير كثير في بلاط عبد الرحمن، فانتقل زرياب إلى الأندلس في أبهة وإعزاز، حتى إن عبد الرحمن خرج إليه من عاصمة ملكه بقلعة زيادة في التجلة والإكبار.

وتغلغل نفوذ زرياب الأدي في علية القوم وسرايمهم فقلدوه في أشياء كثيرة، غيرت من عادات الناس في طعامهم وشرابهم ولبوسهم وأزيائهم على وجه العموم فحبب إليهم ككوس الزجاج عن أدوات الذهب والفضة والمعادن، وكان هو وأولاده يقصون شعورهم ولا يتركون منها إلا حمة تزين النواصي فقلدهم الأندلسيون في ذلك، وغير ملبسه وألوانها على حسب القصول فغير الناس كما يغير، ونشأ من هذا كله لون من الحضارة لم يكن معروفاً، وكان لهذا اللون أثره في انتقال الأندلس حالاً على حال.

وكذلك كان إبداع زرياب في الغناء مؤثراً في الأدب العربي إذا ادخل في آلات الموسيقى ما لم يكن فيها قبل من الأوتار، فاخترع بذلك أداة جديدة تسري عن الناس همومهم وأحزانهم، وترقق طباعهم وعواطفهم، وتدعو الشعراء إلى الابتكار والإجادة في أنواع الشعر الغنائي وتجويدها، لقد كان لزرياب والذين من بعده أثر كبير في الأدب الغربي نفسه لأنه لقم الأدب الفرنسي بكثير من الظواهر العربية في الأساليب وفي المعاني ويظهر هذا التلقيح في أمرين :

الأول : ان أدوات الغناء قد نقل كثير منها إلى الفرنسيين، حتى إن كلمة عود نقلت بنفسها لهذا المسمى العربي، والأداة الموسيقية نفسها.

والثاني: أن الشعر الفرنسي لم يكن مقفى في بادئ نشأته لأن أصله وهو الشعر اللاتيني لم يكن مقفى، ثم ظهرت التقفية في هذا الشعر بعد عصر الاختلاط الذي كان بين الأندلسيين والفرنسيين في عهدي الحرب والسلام، فدل على تأثر الأدب الفرنسي بالأدب العربي، والفضل في ذلك لزرياب وأمثاله.

وبما مكن عيد الرحمن لزرياب في المنزلة، تمكن سلطان زرياب في الحاشية والبلاط والأمراء والأشراف، ولكن لباقة الرجل وحسن تفكيره جعلته يكتفي بهذا النفوذ الأدي، ولا يحاول أن يتورط به في مجال التعصب السياسي والمنازعات.

وإذا قدر للأندلس أن يكتب تاريخها الفني والاجتماعي، فلا شك أن انضرت صفحة في ذلك التاريخ المجد وأعجيبها تكون صفحة أبي الحسن علي بن نافع المعنى الملقب بزرياب. فهو رجل استطاع وحده أن ينقل أمة بأسرها من حال البداوة إلى حال الحضارة، وذلك بشيئين اثنين: تحبيب الموسيقى إليها وتنظيم حياتها اليومية.

ولقد فتح المسلمون الأندلس في العقد الأخير من القرن الأول الهجري، وانتشرت القبائل العربية والبربرية في بساطتها وحزونها، ولكنهم ظلوا حتى أواخر القرن الثاني بداية جفاة، كلما اجتمعت كلمتهم لم يلبثوا أن تفرق بينهم الإحن والعداوات المنبئة عن العصبية القبلية، فكأنهم لا يزالون ضارين في هضاب نجد وسهول تهامة ومفاوز إفريقية. ثم أخذت شعوبهم السياسية تستقر وتنسق بفضل مجهود المتقدمين من أمراء الدولة الأموية الأندلسية: عبد الرحمن الداخل، وهشام، والحكم، وعبد الرحمن الأوسط. أما الأحوال الاجتماعية فظلت على ما كانت عليه فساداً واضطراباً.

وعلى العكس من ذلك كان المشرق الإسلامي في ذلك الزمان، قد استبحر فيه العمران، وبلغت المدنية الإسلامية فيه غايتها، وتعلق فيه ذوو الدعة واليسار بأسباب الكمال من شؤون الحياة بعد أن استكملوا الضروري والخارجي منها على حد تعبير ابن خلدون. وقد أضعفهم في ذلك عامل الدين وعامل التاريخ معاً، فأما المعتدلون منهم فكانوا يستندون إلى أن الدين الإسلامي دين يسر، يجب من المؤمن أن يكون هيناً لينا موفور الحظ من الظرف والكياسة، غير فظ ولا غليظ القلب، ولا ناس نصيبه من الدنيا. وأما المتطرفون فوجدوا في تقاليد الفرس والروم الاجتماعية ما جعلهم يؤثرون العاجلة ويحرصون على لذة الحياة الدنيا ومتعها، وأيا كانت الطرق الموصلة إليها.

وقد تألفت من هؤلاء وهؤلاء طبقة أرستقراطية، مرهفة الأذواق،

رقيقة الطباع. ترى في الموسيقى، ومجالس الأُنس والطرب، وحفلات السمر خير ما يرفهون به عن تلك الأذواق المرهقة والطباع المترفة. هذا هو السبب المباشر في تقدم صناعة الغناء في ذلك الزمان، وبلوغها الغاية على أيدي : إبراهيم المهدي، وإبراهيم الموصلي، وابنه اسحاق. وهذا هو السبب كذلك في استفاضة مجالس الأُنس والطرب لذلك العهد في مدن الشرق الإسلامي وبغداد خاصة، وفي بلوغ هذه المجالس درجة من التألق يمكن تصورها إذا عرفنا أنهم وضعوا لها آدابا كانوا يأخذون بها من يحضرها من الندماء، والجلساء، والسماز. من ذلك أن يكون الغناء قوامها، وأن يحتفل لها بلبس الثياب المصبغة الأنيقة، وأن يزين المجلس بالأزهار والرياحين، وألا يحضرها إلا من كان مهذباً، خفيف الروح، حاضر البديهة، قادراً على قول الشعر وارتجاله، فضلاً عن تدوقه وروايته عندما يتقضى المقام ذلك.

وإلى هذا المشرق اتجه أمراء بني امية الأندلسيون، وهم أبناء خلافت دمشق ورسافتها، يستهدونه فنانيين ومعلمين يهذبون ما غلظ من طباع العرب والبربر والمولدين، وينظمونها جميعاً في نسق واحد. وقد أهدى المشرق إلى المغرب غير واحد من المغنين أمثال : علون، وزرقون، ولكن زريابا كان أعظم هؤلاء جميعاً وأبعدهم أثراً.

وقد نهض زرياب بالموسيقى الشرقية نهضة جديدة مطبوعة بطابعه، وذلك بما أدخله على العود من إصلاح وتحسين، وبما استن من طرق جديدة في إلقاء الغناء وتعليمه، فقد اتخذ لنفسه وهو بالمشرق عوداً جعله على الثلث من وزن العود القديم، وصنع أوتاره من حرير لم يغلز بماء سخن يكسبها رقة ورخاوة، واتخذ بمها ومثلثها من مصران شبل أسد « فلها في الترمم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاقبة بها ما ليس لغيرها »، فلما كان بالأندلس زاد أوتار العود الأربعة المقابلة

للطبائع الأربعة وترا خامسا يقوم مقام النفس من الجسد، فاكسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة كما يروي المقرئ. واتخذ مضراب العود من قوادم النسر بدلا من مرهف الخشب « وذلك للطف قشر الريشة ونقاؤه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه ». وأما من حيث إلقاء الغناء فقد رسم زرياب أن يبدأ في الإلقاء بالنشيد بأي نقر كان، ثم يؤق في أثره باليسيط ويختم بالخرجات والإهزاج. أما مذهبه في تعليم الغناء فيقول فيه المقرئ : « وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة، وأن يشد صوته جدا إذا كان قوي الصوت. فان كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة فإن ذلك منا يقوي الصوت ولا يجد متسعا في الجوف عند الخروج على القم، فإن كان ألس الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق، راضه بأن يدخل في فيه خشب عرضها ثلاث أصابع. يبيتها في فمه ليالي حتى ينفرج فكاه. وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته يا حجاج! أو يصيح آه! ويمد بها صوته، فان سمع صوته بها صافيا نديا قويا مؤديا لا تعثره غنة ولا حسة ولا ضيق نفس، عرف أن سوف يتجنب وأشار بتعليمه، وإن وجده خلاف ذلك أبعده ». هذه العبارة تشير في صراحة إلى أن زريابا أنشأ بالأندلس في أوائل القرن الثالث الهجري ما يصح أن نسميه بلغة الوقت الحاضر معهدا لتعليم الموسيقى الشرقية.

وقد ابتكر زرياب لأهل الأندلس ألوانا من الطعام استطابوها ونسبوا بعضها إليه، وعلمهم أن يشربوا من آنية الزجاج الرقيق بدلا من آنية المعدن. وهو أول من اجتنى لهم البقلة الشهية المعروفة بالهلبيون، وكانوا لا يعرفونها من قبل. وعلمهم أن يسطوا فوق ملاحف الكنان أنطاع الأديم اللين، وأن يسطوا سفر الأديم فوق الموائد الخشبية، فذلك أنظف لها وأنى لمنظرها. وعلمهم أن يلائموا بين ما يلبسون وبين فصول السنة

الأربعة فيتدرجوا من الخفيف الأبيض صيفاً إلى الثقيل الملون شتاء، ولفتهم إلى أنواع من الطيب والعطر لم يلبثوا أن أقبلوا عليها وفضلوها على ما كانوا يتعطرون به من قبل، كما علمهم كيف ينظمون شعورهم تصفيفاً وتدويراً وإرسالاً.

وقد توفي زرياب في إمارة الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) وكما رزق زرياب الحظوة عند أهل الأندلس في حياته، فقد رزقها ذكراه عندهم بعد مماته. ذلك بأن مذهبه في الغناء وما رسمه لهم من أسلوب المعيشة ظل باقياً متوارثاً فيهم حتى آخر أيامهم. فلما انتهى أمر الأندلس وخرج من تبقى من أهلها إلى بلدان إفريقية الشمالية انتقل إليها بانتقالهم مقدار غير قليل من صناعة زرياب وآدابه. يقول ابن خلدون عند ذكره زرياباً : « فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف، وطما منها بأشبيلية بحر زاخر، وتناقل منها بعد ذهاب غضايتها إلى بلاد العدو بإفريقية والمغرب، وانقسم على أمصارها، وبها الآن منها صباية على تراجع عمراتها وتناقص دولها »، ويقول المقرئ « وكان زرياب قد جمع إلى حصاله هذه الاشتراك في كثير من ضروب الظرف وفنون الآداب ولطف المعاشرة، وحوى من آداب المجالسة طيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ما لم يجده أحد من أهل صناعته، حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه واستحسنه من أطعمته، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوباً إليه معلوماً به ».

كان أهل رومية القديمة على عهد نيرون يلقبون سرياً من سراتهم اسمه بطرونيوس برب الظرف وسلامة الذوق، لأنه كان عندهم مضرب المثل في ذلك، أما أهل الأندلس فقد وصفوا زرياباً بأنه « معلم الناس المروءة ».

يقول^(١) محدث : قصدت منزل ابن بكار المرواني في أشبونة^(٢) ونقرت الباب، فنادى من هذا؟ فقلت : رجل ممن يتوسل لرؤياك بقراءة، فقال : لا قرابة إلا بالتقى؛ فإن كنت من أهله فادخل، وإلا فتنح عني. فقلت : أرجو في الاجتماع بك والافتباس منك أن أكون من أهل التقى، فقال : ادخل؛ فدخلت عليه؛ فإذا به في مصلاه، وسبحة أمامه، وهو يعد حبوبها ويسبح؛ فقال لي : أمهلني حتى أتمم وظيفتي من هذا التسبيح، ثم أقضي حقك؛ فقعدت الى أن فرغ. فلما قضى شغله عطف علي، وقال : ما القرابة التي بيني وبينك؟ فانتسبت له فعرف أبي، وترحم عليه، وقال لي : لقد كان نعم الرجل وكان لديه أدب ومعرفة؛ فهل لديك أنت مما كان لديه شيء؟ فقلت له : إنه كان يأخذني بالقراءة وتعلم الأدب، وقد تعلقت من ذلك بما أتميز به؛ فقال لي : هل تنظم شيئاً؟ قلت : نعم! وقد أُلجأتني الدهر إلى أن أرتزق به. فقال : يا ولدي إنه بسما يرتزق به، ونعم ما يتحلى به إذا كان على غير هذا الوجه! ولكن تحل الميتة عند الضرورة! فأنشدني — أصلحك الله — مما على ذكرك من شعرك.

فطلبت بخاطري شيئاً أقابله به مما يوافق حاله، فما وقع لي إلا فيما لا يوافقه من مجون ووصف حمر وما أشبه ذلك. فأطرقت قليلاً؛ فقال : لعلك تنظم! فقلت لا! ولكنني أفكر فيما أقابلك به؛ فقولي أكثره فيما حملني عليه الصبا والسخف، وهو غير لائق بمجلسك.

فقال : أنشدني ما وقع لك غير متكلف، فلم يمديني بخاطري إلا بشعر

(١) نفع الطيب ١١٢ : ٢
(٢) أشبونة : بلد بالأندلس.

أجبت^(١) فيه، فقال : أما كان في نظمك أظهر من هذا؟ فقلت له : ما وفقت لغيره. فقال : لا بأس عليك، فأنشديني غيره، ففكرت إلى أن أنشدته قولي :

ولما وقفت على ربهم تجرعت وجددي بالأجرع^(٢)
وأرسل دمعني شرار الدموع لنار تآجج في الأضلع
فقام عذولي لما رأى بكائي وقفاً على الأدمع
فقلت له : هذه سنة لمن حفظ العهد في الأربع^(٣)

فرايت الشيخ قد اختلط، وجعل يبجيء ويذهب، ثم أفاق، وقال : أعد بحق آباتك الكرام. فأعدت فأعاد ما كان فيه، وجعل يردد، فقلت له : لو علمت أن هذا يحركك ما أنشدتك إياه. فقال : وهل حرك مني إلا خيراً وعظماً. يا بني إن هذه القلوب المخلاة لله كالأوراق التي جفت، وهي مستعدة لهبوب الرياح، فإن هب عليها أقل ريح لعب بها كيف شاء، وصادف منها طوعه.

فأعجبني منزعه، وتأنست به، ولم أر عنده ما يعتاد من هؤلاء المتدينين من الانكماش؛ بل ما زال يحدثني بأخبار فيها هزل، ويذكر لي من تاريخ بني أمية وملوكها. ما أرتاح له، ولا أعلم أكثره. فلما كثر تأنسي به أهويت إلى يده كي أقبلها، فضمها بسرعة، وقال : ما شأنك؟ فقلت : أرغب في أن تنشديني شيئاً من نظمك! فقال : أما نظمي زمان الصبا فكان له وقت ذهب، ويجب للنظم أن يذهب معه، وأما نظمي في هذا الوقت فهو فيما أنا بسبيله؛ وهو يشغل عليك، فقلت له : إن أنصف سيدي أنشدني من نظم صباه، ومن نظم شيخوخته فيأخذ كلانا بحظه،

(١) راجع هذا الشعر في ص ١١٢ : ٢ من نفع الطب.

(٢) الأجرع : الأرض ذات الحرونة تشاكل الرمل.

(٣) الأربع : جمع ربع، الدار بعينها.

فضحك، وقال : ما أعصيك وأنت ضيف، ولك حرمة أدب، ووسيلة
قصد، ثم أنشدني وقد بدا عليه الخشوع وخنقته العيرة :

ثق بالذي سواك من عدم فإنك من عدم
وانظر لنفسك قبل قرع السن من فرط الندم
واحذر - وقيت - من الورى واصحهم أعمى أصم
قد كنت في تيه إلى أن لاح لي أهدي علم
فاقتدت نحو ضيائه حتى خرجت من الظلم
لكن قناديل الهوى في نور رشدي كالحمم^(١)

فوالله لقد أدركني ما أدركه، وغلب على خاطري بما سمعت من هذه
الآيات، وفعلت لي من الموعظة غاية لم أجد منها التخلص إلا بعد
حين، فقال الشيخ : إن هذه يقطعة يرجى معها خيرك، والله مرشدك
ومنقذك، ثم قال لي : يا بني، هذا ما نحن بسبيله الآن، فاسمع فيما
مضى، والله ولي المغفرة وأنشد :

أطل عذار على خده فظنوا سلوي عن مذهبي
وقالوا : غراب لوشك النوى فقلت : اكتسى البدر بالغيب^(٢)
وناديت قلبي : أين المسير وبدر الدجى حل بالعقرب^(٣)
فقال : ولو رمت عن حبه رحيلاً عصيت ولم أذهب

فسمعت منه ما يقصر عنه صدور الشعراء، وشهدت له بالتقدم،
وقلت له : لم أر أحسن من نظمك في جد ولا هزل. ثم قلت له :
أرويه عنك؟ فقال : نعم! ما أرى فيه بأساً بعد إطلاع من يعلم السرائر
على ما في الضمائر، فقلت له : فإن أسبغت علي النعمة بزيادة شيء

(١) الحمم : الرماد والفحم، وكل ما احترق من النار.

(٢) الغيب : الظلمة.

(٣) العقرب : برج في السماء.

من هذا الفن فعلت ما تملك به قلبي آخر الدهر. فقال : يا بني، لا ملك قلبك غير حب الله تعالى، ثم قال : ولا أجمع عليك رد قول ومنعاً، ثم أنشد :

أيها الشادان الذي حسنه في السورى غريب
لحظ ذاك الجمال يسط فسئ ما بي من اللهيبي
وعليه أحوم دهم ري ولكنني أخيب
كلمما رمت زورة قبيض الله لي رقيب

فمازج قلبي من الرقة واللطافة لهذا الشعر ما أعجز عن التعبير عنه، فقلت له : زدني زادك الله خيراً، فأنشدني :

ما كان قلبي يدري قدر حكيم حتى بعدم فلم يقدر على الجلد
وكتت أحسب أني لا أضيق به ذرعاً فما حان حتى فت في عضدي
ثم استمرت على كره مبرته^(١) فكاد يفرق بين الروح والجسد
عساكم أن تلافوا باللقا رمقي فليس لي مهجة تقوى على الكمد

ثم قال : حسبك، وإن كلفتني زيادة، فالله حسبك، فقلت له : قد وكلتني إلى كريم غفور، فبالله إلا ما زدتنى؛ وأكببت لأقيل رجليه، فضمهما وأنشدني شعراً رقيقاً؛ ما أسمع عجائب، وبسط أنسي، وكتبت كل ما أنشدني، ثم قلت له : لولا خوفاً من التثقيب عليك لم أزل أستدعي منك الإنشاد حتى لا تجد ما تشده. فقال : إن عدت إلى هنا تذكرت وأنشدتك، فما عندي مما أضيقك به غير ما سمعته وما تراه.

ثم قام وجاء من بيت آخر في داره بصحفة فيها حساً^(٢) من دقيق وكسور باردة، فجعل يفت فيها، ثم أشار إلي أن أشرب، فشربت، ثم

(١) المريرة : القوة.

(٢) الحسا : العرق.

شرب إلى أن أتينا على آخرها، ثم قال. هذا غذاء عمك نهاره، وإنه
لنعمة من الله تعالى، أستدبم بشكرها اتصالحا. فقلت له: يا عم؟ ومن
أين عيشك؟ فقال: يا بني عيشتي بتلك الشبكة أصطاد بها في سواحل
البحر ما أقتات به، ولي زوجة وبنت يعود من غزلهما مع ذلك ما
نجد به معونة؛ وهذا مع العافية والاستغناء عن الناس خير كثير. فتركته،
وفي نيتي أن أعود إلى زيارته بعد أيام خوف الثقيل، فعدت إليه بعد
ثلاثة أيام، ففترت الباب، فكلمتني المرأة بلسان عليه أثر الحزن، وقالت:
إن الشيخ قد خرج إلى الغزو، وذلك بعد انفصالك عنه بيوم، ناله
كالجنون، فقلت له: ما شأنك؟ فقال: إني أريد أن أموت شهيداً،
وهؤلاء جيران لي قد عزموا على الغزو، وأنا ماض معهم ثم اختال في
سيف ورمح، وتوجه معهم، وقال: نفسي هي التي قتلتني بهواها، أفلا
أقتص منها فأقتلها؟ فقلت لها: من خلف للنظر في شأنكم؟ فقالت:
ليس ذلك لك! فالذي خلفه لنا لا نحتاج معه إلى غيره، فأدركني من
جوابها روعة، وعلمت أنها مثله زهداً وصلاً.

فقلت: إني قريبه، ويجب علي أن أنظر في حالكم بعده! فقالت:
يا هذا إنك لست بذئ محرم، ولنا من المعجزات من ينظر لنا، ويبيع
غزلنا، ويفقد أحوالنا؛ فجزاك الله عنا خيراً. انصرف عنا مشكوراً! فقلت
لها: هذه دراهم خذوها؛ لتستعينوا بها. فقالت: ما اعتدنا أن نأخذ
من غير الله، وما كان لنا أن نخل بالعادة. فانصرفت نادماً على ما فاتني
من الاستكثار من شعر الشيخ. ثم عدت بعد ذلك لداره سائلاً عنه،
فقلت لي المرأة: إنه قد قبله الله تعالى. فعلمت انه قتل؛ فقلت لها:
أقتل؟ فقرأت: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل
أحياء عند ربهم يرزقون﴾.

فانصرفت معتبراً من حاله!

قصداً المنصور بن أبي عامر رجل جوهرى من تجار المشرق من مدينة عدن بجوهر كثير وأحجار نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنته، ودفع إلى التاجر الجوهري صرته — وكانت قطعة يمانية — فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شط النهر، فلما توسطها واليوم قاطظ، وعرقه منصب، دعت نفسه إلى التبريد في النهر، فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط، فمرت حداة فاخطفت الصرة، تحسبها لهماً، وطارت في الأفق ذاهبة بها.

فقامت قيامة التاجر، وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة، فأسر الحزن في نفسه، ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها، واستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة المعارضة فسأله المنصور عن شأنه فأعلمه بقصته، فقال له : هلا أتيت إلينا حين وقوع الأمر فكنا نستظهر على ذلك بالحيلة! فهل هديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها ! فقال: مر شرقاً على سمت هذا الجبل الذي يلي قصر ك — يعني الرملة.

فدعا المنصور شرطيه الخاص به؛ فقال : جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة، فمضى وجاء بهم سريعاً، فأمرهم بالبحث عن غير حال الإقلال منهم سريعاً، وانتقل عن الإضافة دون تدرج؛ فتناظروا في ذلك، ثم قالوا : يا مولانا؛ ما نعلم إلا رجلاً من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناولون السبق بأقدامهم؛ عجزاً عن شراء دابة؛ فابتاع اليوم دابة، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة.

فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب، فحضر الرجل بين يدي المنصور فاستدناه، والتاجر حاضر، وقال له : سبب ضاع منا

(١) نوح الطيب ١٩٢ : ١ .

وسقط إليك، ما فعلت به؟ قال : ها هوذا يا مولاي، وضرب يده إلى حجرة^(١) سراويله، فأخرج الصرة بعينها، فصاح التاجر طرباً وكاد يطير فرحاً.

فقال له المنصور : صف لي حديثها. فقال : بينا أنا أعمل تحت نخلة إذ سقطت أمامي فأخذتها، وراقني منظرها؛ فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار، فاجتزت بها، ودعنتني فاقني إلى أخذ عشرة مثاقيل كانت معها مصرورة، وقلت : أقل ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها.

فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر : خذ صرتك، وانظرها، واصدقني عن عددها، ففعل وقال : وحقك يا مولاي، ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها وقد وهبتها له. فقال له المنصور : نحن أولى بذلك منك، ولا تنغص عليك فرحك؛ ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً عن دنانيره، وللرجل بعشرة دنانير ثواباً له، وقال لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاء. فأخذ التاجر في الشاء على المنصور، وقد عاود نشاطه. وقال : لأبين في الأقطار عظم ملكك، ولأبين أنك تملك الطير، فلا تعتصم منك، ولا تؤذي جارك.

فضحك المنصور، وقال : اقصد في قولك يغفر الله لك! فعجب الناس من تلطف المنصور في امره، وحيلته في تفرج كربته!

(١) الحجرة من السراويل : موضع التكة.

كان^(١) أبو بكر بن المنخل وأبو بكر الملاح متأخين متصافيين، وكان
هما ابنان صغيران قد برعا في الطلب، وحازا قصب السبق في حلبة
الأدب، فتهاجى الإبنان بأقذع الهجاء، فركب ابن المنخل في سحر من
الأسحار مع ابنه عبد الله، فجعل يعتب عليه على هجاء بني الملاح،
ويقول له: قد قطعت ما بيني وبين صديقي وصفني أبي بكر في إقذاعك
بابنه! فقال له ابنه: إنه بدأتي والبادي أظلم، وإنما يجب أن يلحى^(٢)
من بالشر تقدم، فعذره أبوه! فبينما هما على ذلك إذ أقبلا على واد تنق
فيه الضفادع، فقال أبو بكر لابنه أجز:

تنق ضفادع الوادي

فقال ابنه: بصوت غير معتاد

فقال الشيخ:

كأن تقيق مقولها

فقال ابنه: بنو الملاح في الوادي

فلما أحسست الضفادع بهما صمتت، فقال أبو بكر:

وتصمت مثل صمتهم

فقال ابنه: إذا اجتمعوا على زاد

فقال الشيخ: فلا غوث للمهوف

فقال الابن: ولا غيث لمرتاد!

(١) نفع الطيب ص ٣٠١ ج ٢.

(٢) يلحى: يلام ويهتف.

ورد^(١) ابن جاح الشاعر على المعتضد بن عباد، فدخّل الدار المخصوصة بالشعراء فسألوه، فقال: إني شاعر! فقالوا: أنشدنا من شعرك فأنشدهم شعراً ضحكوا منه وازدروه. فقال بعض عقلائهم: دعوه، فإن هذا شاعر، وما يبعد أن يدخل مع الشعراء، ويندرج في سلكهم، فلم يبالوا كلام الرجل، فبقي معهم، وكان لهم في تلك الدولة يوم مخصوص، لا يدخل فيه على الملك غيرهم، فقال بعضهم لبعض: هذه شئعة^(٢) بنا أن يكون مثل هذا البادي يقدم علينا، ويجترئ على الدخول معنا. فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم في اليوم المخصوص بهم عند جلوس السلطان، وقدروا أن يقول مثل هذا الشعر المضحك فيطرده عنهم، ويكون ذلك حسماً لعله إقدام مثله عليهم.

فلما كان اليوم المذكور، وقعد السلطان في مجلسه، ونصب الكرسي لهم، رغبوا منه أن يكون هذا القادم أول متكلم في ذلك اليوم، فأمر بذلك، فصعد الكرسي، وانتظروا أن ينشد مثل ذلك الشعر المضحك، فقال:

قطعت يا يوم النوى أكبادي وتركتني أرعى النجوم مسهدا
والنار تضرم في صميم فؤادي فكأنما آلى الظلام أليّة
لا ينسجلي إلا إلى ميعاد ولرب حرق^(٣) قد قطعت نياطه
والليل يرفل في ثياب حداد بشملة^(٤) حرف^(٥) كأن زميلها
يا ناقتي عوجي على عباد والنجم يحدها وقد ناديتها

(١) نفع الطيب ص ٤٥٨ ج ٢.
(٢) الشئعة: القطاعة، والاسم الشئعة.
(٣) الحرق: الفجر والأرض الواسعة.
(٤) الشملة: السريعة.
(٥) الحرف: الناقة الضامرة.
(٦) سرح الرياح: إرسالها.

ملك إذا ما أضرمت نار الوغى وتلاقت الأجناد بالأجناد
 فترى الجسوم بلا رعوس تنثني وترى الرعوس لقي^(١) بلا أجساد
 يسأيا الملك المؤمل والذي قدما سما شرفا على الأنداد
 إن القريض لكاسد في ارضنا وله هنا سوق بغير كساد
 فجلبت من شعري إليك قوافياً يفنى الزمان وذكرها متادي
 من شاعر لم يضطلع أدباً ولا خطت يدها صحيفة بمداد
 فقال له الملك : أنت ابن جاح؟ فقال : نعم! فقال : اجلس، فقد
 وليتك رياضة الشعراء، وأحسن إليه، ولم يأذن في الكلام في ذلك اليوم
 لأحد بعده!

— ٦ —

قال^(٢) المنصور بن أبي عامر يوماً لأبي عمر يوسف الرمادي : كيف
 ترى حالك معي؟ فقال : فوق قدري ودون قدرك؛ فأطرق المنصور
 كالغضبان، فانسل الرمادي، وخرج وقد ندم على ما بدر منه، وجعل
 يقول : أخطأت، لا والله ما يفلح مع الملوك من يعاملهم بالحق! ما
 كان ضربي لو قلت له : إني بلغت السماء، وتمنطقت بالجوزاء! وأنشد :
 من يأت هذا الموت لا يلف حاجة لنفس إلا قد قضيت قضاءها

ولما خرج كان في المجلس من يحسده على مكانه من المنصور، فوجد
 فرصة، فقال : وصل الله لمولانا الظفر والسعد! إن هذا الصنف صنف
 زور وهذيان، لا يشكرون نعمة، ولا يراعون الإل^(٣) ولا ذمة، كلاب
 من غلب، وأصحاب من أخصب، وأعداء من أجذب، وحسبك منهم

(١) اللقي : ما طرح.

(٢) نفع الطيب ص ٢٢٦ ج ٢.

(٣) الإل : العهد.

أن الله جل جلاله يقول فيهم: ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾، والاتباع منهم أولى من الاقتراب، وقد قيل فيهم: ما ظنك بقوم الصدق يستحسن إلا منهم. فرفع المنصور رأسه — وكان محامي أهل الأدب والشعر — وقد اسود وجهه، وظهر فيه الغضب المفرط، ثم قال: ما بال أقوام يشيرون في شيء لم يستشاروا فيه، ويسبقون الأدب بالحكم فيما يدرون، أيرضى أم يسخط؟ وأنت — أيها المنيعث للشر دون أن يبعث — قد علمنا غرضك في أهل الأدب والشعر عامة، وحسدك لهم؛ لأن الناس كما قال القائل:

من رأى الناس له فضلاً عليهم حسدوه

وعرفنا غرضك في هذا الرجل خاصة، ولسنا — إن شاء الله — نبلغ أحداً غرضه في أحد؛ وإنك ضربت في حديد بارد، وأخطأت وجه الصواب، فزدت بذلك احتقاراً وصغاراً، وإنني ما أطرقت من كلام الرمادي إنكاراً عليه، بل رأيت كلاماً يجلب عن الأقدار الجلييلة، وتمعجت من تهديه له بسرعة، والله لو حكمته في بيوت الأموال لرأيت أنها لا ترجح ما تكلم به قدر ذرة، وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام في شخص قبل أن يؤخذ معه فيه، ولا تحكموا علينا في أولياتنا ولو أبصرتم منا التغير عليهم؛ فإننا لا نتغير عليهم؛ بغضاً عنهم، بل تأديباً وإنكاراً، فإننا من نريد إبعاده لم نظهر له التغير، بل ننبذه مرة واحدة، والتغير إنما يكون لمن يراد استيقاؤه. ولو كنت مائل السمع لكل أحد منكم في صاحبه لتفرقتم أيدي سباً، وجونيت أنا مجانية الأجر، وإنني قد أطلعتكم على ما في ضميري، فلا تعدلوا عن مرضاتي.

ثم أمر أن يرد الرمادي. وقال له: أعد علي كلامك، فارتاع، فقال:

(٢) التأنيس خلاف الإيجاش.

الأمر على خلاف ما قدرت، الثواب أولى بكلامك من العقاب، فسكن لتأنيسه، وأعاد ما تكلم به، فقال المنصور : بلغنا أن النعمان بن المنذر حشا قم النابغة بالدر، افعلوا به ذلك.

— ٧ —

ومن الجوارى في الأندلس فضل المغنية، وكانت حاذقة بالغناء كاملة الخصال وأصلها لاحدى بنات هارون الرشيد ونشأت وتعلمت ببغداد، ودرجت من هناك إلى المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فانصقلت ورقت طبقتها في الغناء، واشترت من هناك لعبد الرحمن أمير الأندلس مع جارية أخرى مدينة اسمها علم، وصواحب غيرها.

ومنهن جارية اسمها قلم، وكانت أندلسية الأصل من سبي البشكنس حملت صبية إلى المشرق فوقت بالمدينة حتى اشترت لعبد الرحمن، وكانت أدبية ذاكرة حسنة الخط راوية للشعر حافظة للأخبار عالمة بضروب الآداب.

ومنهن جارية تسمى العجفاء؛ قال في نفع الطيب : قال الأرقمي : قال لي أبو السائب — وكان من أهل الفضل والنسك : هل لك في احسن الناس غناء ؟ فجعنا إلى دار مسلم بن يحيى مولى بني زهرة فأذن لنا، فدخلنا بيتاً عرضه اثنا عشر ذراعاً في مثلها، وطوله في السماء ستة عشر ذراعاً، وفي البيت نمرقتان قد ذهب عنهما اللحمه وبقي السدى وقد حشيتا بالليف، وكريسان قد تفككا من قدمهما ثم اطلعت علينا عجفاء كلفاء عليها هروي أصفر غسيل وكان وركبها في خيط من وسخها فقلت لأبي السائب : بأبي أنت من هذه ؟ فقال : اسكت، فتناولت عوداً فغنت :

بيد الذي شغف الفؤاد بكم
فاستيقني أن قد كلفت بكم
تفرج ما ألقى من المم
ثم افعل ما شئت عن علم
فمجلت قبل الموت بالصرم

قال : فحسنت في عيني وبدا ما أذهب الكلف عنها، وزحف أبو
السائب وزحفت معه، ثم تغنت :

برح الخفاء فأني ما بك تكتم
كم ما تضمن من عزيز نيله
يا ليت أنك يا حبيب بأرضنا
فتذوق لذة عيشنا ونعيمه
ولسوف يظهر ما تسر فيعلم
يا قلب إنك بالحسان لمغرم
تلقي المراسي طائعاً وتخيم
ونكون إخواناً فماذا ننقم ؟

قال : فرحفت مع أبي السائب حتى فارقتا التمرقتين وربت العجفاء
في عيني كما يربو السوق بماء مزنة، ثم غنت :

يا طول ليلي أعالج السقما
ما كنت أحشى فراقكم أبداً
إذ حل كل الأحبة الحرما
فاليوم أمسى فراقكم ضرما

فألقيت طيلسائي وأخذت (شادكونة) فوضعتها على رأسي وصحت
كما يصاح على اللوبيا بالمدينة، وقام أبو السائب فتناول ربة في البيت
فيها قوارير ودهن فوضعتها على رأسه، وصاح صاحب الجارية وكان ألتغ :
قوانيني، يعني قواريري، فاصطلكت القوارير وتكسرت وسال الدهن على
رأس أبي السائب وصدره وقال للعجفاء : لقد هجت لي داء قديماً ثم
وضع الربة، وكنا نختلف إليها حتى بعث عبد الرحمن بن معاوية فابتعت
له العجفاء، وحملت إليه.

ومن الجوارري في الأندلس طروب وهي جارية من نافارا (نيرة)
ولع بها عبد الرحمن حتى لقت السلطانة طروب، وتدخلت في شئون

الإمارة بما هياً لها عبد الرحمن على نفسه من الهممة، حتى لقد كان لا يطيق الصبر على فراقها ولا على هجرها. غاضبته مرة فصدت عنه ولزمت مقصورتها فضاقت ذرعاً بهجرها، فجهد بترضاها وهي تجهد عناء وترهقه عتناً، فأرسل بعض خصيائه الخواص يستكرونها على المنجيء إليه، فأغلقت عليها الباب وأقسمت ألا تذهب ولو اقتضى الأمر قتلها، فأوحى عبد الرحمن إليهم أن يحملوا بدر المال فيجعلوها من وراء الباب سداً، ثم أقبل يستعطفها ويب لها هذه البدر، فرقت له وعطفت عليه.

— ٨ —

قال أبو الطاهر^(١) إسماعيل بن أحمد التجيبي : كنت بمدينة مالقة^(٢) من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة، فاعتللت بها مدة انقطعت فيها عن التصرف، ولزمت المنزل، وكان يمرضني^(٣) حينئذ رفيقان كانا معي، يلمان من شعبي ويرفقان بي.

وكنت إذا جنني الليل اشتد سهري، وخفقت حولي أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية، واختلطت الأصوات بالغناء، فكان ذلك شديداً علي، وزائداً في قلبي وتألمي، فكانت نفسي تعاف تلك الضروب طبعاً، وتكره تلك الأصوات جبلة، وأود لو أجد مسكناً لا أسمع فيه شيئاً من ذلك، ويتعذر علي وجوده لغلبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم.

وإني لساهر ليلة بعد إغفائة في أول ليلتي، وقد سكنت تلك الألفاظ

(١) شرح المختار من شعر بشار ص ١٤.
(٢) مدينة بالأندلس كانت تقرأ حصيناً على بحر الروم، أسسها الفينيقيون، وكان لها شهرة أيام الرومان والقرطاجيين، وكان بها بنو حمود من ملوك الطوائف.
(٢) مرضه : قام عليه في مرضه.

المكروهة، وهدأت تلك الضروب المضطربة، وإذا بضرب خفي معتدل حسن لا أسمع غيره، فكأن نفسي أنست به، وسكنت إليه، ولم تنفر منه نفارها من غيره، ولم أسمع معه صوتاً، وجعل الضرب يرتفع شيئاً فشيئاً ونفسي تتبعه، وسمعي يصغي إليه، إلى أن بلغ في الارتفاع إلى ما لا غاية وراءه، فارتحت له، ونسيت الألم، وتداخلني سرور وطرب، وخيل لي أن أرض المنزل ارتفعت بي، وأن حيطانه تمور^(١) حولي، وأنا في كل ذلك لا أسمع صوتاً.

قللت في نفسي : أما هذا الضرب فلا زيادة عليه؛ فليت شعري كيف صوب الضارب ! وأين يقع من ضربه ؟ ولم ألبث أن اندفعت جارية تغني في هذا الشعر بصوت أندى من النوار، غب القطار^(٢)، وأحل من البارد العذب، على كبد المهام الصب، فلم أملك نفسي أن قمت ورفيقي نائمان، ففتحت الباب، وتبع الصوت، وكان قريباً مني، فاطلعت من وسط منزلي على دار فسيحة، وفي وسط الدار بستان كبير، وفي وسط البستان شرب^(٣) نحو عشرين رجلاً، قد اصطفوا وبين أيديهم شراب وفاكهة، وجوار قيام بعيدان وطناير وآلات لهُو، ومزامير لا يحركنها، وجارية جالسة ناحية، وعودها في حجرها، كل يرمقها ببصره، ويوعبها سمعه وهي تغني وتضرب، وأنا قائم بحيث أراهم ولا يرونني، وكلما غنت بيتاً حفظته إلى أن غنت عدة أبيات وقطعت، فعدت إلى موضعي، يشهد الله وكأنا انشطت^(٤) من عقال، وكأن لم يكن بي ألم، وقد وعيت الأبيات وهي :

ما بال أنجم هذا الليل أضلت القصد؟ أم ليست على فلك

(١) تمور : تتحرك وتذهب وتجيء.

(٢) القطار : جمع قطر.

(٣) جمع شارب.

(٤) أنشط من عقال : حل.

عادت سواريه^(١) وفقاً لا حراك بها
هل من بشير بنور الصباح، تنقذي
فقد أجد التواء الليل لي شجناً
وأضحجتني تباريحي^(٢) على الحسك^(٣)
خذ يا شمول^(٤) ككوس الراح مترعة
على شجون المعنى سطوة الملك
وهيج بأحانك الطنبور إن له
ثم انصرفت في صباح تلك الليلة، فلقيت صديقاً لي من أهل العلم
قرطبيّاً سكن مالقة، فأخبرته الخبر، وأنشدته الشعر، ووصفت له الدار،
فاغرورقت عيناه وقال : الدار للوزير فلان، والجارية فلانة البغدادية إحدى
المحسنات من جوارى المنصور بن أبي عامر، وصارت إلى ابن الوزير
بعد موت المنصور وتمزق ملكه !.

(١) جمع سار.

(٢) تاريخ الشوق : توهجه؛ والتاريخ الشدائد.

(٣) الحسك : نبات ورقة كورق الرجلة وأدق وعند ورقة شوك صلب ذو ثلاث شعب.

(٤) شمول : اسم غلام صقلبي من صفالية المنصور.

صور أندلسية

- ١ -

معركة تور في فرنسا

امتدت فتوحات عرب الأندلس شمالاً إلى فرنسا، ووطئ عبد الرحمن الغافقي أرضها عام ١١٤ هـ - ٧٣٢ م؛ وتقدم إلى وادي اللوار حتى مدينة تور، وبين يواتيه وتور دارت المعركة بين الغافقي وشارل مارتل؛ وكان جيش الغافقي نحو ٨٠ ألفاً، وجيش مارتل كان فيه الجرمانيون، ولا سيما التيوتون، وبدأت المعركة يوم الجمعة ٧ شعبان سنة ١١٤ هـ - ٢ أكتوبر سنة ٧٣٢ م، وبعدها بيوم قتل الغافقي في الميدان، وقتل كثير من الجيش الإسلامي أو أكثر من نصفه، وانسحب الباقون من فرنسا إلى ما وراء جبال بيرنه، فانفرد شارل مارتل ثم ابنه ثم حفيده شارلمان بالحكم في فرنسا، وهم ملوك الدولة الماروفنجية الشهيرة، وتأسست على أنقاض معركة تور الامبراطورية الرومانية الغربية، وتوج البابا شارلمان امبراطوراً على فرنسا وألمانيا وإيطاليا سنة ٨٠٠ م - ١٨٤ هـ في عهد الرشيد، وبهذا بدأ التمدن المسيحي.

يقول جيون المؤرخ الإنجليزي في نتائج هذه المعركة: « لو لم يصد الهجوم لكانت العربية تدرس في جامعات إنجلترا وألمانيا ».

ويقول مسيو كلود فارير^(١): « في سنة ٧٣٢ م — ١١٤ هـ حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التي انقضت على الإنسانية في القرون الوسطى، وكان منها أن غمرت العالم الغربي — مدة سبعة قرون أو ثمانية إن لم نقل أكثر — طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة؛ هذه الفاجعة هي التي أريد أن أكره حتى ذكراها، هي الانتصار البغيض الذي ناله على مقربة من بلدة بواتيه — قريباً من بلدة تور في مقاطعة هميانيا — أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة الكارولنجي شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين بقيادة الغافقي... ففي ذلك اليوم المشعوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء، ويكفي المرء أن يطوف في حدائق الأندلس أو بين الآثار العربية في إشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليلة ليشاهد — والألم الغريب آخذ منه — ما عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمراني الفلسفي السلمي المتسامح — لأن الإسلام مجموعة كل هذا — فخلصها من الأهويل التي لا أسماء لها، وكان من ذلك أن نتج خراب غالبا القديمة، في حين كان العالم الإسلامي، من نهر الوادي الكبير في أوروبا إلى نهر السند في قلب آسيا، يزدهر كل الازدهار في ظل الإسلام... وفي هذه المعركة يقول شبلي ملاط الشاعر اللبناني :

من للزمان بمثل فضل محمد	وعدالة كعدالة الخطاب
رفع الرسول عماد أمة يعرب	وأعزها بالآل والأصحاب
غشت الفتوح وصفقت راياتها	في الشرق فوق أباطح وهضاب
وتغلغلت في الغرب طائفة على	أكتاف صقر جارح وعقاب
لولا تجلده «شارل مارتل» خيمت	في قلبه بسرادق وقباب
ولكان صار الغرب أندلساً به	شوقي يقول سواحراً وسواحي

(١) مدرس بمدرسة اللغات الشرقية في باريس.

— ٢ —

رسالة قصيرة :

أرسل العزيز الفاطمي ابن المعز حاكم مصر (٢٦٥ - ٣٨٦ هـ) في أول ولايته رسالة إلى الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر رسالة يسبه فيها ويهجوها؛ فاكتفى الحكم بأن كتب إلى العزيز هذه الكلمات « عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك ».

وبعد ذلك أرسل صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٨ هـ إلى يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن حاكم المغرب والاندلس وملك الموحدين بالمغرب يستنجد به على الصليبيين فرفض أن يعينه لأنه لم يلقه بأمر المسلمين.

— ٣ —

أبو جعفر الحميري :

قال المراكشي في كتابه « المعجب » :

أخبرني شيعي وأستاذي أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيى الحميري رحمه الله أيام قراءتي عليه بقرطبة سنة ٦٠٦ هـ، وذلك أنا بلغنا عليه في الحماسة إلى مقطوعة ابن زبابة التيمي التي أولها :

يا هف زبابة للحرث الـ صائح فالغائم فالآتب

فلما أنتهينا منها إلى قوله :

والله لو لاقيته خالياً لا آب سيفانا مع الغالب

قال لنا : أحدثكم بأعجب ما اتفق لي في هذا البيت، وذلك أن

(١) ص ١٧١.

أمير المؤمنين أبا يوسف رحمه الله لما فصل عن قرطبة متوجهاً إلى لقاء الأندلس لعنه الله، قال لي ولدي عصام بعد انفصالي بلبلة أو ليلتين : يا أبت رأيت البارحة أمير المؤمنين داخلاً قرطبة وقد رجع من السفر وهو متقلد بسيفين فقلت يا بني : لئن صدقت رؤياك هذه ليهربن الأندلس لعنه الله، وخطر لي هذا البيت :

والله لو لاقيته خالياً لا آب سيفانا مع الغالب

فصدقت الرؤيا والتعبير؛ وكان أبو جعفر آخر من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس، لزمته نحواً من سنتين فما رأيت أروى لشعر قديم ولا حديث، ولا أذكر بحكاية تتعلق بأدب أو مثل سائر أو بيت نادر أو سجع مستحسنة منه، أدرك جلة من مشايخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب، وأعانه على ذلك طول عمره وصدق محبته وإفراط شغفه بالعلم، قال لي ولده عصام وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي الطيب قرئت علي أو أكثرها فألفيتها شديدة الصحة فقلت له : لقد كتبتها من أصل صحيح وتحزرت في نقلها، فقال لي : ما يمكن أن يكون في الدنيا أصل أصح من الأصل الذي كتبت منه، فقلت له أين وجدته ؟ قال هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا، وكنا في المسجد في زاوية فقلت له أين هو ؟ فقال لي عن يمينك، فعلمت أنه يريد الشيخ فقلت ما على يميني إلا الأستاذ فقال لي هو أصلي وباملاته كتبت، كان يملئ علي من حفظه، فجعلت أتعجب فسمع الأستاذ حديثنا فالتفت إلينا وقال فيم أننا ؟ فأخبره ولده الخبر، فلما رأى تعجبي قال : بعيد « أن تفلحوا يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبي والله لقد أدركت أقواماً لا يعدون من حفظ كتاب سيوييه حافظاً ولا يرونه مجتهداً »، وتوفي أبو جعفر هذا في شهر صفر من سنة ٦١٠ عن ست وتسعين سنة، ولم يكن في الأندلس أعلى رواية منه في كل ما يروى؛ ولم أر قبله ولا بعده مع اتساع علمه وشدة تمييزه وحسن اختياره ومعرفته بعلم

هذه الصناعة أكثر إنصافاً منه ولا أسرع رجوعاً إلى الحق، قال المراكشي :
كنت أنشده من شعري على ركاكته وكثرة تكلفه وبعده من الجودة
أبياتاً لا أعدها شيئاً يحملني على إنشادها إياه فرط استدعائه ذلك مني
فيلهج بها ويشند استحسانه لها وربما درسها فحفظها، أنشدته يوماً وقد
استدعى مني ذلك على عادته بيتين ارتجلتهما في شاب كان يقرأ معنا،
كان شديد العفة مع حسن رائع وظرف ناصح كان اسمه فتحاً، هما :

يا من له عن كناس من المتيم قلبه
ما أنت كاسمك فتح وإنما أنت قلبه

فطرب والتفت إلى ابنه وقال له : هذا والله الشعر لا ما تصدعني
به طول نهارك إن كنت تقول مثل هذا وإلا فاسكت، فلما كان من
الغد قال لي أعلمت ما صنع عصام أمس قلت لا قال كان كما قالوا
في المثل : سكت ألفاً، ولم يزل أمس يعمل فكرته فبعد الجهد الشديد
أخذ معنى بيتك فسلمه روحه وأعدمه رونقه ومسخه جملة فقال :

سبي فؤادي خشف فقوتي اليوم ضعف
سموه فتحاً مجازاً وفي الحقيقة حشف

ما زاد أكثر من الجاز والحقيقة فقلت أنا : هذا والله أحسن من
شعري، فتغير لي وقال يا بني دع عنك هذه العادة فإن أسوأ ما يخلق
به الإنسان الملقق وتزيين الباطل سيما إذا أضاف إلى ذلك الخلف الكاذب،
والله إنك لتعلم أن هذا ليس بشيء وإلا فقد اختل ميزك وساء اختيارك،
وما أظن هذا هكذا، وسمعت من شدة إنصافه يستحسن بيتين هجاه
بيهما صاحبنا على ابن خروف رحمه الله، وذلك أن الأستاذ كان يلقب
بالوزغي وكان عنده شاب يقرأ عليه يلقب الغرنوق وهو اسم عندهم
للكركي والفصيح فيه غرنيق، فكان بعض الطلبة يتهمون الأستاذ بالميل
إلى ذلك الشاب، فقال ابن خروف في ذلك :

أحقاً سام أبرص ما سمعنا بأنك قد تعشقت ابن ماء
وكيف وأنت في الحيطان تمشي وذاك يطير في جو السماء

فأبعده الأستاذ وأنهى خبره إلى القاضي أبي الوليد بن رشد فأوجعه
ضرباً وامتنع الأستاذ من قراءته عليه فحرمه الله بهذين البيتين فوائد
علمه وأبعده عن مربع جنابه وولاه الأستاذ خطته وألقى حبله على غاربه،
قلم يفلح ابن خروف بعدها ولا حصل على شيء من العلم، وإنما كان
يعتمد فيما يأتي به على طبعه خاصة. وتوفي عام ٦١٠ هـ.

وكان يحفظ ديوان المتنبي، ويقول لمن يتعجب من حفظه : « لقد
أدركت شيوياً لا يعلمون من حفظ كتاب سيبويه حافظاً ».

— ٤ —

المعتصم بن صمادح :

لم يقتصر يوسف بن تاشفين ملك المرابطون على الاستيلاء على الأندلس
عام ٤٨٤ هـ، وعلى نفي المعتصم بن عباد من إشبيلية في العام نفسه
إلى المغرب الأقصى حيث مات منقياً مشرداً في أغمات عام ٤٨٧ هـ؛
بل أخرج كذلك المتوكل بن المظفر ملك بطليوس من ملكه وقتله عام
٤٨٥ هـ، وكان أبوه المظفر — المتوفي عام ٤٦٠ هـ — قد ملك بطليوس
قبل ابنه المتوكل مدة طويلة ثم أخرج المرابطون كذلك المعتصم بن صمادح
ملك المرية من ملكه عام ٤٨٤ هـ، وحينما كانت الأندلس في أمر مرجح،
زال عنها سلطان الخلافة فاضطربت. وفقدت رواسيها من بني أمية فمادت.
وأصبحت كرقعة الشطرنج، يتغالب الملوك على كل بيت فيها، كل قوي
يحوز ما وسع حوله وهمته، والعيش غلاب « والبر أوسع. والدنيا لمن
غلبا ». ملك محمد بن أحمد بن صمادح التجيبي مدينة « وشقة »

بالأندلس. ثم ملك ابنه معن بن محمد مدينة (المرية^(١)). وخلفه ابنه أبو يحيى المعتصم بالله وهو في سن الرابعة عشرة حيث نشأ في ملك ضيق الرقعة، فاستعاض منه سعة الخلق وبعد الهمة وحلية العلم والأدب والسخاء الثامل، والجود العميم، حتى طاول المعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف ونافسه. وقال أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حينما لقيهما بالأندلس « هذان رجلا هذه الجزيرة ». قال ابن خلكان :

« وكان رجب الفناء، جزيل العطاء، حليماً عن الدماء. طافت به الآمال واتسع في مدحه المقال، وأعملت إلى حضرته الرحال، ولزمه جماعة من فحول الشعراء ». وقال الفتح بن خاقان :

« ملك أقام سوق المعارف على ساقها، وأبدع في انتظام مجالسها واتساقها، وأوضح رسمها، وأثبت في جبين أيامه وسمها، لم تغل أيامه من مناظرة، ولا عمرت إلا بمناكرة أو محاضرة. وكانت دولته مشرعاً للكرم، ومطلعاً للهمم؛ فلاحت بها شموس، وارتاحت فيها نفوس، ونفقت فيها أعلام الأعلام، وتدقت بحار الكلام، كلجادة ابن عمار وإبداعه، في قوله معتزلاً من وداعه :

أمتصماً بالله والحرب تترقي بأبطالها والخيل بالخيال تلتقي
دعنتي المطايا للرحيل وإنسي لأفرق من ذكر النوى والتفرق
وإني إذا غربت عنك فلإنما جبينك شمس والمرية مشرق

وكان المعتصم — كالمعتمد بن عباد — شاعراً مجيداً، كتب إلى الوزير الشاعر ابن عمار :

وزهدني في الناس معرفتي بهم وطول اختباري صاحباً بعد صاحب
فلم ترني الأيام خلا تسرني مياديه إلا ساءني في العواقب
ولا قلت أرجوه لدفع ملمة من الدهر إلا كان إحدى المصائب

(١) مدينة بالأندلس على ساحل البحر الرومي كانت قاعدة الأسطول الإسلامي.

وقد طوى الأمير أربعين عاماً في إمارته، شاع فيه ذكره، ونبه اسمه، وحلب الدهر أشطره، ورأى أحداثه وعيره. ثم حم القضاء، وبعث ابن تاشفين جنوده على ملوك الطوائف تثل عروشهم، وتعفي آثارهم، ولقي « رجلا الجزيرة » الصدمات الأولى، فدارت على المعتمد الدائرات، فإذا هو أسير أغمات^(١)، وللمعتمد بن عباد قصة ملؤها العبرات والزفريات.

وعلم ابن صمادح بما أصاب صاحبه فملكه الغم، وناء به الحزن. وكان أسعد من صاحبه جداً، نجاه الموت من الإسار، وأنتقذه الحمام من المذلة. « رب عيش أخف منه الحمام ». ولله ابن بسام حين يقول :
« وكان بين المعتصم وبين الله سريرة أسلفت له عند الحمام بدأ مشكورة، فمات وليس بينه وبين حلول الفاقة به إلا أيام يسيرة، في سلطانه وبلده، وبين أهله وولده ».

دع ما نحق الكتاب وأنشد الشعراء، ودع أربعين عاماً طواها الزمان كأنها أحلام، وانظر المعتصم ليلة الخميس لثان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة — الليلة التي طلع عليه بالردى فجرها. فها هو ذا على فراش الموت في قصره بالمرية، ومعسكر ابن تاشفين على مقربة من المدينة، ترى خيامه، وتسمع ضوضاءه، ويسمع المعتصم وجية من الجيش اللجب، والجنود المصطخب، فيقول كأن لم ينعم بالملك والجاه أربعين عاماً :

« لا إله إلا الله، نقص علينا كل شيء حتى الموت ». قالت « أروى » إحدى جواريه : « فدمعت عيناى، فلا أنسى طرفاً إلي يرفعه، وإنشاده لي بصوت لا أكاد أسمع » :
ترفق بدمعك لا تفنه فين يديك بكاء طويل

(١) بلدة كانت وراء مراکش.

ما أشبه الليلة البارحة :

سقطت الأندلس في أيدي الإسبانين، وخرت صريعة مضرجة بالدماء والأشلاء؛ أليست الأندلس مثل بغداد، وألم تسقط بغداد من قبل في أيدي التتار المخربين، كما سقطت الأندلس من بعد في أيدي الإسبان المدمرين.

ورثى الشعراء الأندلس حتى قبل النكبة، بعمرات تفتت الأكباد وتستجلب الزفرات، كما رثى الشعراء بغداد، عاصمة الإسلام ودار السلام، فهذا الشيخ سعدي الشيرازي الشاعر الفارسي الكبير — الذي عدّه قومه أحد أنبياء الشعر الثلاثة، والآخران الفردوسي والأنوري. وهو طائر الصيت بكتايه كلستان وبستان، وبيوانه وأشعاره الأخرى — يرثي بغداد وحضارتها.

روي أنه لما أغار التتار على بغداد في حياته رثى حاضرة الإسلام بقصيدتين : فارسية وعربية. وقصيدته العربية ليست على نسق شعره الفارسي بلاغة وإحكاماً، ولكنها قصيدة نادرة في موضوعها ومنها :
حسبت بعيني المدامع لا تجري فلما طغى الماء استطلال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها تمنيت لو كانت تمر على قبوري
لأن هلاك النفس عند أولي النهي أحب لهم من عيش منقبض الصدر
لزمت اصطباراً حيث كنت مفارقاً وهذا فراق لا يعالج بالصبر
ولا تسألن عما جرى يوم حصرهم فذلك مما ليس يدخل في الحصر
بكت جدر المستنصرية ندبة على العلماء الراسخين ذوي الحجر
نوائب دهر ليتني مت قبلها ولم أر عدوان السفه على الحجر
محابر تيكبي بعدهم بسوادها وبعض قلوب الناس أحلك من حبر
أيا ناصحي بالصبر دعني وزفرتي أموضع صبر والكيود على الجمر ؟
فجرت مياه العين فازددت حرقة كما احترقت جوف الدماميل بالفجر

فأين بنو العباس مفتخر الوري
غدا سمرأ بين الأنام حديثهم
وفي الخير المروي دين محمد
أأغرب من هذا يعود كما بدا
فلا انحدرت بعد الخلائف دجلة
أتذكر في أعلى المنابر خطبة
عجة مشتاق وألف ترحم
هنيئاً لهم كأس المينة مترعاً
فلا تحسبن الله مخلف وعده
إلام تصارييف الزمان وجوره
وسائر ملك يقتضيه زواله

ذوو الخلق المرضي، والفرر الزهر؟
وذا سمر يدمي المسامع كالسمر
يعود غريباً مثل مبتدأ الأمر
وسي ديار السلم في بلد الكفر؟
وحافاتها لا أعشيت ورق الخضر
ومستعصم بالله لم يك في الذكر
على الشهداء الطاهرين من الوزر
وما فيه عند الله من أعظم الأجر
بأن لهم دار الكرامة والبشر
يكلفنا مالا نطيق من الأمر؟
سوي الملكوت القائم الصمد الوتر

— ٦ —

الماضي الخالد :

لما فتح العرب الأندلس ساسوا أهلها سياسة رشيدة، بنيت على التسامح والعدل، وقامت على المساواة والإذعان للحق، وترفعت نفوسهم عن الدنيا، وعفت أيديهم عن أموال المغلوبين. ولم يمض إلا زمن يسير حتى تبين أثر العدل في حضارة البلاد ورفقها، وأخذ العرب في تخطيط المدن، وتشبيد القصور، وحفر الترع، وإقامة الجسور، وبناء القناطر، وشق الخليج، وعبئ الأرض للزراعة، وتعميد الطرق، واستيراد كثير من الأشجار والنبات من مصر والشام والعراق؛ وجلبوا إليها من الشرق كل ما فيه من صناعات؛ وأقبل الأندلسيون عليها فأجادوها أيما إجادة. وأصبحت مدنهم الكبيرة عاصمة بالعدد العظيم من الصناع، وجمعت قرطبة الشيء الكثير من مختلف المصنوعات، وأخذت ينابيع الثروة تتفجر في كل ناحية من نواحي البلاد.

واهتموا بنشر العلوم والفنون حتى نبغ كثير من العلماء في العلوم المختلفة : من دينية، ولسانية، وطبية، وزراعية، وطبيعية وفلسفية. وشملت العمارة جميع نواحيها، حتى كان المسافر في أوديتها وأنهاها لا يكاد ينقطع نظره عن القصور الفخمة، والبساتين المتصلة التي أملت على ابن خفاجة المتوفى سنة ٥٣٣هـ، قوله في وصفها :

يا أهل أندلس، لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار
لاتحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

وكانت قرطبة — عاصمة الأندلس — زهرة البلاد في الغرب، كما كانت بغداد زهرتها في الشرق، وكانت الحواضر العظيمة — كالقاهرة ودمشق وبغداد — تحمل إليها ما اكتمل من صناعاتها، ونادر كتبها، ومختلف تحفها، لبيعها في أسواقها التي تكنظ بالأموال في أيدي النساء والرجال. لذا كانت حضارة القوم تأخذ بطرف من حضارات هذه البلاد.

وكان بالأندلس أيام العرب أربع جامعات للطب بقرطبة وأشبيلية ومرسية وطليطلة، ومئات من المدارس والمعاهد قد اكتظت بالطلبة من جهات مختلفة. وقد تخرج في هذه المعاهد كثير من فحول العلماء في كل فن، أمثال ابن رشد في الفلسفة، وابن زهر في الطب، وابن فرناس في الرياضة، وابن زيدون وابن خفاجة في الأدب، وغير هؤلاء ممن يضيق المقام عن ذكرهم، ولا زلنا نقرأ أسماء من انتسب منهم إلى مدينته، كالقرطبي، والإشبيلي، والمالقي، والبطلوسي، والشاطبي؛ وكانت جامعة قرطبة في الغرب كمدرسة الإسكندرية في الشرق إبان عظمتها، يؤمها الطلاب من كل فج، حتى من بلاد الرومان واليونان^(١). ويعترف

(١) راجع الذخيرة لابن بسام الأندلسي المتوفى عام ٥٤٢هـ، ونفع الطيب للمقري م ١٠٤١هـ.

المصنفون من مؤرخي الإفرنج بما كان لحضارة العرب من أثر في مدينة اوربا الحديثة.

— ٨ —

شاعر يرثي الأندلس :

هذه القصيدة طبعها لأول مرة الأستاذ صوالح محمد بالجزائر سنة ١٩١٤، وذكر أن هذه القصيدة من جملة قصائد بعثت الى السلطان بايزيد العثماني بقصد الاستغاثة، ونشرت صحيفة الزهرة التونسية من قبل نفعاً منها، ومؤلف القصيدة مجهول، ويذكر المؤرخ المغربي السيد محمد ابن علي الدكالي السلوى أن صاحبها كما يفهم من القصيدة من مدينة المرية، ولعله أبو جعفر بن خاتمة، وقد تكون مذكورة في كتاب له يسمى مزية المرية الموجود منه نسخة خطية بمكتبة الأسكوريال :

أحقاً خيا من جو رندة نورها	وقد كسفت بعد الشمس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت	منازلها ذات العلا وقصورها
أحقاً خليلي أن رندة أقفرت	وأزعج عنها أهلها وعشيرها
وهدت مبانها وثلت عروشها	ودارت على قطب التفرق دورها
وكانت عقاباً لا ينال مطارها	ومعقل عز زاحم النسر صورها
هوت رندة الغراء ثم حصونها	وأنظارها شنعاء عز نظيرها
وقد كن عقداً زين القطر نظمها	فقد فتح الآن البلاد نثرها
وفسرق شمل المؤمنين لميها	وقطع من أرحامهم زمهريرها
تسلمها حزب الصليب وقادها	وكانت شروداً لايقاد نفورها
وقد ذهبت أديانها ونفوسها	وقد دثرت تحت السباء دثورها
فباد بها الإسلام حتى تقطعت	مناسيها واستأصل الحق زورها
وأصبحت الصلبان قد عبدت بها	تمائيلها دون الإله وصورها

كرايه أصوات يروع صريرها
سقى عهدكم مزن يصوب نمرها
ودارت عليكم بالصرور دهورها
لدى صرعات الحشر يأتي سفيرها
سوى حرق سحم تلظي سعيرها
ولا تنقضي اشجانها وزفيرها
يذوب كما ذاب الرصاص صبورها
سويداؤه سوداء جسم ثبورها
بعبرة حزن ليس يرق عبورها
يساجل قطر الغاديات درورها
وتكلا بأقمار قد أطفىء نورها
وكانت إلى بيت الحرام شطورها
وقد كان معتاد الأذان يزورها
وأياتها تشكو الفراق وسورها
وحفل بحم الذكر تمضي شهرها
يتود المنايا وهو كان يريدها
فيرهبه شبل الشرى وهصورها
تزان لها عين الجنان وحورها
وشعواء غارات يشاب مغيرها
ويخزي بها غنصارها ورميرها
فأضحى لعمر الله وهو أسيرها
كما قد قضى جبارها ونذيرها
إذا سمرت يسي العقول سفورها
وقد زانها دياجها وحريرها
وقد هتكت بالرغم منها ستورها
وقد أسبلت وأدمع عيني شعورها

لقرع النواقيس اعتلى بمنارها
فيا ساكني تلك الديار كريمة
أحقاً أخلائي القضاء أدياركم
فقتل وأسر لا يفادي وفرقة
لعمر الهدى ما بالحشا لفراقكم
ولوعة ثكل ليس يذهب روعها
ونفس على هذا المصاب حزينة
وقلب صديق ماج فيه بلاؤه
سأبكي وما يجدي على الفاتئ البكي
شأبيب دمع بالدماء مشوبة
عويلاً يوافي المشرقين يريعه
فواحسرتنا كم من مساجد حولت
ووأسفاكم من صوامع أوحشت!
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى
وكم من لسان كان فيها مرتل
وكم من فتى ثبت الجنان مهذب
يصول على الأبطال صولة ضيغم
له في سبيل الله خير تقيبة
له في جناب الكفر أجدى نكاية
براع لها دين الصليب وحزبه
وكم أنفس كانت لديه أسيرة
تحكم فيه الشرك وهو موحد
وكم طفلة حسناء فيها مصونة
تميل كفضن البان مالت به الصبا
فأضحت بأيدي الكافرين رهينة
وقد لطمت واحر قلبي خدودها

وإن تستغث بالله والدين لا تغث
 وقد حيل ما بين الشفيق وبينها
 وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤها
 وشيخ على الإسلام ثابت شيوبه
 وكم فيهم من مهجة ذات ضجة
 لها روعة من وقعة البين دائم
 وكم من صغير حيز من حجر أمه
 وكم من صغير بدل الدهر دينه
 وكم من شقي يسرت هذه له
 كرب وأحزان يلين لها الصفا
 فيا فرحة القلب الذي عاش بعدها
 ويا غربة الإسلام بين خلاها
 ويا ليت أمي لم تلدني وليتني
 وما خير عيش يعذب الموت دونه
 فيا ليت شعري بعد ماصح موتها
 ويا ملة الإسلام هل لك عودة
 وهل تسمع الأذان صوت الأذان في
 ويا لعزاء المؤمنين لفاقة
 لأندلس ارتجت لها وتضعضت
 منازلها مصدورة وبطاحها
 تهاثها مفجوعة ونجودها
 وقد ليست ثوب الحداد ومزقت
 فأحياؤها تبدي الأسي وجادها
 لو أن ذا إلف من البين هالك
 على فرقة الدين الذي جاءها به
 فمألة الحسناء تكلل أسيفة

وإن تستجر ذا رحمة لا يجيرها
 وأسلمها آباؤها وعشيرها
 على الذل يطوي لثيها ومسيرها
 يمزق من بعد الوقار قنيرها
 تود لو انضمت عليها قبورها
 أساها وعين لا يكف هديرها
 فأكبداها حراء لفتح هجيرها
 وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها
 سبيلاً إلى العسرى يحيف كفورها
 عواقبها مخزورة وشروورها
 وبالعسى عين رآها بصيرها
 ويا عمرة أنى يقال عثورها
 بليت ولم يلفح فؤادي حرورها
 ويغبط قل الأهل فيه كثيرها
 أيرجى على رغم العداة نشورها
 لأرجائها يشفي الصدور صدورها
 معالمها تعلقو بذلك عقيرها
 على الرغم أغنى من لديها فقيرها
 وحق لديها محوها ودثورها
 مدائنها موشورة وثغورها
 وأحجارها مصدوعة وصخورها
 ملابس حسن كان يزهو حبورها
 يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
 لذابت رواسيها وغاضت بحورها
 بشير الأنام المصطفى ونذيرها
 قد استفرغت ذمماً وقتلاً حجورها

وجزت نواصيا وشلت يمينها
وقد كانت الغربية الجنن التي
وبلش قسطن رجلها يمينها
وضحت على تلك الثنيات حجرها
وبالله إن جفت المنكب فاعتبر
وسكرها قد بدل اليوم علقما
وعرج على الإقليم فابك ربوعها
وودع بها وفد التعم فإنتها
ألا ولتقف ركب الأسي بمعالم
بدار العلى حيث الصفات كأنها
محل قرار الملك غرناطةالسي
فما في العراقيين العتيقين مثلها
تري الأسي أعلامها وهي خشع
ومأمومها ساهي الحجى وإمامها
لها حال نفس قد أصيب فؤادها
فأنفسها في الصعق دون إفاقة
وقد ذعرت تلك البنيات حولها
وقد رجفت وادي الأشي فبقاعها
لقد أظلمت حتى لفرط حدادها
وبسطة ذات البسط ما شعرت بما
على عظم بلواها وطول وبألها
وما أنس لا أنس المربة إنها
فلو أحرق الثكل المصابين أصبحت
فينا أصدقائي ودعوها كريمة
منازل آبائي الكرام ومنشئسي
وأقروا عليها من سلامي تحية

وبدل بالويل المبين سرورها
تقيها فأضحى جنة الحرب سورها
ومن سريان الداء بان قطورها
فأقفر مغناها وطاشت حجورها
فقد خف ناديا وجف نظيرها
لها رجة، نار الهيام تثيرها
بسحب يضاهاي المعصرات خريها
لها أدمع نهر الدموع يثيرها
قد ارتج باديا وضع حضورها
من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
هي الخضره العليا زهتها زهورها
ولا في بلاد الله طراً نظيرها
ومنبرها مستعبر وسيرها
وزائرها في مآتم ومزورها
وبنت لها اليمنى وحس ثبورها
كنفس كليم الله إذ ذك طورها
فهن بواكي الأعين الرمد مورها
سكارى وما استاكت بخمر ثغورها
سواء بها نجل العيون وعورها
دهاها وأنى يستقيم شعورها
وما كابدت من ذا المصاب نحوها
قتيلة أوجال أزيل عذارها
تأجج من حر الوجيف بحورها
أو استودعوها من إليه أمورها
وأول أوطان غذائي خيرها
تجددها آصالها وبكورها

أماناتها ضاعت فضاعت رقابها
أضعنا حقوق الرب حتى أضعنا
وملتنا لم نعرف الدهر عرفها
بما قد كسبنا نالنا ما أنالنا
بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا
بعضيانا استولى علينا عدونا
نعم سلبوا أوطاننا ونفوسنا
علوها بلا مهر وما غمزت لهم
وقد عوت الافرنج من كل شاق
وقد كشرت ذؤبانها وكلاها
وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا
علامات أخذ مالنا قبل بها
فلا تمحى إلا بمحو أصولها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة
أصابت منار الدين فانهك ركنه
أدارت على غريبة الدهر أكؤساً
ودبت أفاعيها إلى كل مؤمن
أنادي لها عجم الرجال وعربها
وأستنفر الأذى فالأذى فريضة
على كل محتاج لفضل دفاعها
ألا وارجعوا يا آل دين محمد
أنبيوا وتوبوا واصبروا وتصدقوا
ومن كل ما يردي النفوس تطهروا
ألا واستعدوا للجهاد عزائماً
بأسد على جرد من الخيل سبق
بأنفس صدق موقنات بسأنا

على الله في ذاك النعيم مهورها
حتالة نور الورد ذر ذورها
كاقلام ذات الخط نخط سطورها
وتخطوا بآمال يشوق غيرها
تدين يدين الحق وهو نصيرها
بوادر سخط ليس يرجى فتورها
يطاول آناء الزمان قصيرها
حيتها على طول اللبالي خنورها
وأعلاق أموال خطير خطيرها
بلايسا يمر الطيبات مرورها
فليس لها في الخير إلا خيرها
بافدة خوف الفراق يطيرها
فهذا العدو الضخم حتماً يبيرها
لكالحة هز الصليب سرورها
عيونهم والكفر ظل قيرها
إذا لم يكن منك التلافي ظهيرها
ببابك موقوفو الحشاشات، بورها
شفيح الوري يوم التنادي بشيرها
وأول رسل الله فضلاً أخيرها
سراج السموات العلى ومنيرها
بأنفس استولى عليها قصورها
برحمى يحلى المؤمنين شذورها
وعزة سلطان يروق طيرها
يدال به من كل عاد كسيرها
يروح ويخسرو بالسوار ميرها
وينظم شمل المؤمنين حصرها

تروم إلى دار السلام عرايساً
وضرب كأن الهام تحت ظلالها
وطعن يرى الخطي في مهج العدا
يمين هدى إن تقوا الله تنصروا
فلا يخذل الرب المهيمن أمة
وان أنتم لم تفعلوا فترقبوا
وأيام ذل واهتضام وفرقة
وأهدوا لدين الشرك كل خريدة
وكل نفيس من نقوس كريمة
وحق العظيم الشأن لا عيش بعدها
فترفع شكواها لعالم سرها
نمد أكف الذل في باب عزه
فإن لم يقل رب العباد عثارنا
إله الوري ندعوك يا خير مرتجي
وشقت جيوب المؤمنين وأسخت
وليس لها يا كاشف الكرب ملجأ
أغث دعوات المستغيثين إنهم
وليس لهم إلا الرسول وسيلة
إمام الهدى بحر الندى قامع العدا
محمد المختار من آل هاشم
دعونك، أملناك، جنبناك خشعاً
بجاه العظيم الجاه أدرك ذماننا
وعفو وتأيد ونصر مؤزر
ولطف وتسديد وجبر لما مضى
وارسل على هذا العدو رزية
يشنت شمل الكفر تشتيت نقمة

وصل على غير البرية أحمد وأكرم من قد أنجته ظهورها
وأصحابه الشهب الهداة وآله صلاة مع الأبناء يزكو عبرها
ويبدو من هذه القصيدة أن صاحبها من المرية^(١)، وأنها نظمت بعد
سقوط غرناطة... ولما اشتدت حركة محاكم التفتيش في إسبانيا، أرسل
بعض المسلمين في الأندلس إلى السلطان بايزيد الثاني نحو عام ١٥٠٥م
رسالة سجلها المقرئ في مؤلفه أزهار الرياض، ويبدو على القصيدة أنها
نظمت بعد سقوط الأندلس نحو سنة ١٥٠٠م — ٩٠٩هـ، حيث قام
الإسبان بأول محاولة لتنصير المسلمين؛ وقرر مجلس الدولة أن يفرض التنصر
على المسلمين عام ٩٠٤هـ — ١٤٩٩م.

— ٨ —

شاعر يصف آثار الأندلس :

وقد زار إسبانيا عام ١٩٥٢ الأديب الشاعر جورج صيدح، ووصف
معالم الآثار الأندلسية، فقال فيما قال :

في قرطبة : عاصمة الدولة العربية الأولى، يقوم الجامع الأكبر على
انقاض كنيسة عظيمة استولى العرب على نصفها يوم فتحوا المدينة وتركوا
النصف الثاني للمسيحيين حتى يتيسر للفريقين القيام بشعائر الدين. روى
لنا الدليل أن عبد الرحمن الداخل عندما أسس الخلافة الأموية في قرطبة

(١) سقطت مدينة «رندة» في أيدي الإسبان عام ٨٩٠هـ — ١٤٨٥م، وسقطت بعدها
مالقة في شعبان ٨٩٢هـ — ١٤٨٧م، ووادي آش والمرية والمنكب في آخر
٨٩٤هـ — ١٤٨٩م، وبسطة في المحرم ٨٩٥هـ — ديسمبر ١٤٨٩م، ثم سقطت بعدها
في صفر ٨٩٧هـ — ديسمبر ١٤٩١م، ودخلها فرديناند في الثاني من ربيع الأول
٨٩٧هـ — ٢ يناير ١٤٩٢م.

حاول ضم القسم المسيحي إلى القسم الإسلامي وتشبيد جامع جديد يليق بمقام الخلافة، فعارضه المسيحيون واشترطوا عليه وهو القاتح الحاكم بأمره، أن يعوضهم مالا يكفي لبناء كنيسة جديدة؛ وأن يجدد بناء جميع الكنائس التي تهدمت أثناء الحرب، فقبل عبد الرحمن شروطهم ووفى بها. ثم شرع في بناء الجامع الذي تراه اليوم بروعة الفذة وهندسته العجيبة. يقوم على ألف ومائة عمود، وفي خلالها يسجد ستة عشر ألف مصلى فلا تحجب عن نظرهم المخراب. أما بعد جلاء العرب عن المدينة فقد عمد الملكان فرديناند وشارلكنت إلى بث المذابح والتماثيل في بهو الجامع وجدرانه، وإلى اقتلاع الأعمدة المواجهة للمحراب ليحل هيكل عال محلها. وأرانا الدليل ونحن على ضفة وادي الكبير ثلاث طواحين قائمة في عرض النهر تعرقل سير المراكب فيه، وقال لنا إن الخليفة الحكم فاوض أصحابها على شرائها منهم لهدمها فلم يقبلوا، وبقيت الطواحين في مكانها إلى اليوم. ثم ذكر لنا أن سبعين مكتبة عمومية كانت في قرطبة في عهد العرب أفضلت وأغفلت بعد ذهابهم. هذه المكتاب مضافة إلى الجامعة الشهيرة التي أسسها عبد الرحمن في القرن الثامن، جعلت من قرطبة مركز الإشعاع العلمي، ونقطة دائرة المعارف العالمية.

وفي إشبيلية : أكبر مدينة أندلسية، خيل لنا فيها أن الجو ينتفس عن ورود الشام، وأن النسيم يترخ على نعومات العود والكممان، رنات الطقاطيق (الكاستانويلا) لم تفارق أسماعنا في الأسواق والهدائق نهاراً، وفي الحارات والمقاهي ليلاً، الغناء ذو لهجة شجية مأخوذة عن الموالي العربي وحلقات الرقص لا تختلف كثيراً عن حلقات الدبكة. يقول المؤرخون في كتبهم : من لم ير إشبيلية لم ير شيئاً، ويقول الدليل : إن مات عالم في إشبيلية لا يوجد مشتر لكتبه إلا في قرطبة، وإن مات مغن في قرطبة لا يوجد من يشتري آلات الطرب من ورثته إلا في إشبيلية. وفي طليطلة : وهي إحدى مفاخر العرب، لم نجد من آثارها إلا

كنيسةً لليهود أينما دخوله، وأطلال القصر الحصين (الكاسار) الذي خربته قبائل الجمهوريين في حربهم مع الجنرال فرانكو؛ ولم يزل يتداعى وينذر الزائرين بالخطر، ثم الكنيسة الكبرى أو الجامع الفخم سابقاً، فورناها فاسترعى انتباهنا طائفة من التماثيل تحديقاً بالمذبح في صدر الكنيسة، وتمثل الباباوات الأولين ما عدا واحداً منها يمثل شيخاً لابساً عمامة وجبة عربية، قال لنا الدليل إنه تمثل الفقيه أبي الوليد، وقصته تلخص في أن جمهوراً من المسيحيين طرقتهم الجامع ذات ليلة وعيثوا بزيتته ما استطاعوا، فجاءهم الحاكم العربي بحمله ورجله ليؤدبهم بحد السيف ويبيدهم عن بكرة أبيهم، فوقف الفقيه أبو الوليد في وجهه، ينصحه ويسترضيه مقدماً رأسه كفارة، عن المذنبين، حتى رق الحاكم وعدل عن الانتقام، فحقت الدماء، وأصبح الفقيه قديساً في نظر المسيحيين يحق له المثول في الهيكل، بين الباباوات.

وفي مدريد: التي تسلمها العرب قرية حقيرة وسلموها مدينة عظيمة الشأن كاتدرائية تدعى «سيدة المد» وأصل التسمية هو أن ملك «كاستيا» عندما أجلى العرب عن المدينة وجد في قصر ملكهم مدأً نقش عليه رسم العذراء، فبنى الكنيسة تخليداً لذلك الرسم، وجعل من عذراء المد شقيقة عاصمته.

وفي غرناطة: عاصمة العرب الأخيرة، قال لنا الدليل ونحن نخط الطريق صعداً إلى جبال الثلج (سييرانيفادا) المشرفة على قصر الحمراء: كان العرب أول من تسلقوا هذه الشاهقات، وافتتحوا خزانات الثلوج الأبدية فيها، هم الذين أجروا المياه في قنوات تجبط منها إلى السهول، ولولاهم لما عرفت الأندلس الخصب في مزارعها، والأزهار في حدائقها، والنوافير في قصر الحمراء. أمامكم عروس المدائن الأندلسية تحرسها من أعلى الروابي قصور الملوك والقواد وقلاعهم، صمدت لهجمات الإسبان مائتين وستين عاماً بعد سقوط قرطبة، ثم دانت لهم فنكلوا بآثارها الفخمة

حسداً وانتقاماً، وجرّدوا الحمراء من الكثير من زخرفها. وعمد شارلكت إلى تشييد قصر إلى جانبها يزيد ارتفاعاً، ولكنه فارق الحياة قبل استكمال البناء. ثم أشار الدليل إلى معالم الحمامات العربية (أسمائها تركية) التي انتشرت من ألف عام؛ فذكرت كلمة الدكتور فيليب حتى : « كان الاستحمام أمراً مألوفاً في غرناطة يوم كان محظوراً على طلاب جامعة أكسفورد، لاعتباره خطراً على صحة أجسامهم ».

وفي القرى : في طريقنا إلى الجزيرة، وهي أول مدينة وطأها أقدام العرب بعد جبل طارق، أوماً الدليل إلى قرية « التعريف » وإلى مناعة أسوارها، التي قاومت الفاتحين فحاصروها، وفي أثناء الحصار وقع ابن حاكمها الإسباني أسيراً في يد العرب، فحمله القائد العربي إلى مدخل السور ونادى بأبيه أن يستسلم أو يشهد ذبح ولده بعينه، فكان جواب الأب أن ألقى بخنجره إلى القائد العربي قائلاً : « اذبحه بهذا إن أعوزك السلاح » فعفا القائد عن الولد، وافتتح القرية عنوة بعد أيام. وعلى ذكر البطولة، روى لنا الدليل أن هناك قرية أسماها العرب « الحفاقة » امتنعت عليه رغم قربها من قلاعها الحصينة في بلد الوسقة، حاصرها العرب حتى أفنوا رجالها فلم تستسلم، بل هرع النساء والأولاد إلى الأسوار يحملونها بأجسادهم. ففرق بهم الفاتحون وتركوا القرية وشأنها. وما أكثر الحكايات التي يتناقلها الشعب من هذا الطراز تمجيداً لذكرى العرب. إن السائح العربي ليشعر أنه في بيته القديم عندما يمر بقرى ودساكر هذه أسماؤها : الباسطة (فيها صناعة المدي والخناجر العربية)، قلعة النهر (حيث ولد سرفنتس)، الكوة (حيث الكروم وأحراج الزيتون)، الميرة (عكاظ الأدب والشعر)، الإبر (حيث مغازل الأنسجة الدمشقية)، القنطرة، القانص، الخائن، السيرة، الهامة، الغوطة، المنكر، قلعة أيوب، الروضة، طيف الله، وادي الحجارة، وادي اللب، وادي الرامة، وادي الكبير، وهلم جرا. وبمناسبة الأسماء العربية لي ملاحظة

على قصر الحمراء : إن اسمه بالإسبانية وفي جميع اللغات اللاتينية « الاميرا » بإضافة حرف الباء على الكلمة العربية، وليس « الأما » كما يلفظ الأجانب كلمة الحمراء. ألا يكون هذا الاسم الحقيقي « العنبرة » ؟ يؤيد هذا الظن أن لا وجود للون الأحمر في داخل القصر، بل كل جدرانه وسقفه وزخارفه بلون العنبر.

— ٩ —

ويصف « واشنطن ارفنج » روائع الفن العربي في قصر الحمراء فيقول :
كان أجمل ما في غرناطة، في عهد الامبراطورية العربية الإسبانية — كما لا يزال إلى اليوم — القصر الملكي أو حصن « الحمراء »، وقصرها الذي أنشأه محمد أبو الأحمر بن نصر، ويلقب بالغالب بالله، ثاني ملوك غرناطة الذي وفي نفقات إنشائها من ضريبة فرضها على الرعايا المغلوبين. وكان يشرف على البناء بنفسه. وعندما أتمه جعله مقاماً ملكياً. وقد حصن هذا الملك السعيد الجد الجليل الذي تقوم عليه. وخلال مدة حكمه كلها وقف جزءاً وثيراً من ثرواته على تحسينها والبلوغ بها مبلغ الكمال.
وأعزم خلفاً أبي عبدالله كل الغرام بزخرفة « الحمراء » أو إضافة أشياء إليها ولا سيما محمد الثاني، وحفيده محمد الثالث. وقد أنشأ هذا الملك مسجداً على فن معماري جميل، أنفق عليه نفقات واسعة، وجمله تجميلاً بالفسيفساء، وجعل سقفه تعتمد على أعمدة كثيرة بدیعة الصنع، تيجانها وقواعدها من الفضة. والأمير الذي أتم هذا القصر هو يوسف بن اسماعيل ابن فرج، ويلقب بأبي الحجاج. وقد حكم من سنة ٧٣٢ هـ إلى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٣١ — ١٣٥٤ م). وكان آخر ما عمله في الحمراء البرج المربع. وهو الآن المدخل الأكبر الحالي للقلعة، وتدل النقوش التي عليه على أنه أنشئ سنة ١٣٤٨ م.

ويقوم قصر « الحمراء » فوق الحافة الشمالية لتل يطل على منظر ممتد فوق ريف جميل، ويسمى بطلعته الجلييلة فوق مدينة غرناطة. وقد تقوضت جوانبه التي تواجه القلعة تقويضاً، أو أتخمت بمبان حديثة حتى لم يعد ظاهراً إلا قلة قليلة من آثار الجدران الخارجية، ولكن البقايا الداخلية من القصر على حال لا بأس بها، تعطي صورة واضحة عن عظمة رائعة للموكها السابقين. وقد خطت قاعاته على أن تكون سلسلة متصلة من الأجنحة، كلها في مستوى واحد. ومن المضحق أنها كانت في حالها الأولى ساحرة فاتنة. فالردهات والقاعات والسقائف والعمد والعقود والفسيفساء والنباتات والأزهار البلسمية المختلفة الألوان... كل ذلك تراه خلال سديم رشاش النافورات. ومع أن العرب لم يكونوا على علم بالمنظور إلا أن مشاهدتهم المعمارية كانت بحق ساحرة تفتن الأنظار، وأحكم إعدادها حتى ليبدو البناء الصغير أكبر مما هو عليه. واستعاضوا عن تلك الأعمال الفنية القديمة الغالية بأن جعلوا قاعاتهم وحرمتهم بمظاهر الطبيعة البسيطة.

والماء موفور في كل ناحية بالقصر، زمام أمره في أيديهم، يصعدون به أو يهبطون. وحيناً يجلبونه للعيون، وحيناً يخفونه حسبما يريدون. وأحياناً يفجرونه في الهواء بيدد وخيم الأبخرة السابحة في الفضاء، ويجعل جفاف الطقس رخاء. وأحياناً أخرى ينشرونه في وسط القاعة، صفحة مستطيلة تبدو عليها مناظر الأبنية والنافورات والأشكال، ثم السماء يزرقتها الصافية. وقد جملت الحافة بأعلام من المرمز الأبيض، تضم أحواضاً طويلة من الأزهار نسقت على الجانبين. ينساب فيها جدول جار لا يتقطع حتى ينتهي إلى طرف من أطرافها ثم يخرج من طرف آخر، تاركاً السطح المستوي استواء البلاط ناعماً، وكأنه تلك الأرض الزجاجية من ردهة الاستقبال التي تلقى فيها سليمان ملكة سبأ.

وفي كل جناح يجري تياران من الهواء في غير انقطاع، فهناك كوات قريبة السقف يخرج منها الهواء الساخن القاسد، الذي يطرده الهواء النقي

أسفل منه إلى أعلى. وبتلك الأنابيب الميثونة في الجدران، التي هي أشبه بالأقبية تحت الأرض، ينتشر الدفء لا في هذه الحمامات المصطفة وحدها بل في كل الأجنحة العليا المجاورة، التي تعوزها الحرارة. والأبواب في العادة كبيرة بنيت إلى الداخل قليلاً، اللهم إلا في جانب البناء تجاه الوهدة حيث المنظر جيد عظيم، فقد وضعت النوافذ لتجعل نظر الناظر لا يعدو ما في داخل القصر.

وإن الزخارف العربية، والطلاء والفسيفساء، التي تم صنعها في حرص ودقة، تدلنا على عنايتهم واهتمامهم حتى بالأجنحة الصغيرة، فبدلاً من أن يغطوا الجدران بالورق أو بالخشب فقد غشوها بالزخرفة العربية التي صبت في قوالب على هيئة فريدة، ثم ضم بعضها إلى بعض على حال لا يظهر أثر الانفصال. وهذه الزينات المنعطفة ملونة في تدرج سليم بالذهبي الناصل ثم الأزرق الصافي ثم الأرجواني القاتم. وأول الألوان أقربها وآخرها أبعدها من العين. ولكن السطح في عامته أبيض.

والكثرة من أعمال النحت التي تبدو غير مستوية في بروزها تثير البلبلة، لذا تنزهوا عن ذلك الخطأ في ذلك المكان حيث الحليات قد صنعت حفرًا كما أن عددها الذي لا يحصى يثير في النفس شعوراً بلا نهائية. أما في الخارج حيث يضطرون إلى الأشياء البارزة، فيلاحظ أن خط التسلسل يكون متسقاً في كل مجموعة ذات نسق بين. وكذلك القباب والمقنطرات صنعت من حليات مصبوبة، فكان تكون في خفة الخشب وفي صلابة المرمر. والجزء الأدنى من الجدران على ارتفاع يقرب من أربعة أقدام، مغطى بالفسيفساء الخزفية ذات الأشكال والألوان المختلفة. ويتبين لنا من قليل القطع التي بقيت فيه أن أرض الأجنحة وأعمدتها كانت هي الأخرى مغطاة بفسيفساء من هذا الطراز.

ومن أعجب ما في « الحمراء » قاعة البركة، وهي قاعة فسيحة، رصفت أرضها بالمرمر الأبيض، وزين كل ركن منها برواق ذي أعمدة، وفي

وسطها حوض للسماك زخرف بالأسماك الذهبية، طوله ١٣٠ قدماً وعرضه ٣٠ قدماً، وقامت على حوافه وشائع الورد. وفي الطرف الأعلى يطل برج قمارش الكبير وهو أحد الأبراج العظيمة المجاورة للقصر. وقد سمي باسم مهندسه العربي الذي أبدع هندسته، وجعله يزهي على سائر الأبراج على الرغم من جمالها الفتان.

وهناك قاعة الأسود وبها الاثنا عشر أسداً لا تزال ناهضة ترسل من أفواهها المياه البللورية. وقد زودت بأحواض الزهر، وأحيطت بالأزقة ذات الأعمدة. ويواجه هذه القاعات قاعة بني سراج التي سميت باسم ذلك النفر من الفرسان الأبطال الذي قتلوا فيها غيلة بأيدي الافرنج.

— ١٠ —

ويصف باحث^(١) مدينة قرطبة بأنها كانت تعد من المدن العالمية المهمة، وكانت أعظم مدن الأندلس جميعاً، سواء بأبنيتها الجميلة الفخمة، أم بدور كتبها الكثيرة الواسعة، أم بحدائقها وبساتينها البديعة، وقد اتخذها عبد الرحمن الداخل عاصمة له، وشيد فيها القصور والحدائق والأبنية والمساجد، ولا سيما الجامع المعروف «بجامع قرطبة» وظلت عاصمة الأندلس حتى زمن عبد الرحمن الناصر، ثامن ملوك بني أمية هناك، إذ أنشأ على مقربة منها مدينة الزهراء المشهورة، وجعلها عاصمة له بدلاً منها، وفي عهد الحكم المستنصر ازدهرت البلاد ازدهاراً عظيماً، وكثرت دور الكتب والمدارس وانتشرت العلوم والآداب بين طبقات الأمة، وكان لقرطبة النصيب الأوفر من عنايته، حتى لقد عين أخاه الأمير عبد العزيز مديراً لإحدى مكاتب (دور كتب) تلك المدينة

(١) هو الأستاذ الناصري من مقالة نشرت في مجلة الرسالة.

العظيمة، ثم جاء هشام الثاني، فعجز عن إدارة المملكة، وتدخل أرباب المصالح، والمطامع في أمورها، وكانت النتيجة انفصال الأقاليم واستقلالها، ومن جملتها « قرطبة » إذ استقلت سنة ٤٢١ هـ - ١٠٢٩ م، واستولى عليها « أبو الحزم بن محمد بن جهور »، وأسس الدولة الجمهورية فيها (٤٢٢ هـ - ١٠٣٠ م)، ولما مات (٤٣٥ هـ - ١٠٤٣ م) تولى الأمر بعده ابنه « أبو الوليد محمد بن جهور »، ثم توفي وخلفه ابنه عبد الملك بن محمد، فكرهته الرعية لسوء معاملته لهم، ثم خلعه وأخرجوه من قرطبة (٤٦١ هـ)، متحدين مع جيش محمد بن عباد، وبسقوطه انقضت دولة بني جهور، ومنذ ذلك الوقت بدأت قرطبة في التأخر، وفي سنة ١٢٣٦ م استولى عليها الأفرنج، وطردوا أهلها، واتخذوها حصناً على حدود مملكتهم وهي الآن من المدن الصغيرة، ويبلغ عدد نفوسها (٨٠٠٠٠) نسمة.

أما في تلك العصور الزاهرة، فكان عدد نفوسها يربو على المليون، وكلهم يعيشون في خفض من العيش ورفاهية وسعادة، ومما ساعدهم على تلك الرفاهية إتقانهم لفنون وصنائع كثيرة، وزيادة نسبة المتعلمين والمتقنين بينهم كما كان الحال في باقي المدن الأندلسية المتوسطة والكبيرة، فاشتهرت غرناطة بجودة حريها، وطليطلة بتفنها في صنع الأسلحة، وقونقة بجوخها الأخضر والأزرق، وقرطبة بصناعة السروج ودباغة الجلود الخ. وكان في قرطبة مصانع كثيرة مختلفة، تصدر أنواع السلع الأخرى إلى المدن الأندلسية، وإلى خارج البلاد أيضاً..

ونقل صاحب نفع الطيب عن ابن سعيد مؤلف الحلة المذهبة في مملكة قرطبة : « أن عرب قرطبة كانوا يتفاخرون بثلاث : بأصالة البيت، وبالجنديّة، وبالعلم. قال : وهي أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب، صار ذلك من آلات التعيين والرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون له معرفة، يحتفل أن تكون في بيته خزانة

كتب، ويحتفظ بها، ليس إلا أن يقول : عندي خزانة كتب، والكتاب
الفلاني ليس عند غيري والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصته وظفرت
به... هـ.

وكان فيها مكتبات كثيرة وكبيرة، تحوي أئمن الكتب وأجلها
وأفضلها، ولهذا فاق القرطبيون غيرهم من أهل الأندلس والأقطار الأخرى،
بكثره علمائهم وأدبائهم، وبشدة إقبالهم على التعليم والتنقف، وعلى حبهم
للعلماء واحترامهم لهم، ولصناعة العلم والأدب.

وكان للحكم الثاني في قرطبة مكتبة، فيها ستمائة ألف كتاب لها
أربعة وأربعون فهرساً، في كل فهرس ٢٠ ورقة لأسماء الدواوين فقط!!.
ويقول جستاف لوبون — بهذه المناسبة : إن شارل الحكيم الذي تولى
أمر فرنسا بعد خلافة الحكم بأربعمئة سنة (١٣٦٤م) بذل جهده في
أن يجمع أكبر عدد ممكن من الكتب للمكتبة الأهلية بباريس — حين
أسسها — ولكنه لم يستطع أن يجمع أكثر من تسعمائة مجلد ثلثها
دينية!..

وكانت الكتب تردّها من بغداد ودمشق وخراسان والآستانة، وكان
فيها ٨٠ مدرسة جامعة، يقصدها طلاب العلم الراقي والأدب الرفيع من
أنحاء العالم المختلفة، ومنهم البابا سلفستر الثاني، وكان قد ذهب إلى
اشبيلية، فدرس فيها زمناً، ثم إلى قرطبة، وذلك قبل أن يصبح بابا
(٩٩٩م)، وكان يسمى قبلاً الراهب جريبرت، وممن تخرجوا في جامعات
قرطبة، بطرس فنرايل، وقسيس كولوني، وكذلك « شانجه » ملك ليون،
وغيرهم كثيرون من الأوربيين الذين نذهب إلى جامعاتهم التي حلت
محل الجامعات العربية.

وكان في قرطبة علماء وأدباء وفضلاء كثيرون، نذكر منهم، أبو
بكر يحيى بن سعدون الأزدي القرطبي، الملقب « بصائن الدين »، وهو
أحد الأئمة المتأخرين في القراءات، وعلوم القرآن، والحديث، والنحو،

واللغة الخ. ولد بقرطبة (٤٨٦) ومات بالموصل (٥٦٧هـ). وأبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف المعروف «بابن الفرضي» وكان فقيهاً عالماً، من مؤلفاته (تاريخ علماء الأندلس) و (المختلف والمؤتلف) و (أخبار شعراء الأندلس)، وقد ولد سنة ٣٥١هـ. وقتله البربر يوم فتح قرطبة سنة ٤٢٢هـ. وابن زيدون ولد سنة ٣٩٤هـ. ومات باشبيلية سنة ٤٦٣هـ. وأحمد بن محمد عبد البر، من موالى بني أمية، وله كتاب في الفقهاء بقرطبة ومات مسجوناً. ومنهم: أحمد بن محمد ابن موسى، له مؤلفات كثيرة من أخبار الأندلس، توفي في ١٢ رجب سنة ٣٤٤هـ. وولد في ١٠ من ذي الحجة سنة ٢٧٤.

وخالد بن سعيد القرطبي: أحد أئمة الأندلس، مات فجأة في سنة ٣٥٢هـ في الستين من عمره، وحسن بن الوليد بن نصر، وابن الدباغ الأزدي، وغيرهم... وغيرهم...

وتقع قرطبة على الشاطئ الغربي من نهر الوادي الكبير، وبينها وبين البحر خمسة أيام، وذكر ياقوت الحموي في معجمه أنها كانت «أعظم مدينة في الأندلس، وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقة، ويقال إنها كأحد جانبي بغداد، وإن لم تكن كذلك فهي قرية منها، وهي حصينة بسور من حجارة، ولها بابان مشرعان في نفس السور إلى طريق الوادي من الرصافة — والرصافة مساكن أعالي البلد متصلة بأسافله من ربضها وأبيتها، مشتبكة محيطة من شرقها وشمالها وغربها وجنوبها، فهو إلى واديهما وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع ومساكن العامة بربضها...».

وكان طول قرطبة أربعة وعشرين ميلاً، وعرضها ستة أميال «وكان عدد أرباضها ٢١ ربضاً، في كل ربض من المساجد والأسواق ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره، وكان بخارج قرطبة ثلاث آلاف قرية، في كل واحدة منها منبر وفتية».

وكان فيها (٢٠٠،٠٠٠) بيت و (٦٠٠) مسجد و (٥٠) مستشفى و (٩٠٠) حمام سوقي، فضلاً عن الثمانين مدرسة التي ذكرناها، وكان فيها قنطرة طولها ٨٠٠ ذراع وارتفاعها ٦٠ ذراع وعرضها ٢٠ ذراعاً، وفيها ثماني عشرة حنية وتسعة عشر برجاً.

وقد تنافس الخلفاء والأمويون في تعمير هذه المدينة وتزيينها وتجميلها، فبنى عبد الرحمن الداخل (القصر الكبير) وجعله مقراً له، وشيد المنصور ابن أبي عامر قصر الزهراء سنة ٣٦٠ على نهر الوادي الكبير، وانتقل إليه سنة (٣٧٠هـ)، وبنى باقي الملوك والوزراء والعظماء قصوراً كثيرة نذكر منها : الحائر، الروضة، المعشوق، المبارك، التاج، السرور الخ...

ولكن أعظم بنايات قرطبة، بل الأندلس كلها : المسجد الجامع، الذي شيده عبد الرحمن الداخل، وكان في الأصل كنيسة فأعجبه موقعها فأخذها من النصارى مقابل أموال وأراض كثيرة.

وكان جامع قرطبة آية من آيات الفن العربي، ودليل قاطع على علو كعب العرب في النقش والبناء، وبرهان ساطع على سمو الذوق العربي، والمقدرة الفنية العربية. ولم يكن يضاهيه من المساجد والقصور في ذلك العصر سوى الجامع الأموي بدمشق، وليس من السهل وصف عظمة جامع قرطبة وتصويره للقارئ وصفاً وتصويراً صادقين، بل ليس من السهل على القارئ أن يدرك عظيمته إذا ما نظر إلى عدة صور فوتوغرافية عنه، ومع ذلك فنحن باذلون جهدنا في أن نعطيك فكرة عامة عنه :

طول المسجد ٦٠٠ قدم وعرضه ٢٥٠ قدماً وارتفاعه ٢٠ متراً، وفي عرضه الأيمن ٣٨ صحناً، والأيسر ٢٩ صحناً، وفيه ١٢٩٣ عموداً من الرخام، تيجانها منقوشة بمختلف النقوش الرائعة. وفيه من جهة الجنوب ١٩ باباً مبطنة بصفايح من النحاس المتوج (نحاس المدافع)،

وأوسطها مرصع بصفائح من الذهب، وبأعلاه ثلاث كرات ذهبية فوقها
رمانة من العسجد».

أما الباب العمومي — وهو باب المنارة — فهو من النحاس أيضاً،
عرضه ٨ أمتار، وارتفاعه ٢٠ متراً، وفي الزاوية القبلية من المساجد
تقوم منارته العظيمة، وهي مربعة الشكل، وطول كل ضلع منها ١٢
متراً وارتفاعها ١٣ متراً، وتتحلى بتفاحات فضية وذهبية، محيط كل
منها نصف متر أو أكثر بقليل. ويقول صاحب «رحلة في الأندلس» :
إنها خمس طبقات في كل طبقة عدد كبير من الأجراس.

وكانت قبة المسجد مشيدة على ٣٦٥ عموداً من المرمر، والمحراب
والمقصورة من أجمل ما في المسجد، ففي تلك المقصورة كان الخلفاء
يصلون « وهي بناء مربع مرتفع مزين بنقوش جصية بديةة جداً وعليها
كتابات قرآنية وأحاديث نبوية ». وأما المحراب ففسيح وواسع، ويتكون
سقفه من قطعة رخامية واحدة وفيه كتابات كوفية قرآنية، وكان في
المصحف العثماني الشريف، وقد نقله عبد المؤمن بن علي إلى مراكش
عند استيلاء الموحديين على الأندلس سنة ٥٥٢هـ.

وكان في المسجد (٤٧٠٠) قديلاً من الذهب الأبريز، واحد منها
في المحراب، وكان يصرف عليها سنوياً (٢٤٠٠٠) رطل زيت،
و (١٢٠) رطلاً من العنبر والعود القاقلي...

ويقول سديو : « كانت هذه المدينة تصبح مضيئة، وحرارتها مطيبة،
بما يلقى فيها من الزهور، مع استعمال الألبان المطربة في المنتزهات
والميادين العامة..

البطل الخالد :

يحدثنا التاريخ أنه لم يبق للمسلمين في الأندلس إلا مملكة غرناطة — هذه البقعة الصغيرة القريبة من البحر. وقد ألح العدو عليها، وصمم على محوها واستمات المسلمون في الدفاع عنها، إذ كانت الملجأ الأخير، والوزر الذي ليس وراءه إلا الموت أو الاستعباد.

وكان بنو مرين — ملوك المغرب — يرسلون جيوشهم مبدأً لبني الأحمر ملوك غرناطة، وربما ساروا بأنفسهم ليجاهدوا في جانب إخوانهم وجيرانهم. وكان أولو النجدة والقوة يقدون على الأندلس مجاهدين مرابطين غضباً لدينهم، وحمية لآخوانهم.

جاء إلى الأندلس : عثمان بن أبي العلاء، أحد أمراء بني مرين، فتولى « مشيخة الغزاة » وحسن بلاؤه، وعظمت مكانته فكان شجاً في حلوق الإسيان. ولم يكن عثمان ملكاً، ولكنه كان من نفسه الكبيرة في جيش، ومن كبريائه في سلطان.

تولى زعامة الغزاة ثلاثاً وعشرين سنة، فما وهن عزمه، ولا فل حده، ولا أغمد سيفه، ولا حط سرجه :

وما كان إلا النار في كل موضع تثير غباراً في مكان دخان

والنفس الكبيرة تستهين بالصعاب، وتطرق على المنايا الأبواب. وما الجيوش الجرارة، والحروف المستعرة في همة الرجل العظيم إذا صمم ؟ فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها: من تحت أحمصك الحشر

وحسينا من الإفاضة في وصف عثمان، والإشادة بذكوره، أن نذكر هنا بعض ما كتبه أصحابه الغزاة على قبره :

« هذا قبر شيخ الحماة، وصدر الأبطال والكمأة؛ واحد الجلالة،

ليث الإقدام والبسالة؛ علم الأعلام، حامي ذمار الإسلام؛ صاحب الكتائب المنصورة، والأفعال المشهورة، والمغازي المسطورة؛ وإمام الصفوف، القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف؛ سيف الجهاد. وقاصم الأعداء، وأسد الآسداء العالي الهمم، الثابت القدم، الهمام الماجد الأرضي، البطل الباسل الأمضي، المقدس المرحوم، أبي سعيد، عثمان بن الشيخ الجليل الهمام، الكبير الأصيل الشهير، المقدس المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبدالله بن عبد الحق. كان عمره ثمانياً وثمانين سنة، أنفق ما بين روحة في سبيل الله وغدوة، حتى استوفى — في المشهور — سبعمائة واثنين وثلاثين غزوة.

« توفي، رحمه الله، يوم الأحد الثاني لذي الحجة من سنة ثلاثين وسبعمائة. رحمه الله ! ».

— ١٢ —

من صور التاريخ الأندلسي شخصية سيدة اسمها صبح أو صبيحة، وهي نصرانية نافارية، كانت زوجة الحكم المستنصر بالله خليفة الأندلس (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ : ٩٦١ — ٩٧٦) وأم ولده هشام المؤيد بالله، وكانت من الأسبانيات الأسيرات^(١)، وكانت على قسط كبير من الجمال، وقد ولدت للحكم ابنه عبد الرحمن عام ٥٣٢ هـ — ٩٦٢ م، وولدت له كذلك ابنه هشاماً عام ٣٥٤ هـ، ولما توفي ابنه عبد الرحمن صار هشام ولي العهد عام ٣٦٥ هـ. وكان من الموظفين في ديوان

(١) من هؤلاء الأسيرات : ايلونا الفوطية، أرملة رودريك ملك القوط عند الفتح، ويسمونها العرب أم عاصم، وقد تزوجها عبد العزيز بن موسى بن نصير. وكانت أم عبد الرحمن الناصر اسمها « مازيا » وهي إسبانية نصرانية تزوجها الأمير محمد بن محمد.

الحكم شاب اسمه محمد بن عبدالله بن أبي عامر المعافري، وكان له نفوذ كبير لدى الحكم وزوجته صبيحة. ولما مات الحكم كان النفوذ لثلاثة : صبح أم هشام، والحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، ومحمد بن أبي عامر، ورفع بعد قليل ابن أبي عامر إلى رتبة الوزارة.

— ١٣ —

التراث الأندلسي

لن يستطيع أحد في اسبانيا أن يجيب عن هذا السؤال الحزين: أين الثمانون ألف كتاب التي أمر « الكردينال شيمتر » بحرقها في ساحات غرناطة بعيد استظهارهم عليها، فأحرقوها وهم لا يعلمون ما يعملون، حتى أفنوا — على ما قال مؤرخهم « ريلس » — ألف ألف وخمسة آلاف مجلد كلها خطتها أقلام العرب، وليتهم يخبروننا : كم من كتاب لعبت بهم نيرانهم بعد ذلك، وماذا يقولون عن السفن الثلاث التي ظفروا بها مشحونة بالمجلدات العربية الضخمة وطالبة ديار سلطان مراكش فسلبوها، وألقوا كتبها في قصر الأسكوريال سنة ١٦٧١م — ١٠٨٢هـ، حتى لعبت بها النيران فأكلت أغلبها... وتولى ميخائيل القصيري تكوين مكتبة الأسكوريال بما بقي منها، وكان نحو ١٨٥١ كتاباً^(١).

(١) مجلة المقطف — السنة الثالثة — ص ٧.

الأميرة الصغيرة

الأندلس نار تشتعل، ملوك الطوائف كل منهم مشغول بأمر مملكته الصغيرة، والنزاع بينهم يشتد، والافرنجة من الأسيان يستولون في ظل هذا الضعف السياسي الخطير، والمعجز الحربي الواضح، على المدن الأندلسية مدينة أئر مدينة..

والمعتمد بن عباد ملك اشبيلية في هم ناحب، وقلق شديد، وفزع رهيب، فعاصمة ملكه اشبيلية تكاد تسقط في يد الاسبان، وأعيان اشبيلية ورجال الدولة، في لقاءات مستمرة، وها هم أولاء يجتمعون بالمعتمد، ويجمعون الرأي على ان لا مفر من الاستنجاد بسultan المرابطين في المغرب، لوقف الزحف الاسباني على إشبيلية.. والمعتمد يستمع اليهم، وبدأ يميل الى مشورتهم ورأيهم، وتحذره زوجته اعتماد الرميكية من العاقبة، ويحذره الملتفون حوله من رجال الحاشية، لأن مجيء ابن تاشفين معناه ذهاب ملك بني عباد، فيرد المعتمد عليهم رداً بليغاً فاصلاً : لأن أكون حادي ابل في « مراکش » أفضل لي من أن أكون راعي خنازير في « قشتالة »..

ويبعث المعتمد الى سلطان المرابطين يستنجد به، فرد عليه رداً بليغاً، وأكد له انه هو وجيشه في الطريق اليهم..

ودخل ابن تاشفين اشبيلية، وعسكر جيشه في المعسكرات خارج المدينة، ورحب به ابن عباد ترحيباً كبيراً، واجمل له ولجيشه الكبير في الضيافة، وبدأ الجميع يستعدون للمعركة القادمة..

وكان النصر العظيم الذي أحرزه ابن تاشفين والمعتمد في معركة « الزلاقة » عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م حاسماً ومدوياً، وانهار الاسبان، وسحقت قواتهم سحقاً شديداً، واستعاد الاندلسيون الأمن والطمأنينة،

وهذا المعتمد واطمأن على عرشه التي كادت تعصف به الأحداث.
ولكن الملك الغربي بدأ يفرض هيمنته على ملوك الطوائف وبدأ
يولي من يشاء ويعزل من يشاء، وجاء الدور على المعتمد نفسه، فاستولى
السلطان على الحكم في اشبيلية، وقرر نفي ابن عباد هو وأسرته وحاشيته
الى مدينة (اغمات) الصغيرة في المغرب، واصبح للمرابطين امبراطورية
واسعة، تمتد من المغرب الأوسط (الجزائر) الى المغرب الأقصى وغانا
ومالي والسنغال والنيجر وبعض الأطراف الأخرى.

واستعد المعتمد للرحيل، والدموع تتساقط من مآقيه غزيرة على خده،
ومعه زوجته الرميكية ذات الدلال والجمال.. وجاء الرعاع من السوق
فهاجموا القصر في اللحظات الأخيرة، واعملوا في السلب والنهب،
ثم اشعلوا النار فيه، ولم يدر المعتمد من الأمر شيئاً، وأطفال المعتمد
اصبحوا لا يعرفون ماذا يفعلون..

وها هي ذي الأميرة الصغيرة بيثينة بنت المعتمد تهرب من القصر
والنار مشتعلة فيه، وهي لا تدري أين تسير، وأبواها لا يدريان من
أمرها شيئاً.

وجاء رجل من السوق فأخذها الى منزله، ثم خرج بها في الصباح
الى سوق الجوارى فباعها فيه على أنها رقيقة لتاجر ثري من تجار اشبيلية.
واستسلمت الأميرة الصغيرة لحكم القدر، وصارت لا تكف عن
البكاء والدموع كلما خلت الى نفسها.. ولجمالها المفرط وادبها الجم،
عاملها سيدها معاملة طيبة، واخذت تكبر شيئاً فشيئاً، الا ان خوفها
على فراق أبويها ومصيرهما المظلم لم ينقطع ابداً.
ورأى فيها التاجر ملامح الذكاء والأدب والظرف فرشحها لأحد
ابنائها لتكون أم ولد له، وأخذ التاجر وابنه يستعدان لهذا اليوم الموعود.
وهنا بدأت الأميرة تفصح عن نسيها، أنها حرة لا رقيقة، وهي

من بيت بني عباد، وبنت ملك اشبيلية المعتمد المعزول، وهي لا تحل لأحد الا بعد زواج، ثم هي لا تمنع في هذا الزواج، ولكن لا بد من موافقة ولي امرها الملك الاشبيلي في أغمات، وانها ترى ان ترسل الي أبيها رسالة تستأذنه في الموافقة على هذا الزواج.

وكان المعتمد وزوجته في اغمات يتحملون مع آلام النفي وعذاب الغربة، مرارة حرمانهم من بنتهم الأميرة الصغيرة، وجهلهم بمصيرها.

وفجأة وصلتهم رسالة من الأميرة الصغيرة، تحكي فيها قصتها، وتستشير أبها في هذا الموقف، الذي وضعتها الأقدار فيه، وتقول لأبيها شعراً، وماذا تقول الأميرة بثينة لأبيها المعتمد ولأمها الرميكية ؟ انها لا تملك الثناء على الانسان المرشح للزواج منها :

اسمع كلامي واستمع لمقالتي
لا تنكروا اني سبيت وأنسي
ملك عظيم قد تولى عصره
لما أراد الله فرقة شملنا
قام النفاق على أبي في ملكه
فخرجت هاربة فحازني امرؤ
قد باعني بيع العبيد فضمني
وارادني لزواج نجل ظاهر
ومضى اليك بروم رأبك في الرضا
فعساك يأتني تعرفني به
عسى (رميكية) الملوك بفضلها
فهي السلوك بدت في الأجياد
بنت لملك من بني عباد
وكذا الزمان يؤول للافساد
واذاقنا طعم الأسى من زاد
فدنا الفراق ولم يكن بمراد
لم يأت في أفعاله بسداد
من صانتي الا من الأفكاد^(١)
حسن المخلاتق من بني الأنجاد^(٢)
ولأنت تنظر في طريق رشادي
اذ كان ممن يرتجى والوداد
تدعو لنا باليمن والاسعاد

قصيدة شعرية مؤثرة حزينة، ووصلت الرسالة يحملها المرشح للزواج

(١) أي إلا من الأحرار.

(٢) أي الشجعان الأبطال.

من الأميرة الى يدي المعتمد، فلم يتمالك المعتمد نفسه من اليكاه الشديد هو وزوجته الملكة أم الأميرة بثينة، ورحبا بالرسول الكريم، واكرماه في منزلهما الصغير، في أغمات إكراماً حاتمياً.

وبمقدار ذكاء المعتمد وحصاته السياسية لم يدر ماذا يصنع ؟ ولكنه لم يجد مقرأ من الموافقة على هذا الزواج، وبارك للزوج فيه، فكتب عقد زواج ابنته بثينة على الشاب المهذب الذي كان رسول الأميرة اليه، وأشهد نفسه على عقد زواجها منه، وكتب اليها رسالة صغيرة مملوءة بأحر العواطف، وفيها يقول لابنته الأميرة العروس :
بنيتي كونسي به سره فقد قضى الدهر باسعاده
وسافر الزوج يحمل رسالة الملك الاشبيلي المعزول المنفي في اغمات،
الى ابنته الأميرة بثينة في اشبيلية.
فأخذت الرسالة وقبلتها وضممتها الى صدرها في فرح ويكاه.

ثانياً — الحياة الفكرية في الأندلس

تمهيد

١ — قوام الحياة الفكرية في أي مجتمع أو شعب، هو انتشار الثقافة إلى حد بعيد انتشاراً يجعل في استطاعة كثير من الناس أن يفكروا بعقولهم، لا عن تقليد أو متابعة للحياة في سيرها الوثيد، ويضاف إلى ذلك الفكر الحر واشتغال رجال من أفاض العلماء بعلوم الفلسفة التي تكون العقل المستنير الواعي المدرك لكل ما حوله من مظاهر الحياة والوجود، الدائب على تسخير الحياة للإنسان، لا تسخير الإنسان للحياة؛ والحياة الفكرية مع ذلك لا بد لها من ذبوع الحرية في المجتمع ليستطيع كل إنسان أن يفكر بعقله كما يجب أن يفكر، وأن يبحث كما يريد البحث، وأن يستنتج ما شاء له التفكير، ونستطيع أن نقول : إن ذبوع الثقافة في الأندلس أمر مسلم، وستحدث بتفصيل عن ألوان العلوم والفنون والآداب التي عرفت وذاعت في الأندلس بعد ذلك بقليل، أما حرية التفكير ومدى انتشار مباحث الفلسفة في الأندلس فيهما أن نتحدث عنهما بشيء من التفصيل.

لقد كانت الثقافة العامة ذائعة في الأندلس، ومع ذلك فقد كان للأندلسيين نصيب كبير في العلوم والآداب والفنون، وتعلق ظاهر بالعلوم الشرعية كالتفسير وخدمة الحديث والفقهاء والأصول، وكذلك العلوم العربية

كالأدب والنحو واللغة، فظهر فيه ابن عبد ربه الأندلسي صاحب كتاب «العقد الفريد» الذي يعد من أهم مصادر الأدب العربي، وابن سيده صاحب المخصص؛ وقد عتوا عناية فائقة بالتاريخ، ظهرت في أدبهم من نثر وشعر، وبرز فيه ابن الأقطس وابن حيان وابن بسام وابن بشكوال، هذا كله عدا معرفتهم بفتون الطب والنبات والكيمياء والعمارة والموسيقى، وهذا عدا ما كانوا يمتازون به من ذوق لطيف، وأذن ناقد، وبصر بمحاسن الكلام وحسن تمييزه.

ويقول صاحب نفع الطيب : إن كل العلوم لها حظ عند الأندلسيين واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظاً عند خواصهم، ولا يتظاهر بهما خوف العامة، فإنه كلما قيل : فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم اطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان، أو يقتله السلطان تقريباً لقلوب العامة، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن^(١). ويذكر المقرئ في مواضع من كتابه : أسماء بعض من اشتهروا بالتنجيم كأبي عبيدة مسلم بن أحمد المتوفى في أواخر القرن الثالث وغيره. وإذا نحن أردنا أن نبحت الحركة الفكرية والفلسفية في الأندلس، فعلياً أن نخرج إلى نطاق أوسع في البحث والاستقصاء.

٢ — لم تكن في الأندلس قبل الفتح الإسلامي آراء وبحوث في الفلسفة، ولم يعرف سكان البلاد القدماء ولا علماءها شيئاً عن فلسفة الإغريق، وكانت تقيم بها سلالات آرية، لم تحصف عقولها، ولم تخرج عن بداوتها الأولى، ولم يرتفع فكرها إلى أفق الفلسفة، وكانت تقيم

(١) نفع الطيب ج ١ ص ١٣٦.

معها سلالات حامية أبعد ما تكون عن الفلسفة وعن التفكير العقلي، وسلالات سامية اختلطت بالبربر، وشغلت بالتجارة والملاحة، فأنى تطبع عقولها على الفلسفة؟ ثم هذه القبائل الآرية المتبريرة كالسلت والفندال والقوط كانت تهاجم البلاد ككرة بعد أخرى، فلم يكن يستتب فيها أمن، ولا يفرغ فيها عقل إلى التفكير، وكانت البلاد مع هذا وهذا تدين بالوثنية فلم تشع فيها هداية السماء وشعاع الوحي المسيحي إلا بعد الميلاد بقرون، أي نحو عام ٥٨٩م؛ والإغريق الذين أقاموا فيها هاجروا إليها قبل الميلاد بخمسة قرون أو نحو ذلك، أي أنهم هاجروا إليها قبل أن تنمو الفلسفة الإغريقية وتزدهر.

وامتزاج هذه الأمم في اسبانيا — وهي على ما رأيت من بعد عن الفلسفة وعن البحث المطلق — يحتاج إلى زمن بعيد؛ حتى تخرج منها أمة واحدة مبتكرة مفكرة.

كانت إذن بلاد الأندلس خالية من العلوم فلم ينبغ منها في القديم عالم، وكانت عاطلة من الفلسفة فلم يخرج منها فيلسوف. بيد أنه كان فيها طلائع قديمة، وكان بها سحرة وكهان على عهد حكم الرومان، وكان آية السحر عندهم أن يبنوا قنطرة، أو يضعوا طلسماً أو يحركوا آلة بالهواء.

وعندما فتح العرب الأندلس واستقروا فيها، وذاعت العلوم عندهم، وكثرت هجرتهم إلى الشرق، وهجرة أهل المشرق إليهم، كانت الفلسفة وترجمة علومها ذائعة في المشرق وخاصة في بغداد وشمال الجزيرة الفراتية، ومن ذلك الحين بدأ الأندلسيون يتصلون بالفلسفة ومباحثها وعلومها؛ وإن كانت العلوم السائدة في الأندلس هي العلوم اللغوية والدينية والأدبية، فضلاً عن أن اختلاط الأمم والعناصر بعد الفتح لم يكن قد أتى له الوقت الكافي بعد ليثمر فلسفة وفكراً حراً، بيد أنه كان هناك أفراد يذهبون إلى بلاد المشرق، فيطلعون على ما هنالك من علم وفلسفة،

ثم جاء إلى بلاد المغرب أظهر ذلك أو كتبه، وكان الذين يظهرون ذلك يجدون مقاومة وتشهيراً من الأدباء والفقهاء؛ رحل من المغرب إلى المشرق أبو عبيدة مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة البلنسي المعروف بصاحب القبلة، فسمع بمكة من علي بن عبد العزيز، وبمصر من المزني والربيع بن سليمان المرادي ويونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبدالله ابن عبد الحكيم وجماعة سواهم — وكان عالماً بالنجوم وحركات الكواكب وأحكامها وحسابها، وقد لقي عنتاً من نظرائه من الأدباء والفقهاء، فقد عابوا مذهبه، وأنكروا عليه، وشتعوا به، وممن شنع عليه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأديب الأندلسي صاحب «العقد الفريد» المتوفى سنة ٣٢٨هـ فقد قال فيه :

أبا عبيدة والمسؤول عن خبر	يحكي ويخبر أسراراً للذي سألا
أبيت إلا شذوذاً عن جماعتنا	ولم يصب رأي من أرجى ولا اعتزلا
كذلك القبلة الأولى مبدلة	وقد أبيت فما تبغي بها بدلا
زعمت بهرام أو بيذخت يرزقنا	لا بل عطارد أو برجيس أو زحلا
وقلت إن جميع الخلق في فلك	بهم محيط وفيهم يقسم الأجيلا
والأرض كرية حف السماء بها	فوقا وتحتا وصارت نقطة مثلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها	قد صار بينهما هذا وذا دولا
فإن كانوا في صنعا وقرطبة	برد وأيلول يذكي فيهما الشعلا
هذا الدليل ولا قول حررت به	من القوانين يجلي القول والعملا
كما استمر ابن موسى في غوايته	توعر السهل حتى خلته جيلا
أبلغ معاوية المصغى لقولهما	إني كفرت بما قالوا وما فعلا

فترى ابن عبد ربه في هذه القصيدة الساخرة بهزاً بأبي عبيدة ويفند رأيه ويبطل مذهبه، وينعى عليه غروره وشذوذه، فهو يلومه على أن عرض نفسه للسخرية والتهمة، وهو يعتب عليه أن شذ عن جماعة الفقهاء والأدباء وعن إجماعهم على تحريم النظر في ضلالات الحكمة ومريبات

الفلسفة والكلام، ثم هو ينيه على خطأ رأي المرجحة ومذهب المعتزلة، وينعى عليه أن ولي وجهه شطر بيت المقدس راصداً للنجوم في الأفلاك، وكيف؟ ولم يتوجه إليها؟ وقد بدلت القبلة الأولى منذ فجر الإسلام، ثم هو يذكر آراءه ويعود عليها بالنقض.

وقد كان بدء ظهور الفلسفة في الأندلس في منتصف القرن الثالث الهجري.

علوم الفلسفة في الأندلس :

وجدت الفلسفة هناك أولاً مقاومة شديدة، ومع ذلك فقد استمرت تخطو وثيدة وثيدة؛ وكان أول ما ظهر من فروع الفلسفة : علم الفلك والنجوم، ثم تلاهما علم الطب فعلم الكلام... ولما بزغت الحضارة الأندلسية في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠-٣٥٠هـ) شجع العلوم والفنون والآداب واشترى الكتب الثمينة وأكرم وفادة العلماء الذين رحلوا إليه من الشرق، وكان ابنه الحكم رئيساً لمعاهد قرطبة ومكتباتها ونواديها العلمية والأدبية، أي أنه كان بمثابة وزير للمعارف في حكومة الناصر؛ وقد كان لنشأته بين أمهر الأساتذة وعلماء العربية أثر في ميله إلى الثقافة والآداب، واتصل الحكم برجال التفكير الأندلسي، وغرس ذلك في نفسه حب الإطلاع والإقبال على الكتب والسخاء في أمور العلم والثقافة وعلى العلماء والأدباء، وحاكاه في ذلك الأمراء والولاة.

وتولى الحكم (٣٥٠ - ٣٦٦هـ : ٩٦١ - ٩٧٦م)، فطلب من القاهرة وبغداد وشتى العواصم المخطوطات في الفلسفة والرياضة وعلوم العربية والدين، وكان له في جميع بلاد الشرق عمال يجلبون له المؤلفات العربية والقديمة، وقد بعث بألف دينار لأبي الفرج الأصفهاني ليعث له بنسخة من كتابه «الأغاني»، وكان للحكم مكتبة عظيمة قيل إنها

كانت تحتوي على أربعمائة ألف مجلد، وقيل ستمائة ألف، وكانت فهرسها تبلغ أربعة وأربعين فهرساً ليس فيها إلا ذكر أسماء المؤلفات، وكان الحكم يطالع الكتب ويعلق عليها بخطه ويذكر شيئاً من حياة المؤلفين، وقل ان كان يوجد كتاب في مكتبته ليس له فيها تعليق، وقد قلده الشعب عامتهم وخاصتهم في حب الثقافة. وذاعت كتب الفلسفة ومذاهبها، وكان للطب في الأندلس أربع جامعات كبيرة، وكان في قرطبة وحدها أكثر من ثمانين مدرسة، منها مدرسة جامع قرطبة الكبير، التي كان يلقي فيها «الفاي» مجالسه الأدبية ودروسه اللغوية، وكان الحكم يعقد الندوات العلمية والأدبية في قصره، ويجتمع بأفذاذ العلماء يجادلهم وينظرهم، كما كان يشجع الشعراء ويثيبهم : وطار من أجل ذلك صيت العرب في الأندلس.

وقد أعجب أهل اوربا بعلوم العرب وحضارتهم، وأقبلوا على الأندلس يتعلمون في جامعاتها، ويتلمذون على العلماء العرب، ويقرأون في مؤلفاتهم، وترجمونها إلى لغاتهم، ويتولون المناصب الرفيعة في بلادهم، حتى إن بابا روما جوهرت سلفستر الثاني الذي ولي البابوية عام ٣٨٩هـ — ٩٩٦م كان ممن تعلموا في الأندلس على أيدي الأساتذة المسلمين.

وفي عهد الناصر والحكم نبع بعض الفلاسفة، ومنهم : ابن التيمية من أهل قرطبة وكان بارعاً في النجوم والطب وشتى الثقافات. وكان ممن رحل إلى المشرق وتوفي عام ٣١٥هـ^(١)، ومنهم : السري عبدالله ابن محمد، وكان عالماً بالعدد والهندسة وتوفي نحو عام ٣٧٠ هـ، ومنهم : محمد بن إسماعيل المتوفى عام ٣٣١هـ، وقد رحل إلى المشرق وبرع في الطب والنجوم؛ وفي الأدب والشعر والموسيقى، وكذلك

(١) ١٠١ طبقات الأمم لصاعد.

أبو بكر بن أبي عيسى، وكان إماماً في الهندسة والنجوم وكان يعلمها^(١).

ولما توفي الحكم خلفه ابنه هشام المؤيد وكان صغيراً يبلغ العاشرة من عمره، وكان لحاجبه المنصور بن أبي عامر سلطان عليه وعلى الدولة، فعهد المنصور إلى مكتبة الحكم وفتشها وأخرج منها كتب الفلسفة وأحرقها بمشهد الفقهاء، وبهذا أخذت الفلسفة في الانكماش، وسكن الفلاسفة بعد أن تحركوا في عهد الناصر والحكم، وظلت الفلسفة إلى آخر عصر الدولة الأموية عام ٤٢٨ هـ تلقى مقاومة واضطهاداً شديدين.

ومن ثم نرى كيف أن الفلسفة نشأت في الأندلس متأخرة مستعارة من الشرق، وكيف قضت نصف قرن مكروهة مضطهدة، ثم نصفاً آخر حرة آمنة، ثم نصفاً ثالثاً تلقى فيها المقاومة والعسف.

وفي عهد ملوك الطوائف شغلت الفتن ملوك قرطبة عن تعقب الفلاسفة ومحاكمتهم؛ فاستعادت حريتها ونشاطها، ومع ذلك فقد بيعت المكتبات العامة والخاصة التي كانت تزين قصور قرطبة — بأبخس الأثمان، وتناولها الناس وقرأوا فيها الكثير. من بحوث الفلسفة التي نجت بعض مؤلفاتها من عسف ابن أبي عامر وأصحابه، فأمن الناس وأظهروا ما لديهم في الفلسفة من كتب، وأخذوا يهتمون بالعلم الرياضي وصناعة المنطق، دون العلم الطبيعي والعلم الإلهي، وصاروا يجادلون وينظرون في مسائلها، ونى فيها في هذا العهد وفي أهم عصر الدولة الأموية الكثير من الفلاسفة، من أشهرهم :

١ — الإقليدي عبد الرحمن بن إسماعيل، وكان متقدماً في الهندسة والمنطق، وكان أبوه أحد وجوه قرطبة وولي الحسبة للحكم، وقد اختصر

(١) ١٠٢ المرجع.

الإقليدي كتب أرسطو المنطقية الثمانية في كتاب لم يصلنا^(١).

٢ — أبو عثمان^(٢) سعيد بن فنحون السرقسطي، وقد أصيب بمحن شديدة في عصر ابن أبي عامر، ولما اطلق سراحه هاجر الى صقلية وتوفي بها عام ٤١٠هـ، وله رسالة في الموسيقى ورسالة شجرة الحكمة في المدخل إلى علوم الفلسفة.

٣ — المجريطي^(٣) مسلمة بن احمد المتوفى عام ٣٩٨هـ، وكان إمام الرياضيين في الأندلس في وقته، مع مهارة الفلك، وكان يدمن المطالعة في كتاب «المجسطي» لبطليموس، وقد اختصر تعديل الكواكب في زيح البتاني^(٤) وزاد في زيح الخوارزمي^(٥) جداول فلكية كثيرة، وحول تاريخه الفارسي إلى التاريخ العربي، وتلمذ عليه الكثيرون.

٤ — محمد بن الحسن وكان بصيراً بالطب والمنطق وسواهما، وتوفي عام ٤٢٠هـ.

٥ — الكرمانسي^(٦) عمر بن عبد الرحمن القرطبي (٣٦٨ — ٤٥٨هـ)، رحل الى المشرق وتعلم في مدارس حران الهندسة والطب، ثم عاد إلى الأندلس وأقام بسرقسطة، ويعد من الفحول في الطب والهندسة والحساب، وهو أول من أدخل «رسائل إخوان الصفاء»

(١) طبقات الأمم.

(٢) طبقات الأمم لصاعد.

(٣) هو محمد بن جابر المتوفى عام ٣٠٧هـ وينسب إلى بتان من أعمال حران، وقد نبغ في الهندسة والنجوم.

(٤) هو محمد بن موسى الخوارزمي من علماء الهيئة وكان خازن دار الحكمة للمأمون، وله زيجان فلكيان.

(٥) طبقات الأمم.

في الأندلس ولم يعرف احد ادخلها قبله في هذه البلاد، فقرأها
الكثيرون^(١).

٦ — هشام بن أحمد الطليطلي الكناني وقد برع في المنطق والهندسة
والكلام، وتوفي نحو ٤٥٤هـ.

٧ — الإمام الوزير ابن حزم علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي
(٣٨٤ — ٤٥٦هـ^(٢)) ولد في بيت عريق في قرطبة وكان والده وزيراً
للمنصور بن أبي عامر ولابنه المظفر بعده، وكان أخوه أبو محمد
وزيراً للمستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر،
وقد تعلم ابن حزم على مشاهير العلماء والفلاسفة، وتبحر في علوم الشريعة
واصول الدين واللغة والأدب والتاريخ، وعنى بالمنطق عناية خاصة وألف
فيه كتاب «التقريب» وله «الفصل في الملل والنحل» وكتاب «مراتب
العلوم» وكثير من المؤلفات التي تبلغ أربعمئة مؤلف.

وكان ابن حزم شافعي المذهب، ثم اتبع مذهب داود الظاهري وافرط
في الدعوة له، وله حظ كبير في علوم اللغة والأدب، وكان شاعراً،
ويروي له :

انا الشمس في جو العلوم متيرة ولكن عيبي ان مطلعني الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع لجد علي ما ضاع من ذكرني الشهب
ولسي نحو العراق صبايسة ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
ويقول المراكشي : « وهو أشهر علماء الأندلس وأكثرهم ذكراً في
مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء، وذلك لمخالفته مذهب مالك

(١) هذه الرسائل إحدى وخمسون مقالة في الفلسفة ألّفها في البصرة جماعة من الفلاسفة
في منتصف القرن الرابع وحبوا فيها الفلسفة إلى الناشئ، وذكروا فيها أن الكمال
لا يتم إلا بتأخي الدين والفلسفة، ومن زعمائهم : زيد بن رفاعة والمقدسي.
(٢) راجع ص ١١٧ طبقات الأمم لصاعد.

بالمغرب، واستبداده بعلم الظاهر ولم يشتهر به قبله أحد، وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه اليوم عندنا بالأندلس».

وقد عاش ثرياً ميجلاً، حتى مات عن إحدى وسبعين سنة، وهو أحد الأفراد الذين وقفوا أنفسهم على تحصيل العلم ونشره، وقيل فيه : إنه كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام. ويصفه بعض معاصريه فيقول : وما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ والتدبير، وكان له في الآداب والشعر نفس واسع، وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البيهية أسرع منه، وله مؤلفات كثيرة في الحديث والأصول، والأخلاق والسير، والأنساب. ومن أشهر كتبه غير كتاب الفصل : شرح الموطأ للإمام مالك، والجامع في صحيح الحديث ومداواة النفوس، والمعروف بالأخلاق والسير. وغير ذلك كثير، ولابن حزم تراجم في كتاب الصلة لابن بشكوال وفي كتاب بغية الملتبس للضبي، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان، وفي طبقات الأمم لصاعد، وغير ذلك من المراجع.

ومن فصوله في كتابه « الفصل في الملل والنحل»^(١) « فصل كتبه في الكلام على من انكر الشرائع من المنتهين»^(٢) إلى الفلسفة^(٣) :

- (١) الفصل : الفروق أو الأفضية والأحكام، جمع فصلة، والملل : الأديان والشرائع جمع ملّة. والنحل المذاهب وأصلها الدعوى جمع نحلة، والكل كقطعة وقطع وفرقة وفرق، وهذا المركب بجملته أصبح علماً على هذا الكتاب.
- (٢) من الانتماء وهو الانتساب والاعتناء.
- (٣) أصلها كلمة يونانية مركبة من كلمتين. هما (فيلوس) أي محبة و (سوفيا) أي الحكمة، فيكون معناها : محبة الحكمة، والفيلسوف هو محب الحكمة، وقد أثر الحكماء وصف أنفسهم بمحبة الحكمة دون الحكمة نفسها التي هي العلم بحقائق الأشياء، لأن الحكيم الحق هو الله سبحانه وتعالى : وهو نوعان : نظرية وهي إما إلهية وإما طبيعية وإما رياضية، وعلمية وهي الأخلاق والتدبير المنزلي والتدبير السياسي. ويرى طائفة من القدماء أن هذا النوع هو ثمرة النوع الآخر والغرض منه : وسيجري على ذلك ابن حزم في هذا الفصل.

الفلسفة — على الحقيقة — إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود نحوه^(١) بتعليمها، ليس هو شيئاً غير إصلاح النفس، بأن تستعمل في دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها في المعاد، وحسن السياسة للمنزل والرعية^(٢) وهذا نفسه لا غيره هو الغرض في الشريعة^(٣) (الإسلامية). هذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء بالفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة. فيقال لمن أتمى إلى الفلسفة يزعمه، وهو ينكر الشريعة بجهله — على الحقيقة — بمعاني الفلسفة^(٤) وبعده عن الوقوف على غرضها ومعناها: أليست الفلسفة^(٥) بإجماع من الفلاسفة، مبينة^(٦) للفضائل من الرذائل. موقفة على البراهين المفارقة بين الحق والباطل؟ فلا بد من نعم ضرورة^(٧). فيقال له: أليس الفلاسفة كلهم قد قالوا: إصلاح العالم بشيئين: أحدهما باطن والآخر ظاهر. فالباطن هو استعمال النفس للشرائع الزاجرة^(٨) عن تظالم^(٩) الناس وعن القبائح، والظاهر هو التحصين بالأسوار، واتخاذ السلاح لدفع العدو الذي يريد ظلم الناس والإفساد، ثم أضافوا إلى إصلاح النفوس بما ذكرنا: إصلاح الأجساد بالطب؟ فلا بد من نعم ضرورة.

- (١) جهته وناحيته.
- (٢) فعملة بمعنى مفعولة أي المرعية من الرعاية وهي السياسة والتدبير والحفظ.
- (٣) في معنى أي الغرض من الشريعة.
- (٤) أي بسبب جهله بمعاني الفلسفة على الحقيقة، أي حالة كون جهله كائناً على الحقيقة، ففي الكلام تقديم وتأخير كما رأيت.
- (٥) مقول القول، والاستفهام هنا التقرير بما بعد النفي لأنه إنكار للنفي.
- (٦) أي مميزة ومفارقة، من بان الشيء بمعنى افرق وانفصل.
- (٧) أي إذا قيل له ذلك فلا مفر ولا مناص من أن يقول نعم، وضرورة منصوبة على التمييز لأن المعنى: أن حتمية ذلك الجواب حاصلة من جهة الضرورة.
- (٨) الماتعة والناعية، وإسناد الزجر إلى الشرائع التي يجز بها مجاز عقلي.
- (٩) أن يظلم الناس بعضهم بعضاً، وهذه الصيغة تدل على المشاركة كالتقابل والتضارب.

فيقال لهم : فهل صلاح العالم، وانكفاف الناس^(١) عن القتل الذي فيه فناء المخلوق وعن الزنا الذي فيه فساد النسل، وخراب الموارث، وعن الظلم الذي فيه الضرر على الأنفس والأموال، وخراب الأرض، وعن الرذائل من البغي والحسد والكذب والجبن والبخل والنميمة والفسق والخيانة، وسائر الرذائل، إلا لشرائع زاجرة^(٢) الناس عن كل ذلك ؟ فلا بد من نعم ضرورة، وإلا وجب^(٣) الإهمال الذي فيه فساد كل ما ذكرنا. فإذا^(٤) لا بد من ذلك، ولولا ذلك^(٥) لفسد العالم كله، ولفسدت العلوم^(٦) كلها، ولكان الإنسان قد بطلت فضيلة الفهم^(٧) والتطق والعقل الذي فيه، وصار كالبهائم فلا تخلو^(٨) تلك الشرائع من أحد وجهين : إما أن تكون صحاحاً من عند الله عز وجل الذي هو خالق العالم ومدبره^(٩) كما يقول أصحاب الشرائع، وإما أن تكون

-
- (١) امتناعهم، من كفه إذا منع.
(٢) يعني : إلا تقتضي ومملول هذا الصلاح لشرائع.
(٣) أي وإن لا يكن انكفاف الناس عن الرذائل مقتضى الشرائع، ثبت ولزم إهمال الشرائع لما به إصلاح العالم وتضييعها له.
(٤) أي فإذا لزم الإهمال المؤدي إلى الفساد وترتب على نفي أن يكون إصلاح العالم مقتضى للشرائع وهو باطل، فلا بد ولا مفر من جملة مقتضاها ولازماً لها لتزويجها عن ذلك.
(٥) أي ولولا القضاء للشرائع لما به صلاح العالم.
(٦) أي من حيث فقداتها ثمرتها التي عرفتها قبل.
(٧) أي انتفت الفضيلة التي هي الفهم فالإضافة بيانية، والفهم وما عطف عليه بمعنى واحد. وذلك أن فائدة العقل هي النظر وتحصيل العلم. وقد بطلت العلوم التي هي مطلوب العقول وثمراتها بطلان الغاية والغرض منه الذي هو الفضائل على تقديره إهمال الشرائع للفضائل. ثبت بطلان ذلك وثبت أن الفضائل هي مقتضى ولازم للشرائع.
(٨) أي فإذا سلم ذلك فلا تخلو الشرائع.
(٩) التدبير : التصريف على مقتضى الحكمة.

موضوعة^(١) من أفاضل الحكماء لسياسة الناس بها^(٢)، وكفهم عن
التظالم والردائل. فإن كانت موضوعة كما يقول هؤلاء المخاذيل^(٣)
فقد تيقنا أن ما أئزموا الناس من ذلك كذب لا أصل له، وزور مختلق،
وإيجاب لما لا يجاب، وباطل لا حقيقة له، ووعيد ووعد^(٤)، وكلاهما
كذب. فإن كان ذلك كذلك^(٥) فقد صار الكذب^(٦) الذي هو أرذل
الردائل، وأعظم الشرور، لا يتم صلاح العالم الذي هو الغرض من
طلب الفضائل إلا به. وإذا كان ذلك كذلك فقد صار الحق باطلاً،
والصدق رذيلة، وصار الباطل حقاً وصدقاً، والكذب فضيلة، وصار
لا قوام للعالم أصلاً إلا بالباطل، وصار الكذب نتيجة الحق^(٧) وصار
الباطل ثمرة الصدق^(٨) وصار الفرور والفسق والخديعة فضائل
ونصيحة، وهذا أعظم ما يكون من المحال والممتنع والخلف^(٩) الذي
لا مدخل له في العقل^(١٠)!

وفي هذا النص نجد ابن حزم يذهب في الاستدلال على قيام شرائع

- (١) أي مبتدأة مخترعة باصطلاح الحكماء.
- (٢) السياسة : التدبير.
- (٣) جمع مخلول من الخذلان ضد التوفيق.
- (٤) الوعيد : الإنذار والتهديد والمشهور اختصاص الوعد بالخير كاختصاص الوعيد بالشر. وهو متعين في مثل هذا التصير.
- (٥) أي فإن كان ما أئزموا الناس به على تقدير أن الشرائع من وضع الحكماء كما قلنا من أنه كذب وزور الخ.
- (٦) المراد به كذبهم على الله في نسبة الشرائع إليه على هذا التقدير، وكذب ما تضمنته من الوعيد بالعقاب والوعد بالثواب الأخريين.
- (٧) هكذا في الأصل.
- (٨) الظاهر ثمرة.
- (٩) الخلف بالضم الاختلاف، والتناقض أن تكون النتيجة على خلاف المفروض وبالفتح الرديء من الكلام، والظاهر هنا الأول.
- (١٠) كتابة عن عدم قبول العقل له.

من عند الله سبحانه وتعالى، والرد على من ينتسبون كذباً إلى الفلسفة ويزعمون أن الشرائع من وضع الحكماء، خلافاً لما توجيه أصول الفلاسفة جميعاً من صحة الشرائع، إلى أن الفلسفة تتفق مع الشريعة في أن المقصود من كل منهما هو استعمال الفضائل في الدنيا لتصل بالناس إلى إصلاح النفوس وسلامة الناس في المعاش والمعاد. فيقال لمن أنكر الشريعة ممن ينتسبون إلى الفلسفة بزعمهم وهم أجهل الناس بمعانيها : إن ما به هذا الصلاح وتلك السلامة إما أن يكون مقتضى الشرائع تفرق بين الحق والباطل وتبين الفضيلة من الرذيلة، وتأمراً بأسباب السلامة، وترجراً وتنهي عن أسباب الهلاك، وإما أن يكون فتكون الشرائع قد أهملت ذلك وأضاعته. ولزوم ذلك للشرائع محال لأنها منزهة عن التصنيع والإهمال. وذلك أن الإهمال فساد. والشرائع لا تقتضي الفساد وإنما تقتضي الصلاح. فلا بد إذن أن يكون ما به صلاح النفوس وسلامة الناس في المعاش والمعاد مقتضى ولازماً للشرائع لا لغيرها، وإلا فسد العالم وفسدت المعارف كلها؛ لأن ثمرة المعارف والغرض منها هي ذلك، لا تنتفت كذلك فضيلة العقل الذي به المعرفة والعلم ليطلقان ثمرة العلم والمعرفة إذن، فإذا سلم ذلك فلا تخلو هذه الشرائع من أن تكون من عند الله خالق العالم ومديره ومصرفه على مقتضى الحكمة والعالم بما يصلحه وما به سلامة الناس في المعاش والمعاد. وإما أن تكون هذه الشرائع من صنع الحكماء ووضعهم، إلا أنهم نسيوها كذباً وزوراً إلى الله سبحانه وتعالى، فوعدوا الناس بثواب لا أصل له، وتوعدوهم بعقاب لا حقيقة له، كما هو مقتضى قول أهل الخذلان والبطلان ممن ينتسبون بزعمهم إلى الفلسفة، وهم أجهل الناس بأغراضها ومعانيها، وذلك يؤدي إلى محالات هي :

أ — أن يكون ما أوجيته الشرائع على الناس غير واجب عليهم لأنه كذب لا أصل له وباطل لا حقيقة له.

ب — أن يكون الكذب كهذه الشرائع الموضوعية لا يتم صلاح العالم الذي هو الغرض من الفضائل إلا به؛ وبذلك يصير العالم الذي أقامه الله على الحق قائماً على الباطل وعلى الكذب الذي هو أرذل الرذائل وأعظم الشرور.

ج — وأن يصير الحق باطلاً بواسطة أنه أمر به وحمل عليه الباطل، والصدق رذيلة لأنه إنما أمرت به شرائع كاذبة.

د — وأن يصير كذلك الباطل كالشرائع الموضوعية حقاً وصدقاً بواسطة أن الحق ومقتضاه، ويصير الكذب فضيلة لأدائه إليها.

هـ — وأن يصير نتيجة الكذب الحق وثمره الباطل الصدق.

و — وأن يصير خصال الغرور والنش والخديعة إلى أضعافها فتصير من باب الفضائل والنصيحة. وهذا كله أعظم ما يكون من المحال الذي يمتنع قبوله في العقل، فما استلزم ذلك من كون الشرائع من وضع الحكماء هو كذلك في الإحالة والبطلان؛ لأن ما استلزم المحال فهو محال.

٧ — عبد الرحمن بن أحمد اللخمي، وقد درس كتب جالينوس وأرسطو ومهر في الطب والأدوية، وألف فيها كتاباً جليلاً لا نظير له، وتوفي حوالي عام ٤٧٠هـ.

٨ — ابن خلدون أبو مسلم عمرو بن أحمد الخضرمي، من أشراف أهل إشبيلية في علوم الفلسفة، مشهوراً بعلم الهندسة والطب والنجوم، وتوفي عام ٤٤٩هـ.

٩ — ابن السمع^(١) أبو القاسم أصبغ بن محمد؛ وكان بارعاً في العدد والهندسة والفلك وحركات النجوم والطب، ومن كتبه: المدخل

(١) ١٠٧ و ١٠٨ طبقات صاعد.

إلى الهندسة في تفسير كتاب إقليدس، وكتاب ثمار العدد، وكتاب طبيعة العدد، وكتابه الكبير في الهندسة، وكتاباً في الآلة المسماة بالاسطرلاب، ومن كتبه: زيجه الذي ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف بالسند هند، وكان من تلامذة المجريطي، وتوفي في غرناطة سنة ٤٢٦هـ عن ست وخمسين سنة، وميلاده عام ٣٧٠هـ.

١٠ - ابن الصفار^(١) أحمد بن عبدالله بن عمر، وكان مشهوراً في العدد والهندسة والنجوم، وقعد في قرطبة لتعليم هذه العلوم، وأدركته الفتنة في قرطبة أيام ابن أبي عامر، ثم خرج منها إلى دانية عاصمة الأمير مجاهد العامري على الساحل الأندلسي الشرقي وتوفي بها، وكان له أخ اسمه محمد، شهر بعمل الاسطرلاب^(٢).

١١ - ابن برغوث المتوفى عام ٤٤٩هـ وكان بارعاً في العلوم الرياضية^(٣).

١٢ - أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المتوفى عام ٥٠٠هـ، وهو من الأطباء، وله في الطب كتب.

(١) ١٠٨ المرجع نفسه.

(٢) لفظة يونانية مركبة من « استرون » بمعنى كوكب، و « لافي » بمعنى أخذ، فمحاها أخذ الكواكب، وفسرها العرب بميزان الشمس أو ميزان الكواكب، وهي آلة يتوصل بها إلى معرفة كثير من أحوال الكواكب على أسهل طريق وأقرب مأخذ، كارتفاع الشمس وسمت القبلة وعرض البلاد وسوى ذلك، وأول من صنع الاسطرلاب بطليموس، وأول من علمه في الإسلام إبراهيم بن حبيب الفزاري، وقيل إن الأوائل كانوا يتخذون كرة على مثال الفلك ويرسمون عليها الدوائر ويفسرون بها الليل والنهار ويصحون بها الطالع إلى زمن إدريس، وأن ابناً لإدريس اسمه « لاب » هو الذي صنعها - وقد حلت في عصرنا الآلات الحديثة محل الاسطرلاب.

أما الزيج الذي سبق ذكره فهو جدول يستدل به على حركة الأفلاك لأجل تقويم مواقعها، وأقدم الزيجات : زيج بطليموس، والزيج ينفع في الأسفار البحرية وفي علم الهيئة.

(٣) ١١١ صاعد الأندلسي.

١٣ - ابن شهر^(١) مختار بن عبد الرحمن، كان بصيراً بالهندسة والنجوم بليغاً شاعراً متكلماً، ولي قضاء المرية في آخر دولة زهير العامري سنة ٤٢٧هـ وتوفي بمدينة قرطبة عام ٤٣٥هـ.

ومنهم ابن العطار^(٢)، وابن الليث^(٣) المتوفى في بلنسية عام ٤٠٥هـ، وكان يتقلد فيها القضاء.. وابن حي^(٤) الذي خرج من الأندلس عام ٤٢٢هـ إلى مصر فاليمن، وتوفي باليمن عام ٤٥٦هـ.. وابن الجلاب^(٥)، وأبو الحسن علي بن اسماعيل بن سيده الأعمى، وهو أعلم أهل قرطبة بالنحو واللغة والشعر، وله كتاب المخصص، وقد عني بعلوم المنطق عناية كبيرة وألف فيها مؤلفاً كبيراً وتوفي سنة ٤٥٨هـ عن ستين سنة وميلاده نحو عام ٣٩٨هـ، والقاضي صاعد الأندلسي المتوفى عام ٤٦٢هـ، صاحب كتاب «طبقات الأمم».

ومن الأطباء في الأندلس: أبو مروان عبد الملك بن زهر الأشبيلي^(٦) وابن الذهبي المتوفى ببلنسية عام ٤٥٦هـ، وأبو المطرف عبد الرحمن بن محمد^(٧) وكان ميلاده عام ٣٩٨م، وأقام في طليطلة، وسعيد بن محمد بن البيغونش^(٨) (٣٦٩-٤٤٤هـ) وهو من أهل طليطلة، ويوسف بن محمد^(٩) (٣٤٥ - ٤٣٥هـ) والكتاني أبو عبد الله محمد بن الحسين^(١٠) (٣٤٠ - ٤٢٠) ومحمد بن عبدون، وقد رحل

(١) ١١١ صاعد الأندلسي.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ١١٣ صاعد الأندلسي.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) ١١٤ المرجع نفسه.

(٦) ١٢٩ المرجع نفسه.

(٧) ١٢٨ المرجع نفسه.

(٨) ١٢٧ المرجع نفسه.

(٩) ١٢٦ المرجع نفسه.

(١٠) ١٢٥ المرجع نفسه.

الى المشرق وعاد عام ٣٦٠هـ وخدم المستنصر^(١) ويحيى بن اسحق أحد وزراء الناصر وله في الطب كناش كبير في خمسة أسفار ذهب فيه مذهب اليونانيين في الطب^(٢) وسعيد بن عبد الرحمن بن عبد ربه ابن أخي محمد صاحب «العقد الفريد»، وكان طبيباً نبيلاً وشاعراً محسناً، وله رجز طويل في الطب، وكان له أيضاً بصر بالكواكب^(٣)، وأحمد وعز ابننا يونس^(٤)، وقد رحلا إلى المشرق عام ٣٤١هـ، وعاد منه عام ٣٥١هـ، فألحقهما الحكم بخدمته في الطب، واستخلصهما لنفسه من سائر الأطباء وعاش أحمد بعد أخيه طويلاً، وكان بارعاً في أمراض العين.

مقاومة الفلسفة في الأندلس :

وفي عهد المرابطين لقيت علوم الفلسفة مقاومة شديدة، فاختفى الفلاسفة وسكنت مباحث الفلسفة، ولما وصلت كتب الغزالي أمر علي ابن يوسف بن تاشفين بإحراقها، وانقطع الناس عن الأبحاث الفلسفية والمجادلة فيها، إلى أن ضعفت دولة المرابطين، وفي عهد الموحدين استمرت مقاومة الفلسفة إلا في عهد يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٨٠هـ) الذي أطلق حرية الفلاسفة والمفكرين، وكان عصره غرة في جبين الحياة الفكرية في الأندلس.

وكان يوسف هذا ملماً بجميع فروع الثقافة، مؤثراً للعلم، محباً للأدب واللغة، مطلعاً على التاريخ، درس الطب، وتعلم الفلسفة، وأمر بجمع كتبها، وكانت له مكتبة فلسفية كبيرة، وقرب إليه العلماء

(١) ١٢٤ صاعد الأندلسي.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) ١٢٤ المرجع نفسه.

والفلاسفة، فصحبه أبو بكر محمد بن طفيل الفيلسوف المتوفى عام ٥٨١ تلميذ ابن باجة وأستاذ ابن رشد وصاحب القصة الفلسفية المشهورة : « حي بن يقظان ».. وقد قرب هذا الخليفة إليه ابن رشد، فعينه عام ٥٦٥هـ قاضياً في أشبيلية، وبعد ذلك بعامين عينه قاضياً في قرطبة، وفي سنة ٧٨هـ عينه قاضياً للقضاء في هذه المدينة، وقد لخص ابن رشد له كتب أرسطو المنطقية الثمانية. وكان يجادل ابن طفيل وابن رشد في مباحث الفلسفة حتى عظم شأنها في عهده. وخلفه ابنه يعقوب (٥٨٠-٥٩٥هـ) فقرب إليه الصالحين والزهاد وعلماء الحديث، وأظهر الزهد والتقشف، وأراد أن يجمع الناس على مذهب واحد يستمده من ظاهر الكتاب والسنة، فأمر بإحراق كتب مذهب مالك، وأمر العلماء بجمع الأحاديث الصحيحة في كتاب واحد، حمل الناس على حفظه وخافه الفقهاء، ثم أمر بترك الاشتغال بالعلوم العقلية وعدم الخوض في شيء منها، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة.

واشتد في مقاومة الفلسفة وأصحابها ومال إلى التصوف، وجعل حوله بطانة من شيوخ الطرق الذي أحقوه على الفلاسفة عامة وعلى ابن رشد خاصة ومن سوء حظ هذا الفيلسوف أن جماعة من أعدائه قد اندسوا بين هؤلاء المتصوفين، وأخذوا يكيدون له من وراء ستار الدين حتى إذا استحكمت العداة في نفس الأمير، أمر بالقبض على ابن رشد وتلاميذه المخلصين له، فجيء بهم وحوكموا أمام مجلس علني، ولم يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم، وأسفرت المحاكمة عن نفيهم، فنقوا إلى « أليسانا ».

وعلى أثر أمر الخليفة بنفي ابن رشد إلى « أليسانا » وإحراق كتبه، أذاع منشوراً شديداً من إنشاء عبدالله بن عياش، شهر فيه بالفلاسفة، وحذر الشعب من كتب الفلاسفة، وحرّم على الناس الاشتغال بها. وهذا نصه :

« قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام، وأقر لهم عوامهم بشغوف عليهم في الأفهام، حيث لا داعي يدعو إلى الحي القيوم، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم، فخلدوا في العالم صحفاً مالها من خلاق، مسودة المعاني والأوراق، بعدها من الشريعة بعد المشرقين، وتبايتها تباين الثقلين، يوهمون أن العقل ميزانها، والحق برهانها، وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقاً، ويسيرون فيها شواكل وطرقاً، ذلكم بأن الله خلقهم للنار، ويعمل أهل النار يعملون، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة، ومن أوزار الذي يضلونهم بغير علم، ألا ساء ما يزررون، ونشأ منهم في هذه السمحة البيضاء شياطين إنس يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون. فكانوا عليها أضمر من أهل الكتاب، وأبعد عن الرجعة إلى الله والمآب، لأن الكتابي يجتهد في ضلال، ويجد في كلال، وهؤلاء جهدهم في التعطيل، وقصاراهم التمويه والتخييل، دبت عقاربهم في الآفاق برهة من الزمان إلى أن أطلعنا الله سبحانه منهم على رجال كان الدهر قدمننا لهم على شدة حروبهم، وعفي عنهم سنين على كثرة ذنوبهم، وما أملى لهم إلا ليزدادوا إثماً، وما أمهلوا إلا ليأخذهم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً. وما زلنا — وصل الله كرامتكم — نذكرهم على مقدار ظننا فيهم وندعوهم على بصيرة إلى ما يقربهم إلى الله سبحانه ويدينهم، فلما أراد الله فضيحة عمايتهم وكشف غوايتهم، وقف لبعضهم على كتب مسطورة في الضلال، موجبة أخذ كتاب صاحبها بالشمال، ظاهرها موشح بكتاب الله، وباطنها مصرح بالإعراض عن الله، ليس الإيمان منها بالظلم، وحيء منها بالحرب الزبون في صورة السلم، مزلة للأقدام، وهم يدب في باطن الإسلام، أسياف أهل الصليب دونها مفلولة، وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة، فإنهم يوافقون الأمة في ظاهرهم وزبيهم ولسانهم، ويخالفونها بباطنهم وغيبهم

وبهتاتهم. فلما وقفنا منهم على ما هو قذى في جفن الدين، ونكتة سوداء في صفحة النور المبين، نذناهم في الله نبد النواة، وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة، وأبغضناهم في الله، كما أنا نحب المؤمنين في الله، وقلنا: اللهم دينك هو الحق اليقين، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين، وهؤلاء قد صدفوا عن آياتك، وعميت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك. فباعد أسفارهم وألحق بهم أشياعهم حيث كانوا وأنصارهم، ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الإلجام بالسيف في مجال ألسنتهم، والإيقاظ بحده من غفلتهم وستتهم. ولكنهم وقفوا بموقف الخزي والهون، ثم طردوا عن رحمة الله، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون. فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الإيمان حذرکم من السموم السارية في الأبدان. ومن عثر له على كتاب من كتبهم، فجزأه النار التي بها يعذب أربابه، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه، متى عثر منهم على مجد في غلوائه، عم عن سبيل استقامته واهتدائه، فليعاجل فيه بالثقيف والتعريف. ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تتصرون. أولئك الذين حبطت أعمالهم. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون. والله تعالى يظهر من دنس الملحدين أصقاعكم، ويكتب في صحائف الأبرار تضافرکم على الحق واجتماعكم... إنه منعم كريم ۞.

ذلك هو المنشور الذي أمر الخليفة بإذاعته في بلاد الأندلس والمغرب، فكان له أسوأ الأثر في الحياة الفكرية العربية والأندلس.

وظل ابن رشد وتلاميذه عاماً في المنفى حتى أذن الخليفة بإعادتهم فعادوا إلى الأندلس من جديد، وقد أمر الخليفة بإحراق كتب الفلسفة كلها إلا الطب والحساب والقليل من علوم النجوم، مما يتوصل به إلى معرفة أوقات الليل والنهار؛ ولكنه لم يلبث بعد قليل أن نزع عن

ذلك كله، وجنح إلى تعلم الفلسفة، واستدعى ابن رشد إليه في مراكش حيث توفي فيها آخر عام ٥٩٤هـ، وتوفي بعده بقليل الخليفة نفسه عام ٥٩٥هـ.

وقد ظهر من الفلاسفة في عهد المرابطين والموحدين — على الرغم من هذه المقاومة التي عرفنا أمرها من قبل — الكثير من الفلاسفة العبقريين ومن أشهرهم :

١ — ابن باجة السرقسطي : لقيه ابن الصائغ، وكان طبيباً فيلسوفاً مولعاً بالموسيقى، وتوفي بفاس في المغرب الأقصى عام ٥٣٣هـ.

وابن الصائغ اسمه أبو بكر محمد بن يحيى بن باجة، وكان ميلاده في سرقسطة وهي مدينة كبيرة تقع على نهر إبرو. وكانت من المدن الصناعية في عهد الحكم العربي للأندلس، وقد نشأ فيها العلماء والأدباء والفلاسفة. ومن فلاسفتها ابن فتحون، المتوفى في أوائل القرن الخامس الهجري بصقلية، وعبدالله بن أحمد المنجم، المتوفى سنة ٤٨٨هـ، وأحمد ابن سليمان بن الحاجب، المتوفى عام ٤٧٠ هـ، والكرماني المتوفى عام ٤٥٨هـ.

وقد ولد ونشأ ابن باجة في آخر عهد ملوك الطوائف وأوائل دولة المرابطين، وبرع في الطب والفلك والفلسفة، وكان أبو بكر بن إبراهيم صهر علي بن يوسف بن تاشفين والياً على المدينة؛ فاتخذ ابن باجة جليساً له ووزيراً وفي عام ٥١٢هـ انتقل ابن باجة إلى إشبيلية على أثر سقوط سرقسطة في يد الفونس الأول، وعكف في إشبيلية على الاطلاع والبحث والتأليف، ثم خرج منها إلى غرناطة، فأقام بها حيناً ينشر الفلسفة ويعلمها، ثم انتقل إلى فاس عاصمة بلاد المغرب الأقصى، اتصل بالأمير يحيى بن تاشفين، وظل مقيماً بفاس حتى توفي عام ٥٣٣هـ. وقد عاش ابن باجة يدافع عن آراء الفلاسفة، ويناضل آراء الغزالي القائمة على نقد تعاليم فلسفة أرسطو وأتباعه كالفارابي وابن سينا، ويدعو إلى

معرفة الإنسان ذاته، ومعرفة الطبيعة التي حوله. وله كتب كثيرة منها : رسالة الوداع — رسالة تدبير المتوحد — شرح كتاب السماع الطبيعي لأرسطو — كتاب اختصار الحاوي للرازي في الطب، وقد توفي الرازي عام ٣٢٠هـ، وسوى ذلك من مؤلفاته، ورسالة الوداع التي ألفها ابن باجة ترجمت في القرن الرابع عشر الميلادي إلى العبرية، وفيها الكثير من آراء ابن باجة وفلسفته، وقد كتبها قبل سفر طويل عزم عليه، وبحث بها إلى تلميذ له ليكون على علم بفلسفته إذا قدر له أن لا يعود، أما رسالة ابن باجة الأخرى « تدبير المتوحد » فهي أهم كتبه وأجلها، ويقول عنها ابن رشد : « أراد أبو بكر أن يختط خطة التدبير المتوحد في هذه الأمة لكنه لم ينجزها، وكثير منها غامض لأنه أول من سار في هذا المضمار ولم يسبقه فيه أحد » وفي المكتبة التيمورية جزء من هذا الكتاب، وقد لخص هذه الرسالة موسى التربوني الإسرائيلي في شرحه العبري لرسالة « حي بن يقظان »، وعلى هذا الملخص عول الباحثون؛ وقد تحدث فيها عن التدبير السياسي وشئون الحكومة الكاملة، وعن أفعال الإنسان، وعن الغاية من الأعمال الإنسانية، ويعرف الفيلسوف بأنه إنسان إلهي سام، وهو لا يقصد إلا أرفع الأعمال وأعلاها ذكراً، وهو ممتاز بهذا عن جميع الناس، إلى غير ذلك من مباحث هذه الرسالة التي تعطينا صورة صادقة عن فلسفة ابن باجة التي قامت على مناهضة آراء الغزالي الصوفية.

وقد وصف ابن طفيل ابن باجة بتوقد الذكاء وصحة النظر وصدق الروية وبأنه شغلته الحياة عن إخراج مكونات علمه، وبإدراك الموت قبل نضوج فلسفته، وكان الفيلسوفان متعاصرين وكانت بينهما عداوة شديدة.

وقال فيه تلميذه أبو الحسن علي بن عبد العزيز الغرناطي : « كان في ثقابة الذهن، ولطف الغوص على تلك المعاني الجليلة الشريفة الدقيقة،

أعجوبة دهره، ونادرة الفلك في زمانه، فإن هذه الكتب الفلسفية كانت متداولة من عهد الحكم المستنصر، فما انتهج فيها الناظر قبل ابن باجة سبيلاً، وما تقيد عند الناظرين في تلك الكتب قبل ابن باجة إلا ضلالات كما تبدو عند ابن حزم، وكان أجل نظار زمانه، وإنما انتهجت سبل النظر في هذه العلوم بهذا الحبر وبمالك بن وهيب الأشبيلي^١.. وقد تتلمذ عليه كثيرون منهم ابن رشد (٥٢٠-٥٩٤هـ) كما يقولون، ومنهم علي بن عبد العزيز الغرناطي الذي نزح عن الأندلس بعد وفاة أستاذه، ومات بصعيد مصر في النصف الأخير من القرن السادس الهجري. ولا ابن باجة شعر روى بعضه المقري وابن خاقان وابن خلكان، ومنه :
قد أودعوا القلب لما ودعوا حرقة فظل في الليل مثل النجم حيرانا
راودته يستعير الصبر بعدهم فقال : إني استعرت اليوم نيرانا
ومنه :

لا والذي جعل الغصون معاطفاً لهم وصاغ الأحمقون ثغورا
ما مر بي ربح الصبا من بعدهم إلا شهقت له فعاد سعي را

وقد كان تبوغ ابن باجة في الفلسفة الطبيعية والهندسة وعلم الهيئة لا حد له، ومن آرائه : أن العقل يمد الجسم بالحركة، وأنه يسير في مدارج حتى يتصل بالعقل الفعال، وأن علي الانسان إدراك الصور المعقولة جميعاً وأن العقول الإنسانية خالدة، وأن الناس لا يسمون إلى إدراك الحقيقة إلا في القليل النادر، وعلي الانسان تصريف وجوه الحيل في اكتساب المال، إلى غير ذلك من آرائه. ويوازن الغرناطي بينه وبين مالك بن وهيب الأشبيلي^(١) فيقول : « كانا متعاصرين غير أن مالكا لم يقيد عنه إلا قليل نزر من أول الصناعة الذهنية — المعقولات — ثم أضرب عن النظر ظاهراً في هذه العلوم وعن التكلم فيها لما لحقه

(١) يصفه المراكشي بالمشاركة في جميع العلوم، والتحقق بكثير من أجزاء الفلسفة.

من المطالبات في دمه لسببها «. وقد قلد ابن باجة فلاسفة الشرق كالفارابي وابن سينا، وإن كان لم يترك لنا فلسفة كاملة تضارع ما للفارابي أو لابن سينا أو للغزالي.

٢ - ابن طفيل : أبو بكر أو أبو جعفر محمد بن عبد الملك ابن طفيل، الحكيم الأندلسي الشهير، ولد في « وادي آش » وهي قرية صغيرة من أعمال غرناطة تحيط بها الأنهار والبساتين، ولجمال الطبيعة وسحرها فيها وصفت شعراً ونثراً في الأدب الأندلسي.

نشأ ابن طفيل في ظلال دولة الموحدين، وأكب على الدراسة والنظر في علوم الأدب والدين، ونبغ فيها، ثم عشق كتب الفلسفة ومباحثها، فتفرغ لدراستها والنظر فيها حتى أصبح من الواقفين على مذاهبها، المطلعين على أسرارها، المقتنين في جميع فروعها من الطبيعيات والإلهيات، واتخذ الطب مهنة، وقربته مهنته من أمير قرطبة زمناً، وسرعان ما اتصل بأبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي ملك الموحدين (٥٨٨-٥٨٠هـ)، وكان يوسف يشجع الفلاسفة، ويجمع كتب الفلسفة، ويدرس فروعها، واختار الملك ابن طفيل طبيبه ووزيره ونديمه، وفي مكتبة الملك الكبير طالع ابن طفيل من كتب الفلسفة الكثير، وكان يقرب الفلاسفة والمفكرين من الملك ويحضنه على إكرامهم، وهو الذي نوه عنده بابن رشد، ودعا ابن رشد إلى تلخيص كتب أرسطو ليوسف لما أنس فيه من جودة الذهن وصفاء القريحة، ولما سمعه من شكوى الملك من غموض تراجم مؤلفات أرسطو ورغبته في تلخيصها وتسهيل عباراتها وأغراضها وتقريب مآخذها، وكان ابن طفيل شيخاً وابن رشد في عهد الشباب..

وفي هذا الوسط كتب ابن طفيل رسالته «حي بن يقظان»، التي أحدثت في عالم الفكر ضجيجاً عظيماً، ففي البيئات العربية كانت مصدراً هاماً لنظرية التوحيد التي بدأها ابن باجة ونماها ابن طفيل،

وفي البيئات الأوربية قد فازت أيضاً بحظ عظيم من الاهتمام. فترجمها إلى العبرية موسى التاربوني في منتصف القرن الرابع عشر وترجمها إلى اللاتينية « بوك » الإنجليزي، ونشرها في « أوكسفورد » مع النص العربي في سنة ١٦٧١ ثم في سنة ١٧٠٠. ثم ترجمت هذه الترجمة اللاتينية إلى اللغة الإنجليزية مرتين، ثم ترجم النص العربي إلى الإنجليزية أيضاً ونشر في سنة ١٧١١. ولا ريب أن إحدى هذه الترجمات هي التي يسرت للكاتب الإنجليزي « دانييل دي فويه » التأثر بخيال ابن طفيل حتى جعله يحاكي رسالة « حي بن يقظان » فينشئ في سنة ١٧١٩ على غرارها روايته الفخمة « روبينسون كروزويوه » التي يشاهد فيها الباحث لوحة أمينة للرفق المنهجي والعواطف الأخلاقية الملموسة في رواية ابن طفيل، وترجم هذا الكتاب إلى اللغة الهولندية في سنة ١٦٧٢. وقد ترجمه إلى الألمانية (بريتيوس) في سنة ١٧٢٦، ثم ترجمه إلى نفس اللغة (إيشورن) في سنة ١٧٨٣.

وكان ابن طفيل في آخر حياته قد وجه عنايته إلى العلم الإلهي، نابذاً ما سواه من فروع الفلسفة، كما كان حريصاً على التوفيق بين الشريعة والفلسفة، معظماً للنبوات، ولم يترك مؤلفات في الفلسفة سوى « حي بن يقظان » وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة عام ١٢٩٩هـ، وكذلك له رسالة في الطبيعيات ورسالة في النفس، لم يصلنا عنهما شيء، ويروى عن ابن رشد أن له كتاباً في (البقع المسكونة وغير المسكونة)، ويذكر ابن رشد أن له آراء في الفلك، كما يذكر (البتروجي) تلميذ ابن طفيل أن أستاذه ذكر له أنه وفق لنظام فلكي لحركات الأفلاك غير النظام الذي اتبعه بطليموس؛ وابن طفيل من غير شكل أول من أخرج الفلسفة في ثوب قصصي جميل، وكان مع هذا شاعراً كاتباً، وفي (المغرب^(١)) و (وفيات الأعيان^(٢)) أن ابن باجة

(١) ص ١٥٦.

(٢) ٣٧٤ : ٢.

كان أستاذاً له ولكن ابن طفيل يقول في رسالته « حي بن يقظان » إنه لم يلقه، فضلاً عن أن يكون قد تتلمذ عليه.

والمرجع الوحيد لدراسة ابن طفيل هو رسالته « حي بن يقظان » أو « أسرار الحكمة المشرقية » التي يشرح فيها ابن طفيل كيف يهتدي الإنسان إلى الاتصال بالعالم العلوي ويعرف الله ويربط روحه به، ويصل إلى مرتبة الإدراك عن طريق الاتصال بالطبيعة والكائنات في إنسان ونبات وحيوان. وقد هدف ابن طفيل إلى أن تكون رداً على آراء ابن باجة في رسالة الاتصال، واسترشد برأي ابن سينا في الاتصال.

وفلسفة ابن طفيل إشراقية تحل معضلة كبيرة من مشكلات الحياة، هي علاقة النفس البشرية بواجب الوجود العظيم، ولكن لم يكتف برأي الغزالي الذي وقف في الاتصال إلى حد التصوف، بل أمعن في فلسفة ابن باجة والفلسفة القديمة ووضح كيف ينمو الفكر الإنساني وكيف يحل مشكلات الوجود.

هذا ولا تنسى أن نقول : إن ابن طفيل روي له كثير من القصائد، ومن شعره الفلسفي قوله :

يا باكيا فرقة الأحياب عن شحط هلا بكيت فراق الروح للبدن
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتلقا أظنها هدنة كانت على دخن
إن لم يكن في رضا الله اجتماعهما فيا لها صفقة تمت على غيب

٣ - ابن رشد :

هو ابن الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، ولد في قرطبة في سنة ٥٢٠ هـ - سنة ١١٢٦ م من أسرة ماجدة عالية الشأن، توارث أفرادها منذ زمن بعيد بعض المناصب الراقية في الدولة، فكان أبوه قاضياً في قرطبة، ورث القضاء عن جده، وقد مكثه ثراء والده من

أن يتلقى دراسة عالية في كثير من العلوم والفنون مثل الفقه وعلم الكلام والنحو والطب والموسيقى والفلك وبقية علوم الرياضة وما وراء الطبيعة، حتى صار أعلم أهل عصره قاطبة بكل هذه العلوم. وروي أنه لم يدع القراءة طول حياته إلا ليلتين : ليلة زواجه وليلة وفاة والده. وفي سنة ٦٥٤٨-١١٥٣م قدم ابن طفيل إلى الأمير أبي يعقوب بن عبد المؤمن الموحد، وقد روى لنا أحد تلاميذ ابن رشد قصة هذه التقدمة فقال على لسان أستاذه ما يأتي : حين مثل ابن رشد بين يدي أمير المؤمنين^(١) ألفاه مع ابن طفيل، فلما استقر بهم المجلس، أخذ هذا الأخير يثني عليه وعلى أسرته ثناء، يقول ابن رشد : إنه لا يستحقه. وعلى أثر ذلك وجه الأمير إليه هذا السؤال : هل للسماء مبدأ، أو هي أزلية..؟ فارتاح ابن رشد من هذا السؤال، وأحس بحروجة موقفه، وخشي أن تجلب الإجابة عليه سخط الأمير. فاستعمل أسلوب الحكيم وأخذ بتصيد المبررات للفرار من الجواب. فلما شعر الأمير بارتبائه التفت إلى ابن طفيل. وأخذ يتحدث عن هذه المشكلة، فذكر فيها آراء أفلاطون وأرسطو وبعض الفلاسفة الآخرين، وسرد الاعتراضات التي وجهها المتكلمون إلى هذه الآراء، وقد دل حديثه على عمق وسعة اطلاع وقوة ذاكرة أدهشت ابن رشد وملأته إعجاباً بهذا الأمير العالم، كما أعجب الأمير بابن رشد إعجاباً كبيراً^(٢).

وفي عام ٥٥٨، تولى يوسف بن عبد المؤمن الخلافة بعد والده، وقرب إليه ابن رشد؛ وفي عام ٥٦٥، ولاء قضاء إشبيلية، ثم ولاء

(١) لم يكن هذا الأمير في ذلك العهد أميراً للمؤمنين، لأنه لم يصعد على العرش إلا بعد وفاة والده سنة ٥٥٨هـ-١١٦٣م. وقد تسبب هذا التعمير « أمير المؤمنين » في خطأ كثير من العلماء الذين كتبوا عن ابن رشد.
(٢) كان من أساتذته أحمد بن رزق؛ ومن أساتذته في الطب عبد الملك بن زهر الأندلسي م ٥٩٠هـ، وأبو جعفر هارون، وفي الفلسفة ابن طفيل وابن باجة.

بعد ذلك قضاء قرطبة، ثم أضاف إليه غرناطة، واختاره قاضي القضاة؛ وبعد وفاة الملك عام ٥٨٠هـ، خلفه ابنه يعقوب بن يوسف على الملك، وكان شديد التعصب على الفلاسفة، ثم وشي بابن رشد عنده، واتهمه خصومه لديه، بأنه يشرك بالله ويستغل بالفلسفة وعلوم الأوائل، وينكر الدين؛ وقدموا إليه جملة في كتاب لابن رشد نصها: « فقد ظهر أن الزهرة، أحد الآلهة، يحكي بهذه الجملة مذهب قداماء الفلاسفة؛ وسيق ابن رشد إلى المحاكمة. فسأله الملك: هل هذه الأوراق بخطك، فأنكر ذلك، فلعن الملك كاتبها وأمر الناس بلعنه، ثم أخرج ابن رشد مهاناً، وحكم عليه بالنفي هو وتلاميذه، وصدر منشور يتوعد فيه الخليفة من يخوض في شيء من الفلسفة، وأمر بإحراق كتبها إلا الطب والحساب، وقليلاً من علم الفلك؛ وكان منفي ابن رشد وتلاميذه في أليسانة ».

وبهذا تعرضت الفلسفة والفلاسفة لمحنة جديدة؛ وبعد عام عفا الخليفة عنه وعن تلاميذه، والتي الحظر الذي أصدره على الفلاسفة وكتب الفلسفة، وأكرم ابن رشد ورضي عنه. وأخيراً توفي ابن رشد في آخر عام ٥٩٤هـ وقيل في صفر عام ٥٩٥هـ في المغرب، ونقلت رفاته إلى قرطبة بعد ثلاثة أشهر ودفن فيها.

وقد تتلمذ على ابن رشد كثيرون منهم ابن سابق وابن حوط الله وغيرهما.

وفلسفة ابن رشد في المغرب تماثل فلسفة ابن سينا في المشرق، وابن رشد يأخذ أرسطو محاولاً التوفيق بين الفلسفة والدين. وقد تتلمذ على آراء ابن رشد الكثيرون من شباب الغرب. بل إن فلسفته كان لها أثر كبير في النهضة الأوربية، وفي بعث اليقظة في بيئات الغرب، وقد كانت بعض مؤلفات أرسطو قد صارت منذ سنة ١٢٥٥ ضمن منهج كلية الفنون بجامعة باريس رغم الحروب الشعواء التي أعلنها

عليها الباباوات، ولكن هذه المؤلفات كانت تدرس في ذلك العهد دراسة محايدة، لا يشتغل القائلون بها بمحاولة التوفيق بين الدين والفلسفة.

ولما كان من الضروري أن يستعين الأساتذة المكلفون درس مؤلفات أرسطو بما كتبه الشراح عليها، فقد قام الأستاذ « سيجيه البراباني » بدراسة واسعة لشروح ابن رشد على كتب أرسطو استغرقت أكثر من أحد عشر عاماً منذ سنة ١٢٦٦ إلى سنة ١٢٧٧، فكانت هذه الدراسة مبدأ الحركة التي عرفت فيما بعد باسم « الرشدية اللاتينية » والتي كانت ترمي إلى كشف كل لبس يحوط آراء أرسطو في النقط الأساسية من مذهبه، وهي: أزلية العالم، ووجود علم الإله بالجزئيات، وإنكار انشغال العناية الإلهية بعالم ما بعد فلك القمر، ووجوب صدور المعلومات عن عللها دون أي استثناء، ووحدة العقل المقيض بالنسبة لجميع بني الإنسان، وزوال شخصية النفس بتفكك الجسم. ولكن رجال الدين اضطهدوه، ففي سنة ١٢٧٠ أدان أسقف باريس ثلاث عشرة فقرة من فقرات ابن رشد تتعلق بنظريات أزلية العالم والقضاء والقدر، وإنكار علم الإله بالجزئيات، ووحدة العقل المقيض. وفي سنة ١٢٧٧ أمر البابا جان الحادي والعشرون ذلك الأسقف بإجراء تحقيق كانت نتيجته إدانة مائتين وتسع عشرة فقرة. ومن الغريب أن القديس توماس كان قد أقر كثيراً من هذه الفقرات، فكانت إدانة سيجيه لها إدانة غير مباشرة للقديس توماس فتحت باب معركة حامية الوطيس بين أنصار توماس وخصومه.

وعلى أثر هذا الحكم طرد سيجيه من الجامعة، ثم دعي إلى المحاكمة فحكم عليه بالسجن المؤبد، ولكن سكرتيره قتله في سنة ١٢٧٢. وعلى الرغم من هذا الاضطهاد استمرت الحركة الرشدية في طريقها، وكان لها من النتائج ما ينتظر من مثيلاتها من الحركات العنيفة، تضعف حيناً فيقتل أنصارها، وتقوى حيناً آخر فيظهر لها أنصار جدد. ومن مظاهر

قوتها بعد حادث سيجيه أن قام جان الجندولي بتدريس هذه الآراء من جديد في تلك الجامعة، فأصدر البابا جان الثاني والعشرون قراراً بطرده من حظيرة الدين، رغم أنه قال في دفاعه عن نفسه : إنه يؤمن بما جاء به الدين، ولكنه لا يستطيع أن يدلل عليه، فهنيئاً للذين يستطيعون التدليل، أما أنا فليس في وسعي بإزائه إلا الإيمان بالقلب.

ثم كان الطب هو السبب الأول الذي اقتاد الفلسفة الرشدية إلى جامعة بادوا في النصف الأول من القرن الرابع عشر، وكان « بير الألباوي » أول من عمل على وضع ابن رشد في صف أرسطو، وقد أحتق عليه انتصاره لحكيم قرطبة السلطة الدينية، فأمرت بالقبض عليه لتعدمه كما كان مألوفاً في ذلك العصر، ولكنه توفي أثناء التحقيق وفاة طبيعية، فدفن الحنق أولئك المتعصبين إلى إحراق جثته. ومن الأساتذة الذين عملوا على تثبيت الفلسفة الرشدية في جامعة بادوا « جريجوار الربيني » و « جيروم فيراري » و « جان الجندولي » الذي كان أستاذاً في باريس وطرده البابا من حظيرة الدين في سنة ١٣٢٦. وكان قد كتب شروحاً طويلة لكتب أرسطو وابن رشد. ومنهم أيضاً « أوربانو البولوني » الذي كتب في سنة ١٣٣٥ شرحاً لشرح ابن رشد على كتاب الطبيعة لأرسطو، فأحدث بذلك سنة اعتبار ابن رشد من كبار الفلاسفة الجديرين بالشرح، وكان أول العاملين على حلولة في تلك الأوساط محل أرسطو. ومنهم أيضاً بول البندقي المتوفى في سنة ١٤٢٩، والذي كان من أكبر علماء عصره المتضلعين. وكان بول أوجوستانيا شديد التدين، ولكنه وافق على كثير من نظريات ابن رشد وتحمل مسؤولياتها أمام دينه، وكان يعلن أن ابن رشد هو أجل من فهموا فلسفة أرسطو، ثم قامت مدرسة في ذلك العهد لآحياء المعارف الإغريقية، وكان على رأسها « نقولا فافا » فأعلنت بلسان زعيمها أن ابن رشد أساء شرح كثير من نظريات حكيم استاجيرا، فاتفق أشياخ النظام الديني الذي كان « بول » و « فافا » ينتسبان إليه على أن تعقد مناظرة بين

هذين العالمين يؤيد فيها كل منهما رأيه بالحجة والبرهان، فعقدت هذه المناظرة وحضرها ثمانمائة من رجال الدين، فكان النصر فيها حليف « فافا » على « بول » وابن رشد، ولكن هذه الهزيمة التي أصابت « بول » لم تعد البيئات الدينية لأنها — فيما يظهر — كانت مدبرة. أما في البيئات الجامعية فقد بقي سلطانه العلمي عزيزاً سامياً لم يمسه أدنى ضعف. ومن زعماء هذه المدرسة أيضاً « جايتا نودي تيين » (١٣٨٧-١٤٦٥) وكان من أسرة عريقة في إيطاليا، وقد ساهم بموهبته ومعارفه ومجهوده وثروته في إعلاء المذهب الرشدي وتثبيت أهميته في جامعة بادوا.

ولقد كان حظ هذا العالم أسعد من حظوظ كثير من أسلافه، فسطع نجمه في أوروبا كلها، وطبعت مؤلفاته عدة طبعات، مع أن الباحثين المحدثين يرون أن مذهبه كان أقل وضوحاً من مذهب (بول البندقي)، بل إن من يتعمق في قراءة كتبه يظهر له أنه لا يتفق مع ابن رشد في كل نظرياته على الرغم من أنه يزعم هذا. ولكن لعل السبب في شهرته هو أنه قام بمجهود كبير في الدعاية لابن رشد من جهة، وفي التوفيق بين الشارح (ابن رشد) وبين الدين لا سيما فيما يتعلق بخلود النفس من جهة أخرى. ولقد نجح (جيتانو دي تيين) في التنويه بابن رشد حتى صار يفضلته الحكيم الأول الذي لا ينازع في (بادوا) و (بولوني) وأصبح أهم ما يشغل أساتذة الفلسفة في جامعتي هاتين المدينتين هو شرح الشرح الكبير لابن رشد. وفي عام ١٤٨٠ ألفت كاسانديرا فيديليه — وهي إحدى شهيرات عالمات مدينة البندقية — رسالة أيدت فيها تأييداً علمياً بعض النظريات الرشدية، فالت بها جائزة الفلسفة الكبرى. غير أن هذا التعلق الفائق بمذهب ابن رشد من المفكرين لم يمنع من أن يكون له خصوم يهاجمونه في عنف وقوة. ومن أشهرهم وأبرزهم بومبازي الذي ظل يناضله تارة بطريقة مباشرة وأخرى على

لسان أنصاره المتحمسين حتى توفي، فكانت وفاته بمثابة هدنة وضعت أوزار الحرب بين الرشدية والبوميناوية.

وعلى أثر ذلك خلا الجو للفلسفة الرشدية، فانفردت بالسلطان في جامعة بادوا، ولكن بعد أن أزال منها مهرة الأساتذة أكثر ما يصطدم مع التعاليم المسيحية، فعادت حركة الترجمة في كتب ابن رشد إلى النشاط من جديد، ولكنها لم تكن أقل رداءة من الترجمة القديمة، لأن أصلها العبري كان سيئاً.

غير أن هذه السيادة الرشدية المغالية كانت قد أحدثت من قبل رد فعل بين المجددين، فنهض أنصار الثقافة الهيلينية الذي كانوا يتعالون على معاصريهم بأنهم هم وحدهم العلماء الحقيقيون بالهيلينية الصحيحة، وأعلنوا احتقارهم لتلك الهيلينة الزائفة المشوهة الآتية عن طريق العرب، وذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك، فصرحوا بأن آراء ابن رشد غير قابلة للمعقولة وغير جذيرة بالعقل المثقف. وبالإيجاز كانت غايتهم أن يضعوا كل تراجمة القرون الوسيطة وشراحها في الدرك الأسفل من الإهانة والازدراء. وفي ٤ من إبريل سنة ١٤٩٧ صعد نيقولا توماس للمرة الأولى على المنصة ليدرس أرسطو باللغة الإغريقية. وعلى أثر ذلك احتدمت معركة حامية الوطيس بين الأرسطو طاليسية العربية من خلال ابن رشد، والأرسطو طاليسية الإغريقية من خلال مؤلفات أرسطو نفسه وتلاميذه وشراحه من الإغريق. وقد ساعد على تفاقم هذه المعركة اتجاه العقول في ذلك الحين إلى أفلاطون، إذ أن دراسة هذا الأخير في كتبه أبانت للمثقفين أن العرب كثيراً ما كانوا يخلطون بين آراء هذين الحكيمين مخدوعين بالتلفيق الإسكندري. وقد بدأت هذه النهضة الأفلاطونية في مدينة فلورانس التي هامت بآراء أفلاطون في كل نواحي حياتها هيماً جعل العلماء يطلقون عليها اسم المدينة الروحية.

وقد كان (بيك دي لا ميراندول) صورة أمينة لتلك المعارك

والمناضلات؛ ففي كتبه يعثر الباحث على الأفلاطونية والأرسطوطاليسية والرشدية وبقية النزعات المختلفة والمذاهب المتباينة المعروفة إذا ذلك، مفصلة تفصيلاً يختلف باختلاف قيمتها وحفظها في ذلك الحين. وأكثر من ذلك أنه كان يتباهى بأنه يستطيع أن ينصر أية فكرة كانت في جميع المشكلات التي يمكن الإنسانية أن تعرفها. وقد أضاف فولتير إلى هذه الجملة سخيرية من صاحبها قوله : بل ومشكلات عديدة أخرى. وقد صارت هذه الجملة الساخرة المضافة إلى جملة بيك دي لامير أندول مثلاً يضرب للسخرية من التباهي، ولكن هذه السخرية لم تكن عادلة من جانب ذلك الساخر، فقد كان بيك دي لا ميراندول دائرة معارف كاملة، وقد أحصى جميع المشكلات التي دارت أو يمكن أن تدور حولها المجادلات الإنسانية في تسعمائة مشكلة، وأعلن مقدرته على حلها بالحجج المنطقية. وقد انتهت هذه المناضلات بانتصار الهيلينية الصحيحة في جميع جامعات أوروبا ومدارسها وإنهزام الرشدية فيها ما عدا جامعة بادوا، فقد بقي ابن رشد فيها مستمتعاً بشيء من الاحترام وإن كانت سيادته الأولى قد انمحت. فمثلاً : « زارا بيلا » وهو استاذ الفلسفة في جامعة بادوا من سنة ١٥٦٤ إلى سنة ١٥٨٩ — كان يعتمد في فهم الفصول الغامضة من كتب أرسطو على شروح ابن رشد إلا فيما يتعلق بنظرية خلود النفس، فقد كان يتبع فيها بومبنازي. وقد كان ألبيرتي، وكريمونيني ينسجان على منوال زارا بيلا، فيدعوان إلى نظريات ابن رشد ما خلا نظرية خلود النفس. وفي سنة ١٦١٩ أمرت السلطات الدينية أساتذة جامعة بادوا بنقض كل ما يدرسونه فيها من ضلالات ارسطو، فما وصل هذا الأمر الى مسمع كريمونيني احتج عليه وأجاب بلهجة حادة ملؤها الكرامة والمعظمة قائلاً : إنه جاء إلى هذه الجامعة ليبسط آراء أرسطو ويشرحها. فإذا اتهم باللادينية استطاع أن يدافع عن نفسه، وهذا هو كل ما يمكنه فعله. ولهذا يعتبر كريمونيني آخر ممثلي الفلسفة الرشدية في جامعة بادوا. وكانت وفاته في سنة

١٦٣١ بمثابة وضع الحد الأخير لدراسة الفلسفة العربية في الغرب.

إجمال لحال الفلسفة الأندلسية قبل ابن رشد :

ونستعير هنا من ابن طقيل وصفا لحال الفلسفة الأندلسية قبل ابن رشد ذكره في قصته الخالدة «حي بن يقظان»^(١) قال : « من ينشأ بالأندلس من أهل القطرة اللاتقة قبل شيوع علم المنطق والفلسفة فيها قطعوا أعمارهم بعلوم التعاليم، وبلغوا فيها مبلغاً رفيعاً، ولم يقدروا فيها على أكثر من ذلك، ثم خلف من بعدهم خلف زادوا عليهم بشيء من علوم المنطق، فنظروا فيه ولم يفض بهم إلى حقيقة الكمال، فكان فيهم من قال :

برح بي أن علوم السورى اثنان ما إن فيهما من خريده
حقيقة يعجز تحصيلها وباطل تحصيله لن يفيده

ثم خلف من بعدهم خلف أخذق منهم نظراً، وأقرب إلى الحقيقة، ولم يكن فيهم أثقب ذهنياً، ولا أصح نظراً، ولا أصدق رؤية، من أبي بكر بن الصائغ، غير أنه شغلته الدنيا حتى احترمته العنية قبل ظهور خزائن علمه، وبث حقايا حكمته، وأكثر ما يوجد له من التأليف إنما هي غير كاملة ومخرومة من أواخرها، ككتابه في النفس، وتدير المتوحد، وما كتبه في المنطق وعلم الطبيعة، وأما كتبه الكاملة فهي كتب وجيزة ورسائل مختلفة، وقد صرح هو نفسه بذلك، فهذا حال ما وصل إلينا من علم هذا الرجل ونحن لم نلق شخصه؛ وأما من كان معاصراً له ممن لم يوصف بأنه في مثل علمه فلم يترك تأليفاً، وأما من جاء بعدهم من المعاصرين لنا فهم يعد في حد التزايد أو الوقوف على غير كمال، أو ممن لم يصل إلينا حدس أمره.

(١) ص ١١ حي بن يقظان.

هذا هو ما قاله ابن طفيل عن الفلسفة الأندلسية قبل ابن رشد، وطبعاً كان ابن طفيل أستاذاً لابن رشد، فلم يدرك حين تأليف رسالته «حي ابن يقظان» عصر نبوغه.. ولا ننسى أن نذكر من الفلاسفة الأقطاب في عصر ابن رشد أبو بكر بن زهر المتوفى عام ٥٩٠هـ.

الفلسفة الأندلسية بعد ابن رشد :

علمنا الكثير من حال الفلسفة الأندلسية في عصر الموحدين، وهو العصر الذي عاش فيه ابن رشد، أما حالها في عهد بني الأحمر ملوك غرناطة، فإننا نلاحظ أولاً أنه لم يكن لفلسفة ابن رشد ولا لمؤلفاته سوى أثر قليل في الأندلس بعد وفاته، وكذلك كان أثرها في العالم الإسلامي قليلاً جداً، وقد ضاعت أصول الكثير من مؤلفاته، ولم يكن لابن رشد تلاميذ ولا أتباع يواصلون فلسفته، وذلك بسبب مقاومة الفلسفة في الأندلس.

وليس من شك في أنه كان يوجد الكثيرون من أهل الفكر الحر، كل واحد في معزل عن الآخر، وكانوا يرون في العبث أن يكلف الإنسان نفسه الاشتغال بالفلسفة، إذ لم تكن الفلسفة قد استطاعت وحدها أن تؤثر في الثقافة العامة أو في الفكر الإسلامي أو في مجرى الحياة تأثيراً كبيراً؛ وقد قاوم بنو الأحمر علوم الفلسفة واضطهدوا أصحابها، فهاجر بعضهم إلى أوروبا وأقام بعضهم في الأندلس منقطعاً عن النظر فيها، وساعد على ضعف شأن الفلسفة الصراع الشديد بين الأسبانيين والأندلسيين، وكذلك نكبة ابن رشد وتشريد تلاميذه، هذا إلى اضطهاد ملوك غرناطة للفلسفة، فخدمت روحها، وانطقاً شعاعها؛ وعادت الحياة الفكرية في الأندلس إلى الانحطاط، وكثر الصوفيون الذين كان من بينهم قليل نحووا نحو الفلسفة، ولما وجه الامبراطور فريديريك الثاني حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي عدة مسائل فلسفية

للمسلمين في سبته ندب الملك عبد الواحد فيلسوفاً صوفياً هو ابن سبعين المتوفى عام ٦٦٨هـ للإجابة عنها، وقد فعل ذلك فأخذ يتلو في زهو آراء الفلاسفة القدماء والمحدثين.

ويصف ابن خلدون في مقدمته حال الفلسفة في هذا العهد فيقول بعد أن ذكر ابن الصائغ وابن رشد^(١) : « إن المغرب والأندلس لما ركبت ريح العمران بها، وتناقضت العلوم بتناقضه، اضمحل ذلك — يشير إلى العلوم العقلية والحكمة — منها إلا قليلاً من رسومه تجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة « من علماء السنة^(٢) »، ثم يقول : « وبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة، وخصوصاً في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر، وأنهم على ثبج من العلوم الفلسفية، كذلك بلغنا لهذا العصر أن هذه العلوم الفلسفية ببلاذ الإفرنجية من أرض « رومة » وما إليها من العدة الشمالية نافقة الأسواق، وأن رسومها هنالك متجددة، ومجالس تعليمها متعددة، ودواوينها جامعة، وطلبتها متكثرة^(٣) ».

ويقول كذلك ابن خلدون : « وقد عول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيغ لابن إسحاق من متجر تونس في أول المائة السابعة، ويزعمون أنه عول فيه على الرصد، وأن يهودياً كان بصقلية ماهراً في الهيئة والتعليم، وكان قد عُني بالرصد^(٤) » وهكذا نجد ابن خلدون

(١) ذكر ابن خلدون المجريطي إمام الأندلس في القرن الثالث في التعاليم والسحر وأنه لخص جميع تلك الكتب وهذبها في كتابه « غاية الحكيم » ولم يكتب في هذا العلم بعده، وكتب المجريطي كتاباً في الكيمياء سماه زينة الحكيم (٥٠٤، ٥١٢ المقدمة).

(٢) ص ٤٥٥ مقدمة ابن خلدون.

(٣) المرجع نفسه

(٤) ٤٦٣ — ٤٦٤ المرجع نفسه.

يؤكد اضطهاد الفلاسفة في الأندلس والمغرب بعد عصر ابن رشد^(١) اضطهاداً شديداً.

ومن فلاسفة هذا العهد موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد^(٢) المتوفى عام ٦٥٠هـ، ولسان الدين بن الخطيب المتوفى عام ٧٧٦هـ وقد درس الطب والفلسفة وعلوم الأدب والدين واللغة وبرع في الكثير فيها، وتولى الوزارة لأبي الحجاج يوسف ثم لابنه محمد بعده، ثم اتهم بالكفر والإلحاد فهرب إلى المغرب الأقصى وقبض عليه في مدينة فاس.

(١) وقد تحدث ابن خلدون عن ابن رشد. فذكر أنه لخص كتب أرسطو وشرحها، متبعاً لها، غير مخالف (٤٦٦ المقدمة).

(٢) ولد بقرطبة — ودرس الطب والفلسفة وعلوم الدين ثم هاجر إلى مصر لاضطهاد الموحدين له، وأقام بالفسطاط يعلم الفلسفة ويتاجر في الجواهر، حتى اتخذ صلاح الدين طبيباً خاصاً، وترك مؤلفات كثيرة في الطب والفلسفة وتوفي عام ٦٥٠هـ.

الثقافة والعلوم في الأندلس

تمهيد :

نشطت العلوم والثقافات والفنون في الأندلس نشاطاً كبيراً لا حد له، وزاد من ذلك : عناية ملوكهم وأمراءهم بالعلوم، وذكاء العلماء وشدة تحصيلهم وكثرة روايتهم وهجرتهم المستمرة إلى المشرق، وكثرة المدارس والجامعات والمكتبات، وإقبال العامة والخاصة على العلم على حد سواء.

ويدلك على مكانة العلم والعلماء ما جاء في نفع الطيب للمقري^(١) قال : أما حال أهل الأندلس في فنون العلوم، فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التمييز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالة على الناس، لأن هذا عندهم في نهاية القبح، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة، يشار إليه، ويحال عليه، وينبه قدره وذكره عند الناس، ويكرم في جوار وابتياح حاجة وما أشبه ذلك. وهم يقرعون جميع العلوم في المساجد؛ فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم

(١) ١٠٢ : ١ نفع الطيب.

يباعث في نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم، وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم؛ فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم ولا يتظاهر بها خوف العامة، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه؛ فإن زل في شبه رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقريباً لقلوب العامة، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجازي والله أعلم. وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللقه رونق ووجاهة، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم، وسمة الفقيه عندهم جليلة حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه : بالفقيه، وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي : فقيه، لأنها عندهم أرفع السمات.. وعلم الأصول عندهم متوسط الحال، والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة، حتى إنهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة، وهم كثير، والبحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، وكل عالم في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتميز ولا سالم من الأزدراء، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية، حتى لو ان شخصاً من العرب سمع كلام الشلوبيني أبي علي المشار إليه بعلم النحو في عصرنا الذي غربت تصانيفه وشرقت وهو يقرئ درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه، والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجري على قوانين النحو استقلوه

واستبردوه، ولكن ذلك مراعى عندهم في القراءات والمخاطبات في الرسائل. وعلم الأدب المنثور في حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستطرفات الحكايات أنبل علم عندهم، وبه يتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل.. والشعر عندهم له حظ عظيم وللشعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم حظ ووظائف والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويوقع لهم بالصلوات على أقدارهم إلا أن يختل الوقت ويغلب الجهل في حين ما، وإذا كان الشخص بالأندلس نحويًا أو شاعرًا فإنه يعظم في نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العجب، عادة قد جبلوا عليها.. ويقول باحث في تصوير عناية الأندلسيين بالعلوم والثقافات^(١).

وعنوا بجمع الكتب في كل علم وفن. فقد كان في أسبانيا ستون مكتبة عامة أشهرها مكتبة قرطبة. وكانت تحتوي على الكتب العقلية والنقلية التي ترجمها وألفها العرب في الزراعة والفلك والرياضة وفي الطب والكيمياء والموسيقى وفي أصول الدين كالتوحيد والفقه والحديث والتفسير، وفي فنون الأدب كالبلاغة والتاريخ والقصص والرحلات والخطب ودواوين الشعر المختلفة ومعاجم اللغة، كان كل ذلك مجموعاً منظماً في مكتبة الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦) التي كانت فهارسها أربعة وأربعين - كما سبق - وبلغت الكتب فيها مائتي ألف مجلد، قالوا إنه قلما يوجد كتاب في مكتبته إلا كان له نظر فيه وتعليق عليه، وكان يجمع في داره الحذاق في صناعة النسخ والضبط ويجود عليهم بالمال، ويبعث بالكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار يزودهم بالمال، وبعث في كتاب الأغاني إلى مؤلفه أبي الفرج بألف دينار من الذهب العين، فجاءه بنسخة منه قبل أن يخرج إلى العراق، وكذلك كان الخلفاء في إكرام العلماء والأخذ بناصرهم، فكان المنصور بن أبي عامر على

(١) بلاغة العرب في الأندلس ص ١١.

مثل هذه الحال يعمل على ترقية العلوم ونشرها، ويזור المدارس ويحضر الدروس ويختلط بالطلبة ويمدح المدرسين ويكافئ التلاميذ على جدهم، وكانوا إذا فتحوا بلداً أو مدينة يبدأون بإنشاء مسجد ومدرسة يقصدون بذلك أن نشر الدين والعلم معاً لازم لتهديب الأمم، وأن تربية النفوس بالدين كترية العقول بالعلوم والمعارف، وعندهم أخذ أهل أوربة المدارس الجامعة ونظام الكليات التي يجتمع فيها كثير من الطلبة على أساتذة يتعلمون في العلوم المختلفة، وكان في كل مدينة من مدن إسبانيا مدرسة كبيرة، وكان للطلب أربع مدارس أهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الملل.

وقد^(١) كانت علوم العرب بالأندلس هي الشعاع الذي أضاء لأهل أوروبا ما كان مظلماً من عقولهم، فإنهم لم يعرفوا حكمة اليونان إلا بعد أن قرأوها مترجمة في كتب العرب، وعن العرب أيضاً أخذوا نظام المدارس الجامعة، وقد كان في كل مدينة من مدن الأندلس مدرسة جامعية، وكان للطلب بتلك البلاد أربع مدارس أهلة بالطلاب من جميع الملل، في قرطبة وإشبيلية وطليلطة ومرسية. وكان في قرطبة وحدها ثمانون مدرسة لأنواع العلوم، وذلك في مدة الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠-٣٦٦هـ).

وورد في صحيفة مدرسة أدنبرج الكلية في بيان فضل عرب الأندلس على أوروبا الحديثة: إنا لمدينون للعرب كثيراً، ولو قال غيرنا خلاف ذلك. فإنهم الحلقة التي وصلت مدينة أوروبا قديماً بمدنيتها حديثاً، وبنجاحهم وسمو هممهم تحرك أهل أوروبا إلى إحراز المعارف، واستفادوا من نومهم العميق في الأعصار المظلمة، ونحن مدينون لهم أيضاً بترقية العلوم الطبيعية والفنون النافعة وكثير من المصنوعات والمخترعات التي نفعت أوروبا علماً ومدنية.

(١) الأدب العربي وتاريخه - ٣ - محمود مصطفى.

وقد بنى فيليب الثاني ملك اسبانيا في النصف الأخير من القرن السادس عشر الأسكوريال على قمة مرتفعة، بعيدة عن مدريد بأكثر من خمسين كيلومتراً، والأسكوريال يشمل الكنيسة والقصر والمقبرة الملكية والدير ومدرسة، وفي الأسكوريال مكتبة ضخمة، والقسم العربي فيها غني بالتراث الأندلسي القديم الذي لا يزال مخطوطاً حتى اليوم.

عناية الملوك بالعلم والعلماء :

كان للملوك في الأندلس عناية شديدة بالعلم والعلماء، فعبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ)، كان مثلاً في تكريم العلماء، ورعاية الثقافة، وهو الذي قدم زرياب إلى الأندلس في عهده، ويروى أن عبد الرحمن كتب إلى عماله على البلاد بأن يحسنوا إليه، ويوصلوه إلى قرطبة، فلما وصلها أنزله في قصر مشيد، وجعل له مائتي دينار في العام، ولكل واحد من بنيه الأربعة عشرين ديناراً، وأجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار واقطعه دوراً وضياعاً كثيرة. ولعبد الرحمن قصص تدل على كرم وسخاء في رعاية العلم والعلماء.

وفي عهد الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) أنشئت المدارس والمكتبات العامة، وكان دائب الحذب على العلماء والسؤال عنهم، ومجالستهم.

حكى الفقيه أبو القاسم بن مفرج قال : كنت أختلف إلى الفقيه أبي ابراهيم من كبار علماء المالكية في عهد الناصر لدين الله — رحمه الله تعالى — فيمن يختلف إليه للتفقه والرواية فأني لعنده في بعض الأيام في مجلسه بالمسجد المنسوب لأبي عثمان الذي كان يصلي به قرب داره. ومجلسه حافل بجماعة الطلبة وذلك بين الصلاتين — إذ دخل عليه خصي من أصحاب الرسائل جاء من عند الخليفة الحكم فوقف وسلم وقال له : يا فقيه أجب أمير المؤمنين أبقاء الله، فان

الأمر خرج فيك وها هو قاعد ينتظرك وقد أمرت بإعجالك فإله الله ! فقال سمعاً وطاعة لأمر المؤمنين ولا عجل، فارجع إليه وعرفه — وفقه الله — عني أنك وجدتي في بيت من بيوت الله تعالى معي طلاب العالم أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله ﷺ فهم يقيدونه عني، وليس يمكنني ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضا الله وطاعته؛ فذلك أوكد من مسيري إليه الساعة، فإذا انقضى أمر من اجتمع إلي من هؤلاء المحسنين في ذات الله، الساعين لمرضاته، مشيت إليه إن شاء الله تعالى — ثم أقبل على شأنه، ومضى الخصي بهنيم متضاجراً من توقفه، فلم يك إلا ريشما أدى جوابه، وانصرف سريعاً ساكن الطيش فقال : يا فقيه أنهيت قولك على نصه إلى أمير المؤمنين أبقاء الله فأصغى إليه، وهو يقول لك : جزاك الله خيراً عن الدين وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين وأمتهم بك ! وإذا أنت أوعيت فامض إليه راشداً إن شاء الله تعالى، وقد أمرت أن أبقى معك حتى ينقضي شغلك وتمضي معي. فقال : حسن جميل، ولكنني أضعف عن المشي إلى باب السدة ويصعب علي ركوب دابة لشيخوختي وضعف أعصابي، وباب الصناعة الذي يقرب إلي من أبواب القصر المكرم أحوط لي وأقرب وأرفق بي، فان رأى أمير المؤمنين أيده الله ان يأمر بفتحه لأدخل إليه منه، هون علي المشي، وودع جسمي. وأحب أن تعود وتنهي إليه ذلك عني حتى تعرف رأيه فيه، وكذلك تعود إلي، فاني أراك فتى شديداً، فكن على الخير معيناً. ومضى عنه الفتى ثم رجع بعد حين وقال يا فقيه : قد أجاب أمير المؤمنين إلى ما سألت وأمر بفتح باب الصناعة وانتظارك من قبله ومنه خرجت إليك وأمرت بملازمتك مذكراً بالنهوض عند فراغك. وقال: افعل راشداً وجلس الخصي جانباً حتى أكمل أبو ابراهيم مجلسه بأكمل وأفسح ما جرت به عادته غير منزعج ولا قلق، فلما انقضضنا عنه قام إلى داره فأصلح من شأنه، ثم مضى إلى الخليفة الحكم فوصل إليه من ذلك الباب وقضى حاجته

من لقاؤه ثم صرفه على ذلك الباب فأعيد إغلاقه على اثر خروجه. قال ابن مفرج : ولقد تعمدنا في تلك العشية إثر قيامنا عن الشيخ أبي ابراهيم المرور بهذا الباب المعهود إغلاقه بدير القصر الذي تجشم الخليفة له فوجدناه مفتوحاً كما وصف الخصي وقد حفه الخدم والأعوان منزعين ما بين كناس وفراش، متأهبين لانتظار أبي ابراهيم، فاشتد عجبنا لذلك وطال تحدثنا عنه.. فهكذا تكون العلماء مع الملوك، والملوك مع العلماء قدس الله تلك الأرواح^(١).

وقد كان اهتمام الحكيم (٣٥٠-٣٦٦هـ) بالعلم والعلماء لا مثيل له، وهو الذي استقبل أبا علي القالي في وفادته على الأندلس عام ٣٢٨ بدعوة من أبيه، وكتب إلى بعض العمال ان يتلقاه في وفد من وجوه رعيته ففعل وسار به في موكب جليل إلى قرطبة، وقد بعث الحكيم وهو ولي العهد كذلك إلى أبي الفرج الأصبهاني، في طلب نسخة من كتابه «الأغاني»، وبعث اليه بألف دينار، فجاءته منه نسخة قبل أن يظهر بالمشرق، وشفعها أبو الفرج بقصيدة يمدحه فيها، وبمؤلف في نسب الأمويين... وكان اهتمام الحكيم بالكتب والمكتبات كبيراً، وكان في قرطبة في عهده عشرات المكتبات العامة، وفي غرناطة سبعون مكتبة عامة.

أما ملوك الطوائف فقد جدوا في إعزاز العلم، وإكرام العلماء، متنافسين^(٢) في الفضل، قاصدين إلى إرضاء العامة، مقدرين ما للعلم من أثر في حفظ ممالكهم. ولقد كان منهم الفقهاء والأدباء والعلماء، في كل فن يؤلفون وكثيراً ما يدعون العلماء إلى التأليف برسمهم، كما فعل ذلك سابقاً في دولة بني مروان أبو علي القالي، فانه طرز كتابه

(١) ١٧٦/١ نفع الطيب.

(٢) ٣/٣٢ الأدب العربي - محمود مصطفى.

« الأمالي » باسم أمير المؤمنين الحكم المستنصر وقد تبلغ الدالة بالعالم والاعتزاز منه بشرف العلم، أن يأتي إجابة الأمير إلى جعل كتابه برسمه، فقد ذكروا أن أبا غالب اللغوي القرطبي المتوفى سنة ٤٣٦هـ لما ألف كتابه في اللغة، بعث إليه أبو الجيش مجاهد العامري ملك دانية بألفي دينار، ومركوباً وكساء، على أن يجعل الكتاب باسمه فيزيد فيه : « ألفته لينتفع به الناس، وأخلد فيه همتي، ثم أقبل في صدره اسم غيري، وأصرف الفخر له ! » فلما بلغ هذا مجاهداً استحسنته.

ولقد بلغ من حرص هؤلاء الأمراء على ظهور الكتب مؤلفة برسمهم أن عادى الأخ أخاه في سبيل ذلك، وقتل المؤلف الذي أثار أخاه بالذكر في مقدمة كتاب، فقد ذكروا في سبب قتل الفتح^(١) بن خاقان (٤٨٠-٥٢٩هـ) صاحب كتابي « قلائد العقائد » و « مطمح الأنفس » وقد وجد مقتولاً بفندق بمدينة مراکش - أن الذي أشار بقتله هو أمير المسلمين أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين، أخو أبي اسحق إبراهيم، الذي ألف له الفتح بن خاقان كتاب « قلائد العقائد »، وذكر في خطبة الكتاب، فحسده أخوه على هذه الميزة وأشار بقتله . وهذه عبارة المقدمة التي ورد فيها اسم أبي اسحق « ولم يزل شخص الأدب وهو متوار، وزنده غير وار. وجده عاثر، ومنهجه دائر. إلى أن أراد الله اعتلاء اسمه، وإحياء رسمه، وإنارة أفقه، وإعادة رونقه، فبعث من الأمير الأجل أبي اسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ملكاً علياً، وغدا للبه المجده حلياً، وهمى على الأمة وسمياً وولياً ».

ومن مؤلفي هؤلاء الملوك المظفر بن الأقطس صاحب بطليموس، كان كثير الأدب، جم المعرفة، محباً لأهل العلم، جماعاً للكتب، ذا عزانة عظيمة قال في حقه ابن بسام : كان المظفر المتوفى سنة ٤٦٠هـ، أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع، وله التصنيف الرائق، والتأليف

(١) ولد باشبيلية ونشأ بالأندلس، وكتب لابن تاشفين، وله : مطمح الأنفس وقلائد العقائد.

الفائق، المترجم بالتذكرة، والمشتهر أيضاً باسم الكتاب المظفر في خمسين مجلداً، يشتمل على فنون وعلوم ومغاز ومسير ومثل وخبر، وجميع ما يختص به علم الأدب، وذكر « المعجب » أنه كان ولوعاً بالاطلاع على جميع فروع الثقافة فجمعت له كتب ومؤلفات في شتى أنواع العلوم، وقد جمع ما ألفته له العلماء في كتاب سماه باسمه.

وقد اشتهر أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بحبه للعلم وجمع الكتب، وكان يناقش العلماء، حتى قال الفيلسوف ابن رشد، أشهر حكماء الأندلس على الإطلاق، والمعتبر في المغرب كابن سينا في المشرق : إنه هو الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطو.

أشهر العلماء في الأندلس :

١ - نبيغ في علوم اللغة كثيرون، من أشهرهم أبو بكر الزبيدي صاحب مختصر العين المتوفى عام ٣٧٩هـ، وهو محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي. قال ابن الفرضي : كان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة، أخذ العربية عن أبي علي القالي وأبي عبد الله الرياحي. وأدب ولد المستنصر بالله، وولي عهده هشام، وولي قضاء قرطبة، وصنف : مختصر العين، وأبنية سيويه، والواضح في العربية، وما يلحن فيه عوام الأندلس، وطبقات النحويين. توفي سنة ٣٧٩ وقيل ٣٩٩، والزبيدي بضم الزاي وفتح الباء نسبة إلى زيد وهي قبيلة باليمن كما في وفيات الأعيان، وقد ألف مختصر العين الزبيدي لهشام المؤيد مختصراً له من كتاب العين.

٢ - ابن سيده : وهو الحافظ أبو الحسن علي بن إسماعيل، كان إماماً في اللغة والعربية حافظاً لهما. وقد جمع في ذلك جموعاً منها « كتاب المحكم في اللغة » وهو كتاب جامع، رتب ترتيب كتاب العين،

ويمتاز بالضبط والدقة، وصحة الشواهد؛ وهو برمته في المتحف البريطاني، ومنه بدار الكتب أجزاء لا تتم نسخة، ومنها المخصص وهو معجم في سبعة عشر جزءاً مطبوع بمصر. ومنها « شرح مشكل المتنبي » وهو مخطوط بدار الكتب المصرية، وكان ابن سيده ضريباً وأبوه كذلك. وكان أبوه قبله قيماً باللغة، وعليه اشتغل ابنه في أول أمره، وتوفي سنة ٤٥٨هـ.

٣ - وأبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن خروف النحوي الأندلسي الإشبيلي، كان فاضلاً في علم العربية، وله فيها مصنقات، شهدت بفضل وسعة علمه. شرح كتاب سيويه شرحاً جيداً، وشرح كتاب الجمل للزجاجي. قالوا: كان في خلقه زعارة (شراسة) ولم يتزوج قط، وكان يسكن الحانات، واختل في آخر عمره، ومشى في الأسواق عريان بادي العورة. توفي بإشبيلية سنة ٦٠٩ أو ٦١٠ على ما ذكره ابن خلكان أو سنة ٦٠٣ كما يقول المزهري.

٤ - وعلي بن مؤمن بن محمد المكنى أبا الحسن بن عصفور النحوي الحضرمي الإشبيلي حامل لواء العربية في زمانه بالأندلس، أخذ عن الدباج والشلوبيني ولازمه مدة، ثم كانت بينهما منافرة ومقاطعة، وتصدر للاشتغال بالتدريس مدة في عدة بلاد، وجال في الأندلس وأقبل عليه الطلبة، وكان أصبر الناس على المطالعة لا يمل ذلك، ولم يكن عنده ما يؤخذ عنه، غير النحو ولا تأهل لغير ذلك، وكان رقيق الدين، جلس في مجلس شراب فلم يزل يترجم بالنارنج حتى مات سنة ٦٦٣ وقيل ٦٦٩هـ. وصنف كتباً كثيرة.

٥ - وعمر بن محمد أبو علي الإشبيلي المعروف بالشلوبيني، إمام عصره في العربية بلا مدافع، وآخر أئمة العربية بالمشرق والمغرب، وكان العارفون بقدره من تلاميذه وغيرهم يغالون فيه مغالاة شديدة، وكانت فيه مع ذلك غفلة وصورة به، حتى قالوا إنه كان يوماً على جانب النهر ويده كراريس فوقع منها كراسة في الماء وبعدت عنه

فلم تصل اليها يده فأخذ كرامة أخرى وجذبها بها فتلقت بالماء !!
وله في هذه الحال حكايات كثيرة. توفي باشبيلية سنة ٦٤٥هـ.

والشلوبيني والشلوبين بلغة الأندلس الأبيض الأشقر كما قال ابن
خلكان، وقال ياقوت في معجم البلدان : شلوبين أو شلوبينة أو شلوبينية
بالياء المخففة : حصن بالأندلس، من أعمال كورة ألبيرة على شاطئ
البحر، كثير الموز وقصب السكر والشاه بلوط، ومنه أبو علي الشلوبيني.
وقال صاحب القاموس المحيط شلوبين أو شلوبينية : بلد بالمغرب،
منه أبو علي الشالوبيني النحوي : وقال السيوطي في بغية الوعاة : أبو
علي الإشبيلي الأزدي المعروف بالشلوبين.

٦ — وعبدالله بن السيد البطليوسي، وكان عالماً بالأدب واللغات،
متبحراً فيهما، سكن مدينة بلنسية، وكان الناس يجتمعون إليه ويقرأون
عليه؛ وكان حسن التعليم جيد التفهم، وله كتاب : « الانتصاب في
شرح أدب الكتاب » وهو مطبوع، توفي سنة ٥٢١هـ.

٧ — ومحمد بن يوسف أثير الدين أبو حيان الأندلسي الغرناطي
النفزي (نسبة إلى نفزة — بالفتح — وهي قبيلة من البربر) وهو نحوي
عصره، ولغوي، ومفسره، ومحدثه، ومقرئه، ومؤرخه وأديبه، سمع
بالأندلس وإفريقية، ومصر والحجاز وغيرها، وتولى التدريس بمصر
بالمناصورية. وكان يقرئ بجامعة الأقمرة، وكان فصيح العبارة، وقد أخذ
العربية بمصر عن البهاء بن النحاس وأخذ عنه أكابر عصره، وتقدموا
في حياته : كالشيخ تقي الدين السبكي والجمال الأسنوي، وابن قاسم؛
وابن عقيل وغيرهم؛ وكان له إقبال شديد على أدكباء الطلبة، وكان
ثباتاً صدوقاً حجة، سألهم العقيدة من البدع الفلسفية، كثير الخشوع
والبكاء عند قراءة القرآن، وهو الذي جرأ الناس على مصنقات ابن
مالك، وشرح لهم غامضها وألف كثيراً، ومات بمصر سنة ٧٤٥هـ.

٨ — ومن الأندلسيين أصلاً كذلك ابن مالك جمال الدين محمد

ابن عبدالله بن مالك الامام العلامة الأوحى الطائى الجيانى الأندلسى،
المالكى حين كان بالمغرب، الشافعى حين انتقل الى المشرق، النحوى
نزىل دمشق.

ولد - رحمه الله - بجيان الأندلس سنة ٦٠٠هـ أو فى التى بعدها،
وسمع بدمشق من مكرم، وأبى صادق الحسن بن صباح وأبى الحسن
السخاوى وغيرهم، وأخذ العربية عن غير واحد، فمن أخذ عنه بجيان
أبو المظفر ثابت بن محمد بن يوسف بن الخيار الكلاعى من أهل
ليلة، وأخذ القراءات عن أبى العباس أحمد بن نوار، وقرأ كتاب سيويه
على أبى عبدالله بن مالك المرشائى، وجالس ابن يعىش وتلميذه ابن
عمرون وغيره بحلب، وتصدر بها لأقراء العربية، وصرف همهته إلى
إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية، وأرى على المتقدمين. وكان
إماماً فى القراءات وعالماً بها؛ وصنف فيها قصيدة دالية مرموزة فى
قدر الشاطبية.

وأما اللغة فكان إليه المنتهى فيها، قال الصفدى أخبرنى أبو الثناء
محمود قال ذكر ابن مالك يوماً ما انفرد به صاحب المحكم عن
الأزهري فى اللغة، قال الصفدى : وهذا أمر يعجز، لأنه يحتاج إلى
جميع معرفة ما فى الكتابين، وأخبرنى عنه : أنه كان إذا صلى فى
العادية - لأنه كان إمام المدرسة - يشيعه قاضى القضاة شمس الدين
ابن خلكان إلى بيته تعظيماً له. ومع هذا لم ندر لأى سبب أغفل
ابن خلكان ترجمته.

وقد روى عنه الألفية شهاب الدين محمود المذكور، ورواها الصفدى
خليل عن شهاب بن محمود قراءة، ورواها إجازة عن ناصر الدين
شافع بن عبد الظاهر، وعن شهاب الدين بن غانم بالإجازة عنهما
عنه. وأما النحو والتصريف فكان فىهما ابن مالك بحراً لا يجارى، وإماماً
لا يبارى. أما اطلاعه على أشعار العرب التى يستشهد بها على النحو

واللغة فكان أمراً عجبياً وكان الأئمة الأعلام يتحIRON في أمره. وأما الاطلاع على الحديث فكان فيه آية، وكان أكثر ما يستشهد بالقرآن، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث، وإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى أشعار العرب، هذ مع ما هو عليه من الدين المتين والعبارة وصدق اللهجة وكثرة النوافل وحسن السمات وكمال العقل، وأقام بدمشق مدة يصنف ويشغل بالجامع وبالترية العادلة وتخرج عليه جماعة، وكان نظم الشعر عليه سهلاً رجزه وطويله وبسيطه.

ومن تصانيف ابن مالك «الموصل في نظم المفصل» وقد حل هذا النظم فسماه : سبك المنظوم، وفك المختوم، ومن قال : إن اسمه فك المنظوم، وسبك المختوم، فقد خالف النقل والعقل، ومن كتب ابن مالك «الكافية الشافية» ثلاثة آلاف بيت وشرحها، و«الخلاصة» وهي مختصر الشافية، و«إكمال الأعلام بمثلث الكلام» وهو مجلد كبير كثير الفوائد يدل على اطلاع عظيم و«لامية الأفعال وشرحها» و«فعل وأفعال» و«المقدمة الأسدية» وضعها باسم ولده الأسد و«عدة اللافظ وعمدة الحافظ» و«النظم الأوجز فيما يهمز» و«الاعتضاد في الظاء والضاد» مجلد و«إعراب مشكل البخاري» و«تحفة المودود في المقصور والممدود» وغير ذلك كشرح التسهيل.

وروى عنه ولده بدر الدين محمد، وشمس الدين بن جعوان، وشمس الدين ابن أبي الفتح، وابن العطار، وزين الدين أبو بكر المزني، والشيخ أبو الحسن اليوتيني (شيخ المؤرخ الذهبي)، وشهاب الدين بن غانم، وناصر الدين بن شافع، وخلق سواهم. ومن رسوخ قدمه في علم النحو أنه كان يقول عن ابن الحاجب : إنه أخذ نحوه من صاحب المفصل، وصاحب المفصل نحوي صغير، وناهيك بمن يقول هذا في حق الزمخشري. وكان الشيخ ركن الدين بن القوبع يقول : إن ابن مالك

ما خلى للنحو حرمة. وقدم رحمه الله القاهرة ثم رحل إلى دمشق
وبها مات ثاني عشر شعبان سنة ٦٧٢هـ.

وكان ذا عقل راجح حسن الأخلاق مهذباً ذا رزانة وحياء ووقار
وانتصاب للإفادة، وصبر على المطالعة الكثيرة، تخرج به أئمة ذلك
الزمان كابن المنجي وغيره، وسارت بتصانيفه الركبان، وخضع لها العلماء
والأعيان، وكان حريصاً على العلم حتى إنه حفظ يوم موته ثمانية شواهد.

وذكر الصفدي عن الذهبي، أن ابن مالك صنّف الألفية لولده تقي
الدين محمد الملقب بالأسد، واعترضه العلامة العجيسي بأن الذي صنّف
له عن تحقيق المقدمة الأسدية، قال: وأما هذه يعني الألفية فذكر
لي من أئق يقوله، أنه صنّفها برسم القاضي شرف الدين هبة الله بن
نجم الدين عبد الرحيم بن شمس بن إبراهيم بن عفيف الدين بن
هبة بن مسلم بن حسان الجهني الحموي الشافعي الشهير بابن البارزي.

وقال بعض المغاربة يمدح ابن مالك وألفيته:

لقد مزقت قلبي سهام جفونها كما مزق اللخمي مذهب مالك
وصال على الأوصال بالقد قدها فأضحت كأبيات بتقطيع مالك
وقلدت إذ ذاك الهوى لمرادها كتقليد أعلام النجاة ابن مالك
وملكتها رقي لرقه لفظها وإن كنت لا أرضاه ملكاً لمالك
وناديتها يا منيتي بذل مهجتي ومالي قليل في بديع جمالك

٩ — ومن المؤلفين في التفسير أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد
القرطبي (٢٣١-٢٧٦هـ)، وله تفسير ضخيم، قيل إنه لم يؤلف مثله
في الإسلام، وفضل على تفسير ابن جرير الطبري، وكان من أكبر
أئمة الحديث في الأندلس، روى عن ألف وثلاثمائة راو.

١٠ — ومن الأئمة رجال الدين في الأندلس يحيى بن يحيى بن
كثير الليثي، وكانوا يدعونه عاقل الأندلس وراويها ومحدثها، ارتحل

إلى المشرق، وسمع من الإمام مالك الموطأ ورواه عنه. حتى كان المشاركة يرجعون إلى روايته ويقدمونه على غيره مع كثرة رواة كتاب الموطأ. وهو من الذين عملوا على نشر مذهب مالك في الأندلس هو وأستاذه زياد بن عبد الرحمن اللخمي، وكان أميناً في دينه معظماً لدى الأمراء لترفعه عن القضاء. توفي بقرطبة سنة ٢٣٤هـ.

١١ — ومن فقهاء الأندلس المعروفين كذلك عبد الملك بن حبيب السلمي القرطبي ولد سنة ١٧٤ وتوفي سنة ٢٣٨هـ. وكان فقيه عصره، سكن قرطبة وزار مصر ثم عاد إلى الأندلس وتوفي بها. وكان من كبار فقهاء مذهب مالك، عالماً بالتاريخ والأدب. ألف كتاباً كثيرة منها «طبقات الفقهاء»، و«طبقات المحدثين»، وتفسير موطأ مالك، والواضحة، وغيرها.

١٢ — ومن علماء التفسير والحديث المعروفين في الأندلس : القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي ولد سنة ٤٨١ هـ وتوفي سنة ٥٤٢هـ، ومن أشهر كتبه «الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» وهو من أعظم كتب التفسير وأجلها.

١٣ — ومن العلماء الفقيه الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣هـ وله : التمهيد والاستيعاب.

١٤ — ومن أشهر علماء الشريعة : القاضي عياض، كان إمام الحديث في وقته ولد بمدينة سبتة سنة ٤٧٦هـ وولي القضاء بها، وتوفي بمراكش سنة ٥٤٤، ومن كتبه الشهيرة : «كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى» و«طبقات الحاكمين» و«مشارك الأنوار في غريب الحديث» وغيرها.

١٥ — ومن أئمة الدين المعروفين أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، سبق ذكره في الفلاسفة، وأصل جده الأعلى من بلاد

فارس وقد دخل أحد أجداده الأندلس. ولد أبو محمد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ. ولما شب اشتغل بتعلم العلوم الدينية : كالحديث والفقه، حتى صار من كبار العلماء في ذلك. وألف في علم الحديث والفقه والأصول ومراتب العلوم، وكتب مباحث في أصول الأديان وما كان من التبديل والتغيير في بعضها. وألف رسائل في الطب والأدب، فكان عالماً وأديباً وفقهياً وشاعراً متفنناً في العلوم جميعها، عاملاً بعلمه حتى قالوا : إنه كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعة في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار. وكانت بينه وبين علماء زمانه مناظرات ومجادلات حملت أعداءه على التشنيع به، حتى نفرت منه القلوب، وأجمع فقهاء زمانه على تضليله، فأقصته الحكام عن بلاده حتى توفي سنة ٤٥٦هـ. ومن أشهر كتبه : كتاب « الفصل في الملل والنحل » تكلم فيه على مذاهب الفلاسفة ومعتقداتهم، وفصل الكلام على الفرق الإسلامية. وهذا الكتاب من أفضل ما كتب في هذه الموضوعات.

١٦ — والشاطبي صاحب الشاطبية في القرآن، وقد توفي عام ٥٩٠هـ.

١٧ — وأبو العباس المرسي، وكان مفسراً جليلاً، أخذ عنه ابن عطاء الله الإسكندري، وقد توفي بالاسكندرية عام ٦٨٦.

١٨ — ومن أشهر مؤلفيهم في التاريخ ابن حيان، المتوفى عام ٤٧٦هـ. صاحب « المبين » في ستين مجلداً^(١) والمظفر بن الأفيطس صاحب بطليوس، وله كتاب « المظفري » في خمسين مجلداً، وتوفي عام ٤٦٠هـ. ومن كتبهم في الطبقات كتاب « طبقات الأمم » للقاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٢، وذكر فيه تاريخ العلوم عند جميع الأمم، وعد علماء كل أمة، ولابن بسام الشتعمري

(١) وله : « المقتبس في تاريخ الأندلس » في عشرة مجلدات وهو مفقود.

المتوفى سنة ٥٤٢هـ، كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » وهو تاريخ الأندلس وآدابها في القرن الخامس الهجري^(١)، ومنه جزءان مخطوطان في دار الكتب المصرية، والثالث في برلين، وقد طبع الكتاب في مصر.

ولابن بشكوال أبي القاسم خلف الخزرجي الأنصاري القرطبي المتوفى سنة ٥٧٨هـ : كتاب « الصلة » جعله ذيلًا لتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي المتوفى سنة ٤٠٣هـ، الواقع في عدة مجلدات، وقد طبع كتاب « الصلة » في مدريد في مجلدين، وبه ١٤٤٠ ترجمة، وقد ذيله ابن الأبار المتوفى سنة ٦٥٨هـ، في كتاب سماه « تكملة الصلة » وقد طبع في مدريد في مجلدين فيهما ٢١٥٢ ترجمة لأعيان الأندلس وعلمائها، وشعرائها. وللفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٢٩هـ كتابان: « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس » في أخبار الوزراء، والكتاب، والعلماء والشعراء. ولقد بلغ من عنايتهم بالتاريخ، أن أرخوا المدينة الواحدة في كتاب، كما فعل لسان الذي بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦هـ، في كتاب « الإحاطة في أخبار غرناطة ». ومن المؤرخين : علي ابن موسى بن سعيد المغربي الشاعر الرحالة الفرناطي، رحل إلى مصر والشام وبلاد العراق والحجاز، ودون مشاهداته في مؤلفات بقي منها : « المغرب في حلى المغرب » في خمسة عشر مجلدًا، توارث تأليفه ستة من آباء المؤلف وأعمامه، في ١١٠ سنة، وكتاب « المشرق في حلى المشرق » في ستين جزءًا، وهذا مفقود، وتوفي ابن سعيد في

(١) وقد قسم المؤلف الكتاب إلى أربعة أقسام : الأول في أدباء أهل قرطبة وما يضاف إليها من بلاد أرواسط الجزيرة، والثاني في أدباء الجانب الغربي من الأندلس من إشبيلية إلى ساحل البحر المحيط، والثالث في أدباء الجانب الشرقي، والرابع فيمن طرأ على الأندلس من الأدباء، وذكر المستشرق (جيمس هورث دن) أن الكتاب منه نسخة خطية كاملة في مكتبة باريس.

دمشق سنة ٦٧٣. ولاين بطوطة المتوفى عام ٧٧٨هـ كتابه : تحفة الأنظار في غرائب الأمصار. وكتاب لسان الدين بن الخطيب صاحب «الإحاطة في أخبار غرناطة» في مجلدين وهو مرتب على حروف المعجم، ابتدأ المؤلف بمقدمة عن ولاية غرناطة وعادات أهلها وشرح كثير من أحوالهم على أيامه، وعبارته مسجوعة، وتراجمه طويلة، وآخرها ترجمة المؤلف لنفسه، وهو خاص بمشهوري غرناطة، عاصمة ملك بني الأحمر.

ومن عنايتهم بالتاريخ، أن نظموه شعراً، كما فعل أحمد بن عبد ربه، المتوفى سنة ٣٢٨هـ صاحب المعقد الفريد، فإنه نظم حروف عبد الرحمن الناصر ونظم كذلك تاريخ المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥هـ). وسبقه إلى نظم التاريخ يحيى بن حك الجياني المتوفى سنة ٢٥٠هـ، فقد ذكروا أن له تاريخاً منظوماً.

١٩ — ومن الرحالة الأندلسيين المؤرخين : ابن جبير الأندلسي محمد ابن أحمد بن جبير الكناني (٥٤٠ — ٦١٤هـ). وكان ميلاده ببلنسية أو بشاطبة، وتوفي في الاسكندرية. وكان مقيماً بغرناطة، وهو أديب شاعر مجيد، وقد قام بعدة رحلات إلى المشرق :

الأولى : قام بها من غرناطة عام ٥٧٨هـ، وعاد إلى غرناطة في محرم سنة ٥٨١هـ، وقد زار فيها مصر والحجاز والشام وبغداد.

والثانية : قام بها من غرناطة عام ٥٨٥، وعاد إليها عام ٥٨٧هـ.

والثالثة : قام بها من سبتة ودخل فيها مكة، ثم عاد إلى بيت المقدس، ورحل إلى مصر، فأقام بالاسكندرية حتى توفي.

ويحدثنا ابن جبير (٥٤٠ — ٦١٤هـ) في رحلته الكثير من المعلومات عن صقلية، وانتشار المسلمين فيها، ويصف ملك الجزيرة المسيحي وحسن سيرته واستخدامه للمسلمين وأنه كثير الثقة بالمسلمين يسكن

إليهم في أحواله، ويذكر تشبه الملك بملوك المسلمين، ويقول ابن جبير: ومن عجيب شأن هذا الملك أنه يقرأ ويكتب بالعربية^(١).

ثم يتكلم على الجزائر المجاورة لصقلية واضطهاد المسلمين بها والجهاد إلي التنصر وتمذيبهم، وما تبع ذلك من أحوال تسوء كل مسلم^(٢).

ويذكر كذلك استرقاق المسلمين رجالاً ونساء في سردانيا^(٣).

هذا كله بعد أن كانت كريت في القرن الرابع: جميع سكانها مسلمون، وكان أميرها يسمى عبد العزيز بن شعيب من ولد أبي حفص البلوطي الأندلسي وذلك عام ٣٤٥هـ، وقد غزا المسلمون كذلك جزيرة صقلية زمان بني الأغلب عام ٢١٢هـ، ثم قرعوا أبواب روما وضربوا الجزيرة على الباطل^(٤).

٢٠ — ومن مؤرخي الأندلس المقرئ صاحب نفع الطيب شهاب الدين أحمد بن محمد أبو العباس المقرئ التلمساني (٩٨٨—١٤٠١هـ): من أفضاذا الأدياء والمفكرين العرب في القرن الحادي عشر الهجري، وقد نشأ في مدينة « مقرة » في إقليم الزاب بالمغرب الأوسط، ورحل إلى جهات كثيرة في المغرب، وإلى البلاد الإسلامية: مصر والحجاز والشام، ومات في القاهرة، حيث دفن في مقبرة المجاورين، بعد أن ترك وراءه آثاراً أدبية خالدة، ومؤلفات ممتازة مشهورة، وذكرها مدوياً في كل مكان.

وترجع أهمية تأليف المقرئ إلى أنها دوائر معارف عامة عن الأدب

(١) ٣٠٨ و ٣٠٩ رحلة ابن جبير.

(٢) ٣٠٩—٣٢٤ رحلة ابن جبير.

(٣) ص ٤ المرجع نفسه.

(٤) ٢٤ حضارة العرب في الأندلس للبرقوقي.

العربي في الأندلس والمغرب، وموسوعة تاريخية كبرى عن الحياة السياسية والفكرية والأدبية في هذه البلاد؛ وقد طارت شهرة كتابه « نفع الطيب » في العالم كله، وعُد مرجعاً أصيلاً في الآداب العربية في الأندلس خلال حكم العرب لها، وقد استقى المقرئ مواد هذا الكتاب من مئات المراجع التي ضاعت بعد عصره، وبقي ذكرها وآثار منها في نفع الطيب.

وظل تاريخ المقرئ مجهولاً أو شبه مجهول، حتى تصدى للكتابة عنه أديب تونسي معاصر، هو الباحث « الحبيب الجنحاني » الذي تحدث في مفتح كتاب ألقه عن المقرئ بعنوان « المقرئ صاحب نفع الطيب » عن الحياة الفكرية في العالم الإسلامي في عصر المقرئ، وتكلم عن حياة المقرئ وآثاره ومؤلفاته ومكانته العلمية والأدبية في عصره في شيء من الإفاضة والتحليل والبحث والنقد.

وفي آخر هذا الكتاب القيم يتكلم المؤلف عن المقرئ المؤرخ والشاعر والكاتب، ويأتي بنماذج مختارة من أدبه. ثم يحصي شتى المصادر التي رجع إليها في كتابة بحثه.

٢١ — ومن علماء الأدب في الأندلس :

الأعلم الشنتمري المتوفى عام ٤٧٦هـ، وله كتب عديدة منها : شرح كتاب سيبويه، وشرح ديوان زهير، وشرح الشعراء الستة الجاهليين. ومنهم : أبو علي القالي صاحب الأمالي (٢٨٨—٣٥٦هـ).

وقد ولد ونشأ في ديار بكر سنة ٢٨٨هـ. ثم رحل إلى العراق وتلقى العلم في بغداد. ورحل إلى الأندلس سنة ٣٢٨هـ فحفل به عبد الرحمن الناصر وجعله مؤدب ابنه الحكم ومعلمه. واشتهر أمر القالي في الأندلس حتى أخذ عنه كثير من أدهاء زمانه. واشتغل بالتدريس في مسجد قرطبة وهناك أملى على تلاميذه كتاب الأمالي المشهور.

والقالي اسمه إسماعيل، ولقبه أبو علي، واسم أبيه القاسم، وكان من موالى عبد الملك بن مروان. وأكثر أبو علي من حفظ اللغة والشعر، وعنى عناية شديدة بدرس نحو البصريين، وتلمذ لابن دريد، ونفطويه، وابن درستويه، وغيرهم. وقد أقام ببغداد خمساً وعشرين سنة، ثم أقام بالموصل زمناً، ثم وفد على الأندلس في زمن الناصر، وكان ابنه الحكم يتصرف حينئذ من أمر أبيه كالوزير، فأمر عاملهم ابن رماحس؛ أن يجيء، مع أبي علي إلى قرطبة في وفد من وجوه رعيته، ينتخبهم من بياض أهل الكورة، تكريماً لأبي علي، ففعل، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل، فكانوا يتذكرون الأدب في طريقهم، ويتناشدون الأشعار، إلى أن تجاوزوا يوماً، وهم سائرون أدب عبد الملك بن مروان، ومسألته جلساءه عن أفضل المناديل، وإنشاده البيت :

ثمت قمنا إلى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبا علي، فأنشد الكلمة في البيت :
« أعرافها لأيدينا مناديل ». فأنكرها ابن رفاعة الأبييري. وكان من أهل الأدب والمعرفة، وفي خلقه حرج وزعارة، فاستعاد أبا علي البيت مستثباتاً مرتين، وفي كليهما أنشده « أعرافها »، فلوى ابن رفاعة عنانه منصرفاً، وقال : « مع هذا يوفد على أمير المؤمنين وتجشم الرجل لتعظيمه، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس، لا يغلط الصبيان فيه، والله لا تبعته خطوة »، وانصرف عن الجماعة، وندبه أمير رماحس ألا يفعل، فلم يجد فيه حيلة، وكتب إلى الحكم يعرفه، ويصف له ما جرى لابن رفاعة ويشكوه، فأجابه علي ظهر كتابه : « الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطئ واقد أهل العراق إلينا، وابن رفاعة أولى بالرضا عنه.

ومن علماء الأدب كذلك ابن عبد ربه (٢٤٦-٣٢٨هـ).

وكتابه « العقد الفريد » يحسب من أمتع كتب الأدب وأجلها فائدة

وأوسعها مادة. جرى مؤلفه في تصنيفه على أسلوب لم يسبق إليه، فقسمه إلى عقود وجواهر، تكلم في كل باب منها على موضوع خاص. فجاء وافية في الأدب العربي وتاريخ العرب وأحوالهم، جامعاً لكثير من القصص والأخبار وأيام العرب وعلوم اللغة، وكثير من المسائل الأدبية محتوية على جملة من الحكايات والنوادر والملح، مما يحتاج إليه الأديب من شعر ونثر. وأكثر الكتاب مختار من كلام الكتاب والمؤلفين من أهل المشرق، فهو كتاب جليل الفائدة لمن يريد الوقوف على أدب العرب.

ومن علماء الأدب في الأندلس كذلك :

جمال الدين أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي المعروف بابن الأشركوني المتوفى سنة ٥٣٨هـ، وله خمسون مقامة أنشأها بقرطبة على منوال مقامات الحريري والترم فيها ما لا يلزم، ولذا تعرف بالمقامات اللزومية، وحدث فيها المنذر بن حمام عن السائب بن تمام، وأبو الحسن علي بن موسى الأندلسي المتوفى عام ٦٧٣هـ، وله كتاب «ريحانة الأدب» جمع فيه بين عيون الأخبار ومستحسنات الأشعار.

ومن علماء الأدب كذلك : الشريشي، ومدينة « شريش » المنسوب إليها أدينا الشريشي شارح مقامات الحريري هي إحدى القرى الجميلة القديمة في الأندلس، ويصف ابن ليال الشاعر متنزهاً فيها يسمى « إجانة » فيقول :

أيا حبذا إجانة كيفما اغتدت	زمان ربيع أو زمان عصير
مذانب ماء كاللجين على حصي	كدر بلا ثقب أغر تثير
ورمل إذا ما ابتل بالماء عطفه	غنيننا به عن عنبر وذرور
وتين كما قامت على حلماها	نهود عذارى الزنج فوق صدور
كأن القباب الخز فيها عرائس	على سرر مفروشة بحرير

ويذكر الشريشي في هذا الكتاب عرضاً أسماء بعض شيوخه، منهم :
ابن جبير^(١) الرحالة الأندلسي المشهور الذائع الصيت... وهذه قصة
أدبية يشير فيها إلى أستاذه أبي عبدالله بن زرقون، وفيها شيء من
تاريخ صباه وبدايته الحاضرة، قال الشريشي^(٢) : حدثني الفقيه أبو
عبدالله بن زرقون في بستانه بطريانة أيام قراءتي عليه النوادر والكامل،
وكان رحمه الله مذاكراً بالطريقة الأدبية مع تميزه بالطريقة الفقهية،
فدارت بيني وبينه في إحدى العشيات، أنواع من المذاكرات، في فنون
أدبيات، فاهتز رحمه الله وهش وأظهر السرور بي وأنا يومئذ غلام
ما يقل عذاري، فقال لقد علمت أن بيني وبينك أخوة، قلت : وكيف
ذاك يا سيدي ؟ فقال إني ولدت ببلدك شريش فزدت بالحديث
غبطة واستزدت منه فقال لي ومع ذلك فتم قصة مستظرفة : اعلم أنني
كنت اجتزت بشريش قافلاً من العدو مع الفقيه أبي بكر عبدالله بن
العربي رحمه الله، فلما صرنا في بطاحها وبين كرماتها وجنانها، أخذ
الفقيه أبي بكر يثني عليها بكل لسان، على كثرة ما رأى من البلدان،
ويقول : إن الأشياء التي جمعت فيها لا تكاد تجتمع في بلدة من
كثر الزرع والضرع والزيت والعصير والملح وغير ذلك، فقلت له :
أعلمت أنني ولدت بها فقال لي أبو بكر : أتقول أنت الآن مسقط
الرأس شريش ؟ فقلت له مجيزاً : وبها كنت أعيش، فقال أبو بكر :
وردها من سلسيل، فقلت : وصحاريها عريش. ثم سرنا في طريقنا
على قوافي السروجية، فردناها شريشية، وقدمنا بها الطريق ونحن لا
نشعر فكانت أسر عشية مجالسة مثل هذا الفاضل وسنه وقد نيف على
الثمانين بستتين، يحدثني عن ابن العربي وابن عبدون الكاتب ونظرائهم
في رياض كلها نزهة على نهر أشبيلية وهي أمامتنا على بهجتها وجمالها؛

(١) راجع ١٢٦ ج ٣ من هذا الكتاب ومواضع أخرى — نشر خفاجي.
(٢) شرح المقامات ج ٢.

مادحاً لي ولبلدي ليدخل علي بذلك مسرة، نسأل الله تعالى أن يبلغه غاية السرور في دار البقاء.

« وشرح المقامات للشريشي » مجموعة علم وأدب، ودائرة معارف ثقافية واسعة، ومصدر من مصادر الأدب العربي القديمة، وهو بحق ثروة علمية ثمينة، وهو جدير بعناية الأدباء والعلماء به واهتمامهم بدراسته والاطلاع عليه، فوق أنه عظيم الأهمية في دراسة الأدب العربي القديم في الأندلس وبلاد المغرب؛ لما تضمنته من طرائف وفصول قيمة وإشارات لطيفة، عن الأدب الأندلسي وأعلامه.

ويقول السيوطي عنه في بغية الوعاة (ص ١٤٣) : أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى بن عبد المؤمن القيسي الشريشي، أبو العباس النحوي، شارح المقامات. قال ابن عبد الملك : كان مبرزاً في المعرفة بالنحو ، حافظاً للغات، ذاكراً للأدب، كاتباً بليغاً فاضلاً ثقة، عني بالرحلة في طلب العلم، وروى عن أبي الحسن ومصعب ابن أبي ركب وابن خروف، وخلق، وعنه: ابن الأبار وابن فرتون وأبو الحسن الرعيثي، وتصدر لإقراء اللغة والأدب والعربية والعروض... وله ثلاثة شروح في المقامات، وشرح الإيضاح، وشرح عروض الشعر، وعلل القوافي، وشرح الجمل، ومختصر نوادر القالي، وغير ذلك، مات بشرش في ذي الحجة سنة ٦١٩هـ.

وترجم له المقرئ في الجزء الأول في كتاب نفع الطيب ص ٣٧٦ فقال : الكمال أبو العباس أحمد الشريشي، وهو أحمد بن عبد المؤمن ابن موسى بن عيسى بن عبد المؤمن القيسي من أهل شريش. روى عن أبي الحسن بن ليال، وأبي بكر بن أزهر، وأبي عبدالله بن زرقون، وأبي الحسن بن جبير، وغيرهم.. وأقرأ العربية، وله تأليف أفاد بما حشد فيها، منها : شرح الإيضاح للفراسي، والجمل للزجاج، وله في العروض تأليف، وجمع مشاهير قصائد العرب، واختصر نوادر أبي علي

القالبي. قال ابن الأبار : لقيته بدار شيخنا أبي الحسن بن حريق من بلنسية قبل توجهي إلى إشبيلية في سنة ٦١٦، وهو إذ ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات، فسمعت عليه بعضه وأجاز لي سائره مع رواياته وتأليفه، وأخذ عنه أصحابنا، ثم لقيته ثانية مقدمه من مرسية : ومن يدع نظمه وهو بمصر يتشوق إلى الشام :

يا جيرة الشام هل من نحوكم خير
فإن قلبي بنار الشوق يستعر
بعدت عنكم فلا والله بعدكم
ما لذ للعين لا نوم ولا سهر
إذا تذكرت أوقاتاً نأت ومضت
بقربكم كادت الأحشاء تنفطر
كأنني لم أكن بين النيرين ضحى
والغيم يبكي، ومنه يضحك الزهر
والورق تنشد والأغصان راقصة
والدوح يطرب بالتنصيف والنهر
والسفح أين عشياتي التي سلفت
لي منه ؟ فهي لعمرى عندى العمر
سقاك يا سفح سفح الدمع منهملًا
وقل ذاك له إن أعوز المطر

وله شروح لمقامات الحريري : كبير ووسط وصغير، وفي الكبير من الآداب ما لا كفاء له. وكان رحمه الله معجباً بالشام. وقال ابن الأبار عندما ذكره إنه شرح مقامات الحريري في ثلاث نسخ، كبرها الأدبية، ووسطها اللغوية، وصغرها المختصرة.

ومن الأدباء المؤلفين : أبو الوليد الباجي، ولد عام ٤٠٣، وتوفي في أواخر القرن الخامس الهجري، وذلك عام ٤٧٤هـ^(١). وكان يعاصره محمد بن حزم الظاهري^(٢) (٣٨٤-٤٥٦هـ).

ومنهم محمد بن الوليد الفهري (٤٥١-٥٢٠هـ)^(٣)، والكاتب محمد ابن عبيد ربه المالقي من أدباء القرن السادس الهجري^(٤)؛ وأبي

(١) ١٧٣-٢٠٢ : ٦ نفع الطيب.

(٢) ٢٠٢-٢٢٢ : ٦ المرجع نفسه.

(٣) ٢٢٢-٢٣٢ : ٦ المرجع نفسه.

(٤) ٢٥١-٢٥٦ : ٦ المرجع نفسه.

الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الإشبيلي (٤٦٠ - ٥٢٩هـ)، وكان شاعراً مجيداً^(١)، وبرع في الفلسفة والطب؛ وأبو العباس الشريشي. وقد سبقت ترجمته بتفصيل^(٢)، وتوفي عام ٦١٩هـ، والوزير أبو عبدالله محمد بن أبي الحسن بن عبد ربه حفيد صاحب «العقد الفريد» من أدباء الأندلس في القرن السادس وأوائل السابع الهجري^(٣).
ومن العلماء الأجلاء بقي بن مخلد (٢٠١-٢٧٦هـ)، وقاسم بن ثابت السرقسطي المحدث أول من أدخل كتاب العين الأندلس، وتوفي عام ٣٠٣هـ.

ويقال إن تأليف عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السلمي الفقيه الإمام بلغت ألفاً^(٤)، وكان الأديب الشاعر محمد بن سعيد الذي عاصر عهد عبد الرحمن ابن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ) يلقب بالأصمعي لقوة ذكائه.

أما يحيى بن يحيى الليثي^(٥) المتوفى عام ٢٢٤هـ بقرطبة، فهو الذي انتهت إليه الرياسة بالأندلس، وبه اشتهر مذهب مالك^(٦) فيها، ومنذر ابن سعيد اللوطي قاضي الجماعة بقرطبة^(٧) في عهد الناصر، مكانته أجل من أن تجحد.

وقد سافر إلى الشرق وسنه وقتل ثمان وعشرون سنة، وتلقى العلم على أستاذه مالك بن أنس الذي أملى عليه كتابه المعروف بالموطأ،

(١) ٢٨٠-٢٩٢ : ٦ المرجع.

(٢) راجع ٣٠٦-٣١٠ : ٦ المرجع، و٢٣ من هذا الجزء.

(٣) ٣١٥-٣١٩ : ٦ المرجع.

(٤) ٨ ج ٦ فتح الطيب - نشر فريد رفاعي.

(٥) ١٦ ج ٦ فتح الطيب.

(٦) ٩٩ : ٦ المرجع.

(٧) ٣٤-٤٧ : ٦ المرجع.

وحدث أن كان يحيى ذات يوم في أحد دروس مالك ومعه عدد من الطلاب رفقاته، فقال قائل: «حضر الفيل»، فجزوا جميعاً لرؤيته، ولم يتحرك يحيى من مكانه، فسأله مالك: «لم لم تذهب لتراه، وليس في بلادك مثل هذا الحيوان؟» فأجابته يحيى: «لقد تركت بلادِي لأراك وأتلقى عنك الدروس، ولم آت هنا لرؤية الفيل» فسر مالكاً هذا الجواب وقال عنه إنه عاقل الأندلس، ولما عاد يحيى إلى إسبانيا، بذل كل ما في وسعه لنشر تعاليم مذهب مالك — ولكن كان يحيى هذا قد أصر بسبب تورعه ونسكه على رفض أي منصب من المناصب العامة، فقد عظم تأثيره لذلك وذاع صيته إلى حد أن وصلنا — كما يقول ابن حزم — إلى أنه كان لا يولي قاض في الأندلس إلا بعد أن يؤخذ رأي يحيى فيه، وإلا بعد أن يبين من يفضله على سواه من الناس^(١).

(١) ابن خلكان ج ٤ ص ٢٩، ويقول المقرئ في ذلك «ومن الراحلين من الأندلس الفقيه المحدث، يحيى بن يحيى الليثي راوي الموطأ عن مالك رضي الله تعالى عنه، ويقال إن أصله من برابرة مصمودة — وحكى أنه لما ارتحل إلى مالك ولازمه، فبينما هو عنده في مجلسه مع جماعة من أصحابه، إذ قال قائل «حضر الفيل فخرج أصحاب مالك كلهم، فقال مالك: «مالك لم تخرج وليس الفيل في بلادك؟» فقال «إنما جئت من الأندلس لأنظر إليك وأتعلم من حديثك وعلمك، ولم أكن لأنظر إلى الفيل» فأعجب به مالك وقال: «هنا عاقل الأندلس» ولذلك قيل: «إن يحيى هنا عاقل الأندلس، وعيسى بن دينار فقيها، وعبد الملك بن حبيب عالهما، ويقال إن يحيى راويها ومحدثها، وتوفي يحيى بن يحيى سنة ٢٣٤هـ في رجب وغيره كان يستقسي به بقرطبة».

«وكان مع أمانته ودينه معظماً عند الأمراء يكنى عندهم. عفيفاً من الولايات منزهاً، جلت رتبته عن القضاء، وكان أعلى من القضاة فدرأ عند ولاة الأمر بالأندلس، تزهد في القضاء وامتناعه — قال المحافظ بن حزم — «مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان، مذهب أبي حنيفة، فاته لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله، من أقصى المشرق إلى أقصى عمل أفريقيا، فكان لا يولي إلا أصحابه والمتسقين لمذهبه، ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فان يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان،

ومن علماء الأندلس : أبو محمد القاسم الشاطبي (٥٣٨-٥٥٩هـ) وقد دخل مصر عام ٥٧٢هـ، ودفن بالقاهرة بالتربة الفاضلية بسفح جبل المقطم، والإمام القاضي أبو بكر بن العربي (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ)، ودفن بفاس.

ومن المحدثين : عمر بن الحسين الظاهري الأندلسي المحدث (٥٤٨-٦٠٣هـ) توفي بالقاهرة ودفن بسفح المقطم.

وعلى ذلك فقد أصبح مذهب مالك يلي الحديث مباشرة في اتخاذه شرعاً للبلاد، قال عالم من كتاب القرن العاشر : « لقد كان الإسبان لا يعرفون إلا القرآن والموطأ، فكانوا إذا وجدوا تابعاً من أتباع مذهب أبي حنيفة أو الشافعي طردوه من إسبانيا - والويل لمن يصادفونه من المعتزلة أو الشيعة أو من طائفة تنتمي لمذهب ما، فإنهم كثيراً ما كانوا يخدمون أنفاسه^(١)».

ومن أئمة الصوفيين بالأندلس أبو عبدالله القرشي الهاشمي (٥٤٤-٥٩٩هـ)^(٢)، ومحمد بن سراقه الشاطبي (٥٩٢-٦٦٣هـ) وأقام بمصر نحو العشرين عاماً وبها توفي.

ومن علماء الأندلس كذلك : عبد الرحمن بن عبدالله السهيلي الأندلسي المالقي المتوفى عام ٥٨١، العالم بالعربية واللغة، ومن تصانيفه : الروض الأنف^(٣).

= مقبول القول في القضاء وكان لا يلي فاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع إلى الدنيا، فاقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به - على أن يحيى لم يقل قضاء قط، ولا أجاب إليه - وكان ذلك رائداً في جلالته عندهم.

(١) المقدسي ص ١٤٤.

(٢) ١٣٧-١٤٤ : ٦ نفع الطيب.

(٣) ١٨٧ نكت الهميان.

ومنهم : محمد بن أحمد جابر الأندلسي الضرير (المتوفى عام ٦٩٨هـ) قدم دمشق وسمع بها على شيوخ عصره، وتوجه منها إلى حلب عام ٧٤٣هـ^(١).

ويوسف بن سليمان الشنتمري الأندلسي الأعمى النحوي، مات باشبيلة عام ٤٧٦هـ، وميلاده عام ٤١٦هـ، ومن مؤلفاته : شرح على الحماسة. وألف القرطبي: محمد بن عبد الرؤوف بن محمد الأزدي الكاتب العالم بالأخبار واللغة، المتوفى عام ٣٤٣هـ، كتاباً في أخبار شعراء الأندلس.

ولابن آبان محمد القرطبي الأندلسي، شرح لديوان المتنبي، وكان عالماً باللغة والأخبار والأنساب، وتوفي سنة ٣٥٤هـ^(٢).

ولابن السراج محمد بن سعيد الشنتمري النحوي الأندلسي المالكي المتوفى عام ٥٤٩هـ، كتاب « جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب »، ومختصر العمدة لابن رشيق.

وألف الاشبيلي محمد بن خلف المتوفى سنة ٥٨٦هـ شرح الأشعار الستة، وشرح الفصيح في اللغة.

وألف الأندلسي محمد بن يحيى الشاطبي المتوفى عام ٥٤٧هـ تاريخاً لملوك الأندلس.

وألف محمد بن صالح القحطاني الأندلسي المتوفى عام ٣٨٣هـ تاريخاً للأندلس.

وألف الباجي محمد بن أحمد اللخمي الاشبيلي الأندلسي المالكي المحدث (٣٥٦-٤٢٣هـ) كتباً كثيرة.

(١) ٢٤٤ نكت الهميان.

(٢) ٤٣ : ٢ هدية العارفين تأليف اسماعيل البغدادي باشا، طبعة استانبول ١٩٥٥.

وألف ابن الحذاء القرطبي محمد بن يحيى (٣٤٨-٤١٦هـ) كتاب :
« الخطب والخطباء ».

وألف الحميدي محمد بن أبي نصر الأندلسي م ٤٨٨هـ « جذوة
المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ».

وللطرطوشي محمد بن الوليد الأندلسي (٤٥١-٥٢٠هـ) كتاب سراج
الملوك، وللسرقسطي محمد بن حكيم الأندلسي م سنة ٥٣٨هـ كتاب
شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي، ولابن الاشركوني محمد بن يوسف
السرقسطي الأندلسي م ٥٣٨هـ شرح للكامل للمبرد، والمقامات
السرقسطية في خمسين مقامة.

وممن نشأوا في الأندلسي الشيخ الأكبر محمد بن علي بن العربي
الطائي الحاتمي الأندلسي المولود بالأندلس عام ٥٦٠هـ المتوفى بدمشق
عام ٦٣٨هـ وهو من أئمة الصوفية.

وللأستجي أبي عبدالله محمد بن أحمد الأندلسي المتوفى عام ٦٤٠هـ
كتاب : الحلل في نظم الدول، وللوادي آشي المتوفى سنة ٦٥٧هـ
مختصر إحياء علوم الدين للغزالي، وللمرسي محمد بن عبدالله الأندلسي
(٥٧٠-٦٥٥هـ) كتاب البيوع والبلاغة؛ ولابن هشام محمد بن يحيى
الأنصاري النحوي الأندلسي (المتوفى عام ٦٤٦هـ) شروح على كتاب
الإيضاح لأبي علي الفارسي؛ ولابن سراقه محمد بن محمد الأندلسي
(٥٧٢-٦٦٢هـ) كتاب إعجاز القرآن؛ ولابن منظور الافريقي
(٦٣٠-٧٧١هـ) كتاب لطائف الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ولأبي
حيان الأندلسي محمد بن يوسف (٦٥٤-٧٤٥هـ) مؤلفات كثيرة في
النحو والتفسير؛ وللشريشي محمود بن أحمد الأندلسي م ٧٦٩هـ شرح
على مفتاح العلوم للسكاكي.

ومن الأدباء كذلك : الفتح محمد بن عبدالله بن خاقان الإشبيلي.

ولد سنة ٤٨٠، وتوفي سنة ٥٢٩هـ. ونشأ ببلاد الأندلس، ثم دخل بلاد المغرب واتصل بملوكها. وكتب لبني تاشفين، وألف كتابه «قلائد المقيان» و«مطمح الأنفس» وهما من أشهر ما كتب عن أدباء الأندلس وشعرائهم وقضاتهم ووزرائهم.

مؤرخون أندلسيون :

وهم كثيرون أشهرهم :

١ — أبو بكر بن القوطية : ومن مصنفاته تاريخ الأندلس من فتحها إلى عبد الرحمن الناصر.

٢ — ابن حزم، وله عدة مؤلفات في الأحكام والفقه والملل وغيرها، وله كتاب صغير سماه نقط العروس، ذكر فيه وقائع تاريخية في الأندلس، وأخلاق وعادات بني أمية فيها، وهو كتاب مفيد لم يصل لنا منه سوى بعض أبواب حفظها المؤرخون الذين بعده^(١).

٣ — أبو مروان بن حيان القرطبي، المعروف بابن حزم، المتوفى سنة ١٠٧٦م. كان رئيس الشرطة في قرطبة، وله كتاب «المقتبس في تاريخ الأندلس»، في عشرة مجلدات، ثم كتاب «المتين أو المبين، كما جاء في كشف الظنون» في تاريخ الأندلس أيضاً في ستين مجلداً، ولم يصل إليه من مؤلفه سوى بعض فصول أوردها من جاء بعده من المؤرخين، ويتضح منها حسب رأي دوزي أن وصف الحوادث التاريخية ونقدها كان من مؤلفات ابن حزم مستوفياً لا يقبل الزيادة.

٤ — أبو عبدالله محمد بن أبي نصر الحميدي الأندلسي، المتوفى سنة ١٠٩٥م، أصله من قرطبة روى عن أبي محمد علي بن حزم

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٣٤٠.

الظاهري وأكثر من الأخذ عنه وشهر بصحته، وحج إلى مكة سنة ١٠٥٦م، وطاف بأفريقية ومصر والشام والعراق واستوطن بغداد. وله عدة مؤلفات منها: تاريخ علماء الأندلس سماه « جذوة المقتبس » في مجلد واحد، يقول في مقدمته إنه كتبه من حفظه ولذلك لا يعتمد عليه^(١).

٥ — لسان الدين أبو عبدالله محمد المعروف بابن الخطيب، المتوفى سنة ٧٧٦هـ — ١٣٧٤م، كان وزيراً لأبي الحجاج يوسف سلطان غرناطة، وصنف له كتاب « الإحاطة في تاريخ غرناطة » الذي أخذ عنه المقرئ.

٦ — أبو العباس المقرئ، المتوفى سنة ١٠٤١هـ — ١٦٣١م، أصله من الغرب واستوطن في القاهرة وصنف فيها « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب »، ذكر فيه تاريخ الأندلس من فتحها إلى غزو الملك فرديناند غرناطة.

وقد كتب كثير من المؤرخين عن المغرب، اشتهر منهم: ابن عذاري المراكشي، وله كتاب « البيان المغرب في أخبار المغرب ».

وممن نبغ في الأندلس: ابن البيطار المالقي، المتوفى بدمشق سنة ٦٤٦هـ وقد درس النباتات في الشام وبلاد الروم واليونان، وله كتاب « مفردات الأدوية » وكان من خدم الملك الكامل الأيوبي، وكان يعتمد عليه في معرفة الأدوية، ولا يزال مرجعاً أصيلاً في بابه.

مدرسة النحو بين مصر والأندلس:

من هؤلاء: أبو عمرو عثمان المعروف بابن الحاجب، تخرج بها وبرع في علوم العربية وغيرها، ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعة،

(١) وفیات الأعيان ج ١ ص ٤٨٥.

قال ابن خلكان : وقد سألته عن مواضع في العربية مشكلة، فأجاب بأبلغ إجابة، ومن جملة ذلك أني سألته في بيت المتنبي :
لقد تصيرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم

عن السبب في خفض مصطبر ومقتحم ولات ليست من أدوات الجر فأطال الكلام، وأحسن الجواب، ولم يذكر ابن خلكان صورة إجابة ابن الحاجب على ذلك خوف الإطالة، وأقول : يجوز في هذا أن يكون الجريحتي ولات كلا ليست حاجزاً كما جروا بالباء في قولهم « جئت بلا زاد » على رأي؛ ونصبوا المضارع بأن في نحو (لئلا يعلم)، وفي شرح المتنبي للعكبري في هذا الموضع التاء في لات زائدة، وقد تزداد في الحروف كتم وئمت ورب وربت والجر به شاذ، وقد جر به العرب، وأنشدوا :

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبتنا أن لات حيسن بقاء
ثم عاد ابن الحاجب إلى القاهرة، وأخذ عنه خلق كثير، ومن مصنفاته الكافية في النحو والشافية في الصرف وتوفي سنة ٦٤٦هـ.

وعلى الكافية شروح كثيرة من أشهرها شرح رضي الدين محمد ابن الحسن الاستربادي المتوفي حوالي سنة ٦٩٠هـ.

وهذا الشرح جليل الاعتبار، كثير الفوائد، فيه أشياء لا توجد في غيره وشواهد هذا الشرح أخذها عبد القادر البغدادي، المتوفي بالقاهرة ١٠٩٣هـ، وبنى عليها خزائنه المشهورة المسماة : خزانة الأدب، ولب لسان العرب، وهي واسعة الأرجاء، مملوءة بجواهر الأدب، قل أن يوجد كتاب في بابها يحاكيه؛ فهي ضالة الأديب، وقد طبعت بمطبعة بولاق سنة ١٢٩٩ في أربعة أسفار ضخمة.

ومن أشهر علماء النحو محمد بن عبدالله بن مالك، نشأ بمدينة جيان من الأندلس، ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها، وكان بحراً لا يشق

عباه في العلوم خصوصاً في النحو، وتصدر بحلب لإقراء العربية، وكان يجتمع به قاضي القضاة ابن خلكان ويحترمه لعلمه، ومن تصانيفه منظومة الكافية الشافية في النحو، وهي ثلاثة آلاف بيت، وشرحها ثم لخصها في أرجوزة سماها: الخلاصة، وهي ألف بيت ولذا تعرف بالألفية، ونثر هذه في كتاب سماه: الفوائد النحوية والمقاصد المحوية، ولتسهيل هذا الكتاب وتكميله صنف كتاباً سماه: تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، واشتهر كتاب التسهيل دون كتاب الفوائد، ومن تصانيفه أيضاً: الأعلام بمثلث الكلام، وعدة اللافظ وعمدة الحافظ، وتوفي بدمشق ٦٧٢، وقد سبقت ترجمته.

هذا وقد أقبل الناس إقبالاً زائداً على الألفية يحفظونها ويتعرفون أحكامها؛ ولذا أكثر العلماء من شرحها، فمن شرحها: محمد بن الناظم المتوفى سنة ٦٨٦ بدمشق، وحسن بن قاسم المصري المتوفى سنة ٧٤٩، وقد شرح التسهيل أيضاً. وأبو زيد عبد الرحمن المكودي المتوفى سنة ٨٠١، وأبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١، وبدر الدين علي الأشموني المتوفى في حدود سنة ٩٠٠هـ، وهذا الشرح يسمى: منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ويدرس بالأزهر بعد شرح ابن عقيل لأنه أوسع منه وأصعب. وقد دونوا على هذه الشروح حواشي، فمن ذلك: حاشية أحمد بن قاسم العبادي المتوفى سنة ٩٩٢ على شرح ابن الناظم، وحاشية الشيخ أحمد السجاعي المتوفى سنة ١١٩٧ بمصر على شرح ابن عقيل، وحاشية الشيخ محمد الخضري الدمياطي المتوفى سنة ١٢٨٨ على هذا الشرح، وهي أوسع وأنفع من حاشية السجاعي وكلاهما يقرأ بالأزهر، وحاشية الشيخ محمد الصبان المصري المتوفى سنة ١٢١٦ على هذا الشرح أيضاً وقرأها المنتهون بالأزهر.

ومن إشبيلية: علي بن محمد الكتامي أبو الحسن المعروف بابن

الضائع، كان إماماً في العربية لا يجارى، لازم الشلوين وفاق أصحابه بأسرهم، أملى على إيضاح الفارسي، ورد اعتراضات ابن الطراوة على الفارسي، واعتراضات على سيبويه، واعتراضات البطلوسي على الزجاجي، ورد على ابن عصفور معظم اختياراته، وله شرح الجمل وشرح كتاب سيبويه، جمع فيه بين شرحي السيرافي وابن خروف، وله في مشكلاته، عجائب توفي سنة ٦٨٠.

وكان من أهل فاس : أبو عبدالله محمد بن محمد بن داود المعروف بابن آجروم الصنهاجي، نسبة إلى صنهاجة وهي قبيلة بالمغرب المتوفي سنة ٧٢٣، ولا يؤثر عنه إلا متن الأجرومية، وعليها شروح كثيرة. منها : شرح الشيخ خالد الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥، وعليه حاشية للسيد محمد أبي النجا من نحاة القرن الثالث عشر، ومنها : شرح الشيخ حسن الكفراوي الأزهرى المتوفى سنة ١٢٠٢ بالقاهرة. وعلى الأزهرية حاشية للشيخ محمد الأمير المتوفى سنة ١٢٣٢، حاشية للشيخ حسن العطار المصري المتوفى سنة ١٢٥٠.

واشتهر من الأندلس : أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي، نزيل مصر، كان إمام عصره في فنون الأدب أخذ عن ابن الضائع وغيره، وأخذ عنه كثير من الأئمة : كتنقي الدين السبكي وابن قاسم وابن عقيل والسمين، وكان يقرئ الناس كتاب سيبويه ومصنفات ابن مالك ويرغبهم فيها ويشرح لهم غامضها، ومصنفاته في العربية كثيرة. منها : التذليل والتكميل في شرح التسهيل، وهو مطول، واختصره في كتاب سماه : ارتشاف الضرب من لسان العرب. قال الصفدي : لم أره قط إلا يسمع أو يشتغل أو يكتب أو ينظر في كتاب، وكان ثباتاً قيماً عارفاً باللغة، وأما النحو والصرف فهو الإمام المطلق فيهما، وخدم العلم أكثر عمره حتى صار لا يدركه أحد في أقطار الأرض، وله اليد الطولى في التفسير والحديث وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم خصوصاً

المغاربة، ومن شعره :
عداي لهم فضل عليّ ومنة هم بحثوا عن زلتني فاجتنبتها
فلا أذهب الرحمن عني الأعدايا وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا
ومنه :

سبق الذمّع بالمسير المطايا إذ نوى من أحب عني نقله
أجاد السطور في صفحة الخد ولم لا يجيد وهو ابن مقله
ومات بالقاهرة سنة ٧٤٥.

وفي مصر نبغ ابن هشام (٧٠٨-٧٦١هـ) وكان من أئمة النحو، وله كتب مشهورة، منها : القطر والشذور ومغني اللبيب ورتبه على ثمانية أبواب. الأول : في تفسير المفردات وفيه يذكر حروف المعاني وما أشبهها. والثاني : في تفسير الجملة وذكر أقسامها وأحكامها. والثالث : في ذكر أحكام ما يشبه الجملة وهو الظرف والحار والمجرور وذكر حكمهما في التعلق. والرابع : في ذكر أحكام يكثّر دورها ويقبح بالمعرب جهلها. والخامس : في ذكر الجهات التي يدنجل الاعتراض على المعرب من وجهتها. السادس : في التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها. والسابع : في كيفية الإعراب. والثامن : في ذكر أمور كلية يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية، وهي إحدى عشرة قاعدة، ويندرج تحت كل باب مواد كثيرة تعرف من الاطلاع على الكتاب؛ وله أيضاً كتاب أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، وقد نشرها فيه ويعرف بالتوضيح. قال الأمير في حاشيته على المغني هذا : ولد ابن هشام بالقاهرة سنة ٧٠٨ ولم يأخذ عن أبي حيان غير أنه سمع منه ديوان زهير بن أبي سلمى، ومن شعره :
ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ومن يخطب الحسنة يصبر على البذل
ومن لم يذل النفس في طلب العلا يسيراً يعيش دهرأ طويلاً أخاذل
وتوفي سنة ٧٦١، ورثاه ابن نباتة المصري شاعر الملك المؤيد

صاحب مصر وحماه بقوله :
سقى ابن هشام في الثرى نوء رحمة يجبر على مشواه ذيل غمام
سأروي له من سائر المدح سيرة فما زلت أروي سيرة ابن هشام
تورية بعد الملك بن هشام صاحب السيرة.

وقد اعتنى العلماء بمصنفات ابن هشام فشرحوها وكتبوا عليها الشروح
والحواشي العديدة. ثم ظهر السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) من مصر، وتصدر
مدرسة النحو المصرية في عصره، وصار من أئمة العربية وأعلامها
الخالدين.

المؤرخون الأندلسيون

نبغ في الأندلس كثير من المؤرخين ودونوا معالم هذا التاريخ كاملاً،
وإن كانت آثارهم كلها أو جلها تعد مفقودة، ومن هؤلاء :

١ - أبو مروان بن حيان القرطبي المعروف بابن حزم المتوفى سنة
١٠٧٦م، وكان رئيس الشرطة في قرطبة وله كتاب : « المقتبس في
تاريخ الأندلس » في عشرة مجلدات. ثم كتاب المتين أو المبين كما
جاء في كشف الظنون، وهو في تاريخ الأندلس أيضاً في ستين مجلداً.
ولم يصل إلينا من مؤلفيه سوى بعض فصول أوردتها من جاء بعده
من المؤرخين، ويتضح منها حسب رأي دوزي أن وصف الحوادث
التاريخية ونقدها كان من مؤلفي ابن حزم مستوفياً.

٢ - أبو عبدالله محمد بن أبي نصر الحميدي الأندلسي المتوفى
سنة ١٠٩٥م، أصله من قرطبة، روى عن أبي محمد علي بن حزم
الظاهر، وأكثر من الأخذ عنه وشهر بصحته وحجج إلى مكة سنة
١٠٥٦م، وطاف بإفريقية ومصر والشام والعراق واستوطن بغداد. وله
عدة مؤلفات منها تاريخ علماء الأندلس سماه « جذوة المقتبس » في

مجلد واحد، يقول في مقدمته : إنه كتبه من حفظه ولذلك لا يعتمد عليه^(١).

٣ — لسان الدين أبو عبدالله محمد المعروف بابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦هـ — ١٣٧٤م كان وزيراً لابي الحجاج يوسف سلطان غرناطة، وصنف له كتاب : « الاحاطة في تاريخ غرناطة » الذي أخذ عنه المقري.

٤ — أبو العباس أحمد المقري المتوفى سنة ٤٠٤١ هـ — ١٦٣١ م أصله من الغرب، واستوطن القاهرة وصنف فيها « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب »، ذكر فيه تاريخ الأندلس من فتحها إلى غزو الملك فرديناند غرناطة.

وقد كتب كثير من المؤرخين عن المغرب، اشتهر منهم ابن عذاري المراكشي في الجيل الثالث عشر، وله مصنف يسمى « البيان المغرب في أخبار المغرب ».

واشتهر في الجيل الرابع عشر أبو الحسن علي بن أبي ذرع صاحب كتاب « أنيس المطرب في أخبار المغرب » و « روض القرطاس في تاريخ مدينة فاس ». وسماه أيضاً « القرطاس الكبير » ألفه للسلطان أبي سعيد عثمان بن المظفر ثامن سلطان من دولة بني مرين، وذكر به أخبار المغرب من أيام ادريس الأول سنة ٧٢٥ أيام السلطان أبي سعيد، ويظهر أن التاريخ المسمى بكتاب القرطاس ليس إلا مختصراً من القرطاس الكبير بقلم ابن أبي ذرع نفسه. ونذكر أخيراً تاريخ (عيد الواحد المراكشي).

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨٥.

مفاخر الأندلسيين :

ولعرب الأندلس مفاخر كثيرة في شتى شئون الحياة، فقد كان الذي اخترع المدفع هو أندلسي من العلماء العرب في غرناطة، في عهد السلطان أبي الحسن الأحمر، واسمه « إبراهيم الصانتو ».

وهو رجل زاهد عابد فقيه أديب، له مشاركة في العلوم، وتخصص في الكيمياء، وذو بصر نافذ، وقريحة وقادة وخيال خصب، وهو مجنون يحب بلاده، ناظم على الأوغاد الذي أخذوا يبيعونها للعدو وآثروا العاجلة على الآجلة، فجاهر بنقده للسلطان على ما فرط في شأنها وشأن عرشه، وذلك بالرغم من أنه كانت له مكانة في قلب السلطان لما اشتهر به من زهد وتقوى، حتى لقد أطلق عليه لقب « الصانتو » أي الولي أو القديس.

قرأ الصانتو في كتب التاريخ والأدب والرحلات أن المصريين استعملوا النار اليونانية في حربهم مع لويس التاسع أمام دمياط وتغلبوا عليه بها، فجعل ينقب ويبحث ويقدم زناد الفكر إلى أن توصل إلى لون من النار يمكن استعماله في الحرب مع فرديناند. وقرأ في كتاب « حسن الرماح » عن البارود أنه « بيضة تخرج وتحرق » فجعل غايته أن يعثر على المواد التي يركب منها البارود وأن يصنع منها الألغام والقنابل، فلما توصل إلى ذلك جعل هدفه أن يصنع المدفع الذي يطلق القنابل على العدو. فعل ذلك كله في الجبل تحت ستار من التكتم، إذ كان يعلم أن البلاد موبوءة بجواسيس العدو، وأن الحكومة ذاتها ملوثة بفعل التجسس، فهو يخشى أن يؤول اختراعه إلى العدو فتقلب الآية ويستخدمه العدو ضد بلاده. فلما انتهى من وضع اختراعه وتجاريه، صنع له رسوماً منفصلة وجاء إلى العاصمة يقصد أن يضعه بين يدي السلطان بالذات فلا يأتمن عليه أحداً سواه، وكان يعلم أن يكفيه أن يذكر اسمه ففتح أبواب السلطان في وجهه. فلما جاء العاصمة علم أن السلطان لا يقابل

أحداً لكثرة مشاغله، فرأى أن يستعين بالحريم، وكان يحقت السلطنة عائشة ومن يتمون إليها لعلمه بأن حزبها على صلة بايزابيللا وفرديناند، ولم يجد بداً من أن يلجأ إلى السلطنة ثريا فلجأ إليها، فأوصت أهل القصر بأن يوصلوه إلى باب السلطان ويساعدوه على ولوجه. وما أكثر ما صرف في ذلك من جهود ووقت ومال وصحة حتى أصيب بالشلل ولم يظفر بأكثر من الجلوس قريباً من باب السلطان في انتظار الإذن له طويلاً، وقد اتهمه الخونة الأسيان في غرناطة بأنه يريد قتل الملك، وحوكم وفتش منزله وأخذت أوراق اختراعه فسلمت إلى سفير فرديناند وإيزابيللا في غرناطة، وفوجيء العرب في « ايلورة » بأصوات كالرعد القاصف، وإذا هي القنابل يطلقها عليهم فرديناند فتدك القلعة، وتهدمها على رؤوس من فيها، وكذلك حدث في « مالقة » واستطاع هذا المدفع أن ينهي في بضعة أشهر ملكاً استمر ثمانمائة عام.

وكان أول من أنشأ الحدائق العامة لراحة الشعب هم العرب وخاصة أهل قرطبة، الذي أنشأوا الحدائق العامة، وجعلوا في المقاعد المظلمة وغير المظلمة، وجعلوا في داخل المقاعد المظلمة رفوفاً للكاتب توضع عليها، وكان يوجد في كل حديقة مكتبة عامة يستعير منها القارئ كتاباً، ويضعها عند الفراغ منها أو عند الاستراحة على تلك الرفوف، وكان الكتاب يساوي مبلغاً عظيماً ربما بلغ الألو، وإنما هونه على المكتبة وعلى مستعير الكتاب الأمانة التي كانت متغلغلة بين الناس، ورقابة أحكام الشريعة النافذ أمرها، يقول المستر « ب، ج ترند » في الجزء الأول من كتابه « تراث الإسلام » : « كان يستعمل في الحدائق العامة القاشاني بالنماذج الهندسية والرسوم الملونة، كمقاعد ورفوف للكاتب في قرطبة ».

وأول من استعمل البارود هم العرب عام ١٧٩هـ — ٩٠٦م، وهم الذين نقلوه إلى الأندلس، وعنهم أخذته أوروبا.

وأول من صنع الدبابة هو موسى بن نصير سنة ٩٢هـ حينما فتح الأندلس، ولما أراد فتح مدينة ماردة، وكانت محصنة، وأهلها ذور بأس شديد، اخترع موسى لهم دبابة، دب فيها المسلمون تحتها إلى برج من أبراج أسوارها وجعلوا ينقبونه.

وقد سبق عرب الأندلس المصريين إلى الطباعة بزمن يسير، فكانت السجلات تطبع في دار وزير الناصر أمير المؤمنين، وأشاد بذلك كوندي الاسياني، وقال : وهم سبقوا جو تمبرج إلى الطباعة ببضعة قرون.

وهؤلاء العرب من أهل الأندلس هم سلالة عرب المشرق الذي أتوا الملك، وشادوا الحضارة، وأقاموا الجامعات، ونشروا الثقافة، ورفعوا من شأن الفكر الإنساني، وهم الذين اخترعوا كل جلائل المخترعات ودقائقها، ووصلوا حتى إلى أقل الكشوف، من مثل « قلم الحبر » فقد ذكر القاضي النعماني في « الخصائص والمسامرات » قال : « حدثنا الإمام المعز عن اختراع هذا القلم^(١)، وقد وصف صنعه، ثم مرت بضعة أيام، حتى جاء الصانع يحمل قلماً من ذهب، فأودعه المداد وكتب به، وزاد شيئاً من المداد عن مقدار الحاجة، فأمر بإصلاحه، فإذا هو قلم يقلب باليد، ويميل إلى كل ناحية، ثم إذا رفعه عن الكتاب أمسك المداد، فرأيت صنعة عجيبة لم أكن أظن أني أرى مثلها ».

(١) يريد قلم الحبر الذي يكتب من حبر مخزون في جوفه.

شخصية أندلسية — أبو علي القالي ٢٨٨ — ٣٥٦ م

ترجع شهرة أبي علي القالي إلى كتابه الجليل «الأمالي»، ويعد كتاب الأمالي لأبي علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي من أشهر مصادر الأدب العربي القديم، ويعد من أصول الثقافة الأدبية، وقد أشاد به العلماء والأدباء والنقاد يقول فيه ياقوت في معجم الأدباء^(١): «كتاب الأمالي معروف بين الناس، كثير الفوائد، غاية في معناه». وقال أبو محمد بن حزم فيه: هو مبار لكتاب الكامل الذي جمعه المبرد، ولكن كان كتاب أبي العباس المبرد أكثر نحواً وخيراً، فإن كتاب أبي علي أكثر لغة وشعراً^(٢).

والكتاب دائرة معارف واسعة في الأدب والنقد والشعر واللغة، وهو بحق في مقدمة أمهات كتب الأدب العربي المعدودة. ويقول القالي في مقدمة الكتاب: «أودعته فنوناً من الأخبار، وضروباً من الأشعار. وأنواعاً من الأمثال، وغرائب من اللغات، على أنني لم أذكر فيه باباً من اللغة إلا أشبعته، ولا ضرباً من الشعر إلا اخترته، ولا فناً من

(١) ص ٣٥٢ ج ٢ معجم الأدباء لياقوت.

(٢) المرجع نفسه.

الخبر إلا انتخلته، ولا نوعاً من المعاني والمثل إلا استجده؛ ثم لم أخله من غريب القرآن، وحديث الرسول ﷺ، على أنني أوردت فيه من الأبدال ما لم يورده أحد، وفسرت فيه من الاتباع ما لم يفسره بشر^(١).

ويقول محقق كتاب الأمالي : إن أئمة اللغة والأدب طالما تجدهم ينظمون في كتبهم من درره، ويفترقون من بحره، وهو تأليف جزل الفائدة، جم النفع لمن يريد التعمق في علم اللغة، وتزيين عقله بالأدب العربية، والأخبار المنتخبة، والأشعار المختارة، والأمثال المستجادة.

وقد طبع الكتاب لأول مرة في مطبعة بولاق الأميرية بالقاهرة عام ١٣٢٢هـ، فأقبل على اقتنائه العلماء والأدباء إقبالاً منقطع النظر، وقررت وزارة المعارف المصرية تدريس الكتاب في مدرستي دار العلوم والقضاء الشرعي وفي غيرهما من المعاهد العلمية إبان ذلك العهد، واتخذ في الأزهر الشريف كتاباً للمطالعة، ثم أعيد طبعه بمطبعة دار الكتب المصرية عام ١٣٤٤هـ — ١٩٢٦م مع إدخال تحسينات عليه، والحاق فهارس مستوفاة به، وإضافة كتاب « التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه » للإمام أبي عبيد البكري^(٢)...

- (١) ص ٣ ج ١ الأمالي طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٤هـ — ١٩٢٦م — وقد تحدث صاحب الأمالي عن الاتباع في الجزء الثاني من كتابه صفحة ١٠٨، كما تحدث عن الأبدال أيضاً في الكتاب.
- (٢) هو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الوزير، من أعيان الأندلس وأدبائها وعلمائها المشهورين، كان من أهل مرسية، وبها ولد عام ٤٣٢هـ — ١٠٤٠م ونشأ، ثم هاجر إلى قرطبة، ثم لاذ بصاحب المرية فاصطفاه لصحبه وأثر مجالسته والأنس به، ونهادى ملوك الأندلس مؤلفاته. وكان من أهل اللغة والآداب الواسعة، والمعرفة بالتاريخ والأنساب والأخبار والشعر، وتوفي بقرطبة عام ٤٨٧هـ — ١٠٩٤م (٢ : ٥٢ عبون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، و ١ : ٢٨٣ ابن بشكوال، وراجع كذلك المقدمة التي نشرت في صدر كتاب التنبيه، بقلم الأب أنطون صالحاني اليسوعي).

والأمالي مطبوع في دار الكتب المصرية في جزئين يقع الأول في ٢٨٤ صفحة عدا المقدمة، والثاني في ٣٢٦ صفحة، وكتاب ذيل الأمالي والنوادر للقالبي أيضاً في ٢٢٤ صفحة.. أما كتاب التنبيه مع فهارس الأمالي فيقع في ٢٢٤ صفحة أيضاً.

والتعليقات التي نشر بها الكتاب في طبعته قليلة وإن كانت قيمة، ولدي شرح واسع مستفيض ضخم للكتاب يقع في ستة أجزاء كبار، وحجم كل جزء لا يقل عن خمسمائة صفحة، إلا أنني حتى اليوم لم أحاول نشر هذا الشرح الضخم لما يتكلفه من أعباء مالية كبيرة، ولفقدان التشجيع على نشر مثل هذه الآثار والتأليف.

وتراثنا الأدبي القديم في حاجة ماسة إلى العناية به، وطبع روائعه، وعلى كثرة سبل الطبع والنشر اليوم، فإنه لم يعد أحد في عهدنا الحاضر يعنى بمثل هذه الكتب، لأن شباب العرب صار اهتمامهم بقراءة القصص والمجلات أكثر من اهتمامهم بقراءة المصادر والأصول لثقافتنا العربية الإسلامية.

— ٢ —

والقالبي من أشهر أعلام الأدب العربي القديم، وهو إمام في اللغة وعلوم الأدب، وله مؤلفات جمّة ماثورة مشهورة، ويقول الزبيدي فيه : « ما نعلم أحداً من المتقدمين ألف مثله^(١) ». وكان القالبي أحفظ أهل زمانه للغة وأرواهم للشعر وأعلمهم بعلم النحو على مذهب البصريين، وأكثرهم تدقيقاً في ذلك.

وحياة القالبي مثال رائع لحياة العلماء المسلمين في العصور القديمة،

(١) ٢ : ٣٥٢ معجم الأدباء لياقوت.

عصور النهضة الفكرية والازدهار العلمي، والتشجيع الكامل من الخلفاء والوزراء والأعيان.. إن العلم في العالم الإسلامي القديم لم يكن وسيلة للدعاية السياسية ولا للشهرة الرخيصة، ولا للإعلان الكاذب، ولا للمجد.. إنه كان حركة ضخمة لخدمة التقدم والرفق بالحضارة وإعزاز شأن العقل، والنهوض بمستوى الحياة، وكان العلم والتعليم كله مجاناً، وأجور العلماء ومكافآت الطلاب كلها من الدولة، هذا إلى الأوقاف الضخمة، التي كان يرصدها أعيان المسلمين على الجامعات والمدارس والمساجد وحلقات العلم، وإلى حد كبير يصح أن نقول اليوم إن حركات التعليم في العالم العربي والإسلامي لا روح لها، لأنها ليست خالصة لوجه الله، وليس المقصود بها بالعلم في حد ذاته، وإنما تتجه للكسب المادي، ولتسليم الوظائف، ولإدراك الشهرة قبل كل شيء، ومع التقدم الزمني الكبير فلا زلنا في العلم المادي عالة على الغرب. أما علومنا الإسلامية الأصيلة فقد قلت العناية بها وضعف الإقبال عليها، وفترت روح العلماء والمتعلمين حيالها، وتكاد الأيام المقلبة تهدد الثقافة الإسلامية الأصيلة تهديداً خطيراً: بإضعاف روح الإقبال عليها، وبإهمال شئون طبعها ونشرها وبانعدام إدراك فائدتها وقيمتها.

فكتاب ككتاب الأمالي الذي تحدث عنه لم يعد اليوم مقررًا للدراسة فيما نعلم إلا في كلية اللغة العربية، وهذا شأن الكامل للمبرد ومقدمة ابن خلدون والبيان والتبيين للجاحظ وزهر الآداب للحصري وسواها.

ولد أبو علي اسماعيل بن القاسم بن هارون بن عيسى بن محمد ابن سليمان مولى عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي المشهور عام ٢٨٨ هـ بـ «منازجرد» من أعمال ديار بكر^(١)، وبها نشأ وحصل أطرافاً

(١) بغية الملتبس للضي ص ٢١٨، وهو أحد الكتب التي تجمعها المكتبة الأندلسية، وهي الصلة لابن بشكوال في جزئين، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، وتكملة الصلة لابن الأبار وتكملة التكملة لابن الأبار، وبغية الملتبس للضي، والمعجم لابن =

من العلم، ثم رحل عنها إلى العراق لطلب العلم والتحصيل، وفي طريقه إلى بغداد كان في رفقة جماعة من « قالي قلا »^(١)، وكانوا — كما يقول القالي — يكرمون لمكانهم من الثغر، فلما دخل بغداد نسب إليهم لكونه معهم، وأطلق عليه القالي، وأحياناً كانوا يسمونه البغدادي لطول إقامته في بغداد، وكانت رحلة القالي إلى بغداد عام ٣٠٣هـ، وهو في الخامسة عشرة من عمره^(٢)، وفي بغداد تتلمذ على فحول العلماء، وأئمة الثقافة، وجهابذة الرواة، من مثل: البيهقي المتوفى عام ٣١٧هـ، والعدوي (٢١٠-٣١٩هـ) والسجستاني المتوفى عام ٣١٦هـ، وابن صاعد (٢٢٧-٣١٧هـ)، وابن درستويه (٢٥٨-٣٤٧هـ) والزجاج المتوفى عام ٣١١هـ، والأخفش الصغير المتوفى عام ٣١٥هـ، وابن دريد (٢٢٣-٣٢١هـ) ونظويه المتوفى عام ٣٢٣هـ، وابن السراج المتوفى عام ٣١٦هـ، وابن الأنباري المتوفى عام ٣٢٨هـ، وسواهم من أعلام العلماء الذي يروي عنهم ويتوه بعلمهم.

وبدا نبوغ القالي في علوم اللغة والأدب لأساتذته، وأخذت شهرته تزداد في حلقات العلم والثقافة في بغداد، وجلس للتعليم والإفادة، وظل ربع قرن مقيماً في بغداد متعلماً ومعلماً ومحققاً ومفيداً، حتى جاءت سنة ٣٢٨هـ، فكانت سنة تطور كبير في حياة القالي الثقافية والأدبية. كان القالي ينتمي إلى بني أمية، وكان هواه معهم، وكان ازواره عن بني العباس شبه معروف للخاصة من أترابه ولداته، وكان لبني أمية دولة في الأندلس أسسها الداخل عام ١٣٨هـ، وظلت قائمة حتى عصر القالي.

= الأبار، وفهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين في ضروب العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خليفة الأموي الأشبيلي. وقد نشرت المكتبة الأندلسية في مدريد بإشراف المستشرقين الأسبانيين: كوديرا، ورييرا.

(١) قرية من قرى « منازجرد ».

(٢) ١ : ٣٥٢ معجم الأدباء لياقوت.

وكان من الممكن أن يسمع الأمويون في الأندلس بعالم كبير ينتمي إلى بني أمية، ويعيش في بغداد شبه مغضوب عليه.

وكان الحكم في الأندلس إبان ذاك الخليفة الأموي المشهور عبد الرحمن الناصر الذي تولى الحكم في الأندلس خمسين عاماً (٣٠٠-٣٥٠هـ) رفع فيها منار العلوم والآداب في هذه البلاد، ووطد فيها دعائم الدولة، ونهض بمملكته نهضة جلييلة، وحارب خصومه وانتصر عليهم في مواقع عديدة، وكان يساعده في حكم البلاد ابنه وولي عهده الحكم بن الناصر الذي ولي الخلافة بعد أبيه ستة عشر عاماً (٣٥٠-٣٦٦هـ). وكانت عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس هي قرطبة منذ أسس عبد الرحمن الداخل مملكة أموية فيها، وفي عهد الناصر وابنه الحكم أسست المكتبات، وأنشئت الجامعات والمدارس، وازدهرت الحركة العلمية في الأندلس ازدهاراً لم يحدث له نظير من قبل.

— ٣ —

وكانت قرطبة إبان ذاك تعد من العواصم الكبرى في العالم، وقد بلغت من الحضارة منزلة تكاد تصل إلى المنزلة التي بلغتها بغداد، وكان سكانها أكثر من مليون نسمة، وقد أنشأ الناصر على مقربة منها مدينة الزهراء الخالدة، وينقل المقرئ عن أبي سعيد مؤلف «الحلة المذهبة في مملكة قرطبة» أن هذه المدينة كانت أكثر بلاد الأندلس كتباً، وكان أهلها أشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب، صار ذلك من آلات الرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون له معرفة يحتفل أن تكون في بيته خزانة كتب ويحتفظ بها، وما هو إلا أن يقول: عندي خزانة كتب (أي مكتبة)، والكتاب الفلاني ليس عند غيري، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصلته وظفرت به، ويقول سديو: كانت

هذه المدينة تصبح مضيئة، وحرارتها مطيبة بما يلقى فيها من الزهور، مع استعمال الألحان المطربة في المنتزهات والميادين العامة.

وفي لحظة حاسمة في حياة القالي وصلته رسالة من الناصر خليفة المسلمين في الأندلس، يرغبه في الوفود عليه، لنشر علمه، ولي القالي الدعوة، وسافر إلى قرطبة، مودعاً بغداد وعهده فيها، وحياته بها.

وفي أحد ثغور الأندلس وصلت السفينة التي تقل عالماً كبيراً، وتلقاه بأمر الحكيم ولي العهد في الميناء ابن رماحس في وفد من العلماء والوجهاء، وساروا وسار معهم القالي في موكب نبيل إلى قرطبة، يتذكرون الأدب، ويتناشدون الشعر.

وكان ممن صحب القالي إلى قرطبة الأديب الأندلسي ابن رفاعة الأبيري وللقالي معه قصة غريبة، أنشد القالي في الطريق بيتاً من الشعر لعبدة بن الطيب :

ثمت قمنا إلى جرد مسومة أعرافها لأيدينا مناديل

فأنكر ابن رفاعة البيت، واستعاده من القالي مراراً فأنشده القالي في كل مرة « أعرافها »، وقال : « مع هذا يوفد على أمير المؤمنين، وتتجشم الرحلة لتعظيمه، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا يغلط فيه الصبيان، والله لا تبعثه خطوة »، وانصرف عن الجماعة.

ولعل هذه القصة هي التي جعلت القالي يشهد للأندلسيين بالعلم والذكاء، يقول ابن بسام في الذخيرة عن القالي : لما وصلت القيروان وأنا أعير من أمر به من أهل الأمصار فأجدهم درجات في العبارات وقلة الفهم بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد، كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم محاصة ومقايسة، فقلت : إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهامهم، بقدر نقصان هؤلاء عن قبلهم، فسأحتاج إلى ترجمان في هذه الأوطان. قال ابن

بسام : فبلغني أنه كان يصل كلامه هذا بالتمجيب من أهل هذا الأفق الأندلسي في ذكائهم، ويتغطى عنهم عند المباحثة والمفاتشة، ويقول لهم : إن علمي علم رواية وليس بعلم دراية، فخذوا عني ما نقلت، فلم آل لكم أن صححت.

دخل القالي قرطبة لثلاث بقين من شعبان عام ٣٣٠هـ كما يقول ابن خلكان، فأكرم الناصر وفادته، وأعلى في دولته مكانته، وآثره بالعطف والتقدير، بتأديب ولي عهده الحكم، وثقيفه ثقافة أدبية وعربية خالصة، واستوطن قرطبة، وأخذ يلقي محاضراته ودروسه في حلقات مسجدها الجامع، فأورث أبو علي أهل الأندلس علمه، وأقبل عليه أهل الأندلس للإفادة والتعلم والتأديب من دروسه التي كان يلقيها من روايته وحفظه في كل يوم خميس بقرطبة، في المسجد الجامع بالزهراء، وكان أبو علي واسع العلم، كثير الرواية، طويل الباع في علوم الأدب واللغة، مما شهد به علماء عصره، فسمع الناس منه، وقرأوا عليه كتب اللغة، والأخبار والأماشي، وعظمت استفادتهم منه. ومن تلاميذه في هذه الفترة : الزبيدي مؤلف كتاب مختصر العين وإمام اللغة والأدب في الأندلس في عصره وسواه.

وللشاعر الأندلسي الرمادي يوسف بن هرون الكندي قصيدة في مدح القالي، قال فيها :

روض تعاهده السحاب كأنه متعاهد من عهد إسماعيل
قسه إلى الإعراب تعلم أنه أولى من الأعراب بالتفضيل
حازت قبائلهم لغات فرقت فيهم وحاز لغات كل قبيل
فالشرق خال بعده فكأنما نزل الخراب بربعه المأهول
وكانه شمس بدت في غربنا وتغيبت عن شرقهم بأقول
وحقاً كان القالي شمساً بدت من المغرب، وخلا منها مكانها في المشرق.

وعاش القالي عشرين سنة في الأندلس في خلافة الناصر، ثم ست سنوات أخرى في خلافة الحكيم بن الناصر، الذي شمله بالعطف والعطاء؛ مما جعله في سعادة ورخاء ونعمة وفراغ بال؛ ومما جعله يعكف على الإفادة والتأليف.

وللقالي كتب عديدة منها: الأمالي، والممدود والمقصود، وكتاب الإبل، وكتاب حلى الإنسان والخييل وشياتها، وكتاب « فعلت وأفعلت »، وكتاب مقاتل الفرسان، وتفسير السبع الطوال، وكتاب البارح في اللغة، وسواها.

وكان بين أبي علي القالي وبين العلماء والأدباء في الأندلس صداقات ومداعبات ووفاء، وكان من معاصريه من علماء اللغة بالأندلس: ابن القوطية وغيره.

وكان تعصب الدولة في الأندلس لكل ما هو أموي يرفع من مكانة القالي فيها، وخاصة عند الخليفة الناصر وولي عهده، ولذلك رفعت مكانته في الدولة، واحتل منزلة سامية فيها، وصار عميد العلماء والأدباء في عصره، كما كان إمام الأدب وشيخ اللغة في زمانه.

ومما يدل على مكانة القالي أن الخليفة الناصر وولي عهده الحكيم كانا يعهدان إليه بتمثيل الدولة في أخطر المواقف السياسية، حتى ليروى أن الناصر كلفه بالخطابة أمام وفد الروم لولا أن أبا علي بهت وانقطع عنه الكلام في هذا الموقف، فقام مقامه منذر بن سعيد البلوطي.

وتوفي القالي في قرطبة في ربيع الآخر عام ٣٥٦هـ، وشيعت جنازته الأندلس كافة، وبكاه فيها العلماء والأدباء والطلاب بكاء حاراً، رحمه الله رحمة واسعة.

ومقدمة كتاب الأمالي سجل ثمين يكشف لنا ألواناً عديدة من حياة القالي وأدبه، فهي تمثل ثمره الفني أصدق تمثيل، وهي تصور لنا البواعث النفسية لتأليف الأمالي، والقالي فيها يشيد — بعد حمد الله — بفضل العلم وترفع العالم، ويتني فيها على الناصر وتشجيعه للآداب، وعلى ولي عهده الحكيم، ويذكر أنه أملى « الأمالي » في يوم الخميس بقرطبة، وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة، ثم يختم المقدمة ببيان ما اشتمل عليه الكتاب من بحوث وآراء ودراسات.

والأمالي مع مظهره الأدبي العالي، يدل على ثقافة لغوية واسعة، وهو حافل بالفوائد اللغوية التي لا توجد في كتاب، فتجد القالي فيه مثلاً يتعرض لتفسير مادة « نساء » ومادة « لحن » ومادة « حرد »، ويفسر الغريب من حديث السحابة التي نشأت ورسول الله جالس بين أصحابه عليه السلام، ويتعرض للكلام على غريب حديث : « ألم أخير أنك تقوم الليل، وتجدده كذلك يخصص مطالب لترتيب أسنان الإبل وأسمائها وأسماء الرجل يحب محادثة النساء، ولأسماء الشخص، ولأسماء الأكنوان وأوصافها، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه الكتاب من ثقافة لغوية عرض لها المؤلف قصداً، أو ذكرها أثناء شرحه لنصوص أدبية قديمة أو محدثة، وفي فصول في الكتاب يذكر ما تتعاقب فيه العين والحاء، والهجرة والهاء، والسين والتاء. الخ.

أما ثقافات الكتاب الأدبية فينتطق بها ما احتوى عليه الكتاب من روائع الآثار المروية عن العصر الجاهلي والإسلامي والأموي وصدر دولة بني العباس، وهي نصوص أدبية رفيعة قد لا توجد في كتاب آخر، سواء ما سجله القالي منها من النثر أم الشعر.

وفي الكتاب كذلك آراء وأحكام ومجالس في النقد، وهي ذات أهمية كبيرة في ثقافة الأديب ومتذوق الأدب.

والنصوص الواردة في الكتاب تفسر لنا بعض الجوانب الغامضة من حياة العرب في الجاهلية وعصر صدر الإسلام وبنى أمية، تصويراً كبيراً له مدلوله التاريخي.

وأكثر روايات القالي عن ابن دريد، ويظن أن مجالس ابن دريد الواردة في هذا الكتاب هي مقدمة لظهور فن المقامة في الأدب العربي، ومنها مثلاً حديث البنات الثلاث اللاتي وصفن فيه ما يحبين من الأزواج وسوى ذلك، والقالي يمزج النثر بالشعر والمخطب بالأمثال، والحكمة بالوصية، والنقد بالشرح، ويأتي بعد ذلك بالطرائف المستجادة، والفوائد المستحسنة، مما يروع، ويسحر.

وبين بحوث الكتاب اللغوية يعقد القالي مطالب يذكر فيها ما قال الشعراء في الحديث، أو في البكاء ووصف الدموع أو في العناق أو غير ذلك، ويذكر كثيراً من القصائد المشهورة في الأدب العربي، أو يعرض لحديث الشعر أو النثر، أو لسوى ذلك من الموضوعات الطريفة.

وكثيراً ما يستروح القالي إلى شيء من النقد، فيذكر مثلاً سؤال بعض خلفاء بني أمية لجرير عن أشعر الناس، أو يروي مفاضلة بين عمر وجميل في الغزل، أو يذكر ما يستحسن ويستجاد من شعر شاعر، مما يدل على روح النقد الأصيلة، أو سوى ذلك.

أما ملاحظات البكري على القالي، فمع كثرتها نجد بعضها يتصل بتصحيح اسم من الأسماء، كأن يذكر القالي لعبد الملك وإنشاده شعر قيس ابن رفاع، فيذكر البكري أن صحة الأسم هي أبو قيس بن أبي رفاع، وكان يحقق الرواية الأدبية، وكان يصحح شرحاً لنص من النصوص؛ أو سوى ذلك، وهذه التنبيهات في جملتها مفيدة مهمة.

وبعد فإن كتاب القالي دائرة المعارف في الأدب القديم، وهو ثمرة

من ثمرات الرجولة المكتهلة، والإحاطة التامة، والثقافات الواسعة، وهو من أجل ما ألفه القالي من مؤلفات.

وهو صورة لآداب المشرق في مختلف العصور إلى آخر القرن الثاني الهجري، وآداب المشرق كانت في الأندلس من الطرف الجميلة، التي يحتفل بها، وتروى وتذاع. وليس في الكتاب طبعاً شيء من آداب الأندلسيين وآثارهم، إنما هو صورة مشرقة واضحة لذوق أدباء المشرق وشعرائه ونقاده.

ونحن في هذه الدراسة الموجزة ننوه بفضل القالي على الأدب ولغة العرب وثقافات الأدباء في القديم والحديث، ونوصي الشباب أن يقرأوا «الأمالى» ويستفيدوا مما فيه من آثار ونصوص وحكم وآداب، فهو جدير بالعبارة والاهتمام.



وللقالي كتاب «البارع» في اللغة : وهو معجم ابتداءً فيه منذ سنة ٣٣٩هـ وعاونه فيه وراق اسمه محمد بن الحسين الفهدي من أهل قرطبة منذ عام ٣٥٠هـ واستمر في تأليفه حتى توفي القالي إلى رحمة الله فتولى تهذيبه وراقه مع محمد بن معمر الجبائي. وكان قد أتمه. ولم يستطع تبييضه ونقله. بل نقل كتاب الهمزة. وكتاب الهاء. وكتاب العين..

والبارع مبني على حروف المعجم : وجمع فيه كتب اللغة، وعزا كل كلمة من الغريب إلى من نقلها عنه من العلماء، واختصر الإسناد عنهم، وهو يحتوي على ٥٠٠٠ ورقة.

وقد اتبع القالي فيه طريقة الخليل ومنهجه : فبنى «البارع» على

مخارج الحروف، ولكنه لم يسر على ترتيب الخليل. فبدأ بالهمزة، ثم بالهاء، ثم بالعين، مع خلاف يسير في الترتيب، ومع مخالفته الخليل في الأبنية وترتيبها فهي عند القالي ستة : أبواب الثنائي المضاعف ويسميه الثنائي في الخط والثلاثي في الحقيقة، وأبواب الثلاثي الصحيح. وأبواب الثلاثي المعتل، وأبواب الحواشي، وأبواب الرباعي، وأبواب الخماسي... والقالي يتبع الخليل في ذكر الكلمة ومقلوبها..

ومن البارع قطعتان : أحدهما في المتحف البريطاني برقم ٥٢٩٨١١، والثانية في المكتبة الأهلية بباريس برقم ٤٢٣٥ وقد صورهما الدكتور فلتون وجملهما في كتاب.

والبارع أول معجم يظهر في الأندلس، وهو صورة لمعاجم المشاركة ولابتكارهم^(١).

(١) الصحاح ومارس المعجمات للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار ص ١١٧ و ١١٨.

اللغة العربية في الأندلس

— ١ —

لغة الكتابة والثقافة والتأليف :

بعد أن تغلب العرب على شبه الجزيرة دخل في حكمهم آلاف المسيحيين من كل جهة فتحوها. فعاش أولئك المسيحيون في كنف المسلمين. وأحسنّت الحكومة معاملتهم، ومنحتهم الحرية الدينية، وكثيراً ما رفعتهم إلى مناصب عالية في الجيش وفي بلاط الملك. فاعتنق كثير منهم الإسلام وافتتن بحضارته وثقافته، حتى رأينا « الفارو » كاهن قرطبة في أواسط القرن التاسع للميلاد يولول في أوائل ذلك العصر شاكياً من أبناء دينه انكبابهم على مطالعة أشعار العرب وأساطيرهم، وهيامهم بدراسة كتابات لاهوتيي المسلمين وفلاسفتهم — لا يقصد تنفيذها — بل رغبة في التعبير عن خوالجهم بأسلوب عربي رشيق وصحيح^(١).

(١) يقول دوزي : « بعد الفتح الإسلامي اعتنق كثير من المسيحيين دين الفاتحين — حفرتهم لهذا المنافع من جهة، واقتناعهم بأن الدين الإسلامي هو الدين الحق من جهة أخرى. فقد جددوا فلسفتهم في نظرية الصراع — يعتقدون أنه حيث تكون القوة يكون الحق، ويقولون للكهنة : « لو كانت المسيحية حقاً فلماذا أسلم الله بلادنا وهي مسيحية لشيمة دين غير صحيح، وقد زعمتم أنه أخذ الكاثوليكية تحت رعايته، =

وكان الفارو يتساءل قائلاً : « أنى يتاح لإنسان في هذه الأيام أن يقابل واحداً من أبناء جنسنا يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة ؟؟ »

== وقصصتم لمحة من تلك المعجزات التي وقعت غيرة على هذا الدين من المظالم الأرية — فلم لا تبعت هذه المعجزات مرة أخرى ؟ ؟ وكانت هذه الاعراضات في العصور السابقة تسبب الحيرة والارتباك للكهنة أنفسهم الذين كانوا يجهلون كذلك كيف خضع المؤمنون ودلوا أمام الملحدين !! — فلا تقادم زمن الفتح حلت هذه الاعراضات بأن المتأخرين من ملوك القوط بل كهنتهم وأشرفهم كانوا أئمة مجرمين وأن القوارع التي قرعتهم لم تكن إلا عقاباً عادلاً من الله — وقد كان اعتبار الكنيات قصاصاً عادلاً، من فلسفة الأقدمين على العموم واليهودية على الخصوص — وقد تنجلي في أمثال سليمان سعادة الأبرار وشقاوة الفجار في صور مختلفة — وكانت القرون الوسطى تطبق على التعاسة نفس هذه النظرية، فكان انتصار المسلمين على الخصوص آية الغضب الإلهي كما كانت انتصارات المسيحيين في رأي المسلمين — وكانت تردد هذه الجملة في إيطاليا كذلك وهي : « إذا انتصر المسلمون فذلك لأن الله يريد عقابنا على خطايانا »، وكذلك كان يقال في أسبانيا وفي سنة ٨١٢ م أذاع الفونس الثاني منشوراً ياملأ الكهنة قال فيه : « أيها الإله — إن القوط أهانوك بكبرياتهم فكانوا أهلاً لأن تمزقهم السيوف العربية » وفي سنة ٩٢٤م قال سنكودي نفار في منشوره بمناسبة إنشاء معبد البلد : « لقد كانت إسبانيا تحت سلطان المسيحيين، فكانت حصونها وقراها مكتظة بالكنايس. وبذلك كان الدين المسيحي سائداً في كل مكان. ولكن أسلافنا تناهت خطاياهم وخرجوا على وصايا الإله، فلأجل أن يعاقبهم على ما قدمت أيديهم ويرجعهم إلى الصراط السوي رماهم بهذا الشعب البربري ». وقال سبستيان بنوره : « وإنما هلك الجيش القوطي لأن الملوك والكهنة تركوا شريعة الله »، وقال كاهن : « عاقب الله أسلافنا في هذه الحياة الدنيا حتى لا تكون هنالك حاجة إلى عقابهم في الحياة الأخرى » وفي رواية كاهن بشيلوس أقدم المؤرخين الذين يتفكرون عنه : « أن برمود كان عاقلاً عادلاً وأنه كان يعمل على فعل الخير واجتناب الشر، ولكنه كان يسيء الحظ فقد حدث في عهده — وقت أن كان يشغل عرش ليون — أن وجه المنصور ابن أبي عامر إلى المسيحية أشد الضربات التي أصابها منذ الهجوم العربي، فلم ينج شيء من سيوف المسلمين، ولم تكن لترى حينذاك إلا مدائن مخربة وأديرة حاوية وكنايس مهدمة — بل لقد وصلت الحال إلى أن سقط سبستبول وهيكل سان جان رأساً على عقب — وهنا رجع السؤال، لماذا تغلب المسلمون على المسيحية ؟ وأجاب الكهنة على سابق عاداتهم ذلك عقاب على خطايانا والمنصور هو مطرقة الغضب الإلهي، وهكذا كانوا يسمونه، ولهم الحق ==

ومن ذا الذي يدرس منهم فصول الأناجيل وسير الأنبياء والحواريين !! واحسرتاه ؟ إن كل الشبان المسيحيين ذوي المواهب، لا يعرفون إلا العربية وإلا كتابات العرب فهم يقرعونها ويدرسونها بحماس بالغ منتهاه — كما أنهم ينفقون المبالغ الطائلة من النقود لاقتنائها في مكاتيبهم. وتراهم — أنى وجدوا — يذيعون أن تلك الآداب جديرة بالإعجاب، فإذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية أزور جانبهم، وأجابوا باحتقال : « إنها أسفار لا تستحق الذكر ! واحسرتا عليهم ! لقد نسي المسيحيون لغتهم، حتى ليندر العثور — بين آلاف منا — على فرد يستطيع أن يحرر إلى أحد أصدقائه رسالة لاتينية بأسلوب لا بأس به — على حين ترى العدد الجم قادراً على الإبانة عما في

في ذلك، فلقد بلغ به حبه الشديد للغزو، أنه ربما خرج للمصلي يوم العيد، فحدث له نية في ذلك فلا يرجع إلى قصره بل يخرج بعد انصرافه من المصلي يوم العيد كما هو من فوره إلى الجهاد، فتبته عساكره وتلحق به أولاً فأولاً، فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم، إلا وقد لحقه كل من أراده من العساكر، غزا في أيام مملكته نبغاً وخمسين غزوة، وفتح فتوحاً كثيرة، ووصل إلى معازل امتعت على من كان قبله، وفي أيامه تغالى الناس في الأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى، وذلك لرخص ثمان بنات الروم، حتى نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة وكانت ذات جمال رائع، فلم تساو أكثر من عشرين ديناراً وكان في أكثر زمانه لا يخل بأن يغزو غزوتين في السنة... راجع في ذلك الكتاب المعجب — على أنهم كانوا جديريين أن يبينوا لنا أين كانت تلك الجرائم التي استوجبت هذه العقوبة الهائلة ؟؟ وكيف تم ذلك رغم أن الإيمان بالخلود كان في ذلك الزمن أكثر منه في أي زمن آخر ؟؟ ولكن لا غرابة في ذلك فقد آلى كتاب القرن الثاني عشر على أنفسهم أن يقوموا بهذا الواجب، فمؤلف التاريخ الكششالي على الرغم من أنه من رجال الكنيسة ضحى بلا روية بالكهنة الذين ترأسوا كنيسة « رمبو ستيل » في القرن العاشر وأظهروهم بمظهر الفسقة المجرمين قساة القلوب، وعنى فيلإخ أفنديو بشخص برمود — ألا ترى كيف أنه يبدأ كلامه بنشر صحيفة طويلة من سيئاته ومخازيه، فإذا انتهى منها وصل إلى هذه النتيجة فقال : « وإنما بسبب جرائم برمود وجرائم شعبه ان المنصور... الخ » وهكذا برروا عمل الأوهية التي سمحت للإسلام أن يكتسح المسيحية.

نفسه بأسلوب عربي غلاب، وعلى حين ترى حذقهم في قرص الشعر العربي قد وصل إلى حد فاقوا معه العرب أنفسهم^(١).

أما المولدون والصائبون من الإيبانيين الذي اعتنقوا الإسلام، فقد استعربوا تماماً بعد أجيال قليلة، ومنهم نبغ أدباء وشعراء ازدان بهم الأدب العربي في الأندلس.

وقد حظّر هشان بن الداخلة (١٧٢-١٨٠) على النصاري أن يتكلموا بغير العربية، وفي هذا دلالة واضحة على حب هؤلاء الملوك للغتهم، وعملهم على سيطرتها، لتحكم الألسنة، بأن تجعل العربية لغة الأسواق، وحديث التعامل، وحوار الباعة.

ولا ريب أن الدين الإسلامي وعروبة القابضين على أزمة البلاد هما العامل الأول في انتشار تلك اللغة الكريمة، زادها الله شرفاً ورفعة.

والعامل الثاني الذي له أثره من بعد : هو الحاجة إلى الاتصال بالحاكم واستدراخ خيره في مقتضيات الملك : من كتابة وعملة وزلفى وشفاة وما إلى ذلك.

كذلك أغرى بها وزاد الرغبة في تعلمها، سهولتها وعذوبتها وسرعة تعلمها، ولا سيما ما كان في البيئات المنزلية، وكذلك المصاهرة التي مزجت العناصر ولقنت ألفاظ اللغة وأساليبها، ولم يكن العرب يتخرجون

(١) ومن كلام هذا الكاهن كما في كتاب تاريخ العرب في أسبانيا لدوزي ٢/١٠٣ :
إننا نحب أن نقرأ الشعر والفصيح، وندرس الدين والفلسفة في اللغة العربية، فتعلم لغة عذبة الألفاظ، بليغة الأداء، جميلة الإنشاء، ولا تكاد تجد فينا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية، وشبابنا الأذكيا جميعاً لا يعرفون غير لغة العرب وآدابهم، وكلما قرئوا كتبها ودرسوا أديها أعجبوا بها، فإذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منه، وقالوا إن الفائدة منه لا تساوي التعب في قرأته، وهكذا نسي المسيحيون لغتهم، وجعلوا كتابتها وبلاغتها، وحذقوا اللسان العربي حتى ليكتبونه تراً ونظماً بأسلوب أنيق وتصوير دقيق.

من مصاهرة من دخل في دينهم، وأوى إلى كنف الإسلام، مهما انحدر
نسبه أو رتبته.

كذلك لا ننسى ما كان من الحكام الأولين الأمويين من برّ بلغتهم،
فإنهم كانوا في المغرب مثلهم في المشرق، يعنون بمفاخر آباءهم
ويلتمسون ذلك في لغتهم وتراثها الأدبي الخالد، فيعقدون للأدب مجالس
هم مديرو حوارها، ورواة أخبارها، في فصاحة ولسن، وطبع لا تكلف
معه، والناس يتبعون ملوكهم، وكذلك هم عاشقون لهذه اللغة في ذاتها،
يحنون إليها حنين الطيور إلى الوكور، فلطالما عملوا على ترقية شعونها.
وإعلاء كلمتها، والحض على التفاني في خدمتها ببذل الأموال، وتقريب
المجاهدين في سبيلها والمرابطين على حفظ ثغورها. فشجع ذلك على
نقل الأدب الشرقي إلى الغرب بالأخذ عن الكتب تارة. والرحلة للحج
وطلب العلم أخرى. بل لقد كانوا يحبون المقام في بلاد الأندلس
بشئ المغريات. ولقد جهد كثير منهم أن تظهر مؤلفات النابيين من
الشرقيين في بلادهم قبل ظهورها بالمشرق، كما في كتاب شرح مختصر
ابن عبد الحكم للأبهري، وكما في الأغاني، وكان ذلك طمعاً في
استرداد الملك الضائع. وتقويض عرش الغالين من بني العباس.

— ٢ —

وتجد اللغة في عهد الولاة الفاتحين، وهو ما يقرب من نصف
قرن، كانت حالها في المغرب أشبه بشيء بحالها في المشرق، فإن
القوم هم القوم، ولم يجد في أمرهم ما هو جدير بأن يؤثر في حال
اللغة، ولا أستحدث جديد لها، فاللغة قوية فطرية، أسلوبها مرسل وألفاظها
جزلة بريفة من تكلف البديع، ومعانيها بعيدة من تعمق الفلاسفة، وترتيب

الحكماء، وأغراضها دائرة حول أحوال المعيشة والحث على إعلاء كلمة الله، وبذل النفوس لحماية البلاد والمحافظة عليها.

وفي زمن بني أمية لموك الطوائف انتشرت اللغة بين أهل البلاد على اختلاف أجناسهم ومللهم. حتى ترجم بها القسوس التوراة وغيرها من الكتب الدينية. وذلك دليل على أنها أخضعت كل شيء لسلطانها هنالك، وقد دخل على اللغة كثير من التجديد في شتى نواحيها : فأما أسلوبها : فقد صقل بجمال البلاد ورقتها، وجد فيه كثير من الصنع المقبول. ولا سيما السجع والسلاسة المستعذبة.

وأما المعاني فقد كانت واضحة بعيدة عن التعمق، متعددة الصور، لطيفة المنزع، كثيرة الطرف، جذابة النكات، لا يمل المتأمل فيها؛ لخفة روح القوم وميلهم نحو كل جميل خلاب من الأفكار والتصويرات؛ وحسبك خيالهم البديع الذي كانت الطبيعة الأندلسية من بعض مصادره.

وأما الأغراض : فقد اتسعت رقعتها وتعددت منازعها فجالت في شئون الملك ودواوين الحكم ومرافق الإمارة ثم صنوف الصناعة والتجارة، وقطعت شوطاً كبيراً في تصوير العلوم والمعارف وتجلت في معارضها الجميلة، وصافة لكل مظاهر الطبيعة وصنعة الحضارة ومشاهد النهضة، ونبغ الشعر الأندلسي في الوصف، مع دقة الخيال، ورقة العبارة.

وقد كان حظهم من الترجمة بخساً ضعيفاً لتفانيهم في حب لغتهم وبغضهم للأجانب وبعدهم عن مؤثرات عملت في الشرق عملها، من سلطان الفرس وسيطرة الدخيل. ولكن الوهن دب إلى اللغة في زمن المرابطين والموحدين لكثرة الفتن، ولأن السلطان إذ ذاك في أيدي البربر وهم بعيدون كل البعد عن فهم اللغة العربية وجمالها، وسحرها، فانحطت بانحطاطهم، وعادت متقهقرة إلى الوراء.

ولكن القدر تداركها ببني هود ثم بني الأحمر. وهم عرب خلص،

فأعادوا لها شيئاً من مجدها التالذ؛ وعزها الغابر؛ واستطاعت اللغة أن تقوم من كبوتها وكادت تصمد لعادية الزمان، لولا أن الفتن والقلاقل كانت متغلغلة في داخل البلاد؛ والعدو رابض لهم، متربص لخطاهم، يشعل الفوضى بين صفوفهم، حتى هزمهم واستولى عليهم؛ فمحييت اللغة العربية من الأندلس بعد خروجهم، وعادت البلاد إلى لغتها الأصلية، ودينها القديم.

— ٣ —

وقد كان سريان الفساد في عربية الأندلس بطيئاً، ويعلم ذلك ابن خلدون بكثرة معاناتهم لعلوم اللسان، وامتدادهم من المحفوظات اللغوية نظماً ونثراً، وتداول ذلك فيهم مائتين من السنين، مما جعلهم أقرب إلى تحصيل ملكة اللغة المضرية من غيرهم من أمثال البربر، ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير طارئين عليها. ولذلك سبب آخر، وهو أن أهل اللسان العجمي، الذي تفسد ملكتهم، ليست عجمتهم أصلاً للغة أهل الأندلس، وإنما هم طارئون عليهم، أما البربر في هذه العدة فهم أهلها، ولسانهم لسانها، إلا في الأمصار فقط، وهم فيها منقسمون في بحر عجمتهم ووطانتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم، بخلاف أهل الأندلس.

ويقول باحث^(١) : وهناك شيء شغل ملوك هذه البلاد بلغتهم، ووجه منهم عناية زائدة إليها، هو منافستهم للمشاركة، وتساميهم إلى أن يعدوا معهم، بل طمعهم في أن يفوقهم، وهذه المناقسة قد تناولت كل شيء حتى أسماء البلاد، بل سموا : حمص، ودمشق، وقنسري،

(١) ٤٤ : ٣ الأدب العربي وتاريخه — المرحوم محمود مصطفى.

وفلسطين^(١)، كما أسموا في الشعراء ابن هانئ وابن زيدون، بمتنبي
الغرب وبحتريه. وكما شبهوا المخزومي الشاعر الأعمى بأبي العلاء،
حتى قال بعضهم في الترحيب به حين قدم غرناطة :
يا ثانيا للمعري في حسن نثر ونظم
وفرط ظرف ونبل وغوص فكر وفهم

وقد دعتهم هذه المنافسة، إلى أن يستدرجوا علماء الشرق وأدباءه،
وأصحاب الفنون فيه، إلى بلادهم ويرغبوهم بإغداق المال والجاه عليهم،
حتى يظهر للغرب فضل على الشرق، وما بعيد عنك حديث أبي علي
القالبي وزرياب المغني وغيرهما، وقد استفد صاحب نفع الطيب أغلب
الجزء الثاني، في ذكر هؤلاء الراحلين إلى الأندلس، وبيان ما نالوا
من إكرام.

ويروي أن أبا علي القالي في وفوده على أمير المؤمنين الناصر،
قال : « لما وصلت إلى القيروان كنت اعتبر من أمر به من أهل الأمصار،
فأجدهم درجات في العبارات وقلة الفهم؛ بحسب تفاوتهم منها بالقرب
والبعد، كأن منازلهم من الطريق، هي منازلهم من العلم محاصة ومقايسة،
فقلت : إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهامهم بقدر
نقصان هؤلاء عن قبلهم، فسأحتاج إلى ترجمان، في هذه الأوطان »
فلما وصل إلى الأندلس وجد أحلى الناس لساناً، وأفصحهم بياناً، وأنفذهم
أذهاناً، وكان كثيراً ما يعجب من ذلك. ولا غرو^(٢).

(١) يقول المقرئ : لما تولى أبو الخطار ولاية الأندلس عام ١٢٨ هـ أنزل أهل دمشق
« البيرة » وسماها دمشق، وأنزل أهل حمص إشبيلية، وسماها حمص، وأنزل أهل
قنسرين حيان، وسماها « قنسرين »؛ وهذا مبني على الحنين إلى الوطن.
(٢) ومن صور عابية أهل الأندلس في القرن السادس الهجري ما رواه السيوطي في « بنية
الوعاء »، إذ ذكر في ترجمة المحافظ أبي محمد بن حوط الله المتوفى سنة ٦١٢
بغرناطة، وتفسير هذا اللقب (حوط الله)... « قال ابن عبد الملك : كأنه مصدر
حاط يحوط مضافاً إلى الله تعالى، وذكر شيخنا أبو الحكم أن أصله : حوطله مصغر =

لغة التخاطب :

يقول باحث محدث^(١) : كانت عناصر الشعب الأندلسي مكونة من ثلاثة عناصر :

١ — العرب، الذين دخلوها فاتحين، وتزحوا إليها من الشام وغيره، من قبائل المضربية واليمانية.

٢ — البربر، الذين ظل العرب يعانون أمرهم، ويختلطون بهم منذ احتط عقبة بن نافع مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ، وقد أسلموا ثم ارتدوا، ثم أسلموا ثم ارتدوا، وكان ذلك منهم اثنتي عشرة مرة، كما يذكر المؤرخون، ثم ثبتوا على الإسلام، وتلوا قرآنه متصدين ومتفقهين في دين الله.

٣ — سكان البلاد، الذين قبلوا الإقامة بين ظهراي العرب، راضين بحكمهم، مغتبطين بعدالتهم، من نصارى ويهود. وقد أقبل عليهم العرب الفاتحون، ينتفعون بمواهبهم، في إدارة البلاد، خصوصاً اليهود منهم الذين أظهروا للفاتحين إخلاصاً أدى إلى الثقة بهم والاستقامة إليهم، فكان من نتائج ذلك أن تولى الوزارة في غرناطة اليهودي المعروف بابن نغذالة، استوزره ابن باديس^(٢) صاحب غرناطة، وقد قتل هذا الوزير اليهودي سنة ٤٥٩ هـ.

== حوت + مؤنثاً، على لغة شرق الأندلس، فإنهم يفتحون أول الكلمة من نحو الحوت والسمور، وينطقون بالناء طاء، فيقولون في حوت : حوط، ويلحقون آخر المعنى لأملاً مشددة مفتوحة في المؤنث، مضمومة في المذكر، وهاء ساكنة فيقولون في تصغير حوت : حوطله وحوطله. فمن الذي يسمع حوطله في هذه الأيام ويفهم أن المراد بها تصغير حوت.

(١) ٤٦ ج ٣ الأدب العربي وتاريخه.

(٢) من ملوك الطوائف.

وأظهر هذه العناصر العرب، وهم حكام البلاد وساستها وقوادها، وقد كثر عددهم في الأندلس، حتى كانت بعض الأنساب بالمشرق مفقودة، وفي الأندلس متصلة، كما في نسب الأنصار الذين كان منهم في الأندلس عدد كبير، وكان الأثر لذلك ذبوع اللغة العربية على الألسنة، وخفتها في الأفواه، واتخاذ الجميع لها لغة تخاطب ينطقون بها معربة سليمة فصيحة، أو يحرفونها تحريفاً قليلاً.

وقد كانت العامة تشارك في الأدب وتحتفي به، وكانت لغة تخاطبها تكاد تكون أدباً، وكان منهم شعراء، وكتاب، وأدباء؛ وقد روى لنا القزويني عن مدينة « شلب » بالبرتغال، أن من إحدى عجائبها أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً، ولا يعاني الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه، وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبته منه^(١).

وهذا كله ناشئ عن رقي الثقافة والميل إلى الأدب، وكانت هناك فنون أدبية ذائعة الصيت بين الناس، وأغان عامة متداولة في هذه البيعة. وكان من بين تلك الأغاني الدارجة: فننا الزجل والموشحات، وهما ضربان محبوبان، وكلاهما مبتدع في إسبانيا، ووضعهما معروف وإنشاؤهما متجانس، ويركب أغلب هذه الأغاني والأوضاع الدارجة، من العامية الرقيقة غير المقيدة بقواعد اللغة. وأول من رفع الزجل إلى مرتبة الأدب هو ابن قزمان في سنة ١١٦٠ ميلادية. ومما نقل إلينا من مخلفات الأمويين بالأندلس، نرى أن شغفهم بالشعر والموسيقى والبلاغة الراقية، قد زاد حتى كان قريباً عن حبهم الحديث.

وكثير من الشعراء كان يلتقط المعاني التي تدور على ألسنة العامة، فينظمها ليتغنى الناس بها، حتى قربت لهجاتهم من اللهجات العامية،

(١) ص ٢٤٥ عجائب المخلوقات.

وأصبحت خليطاً من اللغة الفصحى وكلام العامة، وصار الناس ينظمونها غير متبعين قواعد اللغة وأصولها. فتعددت لهجاتها، وتولد من ذلك فن الزجل : وهو نوع من الشعر العامي المتوغل كثيراً في لهجات العامة وأغانيهم. وقد ذاع أمر الزجل وتعددت لهجاته بتعدد الأماكن التي نشأ بها، واشتمل على أنواع من الشعر، أكثرها الغزل والوصف، وكثيراً ما يكون الزجل أصدق في التعبير عن النفوس من الشعر الفصيح، لقربه من تعبير العامة واشتماله على عباراتهم المألوفة، وعدم احتياجه إلى التكلف في الصناعة، واختيار الألفاظ، وأول من ابتكر الزجل أبو بكر محمد بن قزمان القرطبي المتوفي سنة ٥٥٥هـ. ثم ظهرت أنواع أخرى من الشعر العامي سميت بأسماء مختلفة.

ويقول باحث : وكان كلما مضى الزمن على الفتح، ونزع العرب في الأندلس إلى الترف، وألقوا سكنى المدن، لانت جلودهم وألستهم، وبعد عهدهم بالفطرة العربية، فتمازت لغة حديثهم عن لغة كتابتهم، وصار إلى العربية كل ما يصير إلى اللغات حين يفقد أهلها ملكاتهم : من تحريف، وتصحيف، وإهمال للإعراب، واشتقاق على غير القياس العربي، واستعمال لكلمات من الذخيل، واختلاف في نبر الحروف ولهجة النطق. وكذلك الشأن في خلطاء العرب، من البربر وأهل البلاد، اضطربت في ألستهم لغاتهم واللغة العربية، فنشأت ألفاظ ليست من هذه ولا من تلك، وحدثت منهم أساليب في العربية يحاكون بها أساليب لغتهم التي درجوا عليها، وهكذا حتى تألفت لغة جديدة تحمل سمات اللغات لهؤلاء المتخاطبين، وتلك هي التي تسمى « اللغة العامية ».

وهذه العامية تحتاج إلى زمن في تكوينها، وتمام بنائها، وتأصل ملكتها، لذلك تراها في بلاد الأندلس قد صارت كذلك بعد حين، فغلبت على الألسنة حتى لا يستطيع العالم النحوي، الذي وعى علم العربية، وحفظ شواهداها، وفصل مسائلها أن يقيم لسانه لحناً، ذكروا

ذلك عن الشلوبيني، قال صاحب نفع الطيب في معرض الكلام على علم النحو : « والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة، وإن كان كلامهم الشائع في الخواص والعوام، كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية، حتى إن شخصاً من العرب لو سمع كلام الشلوبيني أبي علي المشار إليه بعلم النحو في عصره، الذي غربت تصانيفه وشرقت، وهو يقرأ درسه، لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه. والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب، وأخذ يجري فيه على قواعد النحو، استقلوه واستبدوه، ولكن ذلك مراعى عندهم في القراءات والمخاطبات والمراسلات ».

ولكن هذه العامية التي صارت لسان الخاص والعام في محادثاتهم، كانت عامية مقبولة، يغلب في كلماتها العنصر العربي، ويقل الدخيل، ولا يشتد التحريف، ترى كل ذلك مائلاً في موشحاتهم، وأزجالهم، التي هي أدب عامتهم، فأنت لا تكاد تعثر فيها بدخيل، ولا بمحرف بعد من أصله كل البعد، وإن كان إهمال الإعراب شائعاً فيها، لأنه أول ظاهرة تبدو في عامية اللغة العربية في أي بلد نشأت.

على أن هذه الموشحات والأزجال، لا ينبغي أن تعد مقياساً مضبوطاً للعامية، ولا مثلاً صادقاً لما كانت عليه، فإنها عامية الخاصة، إذ كان أغلب قائلها من الشعراء المعربين، الذين تبسطوا في قولهم، توسعوا في أدبهم، فقالوا الموشحات والأزجال، فتكون لغة هذين الفئتين هي عامية الأدباء، وإن كانت لا بد مفهومة للعامية، لأنهم هم المقصودون بها في الخطاب، فهي تدل من قريب على اتجاه العامية على أهل الأندلس، فهي عامية غير مستقلة، ولا مستبشرة ».

الباب الثاني

الشعر الأندلسي

تمهيد

كان الملوك في الأندلس أدباء وشعراء، يتذوقون الأدب، ويقرضون الشعر، والأدب أعرف بقيمة الأديب، والشاعر آنس بالشاعر، فكانوا لهذا يتنافسون في تعهد الأدباء، وإثابة الشعراء، ويبالغون في إكرامهم، وإجزال العطاء لهم. وكان عبد الرحمن الداخل شاعراً، وكان ابنه هشام أديباً، وكان المستنصر عالماً وأديباً، وكذلك كان بقية الخلفاء والوزراء والملوك : كابن أبي عامر، وملوك بني الألفطس والمعتضد وابن جهور وغيرهم. وقد يكون من فرط عناية بعض هؤلاء الملوك بالأدب واعتدادهم بالشعر ألا يستوزروا وزيراً إلا أن يكون شاعراً أديباً كما فعل المعتضد، ولقد قالوا : إنه لم يجتمع من فحول الشعراء وأمراء الكلام بيباب أحد من ملوك الإسلام ما اجتمع بيباب الرشيد والصاحب بن عباد، والمعتضد هذا وكان بحضرتة مثل : ابن زيدون وابن اللبانة وابن عمار وابن وهبون وغيرهم.

وفي هذا الاهتمام من جانب الخلفاء والملوك ما فيه من بعث الهمم، واستنهاض القرائح، والنهوض بالشعر والأدب.

وكان المعتضد يناظر المتوكل بن الألفطس، وكان في حضرة بطليوس كالمعتد بإشبيلية، يتردد أهل الفضل بينهما كتردد النواسم بين جنتين،

وينظر الأدب منهما عن مقلتين، والمعتمد أشعر والمتوكل أكتب^(١). وقد صرف ملوك الطوائف جهودهم إلى العناية بالأدب والشعر، فصار المدح لغذاء أرواحهم كالملح لطعام أجسامهم، وظلت هذه العادة فيهم، حتى إن يوسف بن تاشفين لما دخل الأندلس توسط له المعتمد بن عباد عند الشعراء ليمدحوه حتى لا يصغر شأنه، مع أنه دخل في نجدة لهم على الإفرنج، وكان على يده النصر المبين^(٢). ولو زعم أحد أنه لم يقم أحد من أمراء الأندلس وخلفائها ووزرائها إلى آخر القرن الخامس إلا وهو جامع أسباب الأدب، لكان خليقاً أن يصدق في زعمه، ولولا أدبهم لما نفق الأدب عندهم.. ولم يعرف فيهم من أهل الركافة والسخف إلا المستكفي والد ولادة.

— ٢ —

وكانت مجالس الأدب في الأندلس من أكبر مسارح الأفكار، وأفخم مظاهر الجمال، وأظهر مظاهر الحياة العقلية والاجتماعية، كانت تحفل بأنواع الأدب، وألوان الطرب، وأفانين اللهو والسمر، وكان الشعر فيها نشوة الشارب، وغناء الراقص، ولغة الكؤوس، وأدب النفوس.

وكان للمنصور بن أبي عامر مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل الأدب والعلم، للمناظرة بحضرتة^(٣)، وكان للمعتمد دار مخصوصة بالشعراء، وديوان تقيد فيه أسماءهم، وقد جعل لهم يوماً يفرغ لهم

(١) الفتح ج ٢ ص ٢٥٣.

(٢) تاريخ الأدب للرافعي ج ٣ ص ٢٩٢.

(٣) المعجب للمراكشي.

فيه، فلا يدخل عليه غيرهم^(١) :

١ — ومن مجالس الأدب ما يروى من أن المنصور جلس يوماً^(٢) وعنده اعيان مملكته ودولته من أهل العلم كالزبيدي والعاصمي وابن العريف وغيرهم، فقال لهم المنصور : « هذا الرجل الوافد علينا^(٣) يزعم أنه متقدم في هذه العلوم، وأحب أن يمتحن، فوجه إليه، فلما مثل بين يديه، والمجلس قد احتفل، خجل، فرغ المنصور محله، وأقبل وسأله عن ابن سعيد السيرافي، فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه. فبادره العاصمي بالسؤال عن مسألة من الكتاب، فلم يحضره جوابها، واعتذر بأن النحو ليس جل بضاعته، فقال له الزبيدي : « فما تحسن أيها الشيخ ؟ ». فقال : « حفظ الغريب ». قال : « فما وزن أولق ؟ ». فضحك صاعد وقال : « أمثلي يسأل عن هذا ؟ إنما يسأل عنه صبيان المكعب ! » قال الزهري : « قد سألتك، ولا نشك أنك تجهله » فتغير لونه وقال : « أفعل وزنه ».

فقال الزبيدي : « صاحبكم ممخرق ! ».

وقال له صاعد : « إخال الشيخ بضاعته الأبية ! » فقال له : « أجل »، فقال صاعد : « وبضاعتي أنا حفظ الأشعار، ورواية الأخبار، وفك المعنى وعلم الموسيقى ! ». قالوا : « فاظره ابن العريف فظهر عليه صاعد وجعل لا يجري من المجلس كلمة، إلا أنشد شعراً شاهداً، وأتى بحكاية تجانسها ».

(١) النفع حد ٢ ص ٤٦٨.

(٢) نفع الطيب.

(٣) يعني أبا العلاء صاعداً.

٢ - ومن مجالس الأدب ما يروى من أن صاعداً الأندلسي^(١) كان بين يدي المنصور، فأحضرت إليه وردة في غير وقتها لم يستم فتح ورقها، فقال فيها صاعد مرتجلاً :

أتيتك أياً عامر وردة يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكامها رأسها

(١) هو صاعد بن الحسن الربيعي، وكنيته أبو العلاء، وأصله من الموصل، وقد تعلم في بغداد، واستمر بها حتى تبحر في اللغة والأدب، ثم ورد على المنصور بن أبي عامر سنة ٣٨٠، في أيام إمارته، فأراد المنصور أن يعفي به آثار أبي علي اللقائي، فلم يجد منه ما يرتقبه، وأعرض عنه أهل العلم، وقدحوا في علمه ودينه، ولم يأخذوا عنه شيئاً، لقلّة الثقة به.

وقد ذكر ابن بسام أن الأندلسيين دحضوا كتابه « الفصوص » الذي ألفه للمنصور - ونحا به منحي كتاب النوادر للقائي - وأنهم ألّفوه في النهر، وذكر الماركسي صاحب كتاب المحجب والمقري هذه الحكاية بروايات أخرى، أشهرها أنه دفع الكتاب للغلام بعد تمامه، فمير فزلت قدم الغلام به وهو يمر نهرًا، فسقط هو والكتاب في النهر. قالوا: ففرح ابن العريف بذلك وقال مرتجلاً بحضرة المنصور :

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل تقبيل بفصوص

فضحك المنصور والحاضرون، ولكن ذلك لم يرع صاعداً، وقال :

إلى معدنه إنما توجد في قعر البحار الفصوص

وكان السبب في تأليفه هذا الكتاب، أن المنصور أراه كتاب النوادر للقائي، فأكد له صاعد أن في قدرته أن يؤلف كتاباً خيراً منه، وقال له : « إن أراد المنصور أمليت على كتاب دولته كتاباً أرفع منه وأجل، لا أورد فيه خيراً مما أورده أبو علي ! فلما أذن له المنصور بذلك جلس بجامع « الزاهرة » وكتب كتابه « الفصوص » حتى أكمله. قالوا : فنتبعه أدباء ذلك الوقت فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم، ولا خير ثبت لديهم ! ».

ولقد أحسن ابن بسام كل الإحسان، وتوخي شرعة الإنصاف والعدالة، في تعليقه على هذا الخبر، حين قال : « ما أظن أن يجترئ على مثل هذا ! وإنما صاعد اشترط أن لا يأتي إلا بالقریب غير المشهور، وأعانهم على نفسه، بما كان يتقف به من الكذب.

فسر بذلك المنصور، وكان ابن العريف حاضراً، فدعاه إلى مناقضته، وقال للمنصور : هذان البيتان لغيره، وقد أنشدتهما بعض البغداديين بمصر لنفسه، وهما عندي على ظهر كتاب بخطه، فقال له المنصور : « أرنيه » فخاف ابن العريف، وركب وحرك دابته حتى أتى مجلس ابن برد، وكان أحسن أهل زمانه بديهة، فوصف له ما جرى، فقال هذه الأبيات ودرس فيها بيتي صاعد :

عشوت إلى قصر عباسية	وقد جدل النوم حراسها
فألقيتها - وهي في خدرها	وقد صرع السكر أناسها -
فقلت « أسار على هجمة ؟ »	فقلت « بلى ! » فرمت كاسها
ومدت يديها إلى وردة	يحاكي لك الطيب أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر	ففسطت بأكامها رأسها
وقالت خف الله لا تفضحن	في إبنة عمك عباسها
فوليت عنها على غفلة	وما خبت ناسي، ولا ناسها

فطار ابن العريف بها، وعلقها على ظهر كتاب بخط مصري، ومداد أشقر ودخل بها على المنصور.

فلما رآها اشتد غيظه، وقال للحاضرين :

« غداً أمتحنه، فإن فضحه الامتحان أخرجته من البلاد، ولم يبق في موضع لي عليه سلطان ! ».

فلما أصبح، وجه إليه، فأحضره، وأحضر معه جميع الندماء، فدخل بهم إلى مجلس محفل، قد أعد فيه طبقاً عظيماً فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير، ووضع على السقائف لعب من ياسمين في شكل الجواري، وتحت السقائف بركة ماء، قد ألقى فيها اللآلئ مثل الحصباء، وفي البركة حية تسبح.

فلما دخل صاعد ورأى الطبق، قال له المنصور : « إن هذا اليوم،

إما أن تسعد فيه معنا، وإما أن تشقى بالضد عندنا، لأنه قد زعم قوم أن كل ما تأتي به دعوى، وقد وقفت من ذلك على حقيقة، وهذا طبق، ما توهمت أنه عمل لملك مثله، فإن وصفته بجميع ما فيه، علمت صحة ما تذكره.»

فقال صاعد بديهة :

أبا عامر! هل غير جدواك واكف يسوق إليك الدهر كل غريبة وشائع نور، صاغها هامر الحيا ولما تنهى الحسن فيها، تقابلت كمثل الظباء المستكنة كنسا وأعجب منها أنهم نواظر حصاها اللآلي، سابح في عباها ترى ما تراه الحسن في جنياتها وهل غير من عاداك في الأرض خائف؟ وأعجب ما يلقاه عندك واصب على حافظها عيقر ورفارف عليها بأنواع الملاهي الوصائف تظللها بالياسمين السقايف إلى بركة ضمت إليها الطرائف من الرقش مشعوم الشعابين زاحف من الوحش، حتى بينهن السلاحف

قالوا : « فاستغربت له يومئذ تلك البديهة، في مثل ذلك الموضوع، وكتبها المنصور بخطه.»

وكان إلى ناحية من تلك السقايف سفينة فيها جارية من النور تجذب بمجاديف من ذهب لم يرها صاعد، فقال له المنصور : « أحسنت ! إلا أنك أغفلت ذكر المركب والجارية»، فقال للوقت:

وأعجب منها غادة في سفينة إذا راعها موج من الماء تنقي متى كانت الحسناء ربان مركب ولم تر عيني في البلاد حديقة ولا غرو إن ساقط معاليك روضة فأنت امرؤ، لو رمت نقل متالع إذا رمت قولاً، أو طلبت بديهة مكللة تصبو إليها المهائف بسكانها، ما إن ذرته العواصف تصرف في يميني يديها المجاذف تنقلها في الراحتين الوصائف وشتها أزاهير الربي والزخارف ورضوى، زوتها من سطاك نواسف فكلني له، إني لمجدك واصف

قالوا : « فأمر له المنصور بألف دينار ومائة ثوب، ورتب له في كل شهر ثلاثين ديناراً^(١) ».

٣ — ومن مجالس الأدب هذا المجلس في مناقضة صاعد لابن العريف في حضرة المنصور : دخل ابن العريف يوماً على المنصور، وعنده صاعد، فأنشده — وهو بالموضع المعروف بالعامرية — من أبيات :
فالعامرية تزهي على جميع المباني
وأنت فيها كسيف قد حل في غمدان

فأظهر صاعد للمنصور أن في استطاعته أن يرتجل خيراً من هذا الشعر الذي أعده ابن العريف وروى فيه، فطلب منه المنصور أن يفعل، ليظهر صدق دعواه، فقال من غير فكرة طويلة :

يا أيها الحاجب المعدي خلي علي كيسان
ومن به قد تناهسي فخار كل يمانسي
العامرية أضحت كجنة الرضوان
فريسة لفريسة ما بين أهل الزمان

ثم مر في الشعر إلى أن قال في ختام الأبيات :
فدم مدى الدهر فيها فسي غبطة وأمان

فأعجب المنصور ببدايته، وقال لابن العريف : « ما لك فائدة في مناقضة من هذا ارتجاله، فكيف تكون رويته ؟ ».

فأجابه ابن العريف : « إنما أنطقه وقرب عليه المأخذ إحسانك ! ». فقال له صاعد : « يفهم من هذا أن قلة إحسانه إليك أسكتك وبعدت عليك المأخذ ».

فضحك المنصور وقال : « غير هذه المنازعة أليق بأدبكما ! ».

(١) فتح العطب.

٤ — ومن مجالس الأُنس واللّهو ما يروى من أن صاعداً اللغوي كان كثيراً ما يمدح بلاد العراق بمجلس المنصور ويصفها ويقرظها، فكتب الوزير عبد الملك بن شهيد^(١) إلى المنصور في يوم برد، بهذه الأبيات :

أما ترى برد يومنا هذا	صيرنا للكمون أفذاذاً ؟
قد فطرت صحة الكيود به	حتى لكادت تعود أفلاذاً ؟
فادع بنا للشمول مصطلياً	نغذ سيراً إليك إغذاذا
وادع المسمى بها، وصاحبه	تدع نبيلاً، وتدع أستاذا
ولا نبالي أبا العلاء ^(٢) زها	بخمر قطربل وكلسواذا
ما دام في أرملاط مشربنا	دع دير عمى، وطيرنا باذا

وكان المنصور قد عزم ذلك اليوم على الانفراد بالحرم، فأمر بإحضار من جرى رسمه من الوزراء والندماء، وأحضر ابن شهيد في محفة، لنقرس كان يعتاده وأخذوا في شأنهم، فمر لهم يوم لم يهدوا مثله، ووقت لم يعهدوا نظيره وطما الطرب، وسما بهم، حتى تهايج القوم ورقصوا، وجعلوا يرقصون بالنوبة، حتى انتهى الدور إلى ابن شهيد، فأقامه الوزير أبو عبدالله بن عباس فجعل يرقص، وهو متوكئ عليه، ويرتجل، ويومي إلى المنصور، وقد غلبه السكر :

هاك شيخاً قاده السكر لكا	قام في رقصته مستهلكا
لم يطلق يرقصها مستثيبا	فانثني يرقصها مستمسكا
عافه عن هزها منفردا	نقرس، أختى عليه، فاتكى
من وزير فيهم رقاصة	قام للسكر يناغي ملكا !
أنا لو كنت كما تعرفني	قمت اجلالا على رأسي لكا
قهقه الإبريق مني ضاحكا	ورأى رعشة رجلي فبكي

(١) عبد الملك ابن شهيد هو والد الوزير أبي عامر أحمد بن شهيد.. وابنه شاعر مشهور.
(٢) يعني أبا العلاء صاعداً.

قالوا : « وكان حاضرهم ذلك اليوم، رجل بغدادي حسن النادرة سريعها^(١) فلما رأى ابن شهيد يرقص قائماً من ألم المرض الذي كان يمنعه من الحركة، قال : « لله درك يا وزير ! ترقص بالقائمة وتصلي بالقاعدة ؟ ».

فضحك المنصور وأمر لابن شهيد بمال جزيل ولسائر الجماعة وللبغادي^(٢).

٥ — وذكر ابن بسام أن أبا عامر بن شهيد أحمد بن عبد الملك الوزير^(٣)، أهدي له غلام من النصارى لم تقع العيون على شبهه فلمحه الناصر فقال لابن شهيد : « أنى لك هذا ؟ » فقال (هو من عند الله)، فقال له الناصر : تتحفوننا بالنجوم وتستأثرون بالقمر ؟ فاستعذر واحتفل في هدية بعثها مع الغلام وقال : يا بني كن مع جملة ما بعثت به، ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسي. وكتب معه هذين البيتين :
أمولاي هذا البدر سار لأفلكم وللأفق أولى بالبدور من الأرض
فأرضيكم بالنفس وهي نفيسة ولم أر قبلي من يمهجته يرضي
فحسن ذلك عند الناصر، وأتحفه بمال جزيل، وتمكنت عنده مكانته، ثم إنه بعد ذلك أهديت إليه جارية من أجمل نساء الدنيا، فخاف أن ينتهي ذلك إلى الناصر فيطلبها فتكون كقصة الغلام، فاحتفل في هدية أعظم من الأولى وبعثها معها، وكتب له هذه الأبيات :
أمولاي هذي الشمس والبدر أولاً تقدم، كيما يلتقي القرمان
قران لعمري بالسعادة ناطق قدم منهما في كوثر وجنان
فما لهما والله في الحسن ثالث وما لك في تلك البرية ثان

(١) كان يعرف بالفكيك، وكان ابن شهيد استحضره إلى المنصور.

(٢) المقرئ.

(٣) راجع كتاب فتح الطيب ص ٢٢٩-٢٣٣ وص ٢٤٦ و ٢٤٧ ج ١.

فتضاعفت مكانته عنده، ثم إن أحد الوشاة رفع للملك أنه بقي
في نفسه من الغلام حزازة وأنه لا يزال يذكره حين تحركه الشمول
ويقرع السن على تعذر الوصول، فقال للواشي بذلك : لا تحرك لسانك
وإلا طار رأسك، وأعمل الناصر حيلة في أن كتب على لسان الغلام
رقعة منها : يا مولاي تعلم أنك كنت لي علي انفراد ولم أزل معك
في نعيم، وإني وإن كنت عند الخليفة مشاركاً في المنزل له، محاذر
ما يبدو منه من سطوة الملك، فتحيل في استدعائي منه.. وبعثها مع
غلام صغير السن وأوصاه أن يقول من عند فلان، وأن الملك لم يكلمه
قط، إن سأله عن ذلك، فلما وقف أبو عامر على الرسالة واستخبر
المخادم فعلم في سؤاله ما كان في نفسه من الغلام وما تكلم به في
مجالس المدام، كتب على ظهر الرقعة، ولم يزد حرفاً :
أمن بعد إحكام التجارب تبتغي لدي سقوط العير في غابة الأسد ؟
وما أنا ممن يغلب الحب قلبه ولا جاهل ما يدعيه أولو الحسد
فلما وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ولم يعد إلى استماع
واش به، ودخل عليه بعد ذلك فقال له : كيف خلصت من الشرك ؟
فقال : لأن عقلي بالهوى غير مشترك، فأنعم عليه وازدادت محبته عنده.

— ٣ —

وكان ذكاء الأندلسيين مما يجعلهم نابغين في الأدب، ملهمين في
الشعر والنثر، ومن مثل ذكائهم وجودة قرائحهم وبصرهم ببلاغة الكلام :
ما يروى عن القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة بقرطبة،
قال : أتيت وأبو جعفر بن النحاس في مجلسه بمصر يملئ في أخبار
الشعراء شعر قيس المجنون، حيث تقول :
خليلي هل بالشام عين حزينه تبكي على نجد، لعلي أعينها

قد اسلمها الباكون إلا حمامة مطوقة باتت وبات قرينها
تجاوبها أخرى على خيزرانة يكاد يدينها من الأرض لينها
فقلت له : يا أبا جعفر، ماذا — أعزك الله تعالى — باتا يصنعان ؟
فقال لي : وكيف تقول أنت يا أندلسي ؟. فقلت له : باتت وبان قرينها.
فسكت. وما زال يستقلني بعد ذلك حتى منعتني كتاب العين.

وقد امتاز الأندلسيون كذلك بحافظة قوية اعتمدوا عليها في رواية
الأدب والشعر، ومن نوادر حافظة الأندلسيين القوية الواعية : ما يروى
عن الوزير أبي بكر ابن وزير أبي مروان عبد الملك، قال : « بينما
أنا قاعد في دهليز دارنا وعندني رجل ناسخ أمرته أن يكتب لي
كتاب الأغاني. فجاء الناسخ بالكراريس التي كتبها فقلت له : « أين
الأصل الذي كتبت منه لأقابل معك به ؟ » قال : « ما أتيت به معي »،
فبينما أنا معه في ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذ الهيئة، عليه
ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لائها من غير إتقان
لها، فحسبته لما رأيته من بعض سكان أهل البادية. فسلم وقعد. وقال :
« يا بني ! استأذن لي على الوزير أبي مروان » فقلت له : هو نائم،
هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف، حملني على ذلك نزوة الصبي،
وما رأيت من خشونة هيئة الرجل، ثم سكت عني ساعة وقال : « ما
هذا الكتاب الذي بأيديكما ؟ » فقلت له : « ما سؤالك عنه ؟ » قال :
« أحب أن أعرف اسمه فإنني كنت أعرف أسماء الكتب فقلت : هو
كتاب الأغاني فقال : إلى أين بلغ الكاتب منه قلت : « بلغ موضع كذا ».

وجعلت أتحدث معه على طريقة السخرية به والضحك على قلبه،
قال : وما لكاتبك لا يكتب ؟ قلت : طلبت منه الأصل الذي يكتب
منه لأعارض هذه الأوراق، فقال : لم أجيء به معي، فقال : يا بني
خذ كراريسك وعارض. قلت : بماذا ؟ وأين الأصل ؟ قال : كنت
أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي، فتيسمت من قوله. فلما رأى تيسمي

قال : يا بني أمسك علي. فأمسكت عليه وجعل يقرأ، فوالله إن أخطأ
واوً ولا فاء. هكذا نحو كراسين؛ ثم أخذت له في وسط السفر وآخره
قرأت حفظه في ذلك كله سواء. فاشتد عجبني، وقمت مسرعاً حتى
دخلت على أبي فأخبرته الخبر ووصفت له الرجل، فقام كما هو من
فوره لا يرفق علي نفسه وأنا بين يديه، وهو يوسعي لوماً حتى ترامى
على الرجل وعانقه، وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول : « يا مولاي !
اعذرتي، فوالله ما أعلمني هذا الخلف إلا الساعة » وجعل يسبني والرجل
يخفض عليه ويقول : ما عرفني. وأبي يقول : هبه ما عرفك فما عذره
في حسن الأدب ؟ ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلاه به، فتحدثنا
طويلاً، ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافياً حتى بلغ الباب، وأمر
بدايته التي يركبها فسرحت وحلف عليه ليركبها ثم لا ترجع إليه أبداً .
فلما انفصل قلت لأبي : من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم ؟
فقال لي : اسكت ! ويحك ! هذا أديب الأندلس وسيدها في علم
الأدب. هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، أيسر محفوظاته كتاب
الأغاني، وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته. وكان ابن عبدون
يلقب بأصمعي الأندلس.

ولهذا دلالة قوية على عناية الوزراء وأرباب السلطان بالأدب ورجالهم،
ووضعهم إياهم في المكان الأول من الإجلال والرفعة، وقد أطنبت
الحكاية في وصف ذلك، ودلالة كذلك على اهتمام الأندلسيين الشديد
بنقل كتب الشرق ونسخها لتعم فائدتها، ولقد يزيدكم اقتناعاً بهذا
الرأي ما يروى عن الحكم الثاني وعنايته الفائقة الحدود باقتناء الكتب
النفيسة وجليها من أقصى بلاد الشرق، حتى لقد بادر بشراء كتاب
الأغاني قبل أن ينشر في الشرق نفسه، ودليل على شغف الأندلسيين
بالإكثار من المحفوظات إلى حد يصعب تصديقه على من لم يدرس
حياة العرب دراسة جيدة، فإن من لا يعرف المنزلة العالية التي وصلت

إليها ملكات العرب في الشرق لا يستطيع تصديق هذه الحكاية وأمثالها مما يروونه عن عرب الأندلس، ولقد كان يكفي لاعتبار الإنسان أديباً أن يكون حفاظة، ولقد أكثر ملوك الأندلس من اقتراح حفظ كتب بعينها، وخصوصاً من يفعل ذلك بجوائز مالية، فاشتد إقبال الناس على تنفيذ رغباتهم طمعاً في ذلك، وقد وصل حفاظ الأندلس إلى درجة لا تقل عما وصل إليه حفاظ المشرق.

الفصل الأول

مواقف للشعر والشعراء

— ١ —

قفل أمير المؤمنين يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن
(٥٨٠ — ٥٩٥ هـ) من غزوة الأراكة سنة ٥٩١ هـ، فورد عليه الشعراء
من كل قطر يهتونه، فلم يمكن لكثرتهم أن ينشد كل قصيدته، بل
كان يختص منها بالإنشاد البيتين، أو الثلاثة المختارة، فأنشده أحدهم :
ما أنت في أمراء الناس كلهم إلا كصاحب هذا الدين في الرسل
أحييت بالسيف دين الهاشمي كما أحياه جدك عبد المؤمن بن علي
فأمر له بألفي دينار ولم يصل غيره من الشعراء عملاً بقولهم :
« منع الجميع أرضى الجميع »، وانتهت إليه رقاع الشعراء وغيرها،
وتراكت حتى حالت بينه وبين ما أمامه.

— ٢ —

ذكر الفتح بن خاقان أن ذا الوزارتين القائد عيسى بن ليون، كان
بمجلس مشرف على بطحاء قد لبست زخرفها، وديج الغمام مطرفها؛

وفيها حدائق ترنو عن مقل نرجسها، وتبت طيب تنفسها، والجلنار
قد ليس أردية الدماء، والراح قد ملك أفدة الندماء، فقال :
قم يا نديم أدر على القرقفا أو ما ترى زهر الرياض مفوقاً^(١)
فضخال محبوباً مدلاً وردّها وتظن نرجسها محبباً مدنفاً^(٢)
والجلنار دماء قتلى معرك والياسمين حباب ماء قد طفا

— ٣ —

كان ذو الوزراتين أبو بكر بن رحيم، قد مال مع أصحابه إلى إحدى
جنت مرسية، فحلوا منها في قبة فوق جدول مطرد، وتحت أدواح
طيرها غرد، وإذا بالجنان وقف عليه، وقال كان بموضعكم هذا بالأمس
صاحب الموضع ومعه شعور منشورة، وخدود غير مستورة. فاستدعى
الوزير فحماً، وكتب على إحدى زوايا القبة :
قادنا ودنا إليك فجتنا بنفوس فدتك من كل يؤس
فنزنا منازلنا لبدور وحلنا مطالعاً لشموس

— ٤ —

قال أصحاب القاضي أبي عبدالله محمد بن عيسى : ركبنا لبعض
الأمر في موكب حافل من وجوه الناس، إذ عرض لنا فتى متأدب
قد خرج من بعض الأزقة سكران يتمايل، فلما رأى القاضي هابه، وأراد
(١) القرقف : كجفراسم الخمر، يرعد منها صاحبها، قيل سميت قرقفاً لأنها تفرق
صاحبها أي ترعده، وأنكر بعضهم أنها تفرق الناس، وقال الليث : هي اسم للخمر.
المغوف : كمعظم، برد رقيق، أو فيه خطوط بيض.
(٢) دنف المريض نقل مرضه، وأدنفه المرض، فالمرضى مدنف ومدنف، بصيغتي الفاعل
والمفعول.

الانصراف فخائته رجلاه واستند إلى الحائط، فلما قرب منه القاضي
رفع رأسه، وأنشأ يقول :
ألا أيها القاضي الذي عم عدله فأضحى به في العالمين فريدا
قرأت كتاب الله تسعين مرة فلم أر فيه للشراب حدودا
فإن شئت أن تجلد فدونك منكياً صبور على ريب الزمان جليدا
وإن شئت أن تعفو تكن لك منة تروح بها في العالمين حميدا
وإن أنت تختار الحديد فإن لي لساناً على مر الزمان حديدا
فلما سمع القاضي شعره، وميز أدهبه، أعرض عنه، وترك الإنكار عليه.

— • —

غنى الوزير أبو بكر بن رحيم في بعض الليالي بهذا الشعر :
بدا فكأنما قمر على أزراره طلعا
وقد خلعت عليه الرا ح من أثوابها خلعا
وكان من الحاضرين من استحسنت الشعر، فرغب إليه في تذييله، فقال :
فأهدى من محاسنه إلى أبصارنا بدعا
فلما فت أكيدنا وحاز قلوبنا رجعا
ففاضت أعين أسفاً وفاضت أنفس جزعا^(١)

(١) يقال فاض الماء فيضاً وفيضوضاً وفيضاناً : بمعنى كثر حتى سال، وفاضت نفس الرجل. وفاض الرجل فيوضاً وفيضاً : مات.

— ٦ —

استدعى المتوكل الأديب الحكيم أبا الفضل بن شرف، في يوم
ماطر، ونسيم روض عاطر، فصيحته في مشاة إليه سحابه بلت عليه
ثيابه، فلما دخل على المتوكل أدناه، وأكرم مثواه، وهزه إلى القول
في ذلك فاهتز، وقال :

صاحبا الغيث الى الغيث لكنه غيث بلا عيث
سحابة تهسى حياها سرى لا تخلط الإعجال بالريث
يا ليث غاب حسنه باهر والحسن لا يعرف لليـث
أحلتي قربك في موضع يجل عن أين، وعن حيث^(١)

— ٧ —

رأى الشتريني نجماً في السماء، وترك وراءه مستطيل ضياء، فقال :
وكوكب أبصر العفريت مسترقاً للسمع فانقض يذكي إثره لهبه
كفارس حل إحضار^(٢) عمامته فجرها كلها من خلفه عذبه !!

— ٨ —

ركب المحمد بن عباد المتوفى عام ٤٨٧هـ للنتزه بظاهر إشبيلية،
في جماعة من ندمائه، وحشد من شعرائه، فلما بعد أخذ في المسابقة
بالخيول، فجاء فرسه بين البساتين سابقاً، فرأى شجرة تين قد أنتعت
وزهت، وبرزت فيها ثمرة فسدد إليها عصا كانت في يده فأصابها،

(١) أي المكان.

(٢) الاحضار : العدو.

وثبتت في أعلاها فأطربه ذلك، والثفت ليخبر من لحقه من أصحابه،
ف رأى ابن حاج الصباغ أول لاحق به، فقال أجز :
كأنها فوق العصا.....

فأجابه مسرعاً :

.....هامة زنجي عصا

وابن حاج هذا كان صباغاً عامياً، ولكنه قال الشعر فاشتهر أمره
حتى جالس الملوك، وقد مر عليه الوزير أبو بكر بن عمار المتوفى
عام ٤٧٩ هـ فرأى ما فعلت الصباغة بيده، فأخرج زنده وأشار إليه، وقال :
كم بين زند وزند.....

فقال ابن حاج ما بين وصل وصد

— ٩ —

ذكر ابن بسام في الذخيرة، قال : اجتمع ابن عبادة وعبدالله بن
القابلة البستي بالمرية فنظر إلى غلام وسيم يسبح في البحر، وقد تعلق
بسكان^(١) بعض المراكب فقال ابن عبادة أجز^(٢) : انظر إلى البدر الذي
لاح لك — فقال ابن القابلة : في وسط اللجة تحت الحلك :
قد جعل الماء سماء له وصير الفلك مكان الفلك

(١) السكان : الدفة.

(٢) الإجازة في الشعر أن تكمل مصراع غيرك، وقيل هي أن ينظم الشاعر على شعر
غيره في معناه ما يكون به تمامه وكماله، وهي مشتقة من الإجازة في السقي، يقال :
أجاز فلان فلاناً إذا سقاه وسقى له، فكأنهم شبهوا قول الشاعر المجيز بعمل الشاعر،
والمجاز شعره بسقي الشخص للشخص، قال ابن السكيت يقال للذي يبرد الماء مستجيز،
قال ابن رشيق ويجوز أن يكون من أجزت عن فلان الكأس إذا صرفتها عنه دون
أن يشربها إلى من يليه وكأنهم شبهوا الشاعر لما تعدى باتمام شعره بمجيز الكأس،
قال أبو نواس : وقت لساقها أجزها فلم تكن لينهي أمير المؤمنين وأشربا

— ١٠ —

جلس المعتمد بن عباد يوماً للشرب، وبين يديه ساقية جميلة، قد
تقابل بدر وجهها بشهاب الكأس، واتفق أن لمع البرق فارتاعت، فقال
بديها :

روعها البرق وفي كفها برق من القهوة لماع
عجبت منها وهي شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع ١٩

فلما أعجبه البيتان، استدعى في الحال عبد الجليل بن وهيون المرسي،
وأنشده البيت الأول، وقال أجز، فقال :
ولن ترى أعجب من أنس من مثل ما يمسك يرتاع^(١)

— ١١ —

قال الفتح بن خاقان المتوفى عام ٥٢٩هـ، في كتاب القلائد : خرجت
من اشيلية لوداع كبير من المرابطين، فوجدت معه الوزير أبا محمد
ابن مالك، فلما انصرفنا عدنا متسامرين فمررنا بمرح حسن النبات،
بديع النوار، فبادل ملوك من ممالكه، وضيء الوجه إلى زهرة بديعة
فاقتطفها وأناه بها، لتعجبه من حسنها، فاقترح علي أن أصفه، فقلت :
وبدر بدا والطرف مطلع حسنه وفي كنفه من رائق النور كوكب

فقال مجيزاً :

يروح لتعذيب النفوس ويفتدي ويطلع في أفق الجمال ويغرب
ويحسد منه الغصن أي مهفهف يحيى على مثل الكتيب ويذهب

(١) يرى صاحب البدائع أن هذا البيت أحسن من بيت المعتمد.

ولم يقف تناول الشعر ومعاناته على طائفة دون أخرى؛ فقد قاله الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد، ونبغ فيه كثير من العوام مثل: ابن حاج الصباغ، ويحيى القصاب، كما برزت فيه النساء، مثل: حسانة التميمية — وكانت على أيام الحكم (١٨٠ — ٢٠٦هـ) وابنه عبد الرحمن (٢٠٦—٢٣٨هـ) ومثل حفصة الركونية، المشهورة بالجمال والمال والحسب، ومثل ولادة بنت المستكفي، صاحبة ابن زيدون، ومثل اعتماد جارية المعتمد بن عباد، وأم أولاده، وقد كان أدها سبب تقربها، فقد كان مع ابن عمار وزيره، وقد ركبا النهر فمرت الريح، فزردت صفحة الماء، فقال اب عباد لابن عمال، أجز صنع الريح من الماء زرد.....

فلم يستطع الوزير، فقالت غسالة كانت على مقربة منهما، هي (اعتماد) هذه:

.....أي درع لقتال لو جمد

فطار بها المعتمد إعجاباً، وشفع لها عنده أيضاً قسامة وجهها، فضمها إلى جواريه.

آراء في الشعر الأندلسي

إن الشعر الأندلسي الذي تعوزنا عنه مئات الدراسات لا زال في حاجة ماسة إلى جهد الباحثين وجهادهم للكشف عن جوانبه ونواحيه الغامضة حتى اليوم.

والشعر الأندلسي كان يحفل بأعلام خالدة فيه؛ من أمثال ابن هانيئ متنبى المغرب، وابن زيدون بحتري المغرب، والأعشى التطيلي معري المغرب، وحمدة بنت زياد خنساء المغرب، وسواهم.

ويقول الدكتور أحمد زكي أبو شادي من حديث له عن الشعر الأندلسي :

الدكتور نيكل^(١) من ثقافات العالم في اللغة البروفسية وفي الشعر التروبادور الذي يعده مديناً للشعر العربي في نشأته، وله ذوق أدبي ناضج، وشاعرية مرهفة، وتضلع من اللغة العربية التي درسها كما درس القرآن الكريم والشعر العربي على شيوخ الأزهر، إلى جانب تبحره في لغات أوروبية متعددة بله سياحاته التي تعد وحدها ثقافة إنسانية، ولا غرو إذا تابعت بعد ذلك دراساته وكتبه مثل ترجمته الانجليزية لكتاب (طوق الحمامة) لابن حزم الأندلسي، ومثل نشره كتاب

(١) له : كتاب المختارات من الشعر الأندلسي.

« الزهرة » لأبي داود الأصفهاني بالاشتراك مع فقيه الشعر ابراهيم طوقان، وديوان ابن قزمان القرطبي الذي ترجم بعضه إلى الاسبانية، ناهيك بمحاضراته الجامعية الممتازة في أمريكا وخارجها، وله فضل أدبي على الشعر الأندلسي، وإن أماننا خمسة عصور للشعر الأندلسي تستحق الدرس، ألا وهي عصر بني أمية، فعصر ملوك الطوائف، فعصر المرابطين، فعصر الموحدين، وأخيراً عصر بني نصر في غرناطة وهو آخر أيام العرب في الأندلس.

فاذا نظرنا في نماذج العصر الأول : عصر الإمارة والخلافة الممتد ما بين سنة ست وخمسين وسبعمائة إلى سنة عشرين بعد الألف للميلاد. نجد لعبد الرحمن الداخل من الشعر الوجداني التأملية البليغ الكثير، وشعره جامع بين نضاعة الألفاظ وإشراق البيان وصدق العاطفة مع ملاءمة الموسيقى لما فيه من نزعة تأملية، وهذا أبو المخشي شاعره في أيامه هو الذي مدح سليمان بن عبد الرحمن بشعراً وتوهم عليه فيه أنه عرض بهشام أخيه، وكانت بينهما مباحة ومنافسة، فتعصب متعصب لهشام فسمل عينيه، فقال في العمى شعراً حسناً، ثم قصد به عبد الرحمن بن معاوية فأنشده إياه، فرق له واستعير، ودعا بألفي دينار فأعطاه وضاعف له دية العينين. وهو الشعر الذي أوله :

خضعت أم بناتي للعدى أن قضى الله قضاء فمضى
ورأت أعمى ضريراً، إنما مشيه في الأرض لمس بالعصا
فاستكانت ثم قالت قوله وهي حري بلغت مني المدى
فقؤادي قرح من قولة « ما من الأدواء داء كالعمى »

وفي موسيقى هذه المقصورة صوت فجيعته وأنين لوعته. وهي على غرار الشعر الأندلسي في صدر الفتح الاسلامي من تماسك الألفاظ وامتانة التركيب وصدق العاطفة وروعة المعاني... فاذا بلغنا ابن هاني الأندلسي الذي لقب « بمتنبي الغرب » وجدنا الشاعرية المفتحة، وان

لبث تقليد المدح للحكام والمغالاة في ذلك سنة في الأندلس، وهناك أشعار لشعراء كان بهجة المجالس؛ كما هي زينة المصنفات الأندلسية الأدبية، وكان بين أولئك الشعراء الحكام أنفسهم مثل الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الذي اشتهر من غزله قوله :

ظل من فرط حبه مملوكا ولقد كان قبل ذاك مليكا
إن بكى أو شكا الهوى زيد ظلماً وبعاداً أدنى حماماً وشيكا
تركه جاذر القصر صبياً مستهماً على الصعيد تريكا
يجعل المخد راضعاً فوق ترب للذي يجعل الحرير أريكا
هكذا يحسن التذلل للحد ر إذا كان في الهوى مملوكا

وإن ننس لا ننس بين أولئك السابقين ابن عبد ربه الشاعر الناصر القرطبي الذي كان يعجب به أبو الطيب المتنبي حتى وصفه « بمليح الأندلس »، فقد كان شاعراً مفلحاً في معظم شعره، ولو أنه كان مكثراً. وهو من الرائدین في الشعر القصصي كما يرى من أرجوزته في تاريخ عبد الرحمن الناصر. وما عاب شعره إلا تطرق الجانب التعليمي إليه حينما تقدمت به السن وإثارة الموعظة والزهد على العاطفة التي هي روح الشعر. ويقول بروكلمان في عرضه لمراحل التطور في الشعر العربي بمجلة « الأدب الإسلامي » الصادرة عن مدينة لاهور في يونية سنة ١٩٥٢ : إن شعراء العربية في الأندلس تشربوا حب الطبيعة وجمالها، فتألق شعرهم واشتهر في الشرق وقلده كثيرون من الأدياء في مصر وسورية، وانتشر هذا الشعر الجديد في القرون الوسطى بأنحاء العالم العربي جميعه؛ حين لم يكن ثمة فارق كبير ما بين إنتاج شعراء البلاط في فاس القاهرة وجنوبي بلاد العرب. ونظرة مستقلة منصفة في شعر ابن عبد ربه ترينا الشاعر المجدد كما ترينا الشاعر الكلاسيكي في آن. وكثير في هذا الشعر يتضمنه كتاب « بتيمة الدهر » وكتاب « تاريخ علماء الأندلس » فضلاً عن كتابه « العقد الفريد » وفي الجزء الثاني منه أرجوزته التاريخية الشهيرة في عبد الرحمن الناصر، وإن قيل إن

له ديواناً كبيراً لا نعرف أنه أهتدي إليه بعد. وهو على الإجمال محافظ، حتى إنه انتقد بشدة إحدى قصائده مسلماً أبا عبيدة القائل بكروية الأرض ! وعمر فوق الثمانين فشاخ شعره معه، وراح ينقض شعره الغزلي السابق في صباه بقصائد فقهية زهدية، ومع ذلك لم يخل من الحكمة الأسرة كما نرى في هذا الشعر، وهو آخر نظمه :

بليت وأبنتي اللبالي بكرها وصرقان للأيام مضوران
ومالي لا أبلي لسجين حجة وعشر أتت من بعدها سنتان
ولست أهالي من تباريح علتي إذا كان عقلي باقياً ولساني !

وهذا مثال من شعره الوجداني المأثور :

أنت دائي وفي يدك دوالي يا شقائي من الجوى وبلائي !
إن قلبي بحب من لا أسمى في عناء، أعظم به من عناء !
كيف لا ؟ كيف أن ألد بعيش مات صبري به ومات عزائي
أيها اللاثمون ! ماذا عليكم أن تعيشوا وأن أموت بدائي؟
ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء «

وهذا مثال آخر لفزله :

محب طوى كشحاً على الزفرات وإنسان عيني خاض في غمرات
فيا من بعينه سقامي وصحتي ومن في يديه ميتي وحياتي
بحبك عاشرت الهموم صباية كأنني لها ترب وهي لدائي
بخدي أرض للدموع ومقتني سماء لها تنهل بالعمرات !

وذلك مثال آخر في « يوم الفراق » :

ودعنتني بزفرة واعتناق ثم نادت : متى يكون التلاقي
وتصدت فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب^(١) والأطواق

(١) الجيب : مكان العنق من الثوب.

ياسقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أفضح يوم ليتني مت قبل يوم الفراق !

ومثال آخر في وصف رمح وسيف :

بكل رديني^(١) كأن سنانه شهاب بدا في ظلمة الليل ساطع
تقاصرت الأجال في طول منته وعادت به الآمال وهي فجائع
وذي شطب تقضي المنايا لحكمه وليس لما تقضي المنية دافع
ويستل أرواح الكماة انسلاله ويرتاع منه الموت والموت رائع

وليس لابن عبد ربه ابتداء يضارع تفنن ابن هاني ولا عبد الملك
ابن شهيد ولا جرأة ابراهيم بن إدريس من شعراء العصر الأول، ولكنه
مع ذلك صاحب ألمعية انعكست على مرآتها موحيات زمنه فراح يجدد
بالتوشيح والشعر القصصي، كما انعكست على مرآتها ثقافته الدينية
فصار المتزمت في أواخر عمره، وكان المحافظ في معظم سنه حتى
إنه في تأليفه (العقد الفريد) لم يعن بأدباء الأندلس وشعرائها، وإنما
عنى بأدباء المشرق وشعرائه فحسب، عدا نماذج من شعره أتى بها، حتى
قال فيه الصاحب بن عباد: « هذه بضاعتنا ردت إلينا. ظننت أن هذا الكتاب
يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، فإذا به يشتمل على أخبار بلادنا. لا حاجة
لنا به ! ».

ومهما يكن من شيء فابن عبد ربه، ناظماً وناثراً، كان حلقة اتصال
متينة بين القديم والجديد في عصره. وشعره في الغالب شعر الذكاء
والفكر، وطاقته غير قليلة، حتى قال فيه أبو الطيب المتنبي — على
جلالة قدره — « يا بن عبد ربه لقد تأتيتك العراق حيوياً ».

ويستوقف نظرنا بين شعراء العصر الأندلسي الأول : منذر بن سعيد
البلوطي الذي برز في عهد الأمير المنذر وقد كان هذا الشاعر بربري

(١) الرديني : الرمح نسبة إلى ردينة وهي امرأة اشتهرت بتقويم الرماح.

الأصل وقد أنم دراسته في قرطبة التي ولد بجيرتها، وبعد إتمام دراسته حج وبقي خارج الأندلس أربعين شهراً، وقد تلقى في القاهرة علوم اللغة عن الشيخ أبي جعفر أحمد بن محمد بن النحاس، وكان شيعي المذهب فلما عاد إلى الأندلس عين في منصب قاضي قضاة قرطبة وذلك في عهد الناصر تقديراً لتصرفه البارع في استقبال سفير امبراطور القسطنطينية، إذ كان المقرر أن يستقبله الأديب أبو علي القالي بخطاب الترحيب، ولكن القالي روعه الموقف فلم ينس بيت شفة، وفي هذه اللحظة الحرجة تقدم الشاعر منذر وارتجل خطاباً سر منه الجميع، وفي المقدمة ذلك السفير الذي أطرى الشاعر ونوه به كسياسي ممتاز. وقد ذكر أبو عامر بن شهيد في كتابه (حانوت العطار) نماذج ثلاثة من شعره. وقد عمر إلى الثانية والثمانين، فلا بدع إذا أملى عليه طول اختياره هذا الشعر في الموت والحياة :

الموت حوض وكلنا يرد لم ينج مما نخافه أحد
فلا تكن مغرماً برزق غد فلست تدري لما يجيء غد
وخذ من الدهر ما أتاك به ويسلم الروح منك والجسد
والخير والشر لا تدعه فما في الناس إلا التشيع والحسد !
وسأله شاعر يوماً :

مسألة جئتك مستفتياً عنها، وأنت العالم المستشار
علام تحمر وجوه الأطباء وأوجه العشاق فيها اصفرار
فأجابه :

احمر وجه الطبيب، إذ لحظه سيف على العشاق، فيه احورار
واصفر وجه الصب لما نأى والشمس تقي للمغيب اصفرار

وهذا من شعر الذكاء، كما أن المثال السابق من شعر التأمل والتفلسف؛ وقد اشتهر بدقة أحكامه وطهارة ذمته وحسن تصرفه، وكل هذا يتلاءم مع مسلكه، في مستهل حياته. ولكنه مع ذلك لم يكن راضياً عن الوسط الذي

يعيش فيه، ولو أنه عاصر الناصر والحكم المستنصر في عهديهما الذهبيين ذلك لأنه تعرض بنبوغه للمسد وللدساتس ولصنوف من الكيد نغصت عليه أيامه، فقال فيما قال مثل هذا الشعر العاطفي القوي:

هذا المقال الذي عابه قند لكن صاحبه أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريباً كنت مطرفاً لكنني منهمو فاغتالني النكد
لولا الخلافة، أبقى الله بهجتها ما كنت أبقى بأرض ما بها أحد

ومما يؤسف له أن بيعة هذا الشاعر التي جنت عليه ونغصته رغم نباهة شأنه ونقاء ضميره وعفة يده وجنب كذلك على شعره الوجداني الرائع كالمثل السابق. فأهمل شعره وضاع أو أضييع، يقول استيفن سيندر الشاعر الناقد الأمريكي: إن الشعراء يستطيعون أن يوحوا إلى الأحزاب السياسية، ولكن الشعراء أنفسهم يعانون عندما تنجح القضايا الاجتماعية أو الدينية التي يدعون إليها وينافحون عنها، وإن هذا ما حدث حتى في عصرنا الحاضر شرقاً وغرباً. وهكذا كان حظ الشاعر المثقف النزبه منذر بن سعيد البلوطي. ولا ريب أن الاهتداء إلى شعره الوجداني الضائع الذي يصور في الوقت ذاته زمنه وملابساته لما يعد غنماً للأدب، ولعل هذا يتحقق يوماً ما. وإن من الجنابة على الأدب أن يحارب ويتلف من الإنتاج ما يخالف بيعة معينة أو عصرراً من العصور ويستبقى ما يرضيها ويلائمها ولو كان الأول أسمى قدراً من الوجهة الفنية. فالفكر الإنساني يجب تسجيله على علاقته، فإن ما قد نظنه صالحاً في وقت ما قد يحكم عليه التاريخ بالمعكس في عصر آخر.. إن الشعر الأندلسي هو نتيجة التفاعل بين شعر الفوطيين والإيريين من ناحية والشعر العربي الكلاسيكي من ناحية أخرى، فكلاهما أثر في الآخر وكل من العرب والمستعربين أسهم في إبداع الشعر العربي الجديد الذي تألق في سماء الأندلس، وإن لم يتميز تميزاً واضحاً في بداية العصر الأول. ولكن أمراً واحداً كان جلياً من البداية في ذلك الشعر وهو الحرص على الإيقاع في أدق صورة دون أي تساهل في ذلك قد لا نراه في بعض الشعر المعاصر، كبعض الشعر اللبناني وبعض شعر الزهاوي وفي الشعر الجاهلي، وهذا موضوع تناوله بعض

الكتاب في مجلة (المقتطف) تناولاً فلسفياً بديعاً، كما تناوله كتاب « بدائع العروض ». ولكن جمال الإيقاع — على أي حال — ليس إلا عنصراً من عناصر الشعر وليس روح الشعر ولا الشعر كله.

ومن بين شعراء العصر الأندلسي الأول الظرفاء المجيدين : عبد الملك ابن شهيد. وهو الآخر شاعر قرطبي صار فيما بعد حاجباً أو وزيراً للناصر وبقي في بلاط الحكم المستنصر ثم نال أكبر حظوة في بلاط المنصور إذ كان أقرب المقربين إليه من الوزراء. ومن أطرف شعر ابن شهيد الأبيات التالية التي ارتجلها في مجلس المنصور، وقد استغرق المجلس في الشراب والمرح ورقص الوزراء دون تحفظ، فنهض ابن شهيد على الرغم من تقدم سنه وإصابته بالنقرس، نهض من محفته متكافئاً على ذراع الوزير أبي عبدالله ابن عباس، وحاول هو أيضاً أن يرقص منشداً ومخاطباً المنصور :

هاك شيخاً قاده السكر لكا	قام في رقصته مستهلكا
لم يطلق يرقصها مستتباً	فانتنى يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزها منفرداً	نقرس أخنى عليه فاتكا
من وزير فيهمو رقاصة	قام للسكر يناغي ملكا
قهقه الإبريق متى ضاحكا	ورأى رعشة رجل فيكي !

وهذا من أنفس الشعر الوصفي المطبوع في الأدب العربي. وقد كان أحد الظرفاء بمجلس المنصور فبهت مما رأى وقال لابن شهيد ممازحاً : يا الله يا سيدي الوزير إنك لترقص واقفاً بينما تصلي لله جالساً ! فأغرب المنصور في الضحك ومن شعره الارتجالي الذي ينم عن ذكائه الوقاد يتناه اللذان وجههما إلى الوزير عبد الملك بن جوهر الذي كان يلقب بالحمار (لأن جده ابن هشام كان يطاراً في سورية) وكانت بينهما منافسة شديدة، فاتفق يوماً أن مر ابن شهيد بدار ابن جوهر فاستأذن في رؤيته، ولكن ابن جوهر ادعى بلسان خادمه أنه غائب

عن داره، فكتب إليه ابن شهيد :
أتيناك، لا عن حاجة عرضت لنا إليك، ولا قلب إليك مشوق
ولكننا زرنا بضعف عقولنا حماراً تولى برنا بعقوق !

ولكن ابن جوهر لم يكن أقل ذكاء منه فرد عليه قائلاً :
حجبتناك لما زرتنا غير تائق بقلب عدو في ثياب صديق
وما كان يطار الشأم بموضع يباشر فيه برنا بخليق

وثمة شاعر موهوب : هو أبو هارون بن عبد الملك بن حبيب،
الذي كان إمام المذهب المالكي في زمنه كما كان مؤرخاً عظيماً
ومعلماً جليلاً، يتسابق إلى حلقات دروسه، ويبلغ من إجلاله العلم والتعليم
أنه كان يلبس أفخر الملابس خلال التدريس. لقد كان أبو هارون
شاعراً أصيلاً موهوباً ولذلك كان شعره ذا نفحة تختلف جد الاختلاف
عن طابع شعر الفقهاء بل نظمهم المحصور غالباً في أساليب خبرية
تعليمية بعيدة كل البعد عن روح الشعر. فأبو هارون مثل باهر لتجلي
الشاعرية على الرغم من أية مهنة يحترفها الشاعر معينة على توسيع
أفق تأملاته وتجاريبه وقد زار أبو هارون الشرق حيث تبحر في دراسة
المذهب المالكي قبل أن يصبح داعيته الأكبر في الأندلس، وثمة في
أحد المجالس حاول أحدهم انتقاصه لصغر جسمه فرد عليه بقوله :
لا تنظرن إلى جسمي وقتله وانظرن لصدري وما يحوي من السنن
فرب ذي منظر من غير معرفة ورب من تزدره العين ذو فطن
ورب لؤلؤة في قعر مذبلت لم يلق بال لها إلا إلى زمن !

ونادى أبو هارون برعاية الأدباء حتى يتفرغوا لإنتاجهم النافع، إذ
كثيراً ما جنى الفقر عليهم فشغلهم أهون شؤون المعاش عن الأبداع
الفني الذي يكسب أمتهم ولغتهم ثروة.

وقد عرض هذا الشاعر بالمعنى الموسيقي الشهير (زرياب) صاحب

الفضل الكبير في إنهاض الموسيقى الأندلسية، فقال أبو هارون من قصيدة وجهها إلى عبد الرحمن الثاني بهتته يوم عاشوراء :
قد طاح أمرى والذي أتني هين على الرحمن في قدرته
ألف من الحمر^(١)، وأقلل بها لعالم أربى على بغيته
(زرياب) قد أعطيها جملة وحرفتي أشرف من حرفته !

وهذه حماسة المحامي المدافع عن قضية عامة وعن حق خاص، إذ لا ينكر أن الموسيقى والغناء من أشرف الفنون الجميلة وإنما وجه الاعتراض المغالاة في تكريم فن من الفنون على حساب غيره. كما يغالي عصرنا الحاضر في تكريم الرياضة البدنية على حساب النبوغ الذهني ! ولهذه الروح كتب أبو هرون إلى الزجالي :
كيف يطيق الشعر من أصبحت حالته اليوم كحال الفرق !
والشعر لا يسلس إلا على فراغ قلب واتساع الخلق
فاتنع بهذا القول من شاعر يرضى من الحظ بأذني العنق^(٢)
أما ذمام الود مني لكم فهو من المحتوم فيما سبق !
وهكذا على رغم طاقته الشعرية الرفيعة حالت بيته هذا الشعر الموهوب دون العناية الكبرى التي كان يود أن يمنحها الشعر، والقليل الذي تركه لنا على الرغم من شواغله الجمة عميق المعاني جميل الترسل، شاهد بالمعينة الفنية.

ويذكر ابن خلدون في ختام مقدمته نبذة شائقة عن الموشحات والأزجال للأندلس قال فيها : اعلم أن الأذواق كلها في معرفة البلاغة إنما تحصل لمن خالط تلك اللغة. وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها حتى يحصل ملكتها كما قلنا في اللغة العربية، فلا يمتري الأندلسي بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب، ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر

(١) هي الدنانير.

أهل الأندلس والمشرق، ولا المشرقي بالبلاغة التي في شعر الأندلس والمغرب لأن اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم، وكل واحد منهم مدرك لبلاغة لغته، وذائق لمحاسن الشعر من أهل جلدته، وفي خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم آيات.. ونحن — ورثة العربية في جميع عصورها — علينا إذا أقدمنا على النقد الأدبي، وعلى الأخص نقد الشعر أن نكون متزودين أولاً باطلاع كاف على نماذجه الرفيعة في عصوره المختلفة، وثانياً بقدرة على الاندماج في شخصية الشاعر المنقود وفي بيئته، وثالثاً بالقدرة على الموازنة التي يساندها الذوق الأدبي المكتسب والطبع الشعري وروح الإنصاف. فإذا قدرنا الشعر الأندلسي فأنما يعتمد تقديرنا على أسس تتفق وتختلف مع ملاحظات ابن خلدون — تتفق معه في الفكرة العامة، وتختلف من ناحية الشمول والأدب المقارن وعدم الاعتراف بتحديد الفن. فعندنا أن الشعر الفني الصحيح الذي يعتمد على روحه الأصيلة لا على عكاز من توابعه قابل للتقدير — كيفما كانت لغته — أهل للتنبؤ به في كل زمان ومكان. وكلما كانت روح الشعر الفنية عالية جبارة استقلت أو كادت عن جميع العناصر المؤازرة لها كالإيقاع الموسيقي والانتقاء اللفظي، وهذا ما نجده في شعر الفحول، ولو كان نثراً مترجماً مثل شعر تاجور وشعر إقبال أو نثراً شعرياً عربي الأصل كالكثير من النثر الفني لمصطفى صادق الرافعي، فانه تحفة ومنتعة روحية في ذاتها لا يعوزها النظم ليتألق جمالها، وعلى ضوء هذا المذهب الذي ندين به نقدر الشعر الأندلسي نقد المتذوق المقدر.

وبين الشعراء الممتازين في الإمارة والخلافة بالأندلس الذين يغفل مدرسو الأدب العربي ذكرهم : الشاعر البليغ ابن دراج القسطلبي الذي عده ابن حزم قريباً لأبي تمام والمنتبي، وهو بربري الأصل سكنت أسرته الموسورة في قسطلبة وتعلم في قرطبة وبلغ بفضل مكانته الاجتماعية

وعلمه وفطنته منزلة كاتب الإنشاء في أواخر عهد الحكم المستنصر. وكان ابن دراج مشهوراً ببلاغته وامتلاكه ناصية العربية، وباشراق أسلوبه نثراً ونظماً : وله شعر متين في مدح المنصور، بعضه مرتجل. وبلغ منزلة الاعتراف به كأحد شعراء البلاط المعدودين المخصصة لهم الرواتب. وقد تعرض لحسد كثير، مما جنى على إنتاجه الوفير، فضع معظم شعره. وقد عد ابن حزم قصيدته في فتح سانيغو (الذي وقع في العاشر من أغسطس سنة سبع وتسعين وتسعمائة للميلاد) من روائع الشعر العربي. وبعد وفاة المنصور صار ابن دراج شاعر البلاط في عهد المظفر. وفي أواخر أيامه كان متصلاً ببلاط المنذر بن يحيى في سرقسطة.

وهناك نماذج من شعره البديع في (يتيمة الدهر). وأقل ما تتصف به هذه النماذج السلاسة اليبانية والموسيقى العذبة وسلامة اللغة، ولكنها ليست قوية العاطفة، ولذلك لم تضعها نحن في منزلة شعر ابن خفاجة أو شعر ابن زيدون مثلاً، ومع ذلك فليس من الإنصاف الحكم الوافي الصادق على شاعر مكثّر ضاع أكثر شعره ولم يبق منه إلا القليل الذي حرص عليه بعض الحكام كهذه الأبيات التي يمد بها المنصور والتي تذكرنا برائية أبي نواس في مدح الخصب :

ألم تعلمي أن الثواء هو النوى^(١) وأن بيوت العاجزين قبور ؟
 وأن خطيرات المهالك ضمن لراكبها أن الجزاء عظيم ؟
 يخوفني طول السفار وإنه بتقبيل كف العامري جدير
 مجير الهدى والدين من كل ملحد وليس عليه للضلال مجير
 تلاقت عليه من تميم ويعرب شمس تلاقى في العلا وبدور
 همو يستقلون الحياة لسراغب ويستصغرون الخطب وهو كبير
 ولما توافوا للسلام ورفعت عن الشمس في أفق الشروق ستور

(١) النوى : الهلاك.

وقد قام من زرق الآسنة دونها
رأوا طاعة الرحمن كيف اعتزازها
وكيف استوى بالبر والبحر مجلس
فجاءوا عجلاً والقلوب خوافتى
يقولون والإجلال يخرس ألسناً
«لقد حاط أعلام الهدى بك حائط»
وليس في هذا الشعر كما يرى
كبير ابتداء ولا قليله، وإنما جماله
في السلامة وحسن التناول البياني، ومثله هذه الأبيات في الوداع لولا
وميض من العاطفة يلمح فيها :

بمدماع، وترائباً بترائب:
أم نحن للأيام نهبة ناهب ؟
فأنا الزعيم لها بفرحة آيب
في الأفق إلا من هلال غارب ؟
قالت، وقد مزج الفراق مدامعا
« أتفرق حتى بمنزل غربة
ولكن جنيت عليك نزهة راحل
هل أبصرت عينك بدرأ طالعا

فكيف يمكن التوفيق بين مستوى الشعر وبين المدح الذي أسبغ
عليه ابن حزم وابن خلدون والمراكشي والمعري وأمثالهم من الأدباء
النقاد المؤرخين ؟ إذا قام هذا المدح على الشعر الباقي لابن دراج
القسطلي فهو مدح توحى به بلاغته البيانية فحسب، لا طاقته الفنية،
وإذا قام على مجمل شعره المعروف في زمنه، فلا بد لنا من الاستنتاج
أن خير شعره — أي ما تناول وحدانياته ومشاهداته وتأملاته وحياة الناس
— قد فقده الأدب العربي.

من أعلام الشعراء الأندلسيين

نبح في الأندلس من الشعراء كثيرون، منهم : ابن عبد ربه الأندلسي (٢٤٦-٣٢٨هـ)، وابن هانئ (٣٢٦-٣٦٣هـ) والغزالي (١٥٦-٢٥٠هـ)^(١) وابن زيدون (٣٩٤-٤٦٣هـ)، وابن خفاجة (٤٥٠-٥٣٣هـ)^(٢)، وابن وهب المتوفى قبل عام ٥٣٣هـ. والأعمى التطيلي المتوفى قبل عام ٥٤٢هـ، وابن برد الأصغر الذي قتل عام ٤٣١هـ، وأبو حفص الأكبر المتوفى عام ٤٢٨هـ، ابن دراج القسطلي (٣٤٧-٤٢١هـ)، ولسان الدين بن الخطيب (٧١٣-٧٧٦هـ)، وابن الحداد المتوفى عام ٤٨٠هـ، والفتح بن خاقان المتوفى عام ٥٢٩هـ؛ وسواهم كثيرون.. أما من نبح من الأدياء المشهورين فقليل منهم : ابن شهيد (٣٨٢-٤٢٦هـ)، وابن سهل (٦٠٩-٦٤٩هـ)، وابن بسام المتوفى عام ٥٤٢هـ وسواهم.

(١) بقية الملتقى - واسم الغزالي يحيى بن حكيم وهو شاعر مطبوع.
(٢) راجع ١٩٠-٢١٢ بلاغة العرب في الأندلس.

الشعر الأندلسي وتياراته

— ١ —

عندما دخل العرب الأندلس واستراحوا من الغزو، رجعوا إلى طبيعتهم المتأصلة فيهم وهي قرص الشعر، فالشعر هو متعتهم النفسية وغذاؤهم الروحي، ومرآة لحياة العربي الاجتماعية والنفسية يتغنى به في حله وترحاله. ويذكر فيه ما يمر بخلده من حب وبغض، ويرسم ما يحيط به من جمال الطبيعة وما تلهمه روحه من خيال بديع، فأخذوا يقولونه في أغراضه التي فشئت في الشرق وفي أغراض أخرى جديدة، وكان من الأسباب التي دعت إلى نهضة الشعر في الأندلس:

١ — طبيعة بلاد الأندلس وما فيها من المناظر المختلفة؛ والأمطار المتصلة والأدواح الظليلة، والأنهار الجارية، والسهول الخصبة، والجبال المكسوة والمروج الموشاة بألوان الزهر، والقصور الشاهقة، والرياض الغناء. والغواني الحسان. كل ذلك أكسب الوجدان لطفاً، والمعاني دقة، والألفاظ جمالاً وروعة.

٢ — عناية الملوك الأمراء بقرص الشعر حملت الشعب جميعه على الإقبال عليه، حتى أصبح قول الشعر زينة لكل أديب، وجمالاً لكل عالم. أولع به الفقهاء والنحاة والفلاسفة، والرياضيون، والأطباء،

والمؤرخون. كما أولع به كثير من النساء حتى نبغن فيه، وبارين الرجال
وقلن الجيد الممتع منه : كقول حمدونة الأندلسية تصف وادياً :
وقاننا لفحة الرمضاء واد سقاها مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه، فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
٣ — كثرة جمهرة العرب في الأندلس. وتمكن السلطان في أيديهم،
وشدة محافظتهم على تقويم لسانهم.

— ٢ —

مميزات الشعر الأندلسي وخصائصه :

أما مميزاته من حيث الأغراض : فإنه لما طاب للعرب العيش في
الأندلس يتمكن سلطان بني أمية، ونقلت دواوين المشرق أخذوا يعنون
بالشعر في أغراض شتى شملت فنونه كل مرافق الحياة، فنظموا في
كل ما نظم فيه شعراء المشرق : من مدح وهجاء وفخر وحماسة،
وتهنئة، ورتاء، ووصف، وغزل وخمر وندمان ونساء وغلمان وعبث
ومجون، وزهد وتصوف، غير أنهم فاقوا المشاركة في بعض أغراضه،
ونقصوا عنهم في أغراض أخرى، لأسباب اقتضتها طبيعة إقليمهم، ونظام
معيشتهم، وطريقة تثقيفهم.

ومن الأغراض التي فاقوا فيها المشاركة : الوصف، ولا سيما وصف
مناظر الطبيعة وجمال الكون . فوصفوا الرياض والبساتين والأشجار والثمار
والأزهار والطيور، ووصفوا السحاب والرعد والبرق وقوس قزح والبرك
والأنهار والبحار، وتوسعوا في ذلك حتى أحلوه محل النسيب في صدور
القصائد، ووصفوا أساطيل البحر لكثرة اتخاذها لحرب العدو، وسير
الجيوش ونشوب المعارك، والقصور والتماثيل والفوارات ومجالس اللهو
وآلاته والطرب والسمر.

ومن الأغراض الجديدة التي نظموا فيها :

١ — رثاء الممالك الزائلة : وذلك حينما تقلص ملك المسلمين واستولى أعداؤهم على مدنها وحصونهم: كقول صالح بن شريف الرندي م ٨٩٨هـ يرثي الأندلس :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

٢ — الاستغاثة والاستنجاد بالنبي ﷺ وكبار الصالحين، وترغيب ملوك الإسلام في انقاذ البلاد، وقد كثر ذلك في القرنين : الثامن والتاسع، حين توالى عليها غارات الإسبان، ومن ذلك قصيدة ابن الأبار يخاطب ملك المغرب ومنها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

٣ — نظم العلوم والفنون : وذلك لشدة عنايتهم بالعلوم وحرصهم على استظهارها.

ومن الأغراض التي قصر فيها الأندلسيون عن المشاركة ولم يجاروهم فيها :

١ — الشعر المشتمل على الحكم التي تسير مسير الأمثال.

٢ — الشعر المتضمن الآراء الفلسفية من نقد الشرائع ونظام الحكم وأخلاق الناس .

وأما مميزاته في ألفاظه وأساليبه : فإننا نرى في الشعر الأندلسي سهولة في الألفاظ وسلاسة في التراكيب. ويرجع ذلك إلى أن الشعراء لم يحملوا الألفاظ ما لا تطيق من المعاني المزدحمة، فالسر في هذه السلاسة والعذوبة : سهولة طباعهم ولين أخلاقهم وإرسالهم القول من غير تكلف ولا تصنع، فجاء أكثره جارياً مع الطبع، ولم يبالغوا في الأخذ بفنون البديع من تورية وجناس وطباق وغيرها، وما كان يقع لهم منه في

عباراتهم جميل مقبول، لأنهم كانوا يأخذون من الأنواع البديعية ما تجود به القريحة من غير تعمل ولا إجهاد خاطر.

وأما مميزاته في معانيه : فلنا نجد معاني الشعر الأندلسي واضحة جلية بعيدة عن تعمق الفلاسفة وتدقيق الحكماء لقلّة المشتغلين منهم بالحكمة. وبغض العامة لها.. وغلب على الشعر الأندلسي الخيال البديع الذي نشأ فيهم من ضروب الجمال المنتشرة في شبه جزيرتهم، وساعدهم ذلك على أن يجودوا التشبيه، ويكثروا من استعمال المجاز والكناية في شعرهم.

— ٣ —

وعندما أقام العربي في الأندلس ظهر الشعر العربي في هذه البيعة، لما رآه العربي من جمال تلك البلاد. فكان عقله وخياله يمثلان حياتين : حياة البدو وحياة الحضرة. وكان شعره منبثقاً من هذين الأثرين، فظهر فيه جمال الفطرة، ونضارة الحضارة، وجزالة البداوة، ورقة الخيال، والافتنان في الجد والهزل والمجون، ووصف العواطف والأهواء. وكان لحضارة تلك البلاد وجمال الطبيعة أعظم أثر في نفوس الشعراء، فجالوا في كل شيء وقع عليه نظرهم ومر بخاطريهم حتى كان ذلك من مميزات الشعر في الأندلس. ومن أظهر خصائصه.

وقد ذاع الشعر في كل طبقات الناس، فكان في الشعراء : الخلفاء والأمراء والوزراء والنساء والفقهاء والحكماء الذين كانوا ينظمونه في جميع المعاني.

ولما قام ملك بني أمية هناك فسح الخلفاء صدورهم للشعراء والأدباء في مجالس الأدب والغناء، وأفاضوا عليهم الأموال، فاتخذ الشعراء ذلك

وسيلة للتقرب إلى الحكام وكبار القوم بمدحهم والتعلق إليهم، ووصف مجالسهم وقصورهم، ومعالم الحضارة في بلادهم حتى كان الشعر صناعة ووسيلة إلى كسب المال، وبالغوا في مدح هؤلاء الخلفاء والأمراء استدراراً لمعطياتهم. وقد ظهر في هذا العصر جماعة من كبار الشعراء، منهم : محمد بن هانيء؛ وابن دراج القسطلي، وأحمد بن شهيد.

وكان عصر ملوك الطوائف من أزهى عصور الشعر والأدب، ظهر فيه كثير من فحول شعراء الأندلس : كالوزير ابن زيدون، وابن خفاجة، وابن سهل، وعبد الجليل بن وهيبون، والوزير ابن عمار، وملك قرطبة واشبيلية المعتمد بن عباد. وظهر في دولة بني الأحمر لسان الدين ابن الخطيب وغيره من كبار الشعراء. وقد بقي الشعر زاهياً إلى خروج العرب من هذه البلاد. وقد كان الشعر أسبق أنواع الأدب ظهوراً، لأنه مظهر الثقافة العربية، ومرآة لحياة العرب العقلية والاجتماعية، يشدو به العربي حيثما نزل وأينما ارتحل، فيذكر فيه ما يمر بخاطره من حب وبغض، ويصف فيه ما يجول بنفسه من أثر ما يحيط به من جلال الطبيعة وجمالها؛ فكان لجمال بلاد الأندلس أثر في عقله. ولكن أخلاقه العربية كانت تسيطر عليه، وعزته القومية وذكريات بلاده وأهله ما فتت تلازمه. فكان عقله يمثل حياتين، حياة البدو وحياة الحضار. ولقد احتفظ الشعر في الأندلس بطابعه العربي كما انحدر من الجاهلية، فاقترص في مصادر إلهامه على المدح والثناء والغزل والفخر. ذلك أن العرب بأسبانيا عاشوا في حنين دائم إلى البلاد التي أنبتتهم واعتبروا أنفسهم مهاجرين. وكان الملوك منهم يزدحم الشعراء على أبوابهم كما كانوا يفعلون في الشرق، وكثر عددهم بين رجال الحاشية والبطانة، وكانوا ينظمون في المدح والفخر، لأنهم نقلوا معهم أيضاً إلى بلاد الغرب العصبية.

على أن العرب امتزجوا بسكان البلاد، واعتنق الإسلام فريق من الأيبانيين المسيحيين، فنشأ جيل جديد من المولدين خفت لديه العصبية،

ولكنها لم تترك الفخر، فظل يحتل مكانة بارزة في الشعر؛ وظلت قلوب العرب تضطرب حيناً إلى بلادهم الأصلية، وظل القوم يحتفظون بالتراث العربي. وصاروا يتبادلون مع المسلمين بالشرق آثار القرائح من شعر وتأليف. ففي عهد عبد الرحمن الثاني سافرت بعثة علمية من الأندلس إلى العراق وعادت منه بكتب العلم والفلسفة المنقولة إلى العربية. ورحل المغني زرياب من بغداد إلى اسبانيا فعلم الطبقة الأرستقراطية فيها الموسيقى والغناء. وظهر حينئذ فن الموشحات، ومخترعه مقدم ابن معافر القريري فانشطرت الشعر بالأندلس إلى شطرين: اتباعي، وجديد، وانحرف الشطر الثاني عن تقاليد القصيدة، ولكنه احتفظ بالفصحى.

نشأت في أواخر خلافة الأمويين مدنية جديدة تقوم على العرب والمولدين والأسبانيين الذين تعلموا العربية؛ وكان مركزها قرطبة؛ وكانت مزيجاً من الحضارتين العربية والرومانية، فشاعت في قرطبة ألوان من اللهو والمرح تشبه ما كان في بغداد مما يمثله كتاب ألف ليلة وليلة، ولكن هذه الحياة الجديدة كانت تنقصها أبهة الشرق وفخامته، ولكنه يضاف إليها تبسط في المعاش، وترهف في إحساس العامة.

وكان عبد الرحمن الناصر قد أنشأ قصر الزهراء ومدينته. ولم يجد العرب في الأندلس عهداً كذا العهد. عم فيه الرخاء وسادته الرفاهية والغبطة، حتى صح فيه المثل العامي : مثل « أيام العروس ».

فلا عجب إذا ازدهر الشعر على أنواعه وأخذت ترق حاشية الشعراء وترهف إحساسهم. فهذا ابن عبد ربه صاحب « العقد الفريد » يجمع تراث العرب في كتابه : العقد الفريد. وظل الملوك والخلفاء على عادتهم من نظم الشعر وقرضه، فمن ذلك قول المستظهر :

طال عمر الليل عندي مذ تولعت بصدى
يا غزالاً نقض العهد بد ولم يعرف بوعد

أنسيت العهد إذا بتدنا على مفروش ورد
واعتنقنا في وشاح وانتظمتنا نظم عقد
ونجوم الليل تحكي ذهباً في لآزورد

وانصرف الغزل عن المادة، وصار يتجرد من المحسوسات متسامياً إلى العاطفة المنزهة. ووضع ابن حزم، فقيه الأندلس وعالمها، كتابه « طوق الحمامة »، وضمنه تحليلاً نفسياً للحب مازجاً بين النظريات المجردة والأقاصيص المروية، وأكثرها من مشاهداته وتجاربه الشخصية. وأسماء ابن حزم « الحب المهذب » أو « حب المروعة ».

على أن ألوان الحياة بالأندلس وجو البلاد والإطار الذي كان يحيط بحياة الناس كل هذا كان أقوى شاعرية وأبرع جمالاً وأعظم أثراً في النفس من الشعر الذي ألهمه، وليس معنى هذا أن ذلك الشعر كان ضعيفاً، ولكنه ظل في أغلبه اتباعياً لا يستطيع أن يسمو إلى جمال الأشياء التي تفيض الإلهام على الشاعر.

وفي القرن الخامس الهجري صار الشعر يجري على كل لسان حتى قال ابن حيان : « إنه كان باستطاعة الفلاح الذي يحرث الأرض أن يرتجل الشعر في أي موضوع يعن له، وظل المدح النوع البارز في الشعر. لأنه ما كادت الخلافة الأموية بأسبانيا تنهار حتى انقسمت الدولة إلى دويلات صغيرة على رأس كل واحدة منها ملك أو أمير، وقد عرفوا في التاريخ باسم ملوك الطوائف، وكان كل واحد منهم يحتفي بالشعراء ويضمهم إلى بطانته فينظمون له المديح ويسطرون محامده فلا بدع إذا كثر شعراء ذلك العصر وعظم شعر المدح.. وكان الكثيرون من أولئك الملوك والأمراء يتذوقون الشعر أو ينظمونه، وكان أبرزهم أبو القاسم بن عباد المحدث على الله صاحب اشبيلية، فقد كان شاعراً، وعاش في حياة فيها ألوان الشعر ومظاهره؛ وقرب الشعراء. بل لم يستوزر إلا من كان أديباً.

وكان أبرز شعراء ذلك العصر ابن زيدون، الذي استوزر لابن عباد، ولولادة بنت المستكفي، وكانت بينهما صلوات ومطارحات شعرية. وإذا زخر شعرهما بالمحسنات اللفظية امتاز أيضاً بجودة الإلهام وبراعته. ويجدر التنويه باسم ابن عمار؛ صديق ابن عباد أيضاً. وهو من الشعراء في ذلك العهد وقد نظم في سائر أبواب الشعر وفنونه، وكان شعره قوي الإلهام.

وفي عهد المرابطين ظهر ابن قزمان. واستحدث في الشعر فن الرجز، ولكن القصيدة التقليدية ظلت في ذلك العصر، وفي عهد الموحيدين، محتفظة بمكانها الأول في الشعر الاتباعي الذي ظل أخذاً مجراه. وكان من أشهر رجاله: ابن خفاجة وابن زمرك.

وأخذت دولة العرب بأسبانيا تنهار شيئاً فشيئاً. وتقع المدن بأيدي المسيحيين واحدة بعد الأخرى، حتى لم يبق إلا غرناطة التي انحصر فيها النشاط الأدبي وتكاثر الشعراء في بلاطها، وكان أشهرهم لسان الدين بن الخطيب. على أن هذا المعقل الأخير للعرب لم يلبث أن استسلم للاسبانيين في عام ٨٩٧هـ — (١٤٩٢م).. فانتهت العربية وآدابها في الأندلس.

— ٤ —

وقد حافظ العرب في الأندلس على تقاليد الشعر العربي وأوزانه وقبوع القافية فيه. ويقول البعض إن شعراء الأندلس تأثروا بطبيعة البلاد، فاختلف شعرهم عن شعراء المشرق من حيث الإلهام والصور، ويقول الآخرون: إن هذا التأثير قليل لم يبرز فيه إلا نفر من الشعراء من أمثال ابن حزم. ولكن الأكثرية الغالبة نسجت على غرار شعراء المشرق فلم تخرج على الشعر الاتباعي. وثابت على النظم في موضوعاته المختلفة

كالغزل والنسيب والمدح والثناء والفخر. وقد كان عدد شعراء الأندلس كثيراً، وكان شعرهم طيباً ناضجاً يعبر عن الإسلام في ذلك العهد، ولكنهم على كثرة عددهم لم ينبغ فيهم شاعر عبقري يعادل أبا الطيب المتنبي أو أبا العلاء المعري.

ولم يستطع الشعر العربي الاتباعي أن يخلق جواً خاصاً بالأندلس لأنه ظل خاضعاً لتقاليد الشعر في الشرق العربي كما ظلت قرطبة محافظة على تقاليد دمشق وبغداد في الحكم والحياة العامة.. أما ذلك الجو الخاص الذي يتأثر بطبيعة البلاد الجديدة التي امتلكها العرب، فهو موجود في الموشحات والزجل. وهذان الفنانان — فضلاً عن ميزتهما — يثيران مشاكل لغوية وأدبية عديدة.

وكان جديراً بحرب الأندلس أن يوفقوا إلى خلق أنماط من الشعر خاصة بهم، وقد وفقوا إلى ذلك في الموشحات التي كانت تنظم باللغة الفصحى، والأزجال التي كانت تنظم بالعامية، وهما بمثابة دم جديد يلقح به الشعر العربي؛ ويستمد منه حياة نابضة قوية لأن فيهما انفكاً من قيود القصيدة.

وتتألف القصيدة عادة، سواء الموشح منها أم الزجل « من بيت أو أكثر إلى ثلاثة أبيات في مستهلها تسمى « المركز » وتأتي بعدها المقطوعات من خمسة إلى ثمانية أبيات من الشعر تتألف من « الأغصان »، وهي ذات قافية أو قواف مستقلة. وتنتهي بيت من الشعر يقال له « السمط » توافق قافيته قافية « المركز ». وكانت هذه الموشحات والأزجال، وخاصة الأزجال، تنظم للغناء، وكانت آلات الطرب تتألف من المزمار والقيثارة والصاجات. وكان المغني يفتح الغناء بالمركز ثم بالمقطوعة ثم يعيد المركز. ويشارك معه في غناء هذا الأخير جمهور من الحاضرين. وكانت قافية « السمط » إيذاناً للجمهور بأن يشاركوا مع المغني في إنشاد « المركز ».

أما الموشح الذي كان المستشرق الألماني « هارتمن » ممن توفر على دراسته في بحث ظهر له سنة ١٨٩٧، فقد استنبطه مقدم بن معافر الغريزي. وكان أعمى. وسيرة مقدم هذا فكادت تكون مجهولة. فلم يصلنا من أخباره إلا النزر القليل. ولم يلبث الموشح أن ذاع واشتهر وتناوله كثيرون من الشعراء فنظموا فيه، ومن هؤلاء : ابن عبد ربه، صاحب « العقد الفريد ». وعبادة القزاز والأعمى الطليطلي وابن شهيد. وابن بقي، وابن بكر الأبيض، وأبو بكر بن باجة. وابن سهل. وابن الخطيب. وابن زمرك. وانتقل في أوائل عهده إلى الشرق، فكان من أوائل المبرزين فيه : ابن سناء الملك : ويعتبر الموشح وسطاً بين الشعر الاتباعي العربي — أي القصيدة — وبين الزجل. لأن الشاعر يلتزم فيه اللغة القصصية، أما الزجل فينظم بالعامية. وقد استحدثه أبو بكر بن قزمان. ولم يلبث الزجل أيضاً أن اشتهر وذاع في سائر البلاد العربية حتى قال ابن سعيد : إن أزجال ابن قزمان رويت ببغداد أكثر مما رويت في حواضر المغرب وكان محيي الدين بن عربي — وهو أندلسي ولد بأشبيلية وتوفي بدمشق حيث دفن فيها وقبره هناك معروف — أول من استخدم الزجل في نظم الأوراد والأناشيد الصوفية. وكذلك نجد في الشعر العبري في ذلك العهد نوعاً ينظم على طريقة الزجل العربي وأخذ غلبوم التاسع « دوق أكتانيا » الزجل ونظم على غراره باللغة البروفنسية.

ولا نعرف كثيراً عن سيرة ابن قزمان صاحب فن الزجل. ويجب أن نعتمد على ديوانه في ذلك. وهو لم يكن عربياً خالصاً بل من طبقة المولدين وله عم عرف باسمه، وكان مثله شاعراً. وكثيرون خلطوا بين الاثنين فقالوا إنه ولد في أوائل القرن الخامس الهجري فإذا صح ذلك كانت حياة ابن قزمان قد طالت مائة وأربعين سنة. أما الحقيقة فإنه ولد بعد معركة « الزلاقة » بقليل أي في نحو سنة ١٠٨٦ م ٤٨٠ هـ بمدينة قرطبة، وطاف بأشهر مدن الأندلس فراراً من الأندلس وقرطبة واتصل

بأمرائها وتوفي في سنة ١١٥٩-٥٥٣هـ، وكان يعرف اللغتين العربية والرومانية. وقد نظم في صباه الشعر العربي على الطريقة الاتياعية، ثم لم يلبث أن صدف عنه إلى الزجل الذي استنبط طريقة نظمه، وقد أشار إلى ذلك ابن سعيد وابن خلدون وغيرهما، وقيل فيه انه عمد إلى طريقة لا يمازحه فيها أحد من شعراء عصره.

أما ديوانه فوصلت منه إلينا نسخة واحدة كتبت بمدينة صفد بفلسطين في القرن الثامن الهجري، هي محفوظة بمكتبة لينتجراد. وقد توفر على نشرها في سنة ١٩٣٣ تشيكي ضليح باللغة الرومانية يدعى « نيكل » ولكنه نقل الأجزاء كما وجدها في النسخة الخطية، وهي رديئة الخط كثيرة الأخطاء، دون أن يعنى بتصحيحها فجاءت فيها مقطوعات مبهمه غير واضحة المعاني. فانبرى لها المستشرق « كولان » فاصحح أخطاءها وقوم ألفاظها حتى وضحت معانيها إلا فيما ندر، وبذلك سهلت دراسة الديوان من ناحية اللغة على الباحثين، وهم حفيون بأجزاء ابن قزمان، حريصون على تمحيصها ودرسها، هذا من حيث اللغة، أما من ناحية قيمة الديوان الشعرية فتظهر واضحة قوية من أشعاره نفسها، وقد تناول فيها ابن قزمان موضوعات كثيرة، وصور نفسه تارة حسن المعاشرة يشرب الخمر ويغازل النساء، وطوراً أفاقاً فقيراً كثير الأسفار للتكسب وطلب الرزق. ويبلغ عدد قصائد الديوان ١٤٩ قصيدة تختلف في شكلها، أكثرها منظوم على طريقة الزجل المعروفة، أي أن المركز يدل على موضوع القصيدة، ثم يتناول الشاعر هذا الموضوع في المقطوعات التالية.

أما موضوعاته فمختلفة أيضاً. وثلاثا قصائد الديوان في المدح؛ جرى فيها الشاعر الزجال على طريقة الشعر العربي من حيث استهلالها بالغزل والنسيب، ثم ينتقل إلى المدح. فكان بين الذين أكثر من مدحهم ابن قزمان أبو القاسم أحمد بن حمدين، وأخوه حمد بن حمدين القاضيان بقرطبة. وله تعريض بالمرابطين الذين كانوا يحكمون الأندلس.

وله ثلاثون زجلاً في الغزل وعشرة في الخمر وربما مزج بين الخمر والنسيب، فأطلعنا على أنماط من هزله ونزقه وإدمانه الخمر وبؤسه وفقره. ولكن هذا الشعر أقرب مثلاً، وأبرع تصويراً وأكثر دلالة على شخصية صاحبه من غيره من أزجال الديوان، وقد جرى ابن قزمان في خمرياته على طريقة أبي نواس، ولكنه طبع شعره بطابعه الشخصي القوي. وهكذا استطاع هذا الأديب المسلم أن يزيد في ثروة بلاده الفنية، وأن يستحدث فيها فناً جميلاً جديداً، لم يلبث أن اجتاز حدود تلك البلاد إلى الغرب وانتشر فيها كلها. وقد أخذ شيوخ الصوفية وأهل الذكر ينظمون أورادهم وأناشيدهم أزجالاً يضمنونها ألوان الوجد التي اشتهروا بها، وهي لا تقل جمالاً وروعة عن شعر التصوف الذي جرى به بعد ذلك لسان بعض القديسين بأوربا وقد كان ابن عربي أول من نظم الأزجال الصوفية. ثم جرى مجراه كثيرون نذكر منهم الششتري.

ولما استحدث شعراء الأندلس الموشح والزجل في القرن الثالث الهجري كان ذلك تخفيفاً لبناء القصيدة الاتباعي وقبورها في الوزن والقافية. إذ خرجوا به على قيود القافية الواحدة والوزن الواحد، وصاروا يتصرفون في الوزن والقافية معاً. والموشح لا يختلف في أساليب نظمه عن الزجل، إلا أن الشاعر في الأول يستخدم اللغة الفصحى، وفي الثانية ينظم بالعامية، أما في تأليف القصيدة فكلا الغنيتين يدرجان على نمط واحد من حيث « المركز » و « الأغصان » و « السمط »، وقد وضع الزجل في أصله للغناء وقد أرادوا بنظمه وغنائه إخضاع الشعر للنغم.

وقد تأثر الاسبانيون بطريقة الموشحات العربية الأندلسية وبالزجل وذلك في القرن الثامن الهجري في حين لم يكده ييزغ فجر القرن السادس الهجري حتى أصبح منتشراً بين شعراء « لانجدوك » و « بروفانس » بفرنسا وقد عني « جوليان ريبيرا » الأيباني بدراسة هذا الموضوع ونشر في سنة ١٩١٢ بحثاً قال فيه : إن ظهور هذا النوع من نظم الشعر بفرنسا لم يكن وليد المصادفة، بل علينا أن نبحث عن أصله في الموشح وشعر الزجل العربي، من حيث الإلهام والوزن وتنويع القافية، بعد أن انقضى العهد الذي كان الشعراء فيه ينسجون على منوال الشعر اليوناني اللاتيني. ولا شك في أن الشعر طاف شواطئ البحر المتوسط حتى انتهى إلى أوروبا سالكا طريقه من بلاد اليونان إلى أوروبا فاسبانيا، ومنها — بواسطة العرب — إلى فرنسا.

ومن مؤيدي رأي قيام الصلة بين الزجل العربي بأسبانيا وشعر التروبادور بفرنسا : « نيكل » و « تالجرين » و « روبر بريقو »، وقد نشر هذا الأخير كتاباً في هذا الموضوع ومن معارضيه المستشرق البرتغالي « رودريجز لايلا » الذي قال إن هذا النوع من نظم الشعر كان موجوداً باللغة الرومانية في شبه جزيرة اسبانيا قبل ابن قرمان، ولكنه لم يقدم دليلاً واضحاً على نظريته؛ وكذلك قال بعض المستشرقين الألمان^(١) والباحثة الفرنسية « جابروا » الذي يدعي أن البراهين التي يقدمها مؤيدو الرأي ليست قاطعة للدلالة عليه، ويقول : إن شعر « التروبادور » قد يكون في أوزانه وقوافيه مأخوذاً عن بعض الشعر اللاتيني المستحدث.

(١) ينكر الألمان تلك الصلة بين الزجل وشعر « التروبادور »، لأنهم يدعون أن القوط أخذوا طريقة نظمهم للشعر عن قدماء الألمان وأنهم جاءوا بها من ألمانيا.

ولا يخفى « ميندر بيدال » عقيدته بأن طريقة نظم الزجل انتشرت في مقاطعة البروفانس وفي أوروبا منذ أخذها غليوم التاسع أمير أكيانيا عن الأندلسيين. ولكن يلاحظ أن شعراء التروبادور — في أول عهدهم بالنظم على هذه الطريقة — لم يمنوا بنظم « المركز » في مستهل القصيدة وهو اعتراض لا يعترف « ميندلز بيدال » بأصالة، لأن المركز وضع في الزجل العربي ليردده الجمهور مع المغني بعد انتهائه من كل مقطوعة. وكان الجمهور كبير العدد باسبانيا؛ أما في مقاطعات فرنسا فقد كان الشاعر (التروبادور) يعني بشعره عادة في القصر أمام الأمير وزوجته وبعض بطانته من نساء ورجال، وهذا جمهور قليل العدد لا يكفي لترديد المركز مع الشاعر بعد كل مقطوعة. على أنه لم يلبث شعراء التروبادور أن استهلوا قصائدهم بالمركز في القرنين السادس والسابع الهجري.

وإذا كان تجانس الأوزان في الزجل العربي وشعر التروبادور الفرنسي وتنظيم القوافي على نمط واحد فيهما لا يقيمان الدليل القاطع في نظر البعض على صلة التجانس بينهما، فإن بعض المستشرقين يرى في الأدلة التاريخية والموضوعية شهادة حاسمة على ذلك.

أما من حيث الموضوع فإن شعراء الزجل العربي وشعراء التروبادور لم يكتفوا بنظم ذلك النوع من الغزل الرقيق الحاشية الذي كانوا يستلهمونه مما أسماه بالعربية « حب المروعة » ذلك الحب الذي أخذه شعراء البروفانس الفرنسية عن اسبانيا الإسلامية، وبسط أصوله ومميزاته ابن حزم في كتابه « طوق الحمامة »، بل إن الفريقين تعديا هذا الحب المجرد إلى الحب الشهواني، وقد خلق شعراء التروبادور حول المرأة نفس الجو الذي خلقه شعراء العرب، وأحاطوها بالأشخاص الذين أحاطها بهم هؤلاء الشعراء، فعندهم أسماء خاصة كالتي عندنا للدلالة على الرقيب والواشي والعدول والحسود. وعند شعراء العربية أن الطاعة من

شروط الهوى، ولهم في ذلك الشيء الكثير. وعند ابن حزم أن من أحب أطاع، وهذا ما نجده عند غليوم التاسع وزمرته ممن أتوا بعده، فهم يخاطبون المعشوقة بقولهم : مولاي و (سيدي) كما كان يفعل شعراء العرب؛ ويحذون حذوهم في مخاطبة المرأة أو التحدث عنها في شعرهم بضمير المذكر، ويصفون مثلهم تباريح الجوى وآلام الحب واللوعة.. ويرى بعض المستشرقين أن كلمة (تروبادور) — التي أطلقت على أولئك الشعراء؛ والتي لا يعرف مصدرها في الفرنسية — مأخوذة من كلمة « الطرب » العربية لأنهم كانوا يتفنون بشعرهم فكيف نفسر كل هذا الذي أخذه شعراء التروبادور عن العرب، إلا أنهم اتصلوا بهم في أسبانيا في أثناء رحلاتهم إليها فسمعوا أرجالهم وحفظوها وتأثروا بها فظنوا على متوالها!؟.

وعلى أي حال فإن غليوم التاسع هو أول شعراء التروبادور وأول من قلد الأرجال العربية في الشعر البروفانسي؛ وكان يعرف العربية وكان غليوم هذا في عصفوان الشباب عندما رحل إلى الأندلس سنة ١١٠١م — ٤٩٤ ورحل إليها مرة أخرى عام ١١٢٠م ٥١١هـ.

ومن أوائل شعراء « التروبادور » : الكونت « دي بواتيه » الفرنسي وكان معاصراً لابن قزمان، وقد اشترك في حملات كثيرة قام بها الفرنج ضد المسلمين في اسبانيا، وكان قبل اشتراكه في هذه الحروب ينظم أشعاراً لا قافية لها تختلف كل الاختلاف عن الأشعار التي نظمها على نسق الأرجال الأندلسية عقب اتصاله بالعرب في الحروب التي اشترك فيها ضدهم. وشعراء « التروبادور » هم الذين وضعوا أسس الشعر الفرنسي وأدخلوا فيه تلك الألوان الغزلية التي نقلوها من زجل ابن قزمان وغيره ومن أشعار العرب في الأندلس. ويقول المؤرخ الانكليزي « جورج كولان » : « إن للاتدلسيين موشحات وأجالاً هي أقرب إلى أن تكون أصل أغاني « التروبادور » التي انتشرت حتى عمت أوروبا ».

ويقول نيكلسون في كتابه « تاريخ آداب العرب » : « إن الشعر الأوربي كان قبل اتصال الأوربيين بالعرب شعراً ساذجاً لا قافية له، فلما اتصلوا بعرب الأندلس ظهرت فيه القافية، وسائر الأشعار الأوربية على العموم كانت خالية من القافية، حتى الشعر اليوناني الذي لم تعهد فيه القافية على الرغم من ازدهاره ورقبه منذ القدم ». ويقول المستشرق « ماكيل » : « إن أوزان الشعر الشعبي القديم في إيطاليا — كما في أناشيد جاكوبوني وفي أغاني المرافع — لا تختلف عن أوزان الشعر العربي الأندلسي »، ويقول الكاتب الإيطالي « كيتاني » في كتابه « نصيب الإسلام في تدرج المدينة » : « إن الذي كان لداني الشاعر الإيطالي من واسع الخيال وجمال التصوير في شعره ليس إلا أثراً لما كان في قرطبة وبغداد من أدب زاهر أيام كانت أوربا تخبط في جهالتها ».

— ٦ —

وقد تأثر الشعراء في اسبانيا وفرنسا وجنوب إيطاليا بالشعر العربي في الأندلس تأثراً كبيراً، وأثر الشعر الأندلسي في الشعر الغنائي، وكان له الفضل في ظهور المقطوعات الشعرية المقفاة التي تحاكي الشعر العربي في أفكاره وأخيلته، والطابع الذي اتسم به الشعر الفرنسي من وصف مناظر الطبيعة وتصوير جمال الحياة لا يختلف عن طابع الشعر الأندلسي مما يشهد أن الأوربيين نهلوا من معين الشعر الأندلسي. يقول « لويس قياردو » في كتابه « تاريخ العرب والبربر في اسبانيا »: كان الشعر الفرنسي على مثال الشعر الاسباني المأخوذ عن الشعر العربي لا عن اليوناني ولا عن الروماني، لأنهم لم يقفوا على هذا ولا ذلك قبل القرن الثامن الهجري حتى يقلدوه.. ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافي عن العرب، وهذه الصناعة جاءتنا من الأندلس عن طريق مرسيليا وطولون مع التجار الأسيان الذي كانوا يقدون اليهما ». ويقول « ريبيرا » الذي

عني بدراسة التراث الإسلامي في أوروبا: إن الملاحم القشتالية احتوت ألفاظاً عربية كالغارة والدليل والقاضي والمغفر والطلح وغيرها مما يثبت أثر الأدب الأندلسي وشعره في صميم هذه الملاحم. وجاء في خطبة للمسيو « لاجير » بمؤتمر المستشرقين في مرسيلىا عام ١٨٧٦ : إن العرب تركوا في الأندلس أثراً لا يزالون يذكرون به إلى الآن في العلوم والآداب والفنون، ولقد أخذت عنهم فرنسا كثيراً من ذلك. وقال المؤرخ الأسباني « كوند » : إن من أدب أهل اسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب متأثر به، ولا شك أن الاسبانيين مدينون للعرب بلختهم وآدابهم، ويقول باحث^(١) : إن معظم ما جاء به دانتي الشاعر الإيطالي كان قد ألقه قبله محيي الدين العربي، وهذا الشبه لم يقف هنا بل هو شامل للصور والأمثال والاصطلاحات حتى الأساليب الفنية.

(١) ١٢٣ التصوف الإسلامي - للعلياوي.

الشعر الأندلسي بين التجديد والتقليد

يزعم بعض الكتاب أن الأدب الأندلسي أدب تقليدي محض، لم توح به عاطفة، ولم ينبض به إحساس؛ وإنما أهله عالة على المشاركة فيما يقولون وما يفعلون، فما هم بشيء إلا صدى لآثار المشرق وآدابه وأبواق تنجاوب فيها تلك الأصوات المنبثقة من الشام أو العراق، فلا ملكة ولا وجدان، ولا مواهب ولا استقلال، وإنما هي مشاعر تهجع فتعربد الحواس^(١).

ويقول أحد أساتذة الجامعة المصرية : « والحق أن تأثر الأدب العربي بالأقاليم كان ضئيلاً، بالرغم من اختلاف هذه الأقاليم وتباينها في الخصائص الجغرافية والمميزات الجنسية والعقلية والشعورية، لأن الأدباء كانوا يخرجون عن حياتهم في أقاليمهم إلى حياة عامة في الأدب العربي، يعيشون فيها على تقليد المثل الأدبية التي خلفها العباسيون، فالأديب حين كان يحاول أن يكتب أو ينظم يريد أن يكون مثل الأدباء العباسيين، فهو يكتب نثراً كنثر ابن المقفع أو الجاحظ أو ابن العميد، وهو ينظم شعراً كشعر البحتري أو أبي تمام أو ابن المعتز أو المتنبى...»

(١) من مقال للعقاد.

فقد جمّد شعراء الأقاليم عند الأزياء الفنية القديمة التي نسجها البحري وأبو تمام والمنتبي وأبو العلاء... ولعل الأندلس هي أهم الأقاليم في تاريخ الشعر العربي، غير أن من يتعقب الحركة الأدبية هناك يلاحظ أن الشعراء عاشوا على تقليد المشرق في فنونه ومذاهبه الأدبية، فلم تؤسس الأندلس لنفسها نهضة مستقلة. إنما كانت تستمد من بغداد، ولو أنها بدأت حركة مستقلة عقلية لأمكن أن توجد الفوارق بينها وبين غيرها من الأقاليم، ولكنها غرقت إلى أذاتها في الثقافة العربية العامة، التي نهضت بها بغداد، وآية ذلك أنها لم تقم بها حركة ترجمة كالتي قامت في العراق، وإن الإنسان ليخيل إليه أن الأندلس كانت تقلد المشرق في جميع نواحي الحياة... ونحن إذا رجعنا إلى نماذج الشعر نفسها وجدنا كثيراً منها يصاغ على أنماط مشرقية خالصة، لا تقتصر على المشابهة في الوزن والروي، بل في كثير من المعاني والأساليب، وكأنما القصيدة كلها ليست إلا تلفيقاً للمواد الفنية التي تركها العباسيون... ولذلك لم يستطع الشعراء أن يتحولوا بالشعر إلى وجهات جديدة، فلم تحدث فيه مناهج أو مذاهب غير تلك المناهج والمذاهب العباسية..^(١)

— ١ —

كانت الترجمة عملاً أساسياً في الحياة العقلية بالمشرق، فقد نقلت ثقافات الأمم المختلفة التي امتزج العرب بها كل الامتزاج. وأخذوا عنها من الحياة المادية والحياة العقلية ما صبغهم صبغة جديدة في مظاهر حياتهم العامة، من الحضارة والترف والنظم السياسية في الإدارة والحكم، والعادات والتقاليد، وما جدد من ثقافتهم وتفكيرهم وآرائهم

(١) الفن ومذاهبه في الشعر للدكتور شوقي ضيف.

تجديداً واضحاً كان أثره أوسع مدى في الشعر والأدب، فقد صبغت عقلية الفنانين من الأدباء والشعراء بأصباغ جديدة من العمق والدقة والتحليل وطرافة التقسيم والبعد في التفكير والخيال، حتى أصبحنا بإزاء صفات عقلية جديدة متأثرة بالفلسفة والمنطق وعلوم التنجيم والرياضة والحكم ونحوها من ثقافات اليونان والهند والفرس.

وقد تجلت مظاهر هذا كله واضحة جلية في الشعر، ظهرت في جوانبه الحسية، وطرق صياغته، وظهرت كذلك في صياغته الذهبية من تناول الأفكار وتحليلها، وما يحدث فيها من طرافة، وما يشيع من عمق ودقة.

وكانت البيعة إلى هذا ميداناً طليقاً يجيش بالنحل المختلفة والفرق والمذاهب الدينية المتعددة. فكانت هذه كلها عوامل أحدثت هذا التغيير في الطابع المادي والعقلي للفن العربي، وكان الشعر العربي (وهو صورة الحياة) خليقاً بأن يمثلها وأن يتأثر بها.

أما في الأندلس فقد كانت هناك عناصر فينيقية ورومانية وقوطية، ولكن هذه العناصر لم تكن أصحاب تراث علمي أو أدبي حتى يتأثر به العرب، ولو كان لهم شيء من ذلك لما استطاعوا أن يفرضوه على العزة العربية التي احتفظت بكيانها في هذا الإقليم، باعتبارها السلطة الحاكمة القاهرة، فلم يكن لهذه العناصر إذن أثر من ناحية الثقافة أو الأدب في الشعر العربي.

وكذلك كانت هذه البيعة بيئة محافظة واعتزاز، تعزز بكل ما هو عربي، وتتحفظ في عقيدتها وتفكيرها من فنون الفلسفة، وأهواء النحل والعقائد المختلفة، فلم تخرج عن هذا التحفظ إلا شذوذاً، أو حين انحلت رابعتها العربية، وحلت الفوضى، وأبيح ما كان محرماً.

بيد أن الأدب الأندلسي في جملته، أو الأدب الذي نعتد به وهو

ما يصور بيته، ويصدق في تصويرها، لم يتناول شيئاً من تلك المذاهب أو العقائد أو الفلسفات التي كانت تأبأها الأندلس وتنفر منها.

كانت طبيعة الأندلس في جمالها، وحضارتها في عظمتها، خليقتان بأن تلهما الشعراء الوصف، فوصفوا وأبدعوا، وكانت البيئة في عروبتها وتحفظها مؤثرة فيمن تنشئهم من الشعراء، فكانوا مثلاً صادقاً لها. فكيف نطلب منهم إذن أن يصوروا ما لم يحسوا به، وما لم يعتقدوه؟ وكيف نلزمهم أن يكذبوا على بيئتهم، فيتحدثوا عن المذاهب والنحل والمنطق والفلسفة، وعن مظاهر حياة الفرس والروم والهند.

إن الشعر تعبير جميل عن الشعور الصادق، وقد غير الشعراء الأندلسيون أجمل تعبير عما يحسونه وما يشعرون به، ولو طالبناهم بأكثر من هذا لخرجوا * عن حياتهم في إقليمهم إلى حياة عامة في الأدب العربي يعيشون فيها على التقليد والمحاكاة * فما هذه المذاهب التي قصروا فيها أو التي تنقصهم؟ إن حمل الشاعر على أن يقول غير ما يفيض به شعوره حمل له على أن يحطم * قيثارة * الشعر، وأن يقول كلاماً لا تفيض به عنده عاطفة. ولا يبيض له به قلب.

— ٢ —

مدى التقليد :

لا شك أن الدولة العربية بالأندلس كانت مناهضة لمثلها بالمشرق فكان من الطبيعي أن ينافسوا في حياتهم السياسية الحياة السياسية في بغداد. وكان من الطبيعي كذلك أن تستلزم هذه المناقسة السياسية المناقسة في مظاهر الحياة العامة، فهم يطلقون على كثير من بلدانهم أسماء مشرقية، كما أنهم يحفلون بالغناء والموسيقى على نحو ما كان في بلاط الرشيد والمأمون، ويتأثرون في حياتهم العقلية والأدبية بالمشرق،

ولعل هذا كما يقول الراجزي « لأن الأدب العراقي ممتاز بمثانة اللغة
لقربه من البادية ولاستفحال الرواية هناك ولكونه أصلاً^(١) ».
ولسنا ننكر أن كثيراً من الكتب الأدبية عند الأندلسيين قد صيغ
على شكل الكتب الأدبية عند المشارقة.

هذا هو مدى التقليد عند الأندلسيين : منافسة في الملك والسياسة
تحتها المنافسة في مظاهر هذا الملك وما يستلزمه من الحياة العلمية
والأدبية، وهذا ما عناه ابن بسام حين يقول : « إلا أن أهل هذا الأفق
أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث
إلى قتادة؛ حتى لو نعت بتلك الآفاق غراب، أو طرن بأقصى الشام أو
العراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتاباً محكماً^(٢) ».
أما الشعر فإنه لم يقصده كما زعم الزاعمون، فهو يقول قبل هذه
الفقرة في وصف أهل أفقه « لعبوا بأطراف الكلام المشقق لعب الدجى
بجفون المؤرق، وحدوا بفتون السحر المنمق حذاء الأعشى بينات
المحلق، نثر لو رآه البديع لنسي اسمه، ونظم لو سمعه كثير ما نسب
ولا مدح، أو تبعه جروول ما عوى ولا نبح^(٣) ». ويقول بعد ذلك :
« إنهم رعوس شعر وكتابة، تدفقوا فأنسوا البحور، وأشرقوا فباروا
الشموس والبدور^(٤) ».

فمن زعم أن شعر الأندلسيين — ككل مظاهر حياتهم — يغيب في
سواد التقليد، ويدخل في شعر الأقاليم الأخرى، بحيث يشبه النسيج،
وتلتحم الديباجة، فهو لا يعرف الشعر إلا بأوزانه، ولا يميز غير ظاهره،
فإن للشعر بنوع خاص دون سائر العلوم والمعارف « روحاً كروح

(١) تاريخ الأدب العربي للراجزي ج ٣-٢٦٢.

(٢) الذخيرة ج ١-٢.

(٣) الذخيرة ج ٢-٣.

الإنسان تستوي مع الجنس كله في جملة الأخلاق، وتختلف في مفرداتها، حتى لقد يجد اللبيب الحاذق من التفاوت بين أنواع الأشعار، إذا هو استقرأها، وتقتصر تواريخ أصحابها، ما يصح أن يخرج منه علم يسمى علم الفراسة الشعرية^(١).

الشعر ملكة طبيعية لا تتأني بالمحاكاة، وموهبة من المواهب التي لا يختص الله بها جيلاً دون جيل، ولا إقليمياً دون إقليم، فحيث جرت مع الدم في جسم صاحبيها، ونبض بها حسه، وتفتحت لها نفسه، انطلق كالطائر الفرد، يصدر عنه الشعر دون تكلف، كما لا بد لابن الدوح أن يترنم.

ثم إن معظم الشعراء الأندلسيين عرب جرى الشعر في دمائهم؛ وهاجر معهم إلى هذه الجزيرة، وأية بيعة أصلح للتغريد من الأندلس؟ وأي روض يبعث على الشعر أجمل من رياض الأندلس؟ لقد كانت آفاقها العاطرة؛ ومغانيها الزاهرة، وحضاراتها الساحرة، جمالاً يهز المشاعر، ويوقظ العواطف، وينبه غافي الحس، ويحرك خواطر النفس — وكانت (الظروف) التي تحيط بالشعراء ككل (الظروف) التي تحيط بهم في كل أرض وكل إقليم، فلو أنهم عاشوا في عزلة تامة عن المشاركة، فهل نستطيع أن نحرهم عاطفة الحب مثلاً وهي عاطفة يوحى بها الطبع، وتدعو إليها حرارة الشباب، فلا يكون الغزل غرضاً من أغراضهم؟ أو هل نستطيع أن نغفل إحساسهم بمظاهر الجمال التي يشعرون بها في هذا الأفق؟ هل تمنعهم من المدح وهو أمر تقتضيه الحياة؛ وتدعو إليه صلة الشعراء بالملوك؟ وهل تكذب شاعراً كابن زيدون مثلاً في إحساسه بالحب، أو شعوره بألم السجن، ونقول إنه مقلد لأن في المشاركة من أحب فعبير عن الحب، ومن سجن فصور ظلمة السجن؟.

(١) تاريخ الأدب العربي للرافعي ج ٣ - ٣١١.

الحق أن الشعر من حيث هو شعور النفس، وأغنية الحس، موهبة
طليقة، لا يحددها زمان ولا مكان، ومن أولى من الأندلسيين به وبيتهم
هي في نفسها معاني الشعر وينبوعه؟^(١)

يقول ياقوت في الحديث عن مدينة (شلب) : وسمعت ممن لا
أحصى أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول الشعر، ولا يعاني الأدب،
ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته
ما اقترحت عليه، وأي معنى طلبت منه^(٢)، فهل كان ذلك الفلاح
متأثراً في هذا بالمشاركة أم هو الإحساس الطبيعي في نفسه، والدافع
الغريزي في دمه؟

يقول ستانلي بول : « ويظهر أن العالم الإسلامي اتجه بروحانيته إلى
آلهة الفنون، فمن الخليفة في عرشه إلى النوتي في سفينته. كنت تسمع
النظم الفائق في مشاهد الأندلس، وجمال مدنها، ثم في روعة خرب
الأنهار وسحر الليل الساجي وقد هدأت فيه النجوم؛ ثم في نشوة الحب
والخمر ومجتمع الأانس، وقد اجلس المحب ساعة لقاء بفاتنته التي
ترمي بقوس حاجبها القلوب^(٣)».

يقول المعتمد بن عباد في محتته المفجعة، وقد كتب للوزير أبي
العلاء زهر ليعالج زوجته، فكتب له الوزير بالإجابة، ودعا له بطول البقاء :
دعاك لي بالبقاء وكيف يهوى أسير أن يطول به البقاء
أليس الموت أروح من حياة يطول على الشقي بها الشقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتي عواري قد أضر بها الحفاء
خوادم بنت من قد كان أعلى مراتبه إذا يسدو النداء
ولكن الدعاء إذا دعاه ضمير مخلص نفع الدعاء

(١) الحلل السندية لشكيب أرسلان ج ١ ص ٢٢١.

(٢) قصة العرب في أسبانيا ترجمة الحارم.

ما أمرّ الذلة بعد العز، وما أقسى الشقاء بعد النعيم، لقد عرف
المحمّد كيف يصدع القلوب بأناته الكسيرة، وكيف أن الألم يفجر
ينابيع النفس بالكلام، وهاك منظرأ آخر أشدّ ألماً ولوعة.. دخل عليه
وهو في تلك الحال ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه
عض الأسود، وهو لا يطيق إعمال قدم، ولا يريق دمعاً إلا ممزوجاً
بدم فلما رآه بكى وقال :

قيدي أما تعلمني مسلماً أبيت أن تشفق أو ترحما
دمي شراب لك واللحم قد أكلته لا تهشم الأعظما
يصرني فيك أبو هاشم فبتنتي القلب قد هشما
ارحم طفيلاً طائشاً ليه لم يخش أن يأتك مسترحما
وارحم أحيات له مثله جرعتهم السم والعلقما

أليست هذه نفس شاعر عرف كيف يعبر عما يجول في نفسه
من المعاني، ويصف آلامه وأحزانه بلا تكلف أو تعمل ؟ وهل كان
يقلد في هذا الأحساس، أو يكذب في هذا الشعور ؟ لقد برح به
الألم فأنطقه هذا الشعر وأذله القيد، فسكب تلك الدموع، ونحن في
هذا المقام إنما ندلل فقط على صدق الأحساس وصحة الشعور، وقد
تم لنا هذا في شعر المحمّد، بقطع النظر عن (بساطة) التعبير ولين الأداء.

— ٣ —

القوافي والأوزان :

وعجيب أمر هؤلاء الواهمين، حين يتعلقون بالقشور، ويستندون إلى
المظاهر. وأعجب العجب أن يتحكموا في القوافي والأوزان، فيحاولون
أن يقصروها على فريق من الشعراء دون فريق، ولو كان الأمر أمرهم
لوقف الشعر العربي عند العصر الجاهلي، لأن الشعراء الجاهليين قد

استنفدوا الأوزان والقوافي فلا يصح لشاعر أن ينظم بعدهم.
فهم يقولون إن كثيراً من قصائد الأندلسيين قد صيغ على نمط
القصائد المشرقية.

ويقصدون بالخط التقليدي في كل شيء في القصيدة تبعاً للتقليد في
الوزن والروي، حتى لو كان الغرض مختلفاً، والمعاني متباينة، فهم
يكتفون بالنظرة العجلى التي تقع على نوع البحر والروي، ليحكموا
على كل عناصر القصيدة بالتقليد.

ولو أننا قلبنا دواوين الشعراء منذ وجد الشعر لوجدنا الكثير من
هذه المشابهات في الوزن والروي، إما عن غير قصد فتكون عفواً ومن حق
الشاعر، أو عن قصد فتكون معارضة ومناصفة يعتد بها الشاعر ويفخر،
لا محاكاة أو تقليداً.

والحق أن الشعر لا يقاس بالوزن ولا بالروي. فإن البحور والقوافي
ملك الشعراء جميعاً، وإنما الشأن للصياغة والمعنى والشعور.

ولو كان الأندلسيون جامدين على التقليد، واقفين عند حدوده، لما
أحدثوا هذا الحدث الجديد في الأوزان الشعرية؛ فقد عاشت الأندلس
في ترف أحدث عندها اهتماماً بشعر الطبيعة، كما أحدث عندها نهضة
واسعة في الغناء، نشأت مع رحيل زرياب وغيره من أمثال فضل وعلم
وقلم، وقمر والعجفاء^(١). فشاع الغناء وشاعت الموسيقى؛ وكثر المغنون
والمغنيات، فأحدث ذلك في الشعر تلك الموشحات والأزجال، لأن
أوزانها أحفل بالتلحين من الأوزان المعروفة، وبذلك استطاعوا أن يتجاوزوا
مع بيتهم، وما كان فيها من ترف ولذة ونعيم، فقد كان منهم من
ينظم ويلحن ويغني كأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأشبيلي المتوفى

(١) نوح الطيب ج ٢ - ٧٥٨.

سنة ٥٢٣هـ؛ وهو الذي لحن الأغاني الأفريقية^(١)، وكالفيلسوف أبي بكر بن باجه الغرناطي صاحب كتاب الموسيقى وغيرها. وهكذا كانت عنايتهم بالألحان واختراع الأوزان المناسبة لها، بما أوتوه من لطف ذوق، ورهافة حس، وهذه الألحان هي التي جعلت شعرهم — كما يقول الرافعي — كأنه نفوس تقطر أو تسيل.

— ٤ —

المعاني :

ويعودون إلى المعاني فيحيون الأندلسيين في تناولهم معاني السابقين من الشعراء، ونحن نعلم أن أمراً القيس كان يكي كما يكي ابن خدام، وأن زهيراً كان يرى أن الشعراء لا يقولون إلا المعار، وأن عنترة كان يعترف بأن الشعراء لم يغادروا من متردم، وإذن فتداول المعاني بين الشعراء أمر ليس بالجديد ولا بالغريب. وقد نشأ عن هذا التداول ذلك البحث الواسع الذي نجده في كتب النقد العربي، ونجد النقاد يحسون بأن هذا الجانب ضروري في الشعر، حتى إن صاحب الصناعتين يقول : « ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تداول المعاني ممن تقدمهم، والصب على قوالهم^(٢) » ويقول الجاحظ، « نظرنا في الشعر القديم والحديث فوجدنا المعاني تقلب ويؤخذ بعضها من بعض » « ولا يعلم في الأرض شاعر متقدم في تشبيه مصيب، أو معنى غريب، إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده إن هو لم يقدر على لفظه فيسرقه أو يدعيه، فإنه لا بد أن يستعين بالمعنى^(٣) ».

(١) الفصح ج ١-٢٧٢.

(٢) ص ١٨٣.

(٣) الحيوان ج ٣-٩٦.

وعلى هذا تداول الشعراء المعاني من قديم الزمان.

ولست أطيل في هذا النوع من التداول الذي لا يحدث جديداً في المعنى أو تحويراً فيه، وإنما أريد أن أعرض لنوع آخر مهما اتسم به بعض الشعراء، فإنه كان السمة العامة للمعاني الأندلسية، ذلك هو عرض المعنى في ثوب جديد، والتأنيق في رسمه وتلوينه، حتى إنك لتنسى أصله وتحسبه معنى جديداً، وإحساساً طريفاً. فهم يأخذونه بالتحوير أو النقص أو الزيادة أو الشرح، حتى تحس بشخصيتهم فيه واضحة جلية، وتعترف لهم بالتجديد في هذا التصرف وماذا تطلب منهم غير ذلك ؟

يقول امرؤ القيس :

سموت إليها بعد أن نام أهلها سمو حباب الماء حالاً على حال

فيقصر عنه ابن أبي ربيعة، ولا يسمو هذا السمو حيث يقول :

ونفضت عني النوم أقبلت مشية الـ حباب وركني خيفة القوم أزور

وأنشد بعضهم لأبي دهيل الجحيمي :

قالت لقد أعبيتنا حجة فأت إذا ما هجع السامر
واسقط علينا سقوط الندى ليلة لا ناه ولا زاجر.

ومع أن قوله (كسقوط الندى) في غاية الجمال، إلا أن الندى مع لطفه وصفاته ورقته قد يوظف السامر الهاجع، كما أزعجه (حباب) ابن أبي ربيعة فانظر إلى ابن شهيد الأندلسي كيف يتلطف في التوصل، فيدب ديب الكرى الذي لا يحس ويسمو سمو النفس الذي لا يرى :

ولما تملأ من سكره ونام ونامت عيون العسس
دنوت إليه على بعده دنو رفيق درى ما الشمس
أدب إليه ديب الكرى وأسمو إليه سمو النفس

ويقول أبو نواس :

عرضن للذي تحب بحب ثم دعه يروضه إبليس
فيوجه ابن حزم هذا المعنى توجيهاً حسناً في طريق الخير، شارحاً
ومعللاً :

أبن قول وجه الحق في نفس سامع ودعه فنور الحق يسري ويشرق
سيؤتسه رفقا فينسى نفااره كما نسي القيد الموثق مطلق

ويقول أبو العلاء في ذكر السيف :

ودبت فوقه حمر المنايا ولكن بعدما مسخت نمالا

فينقله ابن وهبون الأندلسي إلى وصف العذار حيث يقول :
ومعذرين كأنما يخلودهم طرق العيون ومنهج الأرواح
وكانما صقلوا الجمال وأظهروا مشي النمال على متون صفاح

ويقول ابن الرومي :

تأمل العين منها محاسناً ليس تنقد

فلا يفيد أن العين أدامت النظر حتى تتحقق من عدم نفاذ المحاسن.

ويقول أبو نواس :

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظرا

فلا تفهمنا (إذا) تكرار النظر والتفنن فيه لإدراك المحاسن المتجددة.
وكلا البيتين يفيد أن المحاسن على كثرتها لا تستعصي على النظر؛
ولا يصعب عليه استيفائها وملاحظتها. ولكن ابن زيدون يدق في هذا
المعنى، حتى يرينا الحسن ألواناً وأفانين تقصر عنها ألوان النظر وأفانينه
فلا يلاحقها خطوة خطوة كما في بيت أبي نواس، بل يكمل فيقف
في الطريق :

حسن أفانين لم تستوف أعيننا غاياته بأفانين من النظر

ولم يفت الأندلسين أنفسهم أن يتلاعب بعضهم بمعاني بعض، كما

قال ابن وهبون في أمرد التحي :
دعوت دعاء مظلوم عليه وكان الله مستمعاً مجيباً
فطوقه الزمان بما جناه وعلق في عذاريه الذنوب
فقال أبو بكر الداني :

وليس ذلك العذار شعرا ولكنما سره عجيب
لما أرق الدماء ظلما بدت على خده الذنوب

وهكذا كان حسن التعليل والتفنن والإبداع فيه والإكثار منه سمة
من سماتهم، وباباً من أبواب تجديدهم في المعاني واقتنائهم في
التشبيهات، وإمعانهم في الخيال. قال ابن سارة الشنتريني :
لم يكس عارضه السواد وإنما تثرت عليه سوادها الأحداق

وقال ابن حمديس يصف نهراً :
جريح بأطراف الحصى كلما جرى عليه شكاً أوجاعه بخريسه
وكثيراً ما يعمدون إلى التشبيه العادي المكرور، فيضفون عليه أزياء
جديدة تريكه جديداً طريفاً.

على أن طبيعتهم الجميلة أبت عليهم حين وصفوها أن تلبس ما
خلفه الشعراء من قديم المعاني، مهما أبدعوا في تخطيطها وتجديدها،
فألهمتهم من حسنها البكر معاني عذراء، يقول ابن عمار :
روض كأن النهر فيه معصم صاف أطل على رداء أخضرا

ويقول ابن خفاجة في مثل هذا النهر :
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكنفه مجر سماء
وغدت تحف به الغصون كأنها هُدبٌ تحف بمقلة زرقاء

ويقول أبو بكر الداني في (ميورقه) :
بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاووس
فكأتما الأنهار فيه مدامة وكان ساحات الديار كؤوس

وقال الأعمى التطيلي يصف أسداً يمج ماء في فمه :
أسد ولو أنسى أنا قشه الحساب لقلب صخرة
وكأنه أسد السما ء يمج من فيه المجرة

ويقول ابن خفاجة في وصف نهر :

وأدهم من جياذ الماء نهر ينزع جلته ريح رخاء
إذا بدت الكواكب فيه غرقى رأيت الماء تحسده السماء

ومن مظاهر التحرر لشعر الطبيعة في الأندلس ما رأيت من الفتنة
بالبحر والتفتن في أوصاف المياه، كما أن النزعة القصصية التي امتازت
بها الأندلس في الأدب تظهر بوضوح في شعر الطبيعة، ومن ذلك
صورة السفرجلة في شعر جعفر بن محمد المصحفي، فهذه الصورة
عبارة عن تاريخ حياة السفرجلة، منذ كانت تختال على شجرتها بألوانها
وريحها وروحها إلى أن ذبلت في كف الشاعر. يقول :

ومصفرة تختال في ثوب نرجس وتعبق عن مسك ذكي التنفس
لها ريح محبوب وقوة قلبه ولون محب حلة السقم مكسي
فلما استمتت في القضيبي شبابها وحاكت لها الأوراق أثواب سندس
مددت يدي باللطف أبغي اجتناءها لأجعلها ريحانتي وسط مجلسي
فبزت يدي غصياً لها ثوب جسمها وأعربت بها باللطف من كل ملبس
ذكرت بها من لا أبوح بذكره فأذيلها في الكف حرّ التنفس

— • —

وأخيراً نستطيع أن نقول إن للأندلسيين شخصية واضحة في شعرهم،
استمدوها من بيئتهم، وتجاوبوا فيها مع طبيعة بلادهم، التي كانت مصدر
إلهامهم، وأفق خيالهم، فقد صفت أذهانهم، وسما وجدانهم، وعذب
بيانهم، فهذبوا الشعر وتأنقوا في ألفاظه، وتصرفوا في معانيه، ونوعوا

في قوافيه، وتفتنوا في خياله، ودبحوه تدييح الزهر، وسلسلوه سلسلة النهر، وأكثروا من نظمه في البحور الخفيفة القصيرة.

وليس يعيهم تناول المعاني القديمة في شعرهم، فقد لونها تلويناً يصور بيئتهم، وأبرزوا بالتجديد فيها شخصيتهم، وليس الفن في الإبداع والاختراع بقدر ما هو في حسن التأليف ودقة الانسجام، وإنما يمتاز الشاعر على الشاعر، إذا اشتركا في معنى، بما يبدعه أحدهما من الأكوان، وما يوفق إليه من التعبير عن ظلال المعاني ودقائقها.

ولقد شهد المستشرق الإنجليزي (نيكلسون) للشعر الأندلسي وما فيه من وجدان رقيق، وتلوين للإحساس يجعله جديداً حيث يقول : « ولعل أمتع ميزات الشعر الأسباني هي ذلك الوجدان العاطفي الرقيق الذي يندر وجود مثله في النسيب، والذي ظهر كثيراً في أغانيهم عن الحب، وهو وجدان لا يقتصر على تصوير فروسية القرون الوسطى، بل يتخطى ذلك إلى حد أن تحسبه جديداً بمحاسن الطبيعة التي جملته »^(١).

والحق أن الشعر الأندلسي كما يقول الرافعي « يمتاز بتجسيم الخيال النحيف، وإحاطته بالمعاني المبتكرة التي توحى بها الحضارة، والتنصرف في أرق فنون القول، واختيار الألفاظ التي تكون مادة لتصوير الطبيعة، وإبداعها في جمل وعبارات تخرج بطبيعتها كأنها التوقيع الموسيقي، بل هي تحمل على التلحين، بما فيها من الرقة والرنين، ولا يشاركهم في ذلك إلا من ينزع منزعهم ويتكلف أسلوبهم، لأن جزالة اللفظ في شعرهم إنما هي روعة واقعه، وحلاوة ارتباطه بسائر أجزاء الجملة،

(١) نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٤٠ وقد توفي المستشرق المذكور في نهاية هذه الحرب العالمية وكان حجة في تاريخ التصوف الإسلامي وكتابه في تاريخ الأدب العربي مشهور.

وتلك فلسفة الجزالة ومن أجل ذلك أحكموا التشبيه، وبرعوا في الوصف، لأنهما عنصرا لآزمان في تركيب هذه الفلسفة الروحية التي هي الشعر الطبيعي^(١).

بحسب الشعراء الأندلسيين أنهم عبروا عن عواطفهم، وترجموا عن مشاعرهم، وتغنوا بالطبيعة، وشدوا بالحب، وكل ذلك في حلوة لفظ وطريف معنى، ورقة أسلوب، ودقة صنعة.. وبحسب الأدب العربي ما كان لهم من الفضل في إدانة الأدب الغربي له، واستمداده منه، وتأثره به، حتى قال قائلهم: « كانت أشعار شعراء جنوب فرنسا خلوا من القافية، فاقبسوها من عرب الأندلس، بطبيعة الجوار والمخلاط، كما اقتبسوا في النظم أنواع الغزل والمدح والهجاء^(٢) ».

وقال لويس فياردو: « كان الشعر الفرنسي على مثال الشعر الأسباني المأخوذ عن الشعر العربي لا عن اليوناني ولا عن الروماني، ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافي عن العرب^(٣) ».

ويقول استانلي بول: « أما الأدب العربي فإن أوروبا لم تر في عهد من عهودها حفاوة بالأدب وأهله كما رأت في الأندلس، حين كان الناس من كل طبقة ينظمون الشعر، ويظن أن هذا الشعر هو الذي أوحى للشعراء المغنين بأسبانيا بأناشيدهم القصصية وأغانيتهم، وهو الذي حاكاه شعراء (بروفانس وإيطاليا)^(٤) ».

والمسيو كور ناشر ديوان ابن زيدون وجارثيا جوميز مترجم قصائده إلى الشعر الأسباني يريان « أن ابن زيدون وأترايه الأصل البعيد لشعر

(١) تاريخ الأدب للرافعي ج ٣-٣١١.

(٢) تاريخ الأدب للزيات ص ٣١٠.

(٣) ترجمة الزيات في كتابه المذكور ص ٣١٠.

(٤) قصة العرب في أسبانيا ص ١٣٣.

هؤلاء المغنين الجوالين (التروبادور) لأن فيها وقاراً وتسامياً يقربانها
من الحب المحتشم الذي يشيع في الأشعار التي ذاعت في جنوبي
أوروبا منذ القرن الثاني عشر^(١).

(١) مجلة الثقافة يناير سنة ١٩٤٦.

الفصل الثاني

صور من الشعر الأندلسي

١ - قال ابن زيدون متغزلاً في ولادة بنت المستكفي :
والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا^(١) إنني ذكرك بالزهراء مشتاقا
كأنما رق لي فاعتل إشفاقا^(٢) وللنسيم اعتلال في أصائله
كما حللت عن اللبات أطواقا^(٣) والروض عن مائه القضي مبتسم
بتنا لها - حين نام الدهر - سراقا يوم كأيام لذات لنا انصرفت
جال الندى فيه حتى مال أعناقا نلهو بما يستميل العين من زهر
بكت لما بي فجال الدمع رراقا كأن أعينه إذ عابت أرقى
فازداد منه الضحى في العين إشراقا ورد تألق في ضاحي منابته
وسنان نيه منه الصبح إشراقا سرى ينافحه نيلوفر عبق
إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا
لكان من أكرم الأيام أخلاقا لو كان وفي المنى في جمعنا بكم
فلم يطر بجناح الشوق خفاقا لا أسكن الله قلباً عقر ذكركم

(١) طلق الوجه : ضاحكه مشرقه، واليوم العلق الوجه : هو الذي ليس بحار ولا بارد.
(٢) اعتل النسيم : هداً ولم يشدد، والأصائل : جمع أصيل وهو الوقت قرب الغروب.
(٣) اللبة : موضع الفلاة من العنق.

لو شاء حملي نسيم الريح حين هفا
كان التجاري بمحض الود من زمن
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم
وفاكم يفتى أضناه ما لاقنا
ميدان أنس جرينا فيه اطلاقا
سلوتم وبقينا نحن عشاقنا

٢ - وقال أبو زيد عبد الرحمن بن مقناة الأشبوني يمدح إدريس
ابن يحيى أمير غرناطة بعد سنة ٤٣٤ هـ وكان إدريس من ملوك الطوائف:
أَلْبَرَقُ لَأُتَجِرَ مِنْ أُنْدَرِيْسِ
لَعَبْتُ أَسِيفَهُ عَارِيَّةَ
وَلصُوتِ الرِّعْدِ زَجْرٍ وَحَنِينِ
وَأَنَاجِي فِي الدَّجَى عَاذِلِي
عِرتَنِي بِسِقَامٍ وَضُنَى
قَد بَدَأَ لِي وَضَحَ الصِّبْحِ المِيبِنِ
وَاسقِنِيهَا مِرَّةً مَشْمُولَةً
مَعَ فَيَّانِ كِرَامِ نَجَبِ
شَرِبُوا الرِّاحَ عَلَيَّ خَدَّ رِشَا
وَجِلَّتْ آيَاتُهُ عَامِدَةً
يَتَسَاقُونَ إِذَا مَا شَرِبُوا
وَكَأَنَّ الشَّمْسَ لَمَّا أَشْرَقَتْ
وَجِهَ إِدرِيسَ بِنَ يَحْيَى بِنَ عَدِ
مَلِكِ ذُو شَيْبَةَ لَكِنَّهُ
خَطَّ بِالمَسْكَ عَلَيَّ أَبَوَاهُ
فَإِذَا مَا رَفَعْتَ رَايَاتِهِ
وَإِذَا أَشْكَلَ خَطْبَ مَعْضَلِ
فَيَسْرَاهُ بِسَارِ المَعْرِيْنِ
يَا بَنِي أَحْمَدِ يَا خَيْرَ الوُورِي
نَزَلَ الوَحْيَ عَلَيهِ فَاخْتَبَى

خلقوا من ماء عدل وتقى
انظرونا نقتبس من نوركم

٣ - وقال الداخِل من آيات
أيها الراكب الميمم أرضي
إن جسمي كما علمت بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا
قد قضى الله بالفراق علينا
وجميع الناس من ماء وطين
إنه من نور رب العالمين
بعث بها إلى أخته بالشام :
أقر من بعضي السلام لبعضي
وفسّوادي وساكنيه بأرض
وطوى البين عن جفوني غمضي
فمسي باجتماعنا سوف يقضي !

٤ - وقال عبد الرحمن الداخِل يخاطب نخلة :
يا نخل ! أنت فريدة مثلي
تبكي، وهل تبكي مكمنة
ولو انها عقلت، إذن لبكت
لكنها حرمت، وأخرجني
في الأرض، نائية عن الأهل
عجماء، لم تجبل علي جيلي !
ماء الفرات ومنبت النخل
بغضي بني العباس عن أهلي

٥ - وقال كذلك :
تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
فقلت : « شبيهي في التغرب والنوى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
سقتك غواصي المزن في المنتأى الذي
يسح ويستمرى السماكين بالوبل

٦ - وقال الداخِل أيضاً :
لا يلف ممتن علينا، قاتل :
سعدي، وحزمي، والمهند، والقنا
إن الملوك مع الزمان كواكب
والحزم كل الحزم ألا يغفلوا
ويقول قوم : « سعده لا عقله »
أبني أمية : قد جبرنا صدعكم
ما دام من نسلي إمام قائم
لولا ما ملك الأنام الداخِل
ومقادير بلغت، وحال حائل
نجم يطالعنا ونجم آفل
أيروم تدبير البرية غافل ؟
خير السعادة ما حماه العاقل !
بالغرب رغماً، والسعود قبائل
فالملك فيكم ثابت متواصل

٧ - وقال أيضاً :

شنان من قام ذا امتعاض
فجباب قفراً وشق بجرأ
دبر ملكاً، وشاد عزاً
وجند الجند حين أودى
ثم دعا أهله إليه
فجاء هذا طريد جوع
فنال أمناً، ونال شيعاً
ألم يكن حق ذا علي ذا
منتضي الشفرتين نصلاً
مسامياً لجة ومحلاً
ومنبراً للخطاب فصلاً
ومصر المصر حين أخلى
حيث اتأوا : أن هلم أهلاً !
شديد روع، يخاف قتلاً
ونال مالاً، ونال أهلاً
أعظم من منعم ومولى

٨ - وكان عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ - ٢٣٨هـ)، كثير الولد أعقب
مائة وخمسين من الذكور وخمسين من الأناث، فقيهاً فيلسوفاً شاعراً،
كتب مرة إلى طروب وهو في جليقية يغزو :

عدانسي عنك مزار العدا
فكم قد تخطيت من سبب
ألاقي بوجهي سموم الهجـ
تدارك بي الله دين الهدى
وسرت إلى الشرك في جحفل
وقودي إليهم سهاماً مصيباً
ولاقيت بعد دروب دروباً
ر إذ كاد منه الحصى أن يذوبا
فأحييته وأمت الصليبا
ملأت الحزون به والسهوبا

٩ - وقال عبدالله بن محمد
يا مهجة المشتاق ما أوجعك
ويا رسول العين من لحظها
تذهب بالسر فتأتي به
كم حاجة أنجزت إبرازها
الحاكم الأموي (٢٧٥-٣٠٠) :

١٠ - وقال في صباه :
ويحي علي شادن كحيل
كأنما وجتاه ورد
في مثله يخلع العذار
خالطه السور والبهار

قضيبي بان إذا تنسى
فصفو ودي عليه وقف
يدير طرفا به احورار
ما اطرد الليل والنهار

١١ - وقال:

يا من براوعه الأجل
حمام لا تخشى الردى
حمام يلهيك الأمل!
وكأنه بك قد نزل!
أغفلت عن طلب النجا
هيهات تشغلك المنى
ولا نجا لمن غفل!
عمس ليومك يشتغل

١٢ - وقال:

أرى الدنيا تصير إلى فناء
فيادر بالإنابة غير وان
وما فيها لشيء من بقاء
على شيء يصير إلى عفاء
كأنك قد حملت على سرير
فنافس في التقى واجتج إليه
وغيب حسن وجهك في الهباء
لعلك ترضين رب السماء

١٣ - ويقول صاحب نفع الطيب: « لما استوزر باديس، صاحب
غرناطة اليهودي الشهير باين نغذلة، وأعضل داؤه المسلمين، قال زاهد
ألبيرة وغرناطة: أبو إسحق الألبيري، قصيدته التونية المشهورة التي منها
في إغراء صنهاجة باليهود... الخ. »

« وهي قصيدة طويلة، فثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا الوزير
المذكور، فأراح الله البلاد والعباد، ببركة هذا الشيخ، الذي نور الحق
على كلامه باد، وهذا بعض من القصيدة:

ألا قل لصنهاجة أجمعين
مقالة ذي مقسة مشفق
بدور الزمان وأسد العرب
يهد النصيحة زلقى ودين
لقد زل سيدكم زلّة
تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرأ
ولو شاء كان من المؤمنين
فعر اليهود به، وانتخوا
وتاهوا وكانوا من الأرذلين

ومنها :

فكم مسلم راغب راهب
وما كان ذلك من سعيهم
فهلا اقتدى فيهم بالأولى
وأنزلهم حيث يستأهلون
فلم يستخفوا بأعلامنا
لأرذل فرد من المشركين
ولكن منا يقوم المعين
من القادة الخيرة المتقين
وردهم أسفل السافلين
ولم يستطيلوا على الصالحين

ومنها يخاطب السلطان :

أباديس^(١) أنت امرؤ حاذق
فكيف خفى عنك ما يعشون
وكيف تحب فراخ الزنا
وكيف يتم لك المرتقى
وكيف استتمت إلى فاسق
تصيب بظنك نفس اليقين
وفي الأرض تضرب منها القرون
وقد بغضوك إلى العالمين
إذا كنت تبني وهم يهدمون
وقارنته وهو بئس القرين

ومنها :

وإنى حلت بغرناطة
وقد قسموها وأعمالها
فكنت أراهم بها عابثين
فمنهم بكل مكان لعين

ومنها :

وهم أمتاكم على سرکم
ويأكل غيرهم درهمما
وقد ناهضوكم إلى ربكم
وكيف يكون أميناً خوون ؟
فيقصي وبدنون إذ يأكلون
فما يمنعون وما ينكرون ؟

(١) وباديس هو باديس بن جوس صاحب غرناطة، وكانت بينه وبين المعتمد حروب شديدة.
قال ابن خلدون : * ولي (باديس) ملك غرناطة بعد أبيه، واستولى على سلطانه
اسماعيل بن نفلثة الهمي، ثم نكبه وقتله سنة تسع وخمسين وأربعمائة، وقتل معه
خلقاً من اليهود، وتوفي باديس سنة سبع وستين وأربعمائة.

ومنها :

ورغم قردهم داره وأجرى إليها نمير العيون
وصارت حوائجنا عنده ونحن على بابه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا فإننا إلى ربنا راجعون

١٤ — وقال ابن هانئ الأندلسي من قصيدة يمدح بها القائد جوهرأ،
ويصف الجيش الذي غزا به مصر، ويودعه عند خروجه من القيروان
رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع وقد راغني يوم من الحشر أروع^(١)
غداة كأن الأفق سد بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع^(٢)
فلم أدر إذ سلمت كيف أشيع ولم أدر إذ شيعت كيف أودع^(٣)
وكيف أخوض الجيش والجيش لجة وإني بمن قاد الجيوش لمولع^(٤)
وأن ؟ ومالي بين ذا الجمع مسلك ولا لجوادي في البسيطة موضع^(٥)

- (١) راغني : هالني وأدهشني. يوم الحشر : يوم القيامة. أروع : أكثر هولاً ودهشة وفرعاً.
المعنى : كنت أسمع عن عظمة جيش المعز لدين الله الذي يفوده القائد جوهر
وقوته، ولقد رأيت اليوم بعيني رأسي فمجيت لقوته وعظمتته، وخيل لي لكثرة عدده
وإزدحام الخلق فيه أن اليوم الذي رأيت مجتمعا فيه أشد هولاً وفرعاً من يوم القيامة،
وكان ما سمعته عنه أقل مما رأيت عليه.
- (٢) الغداة والغدوة : أول النهار المبكر.
المعنى : رأيت الجيش في الصباح المبكر وقد أحدث بسيره طبقة من الغبار في
الجور أخفت الجو الطبيعي، وحجبت الشمس عن الناس فخيّل إلينا أن الشمس غربت
من مكان طلوعها :
- (٣) المعنى : قد حير عقلي حول الموقف وروعة المنظر، فلم أدر كيف أسلم ولا كيف
أشيع من أردت تشييعهم وتوديعهم.
- (٤) المعنى : وكيف أصل إلى من أريد توديعه في وسط هذا الجيش العظيم وكيف اجتاز
تلك الكتل البشرية إلى القائد العظيم لأودعه ؟ وأن أذهب ولا طريق لي في هذا
الجمع الحافل، ولا يستطيع جوادي أن يشق طريقه في هذا الزحام الهائل.

«ألا إن هذا الحشد من لم يذق له
نصيحته للملك سدت مذاهبي
فقد ضرعت حتى الرواسي لما رأته
فلا عسكر من قبل عسكر جوهر
تسير الجبال الجامدات لسيره»
غرار الكرى جفن ولا بات يهجع»
فما بين قيد الرمح والرمح إصبع»
فكيف قلوب الإنس والإنس أضرع»
تخب المطايا فيه عشراً وتوضع»
وتسجد من أدنى الحفيف وتركع»

- (١) الغرار : القليل. الكرى : النوم. يهجع : يتم.
المعنى : ولقد جمع هذا الجيش العظيم شخص لم يذق طعم الراحة، لأن هذا الاستعداد الهائل يتطلب مجهوداً مضيقاً وعملاً متواصلًا، وهذا ما فعله جوهر.
(٢) مذاهبي : طرفي. القيد : القدر. وقيد الرمح والرمح. أي بين الرمحين.
المعنى : المقصود بالنصيحة هنا المشورة بفزو مصر وإخلاصه لدولة المعز، فمشورة جوهر على المعز وإخلاصه لدولة المعز كانا سبباً في حشد هذا الجيش الكبير الذي سد على طرفي في السير، فلا يستطيع المرء أن يشق لنفسه طريقاً وسط هذا الجمع الذي بلغ من شدة زحامه أن المسافة التي بين الرمحين لا تسع لأكثر من إصبع، وهذا كناية عن شدة الزحام.
(٣) ضرع : خضع وذلل واستكان. الرواسي : الجبال الراسيات.
المعنى : ليس لدينا من مظاهر ذلة الجبال وعضوعها لهذا الجيش العظيم إلا انهيارها وعدم ثباتها أمام قوته. فكأن الشاعر يقول : إن الجبال الرواسي لا تقوى على الثبات أمام هذه القوة الكبيرة فكيف بالإنس وهم أقل احتمالاً من الجبال ؟ وكأنه أيضاً يقول: لقد فرعت الجبال مما رأته من قوة الجيش، ومن الطبيعي أن فرغ الإنسان الذي له قلب وعاطفة يكون أعظم من فرغ الجماد الذي لا عاطفة له. وفي هذا كله مبالغة في قوة جيش جوهر.
(٤) الخيب : ضرب من العدو. والإيضاع : الإسراع في السير.
المعنى : لقد بلغ من كبر المسافة التي يشغلها الجيش على الأرض أن الدواب تقطع هذه المسافة وهي مسرعة في عشر ليال، وفي هذا مبالغة في تقدير الكثرة.
(٥) الحفيف : الصوت. وأدنى الحفيف : أقل الصوت.
المعنى : أن الجبال تسير لسيره وتسجد وترجع لأقل صوت منه، وأقل صوت وأقل حركة من الجيش تكون كبيرة لكثرة عدد الجيش وضخامته، وفي هذا كناية عن عظمة الجيش وشدهد هيبته.

إذا حل في أرض بناها مدائننا وإن سار في أرض ثوت وهي بلقع^(١)
١٥ - وقال ابن هانيء الأندلسي في الرثاء :

إننا، وفي آمال أنفسنا طول وفي أعمارنا قصر^(٢)
نرى بأعيننا مصارعنا لو كانت الألباب تعتبر^(٣)
مما دهاننا أن حاضرننا أجفاننا، والغائب الفكر^(٤)
وإذا تدبرنا جوارحننا فأكلهن العين والنظر^(٥)

١٥ - وقال ابن هاني يصف أسطول المعز الفاطمي :
أما والجواري المنشآت التي سرت لقد ظهرتها عدة وعديد^(٦)

(١) ثوت. أقامت. البلقع : الأرض التي لا شيء بها. المعنى : لا يزال الشاعر يعطينا صورة عن كثرة عدد المحاربين وضخامة الجيش، فهو يقول إن الجيش إذا قام في جهة احتاج إلى مساكن كثيرة، وثكنات للأجناد، فبنى مدائن تؤوي هذا الجيش الضخم، وإذا لم يحل في جهة بل سار عنها ولم يبق فيها تركها قفراً لا أثر فيها للمعمران ولا للنبات.

(٢) المصارع : جمع مصرع وهو الهلاك : الألباب : جمع لب، وهو العقل. تعب : تعطل. المعنى : آمال الإنسان كبيرة لا تقف عند حد مع أن أجله قصير ولا يتسع لتحقيق هذه الآمال كلها، ولو اتعطل المرء بمصارع غيره وعلم أن دوره أت لا محالة لحد من هذه الآمال وزهد في الحياة، وجملة، لرى : خير إن في البيت الأول.

(٣) دهاننا : أصابنا بدهاية وهي الأمر العظيم والمصيبة. المعنى : مما أوقنا في المصائب وجلب علينا الشر أننا نتبع ما نراه عيوننا، ونقصر رغباتنا على ما نراه في دياننا من متاع ومال وجاه وغيرها من الدنيايات. نتبع ذلك ولا تفكر فيما بعد الموت ولا نعمل للأخرة.

(٤) الجوارح : الحواس ومنها النظر. المعنى : يريد الشاعر أن يذكر أن ما يجلب علينا الشر هو النظر، ولو تأملناه بالنسبة لغيره من باقي الحواس لوجدناه أضعفها.

(٥) اللغة : الجواري : السفن، وسميت بذلك لأنها تجري في الماء، وسرت : سارت ليلاً، وطاهرها : عاوتنها. يقول : قسمنا بالسفن التي تشق البحر شقاً في تنقلها لقد عاوتنها على ذلك آلتها والجنود البواسل الذين تقلهم ومعهم ذخائرهم ومعداتهم.

قَبَابٌ كَمَا تَزْجِي الْقِيَابَ عَلَى الْمَهَا
وَشَّهْ — مِمَّا لَا يَرُونَ — كَنَائِبِ
أَطَاعَ لَهَا أَنْ الْمَلَائِكُ خَلْفَهَا
وَأَنَّ الرِّيحَ الذَّارِيَاتِ كَنَائِبِ
وَمَا رَاعَ مَلِكُ الرُّومِ إِلَّا إِطَاعَهَا
عَلَيْهَا غَمَامٌ مَكْفَهْرٌ صَبِيرُهُ
مَوَاعِرٌ فِي طَامِي الْقِيَابِ كَأَنَّهَا
أَنَافَتْ بِهَا أَعْلَامُكَ: وَسَمَّا لَهَا

ولكن من ضمت عليه أسوداً^(١)
مسومة تحدو بها وجنوداً^(٢)
كما وقفت خلف الصفوف ردوداً^(٣)
وَأَنَّ النُّجُومَ الطَّالِعَاتِ سَعُوداً^(٤)
تنشر أعلام لها وبنوداً^(٥)
له بارقات جمرة ورعوداً^(٦)
لعزمك باس أو لكفك جوداً^(٧)
بناء على غير العراء مشيداً^(٨)

(١) اللغة: قباب: جمع قبة، وسفن الأسطول الفاطمي كانت تشبه القباب من سقفها،
(٢) وتزجي: تدفع، والمها جمع مهاة وهي الشمس والبقرة الوحشية. والمراد هنا الحسان
اللاهي يشبهن المها، يقول: لقد أشبهت في مظهرها هوداج الحسان مع أنها لا
تضم إلا أسوداً من الجنود.

(٣) اللغة: الكتائب المسومة: المراد بها الملائكة، وأطاع لها: دان لها وتهياً وانقاد،
وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَمَا عَطَفَ عَلَيْهِ فَاعِلٌ أَطَاعَ، والرود: جمع رد بكسر الهمزة وهو
ما يعتمد عليه ويرجع إليه، والذاريات: من ذرت الريح الشيء ذروا، وأذرت، وذرته
أطارته وأذنته، والكتائب: جمع كتيبة، وهي الفرقة من الجيش. يقول: وإلى جانب
هذا الأسطول وجنوده الجرارة، وجنود آخرون من الملائكة شد الله بهم أزر جيش
المعر، وهياً له القوة أن الملائكة تنف من خلفه تربط على قلبه بل إن كل شيء
كان يقف إلى جوار الجيش الفاطمي، فالطبيعة تناصرهم وطلح السعد يحالفهم.

(٤) اللغة: راع: أفرغ، والبنود: جمع بند وهو العلم الكبير، والصبير السحابة فوق
أخرى، أو السحاب المتراكم؛ يريد به دخان مقلوباتها ونيرانها وأصواتها. يقول:
إن هذه السفن التي أفضت مضجع ملك الروم وأفرغته والتي تخفق أعلامها وبنودها
لو شاهدت قذائفها ودويها الشبيهة بالرعود وكرات نيرانها — وكأنها البرود — لراعك
هذا الاستعداد.

(٥) اللغة: الطامي: المرتفع؛ والعباب معظم السيل وكثرته والمراد به البحر، وطامي العباب
من إضافة الصفة للموصوف أي العباب الطامي أو المراد بطامي الأمواج: أمواج
البحر المرتفعة، وأنافت: علت، وسما: ارتفع؛ والعراء الخلاء، ومشيد مبنى بالشد
على وزن العيد وهو الجص. يقول: إن سفن الأسطول التي تمخر بالعباب قد ارتفعت
أعلام المعر فوقها عفاقة تطلو بينانها كأنها قصور أسست على الأرض الثابتة لا
سفن تسير على صفحات الماء.

وليس بأعلى شاهق وهو كوكب
من الراسيات الشم لولا انتقالها
من الطير إلا أنهن جوارح
من القادحات النار تضرم للصلى
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج
فأفواههن الحاميات صواعق
يشب لآل الجاتليق سعيها

وليس من الصفاح وهو صلود^(١)
فمنها قتان شمش وريود^(٢)
فليس لها إلا النفوس مصيد^(٣)
فليس لها يوم اللقاء خمود^(٤)
كما شب من نار الجحيم وقود^(٥)
وأنفاسهن الزافرات حديد^(٦)
وما هي من آل الطريد بعيد^(٧)

- (١) اللغة : الصفاح : كرمان : الحجارة العراض، والصلود : الصلب.
(٢) اللغة : الراسيات : الجبال، والشم : العالية، وقان : جمع قة وهي العالية، وشمخ : عالية، وريود : جمع ريد وهو الحرف البارز في الجبل.
(٣) يقول : وما أشبهها في ضخامتها بالجبال الراسيات لولا ثقلها وحركاتها.
(٤) اللغة : من الطير : مما كاد يطير، وجوارح : جمع جارحة وهي ذات الصيد من السياح والطيور، والمراد تجرح خصومنا، ومصيد : صيد. يقول : وما أشبهها في سرعتها بالطيور لولا أنها تفرس أعدائنا ولا تصطاد إلا نفوسهم.
(٥) اللغة : تضرم : تسعي، للصلى : لشوي خصومنا.
المعنى : سفن هذا الأسطول من السفن الجارية التي تؤجج نيرانها لتأديب الأعداء وإحراقهم إذا ما دعا الأمر، التي لا يجرؤ أحد أن يخندها إذا حمى الوطيس.
(٦) اللغة : زفرت : أخرجت زفيرها أي نفسه والمراد به بخارها الحبيس، والمارج : النار بلا دخان، وصواعق : جمع صاعقة وهي الموت وكل عذاب مهلك وصيحة العذاب، ونار تسقط من السماء وصعقتهم السماء : أصابتهم بالصاعقة. يقول : وإذا ما أرسلت يدخانها وقذائفها إلى السماء حلت أنها ترسلهما لشدة غيظها أو أنها قطع من جهنم تسعرت نيرانها وكان قذائفها صواعق تزيد أن تنفض عليهم.
(٧) اللغة : يشب : يوقد ويسعر، والجاتليق : كلمة أعجمية والمراد به الرئيس الديني للمسيحيين في بغداد، وهو أكبر من المطران، والطرديد : المطارد الهارب ولا يراد به شخص بعينه بل كل خصم للفاطميين يستحق أن يطارد.
يقول : وما كان استعمالها إلا لأعداء الدين كالجاتليق وشيخه وسائر الهارين منا بعد أن آمنوا بقتونا.

لها شعل فوق الغمار كأنها
تعايق موج البحر حتى كأنه
ترى الماء فيها وهو قان عبابه
فليس لها إلا الرياح أعتة
وغير المذاكي نجرها غير أنها
ترى كل قوداء التليل إذا انتشت
دماء تلتقتها ملاحف سود^(١)
سليط لها فيه الذبال عتيد^(٢)
كما باشرت ردع الخلق جلود^(٣)
وليس لها إلا الحجاب كديد^(٤)
مسومة تحت الفوارس قود^(٥)
سوالف غيد بالمها وقود^(٦)

(١) اللغة : الغمار بضم الغين وفتحها : الزحمة والمراد به هنا البحر. يقول : وما أربب
كراتها النارية، التي إذا ما سقطت فوق لجة الماء، كأنها الدماء حمرة استقبلتها ملاحف
سود.

(٢) اللغة : السليط : الزيت، والذبال : جمع ذبالة وهي القليل يتدلى طرف منه في الزيت
ويشعل الآخرة، وهذا ما كان من مصابيح القدماء قبل إشعال زيت البترول وقيل الكهترباء.
وعتيد : حاضر مهياً معد لهذا الغرض. يقول : ألا نظن وهي تعايق موج البحر الأبيض
أن الموج زيت وأن هذه القذائف المتتابعة لسرعة البرق هي فئات المصابيح المشتعلة.

(٣) اللغة : قان : أحمر شديد الحمرة والعياب : الموج، والردع : الزعفران. والخلق :
نوع من الطيب. يقول : وإن لون مائه وقد امتزج بدماء الصرعى من خصومنا أشبه
بلون الزعفران.

(٤) اللغة : الحجاب بفتح الحاء : الموج، والكديد : الأرض الصلبة الوعرة، يقول : ومن
عجب أن لا أعتة لها سوى الرياح، وليس لها سوى الموج تسلكه إلى غاياتها.

(٥) اللغة : المذاكي : الخيل، والنجر كالنجر : الأصل، والقود : جمع أقود وهو الذلول
المتفاد، أي تنسب لغير الخيل مع أن ركابها فرسان، ومسومة : معلمة يقول : إنها
ليست خيلاً، ولكنها مسومة ذلول متفاد للفوارس وإن كانت غير خيل.

(٦) اللغة : قوداء التليل : طوبلة العنق، والسوالف : جمع سالفة وهي ناحية مقدم العنق
من لدن معلق الفرط ومن الفرس هاديته أي ما تقدم من عنقه. يقول : إذا انتشت
شعور سوالف العيد الحسان الشبهات بالمها على أعناقهن. أو تماهلت قودوهن كانت
السفينة من هذه السفن تشبهها بالثناء عنقها على صدرها وكانوا يجعلون في مقدم
السفينة صورة رأس ثور أو كبش أو نعام.

رحية مد الباع وهي نضيجة
تكبرن عن نقع يشار كأنها
لها من شغوف العقري ملامس
كما اشتملت فوق الأرائك خرد
ليوث تكف الموج وهو غطامط
فمنه دروع فوقها وجواشن

بغير شوى، عذراء وهي ولود^(١)
موال، وجرده الصافنات عبيد^(٢)
مفوفة منها النضار جسيدي^(٣)
أو التفعت فوق المنابر صيد^(٤)
وتدراً بأس اليم وهو شديد^(٥)
ومنه خفاتين لها و برود^(٦)

- (١) اللغة: الباع، يراد بها هنا: المجاديف فهي تمد باعها، والشوى: الأطراف، وقوله وهي ولود أي أنه ينمها أو يكون لها زوارق صفار. يقول: وأن مجاديفها عريضة طويلة ليس لها أرجل تسير عليها أو أيد تبطش بها، وأنها لم يفتحها عدو فهي لا تزال عذراء وزوارقها التي أعدت للنجاة تحملها فوقها كما تحمل الأم أولادها.
- (٢) اللغة: النقع: الغبار، وموال: عبيد، والصافنات: الخيل يقول: وإنما تأتف أن يكون البر وما فيه من غبار موضعاً لنشاطها، اكتفاء بالخيل الأصلية والفتية القوية، فالعلاقة بين سفن الأسطول وخيولها في البر أشبه بالعلاقة بين السادة وعبيدهم.
- (٣) اللغة: الشغوف: الأصل فيها الثياب الشقافة الرقيقة التي تكاد تشف عما تحتها، والمراد بها النقوش الجميلة الألوان التي زينت بها سفن الأسطول والعقري: نسبة إلى عقر وهي أرض تسكنه الجن، والمراد هنا الفنان الذي نقش هذه النقوش، والجسيد: الملتصق، والنضار: الذهب. يقول: وما يملك القلوب روعة نقوشها البديعة على جوانبها فهي تحاكي ما رق من الثياب المزدانة بتصاويرها وألوانها المتنوعة المنسجمة.
- (٤) اللغة: الخرد: جمع خريدة وهي البكر لم تمس أو الخفرة المستمرة الخافضة الصوت، وصوت خريد: أين عليه أثر الحياء، والصيد: جمع أسيد وهو الأسد والملك. يقول: إنها تشتمل بهذه النقوش كما تشتمل الجوارى الخرد بالثياب، وهن جالسات على الأرائك أو كما يلفح الخطباء الصيد وهم فوق المنابر.
- (٥) اللغة: ليوث: جمع ليث وهو الأسد، وغطامط: عظيم هائج، وبأس اليم: شدته.
- (٦) اللغة: الدرود: جمع درع وهو ما يتدرع به الإنسان ويوقى، والجواشن: جمع جوشن وهو الدرع والصدر، والخفاتين: جمع خفتان وهو نوع من الثياب والبرود: جمع برد وهو ثوب مخطط، وكأسية يلفح بها. يقول: إن اليم ترتفع أمواجه الزائرة فوق السفن كالدرود وتلف بها كأنما هي خفاتين وبرود مخططة وأكسية التحفت بها، فلم تقتصر على دروعها الحديدية، بل تنوعت دروعها.

ألا في سبيل الله تبذل كنه ما
فلا غرو إن أعزرت دين محمد
١٦ — ويقول الحكم بن عبد الرحمن أمير الأندلس
(١٨٠ — ٢٠٦هـ) :

وأمت صدوع الأرض بالسيف راقعا
فمائل ثغوري هل بها الآن ثغرة
وشافه على الأرض الفضاء جماجما
تبتك أني لم أكن عن قراعهم
وأني إذا حادوا جزاعا عن الردى
حميت ذماري وانهكت ذمارهم
ولما تساقينا سجال حروينا
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم
فهذي بلادي إنني قد جعلتها
١٧ — وقال ابن برد الأصغر من شعراء الأندلس يصف السحب
والبرق^(٣) :

وما زلت أحسب فيه السحاب ونار بوارقها تلتهب
بخاتي توضع في سيرها وقد قرعت بسياط الذهب
١٨ — وقال أحمد بن عبد ربه الأندلسي^(٤) يصف حماماً :

(٢٠١) اللغة : كنه الشيء : جوهره وغايته وقدره ووجهه، وكنهه إذا بلغ كنهه والأنواء :
جمع نوء وهو سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقبه من
المشرق يقابله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوماً، وكانت العرب تضيف الأمطار
والرياح والحرب والبرد إلى الساقط منها، ولا غرو : لا عجب، وعقيد : معاهد من
العقد بمعنى العهد والميثاق.

(٣) هو كاتب بليغ، وشاعر ممتاز، توفي في النصف الأخير من القرن الخامس الهجري.
(٤) هو الأديب الكاتب الشاعر والوشاح المؤلف أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد
الفريد الذي يعد من أركان الأدب العربي توفي سنة ٣٢٨هـ.

ونائح في غصون الدوح أرقني
مطروق بمقود ما تزايله
قد بات يبكي بشجو ما دريت به

١٩ - وقال في المدح :

كريم على العلات جزل عطاؤه
وما الجود من يعطي إذا ما سأته
٢٠ - وقال يصف سيفاً :

وذي شطب تقضي المنايا بحكمه
فرند إذا ما اعتن للعين راكد
يسلل أرواح الكماسة انسلاله
إذا ما التقت أمثاله في وقية
٢١ - وقال أيضاً :

بكل مأثور على متنه
يرتد طرف العين عن حده

٢٢ - وقال ابن زيدون في ولادة^(١) :

أضحى التثائي بديلاً من تدانينا
بنتم، وبناء، فما ابتلت جوانحنا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
شوقاً إليكم، ولا جفت مآقينا^(٢)

(١) برهد بالمقود ما برى من الألوان في عتقه.

(٢) الشطب : الحزوز في جانبي السيف طولاً.

(٣) اعتن : ظهر وبدا.

(٤) أي ما تظنه النفس من الهلاك واقع لا محالة.

(٥) أي يلوح ويترأى لمن ينظر إليه أمثال مداب النمل من انعكاس الضوء وانكساره على صفحته. وذلك بين في السلاح المحلو من الفولاذ الذكر.

(٦) مرت ترجمته عند الكلام على تراه.

(٧) الجوانح جمع جانحة : وهي الضلع، والمراد بالجوانح : ما تجته من القلب والحشا الملتهب بالحب وقوله : ولا جفت مآقينا، أي ما جفت عيوننا من الدمع والبكاء عليكم.

يكاد حين تاجيكم ضمائرنا
 حالت لفقركم أماننا فقدت
 إذ جانب العيش طلق من تألفنا
 وإذا هصرنا غصون الأنس دانية
 ليسق عهدكم عهد السرور فما
 من مبلغ الملبسنا بانتراحهم
 إن الزمان الذي ما زال يضحكننا
 ما حقنا أن تقروا عين ذي حسد
 غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا
 فأنحل ما كان معقوداً بأنفسنا
 وقد نكون، وما يخشى تفرقنا
 لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
 لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
 والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً
 ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا
 يا ساري البرق غاد القصر فاسق به
 ويا نسيم الصبا بلخ تحيتنا
 يا روضة طالما أجت لواحظنا

يقضي علينا الأسي لولا تأسينا^(١)
 سوداً، وكانت بكم بيضاً ليالينا^(٢)
 ومورد اللهو صاف من تصافينا
 قطفوها، فجتينا منه ماشينا^(٣)
 كنتيم لأرواحنا إلا رياحينا
 حزناً مع الدهر لا يلى ويلىنا^(٤)
 أنساً بقريركم قد عاد يكيينا
 بنا، ولا أن تسروا كاشحاً فينا^(٥)
 بأن نغص، فقال الدهر: آمينا!
 وابت ما كان موصولاً بأيدينا
 فاليوم نحن، وما يرجى تلاقينا
 رأياً، ولم نتقلد غيره ديننا
 إن طالما غير النأي المحيينا
 منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
 ولا اتخذنا بدلاً منك يسليينا
 من كان صرف الهوى والود يسقينا
 من لو على البعد حيا كان يحيينا
 ورداً جللاه الصبا غضاً ونسرينا^(٦)

- (١) التأسى: التصبر.
 (٢) حالت: استحالت من بيض إلى سود.
 (٣) هصرنا: أملنا إلى ناحيتنا.
 (٤) الانتراح: الضيق.
 (٥) أقر الله عينه بالسلامة: ضد أسختها بالوجع، والمراد أن تسروا الحاسد. والكاشح: المضمر العداوة. والواشي: المبهض.
 (٦) النسرين: نوع من الورد وأكثر ما يكون أبيض الزهر عطر الرائحة.

ويا حياة تملينا بزهرتها
ويا نعيماً خطرنا من غضارته
لسنا نسميك إجلالاً وتكرمة
إذا انفردت وما شوركت في صفة
يا جنة الخلد، أبدلنا بسلسلها
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
سران في خاطر الظلماء يكتمنا
إن كان قد عز في الدنيا اللقاء ففي
لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت
إنا قرأنا الأسي يوم النوى سوراً
أما سواك فلم تعدل بمنهله
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه
ولا اختياراً تجنيناك عن كشب
نأسى عليك إذا حثت مشعشة
لا أكؤس الراح تيدي من شمائلنا
دومي على العهد ما دمنا محافظة

منى ضربواً ولذات أفانينا^(١)
في وشي نعى سحبا ذيلها حيناً^(٢)
وقدرك المعلى عن ذلك يغبنا
فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيناً
والكوثر العذب زقوماً وغسلينا^(٣)
والسعد قد غض من أجفان واشينا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
مواقف الحشر نلقا كم ويكفينا
عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
مكتوبة، وأخذنا الصبر تلقينا
شرباً وإن كان يروينا فيظلمينا
سالمين عنه، ولم نهجره قالينا
لكن عدتنا على كره عوادينا^(٤)
فيما الشمول وغنانا مغنينا^(٥)
سيما ارتياح، ولا الأوتار تلهينا
فالحر من دان إنصافاً كما دينا

- (١) تملينا، استمتنا. والمنى جمع منية. والضروب هنا : الأنواع. والأفانين هنا جمع أفنون، وهو النوع والضرب أي لذات مختلفة الشكول.
(٢) خطر الرجل في مشيته رفع يديه ووضعها عجباً وتبهاً. والغضارة : النعمة والسعة والخصب والوشى نوع من الثياب الحريرية المنقوشة.
(٣) السلسل : الماء العذب البارد. والكوثر : الكثير من كل شيء، والنهر. ونهر في الجنة. والزقوم المذكور في القرآن الكريم، يراد به ضرب من العذاب في النار، جاء تشبيهه بأنه طعام شجرة تكون في أصل الجحيم هذا اسمها. والغسلين : ما ينغسل من الثياب ونحوها. وغسلين النار : ما ينغسل من جلود الكفار فيها.
(٤) عن كشب : عن قرب. وعدتنا العوادي : صرقتنا الصوارف. وهي شواغل الدهر وصروفة.
(٥) الشمول : من أسماء الخمر والمشعشة المزوجة بالماء.

فما ابتغينا خليلاً منك يحسننا ولا استفدنا حبيباً عنك يغبينا
ولو صبا نحونا من علو مطلعهم بدرالدجى لم يكن - حاشاك - يصيبنا
أبكي وفاء، وإن لم تبذلني صلة فالذكر يقنعنا، والطيّف يكفينا
وفي الجواب اقتناع لو شفعت به بيض الأيدي التي ما زلت تولينا
عليك مني سلام الله ما بقيت صباة منك نخفيها فتخفيها

٢٣ - وقال في الذكرى متوجعاً :

ودع الصبر محب ودعك ذاتع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطي إذ شيعك
يا أحمأ البدر سناء وسنى حفظ الله زماناً اطلسعك
إن يطل بعدك ليلتي فلکم بت أشكو قصر الليل معك

٢٤ - وقال أبو بكر محمد بن عمار^(١) :

وهويته يسقى المدام كأنه قمر يطوف بكوكب في حدس
متأرجح الحركات تندى ريحه كالغصن هزته الصبا بتنفس
تسعى بكأس في أنامل سوسن ويدير أخرى في محاجر نرجس^(٢)

٢٥ - ومن قوله في الاستعفاف :

سجايك إن عاقبت أندى وأسمح وعذرک إن عاقبت أجلى وأوضح
وإن كان بين المخطئين مزية فأنت إلى الأدنى من الله أجنب
حنانك في أخذي برأيتك لا تطع عداتي، وإن أثنوا علي وأفصحوا
وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا سوى أن ذنبي واضح متصحح
نعم لي ذنب ! غير أن لحلمكم صفاة يزل الذنب عنها فيسفع^(٣)

(١) هو أبو بكر محمد بن عمار وزير المعتضد بن عبد ملك اشيلية، ثم وزير ابنه المعتضد، ويبد المعتضد قتل بعد عهدة له في الملك والسياسة سنة ٤٧٧هـ. وكان شاعراً بليغاً يشبه بالمتنبي في مقامه في الملك والدولة.

(٢) السوسن والنرجس : زهران أبيضان من الفصيلة البصلية.

(٣) أي أن حلمه كالصخرة الملساء يزل ويجزل عنها الذنب.

وان رجائي أن عندك غير ما
ولم لا ؟ وقد أسلفت وداً وخدمة
وهبني قد أعقبت أعمال مفسد
أقلني بما بيني وبينك من رضا
وعف على آثار جرم جنيته
ولا تلتفت رأي الوشاة وقولهم،
سيأتيك في أمري حديث وقد أتى
وما ذاك إلا ما علمت، فأنتني
نخيلتهم، لا در لله درهم،
وقالوا : سيجزيه فلان بفعله !
ألا إن يطشاً للمؤيد يتقى
وبين ضلوعي من هواه تميمه
سلام عليه كيف دار به الهوى :

يخوض عدوي اليوم فيه وبمرح
يكران في ليل الخطايا فيصبح
أما تفسد الأعمال ثمت تصلح^(١)
له نحو روح الله باب مفتوح !
بهية رحمتك منك تمحو وتصفح
فكل إناء بالذي فيه يرشح^(٢)
بزور بني عبد العزيز موشح^(٣)
إذا ثبت لا أنفك آسو واجرح^(٤)
أشاروا تجاهي بالشمات وصرخوا^(٥)
فقلت : وقد يعفو فلان، ويصفح !
ولكن حلماً للمؤيد أرجح
ستفح لو أن الحمام مجلح^(٦)
التي فيدنو، أو علي فينزح^(٧)

- (١) ثمت : هي (ثم) العاطفة لحقتها تاء التأنيث كما تلحق (رب) فيقال : (ربت) وأصلها أن تكون ساكنة، ولكنها تفتح معهما كثيراً.
(٢) تلتفت مضمّن معنى فعل متعدّد، تديره : (تعتبر أو تقبل).
(٣) كانوا من موالي المنصور بن أبي عامر، ورتوا أبناءه وأحفاده في شرقي الأندلس. وكانت لهم به دويلة دامت ردهاً من الزمان.
(٤) إذا ثبت : إذا رجعت إلى ما كنت عليه من وزارتك. وآسو : من أساء الجرح أي داواه وعالجه. والمراد لا أنفك أنفع وأضر، فينالهم مني شر.
(٥) نخيلتهم : أي هذه نخيلتهم. والنخيلة : الطيبة الصالحة. وكلا المعنيين لائق. ودر هنا فعل ماضٍ من در اللبن، ودرهم فاعله على نحو جد جده وجل جلاله، والجملة : دعاء عليهم، أي لا كان درهم لله بمعنى لا وقفهم الله للخير.
(٦) التميمية : خزرة رقطاء كان الأعراب يطلقونها في أعناق أطفالهم لتقيهم شر العين والشياطين. المجلح : الأكل. والمعنى في قلبي له حب سيفعني ويشفع عنده إذا أراد الموت أكلي.
(٧) ينزح : يبعد.

ويهنئه ان مت السلو، فإنسي أموت، ولي شوق اليه مبرح
٢٦ - وقال الأديب أبو محمد عبد الجليل بن وهيون المرسي
الأندلسي من شعراء شرقي الأندلس، وكان خدام المعتمد بن عباد من
ملوك الطوائف بعلمه وشعره، يصف النيلوفر :

وبركة تزهو بنيلوفر نسيمه يشبه روح الحبيب^(١)
حتى اذا الليل دنا وقته ومالت الشمس لعين المغيب
أطبق جفنيه على إلفه وغاص في الماء حذار الرقيب

٢٧ - وقال ابن خفاجة الأندلسي :

ربما استضحك الحجاب حبيب نفضت ثوبها عليه المدام
كلما مر قاصراً من خطاه يتهادى كما يمر الغمام
سلم الغصن والكثيب علينا فعلى الغصن والكثيب السلام

٢٨ - وقال في طول الليل :

يا ليل وجد بنجد أما لطيفك مسرى
وما معي طليقاً وأنجم الجو أسرى
وقد طمى بحر ليل لم يعقب المد جزراً
لا يعبر الطرف فيه غير المجرة جسراً

٢٩ - وقال ابن سهل الأندلسي^(٢) :

سل في الظلام أخاك البدر عن سهري تدري النجوم كما يدري الوري خيري
أبيت أعتف بالشكوى وأشرب من دمعي وأنشق ريا ذكرك العطر
حتى أعييل أني شارب ثمل بين الرياض وبين الكأس الوتر

(١) النيلوفر : حارب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة.

(٢) هو الشاعر الرقيق الوشاح ابراهيم بن سهل الأشبيلي الأندلسي وكان يلقب قبل إسلامه
بالإسرائيلي. كان يهودياً وأسلم، ومات غرقاً سنة ٦٤٩هـ.

من لي به ؟ اختلفت فيه الملاحاة إذ
معطل فالحلى منه محلاة
أومت إلى غيره إيماء محتضر^(١)
تغني الدراري عن التقليد بالدرر^(٢)
كلاهما أبدأ يدمي من النظر^(٣)

٣٠ - وقال ابن سهل في توشيح له :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى
فهو في حر وخفق مثلما
يا بدورا أشرقت يوم النوى
ما لنفسى في الهوى ذنب سوى
أجتني اللذات مكلوم الجوى
كلما أشكوه وجددي بسما
إذ يقيم القطر فيها مأتما
أيها السائل عن جرمي لديه
أخذت شمس الضحا من وجنتيه
قلب صب حله عن مكنس
لعبت ربح الصبا بالقنيس
غرراً تسلك بي نهج الغرر^(٤)
منكم الحسنى ومن عيني النظر
والنذاذي من حبيبي بالفكر^(٥)
كالربا بالعارض المنجس^(٦)
وهي من بهجتها في عرس^(٧)
لي جزاء الذنب وهو المذنب
مشرقاً للشمس فيه مغرب^(٨)

- (١) أي تفاوتت فيه الملاحاة عن نفسها عند الناس فهي فيه كاملة وفي غيره بمنزلة إشارة عفيفة كإشارة المحتضر عند الموت.
(٢) محلاة، متنوعة.
(٣) أي فؤادي يدمي من نظرات المحبوب الرامية بسهام التأثير، وعده كأنه يدمي من حمرة الخجل عند نظري إليه.
(٤) الغرر، التفرير والخطر.
(٥) أي وإنما النذاذي من حبيب بالتفكر فيه.
(٦) أي كإتسام الربا المشرقة بالأزهار بعد أن سقاها العارض المنجس : أي السحاب الهائل.
(٧) أي أن نزول القطر الشبيه بقطرات الدمع يقيم في الربا مأتماً ومناحة بيكاته على حين أن الربا في أعراس من بهجتها.
(٨) أي أن حمرة المشرق قبيل ظهور الشمس على الأفق وحمرة شفقها بعيد الغروب مستعارة من وجنتيه الحمراءين.

ذهب الدمع بأشواقني إليه
 ينبت الورد بفرسي كلما
 ليت شعري أي شيء حرما
 كلما أشكو إليه حرقى
 تركت ألاحظه من رمقي
 وأنا أشكره فيما بقى
 فهو عندي عادل إن ظلما
 ليس لي في الأمر حكم بعد ما
 منه للنار بأحشائي ضرام
 هي في حديه برد وسلام
 أتقي منه على حكم الغرام
 قلت - لما أن تبدي معلما
 أيها الآخذ قلبي مغتما

وله خد بلحظني مذهب^(١)
 لاحظته مقتني في الخلس
 ذلك الورد على المغترس
 غادرتني مقتناه دنفا
 أثر النمل على صم الصفا^(٢)
 لست ألهاه على ما أتلقا
 وعذولي نطقه كالخرس
 حل من نفسي محل النفس
 تلتظي كل حين ما تشا
 وهي حر وحريق في الحشا
 أسداً ورداً، وأهواه رشا
 وهو من ألاحظه في حرس
 اجعل الوصل مكان الخمس^(٣)

وقد عارض هذه الموشحة كثيرون منهم لسان الدين بن الخطيب^(٤)!

- (١) أي مذهب من الخجل. وهذا المعنى مكرر جره إليه جناس الاشتقاق بين (ذهب) في أول البيت و (مذهب) في آخره.
- (٢) أي أثر أضعافاً لأن النمل لا يؤثر مشبه في الصخرة الملساء.
- (٣) أي أن الجيش الفاتح لا يأخذ كل الغنمة بل يكون حسماً للدولة تنفقه في مصالح الناس وصدقاتهم.
- (٤) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد الغرناطي الأندلسي المعروف بلسان الدين ابن الخطيب وزير بني الأحمر ملوك غرناطة. وكان وزيراً لأبي الحجاج يوسف من عظماء ملوكهم، ثم لآبائه، فاتهم بالخيانة في السياسة والزندقة، ففر إلى المغرب، وسعى أعداؤه به حتى أسلموه فقتل سنة ٧٧٦هـ. وكان شاعراً كاتباً مؤرخاً مؤلفاً فقيهاً متفلسفاً. وله عدة كتب وشعر رقيق وكتابة، يروي صاحب نوح الطيب وصاحب صبح الأعشى منها كثيراً.

٣١ - وقال ابن دراج القسطلبي يصف وداعه لزوجته وابنه الصغير :
ولما تدانت للوداع وقد هفا
تناشدني عهد المودة والهدى
عبي بمرجوع الجواب ولفظه
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت
فكل مفداة الترائب مرضع
وطار جناح البين بي وهفت بها
لعن ودعت مني غيوراً فانتني
ولو شاهدتني والهواجر تلتظي
أسلط حر الهاجرات إذا سطا
وأستشق النكباء وهي لوافح
ودارت نجوم القطب حتى كأنها
وقد خيلت طرق المجرة أنها
وللموت في عين الجبان تلون
ليان لها أني من البين جازع
وأعتسف المومة في غسق الدجى
وقد حومت زهر النجوم كأنها

٣٢ - وقال ابن زيدون :

ما علي ظني بأس
ربما أشرف بالمر

يجرح الدهر وبأسو^(١)
ء علي الآمال بأس^(٢)

(٢٠١) اللغة: بأسو بالتخفيف: بأسو أي يداوي، الآسي، الطبيب والجمع أساءة، وبأس:
بأس: أي شدة. المعنى، لا تثرب علي أن طاش سهمي وخاب رجائي وكذب
حدسي، فقد يستهدف المرء للأخطار وتحقق به الشدائد حين يثرب منه الأمل
ويستشرف الرجاء.

ولقد ينجيك إغفا	ل ويؤذيك احتراس ^(٦١)
ولكم أجدى قعود	ولكم أكدي التماس ^(٦٢)
وكذا الحكم إذا ما	عز ناس ذل ناس
وبنو الأيام أعيبا	ف سراة وخساس ^(٦٣)
نلبس الدنيا ولكن	متعة ذاك اللباس ^(٦٤)
يا أبا حفص وماسا	واك في فهم إياس ^(٦٥)
من سنى رأيك لي في	غسق الخطب اقتباس ^(٦٦)
وودادي لك نص	لم يخالفه القياس ^(٦٧)
أنا حيران وللأم	ر وضوح والتباس ^(٦٨)
لا يكن عهدك ورداً	إن عهدي لك آس ^(٦٩)

- (٦١) اللغة : احتراس، تحفظ، وأكدي : بخل وقل خيرته والمراد لم يقد.
المعنى : قد يتخذ المرء الحيطة ويحترز فيحيق به البلاء ويصميه العناء على حين يسلم من النوائب من لم يتحصن من المصائب، وليس ثمة معيار لسنة الحياة، فقد يجدي الكسل والتواكل، ولا يفني الجهد والنشاط.
- (٦٢) اللغة : أعياب، مختلفون، وأخوة أعياف، أهمهم واحدة وآباؤهم شتى، وسراة : المراد بها هنا الاشراف والسادة وأصحاب المروعة، ونلبس الدنيا : يراد بها الإقبال عليها ومداراتها والسير في ركابها.
- (٦٣) اللغة : أبا حفص : هو الوزير ابن برد الذي استنجد به الشاعر، وإياس يضرب به المثل كثيراً في الذكاء، فيقال : هو إياس ذكاه أو هو أذكى من إياس، والسنى بالقصر : الضوء، والسنق. ظلمة أول الليل، والخطب : الشأن والأمر صغر أو عظم والجمع خطوب، واقتباس : أخذ.
- (٦٤) اللغة : نص : شاهد.
- (٦٥) المعنى : إن مودتي لك تشهد بصدق ما أقول وتحفزك لإغاثتي وإقائتي من كبتوتي.
- (٦٦) اللغة : حيران : حار بحار كتخير واستحاراً إذ نظر إلى الشيء ففتشى عليه، ولم يهتد لسبيله فهو حيران وحائر، وهي حيراء، وآس : شجر معروف والواحدة آسة. =

وأدر ذكرى كأساً	ما امتطت كفك كأس ^(١)
فحسى أن يسمع الدهر	ر فقد طال الشماس ^(٢)
واغتتم صفو الليالي	إنما العيش اختلاس ^(٣)
ما ترى في معشر حا	لوا عن العهد وخاسوا ^(٤)
ورآني سامرياً	يتقي منه المساس ^(٥)
أذوب هامت بلحمي	فانتهاب وانتهاس ^(٦)
كلهم يسأل عن حا	لي وللذئب اعتساس ^(٧)

المعنى : إنني - وقد غشيت السجن - أعيط خيط عشواء في ليلة طخياء، ولكن لي وطيد الأمل أن تنفتح عني الغمة وتجرس الكربة، فكل أمر ينجلي بعد اليأس.

(٢٠١) اللغة: امتطت: اتخذتها مطية والمراد ما استقرت بكفك كأس والشماس: المنع وأصله من شمس الفرس شمساً وشماساً منع ظهره فهو شمس وشموس. المعنى : واذكرني أيتها الصديق، كلما قبلت ابنة الكرم وثملت رضابها وحملت كأسها، فإني مفرم بها صب، تبت فؤادي وملكت على أظفار نفسي، وقد حيل بيني وبينها وانحسر عن رداء البهجة والسرور فهل يجمع الدهر بيننا ونحتسي السلاف وتنسى أوصاب الحياة ونوابها.

(٣) اللغة : اغتتم : انتهز، وصفو الليالي. يراد بها عهود السعادة، والاختلاس السلب على غرة، والاختلاس أيضاً : انتهاز الفرصة.

المعنى : واهتبل الفرصة حين تسح ومع نفسك بانتهاز ما يتسنى لك الظفر به من أطيب الحياة ولذاتها.

(٥،٤) اللغة: معشر كسكن: الجماعة وأهل الرجل، وحالوا: مالوا أو تغيروا، وخاسوا: تقضوا، والسامري : الذي عبد المعجل من بني إسرائيل، ويتقي : يتجنب.

المعنى : يستنكر ابن زيدون علي ابن جهور وحاشيته تنكرهم له وتخبرهم عليه وتقضهم العهد ونكرانهم المعروف فقد نبذوه نذ النواة في كتيب الصحارى، وفروا منه فرار الطائر من الأرجاس والأنجاس، كأنما هو سامري دنسته عبادة المعجل.

(٧،٦) اللغة: الانتهاس: أخذ اللحم بمقدم الأسنان، والاعتساس: الطواف بالليل.

المعنى : إن ابن جهور وبطائه إن هم إلا كالذئب التي ولعت بنهش لحمي والفتك بي، يتسألون عن حالي ويظهرون لي المحبة والإعزاء مع أنهم يتسقطون أنيائي ويتحسون أموري ليهدموا صرحي ويشوهوا سيرتي.

إن قسا الدهر فللما ء من الصخر انبجاس^(١)
ولكن أمسيت محبو سا فلفيث احتباس^(٢)
ويقت المسك في التراب فيوطا ويسداس^(٣)

٣٣ — وقال ابن خفاجة في وصف جبل :

بعيشك هل تدري أهوج الجنائب تخب برحلي أم ظهور النجائب^(٤)
فما لحت في أولى المشارق كوكبا فأشرقحت حتى جفت أخرى المغارب^(٥)
وحيداً تهادى في القيافي فأجتلى وجوه المنايا في قناع الغياهب^(٦)
ولا جار إلا من حسام مصمم ولا دار إلا في قنود الركائب^(٧)
ولا أنس إلا أن أضاحك ساعة ثغور الأمانى في وجوه المطالب^(٨)

(١) اللغة : الانبجاس : التفجر والنبوع.

المعنى : إن اغطشت لي الليالي وساء حالى فعما قريب تنحسر الغمة والماء قد يتفجر من الصخر، ولكن كنت أرسف اليوم في أغلال السجن فقدنا أعدوا حراك طليقاً، فالغيث — وهو أعم الأشياء نفعاًك — يحنس ويخلف، وإذا انتهكت كرامتي ونكست هامتي فإن المسك كثيراً ما يفتت في الترى فتطؤه النعال وتدوسه الأقدام.

(٢) اللغة : هوج الجنائب. الرياح الجنوبية الهوجاء. والنجائب : جمع نجيبة وهي الناقة الكريمة. يقول لست أدري : أي الرياح الهوج التي تحمل رحلي وتقنني أم النوى الكريمة (وهو كتابة عن نشاطها وسرعتها).

(٣) اللغة : لحت: نظرت، والقيافي: جمع فيفاء وهي الصحراء، وأجتلى: أتبين، والقنود: أعشاب الرحال. المعنى : يصف رحلة عنيفة في الصحراء قد لفته فيها الليل بشملة، وشعر بالخطر يدنو منه وأنه يوشك أن يفقد حياته، فليس له من جار يستجير به سوى سيفه المصمم، وليس له دار يعتصم بها ويتشجىء إليها سوى أششاب الرحال.

(٤) اللغة : وجوه المطالب : شتى المطالب. يقول إنه غدا فريداً وحيداً لا يجد من يؤنس وحدته ويذهب وحشته سوى أماله التي تجيش بخاطره فتملاً نفسه قوة وتغمر قواده رجاء وتربط على قلبه فينفض من مخاوفه وأوهامه.

وليل إذا ما قلت : قد باد فانقضى
صحبت الدياجي فيه سود ذوائب
فخرقت جيب الليل عن شخص أطلس
رأيت به قطعاً من الفجر أغيشاً
وأرعن طمّاح الذؤابة باذخ
يسد مهب الريح عن كل وجهة
وقور على ظهر الفلاة كأنه
يلوث عليه الغيم سود عمائم
أصخت إليه، وهو أخرس صامت
وقال : إلى كم كنت ملجأً قاتل
تكشف عن وعد من الظن كاذب^(١)
لأعتنق الآمال بيض ترائب^(٢)
تطلع وضاح المضاحك قاطب^(٣)
تأمل عن نجم توقد ثاقب^(٤)
يطاول أعنان السماء بغارب^(٥)
ويزحم ليلاً سهبه بالمناكب^(٦)
طوال الليالي مفكر في الحواقب^(٧)
لها من وميض البرق حمر ذوائب^(٨)
فحدثني ليل السرى بالمجائب^(٩)
وموطن أواه تبتل ثائب^(١٠)

(٣٠٢٠١) اللغة : تكشف : ظهر، والذوائب : جمع ذؤابة وهي الخصلة من الشعر المتدلي،
والترائب : عظام الصدر أو ما ولي الترقوتين منه أو ما بين التدين غيرة إلى سود،
ووضاح المضاحك : أي تتردى في علاه أشمة الفجر، وقاطب : أي أنه لا يزال
عليه من غيش الليل بقية.
والترقوتين : عظمان في موضع الكف. أو موضع الفلاة؛ وأطلس : شخص أطلس،
والأطلس الذي في لونه غير.

(٤) اللغة : ثاقب : لامع.
المعنى : رأيت به قطعاً أغيش من الفجر لا يزال يبدو فيه نجم متوقد ثاقب،
وهو الزهرة أو عطار، لأنها من كواكب الصباح يكونان بالتبادل على الأفق عند
طلوع الفجر.

(٦٠٥) اللغة: وأرعن: ورب جبل أرعن مرتفع القمة، وباذخ: عال، والغارب: الكاهل،
والمناكب : جمع منكب : وهو مجتمع رأس الكف والمضد.
يقول : ورب جبل عالي القمة يطاول السماء بكاهله، يحول دون سير الريح وهبوبها،
ويزحم الكواكب بالمناكب.

(٨٠٧) اللغة: الفلاة: الفسر أو المسافة لا ماء فيها أو الصحراء الواسعة، يلوث: يلف
ويعمم على رأسه من الغيم عمائم سوداء لها بروق حمر.

(٩) اللغة : أصخت : استمعت، والسرى : السير ليلاً.
(١٠) اللغة : الأواه : الثائب وتبتل إلى الله : انقطع للعبادة.

المعنى: كثيراً ما التجأ إلى القاتلون وأوى إلى العابدين من الرهبان الذين يتون
صوامعهم في رؤوس الجبال.

وكم مربي من مدلج ومؤوب وقال بظلي من مطي وراكب^(١)
ولاطم من نكب الرياح معاطفي وزاحم من خضر البحار غواربي^(٢)
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى وطارت بهم ريح النوى والنواب^(٣)
فما خفق أبكي غير رجعة أضلع ولا نوح ورقى غير صرخة نادب^(٤)
وما غيض السلوان دمعي، وإنما نذفت دموعي في فراق الصواحب^(٥)
فحتى متى أبقي؟ ويظعن صاحب أودع منه راحلاً غير آقب^(٦)
وحتى متى أرعى الكواكب ساهراً فمن طالع أخرى الليالي وغارب^(٧)
فرحماك يا مولاي دعوة ضارع يمد إلى نعماك راحة راغب^(٨)
فأسمعتني من وعظه كل عسيرة يترجمها عنه لسان التجارب^(٩)
فسلى بما أبكي وسرى بما شجى وكان على عهد السرى غير صاحب^(١٠)
وقلت ومن نكبت عنه لطية سلام فأنا من مقيم وذاهب^(١١)

٣٤ — وقال أبو الحسن بن الحباب يرثي ثاني ملوك بني الأحمر
أبا عبدالله (٦٧١-٧٠١هـ) ويمدح ولده بتقلد أمره بعده :

- (١) اللغة : المدلج : من الدلج وهو السير من أول الليل، والمؤوب : من الأوب والإياب هو الرجوع، وقال : أي نام وقت القيلولة وهي نصف النهار.
(٢) اللغة : النكب بضم النون وإسكان الكاف. جمع نكباء، وهي الرياح تهب بين مهبي ريحين، ومعاطفي وغواربي : يبرد بهما جوانبي وأظفري.
(٣) اللغة : طوتهم : أخفقتهم والمراد أماتهم، والنوى : الفراق والبعد.
(٤) اللغة : خفق أبكي : أي خفق غصون أبكي، والأيك : اسم جمع لاهكة والأيك : الأشجار المتكاثفة، والورق : جمع ورقاء وهي الحمامة.
(٥) اللغة : غيض الدمع : نقصه وحسه، ويقال : غاض الكرام أي قلوب، والسلوان : النسيان والتسلي، ونذفت : سكبت واستفدت.
(٦) اللغة : ويظعن : يرحل. وأرعى الكواكب : أراعيها وأسأهرها.
(٧) اللغة : الضارع : الخاشع، والراحة : كف السيد، والعيرة : العظة.
(٨) اللغة : فسلى : فأنسى، وسرى : أزال، وشجى : أطرب.
(٩) اللغة : نكبت عنه : ملت عنه، وانصرفت، والبطية : الحاجة والقصد ووجه المسافر، ومن في هـ ومن مقيم هـ زائدة أو بيانية، أي فأنا من بين مقيم وهو أنت وذاهب وهو نحن.

مصاب جليل وصنع جميل
فذاك بهيج برح الأسي
وكل الأنام له باهت
فمذ غاض بحر الندى لم تزل
وحق لأجفاننا أن تصو
لئن ساءنا خطب ذاك المصا
فمن قصره وإلى قصره
تبدل من نعمة تنقضي
وعوض من زائل باقياً
فقل للمعادين : موتوا أسي
فقد حل حيث اشتهى، وارتقى
وأولاه مولاه ما اختاره
فما زال حزب الهدى في اعترا
فطوراً يسير إلى حربهم
وطوراً يجهز جيشاً لهم
وخلف فينا الرضا العادل ال
به ألف الله شمل الهدا
ضللنا لفقده إمام الهدى
فقال لإعزاز دين الإلا
فصبراً لخطب يهد القوي
فلولاك يا محيي المكرما
ولولاك من للعلى بعده
ومن للكفاح وسمر الرما
ومن للعباد ومن للبلاد
ومن للأبادي وقتل الأعادي
وقد جبر الله صدع القلوب

وملك سعيد وأجر جزيل
وهذا يسكن فرط الغليل
وكل فؤاد صحيح عليل
بحار الدموع عليه تسيل
ب وحق لأجسادنا أن تحول
ب لقد سره وشك ذاك الرحيل
فطاب معرسة والمقبل
نعيماً مقيماً ونعم البديل
فها هو في نعمة لا تزول
وقل للموالين : كفوا العويل
بأعلى محل وأسنى مقيل
وقابل أعماله بالقبول
ز لديه، وحزب الضلال الذليل
ففي كل فج دماء تسيل
ففي كل حزن وسهل رجيل
إمام السعيد الهمام الجليل
ة وجدد ربع المعالي المحيل
فكان لنا منه أهدى دليل
ه فكان له الله نعم الوكيل
وبشرى لهذا الفعال الجميل
ت لما غادر الحزن منا العقول
وللصفح عن مذنب مستقيل ؟
ح، ومن للحسام اليمان الصقيل ؟
ومن للسماح وبذل الجزيل ؟
ويوم الجلاذ العريض الطويل
بحار على نهج تلك السبيل

بغيت العفاة وسم العدا
فأشرقت الأرض من بعد ما
وألجس أندلساً عدله
فدم للأنام كما تبتغي
وقابل جميع جيوش الأسي
ولا زلت في ملكك المعتلى
ة، وأسعد كاف، وأسنى كليل
تردت بغيهب ذاك الأقول
جمالاً فليس لها من عديل
عليك من النصر ظل ظليل
بصبر يرد شباها فليل
وفي نعم ضافيات الذبول

٣٥ — وكان ثالث ملوك بني الأحمر بن محمد بن يوسف
(٧٠١-٧٠٨هـ) شاعراً بليغاً، وكان شعره مستطرفاً من مثله. لا، بل
يفضل به الكثير ممن يتحلل من الملوك الشعراء. وكان له مجموع منه
ألفه بعض خدامه. فمن بعض المطولات :

واعدني وعداً وقد أخلفنا
وحال عهدي ولم يرعه
مابالها لم تتعطف على
يستطلع الأنبياء من نحوها
خفقت سقماً عن عيان الوري
لله كم من ليلة بتها
متعتني بالوصل منها وما
أقل شيء في الملاح الوفا
ما ضره لو أنه أنصفا
صب لها ما زال مستطفا
ويرقب البرق إذا ما حفا
وبان حبي بعد ما قد خفا
أدير من ذاك اللمى قرقفا
أخلقت عهداً عفت أن يخلفنا

ومنها :

ملككتك القلب وإنني امرؤ
أوامري في الناس مسموعة
برهف سيغي في الوغي مصلتنا
وترتجي يمناي يوم الندى
نحن ملوك الأرض من مثلنا ؟
نخاف إقداماً ونرجى ندى
لي راية في الحرب قد غادرت
على ملك الأرض قد وقفا
وليس مني في الوري أشرفا
ويتقى عزمي إذا أرهفا
تخالها السحب غدت وكفا
حزناً تليد الفخر والمطرفا
لله ما أرجى وما أخوفا
ربيع العدى قاعاً بها صففا

يا ليت شعري والمني جمة والدهر يوماً قد يرى منصفاً
 هل نرتجي اليوم تدانيكم أو يصبح الدهر به مسعفاً

٣٦ - وقال الشيخ القاضي أبو بكر بن شبرين يرثي السلطان اسماعيل
 أحد ملوك بني الأحمر (٧٢٥-٧٣٤هـ)، ويعرض ببعض من حمل عليه
 من خدمه :

استقلا ودعاني	طائفاً بين المغاني
وانعما بالصبر إني	لا أرى ما تريان
قضي الأمر الذي في	شأنه تستفتيان
ومضى حكم إله	ما له في الملك ثان
مات يوم السلم قعصاً ^(١)	مدره الحرب العوان
يا خليلي أعينا	ني على شجو عتاني
واذكرا سابغة النع	حة فيما تذكران
وإذا صليتما يو	ماً عليه أذنان
ما علمنا غير خير	فاقضيا ما تقضيان
لا نبالي ما سمعنا	من فلان وفلان
غير ما قالوا اعتقدنا	وعلينا شاهدان
وغدا يجمعنا المو	قف : من قاص ودان
ورضى الله هو المط	لوب في كل أوان
وأخو الصدق لعمرى	ذو مقامات حسان
وهوى النفس عناء	حائل دون المغاني
وعلى البغضاء يطوي	ود اخوان الخوان
بأبسي والله أشلا	ء على الرمل حواني
بفتى ما كان بالوا	نسي ولا بالمتواني

(١) القمص : الموت المعجل.

يمزج الماء نجيعاً
 ليس بالهابة النكس
 أبيض الوجه تراه
 أي سيف لضراب
 ذو نجار خزرجي ال
 ذكره قد شاع في الأر
 لا تراه الدهر إلا
 عن سهيل الخيل لا يد
 إن ألت هبة طا
 يصدع الليل بقلب
 يا لها من نصبة لو
 وشباب عاجلسوه
 لم يجاوز من سنه ال
 دوح الأقطار غزواً
 حكموا فيه الظبي أس
 إن يكونوا غادروه
 تشرب الأرض دماً من
 وتحبسه بتسليـ
 فالمعالي أودعته
 وغوادي المزن يرضع
 ضاع صرح الثغر لما
 وأعير الأسد الور
 عاطياني أكؤس الحز
 حملته دون صلاة
 أو ما كانوا له يد
 لا تهينوه فما كا

وينادي : عللاني
 ولا الغمر الهدان
 والردى أحمر قان
 أي رمح لطمعان
 محتتمى سامي المكان
 ض إلى أقصى عمان
 خلف سرج أو عتان
 هبه تعزاف القيان
 ر إليها غير وان
 ليس بالقلب الجبان
 لا نحوس في القرآن
 بالردى في العنقوان
 عشر الأ بثمان
 من هضاب ومحاني
 رع من لمح العيان
 في الثرى ملقى الجران
 سه تهاده الغواني
 سم ثغور الأقحوان
 بين سحر وليان
 سن تراه بليان
 أعمد السيف اليماني
 د القميص الأرجواني
 ن عليه عاطياني
 للثرى مما شجاني
 عون أعقاب الأذان ؟
 ن بأهل للهوان

عجبي والله من إبد
أنا مذ غاب فيالسا
وبحسبي دعوات
بت أهديها إليه
ذاك جهدي إن احسا
فأنا الشيعة حقاً
أفأنسى ذلك العهد
ويقال الرشح موجو
وعهود الناس شتى
وهي النعمة حقاً
اتمد يا فارس الخيد
والمعالي تطلب الشا
وهي الأرحام ولا تنس
أنت من رحمة غفا
وهو يوفي الخصم إن شا
والذي أفشى قبيحاً
سلم الله على من
وجزاه بجهاد
ربنا أنت خير
ويداك الدهر فينا
ومجال العفو رحب
فتغمدنا برحمي
واجمع الشمل على أف

طمان هذا الشنآن
لي فزاداً ما أراني
أنا فيها ذو افتتان
بعد ترتيب المثنائي
ن أيه قد غذاني
بفؤادي ولساني
مد وليس الغدر شأني؟
د قديماً في الأواني
من عجاف وسمان
شكرها في كل آن
سل فقير الله فان
ر وتأتني بالأمانسي
سى ولو بعد زمان
ر الخطايا في ضمان
ء : وزاناً بوزان
حظه عض البنان
فيه ذو جهل لحاني
جاء منه بيان
بخفيات الجنان
بالندى مبسوطتان
والرضى غض المجاني
وقبول وأمان
ضل حال في الجنان

٣٧ — وقال ابن عبدون، المتوفى سنة ٥٢٠هـ، في رثاء بني الأقطس
من ملوك الطوائف :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر
 أنهاك أنهاك لا أنهاك واحدة
 فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة
 ولا هواده بين الرأس تأخذه
 فلا يخرنك من دنياك نومتها
 هوت بداراً، وقلت غرب قاتله
 واسترجعت من بني ساسان ما وهبت
 وما أقالت ذوي الهيئات من يمن
 ومزقت سباً في كل قاصية

فما اليكاء على الأشباح والصور^(١)
 عن نومة بين ناب الليث والظفر
 والبيض والسمر مثل البيض والسمر^(٢)
 يد الضراب وبين الصارم الذكر^(٣)
 فما صناعة عينها سوى السهر
 وكان عصياً على الأملاك ذا أثر^(٤)
 ولم تدع لبني يونان من أثر^(٥)
 ولا أجارت ذوي الغايات من مضر^(٦)
 فما التقى رائج منهم بمتكر^(٧)

- (١) فجعه كمنع : أصابه بمعصية : عين الشيء : نفسه. الأثر : بقية. الأشباح جمع شبح : وهو الشخص أي سواد الإنسان وغيره. الصور جمع صورة : وهي شكل الشيء. وقد جعل الشاعر الأشباح في مقابلة العين والصور في مقابلة الأثر، والمعنى أن الدهر لا يبقى شيئاً، فإن بقيت منه صورة أتى عليها، فإذا كان هذا فعل الدهر فلا معنى لليكاء على شيء.
- (٢) رجل حرب : أي عدو، للذكر والأنثى والجمع والواحد، لأنه في الأصل مصدر فلما وصف به بقي على إفراده. البيض والسمر الأولان، يصح أن يراد بهما النساء البيض والسمر. ويكون قد ضربهما مثلاً لفدر الزمان، يراد أن النساء، وإن كان شأنها اللين والضعف، ومسرة الإنسان، يجيء من ناحيتها الشر، فيكن كالسيوف والرماح.
- (٣) الهواده : الرفق واللين. الذكر : القوي. يشير إلى أن الدهر لا تهدأ حواده، فلا يمر منه يوم، إلا والحرب فيه مستمرة.
- (٤) داراً : آخر ملك من ملوك الفرس الأولى، وقاتله هو الإسكندر. العضب : السيف. الأثر والأثر. والأثر معناها فرند السيف.
- (٥) بنو ساسان : هم الفرس الأواخر. وأبوهم الذي ينسبون إليه هو ساسان الأصغر وهو أردشير بن بابك.
- (٦) الهيئة : الشارة والعلامة. الغاية : من معانيها الرابة. يقال أقال الله عثرتك وأقالكها. وأجاره : قبله في جواره وحماه، والمعنى أن الأيام والليالي لم تمنع ضررها عن ملوك اليمن ومضر.
- (٧) سباً : هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان، وسمى بذلك لأنه أول من أدخل السبي في بلاد اليمن، وقد ذكر الله تعالى أولاد سباً بقوله تعالى: ﴿لقد كان لسباً في مسكنهم﴾

ونفذت في كليب حكمتها ورمت مهلهلاً بين سمع الأرض والبصر

٣٨ — ومن شعر الوصف :

شجرية ذهبية نزعته إلى سحر يؤثر في النهى تأثيراً
وكانما تأبى لوقع طيرها أن تستقل بهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فإن شدت جعلت تفسرد بالمياه صغيرا
وكانما في كل غصن فضة لانت فأرسل خيطها مجرورا

٣٩ — ومن نظم الفتون — وقد كثر عندهم، فنظموا قواعد العلوم
والفتون كالتاريخ، والعروض، والنحو، والصرف، والديع، والفقهاء، ولابن
عبد ربه أرجوزتان، إحداهما في العروض، والأخرى في تاريخ المنذر
ابن محمد، (٢٧٣ — ٢٧٥) من خلفاء بني أمية — قول ابن عبد ربه
في أرجوزته الأخيرة وهي طويلة، منها :

بالمنذر بن محمد شرفت بلاد الأندلس
فالتطير فيها ساكن والسوحش فيها قد أنس

٤٠ — وقال أبو البقاء صالح بن شريف الرندي المتوفى سنة ٦٩٨هـ،
يرثي الأندلس :

آية جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم، واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور،
فأعرضوا، فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط
وأقل وشيء من سدر قليل ﴿ إلى قوله تعالى ﴿ ومزقاهم كمل ممزق ﴾،
وقد وصفوا عمارة هذه الأرض فقالوا : إن المرأة كانت إذا أرادت أن تجتني من
ثمارها شيئاً وضعت مكنتها على رأسها وخرجت تمشي تحت الأشجار وهي تغزل،
أو تعمل ما شامت فلا ترجع حتى يمتلئ مكنتها. ولما تمزق أولاد سبأ كانوا عشرة.
سكن الشام منهم أربعة : وهم لحم، وجذام، وغسان وعاملة. وسكن اليمن ستة هم
كنده ومدحج وحمير والأزد وأنمار والأشعريون. والرواح الوقت من الزوال إلى الليل،
والسير فيه، وراح إلى أهله أي رجع في هذا الوقت، والابتكار أو البكور : الخروج
وقت البكرة، وهي من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

لك شيء إذا ما تم نقصان
هي الأمور، كما شاهدتها دول
وهذه الدار لا تبقى على أحد
يمزق الدهر حتماً كل سائفة
ويتنضي كل سيف للفناء ولو
كان ابن ذي يزن والغمد غمدان^(١)

ومنها :

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له
أصابها العين في الإسلام فارتزأت
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية
وأين حمص وما تحويه من نزه
قواعد كن أركان البلاد فما
هوى له أحد وانهد نهلان^(٢)
حتى خلت منه أقطار وبلدان
وأيسن شاطية أم أيسن جيسان
ونهرها العذب فياض وملآن
عسى البقاء إذا لم تبق أركان

٤١ — وقال ابن الأبار القضاعي المتوفى ٦٥٨ هـ وكان قد أرسله
زيان صاحب بلنسية إلى أبي زكريا صاحب إفريقية يستنجده
أدرك بخيلك خيل الله أندلساً إن السبيل إلى منجاتها درسا^(٣)

(١) السائفة : الدرع التامة الطويلة. نيا السيف : أخطأ الضربة. المشرفيات : جمع مشرفي، وهو السيف وإنما سميت كذلك، نسبة إلى المشارف وهي قرى من أرض العرب، تدنو من الريف في بلاد الفرس، كانت العرب تجلب منها السيوف فنسبت إليها، والنسبة كما تعلم للواحد. الخرصان، بضم الخاء وكسرهما، جمع عرص بالضم، وهو الفناء أو السنان.

(٢) التنضي السيف : جرده من غمده كتنضاه... ذو يزن : من ملوك اليمن. غمدان : قصر بصنعاء باليمن، بناه يشرح بأربعة وجود : أحمر وأبيض وأصفر وأخضر، وبنى داخله قصرًا بسبعة سقوف، بين كل سقفين أربعون ذراعًا. أو فة سيف ابن ذي يزن، أو حصن في رأس جبل صنعاء.

(٣) أحد : جبل أحمر قرب المدينة يقع شمالها، وعنده كانت الوقعة الفظيمة، التي قتل فيها حمزة عم النبي ﷺ، وثلاثة وسبعون صحابيًا، وكسرت رباعية الرسول، وشج وجهه الشريف وكلمت شفته : نهلان : جبل من جبال نجد.

(٤) درس الطريق ودرسته الريح كلاهما من باب فعد : بمعنى خفيت معالمه.

وهب لها من عزيز النصر ما التمس
وحاش مما تعانیه حشاشتها
يا للجزيرة أضحي أهلها جزراً
يا للجزيرة أضحي أهلها جزراً
ففي كل شارقة إلمام بارقة
ففي كل شارقة إلمام بارقة
وكل غاربة إبحال شارقة
وكل غاربة إبحال شارقة
وفي بلنسية منها قرطبة
وفي بلنسية منها قرطبة
مدائن حلها الإشرار مبيتسماً
مدائن حلها الإشرار مبيتسماً

٤٢ — ومما كتب به آخر ملوك الأندلس، أبو عبدالله محمد، إلى
سلطان فارس يتوسل إليه، وهي من إنشاء كاتبه البلخي أبي عبدالله
محمد العقيلي :

مولي الملوك ملوك العرب والعجم
مولي الملوك ملوك العرب والعجم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً

(١) يقال حاشى فلاناً من القوم أن استنأه، والمعنى : أنقذ حشاشة الأندلس (بقية زوجها) مما تعانته وتقاسبه من العذاب.

(٢) التام في الجزيرة، داعلة على المستغاث له، فهي لذلك مكسورة، والمستغاث به مقدر والأصل يا لك أيها الملك للجزيرة، الجزر: بالتحريك الشاء السميعة ومعنى كون أهل الجزيرة صاروا شياهاً سماتاً، أنهم أعدوا للذبح، كما تعد هذه الشياه له.

(٣) الشارق : الجانب الشرقي فتكون الشارقة الشرقية، وكذلك الغاربة الناحية الغربية، البارقة : السيوف. الشائبة : واحدة الشوائب وهي الأذناس والأقذار، يقول : في كل ناحية شرقية من هذه البلاد تدنو سيوف يكون من آثار فعلها مأتم عند أهل البلاد وعرس عند المغيرين المحدثين كما قال المتنبي (مصائب قوم عند قوم فوائد). وكذلك في كل جهة غربية تحدث أمور دنسة مخجلة من فعل الأعداء، تقلب الأمن للأهلين خوفاً، والسرور حزناً.

(٤) نسف الشيء : اقتلعه من أصله. نزف البحر : نزع ما به. النفس : من معانيها الجسد والدم. وطاهر أنه يجب إرادة المعنى الأول في قوله ينسف النفس، والمعنى الثاني في ينزف النفس، ومع ملاحظة أن الأخيرة وردت في البيت محركة، والأصل تسكينها.

حكّم من الله حتم لا مرد له
هي الليالي وقاك الله صولتها
كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول
فأيقظتنا سهام للردى صيب

٤٣ — ولابن هانئ في الرثاء:

وهب الدهر نفيساً فاسترد
كلما أعطى فوفى حاجة
كاذب جاء جهاماً زبرجاً
خاب من يرجو زماناً دائماً
فإذا ما كدر العيش نما
فلقد أذكر من كان سها
أبدأ يعجم مني نعمة

٤٤ — وللسان الدين بن الخطيب من موشح له:

يا أهيل الحي من وادي الغضا
ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا
فأعيدوا عهد أنس قد مضى
واتقوا الله وأحيوا مفرماً
حبس القلب عليكم كرمأ
أفترضون عفء الحبس

٤٥ — وكانت الأندلس — كما يقول باحث معاصر — مباءة الخيال
ومسرحه، بما ركب الله في طبيعتها من فنون السحر والجمال. لذلك
أتى شعراء الأندلس منه بالعجب العجائب في أشعارهم، فلهم التشبيهات
البديعة، والتوليدات العجيبة، والأخيلة الرائعة. وكان ابن هانئ يطرق
المعاني المعروفة. ولكنه بما يولد ويفلسف ويغرب، ويبدع في الصناعة،
يخيل للناظر أنه أتى بالجديد المبتكر، وإنما المبتكر التوليد والخيال،
والمعاني الجزئية. هذا مع ما لابن هانئ من المعاني الجديدة، التي

تسلكه في عداد الشعراء المبتكرين. انظر إلى قوله يتغزل :
قمن في مأتَم على العشاق وليسن السواد في الأحداق
وبكين الدماء، بالعمم الرطب المقنى، وبالحدود الرقاق"
ومنحن الفراق رقة شكوا هن، حتى عشقت يوم الفراق

ومن روائع التشبيهات قول حمدة بنت زياد :
ولما أبى الواشون إلا فراقنا وليس لهم عندي وعندك من نار
وشتوا على أسمعنا كل غارة وقل حماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقتليك وأدمعي، ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

وقول ابن خفاجة يصف السرى في فلاة :
ومفازة، لا نجم في ظلماتها يسري، ولا فلك بها دوار"
تلهب الشعري بها، وكأنها في كف زنجي الدجى دينار"
قد لفني فيها الظلام وطاف بي ذئب يلثم مع الدجى زوار
والليل يقصر خطوه ولربما طالت ليالي الركب وهي قصار
قد شاب من طرف المجرة مفرق فيه، ومن خط الهلال عذار"

ومن إمعانهم في الخيال قنًا في كلامهم هذا النوع البديعي المعروف
بحسن التعليل، فقل أن تجد شاعراً لم يستعمله. ومن أمثله قول أبي
بكر بن زهر :

وموسدين على الأكف حدودهم قد غالهم نوم الصباح وغالني
ما زلت أسقيهم، وأشرب فضلهم حتى سكرت ونالهم ما نالني
والخمر تعرف كيف تأخذ ثارها إنسي أملت إناءها فأمالني

- (١) العم : شجر له ثمرة حمراء يشبه بها البان المخضوب. المقنى : الشديد الحمرة.
- (٢) المفازة : الفلاة لا ماء فيها.
- (٣) الشعري : كوكب يظهر في شدة الحر.
- (٤) المجرة : منطقة في السماء ذات نجوم كثيرة لا يميزها البصر فترى بقعة بيضاء.

وقول ابن هاني :

أثمرت رمحك من رؤوس ملوكهم
وصبغت درعك من دماء كمانهم
لما رأيت الغصن يعشق مشمرا
لما رأيت الحسن يلبس أحمر

وقول ابن حمديس يصف نهراً صافياً :

ومطررد الأمواج يصقل متنه
جريح بأطراف الحصى كلما جرى
صبا أعلنت للعين ما في ضميره
عليه، شكاً أوجاعه بخبره

وقول محمد بن البين البطلبوسي يصف سرب نساء :

غصبوا الصباح، فقسموه خدودا
ورأوا حصا الياقوت دون نحورهم
واستودعوا حديق ألمها أجفانهم
لم يكفهم حمل الأسنة والظبا
وتضافروا بصفائر أبدوا لنا
صاغوا الثغور من الأفاحي بينها
واستهبوا قضب الأراك قدودا
فاستبدلوا منه النجوم عقودا
فسبواهن ضراغماً وأسودا
حتى استعاروا أعينا ونهودا
ضوء النهار بلبها معقودا
ماء الحياة لو اغتدى مورودا

وقالت حمدة بنت زياد تصف وادياً :

وقانا لفحة الرمضاء واد
حللنا دوحه، فحنا علينا
وأرشفنا على ظمأ زلالا
يصد الشمس أنى واجهتنا
يروع حصاه حالية العذارى
سقاها مضاعف الغيث العميم
حنو المرضعات على القطيم
ألد من المدامة للنديم
فيحججها ويأذن للنسيم
فلمس جانب العقد التنظيم

٤٦ - وقال بعضهم يصف ناعورة :

وذاث حنين ما تفيض جفونها
وتبكي فتحبي من دموع جفونها
فمن أحمر قان، وأصفر فاقع
كأن ظروف الماء من فوق متنها
من اللجج الخضر الصوافي على الشط
رياضاً تبدت بالأزاهر في بسط
وأزهر مبيض، وأدكن مشمط
لأني جمان قد نظمن على قرط

وقال أبو عبدالله الشبلي القائد يصف موقعة بينه وبين أعدائه :
ولما تلاقينا، جرى الطعن بيننا
وجال غرار الهند فينا وفيهمو
فلا صدر إلا فيه صدر مثقف
صبرنا ولا كهف سوى البيض والقنا
ولكن شددنا شدة فتلدوا
فولوا وللسمر الطوال بهامهم
فمنا ومنهم طائحون عديد
فمنا ومنهم قائم وحصيد
وحول الوريد للحسام وروود
كلانا على حر الجلاذ جليد
ومن يتلد لا يزال يحيد
ركوع ولبيض الرقاق سجود

٤٧ — وقال ابن سهل الاسرائيلي يصف جمال الطبيعة :
الأرض قد ليست رداء أخضرا
هاجت فخلت الزهر كافوراً بها
وكأن سوسنها يصفح وردها
والنهر ما بين الرياض تخاله
وجرت بصفحتها الربا فحسيتها
وكانه — إذ لاح — ناصع فضة
والطير قد قامت به خطباؤه
والطلل يشر في رباها جوهرها
وحسبت فيها الترب مسكاً أذفرا
ثغر يقبل منه خدأ أحمرها
سيفاً تعلق في نجاد أخضرا
كفا ينمق في الصحيفة أسطرا
جعلته كف الشمس تيراً أصفرا
لم تتخذ إلا الأراكمة منبرا

٤٨ — وقال أبو عبدالله بن الأزرق قاضي الجماعة بقرطبة :
عم باتصال الزمن وهو يواسي بالرضا
أو من عجوز تحتظي أو من مليح مسعد
مهما تبدى خده والغصن في أثوابه
لا أم لي، لا أم لي وأخلعن في المجو
وأجعل الصبر على
ولا تبالسي بمن من سمح أو حسن
والظهر منها متحتني موافق في الزمن
يبدو لك الورد الجنى إذا تمشى ينثسي
إن لم أبرد شجني ن والتصابي رسني
هجر الملاح ديدني

ومنها :

فإنني لنا صح
فلا تكن لي لاحيا
فلم أزل أعرب عن
وان تسفه نظري
فالصنع تستوجه
وبعد هذا أشتفي
وأضرب الكف أما
قد كان أولى بك عن
النفسي تستوجه
عرضت بالنفس كذا
أفدي صديقاً كان لي
فتارة أنصحه
وتارة ألعبه
وربما أصفعه
أستغفر الله، فهـ
يا ليت هذا كله
أضحكت والله بذا
دهر تولى وانقضى
يا ليتني لم أره
دنست فيه جانبي
وبعت فيه عيشتي
كأنني ولست أد
والله ما التشبه عند
لكنه أنطقني
واحسرتي، وأسفي !

وإنني، وإنني
وفي الأمور استفتني
نصحي لمن لم يلحني
ومذهبي وتنهني
نعم وتنف الذقن
منك، وييرا شجني
م ذلك الوجه الدني
هذي المخازي تنشي
لواسط أو عدن
الي ارتكاب المحن
بنفسه يسعدني
وتارة ينصحني
وتارة يلعنني
وربما يصفعني
إذا القول لا يعجني
فيما مضى لم يكن
حديث من سمعني
عني كطيف الومس
وليته لم يرني
ومليسي بالدرن
لكن بيخس الثمن
ري اليوم ما كآنتي
مد شاعر بهين
بالقول ضيق المعطن
زلت وضاعت فطني

لو أنصف الدهر لما
وليس لي من جنة
أسرح الطرف وما
وليس لي من فرس
يا ليت شعري وعسى
هل أمتطي يوماً إلى الـ
وأجتلي ما شئتـه
حيثذ أخلع في
من منقذي أفديه من
وعلة قد استوى
هل للثريد عودة
تغوص فيه أنملي
لا تنسوا لي سفها

أخرجني من وطني
وليس لي من مسكن
لي دمنة في الدمن
وليس لي من سكن
يا ليت أن تنفـعني
شرق ظهور السفن
في المنزل المؤتمن
هدي القوافي رسني
ذا الجوع والتمسكن
فيها الفقير والغني
إلي، قد شوقني
غوص الأكل المحسن
فالجوع قد أرشدني

وبعد أن مضى يعدد ألوان الطعام التي يتشهاها قال :

إيه خليلي هذه
أعجب من ريقك اذ
هل نلت منها شبعاً
وان تكن جوعان يا
فليس عند شاعر
يصور الأشياء وهـ
فقله يريك ما
ولتصرف، فقصدنا

مطاعم لكنني
يسيل فوق الذقن
فذكرها أشبعني
صاح فكل بالأذن
غير كلام الألسن
سي أبداً لم تكن
ليس يرى بالممكن
أطراف هذا الموطن

٤٩ — وقال ابن عبد ربه :

يقول لي العاذل : تب عن هوى
وكيف لي، والدين دين الهوى
من ليس يدنيك إلى مطلب
فلا أرى أرجح من مذهبي ؟

أليس باب التوب قد سده طلوعه شمساً من المغرب ؟

٥٠ - وقال ابن شهيد، وقد عرضت له جارية :

أصبح لاج، أم بدر بدا هب من نعته منكسرا
مسبل للكسم، مرخ للردا يمسح النعسة من عيني رشا
صائد في كل يوم أسدا قلت : هب لي يا حبيبي قبلة
تشف من حيك تبريح الصدى فانتسى بهتز من منكبته
قالاً : لا، ثم أعطاني اليد كلما كلمني قبلته
فهو ما قال كلاماً رداً قال لي يلعب : صد لي طائراً
فتراني الدهر أجري بالكداً وإذا استجزت يوماً وعده
قال لي يمطل : ذكرني غدا شربت أعضاءه خمر الصبا
وسقاه الحسن حتى عريدا رشا، بل غادة مكورة
عمت صباحاً بليل أسوداً

٥١ - ولشاعر اندلسي لما استولى المسيحيون على بلنسية يخاطب

صاحب إفريقية ابا زكريا عبد الواحد بن أبي حفص :

نادتك أندلس قلب نداءها واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية، فاحبها من عاطفاتك ما يقي حوابعها
واشدد بجليك جرد خيلك أزرها تردد على أعقابها أرزاعها
رش أيها المولى الرحيم جناحها واعقد بأرشية النجاة رشاءها
أشفي على طرف الحياة ذماؤها فاستبق للدين الحنيف ذمها
حاشاك أن تفتي حشاشتها وقد قصرت عليك نداءها ورجاعها
طافت بطائفة الهدى آمالها ترجو يحيى المرتضي إحياءها

(١) الكدا بضم الكاف : الصحراء.

(٢) المكورة من النساء : المستديرة الساقين، أو المطوية الخلق، يقال : امرأة مكورة الساقين أي جدلاء اللسان.

واستشرفت أمصارها لإمارة
يا حسرتي لعقائل معقولة
إليه بلنسية، وفي ذكراك ما
كيف السبيل إلى احتلال معاهد
وإلى ربا وأباطح لم تعر من
طاب المعرس والمقبل خلالها
بأبي مدارس كالطلول دوارس
ومصانع كثف الضلال صياحها
ناحت بها الورقاء تسمع شدوها
عجياً لأهل النار حلوا جنة
صفحاً جميلاً أيها المولى الرضى
تقف القوافي دونهن حسيرة

عقدت لنصر المستضام لواءها
سقم الهوى نحو الضلال هداها
يمري الشئون : دماءها لا ماءها
شب الأعاجم دونها هيجاءها
حلل الرميم، مصيفها وشتاءها
وتطلعت غرر المنى أثناءها
نسخت نواقيس الصليب نداءها
فيخاله الرائي اليه مساءها
وغدت ترجع نوحها وبكاءها
منها تمد عليهم أفياءها
عن محكمات لم نطق إحصاءها
لا عيها تخفي ولا إعياءها

الفصل الثالث

فن الموشحات في الأدب الأندلسي صور من الموشحات

الموشحة المنسوبة لابن المعتز:

أيها الساقى، إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع
ونديم همت في غرتي
وشربت الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق اليه واتكا وسقاني أربعاً في أربع
ما لعيني عشيت بالنظر؟
أنكرت بعدك ضوء القمر
وإذا ما شئت فاسمع خيري
عشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معي
غصن بان مال من حيث التوى
مات من يهواه من فرط الجوى
خفق الأحشاء موهون القوى

كلما فكر في اليبين بكى ما له يكي لما لم يقع ؟
ليس لي صبر، ولا لي جلد
يا لقومي عدلوا واجتهدوا
أنكروا شكواي مما أجد
مثل حالي حقه أن يشتكي كمد اليأس وذل الطمع
كيدي حرى ودمعي بكف
ينرف الدمع ولا ينذرف
أيها المعرض عما أصف
قد نما حبي بقلبي وزكا لا تقل في الحب : إني مدعي

موشحة ابن سهل:

وهي على وزن الرمل المحذوف، قال ابن سهل الإسرائيلي:
هل درى ظلي الحما، أن قد حمى قلب صب حله عن مكس
فهو في حر وخفق مثلما لعبت ربح الصبا بالقبس
يا بدوراً أطلعت يوم النوى غرراً تسلك بي نهج الغرر
ما لقلبي في الهوى ذنب سوى منكم الحسن، ومن عيني النظر
أجتني اللذات مكلوم الجوى والشاذي من حبيبي بالفكر
كلما أشكوه وجدا بسما كالربا بالمعارض المنيجس
إذ يقيم القطر فيها مأتما وهي من بهجتها في عرس
غالب لي، غالب بالتؤده بأبي أفديه من جاف رقيق
ما رأينا مثل ثغر نضده أقحوان عصرت منه رحيق
أخذت عيناي منه العريده وفؤادي سكره ما إن يفيق
فاحم اللمة، معسول اللمي أكحل اللحظ، شهى اللمس
وجهه تلو الضحى مبتسماً وهو من إعراضه في عيس
أيها السائل عن ذلي لديه لي جزء الذنب. وهو المذنب
أخذت شمس الضحى من وجنتيه مشرقاً للصب فيه مغرب

ذهب الدمع بأشواقسي إليه
يطلع البدر عليه كلما
ليت شعري، أي شيء حرماً

كلما أشكو إليه حرقسي
تركت ألاحظه من رمقي
وأنا أشكره فيما بقي
فهو عندي عادل إن ظلما
ليس لي في الحب حكم بعدما
منه للنار بأحشائي اضطرام
وهي في خديه برد وسلام
أتقي منه على حكم الغرام
قلت لما أن تبدي معلما
أيها الآخذ قلبي مغنما

موشحة أبي الحسن المريني^(١)

في نعمة العود والسلافه
أطال من لأمني خلافه
دعني على منهج التصابي
ولا تطل في الهوى عتابي
لا ترج ردي إلى صواب
والفصن يدي لنا انعطافه
والروض أهدى لنا قطافه
يا حينذا عهدي القديم

(١) تولى عرش فاس أكثر من عشرين عاماً (٧٣١ - ٧٥٢ هـ) بعد والده ابن سعيد المريني، وتولى بعده ابنه أبو عنان العرش.

(٢) ألام : أتى ما يلام عليه !.

ريم عن الوصل لا يريم
ما تم إلا به النعيم
معتدل القد ذو نحافه
ورام طرفي به انتصافه
غض الصبا عاطر المقبل
ظامي الحشا مفعم المخلخل
لكل من رامه توصل
أشكوه، فيدي لي اعترافه
لا أعدم الدهر منه رافه
لله عصر لنا تقضي
أرى اذكاري اليه فرضاً
فكم خلعتنا عليه غمضاً
ورد أطال المنى ارتشافه
لله ما أسرع انحرافه
يا من يحث المطي غرباً
وانثر بها إن سفحت غرباً^(١)
واسمع إلي من أقام صبا
بلغ سلامي قصر الرصافة
وحسني عني دار الخلافة

مولوع بالتسودد
طوعاً على رغم حسدي
أسقمني طرفه السقيم
فخذ من عده الكليم
أحلى من الأمن والأمل
حلو اللمى ساحر المقل
لم يخش رداً بما فعل
إن حاد عن نهجه القويم
فحق لي فيه أن أهيم
بالسد^(٢) والمنبر البهيج
وشوقه دائماً بهيج
وللصبا مسرح أريج
حتى انقضى شربه الكريم
وهكذا الدهر لا يديم
عرج على حضرة الملوك
من مدمع عاطل سلوك
واحك صداه، لا فض فوك
واذكر له عهدي القديم
وقفة بها وقفة العريم

موشحة ابن باجة :

روى ابن خلدون أن الحكيم أبا بكر بن باجة حضر مجلس مخدومه
ابن تيفلويت صاحب سرقسطة، فألقى على بعض قيناته موشحته :

(١) من متزهات قرطبة.
(٢) الغرب : الدلو الكبيرة.

جرر الذيل أيمًا جر وصل الشكر منك بالشكر
خضب الزند منك باللهب
من لجين قد حف بالذهب
تحت سلك كجوهـر الحـيب
مع أحوى أعـيـذب الشـنب
أودعت كفه من السحر جامد الماء، وذائب التبر
هاك نور الصباح قد لاحا
ونسيم الرياض قد فاحا
فتأهب وشعشع الراحا
لا تقـد في الظلام مصباحا
حين تنهل أدمع القطر فقل الروض فاسم عطري
فهموم راحت بأفراح
في مساء وعند إصباح
والغوادي تجود بالراح
وهي تسقي الربا بأقداح
وقدود الأغصان بالسكر تنثني في غلائل خضر
واستمر فيها إلى أن ختمها بقوله :
عقد الله راية النصر لأمير العـلا أبي بكر
فلما طرق ذاك التلحين سمع ابن تيفولويت، صاح : واطرباه، وشق
ثيابه، وقال : ما أحسن ما بدأت، وما ختمت، وحلف بالإيمان المغلظة،
لا يمشي ابن باجة إلى داره، إلا على الذهب، فخاف الحكيم سوء
العاقة، فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه.

موشحة لابن زهر :

قال ابن زهر الفيلسوف المتوفى سنة ٥٩٥هـ.

ما للموله من سكره لا يفيق يا له سكران
هل تستعاد أيامنا بالخليج وليالينا
إذ يستفاد من النسيم الأريج مسك دارينا
وإذ يكاد حسن المكان البهيج أن يحيينا
نهر أظله روح عليه أسبق مونق فينان
والماء يجري وعائم وغريق من جنى الريحان

موشحة ابن اللبانة :

قال ابن اللبانة الأندلسي المتوفى سنة ٥١٧هـ :
أذابت الأشواق، روعي على أجساد، أعارها الطاووس، من ريشه أبراد.

كواعب أتراب	تشابهت قدا
عضت على العناب	بالبرد الأندي
أوصت بي الأوصاب	وأعرت الوجد
وأكثر الأحباب	أعدى من الأعدا ^(١)

موشحة لأبي حيان :

ولأثير الدين أبي حيان النحوي الأندلسي الغرناطي المتوفى بمصر
سنة ٦٥٤هـ :

عاذلي فسي الأهيف الأنس لو رآه الأسد قد عذرا^(٢)
رشاً قد زانه الحور

(١) الكواعب جمع كاعب : البنت نهت ثديها. العناب : ثمر أحمر تشبه أطراف الأنامل.
البرد : الثلج وعنى به الأسنان.
(٢) الأهيف : الضامر البطن الرقيق الخاصرة.

غصن من فوقه قمر
 قمر من سحبه الشعر
 تفسر فيه أم درر
 جمال بين الدرر واللص^(١) خمرة من ذاتها سكر
 رجة بالردف أم كسل
 ريقه بالكفر أم عسل
 وردة بالخد أم خجل
 كحل بالعين أم كحل
 يا لها من أعين نعت جلت لناظري سهر
 مذناى عن مقلتي حسن
 ما أذيقا لذة الوسن
 طال ما ألقاه من شجن
 عجبا ضدان في بدن^(٢)
 بفؤادي جنوة القبس ويعينى الماء منفجرا

موشحة لسان الدين بن الخطيب:

جادك الغيث إذا الغيث همى
 لم يكن وصلك إلا حلما
 إذ يقود الدهر أسباب المنى
 زمراً بين فرادى وثنى
 والحياء قد جلل الروض سنى
 وروى النعمان عن ماء السما
 فكساه الحسن ثوباً معلماً
 في ليال كتمت سر الهوى
 يا زمان الوصل بالأنس
 في الكرى أو غلسة المختلس
 تنقل الخطو على ما نرسم
 مثل ما يدعو الوفود الموسم
 فنسا الأزهار فيه يسم
 كيف يروي مالك عن أنس
 يزدهي منه بأبهى ملابس
 بالدجى، لولا شمس القدر

(١) اللص: سرة مستحبة في الشفة.

(٢) الوسن: النعاس. الشجن: الحزن.

مال نجم الكأس فيها وهوى
 وطر ما فيه من عيب، سوى
 حين لذ النوم مناء، أو كما
 غارت الشهب بنا، أو ربما
 أي شيء لامرئ قد خلصا
 تنهب الأزهار فيه الفرصا
 فاذا الماء تناجى والحصا
 تبصر الورد غيور ندما
 وتبرى الآس ليبيافهما
 يا أهيل الحي من وادي الغضى
 ضاق عن وجدتي بكم رحب الفضا
 فأعيدوا عهد أنس قد مضى
 واتقوا الله، وأحيوا مفرما
 حبس القلب عليكم كرما
 وبقليبي فيكم مقترب
 قمر أطلع منه اليفرب
 قد تساوى محسن أو مذنب
 ساحر المقلّة، معسول اللمي
 سد السهم وسمى ورمى
 إن يكن جار وخاب الأمل
 فهو للنفس حبيب أول
 أمره محتمل ممثل
 حكم اللحظ بها فاحتكما
 ينصف المظلوم ممن ظلما

مستقيم السير سعد الأثر
 انه مر كلمح البصر
 هجم الصبح نجوم الحرس
 أثرت فينا عيون النرجس
 فيكون الروض قد كتن^(١) فيه
 أمنت من مكره ما تنقيه
 وخلا كل خليل بأخيه
 يكتسي من غيظه ما يكتسي
 يسرق السمع بأذني فرس
 وبقليبي سكن أتمم به
 لا أبالي شرقه من غربه
 تقذوا عائذكم من كربه
 يتلاشى نفساً من نفس
 أفترضون عفاء الحبس
 بأحاديث المنى، وهو بعيد
 شقوة المغري به، وهو سعيد
 في هواه بين وعد ووعد
 جال في النفس مجال النفس
 بفؤادي نهية المفترس
 وفؤاد الصب بالشوق تدوب
 ليس في الحب لمحجوب ذنوب
 في ضلوع قد براها وقلوب
 لم يراقب في ضعاف الأنفس
 ويجازي البر منها والمسي

(١) استر.

موشحة الوشاح :

وقد أبدع أبو بكر الأبيض الوشاح في قوله من موشحة له :
مالذلي شرب راح على رياض الأفاح لولا هضم الوشاح إذا أسى في الصباح
أو في الأصيل أضحى يقول ما للشمول ؟ لطمت خدي
وللشمال هبت فمال غصن اعتدال ضمه بردي
رمما أباد القلوب يمشي لنا مسترياً يا لحظه رد ثوباً ويا لماء الشنبا
برد غليل صب غليل لا يستحيل فيه عن عهد
ولا يزال في كل حال يرجو الوصال وهو في الصد
ومن أبدع موشحات عبادة القزاز موشحته التي فيها قوله :
لا جرم من لمحا قد عشقا قد حرم

من موشحة التلمساني :

قال التلمساني من موشحة له :
يا مذيلاً مهجتي كمدا فقت في الحسن البدور مدى
يا كحلاً كحله اعتماداً عجبا أن تبرئ الرمدا
وبسقم الناظرين كسى جفك السحار وانكسرا

من موشحة لأبي حيان :

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان، من موشحة له :
إن كان ليل داج وخانتنا الإصباح
فنورها الوهاج يغني عن الصباح
سلافة تبدو كالكوكب الأزهر
مزجها شهد زعفرها عنبر
وجبذا السورد منها وإن أسكر

وفيها يقول في وصف حبيبه :
بلحظه المرهف يسطو على الأسد
كسطوة الحجاج في الناس والسفاح
فما ترى من ناج من لحظه السفاح

من موشحة :

هل يصح الأمان من شبيه البدر؟
وهو مثل الزمان متمم للغدر؟

وهي معارضة للموشحة التي أولها :

ضاحك عن جمان سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان وحواه صدري

موشحة لابن بقي :

من موشحات ابن بقي قوله :

ما ردني لابس ثوب الضنا الدارس
الأقمر
في غصن مائس شعاعه عاكس
ضوء البصر

وقوله أيضاً :

خذ حديث الشوق عن نفسي وعن الدمع الذي همعا
ما ترى شوقي قد وقدا
وهما دمعي واطردا
واغتدى قلبي عليك سدى ؟

آه من ماء ومن قيس بين طرفي والحشا جمعا !
بأبي ريم إذا سفرا
أطلعت أزراره قمراً
فاحذروه كلما نظرا
فيالحاظ الجفون قسي
أنا منها بعض من صرعا

موشحة لابن بقي :

وقد قلد ابن بقي ابن المعتز في موشحته فقال :
غلب الشوق بقلبي فاشتكى ألم الوجد قلبت أدمعي
أيها الناس فؤادي شغف
وهو من بني الهوى لا ينصف
كم أداريه ودمعي يكف
أيها الشادن من علمكا بهمام اللحظ قبل السبع
بدر تم تحت ليل أغطش
طالع في غصن بان متشي
أهيف القد بخد أرقش
ساحر الطرف وكم ذا فتكا بقلوب الأسد بين الأضلع
أي ريم رمته فاجتبا
وانثنى يهتز من سكر الصبا
كقضيبي هزه ربح الصبا
قلب هب لي يا حبيبي وصلكا واطرح أسباب هجري ودع
قال : خدي زهرة مذ فوفا
جردت عيناى سيفاً مرهفا
حذراً منه بأن لا يقطفا

إن من رام جناه هلكتا فأزل عنك أغلال الطمع
ذاب قلبي في هوى ظبي غريب
وجهه في الدجن صبح مستنير
وفؤادي بين كفيه أسير
لم أجد للصبر عنه مسلكتا فانتصاري بانسكاب الأدمع

فن الموشحات الأندلسية

الموشحات^(١) بين المشرق والمغرب :

الموشح فن جديد من فنون الشعر العربي يمتاز بجماله الفني، وكثرة صورته الشعرية وتمقيدها في صناعة الشعر وكثرة قوافيه وأدواره، وبأوزانه الكثيرة التي تلائم الذوق، وتوائم الموسيقى والغناء، وتتمشى مع الترف وجمال الفن، والموشح جار على طريقة أهل الروم، جاء من بلادهم خالياً من الكلام، ليس فيه سوى النغمات المخصوصة، ثم تأمل العرب أدواره ونظموا الموشحات على مقتضاه، ويقال إن أول التواشيح هو المنسوب إلى أولاد النجار عند قدوم النبي ﷺ المدينة، فاستقبلوه والجواري ينشدن :

(١) الموشحة من الطاء والشاء والظير : التي لها طرطان من جانبها، قال الشاعر :

أو الأدم الموشحة العواطي بأيديهن من سلم العفاف

والطرطان من الحمار وغيره مخطّ الجنتين، وذلك موشح إذا كان له خطتان كالوشاح والمخطة كالخط ، وثوب موشح إذا كان فيه وشي.. وسمي الموشح موشحاً لأن خرجاته وأغصاته كالوشاح له، والوشاح والإشاح كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما، معطوف أحدهما على الآخر تنوشح به المرأة. والكرس : القلائد المضموم بعضها إلى بعض.

أشرفت أنوار محمد واختفت منه البدور
يا محمد يا محمد أنت نور فوق نور^(١)

على أن هذا هو صورة بدائية للموشحات، والصلة بينه وبين الموشحات كما عرفها المتأخرون بعيدة أو منقطعة.. وقد جدد الشعراء العباسيون في القصيدة العربية تخلصاً من قيود القافية. ولكي يلائم الشعر الغناء، فاخترعوا المسمط والمخمس والمزدوج والدوبيت والمواليا والسلسلة والمخمسات، نظم عليها بشار ومحمد بن أبي بدر السلمي^(٢) ومحمد بن عيسى التميمي^(٣)، وسواهم من الشعراء العباسيين، ويراها ابن رشيق هي والمسمطات دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه^(٤)، ونسب لامرئ القيس مسمط، وينفي كثير من النقاد نسبه إليه^(٥).

والسبب الأول في اختراع الموشحات هو الغناء^(٦)، لأن أوزانها أحفل بالغناء والتلحين، الذي كان ضرورياً عند شعراء الأندلس من أوزان الشعر^(٧)، واتخذ في أول الأمر أداة للهو والمجون، ثم استعمل بعد ذلك في أغراض الشعر الأخرى^(٨).

وتنسب لابن المعتز (٢٤٧-٢٩٦هـ) أول موشحة من الموشحات

-
- (١) ١٣٤ وما بعدها الموشحات لعلام خليل - مخطوط بكلية اللغة - وهذا النص عن كتاب «القصيدة الدرويشية في تحرير السبع الفنون الأدبية» للشيخ أحمد الدرويش - وهو مخطوط بدار الكتب المصرية.
- (٢) ٤٤٩ معجم الشعراء.
- (٣) ٤٥٢ المرجع نفسه.
- (٤) ١٥٧ : ١ : العمد.
- (٥) ١٥٧ : العمد، ٦٣-٩٠ رسالة الغفران.
- (٦) ١٦٣ : ٣ تاريخ آداب لغة العرب للرافعي.
- (٧) ٣١٢ : ٣ المرجع نفسه.
- (٨) ١٥٣ الموشحات.

الفنية المعروفة، وهي موجودة في ديوانه المخطوط والمطبوع إذ كانت صحيحة النسبة لابن المعتز تكون أول موشحة عرفت في الأدب العربي، والباحثون يختلفون في ذلك :

فيتردد بعض الباحثين فيمن سبق إلى اختراع الموشحات : أهو ابن المعتز أم مقدم بن معاذ الفريدي الأندلسي^(١). ويرى آخر أنه مع ذلك لا يستبعد أن تكون روح ذلك العصر التي أوحت إلى أحدهما بهذه الفكرة هي التي أوحت إلى الآخر بها دون تقييد^(٢)، ويرى آخرون أن الموشحات فن أندلسي خالص سبق إلى اختراعه الأندلسيون^(٣)، وهناك من يزعم أن ابن المعتز هو مبتدع الموشحات.

وفي رأي أن هذه الموشحة ليست لابن المعتز، بل هي بعيدة عن روح الشاعر وعواطفه وفنه الأدبي ولا تمثل شيئاً من نظراته في الحياة، وليس فيها تشبيه واحد من التشبيهات التي عرف بها ابن المعتز.. إنها بعيدة عن جو ابن المعتز وسماته الفنية، وجو الأندلس أغلب عليها.. وقد كنت أظن أنها لابن معتز الأندلس مروان بن عبد الرحمن الأمير الشاعر المشهور (٣٥٢-٤٠٠)^(٤)، ولكن وجدت في بعض المصادر نسبتها لأبي بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الأندلسي الأشبيلي

-
- (١) ٢٧٨ تاريخ الأدب العربي للزيات.
(٢) ٢٧٢ نظرات في الأدب الأندلسي لكامل كيلاني.
(٣) ٣٩ و ٤٢ و ٢٢٣ بلاغة العرب في الأندلس لضيف، ٢٢٥ و ١٩٥ : ٤ نفع الطيب ط ١٣٠٢هـ، ٢٤٣ سلافة العصر، ٥٨٣ مقدمة ابن خلدون ١٦١ : ٣ الرافعي، ٩٨ و ٩٩ : ٣ الأدب العربي وتاريخه لمحمود مصطفى، ١٠٢-٢ المرجع نفسه، ١ و ٢ و ٣ الذخيرة لابن بسام، ٤٩ الفن ومذاهبه في الشعر لشوقي ضيف.
(٤) راجع ترجمته في ص ٤٤٧ بغية المتحس في تاريخ رجال الأندلس للضبي وهو الجزء الثاني من المكتبة الأندلسية، وترجمته برقم ١٣٤٣، وهي نفسها في هامش ١٨٦ : ٣ نفع الطيب للمقري - نشر فريد رفاعي، وقد ترجمنا لهذا الأمير وذكرنا بعض شعره في كتابنا (ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ص ٣٢٢ و ٢٢٣).

(٥٠٧-٥٩٥)^(١). وإذا كان صحيح النسبة لابن زهر فانه من المشكوك فيه حيثذ : من هو السابق إلى ابتكار نمط هذه الموشحة، أهو ابن زهر أم ابن بقي الأندلسي المتوفى عام ٥٤٠هـ، والذي تروى له موشحه عارض بها الموشحة المنسوبة لابن المعتز، ولشاعر آخر موشحة، على نمط الموشحة المنسوبة لابن المعتز، وأولها :
هلك الصب المعنى هل لكا في تلافيه بوعد مطمع^(٢)
ويذكر ابن معصوم كذلك في كتابه السلافة أن الموشحات من ابتداء مقدم بن معافر^(٣).

ابن خلدون ورأيه في الموشحات :

يقول ابن خلدون : « أما أهل الأندلس، فلما كثر الشعر في ديارهم وتهذبت متاحيه وفنونه، وبلغ التتميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً منه، سموه بالموشح، ينظمونه أسماطاً أسماطاً، وأغصاناً أغصاناً يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات. وينسبون فيها ويمدحون، كما يفعل في القصائد. وتجاروا في ذلك الغاية ؟ واستظرفه الناس جملة : الخاصة والكافة، لسهولة تناوله، وقرب طريقه، وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر القريري من شعراء الأمير عبدالله بن محمد

(١) ٢٢ : ١ معجم الأدباء، وابن زهر نشأ بالأندلس وبرع في العربية والشعر وكان يحفظ شعر ذي الرمة وانفرد بالأجادة في نظم الموشحات (٧١ : ٢ معجم الأدباء، ١٠ : ٢ وفيات الأعيان ط. ١٣١هـ ٣١٣ : ٣ الرافعي، ١١٧ : ٤ نصح الطيب ٥ و ٥٨ مقدمة ابن خلدون.

(٢) ٩٦ و ٩٧ الموشحات لعلام خليل.

(٣) ٢٤٣ سلافة العصر لابن معصوم من أعيان القرن الحادي عشر، وقد ألفها عام ١٠٨٢هـ.

المرواني، وأخذ ذلك عنه عبدالله أحمد ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر. وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتمد بن صمادح صاحب المريّة، وقد ذكر الأعلام البطليوسي، أنه سمع أبا بكر ابن زهر يقول: كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم
ما أنتم ما أوضحا ما أوقفا ما أنم
لا جرم من لمحا قد عشقا قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف؛ وجاء مصلياً خلفه منهم ابن رافع رأسه، شاعر المأمون ابن ذي النون صاحب طليطلة، قالوا: وقد أحسن في ابتدائه في موشحته التي طارت له، حيث يقول :

العود قد ترنم بأبدع تلحين
وسقت المذائب رياض البساتين^(١)

وفي انتهائه حيث يقول :

تخطر ولا تسلم عساك المأمون
مروع الكتاب يحيى بن ذي النون

ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة الملتهمين، فظهرت لهم البدائع، وسابق حلبتهم الأعمى التطيلي، ثم يحيى بن بقي *.

(١) المذائب جمع مذنب وهو مسيل الماء إلى الأرض والجدول يسيل عن الروضة بمائها إلى غيرها.

شعراء الموشحات في الأندلس :

إن أول من ثار على الأوزان القديمة وابتدع الموشحات كما يروى هو مقدم ابن معافر القريري من شعراء الأمير عبدالله بن محمد المرواني^(١) في القرن الثالث الهجري وهو الذي نوع أوزانها وأدوارها، وعنه أخذ أحمد ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد المتوفى عام ٣٢٨ هـ، وكان ذلك في القرن الرابع الهجري، وعن هذين أخذ الناس، ثم سأل سيل الموشحات في المغرب والمشرق فبرع بعدهما عباقرة الوشاحين في الأندلس، ومقدمهم : عبادة القرزاز المتوفى سنة ٤٢٢ هـ، شاعر المعتصم ابن صمادح صاحب المرية من ملوك الطوائف، وجاء بعده « ابن رافع رأسه » شاعر المأمون ابن ذي النون صاحب طليطلة من ملوك الطوائف أيضاً، وقد حكم بنو ذي النون طليطلة في القرن الخامس (٤٢٧—٤٧٨ هـ). ثم جاءت الحلبية التي كانت في زمن الملثمين وعلى رأسها فارسها الأعمى التطيلي المتوفى عام ٥٢٠ هـ، ووراءه يحيى بن بقي، وأبو بكر الأبيض، وابن باجة الفيلسوف الطبيب الملحن المتوفى عام ٥٣٣ هـ وابن اللبانة المتوفى عام ٥١٧ هـ، واشتهر بعد هؤلاء في فجر دولة الموحدين : ابن شرف، وابن هردوس، وابن مؤهل، وابن زهر الفيلسوف.

وبعد هذه الطبقة طبقات جاءت بالفرائب؛ ومنهم : ابن سهل الإسرائيلي الاشيلي المتوفى عام ٦٤٩ هـ وأبو حيان النحوي، ولسان الدين بن الخطيب م ٧٧٦ هـ وابن زمرك وتلميذه.

وبرع في العدوة نفر منهم : ابن خلف الجزائري، وفي المشرق كثيرون منهم : ابن سناء الملك المتوفى عام ٦٠٨ هـ. صاحب كتاب « دار الطراز » في الموشحات وأنواعها.

(١) تولى الحكم مدة طويلة (٢٧٥—٢٠٠ هـ).

الفن الشعري للموشحة :

ذكر ابن سناء الملك في كتابه « دار الطراز » عدة مناهج فنية في نظم الموشحات، وترتيب أبياتها، وأظهر طريقة في نظمها هي كما ذكرها ابن سناء وابن خلدون وسواهما أن تتألف الموشحة من أفعال وأبيات فالأفعال هي ما اتفقت وزناً وأجزاء وقافية، والأبيات هي ما اتفقت وزناً وأجزاء واختلفت قافية غالباً، وينقسم الموشح باعتباره جزأه إلى :

١ - تام: وهو ما تألف من ستة أفعال وخمسة أبيات وابتدئ فيه بالأفعال.

٢ - والى أقرع، وهو ما تركب من خمسة أفعال، وخمسة أبيات، وابتدئ فيه بالأبيات، فمثال الأول، قول ابن التلمساني :

قمر يجلو دجى الغلس بهر الأبخار منذ ظهرا
أمن من شينة الكلف
عذت من حيبه بالكلف
لم يزل يسعى إلى تلفي
بركاب الدل والصلف

فالقفل « قمر الخ » والبيت من « آمن » إلى « الصلف »، والموشح تام لأنه مبتدأ بالقفل. ومثال الثاني قول الآخر :

سطوة الحبيب أحلى من جنى النحل
وعلى الكتيب أن يخضع للذل
أنا في حروب مع الحدق النجل
لي لى يمدان بأحور قنان من رأى جفونه فقد أفسد دينه

فمن قوله : « سطوة » إلى قوله « النجل » بيت. ومن « ليس لي » إلى « دينه » قفل، والموشح أقرع، لأنه بدئٌ ببيت.

وأقل ما يتركب منه القفل جزءان، وقد يصل إلى احد عشر جزءاً وتنقسم الأبيات إلى : مفردة، ومركبة، والأولى ما تركبت من أجزاء فقط، والأخرى ما تألفت من أجزاء وفقر.

ومثال الأولى :

شمس قارنت بدرأ راح ونديم
أدر كؤوس الخمر
عنبرية النثر
إن الروض ذو بشر

ومثال الأخرى :

عقارب الأصداع في السوسن الغض تسيبي تقى من لاذ بالنسك والوعظ

من قبل أن يعدو علي لم أحسب
أن تخضع الأسد لجؤذر ربرب
ظلي له خد مفضض مذهب
وشادن ييدو في صدغه عقرب

فالبيت في المثال الأول مركب من أجزاء فحسب، أما في الثاني فمركب من أجزاء وفقر، كما ترى^(١).

(١) القفل الأخير من الموشح يسمى خرقة، وهي أساس الموشحة، وعليها تنبني، كما أنها جماع سر جمالها وبلاغتها عند الأدباء، والغالب كما يقول الباحثون أن يكون الخروج إليها وثياً واستطراداً، وأن تكون قولاً مستعاراً على بعض ألسنة الناطق أو الصامت، ويكثر أن تكون على ألسنة النساء والعصيان، والسكري والسكران، ويجب حينئذ أن يكون في البيت الذي قبلها قال : أو قلت أو قالت أو غنى أو غنت أو نحو ذلك.

والقفل كما ذكرنا آنفاً يتركب من جزأين فأكثر إلى ثمانية أو عشرة، وقد أوصله ابن سناء الملك إلى أحد عشر.

فمثال المكون من جزأين، قول الشاب الظريف :

قمر يجلو دجا الغلس بهر الأبصار مذ ظهرا

ومثال المكون من ثلاثة أجزاء :

حلب به الأمطار أزرة النوار، فيا خدني

وهكذا...

ومثال المركب من أحد عشر قول ابن سناء الملك :

مظلوم، المسواك، ثغر هداك، بالابتسام، الى الغرام، فيا خلي، لا تعذلي، دعني قلن، أصبر عن، سحار، وفتاك.

والبيت قلنا إنه بسيط ومركب، فالبسيط يكون من ثلاثة أجزاء أو أربعة أو خمسة، ومثاله فيما تركب من ثلاثة :

أرى لك مهند أحاط به الإئمد فجرد ما جرد

فيا ساحر الجفن حسامك قطاع

فالأجزاء الثلاثة الأولى، والأخيران قفلة مركبة من فقرتين.

والمركب من الأبيات، ما كان كل منه مركباً من فقرتين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة، وبملاحظة أن البيت نفسه يكون مكوناً من ثلاثة أجزاء أو أكثر، نرى أنه يحدث من ذلك صور كثيرة، ولنضرب لها أمثلة توضحها. فمثال البيت المركب من فقرتين وثلاثة أجزاء :

أفسم عذري فقد آن أن أعكف

على خمير يطوف بها أوطف^(١)

كما تدري هضم الحشى مخطف

(١) الوطف كثرة شعر الحاجبين أو العينين.

إذا ما ماد في مخضرة الأبراد رأيت الآس بأوراقه قد ماس
ويلاحظ في هذا المثال، أن قفلته مكونه من أربعة أجزاء.
ومثال ما تركيب من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء :

من لي به يرنو بمقلتي ساحر إلى العباد
ينأى به الحسن فيثنسي نافر صعب القيادة
وتارة يدنسو كماحتسى الطائر ماء التمداد

فجيده أغيد والخذ بالخال، منق، تكتمه الحجب، فلي إلى الكلة
تشوق.

ويلاحظ في هذا المثال أن قفلته مكونة من ستة أجزاء.

ومن أمثلة التام قول الأعمى التطيلي :

ضاحك عن جمان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدري
آه مما أجد شفتي ما أجد
قام بي وقعد باطش متعد
كلما قلت قد قال لي : أين قد ؟

فمن « ضاحك » إل « صدري » قفلة؛ ومن « آه » إلى « قد » الثانية
بيت.

وهناك طريقة ثانية آتية في نظم الموشح، هي أن تجعل الموشح
أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً، وتلتزم عدد الأغصان التي في كل
سمط وأحرف قوافيها إلى آخر الموشح، ومن أمثلة ذلك قول عبادة
القرزاز :

١	٢	٣	٤
بدر تم	شمس ضحا	غصن نقا	مسك شم : سطر
ما أتم !	ما أوضحا !	ما أورقا !	ما أنسم : سطر
لا جرم	من لمحا	قد عشق	قد حرم : سطر

فكل سطر من هذا الموشح يسمى سمطاً، وهو يشتمل على أربعة أغصان والأغصان التي تحت كل رقم متحدة القافية في جميع الأسماط. ومن طرق نظم الموشح : كذلك أن تأتي بيتين تسميهما اللازمة؛ يتفق الحرفان اللذان في صدريهما « عروضيهما » كما يتفق الحرفان اللذان في عجزيهما « ضربيهما » ثم تتبع اللازمة بأدوار مركبة من خمسة أبيات، ثلاثة منها تتفق الحروف التي في صدرها كما تتفق الحروف التي في أعجازها، أما البيتان الأخيران فيكونان مثل بيتي اللازمة، ومن أمثلة ذلك موشحة ابن سهل الإسرائيلي المتوفى سنة ٦٤٩هـ ومنها :

أيها السائل عن جرمي لديه	لي جزاء الذنب وهو المذنب
أخذت شمس الضحا من وجنتيه	مشرقاً للشمس فيه مغرب ^(١)
ذهب الدمع بأشواقسي إليه	وله غد بلحظي مذهب ^(٢)

ومنها :
لازمة:

فهو عندي عادل إن ظلما	وعذولي نطقه كالخرس
ليس لي في الأمر حكم بعدما	حل في نفسي محل النفس

دور:

منه للنار بأحشائي ضرام	تتلظى كل حين ما تشاء ^(٣)
هي في خديه برد وسلام	وهي حر وحريق في الحشا
أتقي منه على حكم الغرام	أسداً ورداً وأهواه رشاً ^(٤)

- (١) حمرة المشرق قبل طلوع الشمس في الأفق وحمرة شفقها بعد الغروب، مستعارة من وجنتيه الحمراءين.
(٢) لونه كلون الذهب من الخجل.
(٣) ضرام اشتعال. وتلظى: تلهب.
(٤) أسد ورد: لونه بين الكميث والأشقر، والرشأ: الظبي إذا قوي ومشى.

قلت لما أن تبدي معلماً وهو من ألقاه في حرس^(١)
أيها الآخذ قلبي مغتماً اجعل الوصل مكان الخمس^(٢)

ومن أمثلة ذلك أيضاً موشحة لسان الدين بن الخطيب وزير بني
الأحمر المتوفي سنة ٧٧٦هـ، وقد عارض بها ابن سهل، ومنها :
وروي النعمان عن ماء السما كيف يروي مالك عن أنس^(٣)
فكساه الحسن ثوباً معلماً يزدهي منه بأبهى مجلس
في ليال كتمت سر الهوى بالدجى لولا شمسوس الغرر
قال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيه من عيب سوى أنه مر كلمح البصر
حين لذ الأنس شيئاً أو كما هجم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما أثرت فينا عيون النرجس

ومن الطرق كذلك أن تأتي بموشحة تجعل أولها بيتاً تلتزم فيه
التقفية في صدر الشطر الأول وعروضه، وصدر الشطر الثاني وضربه،
وتسمى هذا البيت مذهباً، ثم تأتي بثلاثة أشطر أخرى تلتزم فيها التقفية
أيضاً لكن على حرف آخر، وتسمى هذه الأشطر دوراً ثم تعود وتأتي
بيت مقفى كالأول ومتحد معه في حرف التقفية ويسمى قفلة، ثم
تأتي بدور وقفلة أخرى، وهكذا إلى سبعة أدوار في الأكثر.. ومن
أمثلة ذلك موشحة ابن سناء الملك، ومنها :

- (١) لابساً الثوب المخفط.
- (٢) يأخذ الجيش الفاتح أربعة أعماس الغنمة ويترك الخمس للدولة تفقه في المصالح،
وهو يطالب محبوبه بالعدل.
- (٣) في النعمان وماء السماء تورية إذ النعمان إما الشقائق وهي زهر أحمر، وماء السماء :
ماء المطر، وإما النعمان وماء السماء من ملوك الحيرة، والثاني جد الأول، ومالك
هو الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب، والمراد أن بين شقائق النعمان والمطر
من الشبه ما بين مالك وأبيه أنس من أن الأول في كلا الجانبين ناشئ عن الثاني وأثر منه.

قفلة

واحل : حتى تراني عنك في معزل قلل : فالراح كالعشق إن يزد يقتل

دور

من ظلم : في دولة الحسن إذا ما حكم فالسدم يجول في باطنه والندم^(١)
والقلم يكتب ما سطر فوق القمم

قفلة

من ولي : في دولة الحسن ولم يعدل يعزل لإلحاظ الرشأ الأكل

دور

لأريم : عن شرب صهباء وعن عشق ريم فالنعيم : عيش جديد ومدام قديم^(٢)
لا أهيم : إلا بهذين ققم يا نديم

وهذه المناهج الأربع هي أسهل الكيفيات وأقربها اتصالاً بالأذهان،
وهناك طرق أخرى لا يأتي عليها العد، وحسبك من القلادة ما أحاط
بالعنى.

أوزان الموشحات :

لم يلتزم الأندلسيون في الموشح قافية واحدة أو وزناً واحداً، لأنهم
وجدوا أن إيجاد وزن يناسب النغم أسهل من إيجاد نغم يناسب الوزن،
ومن أجل ذلك كان الموشح تابعاً لما تقتضيه الأنغام، فتارة يوافق
أوزان الشعر العربية التي ابتكرها الخليل، وتارة يخالفها؛ ويقول ابن
سنة الملك المتوفى عام ٦٠٨ هـ في كتابه « دار الطراز » المخطوط
بدار الكتب المصرية : الموشحات تنقسم إلى قسمين :

١ — ما جاء على أوزان أشعار العرب وهو قسمان : أحدهما ما

(١) السدم : الهم.

(٢) لا أريم : لا أعدل، والريم : الظى.

لا يتخلل أفعاله وأبياته كلمة تخرج تلك الفقرة التي جاءت فيها عن الوزن الشعري، وما كان من الموشحات على هذا النسج فهو المرذول المخذول، وهو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات، ولا يفعله إلا الضعاف من الشعراء وذلك كقول القائل :

يا شقيق الروح من جسدي أهوى بي منك أم لم ؟

فهذا من المديد، وكقول الآخر (وهو ابن المعتز) :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

فهذا من الرمل. والثاني تخللته كلمة أخرجته من الوزن مثل قول

ابن بقي :

صبرت والصبر شيمة العاني ولم أقل لمطيل هجراني معذبي كفاني

٢ - والثاني وهو ما لا مدخل فيه لشيء من أوزان الشعر، هو

القسم الكثير، والجسم الفقير، والقدر الذي لا ينحصر، وأوزانه كثيرة

منها : « مستفعلن فاعلن فعيل » مرتين، ومنها : « فاعلاتن فاعلن مستفعلن

فاعلن » مرتين.

أسلوب الموشح وأغراضه :

أما أسلوبه فعربي، في ألفاظه وتراكيبه، وقد تكون بعض ألفاظه غير معربة، وكان كلما تقدم الزمن به زاد عدم العناية بالإعراب فيه^(١)، وإن كان لا يخرج في جملته عن الأسلوب العربي، وذلك عدا الخرجة وهي آخر قفل من الموشح، وهي غالباً تكون فكاهة عذبة ونادرة حارة، ملحونة اللفظ، جارية على لسان ناطق أو صامت. يقول ابن خلدون : ولما شاع الموشح وأخذ به الجمهور لسلاسته نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية

(١) راجع ٢٤٣ سلافة العصر لابن ميمون.

من غير أن يلتزموا فيها إعراباً وهو الزجل. ويرى بعض النقاد اشتراط خلو الموشح، من اللحن وأنه كالشعر في إعرابه، قال ابن سناء : اللحن لا يجوز استعماله في شيء من ألفاظ الموشح إلا في الخرجة خاصة، ويقول أحمد ضيف في كتابه: بلاغة العرب في الأندلس نقلاً عن بعض المتأخرين : إن الموشحة كالشعر في إعرابه، وإن كانت تخالفه في أوزانه.

وأما أغراض الموشحات فقد كانت تنظم أولاً للغناء، والمعاني الوجدانية المتصلة بالتلحين كالغزل والوصف، ولما شاع الموشح وانتشر بين الشعراء شاع نظمه في شتى أغراض الشعر، من الفخر والمدح والثناء والهجاء والوصف والتهنئة والوعظ والشكر. وسواها.

ألوان من الموشحات : لابن زمرك موشحة منها :

والحب ذو عدوان	يجهد في ظلم البري
وصارم الأجنان	مؤيد بالحوار
رحمك في صب	أذكرته عهد الصبا
بواعث الحب	قادت إليه الوصبا
لم تهف بالقلب	ريح الصبا إلا هيا ^(١)

وقد انتقل التوشيح — بعد شيوعه بالأندلس — إلى بلاد المغرب والشرق، فنبغ فيه كثير، على رأسهم ابن سناء الملك، المتوفى سنة ٦٠٨هـ، وقد فتح فيه فتحاً جديداً، وأحدث أنواعاً وأوزاناً لم يسبق إليها، ومن موشحاته موشحته المشهورة :

كللي، يا سحب تيجان الربا بالحلى
واجعلني، سوارك منعطف الجدول

(١) هيا يهو : مات.

يا سما، فيك وفي الأرض نجوم وملا^(١)
كلما، أغربت نجماً أشرق أنجماً^(٢)
وهي ماء، تهطل إلا بالظلى والدما^(٣)
فاهطلي، على قطوف الكرم كي تمثلي
وانقلي للذن طعم الشهد والقوقل^(٤)
تتقد كالكوكب الدرّي للمرتصد
يعتقد بها المجوسي بما يعتقد
فاتمد يا ساقى الراح بها واعتمد

ونظم كثير من الشعراء في المشرق الموشحات؛ ولا يزال بعض الشعراء إلى اليوم ينظمون الموشح، ومنهم أبو الوفا رمزي نظيم الشاعر المصري المعاصر والرصافي الشاعر العراقي المشهور المتوفى عام ١٩٤٥. ولا شك أن الموشحات نمط جديد ولون مبتدع في الأدب، وأنها طوعت الشعر للغناء إلى حد كبير، وقربت أسلوب الشعر للجماهير، وقصرت المسافة بين العربية والعامية، وارتقت بأذواق الجماهير، وكانت ذات أثر كبير في الشعر العربي القديم والحديث.

-
- (١) ماء السماء في سحابها وماء الأرض في غدراؤها وأنهاها.
(٢) يقول: إن غياب نجوم السماء ينشأ عنه ظهور نجوم الأرض وهي نباتها.
(٣) يقول: إن الأرض لا تهطل إلا بأعناق القنلى ودمائهم.
(٤) ثمر نخلة: وهو صلب كأنه الخشب.

الزجل في الأدب الأندلسي

الزجل في اللغة : التطريب ورفع الصوت، زجل فهو زاجل وزجل.
والزجل كذلك اللغة : الصوت، وسمي هذا اللون من ألوان الأدب
زجلاً لرفع الصوت فيه وترجيحه به في الإنشاد، ويسمى الشعر العامي،
والأندلس بيعة الزجل الأولى كالموشح، وإن كان تأخر عن الموشحات
وهو نوع من الشعر العامي، وقد ذاع فن الزجل وتعددت لهجاته بتعدد
الأماكن التي نشأ بها، واشتمل على أنواع من الشعر كالغزل والوصف،
وكثيراً ما كان الزجل أصدق في التعبير عن النفوس من الشعر الفصيح
لقربه من تعبير العامة، واشتماله على عباراتهم المألوفة، وعدم احتياجه
للتكلف في الصناعة واختيار الألفاظ.

ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلاسته
وتتميق كلامه، وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على
منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية، من غير أن يلتزموا فيها
إعراباً ، واستحدثوا فناً سموه بالزجل. والتزموا النظم فيه على منحاهم
إلى هذا العهد. فجاءوا فيه بالفرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب
لغتهم المستجمعة. وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية، أبو بكر
ابن قزمان. فلم تظهر حلاها، ولا انسكبت معانيها واشتهرت رشاقته،
إلا في زمانه، وكان لعهد الملثمين، وتوفي عام ٥٥٥ هـ وهو إمام الزجالين
على الإطلاق.

ويقال : إن أول من اخترعه رجل يقال له راشد، وكان لابن قزمان فضل الشهرة والتجويد، وعاصره محلف الأسود، وجاءت بعدهم حلبة مدغليس، وبعدها ظهر ابن جحدر باشبيلية، ثم أبو الحسن سهل بن مالك، ثم ابن الخطيب، والألوسي، قال ابن سعيد :

« ورأيت أزجاله مروية ببغداد، أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب، قال : وسمعت أبا الحسن بن جحدر الاشبيلي؛ إمام الزجالين في عصرنا يقول : ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة، وقد خرج إلى منزله مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش، وأمامهم تمثال أسد من رخام، يصب الماء من فيه، على صفائح من الحجر مدرجة، فقال :

وعريش قام على دكان	بحمال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان	فيه غلظ ساق
وفتح فمه بحال إنسان	فيه الفواق
وانطلق يجري على الصفاح	ولقى الصباح

وكان ابن قزمان نسيجاً وحده أدباً وظرفاً ولوذعية وشهرة، حلو الكلام، مبرزاً في نظم الرجل، وهذه الطريقة، الزجاجية، بديعة تتحكم فيها ألقاب البديع، وتنفسح لكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر؛ وبلغ فيها ابن قزمان مبلغاً كبيراً، فهو آيتها المعجزة، وحجتها البالغة، وفارسها العلم، والميتدي فيها والمتمم، أحرز السبق عند تسابق الأعيان، واشتمل عليه المتوكل على الله المتوفى عام ٤٨٤هـ فرقاه إلى مجالس الملك، وخلفه في مذهبه ابن حاج، وقد كان أبو عبدالله بن حاج المعروف بمدغليس صاحب الموشحات يشرب مع ندماء ظراف، في جنة بهجة، فجاءتهم ورقة من ثقليل يرغب في الإذن، وكان له ابن مليح فكتب إليه مدغليس :

سيدي : هذا مكان، لا يرى فيه بلحية غير تيس مصفعاني، له بالصنع كدية
أوله ابن شافع فيه فيلقى بالشحيرة
أيها القائل بادر سائقا تلك المطية

وكان مدغليس هذا مشهوراً بالانطباع والصنعة في الأزجال، خليفة
ابن قزمان في زمانه، وأهل الأندلس يقولون ابن قزمان من الزجاجين
بمنزلة المتنبى في الشعراء، ومدغليس بمنزلة أبي تمام. بالنظر إلى الانطباع
والصناعة فابن قزمان ملتفت للمعنى ومدغليس ملتفت للفظ، وكان أديباً
معبوراً لكلامه مثل ابن قزمان، ولكنه لما رأى نفسه في الزجاج انجب
اقتصر عليه.

صور من الزجاج

١ — يقال : إن أبا بكر بن قزمان القرطبي حين كان صغيراً في
المكتب، دخل عليه صبي صغير مثله، فدأه وأجلسه بجانبه، وصار
يحييه، فرآه الفقيه على ذلك فضربه فكتب في أعلى اللوح هذا المطلع :

الملاح أولاد إماره والوحاش أولاد نصاره
وابن قزمان جا يففر ما قبل له الشيخ غفاره

فاطلع الفقيه على اللوح، فرأى هذا المطلع، فقال : هجوتنا بكلام
مزجول — يعني مقطعاً يترنم به — فسمي زجلاً.

٢ — ومن أمثلة الزجاج قول ابن قزمان هذا، وقد خرج إلى منزله
مع بعض أصحابه. فجلسوا تحت عريش، وأمامهم تمثال أسد من رخام
يصب الماء من فيه، على صفائح من الحجر مدرجة :
وعريش قام على دكان بحــــــــــــــــال رواق
إلى آخر الأبيات وقد مضت..

٣ — وقد جاء بعده عبدالله بن الحجاج المعروف بمدغليس فأجاد أيضاً، ومن أزجاله :

ورذاذ دق ينزل وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر والغصون ترقص وتطرب
وتريد تيجي إلينا ثم تستحي وتهرب

٤ — وقال قاسم بن عبيد الرياحي في ختام زجل له :
ما أعجب حديثي إش هذا الجنون ؟
نطلب وتدبر أمراً لا يكون ؟
وكم ذا نهون أمراً لا يهون ؟
واش مقدار ما نصبر لبعث الحبيب ؟

٥ — وقال بعضهم :

يا حادي العيس ازر بالمطايا زجر وقف على منزل أحبابي قبيل الفجر
وصبح في حيهيم: «يا من يرد الأجر! ينهض يصلي على ميت قبيل الهجر!»

٦ — وقال آخر :

عيني التي كنت أزعاكم بها باتت وترعى النجوم وبالتسهد افتاقت
وأسهم البين صابنتي ولا فاتت وسلوتي — عظم الله أجركم — ماتت

٧ — وقال آخر :

لي دهر يعشق جفونك وسنين وأنت لا شفقة ولا قلب يلين
إلى أن يقول في ختام زجله : خلق الله النصارى للغزو
وأنت تغزو قلوب العاشقين

٨ — ومما اختاره ابن خلدون، من زجل أهل مصر القاهرة، وأحسن في اختياره كل الإحسان، قول بعضهم في ذلك العصر :

هذي جراحی طریبا والدما تنضح
وقاتلی یا أعیبا فی الفلا یمرح !
قالوا: «ونأخذ ببارک» قلت: «ذا أقبح!»

وقد عم فن الزجل فی الأندلس، حتی کان العامة ینظمون فیہ بطریقتهم
العامة فی سائر البحور الخمسة عشر.

٩ — ولقاسم ین عیود زجل وهذه منه بعض آیات :

بألله أي نصيب	ليس لي فيه نصيب
محبوباً مخالفاً	ومعسو رقيب
حين قصد مكانو	يقيم في المقام
ويخجل علينا	بسرده السلام
أدخلت يا قلبي	روحك في زحام
سلامتك عندي	هي شيء عجب
وكيف بالله يسلم	من هو في لهيب
بألله يا حبيبي	أترك هذا النفر
واعمد أن تطيب	في هذا النهار
واخرج معي للوادي	لشرب العقار
تتم نهارنا	في لذة وطيب
في الأرض والا	في المرح الخصب
وفي حبك أمسيت	في أهلي غريب
وما الموت عندي	إلا حين تغيب
اتكل على الله	وكن فظ جسور
وإن رأيت فضولي	فقل أي تمور
كمش عني وجهك	فإن رأك نفور
يهرب عنك خائف	ويبقى مررب
وامش إنت موقر	كأنك خطيب

ما أعجب حديثي
نطلب وتدبر
وكم ذا نهون
وإيش مقدار ما نصير
رب اجمعني معو
إيش هذا الجنون
أمراً لا يكون
شيئاً لا يهون
ليعد الحبيب
عاجلاً قريب

الفصل الرابع

تراجم لأشهر الشعراء الأندلسيين ابن هانيّ الأندلسي - ٣٢٠ - ٣٦٢ هـ

نشأته وثقافته :

١ - ولد أبو قاسم محمد بن هانيّ بن محمد الأزدي في قرية من قرى إشبيلية تدعى « سكون » عام ٣٢٠ هـ، من أسرة ذات حسب ومجد، وأدب وعلم، يتصل نسبها بسلالة المهلب بن أبي صفرة الأزدي القائد الاسلامي المشهور في دولة بني أمية؛ وسواء كان من سلالة يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب الذي وطد للمنصور ثاني خلفاء بني العباس دعائم ملكه في شمال إفريقيا إلى أن توفي عام ١٧٠ هـ، أو من أحفاد أخيه روح بن حاتم الذي ولي فلسطين ثم شمال إفريقيا بعد موت أخيه يزيد، وسواء كان هذا أو ذلك، فإن ابن هانيّ على أي حال ينحدر من سلالة أزدية قحطانية يمنية، لها ماضيها الحافل، وتاريخها المجيد، ولها أثرها في نفس الشاعر وفي أدبه.

٢ - وقد ملأ ذلك نفسه شعوراً بهذا الماضي، وفخراً به، وعزماً على مواصلة الجهاد لتجديد ذلك العهد الذي أعيا على الأيام أن يتدد،

وكان يقرنه الشاعر بمجده الذي شاده بكفاحه في الحياة :
ذرتني أجدد ذلك العهد الذي أعيا على الأيام أن يتقشبا
ولم يقبل الشاعر أن يعيش كلا على الماضي في مستقبل حياته،
أو يحيا عيالاً عليه، بل سعى وناضل في الحياة :
ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه فمن كان أسعى كان بالمجد أجدر
وبالهمة العليا يرقى إلى العلا فمن كان أرقى همة كان أظهر
ولم يتأخر من يريد تقدماً ولم يتقدم من يريد تأخراً
كان أبو الشاعر هانيئاً من قرية من قرى « المهديّة » عاصمة ملك
الفاطميين الأولى، وكان شاعراً أديباً، كما يقول الذهبي^(١) وابن
خلكان^(٢)، ثم هاجر من قريته بالمغرب إلى الأندلس، وعاش في
إشبيلية، وانتقل منها بعد ذلك إلى البيرة، وفي إشبيلية ولد ابنه محمد
ابن هانيئ، فنشأ وترعرع في بيتها الحافلة بألوان الحضارة والعلم والأدب،
وبأسباب المجد السياسي الذي كسبه الأمويون في الأندلس، وخاصة
في عهد ملكهم العظيم الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ).

٣- واختلف ابن هانيئ إلى مجامع العلم والأدب في إشبيلية،
يثقف نفسه، ويهذب عقله ويكون ملكاته تكويناً يصل بينه وبين الحياة
بأسباب الطموح والأمل.

ثم رحل إلى قرطبة العاصمة الأولى لملك بني أمية، التي كانت
تزخر بالجامعات والعلماء، وبأسباب الحضارة وألوان الثقافة، فعكف
على تزويد نفسه فيها بأكبر قسط من الثقافة والمعرفة، والظاهر أن
رحيله إليها في بدء حياته كان لهذا الغرض وحده دون سواه.

كانت الثقافة الأندلسية في هذا العهد وفي ظلال الناصر تنال من
عناية الدولة والشعب، ورعاية الحكومة والملك، كل ما كان يطمح

(١) وفیات الأعيان، ص ٨١. (٢) تاريخ الإسلام ٢/٥.

إليه محب للعلم والمعرفة، وكان الناصر وولي عهده الحكيم يبدلان جهوداً جبارة لنشر العلم، وتشجيع العلماء، فأقيمت كثير من الجامعات، وفتحت كثير من دور الكتب التي تؤنق في اختيار مجموعاتها من شتى بلاد الشرق، وساعدت الدولة العلماء في رحلاتهم العلمية إلى بغداد وسواها من عواصم الثقافة الإسلامية في الشرق الإسلامي، واستقبل الناصر كثيراً من الوافدين علي بلاطه من العلماء والأدباء، كالفالي وسواه^(١)، فشعت في آفاق الأندلس أضواء العلم والثقافة، وامتألت مدنها وعواصمها بأسباب الحضارة والمدنية وال عمران، وأخذت مشاعل النور ترسل أشعتها القوية الجبارة، فنضئ ظلمات الحياة في الغرب، وتزيد اشتعال النور وتألُق الضوء في الشرق، وتملأ الحياة قوة ونشاطاً ومدنية وترفاً.

وكانت السمة الغالبة على الثقافة الأندلسية حينذاك هي الدراسات الدينية واللغوية والأدبية الواسعة، أما الدراسات العقلية فقد توجهوا لها وناووها، وصرفتهم ببعثهم المنمقة بألوان الجمال عنها، فأروها عبثاً لا خير فيه، وحاولوا الحجز بين أنصارها وبين التفكير الحر، ولكن الحرية الفكرية التي غرس بذورها الناصر وابنه الحكيم لم تحل بين آثار التفكير العقلي وانتقال عدواه من الشرق إلى الأندلس، على يد الراحلين عنها والوافدين إليها من العلماء والمفكرين، الذين أحصاهم صاعد الأندلسي في كتابه طبقات الأمم.

ومن ذلك نستطيع أن نحدد ألوان الثقافات التي تلقاها ابن هاني في دراسته، وتفرغ لتحصيلها، فهي ثقافة دينية واسعة، ألم بها الشاب

(١) ولد الفالي عام ٢٨٨هـ، وحصل ثقافته اللغوية والأدبية في بغداد، ثم هاجر إلى الأندلس عام ٣٢٨هـ، فاستقبله ولي العهد ورحب به، وتلقى عليه كثيراً من المحاضرات، ودعاه إلى إلقاء محاضراته في مسجد قرطبة العظيم، والتي دونها في كتابه «الأمالي» وظل كذلك حتى توفي عام ٣٥٦هـ.

الناشئ حين درس القرآن وعلومه، وأجاده حفظاً، مما نفعه في مستقبله الأدبي وصيغ أسلوبه بصيغة القرآن القوية المطبوعة، حتى كان ابن هانيئاً فيما بعد المجيد في الاقتباس من الذكر الحكيم وآياته فنجد له قوله :

ألا أيها الوادي المقدس بالطوى وأهل الندى إني إليك مشوق
ونجده يقول :

كانت جناناً أرضهم معروشة فأصابها من جيشه إعصار
ويقول لأمير « الزاب » :

لعمري لقد أيدت يوم الوغي به كما أيدت كفك بالأنمل العشر
كذلك ناجى الله موسى نبيه فنأدى أن أشرح ما يضيّق به صدري

إلى غير ذلك مما يلاحظ القارئ في روح التأثر بأساليب الذكر الحكيم. وبجانب هذه الثقافة الدينية ثقافة لغوية واسعة، تراها في كل قصيدة من قصائد الشاعر واضحة ملموسة؛ ولعل ابن هانيئاً كان ممن جلسوا إلى القالي وسمعوا محاضراته اللغوية في مسجد قرطبة، كما جلس إلى سواه من علماء اللغة وأساتذتها، ومما نَمَى فيه هذه الثقافة اللغوية أيضاً إدمان قراءته للشعر الجاهلي في عهد دراسته الأدبية واحتذاؤه حذوه في نظم القريض وصياغته. فوق مخالطته للقبائل العربية التي كانت نازلة في مدن الأندلس؛ ومحتفظة بروحها العربية الأولى. ولا يكاد يضارع ابن هانيئاً في هذا المحصول اللغوي الواسع شاعر سواه غير أبي الطيب المتنبي الشاعر الحكيم. وبجانب ذلك كله كانت الثقافة الأدبية الواسعة مكتملة لجوانب هذه الثقافات في شخصية شاعرنا ابن هانيئاً. فقد ورث عن والده حب الأدب والعميل إليه، والشغف بالشعر والظهور في ميدانه وفي شتى أغراضه ونواحيه، وأعان ذلك دراسته وحفظه لأشعار العرب وأخبارهم وأيامهم وأدبهم وشعرهم. واتصاله بالبيئات الأدبية في الأندلس. وساعد على ظهور ملكة الشعر في نفسه :

روحه الأدبي الموهوب؛ وفطرته الشعرية الموروثة، وعناية والد الأديب الشاعر به؛ وتوجيهه إياه إلى كل ما يفيد في مستقبله الأدبي. وإلى كل ما ينمي ملكاته. ويفجر في قلبه ينابيع الشعرية والإلهام، هذا كله فضلاً عن حياة الشاعر في بيعة الأندلس الأدبية الحافلة بالأدباء والشعراء، والتي لقي الأدب والشعر فيها رعاية وتشجيعاً أمدهما بأسباب الحياة والقوة والنضج، وكما قرأ ابن هانئ الشعر الجاهلي وتأثر به فقد أطلع على شعر كثير من المحدثين، وعلى شعر المتنبي، الذي عاصره وتأثر به، وقرأ ديوانه، كما ترشدنا إلى ذلك قصيدته الحادية والعشرون من ديوانه الذي نشرته مكتبة المعارف بتعليق الدكتور زاهد علي.

وفي قصيدة ابن هانئ الفائية التي مطلعها:

أليتنا إذ أرسلت وارداً وحفاً وبتنا نرى الجوزاء في أذننا شفاً

وهي القصيدة الحادية والثلاثون في ديوانه، وصف دقيق للنجوم وهياتها وحركاتها في إشراقها وغروبها، وقد يدل ذلك على إلمام ابن هانئ ببعض فنون الفلسفة، ويروي لنا التاريخ الأدبي أن ابن هانئ كان متهماً في الأندلس بمذاهب الفلاسفة^(١) وأنه تعرض بسبب ذلك للقتل، مما دعاه إلى الهجرة إلى المغرب، ونحن نستبعد إلمام ابن هانئ ببعض فروع الفلسفة لأن تراثه الشعري بعيد كل البعد عن روح الفلسفة ومذاهبها في التفكير، وقد يكون الشاعر قرأ أو درس شيئاً من ذلك، إلا أنه على أي حال لم يفرغ لهذا اللون من الثقافة، ولم يشرب قلبه حب مذاهب الفلاسفة. وهجرته سنين أسبابها الصحيحة فيما يلي من هذه البحوث.

وإذا بثقافة ابن هانئ تستمد عناصرها من القرآن واللغة والأدب والشعر، ومن أثر الوراثة الذي كان له مظاهر في نفس الشاعر وعقله،

(١) الذهبي ١٨/٥.

ومن أثر البيئة التي كان يعيش فيها، ثم من تجارب الحياة الطويلة والكفاح المستمر، والرحلة الدائمة، التي تركت آثارها الكبيرة في عقلية الشاعر وتفكيره وفي أدبه وشعره.

حياة الشاعر في الأندلس :

أخذ ابن هانئ الشاب يسير في غمار الحياة. ويخطو خطوات وثيدة في ميدان الطموح والمجد، وكان قد نضجت روح الشاعرية في نفسه، فنظم الشعر يصور فيه عواطف الشباب وآماله وآلامه في الحياة.

ثم دفعته همته وماضي أسرته الحافل إلى السعي في طلب الشهرة والمجد، ورأى الحياة العامة في الأندلس تسمح له أن يطمح إلى أعلى مناصب الدولة. بعدما حصل ما حصل من ثقافة جعلته شاعراً لا يقل عن غيره من الشعراء الممتازين في بيئته.

فبدأ يتصل برجال الدولة، وخاصة أمير إشبيلية، بعد أن عاد إليها من رحلته الثقافية في قرطبة، وأعزه الأمير واصطفاه، ورفع منزلته لديه وأكرم مثواه، واتخذ شاعره ونديمه، ولعل الشاعر قد اضطر إلى هذا الاتصال الأدبي اضطراراً، لفقر جامع ألم به، أو لموت والده صغيراً وذهاب ما كان يعينه على شئون الحياة من مال.

وقدر ابن هانئ يد الأمير عليه، فشكره ونوه به ونظم قصائده في الثناء عليه والإعجاب به، وإن كان ديوانه خلواً من ذلك، وليس فيه بيت أو قصيدة في أمير إشبيلية، بل ولا في تصوير حياته في الأندلس، ولعل شعره الذي نظمها فيها ضاع في أثناء هجرته، أو أنه لم يعن الرواة الشيعيون الذي رووا شعره بحججه مع ما جمعه من شعره الذي نظمها وهو مقيم في دولة الفاطميين، فلم يلتفتوا إلا إلى شعره الذي أيد به هذه الدولة ورجالاتها.

واستمرت المودة بين الشاعر والأمير حيناً من الزمان. ولكن ابن هانئ كان برماً بالحياة في الأندلس؛ مبعضاً لملك الأمويين وملوكها، منكرراً لحقهم في الخلافة الإسلامية، كان شيعياً يتشبع للفاطميين آل بيت رسول الله، ويشيد بدعوتهم، ويذيع محامدهم، ويؤيدهم بروحه وقلبه ولسانه.

ولا شك عندي في أن ابن هانئ ورث هذا الروح عن والده فيما ورثه عنه من ميراث، فقد كان هانئ من قرية من قرى «المهدية» موطن الدعوة الفاطمية وعاصمة دولة الناشئة، ثم رحل عنها إلى الأندلس لظروف قاهرة لم يروها لنا التاريخ، فلا بدع إذا أن يكون هانئ والد الشاعر شيعياً يهفو قلبه وروحه إلى مناصرة دعوة الفاطميين في جهادهم لاسترداد ميراث الرسول الكريم، ووضعه في موضعه، في البيت العلوي الطاهر. ولا بدع أن يفرس ذلك كله في صدر ابنه الشاب قبل أن يتوفاه الله. وإذا فقد عاش ابن هانئ في حياة والده وبعد وفاته شيعياً، يستمع وهو في الأندلس لأحاديث جهاد الدولة الفاطمية الناشئة في المغرب. ويتلقف أبناء مقاومتها لشتى ألوان الضغط السياسي الذي كان محيطاً بها، وأخبار ظفرها وتوفيقها في تأسيس مثابة صالحة حرة، وملاذ آمن مستقل، يلجأ إليه كل مضطهد من آل البيت العلوي، فيجد الأمن والطمأنينة والسلام، في ظل الراية البيضاء المرفوعة على المهديّة وما يتبعها من بلاد. والتي تشير إلى معنى الخصومة السياسية للعلم الأسود المرفوع في بغداد، وللراية الخضراء التي تظلل بني أمية في قرطبة والأندلس.

وعلى كل فقد تشيع ابن هانئ ورأى المجتمع الأندلسي في إشيلية خطره على نظامه الاجتماعي والسياسي. فاضطهده وقاومه، وكاد يفتك به أهل إشيلية، لولا مكانه من أميرها، وتحدث الناس عن الأمير وكيف يستبيح لنفسه أن يضم إليه أمثال هذا الشاب الثائر، ورأوا أن يتهموا

ابن هانيءٌ بالفلسفة التي كان قد شدا من بعض ألوانها حظاً يسيراً. وعاد فهجره وملة. ولم يستسفه عقله، وكانوا يريدون أن ينالوا منه تحت ستار هذا الاتهام الجائر ما يريدون وأكثر مما يريدون. لأن الوطن الأندلسي لم يكن يسمح لأحد من رجال الفلسفة أن يعيش فيه سالماً. فإما أن يقتل وإما أن يهاجر وإما أن يتوب.

هجرة الشاعر إلى المغرب :

علم أمير إشبيلية بالأمر، ووصلته أحاديث الناس عنه وعن شاعره الشاب، فأشار على ابن هانيء أن يغيب عن المدينة مدة، حتى ينسى في خلالها أمره، وتسكن فيها ثورة الناس عليه، فامتثل الأمر، وخرج من المدينة خائفاً يترقب.

ترى أين تكون وجهة هذا الشاعر البائس، وإلى أي بلد يسير؟ والناس إلب عليه، والذهر يتجههم في وجهه، والأحداث تتآمر عليه مع المتآمرين، وهو لا يأوى بين هؤلاء القوم إلى ركن شديد.

فكر الشاعر فلم يجد أمامه إلا غاية واحدة يجب أن يسير إليها، وإلا ناحية واحدة لا مناص من أن يقصدها، ورأى نفسه تحدثه : هيا إلى بلاد المغرب بلاد الفاطميين، ومقر العقيدة التي أوذى في سبيلها لما آمن بها، وإلى المهديّة من بلاد المغرب خاصة، فهي بلاد الآباء والأجداد التي تتلاقى فيها ذكريات الماضي الطويل.

وصمم الشاعر على الهجرة، ولم يجد سبيلاً إلى الحياة الآمنة سواها، فهاجر إلى عدوة المغرب وهو في سن السابعة والعشرين أو السادسة والعشرين على ما يقولون.

هاجر إذاً إلى المغرب عام ٣٤٧هـ، أو عام ٣٤٦، وبذلك انتهت

حياته الأولى التي قضاها في الأندلس، وانتهى به المطاف إلى دولة الفاطميين.

لم يكن الشاعر يحمل على كتفيه في هجرته مالا ولا نشباً، ولكنه كان يحمل في صدره عقيدة قوية، وعاطفة ملتزمة، وكان يحمل معه فنه وشاعريته ويسمى بهما قدماً إلى أبد غايات الطموح ومجد الحياة.

ويصور لنا ابن هانئ هذه الهجرة وذكرياتها وأسبابها وما لاقى خلالها من اضطهاد كاد يودي بحياته، في قصيدة من قصائده في المعز خليفة، قال فيها متحدثاً عن نفسه :

ومستكبر لم يشعر الذل نفسه أبي بأبكار المهاول فأتك
ولو علقته من أمية أحبل لجب سنام من بني الشعر تامك
ولما التقت أسيافاها ورماحها شراعاً وقد سدت علي المسالك
أجزت عليها عابراً وتركها كأن المنايا تحت جنبي أرائك
وما نعموا إلا قديم تشيعي فنجى هزبراً شده المتدارك

والشاعر في هذه القصيدة قوي العاطفة، متأجج الشعور، ولكن روحه الشعرية لم تخلص بعد من سمات التكلف الفني، ولم يخلص لها بعد الفن المطبوع. ويندفع ابن هانئ في تيار عواطفه، فيحمل على بني أمية الأندلسيين حملة ثائرة ساخطة، ويرميهم بالبخل والجبن وشتى الرذائل، يقول فيما يقول :

ولم تدم في حرب دروع أمية ولكنهم فيها الإماء العوارك
إذا حضروا المداح أنجل مادح وأظلم ديجور من الكفر حالك

إلى آخر ما يقول.

اتصال الشاعر بجوهر قائد المعز :

استقر الشاعر أخيراً في المغرب، أو على الأرجح في المهدية وطن والده الأول، من بين بلاد المغرب كافة، وأخذ ينتهز الفرص السانحة ليذيع شعره، ويظهر شاعريته، فساعدته الظروف على ما يريد.

كان ذلك على ما أرجح عام ٣٤٧هـ بعد انتصار جوهر على خصوم الدولة الفاطمية في سجلماسة وفاس ومكناسة وسواها من بلاد المغرب، وبعد أن قضى على الثائرين ووطد دعائم ملك الفاطميين في أطراف هذه البلاد. ورجع من هذه الأعمال الحربية ظافراً منصوراً.

ونظم ابن هانئ قصيدة ذكر فيها هذا الفتح وأثره، وجوهرأ وبعولته وحزمه، ومجده الحربي، وولائه للخليفة المعز، واصطفاء الخليفة له، ويقول فيها :

وأبيض من سر الخلافة واضح تجلى فكان الشمس في رونق الضحى
أريك به نهج الخلافة مهيباً يبين، وأعلام الخلافة وضحا

إلى آخر ما يقول، من قضائه على ثورات الثائرين، وقتل الخارجين على المعز. وذهب الشاعر القائد فأشدد قصيدته وسط جيشه ومعسكره، فسر بها القائد، ثم أمر للشاعر بهدية استقلها ابن هانئ، ولكنه أخذها إجابة لداعي الحاجة الملحة، وأنى تبلغ المائتي درهم من نفس ابن هانئ ما يريد؛ لقد كان يسمع أنباء الجوائز الطائلة التي كان ينفخ بها العظماء الشعراء. والتي تقلب حياتهم رأساً على عقب، وتدفعهم يعيشون في ظلال الترف والخفض والنعيم، ثم لم يجد ابن هانئ عند جوهر شيئاً مما كان ينشده من آمال كبار، فعلم انه لا يمت إلى أريحية العرب وسخائهم بصلة، وفكر في عظيم آخر يعيش في ظلاله، ويستقر في المغرب في رعايته.

ولكنه مع ذلك لم يقطع صلته بجوهر، ولم يسكت عن الإشادة

والتنويه به في قصائده، وكيف وجوه بطل العقيدة الفاطمية وموضع ثقة الخليفة، وقائده المظفر، ويده على الأعداء ؟

وفي ديوان الشاعر ظل للصلة المستمرة بين الشاعر والقائد، فقصيدته في وداع جوهر وهو سائر لفتح مصر عام ٣٥٨هـ، وقصيدته في فتح مصر وتهنئة المعز بهذا الفتح والثناء على جوهر قائده الفاتح المظفر، فهما أثر لبقاء هذه الصلات.

وفي الديوان أيضاً قصيدة نظمها ابن هانئ عام ٣٤٨هـ مدح بها المعز ووصف هدية قائده جوهر إليه، بعد تسخيره بلاد الغرب جميعاً، وتوطيد الملك الفاطمي فيها، ومطلعها :
ألا هكذا فليهد من قاد عسكرياً وأورد عن رأي الإمام وأصدرا

وهذه القصيدة أرجح أن الشاعر نظمها أثناء اتصاله الأول بجوهر، فقد يكون جوهر بعد هذا الفتح سعى بجيشه، وفي حاشيته ابن هانئ، لمقابلة المعز، وقدم إليه هديته، فنظم ابن هانئ هذه القصيدة في مدح المعز وقائده، ووصف هدية قائده إليه.

نستطيع من ذلك كله أن نقول إن الشاعر اتصل بجوهر في أواخر عام ٣٤٧، وظل في حاشيته عدة شهور، إلى ما بعد مطلع عام ٣٤٨هـ، ولكن صلات جوهر القليلة، دعتة إلى أن يقصد بشعره أحد الأمراء ليعيش في ظلاله، وفعلاً سار الشاعر ميمماً وجهه اميراً عرف بالبذل والسخاء، وبالاغداق على الأدباء والشعراء، فألقى رحاله في فئاته، وعاش أثيراً لديه، مقرباً عنده، وذلك هو أمير « الزاب » و « المسيلة » جعفر ابن علي.

الشاعر في الزاب :

عهد الخليفة المنصور الفاطمي في بدء توليه العرش عام ٣٣٤هـ إلى جعفر بن علي القائد الفاطمي بولاية الزاب والمسيلة، وأنزل معه أخاه يحيى بن علي يساعده في ولايته، وعني جعفر بأمر إقليمية، فبنى القصور والمنتزهات، وأقام له فيه سلطاناً ومجداً، وقصده العلماء والشعراء، وظل في ولاية هذا الإقليم حتى توفي الخليفة المنصور عام ٣٤١هـ، فأقره المعز علي ولايته لما جلس على العرش بعد وفاة أبيه.

وسمع ابن هانئ بأمر الأمير وجوده وأريحته، فهرع إليه عام ٣٤٨، يمدحه ويشيد بذكوره بقصيدة أرجح أنها القصيدة الخمسون في ديوان الشاعر، التي أفاض فيها في الثناء عليه، والإعجاب به، ووصف جهاده وبطولته، وأدابه السامية النبيلة، ومما يقول فيها :

خلقت شهاباً تضيء الخطوب ولست شهاباً يضيء الظلم
وإنك من معشر طفلهم ينسوج قبل بلوغ الحلم
تشيع فيكم لساني ومن تشيع في قوله لم يلم
ولست أبالي بأي بدأت بفخري بكم أو بمدحي لكم
فشملني لشملكم جامع وشعبي بشعبكم ملتئم

وابن هانئ في هذا البيت يريد أن يؤكد الصلة التي تجمع قومه الأزديين بقوم الأمير، ثم يقول :

حمدت لقاءك حمد الربيع وشممت نوالك شيم الديم

ثم يذكر عسف الزمان به، وتحالف الخطوب عليه، ويصور عفافه وبعد همته، اللذين كانا من أسباب محنته كما يقول، فيقول :
أذم إليك اعتوار الخطوب وصرف الحوادث فيما أذم
ومما أعان علي الزمان عفاف يدي وعلو الهمم
لساني من العرب الأكرمين وفي أول الدهر ضاع الكرم

وتلقى الأمير الشاعر بالتقدير والعطف، ودعاه إلى الإقامة في كتفه ورعايته، فامتثل ابن هاني في نشوة من البشر والفرح، وأقام في ظلاله يمدحه ويشيد بذكره، أو يمدح أخاه يحيى، أو ابنه إبراهيم.

وفي ظلال جعفر وأسرته عادت الطمأنينة إلى نفس الشاعر، فقد كفى شر الحاجة، وأمن غائلة الأحداث، وركن إلى ألوان من ترف الحياة ونعيمها وهدوئها وطمأنيتها، وفرغ الشاعر لفته وشعره، بعد أن كان قلبه نهياً موزعاً لا يفيق من آلام الحياة وخطوبها، لقد كان قبل اتصاله بجعفر يزجي لآماله السحاب، فلا ينجلي إلا عن سراب خادع، وسحاب مهدد :

قد كنت قبل نذاك أزجي عارضاً فأشيم منه الزبرج المنجبا
لم تدنني أرض إليك وإنما جفت السماء ففتحت أبوابا
وصارت الزاب عنده جنة النعيم :

إنما الزاب جنة الخلد فيها من نداءه غضارة التفويف
ولم لا ؟ وقد أخذ جعفر بضبعه، وأنقذه من صولة الخطوب :
صرفت عنان الشعر إلا إليكم وفيكم فاني ما استطعت له صرفا
أبا أحمد قد كان في الأرض موثلاً فلم أبغ لي ركناً سواك ولا كهفا
وما الشمس تكسو كل شيء شعاعها بأسيغ عندي من نذاك ولا أضفى
أخذت بضبعي والخطوب رواغم فسمت زماني كله خبطة حسفا
أمنت بك الأيام وهي مخوفة ولو بيدك الخلد أمنتني الحتفا

ويتحدث الشاعر عن نفسه وصنيع يحيى معه :

وما زلت ترميني الليالي بتبيلها وأرمني الليالي بالتجلد والصبر
وأنجدني يحيى على كل حادث وتوجني تاجاً من العز والفخر
فلا تسألاني عن زماني الذي خلا فو العصر إنني قبل يحيى لفي خسر
ولما حططت الرحل دون عراضه أخذت أمان الدهر من نوب الدهر
فداؤك حتى البدر في غسق الدجى متير أو حتى الشمس فضلاً عن البدر

إلى أن يقول :
أدعو إلهي بالسعادة عندكم
أبغى لديه طالبا ما كفته
أسرت بما أسديتمون صنيعه
فمهلا بني عمي وأعيان معشري
فلا ترهقوني بالمزيد فحسبكم
وأنتم دراري السعود التي تسري ؟
وأسأله السقيا ودجلة لي تجري ؟
وما خلتنكم ترضون للجار بالأسر
وأملك قومي والخضارم من تجري
وحسبي لديكم ما ترون من الوفر

ويقول فيه :
أطفأت عني زمتي بعد ما
فاليوم بدلت سنا من دجسي
واليوم يرقى أملتي صاعداً
وما وفي شكري ببعض الذي
أوقفت من جمر على حرق
واعترضت صفو العيش بالرنق
وماله غيرك من مرقسي
كسوتني من مفسر الصدق

وهكذا كانت مدائح ابن هانيء في جعفر وأسرته، وكانت كذلك
مراثيه البليغة في أمه وفي حفيده : ابن ابنه إبراهيم بن جعفر بن علي،
والتي تبلغ كلها سبعة وعشرين قصيدة، كانت جميعها تفيض عاطفة
وقوة وروحاً، وتصدر عن إخلاص ووفاء وشعور بأيادي هذه الأسرة
الكريمة عليه، وتقدير بعيد لحديدها به، ومعونتها الصادقة له في الحياة؛
ولعل في هذه الأبيات التي نظمها من قصيدة طويلة في جعفر، ما
ينم عن روح ابن هانيء وعواطفه نحو هذه الأسرة الكريمة :
خليلي أين الزاب عنا وجعفر وجنة خلد بنت عنها وكوثر ؟
فقبلي نأى عن جنة الخلد آدم فما راقه في ساعة الأرض منظر
خليلي ما الأيام إلا بجعفر وما الناس إلا جعفر، دام جعفر

لقد كان ابن هانيء قبل اتصاله بجعفر بائساً محروماً، ولا يجد
له نصيراً يخفف عنه عبء الحياة، وكان كثير الشكوى من زمنه
والأحداث التي كان يصيها عليه؛ فبدل بالشقاء نعيماً، ومحا بر أسرة

جعفر به ورعايتها له آلامه وبؤسه، فابتدأ حياة جديدة فيها أمل ورجاء؛
وطمأنينة وصفاء، ونعمة ورخاء.

وكانت شاعريته في هذه الفترة يقظة قوية مشبوبة، يثيرها في نفسه
إلهام الشباب وحوافز الأمل، والعزم على الظهور في هذا المجتمع الجديد،
وكثرة أيادي جعفر عليه. لقد كان في نضرة الشباب، ومتمعة الحياة،
وبهجة الأمل وكان يرى أن جعفر ليس بغريب عنه، ولا يقصي منه.
فهو من عنصره ونجاره وأصله القديم، ثم كان مع ذلك يعيش وسط
خصومات أدبية، أبطالها شعراء المغرب وأدباؤه الذين أحمل ذكركم
ابن هاني ونظمه الجيد الممتاز كانت كل هذه البواعث حافزاً له
على تجويد فنه، وصقل شعره، والإبداع في ما يسحر به من قريض،
فكان يخرج قصائده إخراجاً فنياً خلافاً. فتخرج وهي مستوية الأطراف،
جميلة السبك، جزلة اللفظ في عذوبة، يشيع فيها أثر التألق والتهديب
على أن الشاعر لم يكن مدفوعاً إلى ذلك كله ببواعث مادية صرفة،
بل كان يصدر عن عقيدة قوية غلابة. كان جعفر من أشد الذائدين
عن العقيدة الفاطمية وسلطانها السياسي، وهي العقيدة التي أخلص لها
الشاعر منتهى ما في وسعه من إخلاص. فمدحه وكأنه يمدح العقيدة
التي آمن بها، وكافح من أجلها طول الحياة.

ومهما كانت الأسباب فإن إنتاج الشاعر في هذه الفترة القصيرة
الحافلة كان بعيداً عن سمات التكلف، مصبوغاً بصبغة الشاعرية المطبوعة،
وبدأت تظهر فيه شخصية الشاعر الفنية بوضوح وجللاء، وتظهر فيه
كذلك صورة حياته التي خضعت لألوان الحياة الجديدة المترفة في
ظل جعفر وأسرته.

وعاش ابن هاني في الزاب نحو عامين، لم يكن همه فيها إلا
حضور مجلس الأمير والاتصال برجال الدولة، والمتعة بنعيم الحياة

وجمالها. وتصوير جوانب هذه الحياة كلها في شعره ومدائحها التي كان ينشدها الأمير وقومه.

ولم يكن ابن هانئ يشعر بأنه غريب في البيعة، ولا كانت أيادي جعفر عليه توقفه مواقف الهوان أو الذلة، ولا كانت قصائده فيه وسيلة للسؤال والاستجداء فحسب، بل كان يرى في صلات النسب بينه وبين جعفر حافزاً له على التنويه به، والإشادة بمآثره، ويرى فيها ما يعزز مكانته لديه، ويرفع مقامه عنده، أليست أسرة جعفر يمانية قحطانية يعبية، وأليست هي من بكر أحلاف قومه الأولين ؟ :
إننا لتجمعنا وهذا الحي من بكر أذمة سالف لم تخفر
أحلافنا فكأننا من نسبة ولداتنا فكأننا من عنصر

وكانت هذه الصلة البعيدة بين الشاعر والأمير ابن هانئ بروح ملؤها الشعور بالكرامة والعزة في ظل جعفر، وتؤيده بأسباب الحياة والقوة في تلك البيعة، وبين خصومه والحاقدين عليه من الأدباء والشعراء، كالوهراني كاتب الأمير الذي أحمله ابن هانئ، وصور الخصومات الأدبية التي نشأت بينهما في قصيدته التاسعة والعشرين التي هجا فيها الوهراني شر هجاء.

وأصبحت هذه الخصومات وسواها لا تضير الشاعر بشيء، ما دام قوم الأمير هم بنو عمه، وأعيان معشره، وأملاك قومه، والخضارم من نجره كما يقول.

وبعد فكنت أود أن أعرض آثار الشاعر الفنية في هذه الفترة القصيرة الزاهية في حياة الشاعر وفنه، وأحلل في إيجاز تراثه الفني في العهد الذي قضاه مع جعفر وأسرته، وآياته الحسان الرائعة في الإشادة به وبهم، ولكن كثرتها وضيق الكتاب عن أن يتسع لمثل هذا الاطناب يحولان بيني وبين ما أريد، فاذا ما أردنا أن نضع هذا الانتاج الفني

موضعه في تراث الشاعر الأدبي، فإنَّ حُكْمَنَا عليه أنه من روائع الآثار الأدبية في حياة ابن هانئ الفنية.

ونحن لا نعلم بعد، هل استقرت حياة الشاعر استقراراً قائماً على أساس الحياة العائلية فتزوج في هذه الفترة التي قضاها في الزاب أم لا؟ وعلى أي حال فقد سارت قصائد ابن هانئ في جمعقر وأسرتيه، وتحدث بها الناس ورواها الأدياء والرواة، وأنشدت في مجلس المعز وهو في القيروان، فأرسل إلى جمعقر يطلب منه ابن هانئ، وامتل الأمير الأمر، وأعد للخليفة هدية نفيسة أرسلها إليه، وكان فيها ابن هانئ الشاعر. بل كان هو أعلى ما فيها من نفائس.

الشاعر في عاصمة المعز :

وفي عام ٣٥٠هـ وصل الشاعر إلى القيروان عاصمة الخلافة الفاطمية، فسعى إلى الخليفة ومثل بين يديه، وأنشده شعره ومدائحه في الخليفة الخلافة وجلال الدولة وعظمة أبنائها، وتصوير عزها الشامخ، ومجدها المكين.

والتاريخ الأدبي والسياسي لا يرشدنا بالتحديد إلى العام الذي اتصل فيه الشاعر بالمعز، ولكن دراسة تراث ابن هانئ الشعري مدائحه للمعز، تهدينا إلى هذه الحقيقة المجهولة في ثنايا تاريخ ابن هانئ الأدبي المجهول.

وكذلك لا ترشدنا المصادر الأدبية على القطع واليقين إلى أول قصيدة أنشدها ابن هانئ في مجلس المعز الفاطمي لأول عهده بالمثل بين يديه، وسأذكر رأيي الذي أرجحه في ذلك.

لابن هانئ في المعز إحدى وعشرون قصيدة من أطول القصائد

الفنية وأبلغها، وتبلغ نحو نصف تراثه الأدبي، وقراءة هذه القصائد قراءة واسعة وتفهمها تفهماً تاريخياً، وتذوقها تذوقاً أدبياً يهدينا إلى كل ما نريد.

من بين قصائد الشاعر في الخليفة أربع قصائد تستوقف نظر الباحث المتمهل وتعطيه الدليل الملموس على رأيه في هذه المشكلات الأدبية.

فأولى هذه القصائد نظمها الشاعر عام ٣٤٨هـ في وصف هدية جوهر للمعز ومطلعها :

ألا هكذا فليهد من قاد عسكرياً وأورد عن رأي الإمام وأصدرا

وفيها يشيد بالخليفة وبجوهر ويصف هدية جوهر إليه، وهذه القصيدة قد تدفعنا إلى القول بأن اتصال ابن هانئ بالمعز كان عام ٣٤٨، لا عام ٣٥٠ كما نقول، ورأيت في ذلك أن هذه القصيدة نظمها الشاعر حين كان في حاشية جوهر لما التقى القائد بالخليفة بعد الظفر الحربي الذي ظفر به، فقدم إليه هديته النفيسة التي وصفها ابن هانئ في هذه القصيدة. وهذا رأي وجيه مقبول، فضلاً عن أنه يترك لابن هانئ عامين يقضيهما في الزاب وفي نظم قصائده المأثورة في جعفر بن علي وأسرته.

والقصيدة الثانية ذكر الديوان أنه قيل عنها إنها أول شعر مدح به ابن هانئ الخليفة المعز، وفيها يقول الشاعر :

ملك أناخ على الزمان بكلكل فأذل صعباً في القياد جموحا

ويحذر أعداءه سطوته ويشيد بانتصارات جيوشه فيقول :

وتصرت بالجيش اللهام وإنما أعددته قبل الفتوح فتوحا

يزجيه أروع لو يدافع باسمه علوي أفلاك السماء أزيحا

فكأنما ملك القضاء مقدرًا في كل أوب، والحمام متيحا

ويصف الأسرى وبؤسهم، وأسطول المعز وقوته، وتبني بني أمية لحركاته البحرية، ويذكر ماتمهم الذي تجاوزت به الدنيا، ورزء فقيدهم

الذي فقدوه، ويدعو إلى القضاء على دولتهم في الأندلس فيقول :
وأمية تحفي السؤال وما لمن أودى به الطوفان يذكر نوحا ؟
تجاوب الدنيا عليهم ماتما فكأنما صبحتهم تصيححا
ليسوا معايهم ورزء فقيدهم كاللابسات على الحداد مسوحا
أنفذ قضاء الله في أعدائه لتراح من أوتارها وتريحها

إلى أن يقول :

أعليك تختلف المناير بعدما جنحت إليك المشرقان جنوحا ؟
أم فيك تختلف الخلائق مرية كلا وقد وضع الصباح وضوحا
صورت من ملكوت ربك صورة وأمدها علما فكنت الروحا

والقصيدة قوية رائعة. ويتجلى من قراءتها أنها نظمت على أثر انتصار
حربي لجيوش المعز، ولكن لا ندرى في أي عام كان هذا الانتصار،
وتساءل : من هو هذا الفقيه الذي لبست أمية رزءه في الأندلس،
وتجاوبت بمأتمه الدنيا ؟ لم يفصح الشاعر بشيء، ولا يبعد عندي
أن يكون هو الملك الناصر الذي توفي عام ٣٥٠هـ، وإذا يكون تاريخ
القصيدة هو هذا التاريخ، وإذا صح أنها أول ما أنشده ابن هاني أمام
الخليفة. فيكون إذاً بدء اتصاله به هو عام ٣٥٠هـ.

والقصيدة الثالثة هي الكافية التي ذكر فيها هجرته وبواعثها، والتي
حللنا جانباً منها في هجرة الشاعر، وفيها يقول :
سقى الكوثر الخلدي دوحه هاشم وحيث معز الدين عنا الملائك
وما سار في الأرض العريضة ذكره ولكنه في مسلك الشمس سالك
وما كنه هذا النور تور جبينه ولكن نور الله فيه مشارك

ويذكر فيها ولاءه للفاطميين وهجرته في سبيل عقيدته الشيعية، ويدعو
المعز إلى القضاء على دولة بني أمية في الأندلس، ثم يذكر نفسه
وشعره، والخصومات الأدبية بينه وبين الشعراء والتي يصورها في قوله :

أرى شعراء الملك تنحت جانبي وتنبو عن الليث المخاض الأوارك
تخب إلى ميدان سبقي بطاؤها وتلك الظنون الكاذبات الأوافك
تسيء قوافيها، وجودك محسن وتنشد أرنانا ومجدك ضاحك
أبت لي سبيل القوم في الشعر همة طموح ونفس للدنية فارك
وما سرنني تأميل غير خليفة وأني للأرض العريضة مالك
خمول وإقتار وفي يدك الغنى فمحيًا فإني بين هاتين هالك

والقصيدة ليس فيها أي إشارة تاريخية تدل على تاريخها الأدبي، ولكنني أرى أنها من أوائل القصائد التي نظمها ابن هانئ في المعز، بل لا يبعد عندي أن تكون أو لها كلها، لأن ذكر هجرة الشاعر ووصفه لحالته، ودعاء الخليفة إلى العطف عليه والعناية به، وبيان إخلاصه لعقيدته، وأن هذا الإخلاص كان سبب محنته في الأندلس، كل هذا دليل على ما أقول، ويؤيده تصويره لهذه الخلاقات الأدبية التي نشبت بينه وبين شعراء الدولة، مما يرشدنا إلى أن القصيدة نظمت قبل أن يدغم مركز الشاعر في بلاط المعز.

أما القصيدة الرابعة فهي نونيته الساحرة. التي نالت إعجاب الخليفة، وكوفئ عليها الشاعر مكافأة طائلة بلغت خمسة عشر ألف دينار. وذكر الديوان أنه قد قيل إنها أول ما أنشده الشاعر بالقيروان من شعر في المعز ومطلعها :

هل من أعقة عالج يبرين أم منهما بقر الحدوج العين ؟

ويقول فيها :

هذا معد والخلائق كلها هذا المعز متوجا والدين
هذا ضمير النشأة الأولى التي بدأ الإله، وسرها المكنون

ويحرض فيها المعز على العبور إلى الأندلس والقضاء على دولة بني أمية فيها. والقصيدة رائعة، قوية في نظمها وفي روحها وفي العقيدة التي تملأ جوانبها بالحياة الفنية المشبوبة : وهي على أي حال من

أوائل القصائد التي نظمها ابن هانئ في المعز، إن لم نجزم بأنها أولها.

ونحن نرى أن القصيدة الأولى نظمت قبل اتصال الشاعر بالمعز بعامين، وأما القصائد الثلاث الباقية فقد نظمت كلها عام ٣٥٠هـ، وهو العام الذي اتصل فيه ابن هانئ بالمعز، وأول قصيدة أنشأها في مجلسه هي الكافية ثم تلتها الحائية ثم النونية؛ وهذا رأيي وإن كان لكل اختيار ما يريد بعد أن بسطنا البحث وفصلنا الكلام فيه.

وعلى أي حال فقد أقام ابن هانئ في فناء الخليفة، واستظل بظله، وعاش في القيروان عاصمة دولته، يروج ويغدو كل يوم إلى الخليفة، ينشر أمامه الثناء المحير والشعر الساحر، والقوافي البليغة، التي يشيد فيها بالدولة والخليفة، ويدعم حقها في تراث الرسول، ويدود عنها أعداءها من الأمويين والعباسيين، ويشدو بأيامها وانتصاراتها؛ كل هذا والخليفة يزيده عطفاً ورعاية وتمكيناً.

وبذلك ابتدأت صفحة جديدة في حياة الشاعر، فعاش في مجد العرش وظله، وبين سمع الزمان وبصره.

عصر المعز الفاطمي :

لاقى العلويون كثيراً من الاضطهاد في عهد الأمويين والعباسيين، وفر ليفهمهم إلى المغرب، فنشر دعواتهم الدعوة الشيعية في ربوعه، ودعوا الناس إلى بيعة المهدي المنتظر منهم، وأعلن أبو عبدالله الشيعي في آخر القرن الثالث الهجري عام ٢٩٦هـ ابتداء قيام الدولة الفاطمية، وأخرج عبدالله المهدي من الحيس وأقامه على ملك الفاطميين.

والدولة الفاطمية تنتهي في نسيها إلى فاطمة الزهراء، وكانت عاصمتها الأولى هي « المهديّة » التي تنسب إلى أول الخلفاء الفاطميين المهدي.

حكّم المهدي هذه الدولة الجديدة نحو ربيع قرن (٣٩٦-٣٢٢) هـ، ولما توفي خلفه على العرش ابنه القائم بأمر الله (٣٢٢-٣٣٤هـ) ثم خلفه بعد وفاته ابنه المنصور (٣٣٤-٣٤١هـ).

وكان ملك الفاطميين في أول أمره يشمل كثيراً من تونس وبعض أقاليم الجزائر وطرابلس، كما يشمل صقلية من جزر البحر الأبيض، ولكن الخلفاء الفاطميين دأبوا على التوسع والفتح، فضموا إلى دولتهم كثيراً من البلاد، ولقب المنصور نفسه بألقاب الخلافة لما رأى ضعف دولة بني العباس، وفي عام ٣٤١هـ توفي المنصور فخلفه على عرشه المعز الدين الله الفاطمي.. ولد المعز بالمهدية عام ٣١٨هـ، وبويع له بولاية العهد في آخر حياة أبيه، ثم سلم عليه بالخلافة في ٧ ذي الحجة عام ٣٤١هـ، ولقب نفسه أمير المؤمنين، وبابتداء حكمه ابتداء عهد جديد للفاطميين، وأخذوا يتوسعون في بسط نفوذهم السياسي والروحي في شتى الأقطار، على حساب الدولة العباسية في الشرق ودولة بني أمية في الغرب، بالرغم من المقاومة السياسية العنيفة التي كان العباسيون والأمويون يدأبون على إحاطة الدولة الفاطمية بها، وبرغم الجهود الحربية التي قام بها العباسيون والأمويون للحد من نشاط الفاطميين السياسي والحربي والقضاء عليهم كما كانوا يتمنون.

وجه المعز عنايته في أول عهده إلى تقوية جيشه وأسطوله قبلخ بهما ما أراد، وبدأ يناوش بأسطوله الأمويين في ثغور الأندلس، والروم في جزر البحر الأبيض، ثم حرك جيوشه بقيادة جوهر وسواه من القواد، فاجتاحت بلاد المغرب كافة ورفعت فوق ربوعها راية الفاطميين البيضاء، ووصلت إلى البحر المحيط ظافرة منصوراً عام ٣٥١، وفي عام ٣٥٤ قامت معارك حربية وبحرية هائلة بين جيش المعز وأسطوله وبين جيوش الروم وأساطيلهم البحرية، في صقلية وجنوب إيطاليا، وانتهت هذه المعارك بظفر كبير للمسلمين، وفي عام ٣٥٦هـ مات كافور الأخشيدي وسيف

الدولة الحمداني، وبدأت الدولة الاخشيدية في مصر والحمدانية في الشام تسييران إلى الاضمحلال والفاء، مما مهد السبيل للتوسع الفاطمي صوب الشرق، وفعلاً خرج جيش عظيم من القيروان عام ٣٥٨هـ، بقيادة جوهر لفتح مصر، فبلغ مصر ودخلها في منتصف شعبان سنة ٣٥٨هـ واختط جوهر القاهرة، وبنى الأزهر، وأرسل الجيوش إلى الشام، ودخل المعز القاهرة في منتصف رمضان سنة ٣٦٢هـ، واتخذها عاصمة لملكه الواسع الذي يسير من المحيط الأطلسي إلى القرات، وبذلك صار المعز أكبر حاكم لأعظم امبراطورية إسلامية عرفها القرن الرابع وظل في مصر حتى توفي عام ٣٦٥هـ، وخلفه على العرش ابنه العزيز.

هذا خلاصة التاريخ السياسي لعصر المعز الفاطمي، الذي كان كله عصر كفاح وجلاد، للفاطميين فيه أروع الذكريات وأمجد الانتصارات، وقد شاهد ابن هاني كثيراً من هذه الأحداث التاريخية العظيمة، واتصل بالمعز خلالها اتصالاً وثيقاً، ونظم فيها كثيراً من أروع قصائده وأعظم آياته، وتغنى بمجد الدولة، وناضل عنها خصومها السياسيين، فلتحدث إذاً عن التاريخ الأدبي لابن هاني في هذه الفترة فهو وحده صورة واضحة لعصر المعز، ولأحداثه التاريخية الحافلة.

ابن هاني شاعر المعز :

لم يكن ابن هاني في بلاط المعز شاعر الترف والتعيم الذي يستغرق في ملذاته وشهوته، ولا شاعر الفن الخالص الذي ينظم الفن للفن، دون أن يلقي نظره على الحياة العامة حوله، ودون أن يستمع لضجيجها، ودون أن تحدثه نفسه بأن يكون صورة للحياة التي يعيش فيها وللأحياء الذين يقومون بأداء رسالتهم في الحياة وفي تاريخ الإنسانية عامة. إنما كان شاعر الحياة بأوسع معانيها. كان شاعر الخليفة، والشاعر السياسي لدولة الخلافة الفاطمية، ينطق بمجدها، ويتحدث عن عظمتها

الروحية والسياسة والحربية، وكان يجد في عظمة المعز وعصره مجالاً فسيحاً ينظم الشعر فيه.

نعم إن قصائده كانت في أول اتصاله ببلاد المعز تدور حول إثبات وجود الشاعر والتمكين لنفسه ولشخصيته في الدولة، وتصوير آلامه والخطوب التي احتملها، وشكر أيادي الخليفة التي تغدق عليه المال والمطاء، ولكنها مع ذلك كله لم تخل من الحديث عن مجد الخلافة والدولة وعاهلها العظيم. وفي انتصارات الفاطميين الحربية والبحرية على الروم عام ٣٥١هـ إلى ٣٥٤هـ، نظم ابن هانئ كثيراً من القصائد الرائعة التي صور فيها هذه الانتصارات الباهرة أبلغ تصوير، ثم كان فتح مصر عام ٣٥٨ فألهم الشاعر بآيات ساحرة من القريض، ونظم ابن هانئ بعد ذلك قصائد هي صورة صادقة لما تلا ذلك من أحداث حتى وفاته عام ٣٦٢هـ.

وأصبح ابن هانئ في هذه الحقبة، أي من عام ٣٥٠هـ إلى عام ٣٦٢هـ، شاعر الخليفة، بما كان ينظمه في مدحه من آيات الشعر الخالد، وشاعر الدولة الذي وقف نفسه وفنه وشاعريته، على الדיاد عنها، والاشادة بمجدها وأيامها وبطولة جيشها، وانتصارات أسطولها الباهرة، واحتل في دولة المعز مكاناً لم يحتله سواه من الشعراء، وصار حديث الناس في المحافل العامة والخاصة، كما صار شعره أنشودة في كل فم، وأغنية في كل لسان، وحفل به الشيعة الفاطميون، وأولوه عنايتهم وإعجابهم البالغ، وكان لقصائده في المعز وأهل بيته العلوي منزلة خاصة في الأدب والتاريخ، لأنها سجلت أهم مظاهر الانتقال في حياة الدولة الفاطمية، وصورت الكثير من عقائد الفاطميين، وتقديسهم للخلافة وعاهلها، فوق مكانتها الأدبية الممتازة، وما امتازت به من الروعة والقوة ولدد الخصومة، وقوة العقيدة وحرارة الإيمان واشتعال العاطفة، فوق طموح الشاعر واعتداده بفنه وشخصيته فيها، فضلاً عن

أنها تمثل الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والعقلية والدينية والأدبية في عصر المعز.

وبعد، فقد كان ابن هانئ في هذه الفترة العظيمة التي قضاها في بلاط المعز شاعر الخليفة، والشاعر السياسي، وشاعر العقيدة الفاطمية بمبادئها الروحية وآرائها السياسية ومعتقداتها الدينية، وصارت شخصيته في هذا العهد أظهر شخصية بين الأدباء والشعراء وبين رجال الدولة والسياسة، وأغدق عليه المعز المال إغداقاً، وحسبك أن نؤنثه وحدها قد كافأه المعز عليها بخمسة عشر ألف دينار، ولنتنقل بعد ذلك إلى مرحلة جديدة من التحليل الأدبي لبعض قصائد الشاعر في هذه الفترة الحافلة.

لابن هانئ كثير من القصائد التي نظمها في المعز وتسمى « المعزيات »، و « معزيات » ابن هانئ هي قصائده التي أنشدتها المعز، والتي بينا مكانتها في الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع، وهي ثروة أدبية ضخمة، ومجد أدبي كبير لابن هانئ وفنه.

ومن هذه القصائد همزته التي هي أول قصيدة في ديوان الشاعر، مدح بها المعز هنأه بشهر رمضان، وقد بدأها بغزل ظهر في مطلعها بمظهر البداوة التقليدي في الغزل فصور الشاعر عزة قوم حبيته، وغلوهم في الغيرة عليها، وأشار إلى ذكريات التلاقي ومآسي الفراق، وإلى بعض مظاهر الجمال في خلقها، ثم خلص من ذلك إلى نفسه وإلى مدح الخليفة ووصف عقيدة الفاطميين فيه.

ثم وصف أسطوله وقوته، وسطوته على الأعداء، ويقول في هذه القصيدة :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما كانت الأشياء
من شعلة القيس التي عرضت على موسى وقد جارت به الظلماء
من معدن التقديس وهو سلالة من جوهر الملكوت وهو ضياء

من حيث يقتبس النهار لميصر وتشق عن مكنونها الأنبياء
ليست سماء الله ما ترونها لكن أرضاً تحويه سماء
نزلت ملائكة السماء بنصره وأطاعه الإصباح والإمساء
ويستمر في الإشادة به، مدفوعاً بعقيدته الفاطمية، مسائراً لإيمانه
الاسماعيلي، الذي يرى أن الأمام، أو قل الخليفة، سبب وجود
المخلوقات، وأنه من أكملها جسداً وروحاً، وأنه متصف بكل صفات
النبي، صلوات الله عليه، وهو معصوم عصمة الأنبياء، وأنه مظهر نور
الله، ويصح اتصافه بصفات الله ويشرق نورها عليه وفيه، وأن معرفته
وطاعته واجبة على جميع الناس، وأنه من معدن الرسالة التي خلقت
قبل الخلق، وانتقل خلال القرون حتى ظهرت في مظهرها العظيم في
شخصية محمد صلوات الله عليه، إلى غير ذلك من مظاهر تقديس
الشيعة لآل البيت ولأئمتهم العلويين، هذا التقديس الذي ارتفع إلى
مستواه الروحي العظيم. والقصيدة فياضة بروح اليقين والعقيدة. ومن
الجدير بالذكر أن شعر ابن هاني في المعز خاصة هو السجل الناطق
بعقيدة الفاطميين، وبآرائهم في الخلافة وتراثها، وشخصية الخليفة ونفوده
الروحي والديني، فراه يقول في هذه القصيدة :

هذا الشفيح لأمة يأتي بها	وجدوده لجدودها شفعاء
هذا أمين الله بين عباده	وبلاده إن عدت الأبناء
هذا الذي عطفت عليه مكة	وشعابها والركن والبطحاء
هذا الأغر الأزهر المتألق	المتدفق المتبلج الوضاء
فعله من سيما النبي دلالة	وعليه من نور الإله بهاء

ويقول في المعز من قصيدة أخرى :

هذا ضمير النشأة الأولى التي	بدأ الإله وسرها المكنون
من أجل هذا قدر المقدور في	أم الكتاب وكون التكوين
وبذا تلقى آدم من ربه	عفواً وفاء ليونس اليقطين

ويقول :

هذا الذي ترجى النجاة بحبه وبه يحط الإصر والأوزار
هذا الذي تجدي شفاعته غداً حقاً وتخمد أن تراه النار
من آل أحمد، كل فخر لم يكن ينمى اليهم ليس فيه فخار

ويقول :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار
أنت الذي كانت تبشرنا به في كتبها الأحبار والأخبار
شرفت بك الآفاق انقسمت بك الأرزاق والآجال والأعمار

ويقول فيه :

من يشهد القرآن فيه بفضله وتصدق التوراة والإنجيل
فأفخر فمن إنشائك الفردوس إن عدت ومن إحسانك التنزيل
وأرى الورى لغواً وأنت حقيقة ما يستوي المعلوم والمجهول

إلى غير ذلك مما تراه واضحاً في كل قصيدة من معزياته التي صور فيها عقيدته الفاطمية أبلغ تصوير، وأظهر ميادتها بكل وضوح وجللاء، وقد كانت أبياته هذه وما شابهها مجالاً كبيراً لخصوم الفاطميين، الذين غضوا من شعر ابن هاني وأزروا به ورموه بالكفر والبهتان.

وقد مكث الشاعر نحو أربع سنوات ينظم الشعر في المعز، يضمه عواطفه نحوه ونحو دولته، وأماله الواسعة بملك الفاطميين العالم الإسلامي، وقصائده في هذه الفترة خالية من ذكر المعارك الحربية والانتصارات الظاهرة؛ لأنه لم تقع فيها معارك ولا أحداث تاريخية كبيرة، ومن بين قصائده هذه قصيدة مدح بها المعز وهنأه بعيد الفطر، ووصف موكبته إلى المصلي، وجلالة هذا الموكب، والمظلة التي كانت تظله، والخيال التي امتطأها، إلى آخر ما ألم به الشاعر في هذه القصيدة من معاني وأغراض، ومطلعها :

قمن في مأتم علي العشاق ولبسن الحداد في الأحداق
ومسحن الفراق رقة شكوا هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دمع طليق ومهجة في وثاق
حاربتهم نوابب الدهر حتى آذنوا بالفراق قبل التلاقي

ويقول فيها في المعز :

قد جلا الفطر منه عن نبوي أبيض الوجه أبيض الأخلاق

والقصيدة صادرة عن ذوق مترف يناسب حياة الشاعر المترفة في ظلال الخليفة بعد أن ألقى الأعباء عن كاهله، ووطدت مكانته في الدولة، وهي تصور عهد الاستقرار السياسي الذي انتهت إليه دولة المعز، بعد توطيد دعائمها في المغرب، وبعد انتصاراتها العظيمة على الروم في صقلية والبحر الأبيض، أي عام ٣٥٤هـ.

ثم يدخل عام ٣٥٨هـ، فتبتدئ مرحلة جديدة في حياة الفاطميين، وكيانهم السياسي، ويسير جوهر بجيش لجب لفتح مصر؛ فيودعه ابن هانئ متمنياً له التوفيق في أغراضه الحربية والسياسية الكبيرة، فإذا ما عاد من تشييع جوهر وجيشه العظيم دخل على المعز ينشده أية من آياته، ينشده قصيدته التي مطلعها :

سقتني بما مجت شفاه الأراقم وعاتيني فيها شفار الصوارم
بدأها بالغزل التقليدي، ثم خلص منه إلى أناشيده في المعز فيقول :
فشيعت جيش النصر تشييع مز مع وودعته توديع غير مصارم
ثم يذكر الجيش وينوه بقائده تنويهاً بالغاً.

وبعد قليل يصل إلى المعز نبأ فتح مصر على يد قائده جوهر فيصور ابن هانئ الفتح وأنباءه ونتائجه السياسية تصويراً باهراً في قصيدة بالغة نهاية الروعة والسحر والبلاغة، وهي المثل الأول لقوة العقيدة في نفس

الشاعر، ولأثر هذه العقيدة في فنه الشعري الموهوب، ومطلعها :
يقول بنو العباس : هل فتحت مصر ؟ فقل لبني العباس : قد قضى الأمر

وقيل إن الشاعر بدأها بدعوة المعز إلى فتح بغداد :
تجهز إلى بغداد قد فتحت مصر وأنجز صرف الدهر ما وعد الدهر
تقول بنو العباس هل بلغ المدى فقل لبني العباس قد قضى الأمر

وهو يدل على طموح الفاطميين السياسي أبعد غايات الطموح،
ويسترسل ابن هاني في قصيدته استرسالاً جميلاً، فيصور الفتح وأثره
ومداه وما ترتب عليه من نتائج ويقرر حق الفاطميين في تراث الرسول،
ويذود عنهم خصومهم السياسيين، ويصف الجيش الفاتح، ودخوله
الإسكندرية، ورسول القاهرة إلى جوهر، ثم سيره إليها، وقضائه على
الدولة الإخشيدية، ويدعو الشاعر العالم الإسلامي إلى أن يستظل بلواء
الفاطميين، وأن يدخل في نطاقهم السياسي وإلا فالويل لمن يقف في
طريق السيل المنهمر، ويتهكم ببني العباس إلى أن يقول :

ألا تلکم الأرض العريضة أصبحت وما لبني العباس في عرضها فتر
فقد دالت الدنيا لآل محمد وقد جررت أذيالها الدولة البكر

ويشيد بالمعز ويده على العلويين :

من انتاشهم في كل شرق ومغرب فبدل أمتنا ذلك الخوف والذعر
فكسل إمام بجسيء كأنما على خده الشعري وفي وجهه البدر

ويشير بهذا الفتح العالم الإسلامي، لا سيما قلبه الخافق، البيت المحرم،
الذي يراه عما قريب سيكون في قبضة المعز وسلطانه، إلى أن يقول :
حبيب إلى بطحاء مكة موسم تحيي « معدا » فيه مكة والحجر

ويصور آثار الفتح، ويشيد بالخليفة، ويهتته به، في حرارة وقوة إيمان
ويصف الأمن والعدل اللذين سادا مصر على يد جوهر، وبنوه بجوهر
وأعماله ومجده وولائه إلى أن يقول :

رضينا لكم يا أهل مصر بدولة أطاع لكم في ظلها الأمن والوفر
لكم أسوة فينا قديما فلم يكن بأحوالنا عنكم خفاء ولا ستر
إلى أن يقول :

ألا إنما الأيام أيامك التي لك الشطر من نعماتها ولي الشطر
والقصيدة من أروع شعر ابن هانئ، ومعجزة من معجزات فنه الخالد.

ولما وطد الفاطميون مكاتهم في مصر عزموا على التوغل في الفتح
لأخذ الحجاز والشام والعراق، ويصور ابن هانئ ذلك في قصيدة له،
أشار فيها إلى اندفاع الفتح الفاطمي، وسيره في طريقه دون هوادة
وبشر الشرق بالمستقبل المرتقب على يد الفاطميين، وحفز عزيمة المعز
لفتح العراق والسير إليها، وأخذ الحجاز من أيدي العباسيين، ويقول فيها :
فربصوا فأنه منجز وعده قد آن للظلماء أن تتكشفوا
هذا المعز ابن النبي المصطفى سيذب عن قبر النبي المصطفى
وكأنني بلواء نصرك خافقاً قد حام بين المروتين ورفرفا
والقصيدة طويلة جميلة، وتاريخها الأدبي يمكننا أن نحدد له عام
٣٥٩هـ.

وفي عام ٣٦٠هـ قضى المعز على ابن الخرز الثائر في المغرب؛
والذي نقض عهد الطاعة للخلافة، وعاث في الأرض فساداً نحو عامين،
ولما قتل جلس المعز يستقبل نهائئ رجال دولته ثلاثة أيام، وكان
من بين النهائئ قصيد ابن هانئ التي مطلعها :
كدأبك ابن نبي الله لم يزل قتل الملوك ونقل الملك والدول
ذكر فيها مصرع الثائر، وصور الاستقرار السياسي للدولة في المغرب
بعد القضاء على ثورته، وأشاد بالمعز ولي عهده، إلى أن يقول :
ليعقد التاج هذا اليوم مفتخرا إن كان توج يوم سائر المشل
فيه الربيعان : من فصل الربيع ومن وقائع النصر تشفي من جوى الغلل

والقصيدة طويلة، تقارب المائة مع جودة وسحر، وهي كسابقاتها
دعاية قوية للدولة ومبادئها.

وفي عام ٣٦١هـ انتصرت جيوش المعز على القرامطة في الشام،
وبلغ هذا النصر المعز، فنظم ابن هانئ فيه قصيدته :
ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار

وهي قصيدة قوية مشرقة الديباجة ووصف فيها الشاعر جيش المعز
وانتصاره في « قرافس » بالشام على القرامطة، ووصف المعركة والخيل
التي اقتحمتها، والأبطال الذين كان لهم شرف النصر فيها، وأشاد
بالمعز لإشادة ساحرة، وناجح عن حق الدولة، وذاد عنها أعداءها من
العباسيين، وهي على أي حال من عيون الشعر، وتحتل مكانها الممتاز
في فن ابن هانئ، وقد نغم كثير من الناس على مطلعها، ولكن الشاعر
كان كما تمليه عقيدته عليه، وفي آخرها يقول للمعز : إن مصر صارت
محسودة منذ أن صرت قطينها :

ها إن مصر غداة صرت قطينها أخرى لتحسدها بك الأقطار

ولكن كيف ذلك مع أن ابن هانئ قتل والمعز سائر في طريقه
إليها عام ٣٦٢هـ ولما يبلغها بعد ؟ قد يكون الشاعر أراد غداة صرت
ملكها أو حاكمها مثلاً، وليس هذا بعيد، بل هو أقرب من أن نذهب
إلى أن البيت متحل على الشاعر وعلى الشعر، أو إلى أن القصيدة
نظمت والمعز سائر في الطريق.

بقيت من « معزيات » ابن هانئ قصيدة طويلة جداً، تبلغ مائتي
بيت، وهي أطول قصائد الشاعر، وقد قيل إنه نظمها وبعث بها إلى
المعز بالقاهرة وهو مقيم بالمغرب، وأنها آخر قصائده.. ومطلعها :
أصاحت فقالت : وقع أجرد شيطم

وقد نقد ابن رشيق هذا المطلع في عمدته^(١)، والقصيدة يبدوها
الشاعر بالغزل ثم يخلص إلى المعز ومدحه، ووصف جيشه وسيادته
وبطولته ومجده العريق، إلى أن يقول :

ألا إنما الأقدار طسوع بنانه فحاربه تحرب أو فسالمه تسلم
وما التمع التاج المفصل نظمه على ملك منه أجل وأعظم
ولا عجب أن كنت بالبطحاء خير متو ج فجدك بالبطحاء خير معمم
واشهد أن الدين أنت مناره وعروته الوثقى التي لم تفصم
قصاراك ملك الأرض لا ما يرونه من الحظ فيها والنصيب المقسم

ويستمر في تفاؤله لدولة المعز بسيادة العالم الإسلامي، ويصور حالة
الشرق وضعفه، واستبداد بني بويه بأمر الخلافة العباسية، إلى أن يقول :

سوام رناع بين جهل وحيرة ومملك مضاع بين ترك وديلم
ويهدد بني أمية بانتقام الفاطميين، ويطلب من الخليفة أن يحسم
دأهم، ويستمر في تهكمه بهم، وفي الإشادة بأل البيت، إلى أن يقول :

لئن كان لي عن ودكم متأخر فما لي عن التوحيد من متقدم
ولولا قطين في قصى من النوى لما كان لي في الزاب من متلوم
يقول : لولا أهلي بالزاب لما كان لي دائماً مستقر سوى مستقركم..
وعندي على بعد المزار وتأيه قصائد تترى كالجمان المنظم
إذا أشأمت كانت لبانة معرق وإن عرقت كانت لبانة مشعم
تطاول عن أقدار قوم جلالة وتصغر عن قدر الأمام المعظم

ثم يقول :

ولما تلقنتك المواسم انفسا تربصت حتى جفت فردا بموسم
ليعلم أهل الشرق والغرب أنني بنفسى لا بالوفد كان تقدمي

(١) العمدة لابن رشيق ٨١/١.

والقصيدة قوية جميلة مبدعة وأستبعد أنها أرسلت للمعز في مصر، لأن المعز وصل الاسكندرية في شعبان، والقاهرة في رمضان عام ٦٢٣، والشاعر كان مصرعه في رجب من هذه السنة، فإما أن يكون ابن هانئ أرسلها بعد فراقه المعز وقبل أن يصل المعز مصر، وإما أن يكون قد أرسلها إليها والمعز في برقة يرتب أمور الدولة قبل رحيله إلى القاهرة، وقد دخل المعز برقة في شوال عام ٥٦١ هـ. ولم يرحل عنها إلا بعد أربعة أشهر أو يزيد، واعتذر الشاعر للمعز في القصيدة عن عدم مصاحبته له في رحلته إلى مصر بأن أهله تركهم في الزاب، ولولا ذلك لما كان له في الزاب أمل ولا حاجة، وذلك غير بعيد، ولا يبعد أيضاً أن يكون الشاعر نظمها وهو مسافر إلى الزاب لزيارة أهله وأصدقائه، وأرسلها إلى المعز في عاصمته بالقيروان قبل أن يرحل إلى مصر، وذلك أيضاً غير بعيد.

وأخيراً فهذا أهم معزيات ابن هانئ الساحرة، التي نظمها في الإشادة بالمعز ودولته وفي الدفاع عن حق الفاطميين في الخلافة، ومناضلة أعدائهم من الأمويين والعباسيين وسواهم من الثائرين والروم، وهي قصائد تحتل في الأدب العربي مكانها الرفيع.

شاعرية ابن هانئ وشعره :

١ — كان ليبة الأندلس المترفة، وحضارتها الزاهية في عهد الناصر، وللمنافسة السياسية بين بغداد وقرطبة والمهدية، كان لذلك أثر في ازدهار الأدب والشعر في الأندلس الوطن الأول للشاعر، ثم كان لتنوع مظاهر الحياة والطبيعة في الأندلس أثر في تلوين الشعر بلون خاص، شاع فيه الوصف، ودقة التصوير، وتنقل الخيال، وسلاسة الأسلوب، والتأنق في الأداء، وأوحت هذه الحياة الشاعرة إلى الأندلسيين روح الشعر وإلهام القريض فنظموه فناً يتحدث عن البيعة ومشاهدها، والعواطف

وأسرارها، والمجتمع وحياته، والشعراء وحياتهم الخاصة التي كانوا يحيونها، والآمال واللذات والمشاعر التي كانت تجيش بها نفوسهم، وتختلج بها صدورهم. وأصح هذا الشعر يمثل جانبيين واضحين في الشعر الأندلسي : أحدهما طبيعة البادية التي كانت ما تزال نفوس العرب في الأندلس تحن إليها، وتؤمن بها، وتسير على نهجها في التفكير والمعرفة والأخلاق؛ والثاني طبيعة الحضارة التي كانوا يعيشون فيها، والترف الذي يملأ حياتهم، والجمال الذي كان يتيم قلوبهم ويسحر أبصارهم في كل واد وبقعة من بقاع الأندلس الغارقة في الشعر والسحر والجمال.

ويمثل هذا الاتجاه الفني في الشعر الأندلسي قبل ابن هانيئ بقليل، ابن عبد ربه أديب الأندلس وشاعرها ومؤلفها، والمتوفي عام ٣٢٨هـ في عهد الناصر، أي بعد ثمانية أعوام من ميلاد ابن هانيئ. وقد حفل «العقد الفريد» لابن عبد ربه بثقوى المقطوعات والقصائد الشعرية، التي نظمها، والتي صور فيها ألوان الجمال في بيئة الأندلس الساحرة، والتي صيغت في أسلوب عذب جميل، يكاد يسيل رقة وجمالاً وخصباً.

وفي هذا الوسط الأدبي نشأ ابن هانيئ، واستمد ثقافته الأدبية، ونظم القريض، واتصل بالحياة في إشبيلية وفي قصر أميرها، فهل كان شعره صورة لهذه البيئة الاجتماعية والأدبية التي نشأ فيها وعاش في ظلها؟

لا يستطيع الباحث الإجابة على هذا السؤال، لأن شعر الشاعر في الفترة التي قضاها في وطنه حتى هجرته منه إلى بلاد المغرب وهو في سن السابعة والعشرين، قد ضاع كله ولم يبق منه أثر قليل أو كثير.

ومع هذا فنستطيع أن نقيس فن ابن هانيئ، قبل هجرته بفن الذي نظمته بعد هجرته مباشرة، ونستطيع أن نقول على ضوء هذا القياس : إن الفن الأدبي للشاعر في الأندلس لم يكن يصور بيئته، ولا يجاري

فن أمثاله من الشعراء الأندلسيين ولا يساير روح الترف الأدبي والحضارة الفنية في الأندلسي وطن الشاعر، فما السر في ذلك وما السبب فيه ؟

لعل مرجع ذلك إلى أن شخصية الشاعر الفنية لم تكن ظهرت بعد في إنتاجه الفني، إنما كان مقلداً لسواه من الشعراء، لم يقلد المحدثين منهم، الذي يجاري أدبهم وفنهم روح الحياة والحضارة في القرن الرابع الهجري، وإنما قلد الشعراء الجاهليين الذي عكف على حفظ أشعارهم، وتأثر بها في إنتاجه ونزعاته في فهم الفن؛ وفي نظم القريض، طول هذه الفترة.

٢ — وهاجر الشاعر إلى المغرب فقضى في ربوعه خمسة عشر عاماً، كل ثروته الشعرية هي من إنتاجه الأدبي في هذه الفترة الصغيرة في حياة الشاعر، وليس من المعقول أن يكون ابن هاني قد تأثر في شعره وشاعريته بشيء ما في حياته بالمغرب، نعم، لم يتأثر بأي مؤثر أدبي فيه؛ وإنما تأثر بأشياء أخرى لا تمت إلى طبيعة الفن بصلة ما، تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية في المغرب، وظهر هذا الأثر في شعره واضحاً جلياً، أما فنه وروحه الشعري واتجاهه في نظم القريض فلم يتغير بأي حال، ذلك أن بيئة المغرب لم تكن إلى ذلك الحين بيئة أدب وفن، يقومون على اتجاهات أدبية مستمدة من عوامل البيئة وأثرها وإنما كانت بيئة كفاح وجلاد بين شتى القوى السياسية في العالم الإسلامي إبان ذلك. وكان الأدب والفن فيها يسيران على نهج الأدب والفن في قرطبة وبغداد؛ ولقد وفد الشاعر على هذه البيئة وهو تام الأداة، موفور الملكات، ناضج الاستعداد، فشد بالشرع في المغرب كما كان يشدو به في الأندلس فناً وبياناً وأسلوباً وخيالاً ومعاني ونزعات، اللهم إلا أن الشاعر قد بدأت شخصيته الفنية تأخذ مكانها الأدبي الواضح في إنتاجه وشعره، وأخذت سمات التكلف الفني تتلاشى من قصائده بتلاشي روح التقليد الأدبي من نفسه، وبعد قليل من هجرة الشاعر

الى المغرب كانت شخصيته الأدبية قد استكملت عناصر استقلالها الفني، فظهر ذلك واضحاً ملموساً في شعره وقصائده، فليس إذاً بنا حاجة إلى البحث عن الحياة الأدبية في المغرب ومبلغ أثرها في نفس ابن هانئ، وإنما سنبحث عن مدى أثر ابن هانئ فيها. فذلك هو الملائم لانتجاه البحث في تراث ابن هانئ ونزعاته الأدبية.

إن شخصية الشاعر الفنية لم تتأثر بالحياة الأدبية في الأندلس، لأنه كان مشغولاً عن بيئته بروح التقليد المتأصلة في ثقافته الأدبية في شبابه ولم تتأثر كذلك بالحياة الأدبية في المغرب، لأنه كان قد ترك عصر التأثر الأدبي في حياته، ولأن هذه البيئة التي هاجر إليها لم تكن لها شخصيتها الأدبية المستقلة التي تمثل مذهباً أدبياً خاصاً.

٣ — ووفد ابن هانئ على المغرب، فوجد في شعراء، اتخذهم أنداداً لا أساتذة. كان من شعرائه علي التونسي الشاعر، الذي قال فيه ابن هانئ لما هجاه شعراء المغرب بعد هجرته : « لا أجيب منهم أحداً إلا أن يهجونني علي التونسي فأجيبه »^(١). وكان منهم عبدالله بن الحسن الجعفري، ومقداد بن الحسن الكتامي وسواهم من الشعراء. فماذا كان موقفه منهم ؟ وماذا كان موقفهم منه ؟

لقد بذ ابن هانئ بفته جميع هؤلاء الشعراء، فحسدوه ونقموا عليه ثم أخذوا في هجائه والزراية به وبفته. ولكن ابن هانئ عصفت بهؤلاء الشعراء جميعاً. وأحمل مكانتهم، فصاروا بعد قليل من بقائه في المغرب راعاً في دولة القريظ من حيث صار ابن هانئ أمير الشعر في المغرب كافة، وكان هجاء خصومه الشعراء له لا يزيده إلا إجادة وإبداعاً، وفتن الأمراء والخليفة بفته، ورآه الشاعر مؤلفاً من نظام كواكب : صنع يؤلف من نظام كواكب طلعت لغير كثير والأحوص

(١) العمدة لابن رشيق ٧١/١.

ويصور الشاعر اختلاف نزعاته الفنية والنفسية عن نزعات سواه من الشعراء فيقول :

أبت لي سبيل القوم في الشعر همة طموح ونفس للندية فارك

ويقول للمعز :

فإن أك محسوداً على حر مدحك فغير نكير في الزمان الأعاجيب
أفي كل عصر قلت فيه قصيدة علي لأهل الجهل لون وتثريب
أبن موضعي فيهم ليفخر غالب يبين بسيماء، ويدحر مغلوب
وقد أكثروا فاحكم حكومة فيصل ليحرب رب في القريض ومربوب

وقد حكم المعز له فأصبح شاعر الخليفة والدولة. وملك القريض في دولة الفاطميين. وجميع نقاد الأدب يسلمون لابن هانئ زعامة الشعر في المغرب كافة؛ ويقولون إنه لم يئده أحد من الشعراء في المغرب أو الأندلس، ممن سبقوه أو جاءوا بعده. ويرون أن فنه ارتفع بميزاته الخاصة والعامة عن مستوى الفن والشعراء في المغرب والأندلس، وأنه كان طبقة وحده في البلاغة الأدبية وفي الانتاج الشعري في شتى عصور المغرب الأدبية، وإن كان يرى بعض المحدثين أن ذلك أجحاف بأمثال ابن زيدون.. ورأى في ذلك أن ابن زيدون كان صورة من صور بيته الأدبية، أما ابن هانئ، فقد كان وحده بيعة أدبية خاصة، وشخصية فنية مستقلة بعيدة عن شخصية ابن زيدون وغير ابن زيدون، كما كان المتنبي شخصية فنية مستقلة، ولذلك قال النقاد : « ابن هانئ متنبى المغرب، وأبو الطيب متنبى المشرق ».

٤ — وقد وضع الشعراء في المغرب والأندلس فن ابن هانئ — بعد عصره — موضع الإكبار والتقدير، ونهجوا نهجه في مذاهب الشعر ومعانيه وخیالاته وأساليبه، وجعلوه مذهباً أدبياً لهم على مر العصور الأدبية، ونبغ شعراء في الأندلس والمغرب كابن الحداد وابن عائشة وسواهم من الشعراء الذين كانوا تلامذة له في فن الشعر ونظمه، مما

تراه مفصلاً في الذخيرة ونفح الطيب، وذلك مظهر لمكانته الرفيعة في الشعر في بلاد المغرب طول عهده بالحياة الأدبية.

مذهبه الشعري :

١ — الاتجاه الفني عند ابن هانئ ينزع إلى روح البداوة، التي تأثر بها فيما قرأ من شعر الجاهليين والإسلاميين، وهو كما يقول في أبي الفرج الشيباني كان ولا شك ممن لا يحتذي حذو المحدثين في اتجاههم الفني فينظم القريض، بل كان يرجع إلى الشعر الجاهلي بأنس به وينزع منزعه ويحاكيه، ويقول من قصيدته في الشيباني، وقوله في ممدوحه صورة لنفس نزعاته الأدبية التي سار عليها، يقول :

من لا يفاخر بالطائي^(١) في زمن ولا الخزاعي^(٢) في عصر الخزاعي
ولا الفرزدق أيضاً، والفخار له ولا جرير ولا الراعي التميمي
لكن بعلقة الفحل الذي زعموا في الشعر أو بامرئ القيس المراري

فهو لا يفاخر بالمحدثين كأبي تمام ودعبل، ولا بالإسلاميين كالفرزدق وجرير والراعي، ولكن يجعل فخره في الفن بعلقة و بامرئ القيس، وإن كان الفتح بن خاقان يذكر في مطمح الأنفس^(٣) أنه كان يتبع في أغراضه الفرزدق وجرير.

وبعد ف شعر الشاعر صورة لهذا الروح، وذلك بالاتجاه والنزعة الفنية، فهو لا يمثل ترف المحدثين ولهوهم وخيالهم الفني وإغراقهم في التصوير، وتهويلهم في التمثيل والخيال، وإنما يمثل روح الجد والإقدام والبداوة

(١) هو أبو تمام الشاعر م ٢٣١هـ.

(٢) هو دعبل الشاعر م ٢٤٩هـ.

(٣) ٨٤ المطمح.

والقوة والصدق في التصوير والتعبير. ومذهبه التي مطلعها :
أصاحت فقالت : وقع أجرد شيطم وشامت فقالت : لمع أبيض مخدم

التي حاكى بها معلقة عترة في روحها وأسلوبها واتجاهها الفني،
هذه المذهبة صدى لهذا الاتجاه. كما أن خلو شعره من آثار الإمعان
في المعاني والأخيلة كذلك أثر لهذا المذهب الشعري الذي نزع إليه
الشاعر، وكذلك هو في أسلوبه ينهج منهج الجاهليين في قوة الطبع
وضخامة الأسلوب وجزالة الألفاظ وإشراق الديباجة، وفي كثرة الأساليب
المختارة التي تمثل روح البداوة في التعبير والأداء، ولعل هذا الروح
أثر من آثار الوراثة فيه.

٢ — ومعاني الشعر عند ابن هانئ قريبة واضحة تشبه معاني
الاسلاميين، وإن كان الشاعر يحاول في أحيان كثيرة أن يبرزها بأسلوبه
وصنعته في مظهر جديد مبتكر.

وفي شعره ألوان من الخيال الواقعي المجرد. وقد يحيد الشاعر أحياناً
عن نهج الفن الواضح، فيمدح ممدوحه بالجمال، كما يقول في جعفر
ابن علي :

وسنان من وسن الملاحة طرفه وجفونه، سكران من خمر الصبا
يقول في أبي الفرج الشيباني وكأنه يغازله :

أهواه والصدعة السمراء تعذلني والقلب يدلي بعذر فيه عذري

وقد يقبح أحياناً في صوغ معانيه وتصويرها، كما يقول :
وأحمل أهامي على ظهر غارة وتحملني منها على مركب وعر

وبأخذ عليه كثير من النقاد مبالغاته، وإسرافه في معزياته، وقد سبق
أن أبتأ أن هذه المبالغة لا ترجع إلا إلى شيء واحد هو نفس العقيدة
الفاطمية التي اتخذها الشاعر مذهباً له في الدين والسياسة والاجتماع.

٣ - وأسلوب ابن هانئ له ميزاته الخاصة التي تميزه عن أساليب من سواه من الشعراء.

هو فيه بدوي جزل، يرق حيناً، ويبلغ في الجزالة والقوة والوحشية مبلغاً كبيراً أحياناً أخرى.

وكان في طبع ابن هانئ ميل إلى نوع من الغرابة والتكلف، حتى حسبه بعض النقاد من الشعراء الذين يبهرون بألفاظهم، ومن هؤلاء النقاد المعري وابن رشيق وابن خلكان.

وكثيراً ما ترى الشاعر قد عمد إلى التهويل والتفخيم، أو إلى الصنعة وتكلف أساليب البديع في شعره، فيجيد وتخفى قوة أسلوبه مظاهر التكلف في صناعته الفنية أحياناً، ويشذ عن الجودة طبعه وصناعته في أحيان أخرى.

وظاهرة واضحة في أسلوب ابن هانئ هي كثرة إطنابه وتفصيله، مما كان يؤدي به في بعض الأحيان إلى النزول عن مستواه الشعري، فتراه يكرر كثيراً من الصفات التي لا طائل تحتها والتي لاحظ فيها إلا إظهار مقدرة الشاعر اللغوية. وهذه الظاهرة سبب من أسباب طول نفسه في شعره، الذي امتاز به ابن هانئ، ويشاركه فيه ابن الرومي، إلا أن منشأه عند ابن الرومي المعنى وبسط الحديث فيه، وعند ابن هانئ الأغراض والبواعث الفنية التي نظم فيها وجانب اللفظ الذي كان يؤثره.

وأسلوبه علي العموم سليم مطبوع، لا يشذ منه عن سلامة الطبع إلا القليل جداً من أبياته، مثل قوله :

« لو كنت قبل تكون جامع شملنا » مما تلاحظ فيه أثر التعقيد، ومثل قوله :

ما كنت أحسب أن أرى بشراً كذا ليشا ولا درعا يسمى غابا

فكلمة « كذا » هنا نازلة مردودة في حكم الذوق الأدبي.

وهذا القليل النادر من الأبيات التي خان فيها ابن هاني طبع الشعر واستواء التأليف وقوة النظم، لا يكاد يقاس بشذوذ المتنبي في فنه، ولا بشذوذ غير المتنبي من الشعراء الممتازين.

وجودة ابتداءات القصائد، وحسن انتهائاته فيها، سمة لابن هاني في شعره، حتى ضرب المثل بمطلعه :

فتقت لكم ريح الجلال بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر

وقرن بمطلع معلقة امرئ القيس « قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل » في الجودة والجمال، وابن هاني فوق ذلك مجيد في اقتباسه من أساليب القرآن الكريم، ومجيد في حسن تخلصه إلى المدح في كثير من قصائده، ويمتاز أسلوبه بقوة البيان، وحسن السبك والتأليف، وقوة الارتباط بين أجزاء البيت الشعري، وتلاحم أجزاء القصيدة في شعره، كما يمتاز بخلوص شعره من سمات التعقيد والغموض معا، وتشيع في إنتاجه روح الطبع والشاعرية القوية، وفي أسلوبه كثير من الجمال في صورته البيانية في الاستعارة والنشبيه والمطابقة والمقابلة، ويشبه الممدوح بهذه الصور الشعرية المجتمعمة فيقول :

كيدر الدجي، كالشمس، كالفجر، كالضحى كصرف الردى، كاللث، كالنيت، كالبحر

وفي شعره أساليب مختارة كثيرة جيدة، تسير الطبع وتستدعي الإعجاب.

٤ — وموضوعات شعره، وأغراض القصيد عنده، كثيرة متنوعة : فمن مدح سياسي يشيد فيه الشاعر بالدولة ومبادئها ورجالاتها وأعمالها وأيامها ونفوذها الروحي ومستقبلها الباسم، مما كان يصدر عن عقيدة قوية، وعاطفة ممتلئة إيمانا بمبادئ الفاطميين، ولقد امتاز هذا الشعر

السياسي ، بكثير من المعاني الخصبية، كما امتاز بالقوة وسعة خيال الشاعر فيه. وهو في هذا الجانب الفني يضارع المتنبي.

ومن وصف رائع لجيوش الدولة وأساطيلها، ولأيامها وانتصاراتها، والمعارك العظيمة التي خاضتها، وللخيول التي كانت تقتحمها، وللأبطال المعلمين الذين كانوا يسيرون بالدول من مجد إلى مجد، ويكفلون هامتها فخاراً على فخار. نعم لم يكن ابن هانئ وصافاً للطبيعة، كما كان ابن المعتز وابن خفاجة، ولم يكن وصافاً للعواطف الإنسانية كما كان المتنبي وأبو العلاء، إنما كان وصافاً مجيداً لحياة النضال السياسي والحربي الذي شغل الدولة والناس في عصره وفي بيئته، أما أوصاف الشاعر التي لا تتصل بهذه الناحية، فهي كلها من الأوصاف التقليدية التي لا تمت إلى نفس ابن هانئ بصلة، وهو في كثير منها ناب عن الذوق والإجادة. كما في وصفه لرجل أكل، وكما في وصفه للراح ومجالسها وآلات الغناء التي تكون فيها، فهذه الأوصاف وسواها لا تبلغ شيئاً من وصفه الممتع البالغ حدّاً كبيراً من الجمال والسحر، عندما يصف الجيوش وآلات القتال والمعارك الحربية الضخمة. والشاعر في هذا يضارع أبا الطيب، فهما في هذه الناحية صنوان. ووصف ابن هانئ مقعم بألوان الخيال وصوره التي كان يستعين بها في تصوير المعنى الذي يريد.

وللشاعر هجاء ولكنه هجاء ضعيف، لأن الهجاء بعيد عن نفسيته النبيلة في الحياة، وكان إذا أراد أن يهجو صور من يهجوهم بالنفاق والكيد للدولة ومبادئها كما فعل مع الوهراني كاتب أمير الزاب، فهو هجاء سياسي لا غير، أما الهجاء الفني الذي نراه عند ابن الرومي مثلاً فليس للشاعر فيه نصيب.

ولابن هانئ غزل يبدأ به قصائده، ولكنه في جملة غزل تقليدي متكلف مألوف المعاني والأساليب، يكرر فيه ما سبق إليه من : تصوير

موقف الوداع وهول الجفاء والشكوى والرجاء، والأرق والبكاء، وبؤس المحب في حبه، وذكر طيف الخيال من محبوبته الذي يزوره أحياناً، وتشبيه حبيبته بالمها والظباء والغصون، وذكر أحوالها وأثر فتكها، وغيره أهلها عليها، إلى غير ذلك من المعاني المألوفة التي للشاعر فيها حسن الصوغ، ونظمها في أسلوب خلاب وعبارات بليغة، وفي الحق أن حياة ابن هاني وجهاده فيها وشغله بعمقيدته والدفاع عنها كان يحول بينه وبين الإجابة في النسيب، شأنه في ذلك شأن المتنبي، ومع بداوة في غزله التقليدي، فقد يرق حتى يأتي بالجديد الساحر، كما في قصيدته :

امسحوا عن ناظري كحل السهاد وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد

أو قصيدته :

قمن في مأتم علي العشاق ولبسن الحداد في الأحداق

أو قصيدته :

هل من أعقة عالج يبرين أم منهما بقر الحدوج العين ؟

أو قصيدته :

أمن أفقها ذاك السنا وتألقه يورقناً لو أن وجدا يورقه

وقد يتفلسف في حبه، فيذكر الشمل المبدد، والسعادة الزاهية، كما في قصيدته : هل أجل مما أؤمل عاجل ؟.

فليس ابن هاني من رجال الهوى العذري ولا من شعراء الحسن واللذة المترفين، وإنما هو في منزلة مقلد كثيره من الشعراء المقلدين، الذين قد يجيدون فيه وقد لا يجيدون.

ولابن هاني ثلاث قصائد جيدة في الرثاء. منها مرثيتان في والده جعفر بن علي أمير الزاب، ومطلعهما :

صدق الفناء وكذب العمر وجلا العظمت وبالغ النذر
ألا كل آت قريب المدى وكل حياة إلى منتهى
والمرثية الثالثة رثى بها طفلاً صغيراً من أحفاد جعفر بن علي،
ومطلعها :

وهب الدهر نفيساً فاسترد ربما جاد لئيم فحسد

والمرثيات الثلاثة فيها جودة، وفيها حكمة، وقد حاول بها ابن هانئ
أن يصل إلى منزلة المتنبي في حكمته الخالدة، ولكن المتنبي في ذلك،
لا يضارعه شاعر من الشعراء.

والحكمة على أي حال في شعر ابن هانئ قليلة متفرقة، وتكثر
في مراثيه، وهي حكم إجتماعية قريبة التناول مستمدة من أثر التجارب
العامة في الحياة..

وقصارى الحديث أن ابن هانئ أجاد في شعره السياسي، وفي مدحه،
وفي وصفه الحربي، وفي رثائه، ووقف متخلفاً في غزله وهجائه، وفي
خمرياته، وهو في حكمته لا يصل إلى منزلة حكمة أبي الطيب الخالدة
وإن كان يرسم لنا صورة كاملة لفلسفة الحياة العملية التي سبق أن
أشرنا إليها فيما مضى من بحوث.

٥ - وفي ابن هانئ يقول الفتح بن خاقان م ٥٢٦ هـ في كتابه
مطعم الأنفس : له نظم تمنى الثريا أن تتوج به، وبدائع يتحير فيها
ويحار، ويخال لرقتها أنها أسحار، اعتمد فيها التهذيب والتحرير، وأتبع
في أغراضه الفرزدق وجربير، وتشبيحاته خرق فيها المعتاد^(١).

ويقول فيه المعري م ٤٤٩ هـ في رسالة الغفران : « كان من شعراء
المغرب المجيدين وكان يغلو في مدح المعز غلواً عظيماً »^(٢) :

(١) ٨٤ مطعم الأنفس.

(٢) ١٥٤ رسالة الغفران نشر البارسي.

ويقول ابن خلكان م ٦٨١هـ : ليس في المغرب من هو في طبقته، لا من متقدميهم ولا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق، وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة^(١)، ثم نوه بنونته « هل من أعقبة عالج ييرين » وأخذ عليه إفراطه في المدح^(٢)، ويفتخر الشقندي أديب الأندلس به في مناظرة أدبية رواها نفع الطيب^(٣).

وأشاد به لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة^(٤)، وابن شرف في مقامته : « أعلام الكلام »^(٥).

وجعله ابن الأبار هو وابن دراج الشاعر الأندلسي نظيرين للمتنبي وأبي تمام^(٦) ونوه الحميدي بشعره، وأخذ عليه قعقعة ألفاظه^(٧)، وذلك رأى المعري فيه، وإن حمله ابن خلكان على فرط تعصبه للمتنبي^(٨).

وجعله ابن رشيق من الشعراء الذي يهرون بألفاظهم أكثر مما يهرون بمعانيهم^(٩). ونوه به الذهبي في تاريخ الإسلام^(١٠).

ويعجب ابن حجة الحموي في خزنة الأدب^(١١) بقصيدته :
فتقت لكم ربح الجلال يعتبر وأمدكم فلق الصباح المسفر

- (١) ٢ : ٥ ابن خلكان.
- (٢) ٢ : ١٤٠ الفج
- (٣) ٢ : ٢١٢ الإحاطة.
- (٤) أعلام الكلام ص ٢٦.
- (٥) ١٠٣ تكلمة الصلة.
- (٦) ٤١ جنوة المقتبس.
- (٧) ٢ : ٥ ابن خلكان.
- (٨) ١ : ٨٠ الممددة.
- (٩) تاريخ الإسلام ص ٨١.
- (١٠) راجع باب تعامل العارف في الخزنة.

ويراه ياقوت أشعر المغاربة ويجعله في المغرب نظير المتنبّي في المشرق^(١).

وذكره ابن أبي الحديد في نهج البلاغة، والعاملي في الكشكول والمقري في نفع الطيب^(٢)، وكثير من مؤرّخي الأدب في العصر الحديث.

وترجم فان كريم شعره إلى الألمانية، ورأى فيه قوة بيان وكثرة تمثيلات وجودة ألفاظ مما يعتبر من خصائص وأوصاف شعره؛ وذكره أيضاً هامر، وهوارت، وسواهما من المستشرقين.

وقد عني بشرح ديوانه شرحاً لغويّاً واسعاً الدكتور زاهد علي الهندي، وطبع هذا الشرح في مطبعة المعارف عام ١٣٥٢هـ في نحو تسعمائة صفحة، قدمها بمقدمة في حياته وتاريخه^(٣).

هذا هو كل ما كتب عن ابن هانئ في الأدب العربي على مر القرون.

(١) ٧ : ١٢٦ وما بعدها معجم الأدياء.

(٢) ٤٤٣-٤٥٠ : نفع الطيب.

(٣) ومن ديوان ابن هانئ نسخة خطية في مجلد بقلم نسخ في ١١٧ ورقة في مكتبة الأزهر (رقم ٥٠٠ أباطة - ٧٠٩٦)، راجع فهرس المكتبة الأزهرية ص ٩٢ ج ٥.

مختارات من شعر ابن هاني الأندلسي

قال في الحكم :

إننا - وفي آمال أنفسنا
لنرى بأعيننا مصارعنا
مما دهاننا أن حاضرننا
وإذا تدبرنا جوارحننا
لو كان للألياب ممتحن
أي الحياة ألد عيشتها
خرست لعمر الله ألسننا
هل ينفعني عز ذي يمن
ومقالتي المحمود شارده
ها إنها كأس يشمت بها
أفتترك الأيام تفعل ما
هلا بأيدينا أستتنا
فانبد وشيخا وارم ذا شطب
دينا تجمعنا، وأنفسنا
لو لم تربنا ناب حادثها
ما الدهر إلا ما نحاذره

طول، وفي أعمارنا قصر
لو كانت الألياب تعبر
أجفاننا والغائب الفكر
فأكلهنّ العين والنظر
ما عد منها السمع والبصر
من بعد علمي أنني بشر؟
لما تكلم فوقنا القدر
وحجولها، واليمن والغرر
ولساني الصمصامة الذكر
لا ملجأ منها ولا وزر
شاءت ولا تسطو فتصير؟
في حين نقذفها فتشتجر؟
لا البيض نافعة ولا السمير
شذر على أحكامها مذر
انا نراها كيف تأتمر
هفواته وهناته الكبر

وفيها يقول :

أقسمت لا يبقى صباح غد
تفنى النجوم الزهر طالعة
ولكن تبدت من مطالعها
ولكن سرى الفلك المدار بها

وفيها يقول :

وإذا صحبت العيش أوله
وإذا انتهيت إلى مدى أمل
ولخير عيش أنت لا بسه
ولكل حلبة سابق أمد
وجدود تعمير المعمر أن
والسيف يلبى وهو صاعقة
والمرء كالظل المديد ضحى

ثم يقول في ختامها :

غرض ترامى في الخطوب، فذا
فجزعت، حتى ليس بي جزع

متيلج وأحم معتكر
والنيران : الشمس والقمر
منظومة فلسوف تنتشر
فلسوف يسلمها وتنفطر

صفو، فهين بعده الكدر
دركا، فيوم واحد عمر
عيش جنى ثمراته الكبير
ولكل نهلة وارد صدر
يسمو صعوداً ثم ينحدر
وتنال منه الهام والقصر
والقسيء يحسره فيحسر

قوس، وذا سهم، وذا وتر
وحذرت، حتى ليس بي حذر

٢ - وقال في النسب :

امسحوا عن ناظري كحل السهاد
أو خذوا مني ما أعطيتكم
هل تجيرون محباً من هوى
أسلوا عنكم من هجركم
إنما كانت خطوب قبضت
فعلى الأيام من بعدكم
لا مزار منكم يدنو سوى

وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد
لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
أو تفكون أسيراً من صفاد ؟
قلما يسلو عن الماء الصوادي
فعدتنا عنكم احدى العوادي
ما على الظلماء من ليس الحداد
أن أرى أعلام هضب أو نجاد

ومنها :

قل تنويل خيال منكم
لم يزدنا القرب إلا هجرة
وإذا شاء زمان رابنا

٣ - وقال يصف أكله :

يا ليت شعري، إذا أومى إلى فمه
كأنها - وخبيث الزاد يضرهما -
تبارك الله ما أمضى أستنه
كأن بيت سلاح فيه مختزن
أين الأسنة أم أين الصوارم أم
كأنما الحمل المشوي في يده
لف الجداء بأيديها وأرجلها
وغادر البظ من مثنى وواحدة
يخفض الرز من قرن إلى قدم
كأنما كل ركن من طبائعه
كأنما في الحشا من حمل معدته
قوموا بنا فلقد ربت خواطرنا
نصحتكم، فخذوا من شذقه وزرا

٤ - وقال في وصف الخيل :

هضب، ولا اليد الحزون حزون
عرفت بساعة سبقها، لا أنها
وأجل علم البرق فيها أنها

٥ - وقال يمدح المعز :

تقول بنو العباس: «هل فتحت مصر»
وقد جاوز الإسكندرية جوهر
فقل لبني عباس: «قد قضى الأمر»
تطالعه البشرى، ويقدمه النصر

ومنها :
إمام رأيت الدين مرتبطاً به
أرى مدحه كالمدح لله إنه
وفيها يقول :
وما ضر مصرًا حين أَلقت قيادها
غداً جوهر فيها غمامة رحمة
كأنني به قد سار في القوم سيرة
ستحسدها فيها المشارق، انه
فطاعته فوز، وعصيانته خسِر
قنوت وتسيح يحط به الوزر
إليك، أمد النيل أم غاله جزر؟
يقي جانبيها كل جانبية تعرو
تود لها بغداد لو أنها مصر
سواء إذا ما حل في الأرض والقطر

ابن زيدون الشاعر

٣٩٤ - ١٥ رجب ٤٦٣ هـ : ١٠٠٣ - أبريل ١٠٧١ م

- ١ -

هو أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون المخزومي القرطبي^(١)، ولد بقرطبة ونشأ بها، وكان أبوع من وجوه الفقهاء وكبار القضاة، وكانت قرطبة في ذلك الوقت تزخر بالعلم والأدب، فدرس على أبيه وعلى علماء قرطبة وأدبائها الأدب، وحفظ كثيراً من الشعر والأخبار والسير والأمثال والحكم ومسائل اللغة ومباحثها، وأخذ يعالج فنون الأدب حتى برع فيها، فتم فضله، وذاع صيته، وارتفعت مكانته. واتصل بابن جهور أحد ملوك الطوائف، فاتخذه كاتباً ومشيراً، ثم أخذ يترقى في دولة ابن جهور حتى قلده منصب الوزارة واعتمد عليه في السفارات بينه وبين ملوك الأندلس فلقب بذئ الوزارتين، وصار يعمل على تحسين الصلات بينهم وبينه بذكائه ودهائه، إلى أن دبت عقارب السعاية بينهما، فنقم عليه ابن جهور وسجنه، فكتب إليه رسالة فريدة

(١) راجع : ابن زيدون للأستاذ حسن جاد، وابن زيدون للدكتور شوقي حنيف، وابن زيدون للأستاذ علي عبد العظيم، وديوان ابن زيدون - نشر كامل كيلاني.

يستمطر بها عفوه، فلم يلن له قلبه، ففر من سجنه ولجأ إلى المعتضد ابن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٤٨هـ، فاستخلصه لنفسه، وعول في أموره عليه، ثم وزر لابنه المعتضد، وقضى في إشبيلية بقية عمره. وقد ابتلى ابن زيدون وهو في قرطبة بحب ولادة بنت المستكفي أحد خلفاء بني أمية، وكانت مشهورة بالجمال والأدب، شاعرة سافرة؛ تساجل الشعراء، وتجادل العلماء، وكانت دارها نادياً من أندية قرطبة، يغشاها الأمراء والوزراء والأدباء والقادة، ومن هؤلاء ابن زيدون، وكانت فيه خفة روح وحسن دعابة وبراعة أدب، فسبق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحتله، وبادلته هي هذا الحب، فأذكى هذا الفوز نار الحسد في قلوب منافسيه ومزاحميه. فسعوا في إفساد ذات بينهما، واشتهر منهم الوزير ابن عيدوس فتزلف إلى ولادة في ساعة من ساعات مللها من ابن زيدون، وظفر برضاها ثم عاد الحب إلى مجراه الأول فرجعت إليه، فكتب ابن زيدون إلى ابن عيدوس رسالة هزلية على لسان ولادة أشبعه فيها تقييداً وسخرية، ضمنها كثيراً من الملح في الأدب والتاريخ.

ولابن زيدون طريقة في الكتابة متميزة جعلته في صدر الكتاب، وقد سبق ذكرها في الجزء الثالث، حين ذكرنا نشره والأدباء وقوامها :

١ — تضمين كتابة الأمثال والحكم والأشعار مع التألف والتناسق.

٢ — الإشارة إلى الحوادث التاريخية وأسماء الرجال المشهورين من الحكماء والأدباء والعلماء خلال كتابته.

٣ — استخدام الصناعة اللفظية في كتابته محاكاة لابن العميد زعيم هذه الطريقة في الشرق.

أما شعر ابن زيدون فيتميز بما يلي :

١ - شعره أنيق الوشي رقيق النسج قليل التكلف ينزع عن قوس الملكة السليمة، مشرق الديباجة، معسول الألفاظ متجاوب العبارة، خلعت عليه الملاحة أثوابها، وأعارته البراعة أبرادها، فجاء رشيقاً طلياً، وأنيقاً بهياً، يخلب العقول ويمجز الفحول، قد عرى من الغرابة والحوشية، وارتدى مطارف الإبانة السنية.

٢ - معانيه سنية دانية القطوف قريبة المورد لا يكد الذهن في فهمها، ولا يعتاص على العقل أمرها؛ لأنها معان منبعثة من أعماق الوجدان، قبض بها أوتار المشاعر الملتهبة والأحاسيس القياضة، وإذا أجلت في رياض شعره نفحك عبير شاعريته، وفتن فؤادك جمال عبقريته، تقرأ في شعره أجود ما خصت به الطبيعة الأندلسيين من وصف وخيال وتصوير دقيق وعرض أنيق.

٣ - يتجلى في شعر ابن زيدون خفة الروح والوزن الراقص المتجاوب، مع المعاني العاطفية والأفكار الوجدانية، فهو يتلطف باختيار الأوزان العذبة الجرس العالية الموسيقي، مما يجعل لشعره وقع الزلال من ذي الغلة الصادي.

٤ - سهولة قوله وعذوبة أسلوبه ورقة كلماته التي تجيب مساوقة للطبع متجاوبة مع السليقة. وقد تلاءمت عباراته مع أفكاره ومعانيه، من شكوى وأنين ولوعة واحترق وبعد وفراق وجفوة وشقاق.

٥ - ومن ثم شبهوا ابن زيدون بالبحري، كما شبهوا ابن هاني بالمتنبي فقالوا: بحري الغرب، كما قالوا متنبي المغرب، ومرد ذلك إلى تلك المنازع المشتركة بينهما من رقة الأسلوب واختيار الأوزان القصيرة الراقصة وصدق العاطفة والتزواج بين المعاني والعبارات.

ولم يكن شعر ابن زيدون ضرباً من التقليد والمحاكاة، بل كان من نمو ملكة الشعر في نفسه، ومن رغبته في التعبير عن كل ما يشعر به، وعملاً له صلة بحياته الخاصة. ولم تلبث الحوادث التي نزلت به، والأيام التي قضاها في السجن أن هاجت من نفسه، وولدت فيها تلك المعاني التي ذكرها. فكان شعره صحيفة من حياته النفسية، وصورة لما كان يجول بها من آلام وأحزان وحب وغرام. وكثيراً ما تقرأ شعره فتري فكره المضطرب، ونفسه الوثابة الحائرة، وتكاد تلمس كبره وخيلاءه وسخطه على أعدائه، وتجلده وصبره وهو يشكو ويشن من بلواه. كما في قصيدته التي يقول فيها :

ما على ظني بأس يجرح الدهر ويأسو
ربما أشرف بالمرء على الآمال يأس

وكثيراً ما كان يفخر بفضله، ويربأ بنفسه عن أن يكون ألعوبة في يد الحوادث، ويرى أن سبب تعسه حقد أعدائه عليه، لما اتصف به من فضل وعلم وكثير من شعره في هذا المعنى، كقوله :

لا يهني الشامت المرتاح خاطره أني معنى^(١) الأمانى ضائع الخطر^(٢)
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر ؟
إن طال في السجن إيداعي فلا عجب قد يودع الجفن حد الصارم^(٣) الذكر
قد كنت أحسبني والنجم في قرن^(٤) ففيم أصبحت منحطاً إلى العفر^(٥)؟

ويمدح فيمزج مدحه بالاستعطاف والعتب، وكثير من قصائده في استعطاف ابن جهور وهو في السجن صورة من صور اليأس الذي

(١) متعب بأمانيه.

(٢) الخطر قدر الرجل ومنزله.

(٣) الصارم : القاطع. وسيف ذكر : ذو ماء وبريق.

(٤) أي في منزلة واحدة.

(٥) التراب.

فتق من لسانه، وأثار في نفسه هذه العاصفة الشعرية المظلمة، التي هبت عليه فملاؤه همماً وغماً، إذ يقول وكأنك تسمع أنيه :
ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي ويطلب ثاري البرق منصلت النصل
وهلا أقامت أنجم الليل مأتما لتندب في الآفاق ما ضاع من نبلي
ولو أنصفتني وهي أشكال همتي لألقت بأيدي الذل لما رأيت ذلي
ولو أنني أسطع أن أرضي العدا شريت ببعض الحلم حظاً من الجهل
أما غزله فكثير، وكله يدل على سعة خياله وإخلاصه في حبه، وبث عواطفه وما يجول في نفسه، وأكثر معانيه مبتكر كقوله :

يا ليت شعري وعندني في الحب ما ليس عندك
هل طال ليلك بعندي كطول ليلي بعندك
سلني حياتي أهبها فلست أسلك ردك
الدهر عبيدي لما أصبحت في الحب عبدك

وقوله :

متى أبتك ما بي يا راحتي وعذابي ؟
متى ينوب لساني في شرحه عن عتابي
الشمس أنت توارت عن ناظري بالحجاب
ما البدر شف سنه على رقيق السحاب
إلا كوجهك لما أضاء تحت النقاب

— ٣ —

وديوان ابن زيدون ضخيم الحجم، متناول لجميع أغراض الشعر من مدح وثناء، وهجاء واستعطاف، ووصف وغزل، والغزل فيه قد ظفر بنصيب كبير، حتى لم يخل مطلع قصيدة منه، وقد يطول نفس الشاعر فيه، حتى يكاد يستغرق نصف القصيدة، وقد تكون القصيدة في

الاستعطاف، وهو إلى البكاء وندب الحظ أقرب منه إلى السرور واللهو اللذين يعثان الغزل، ويعيدان ذكرى الوصال، فيستهلها بالغزل وبطيل فيه على عادته، هذا إلى غزل مستقل لم يقله تابعاً لغرض آخر، وذلك كثير في شعره. وأشهر مثل له قصيدته التوثية.

ونستخلص من ذلك، غلبة هذا النوع من الشعر عليه، وكثرة دواعيه عنده، فهذه شارك فيها أبو الوليد بن زيدون، أبا عبادة البحتري، إذ أن البحتري — كما تعلم — مكثر من الغزل، يصدر به أغلب قصائده.

وخاصية أخرى يشتركان فيها. وهي أن كليهما أغرم بمحبوته، فذكرها في شعره وأطال ترداد اسمها في قوافيه، فابن زيدون أغرم بولادة التي ملكت عليه مشاعره، وكان صدها عنه وحرمانه من مجلسها، إحدى نكباته التي أطال منها الشكوى، وأكثر فيها الأنين، كما أغرم أبو عبادة بعلوة حبيبته بالشام. وليس يهمننا أن يكون حب البحتري صادقاً أو متصنعاً، وإنما يعنينا، أن يصدر الشاعر عن صورة ماثلة يرى بها ضروب الجمال، وأفانين الفتنة، فيحسن تصوير ذلك، فأما أن يكون خياله جامحاً شارداً غير صادر عن حقيقة، فذلك جدير أن يكون فيه صورة للغرام الجاد : وما مثل الشاعرين في ذلك الا كمثل المصورين، يصور أحدهما من خياله فيكون حائداً في كل ما يأتي، وقد يخلط من الألوان ما لا يتناسب فيه، ويصور الآخر من جمال ملموس له ظل في الوجود : فيحاكي في صورته الطبيعة ويعكس ظلها، وما أعظم الفرق بين الطبع والتكلف^(١).

وجهة أخرى قد توافي عليها الشاعران، وهي أنهما اشتركا في خفة الروح المناسبة للغزل فكانا يتلطفان باختيار الأوزان المرقصة لقصرها، كما في قول أبي الوليد :

(١) راجع الجزء الثالث من الأدب العربي وتاريخه — محمود مصطفي.

أنى أضيع عهدك أم كيف أخلف وعذك
وقد رأتك الأمانى رضا فلم تتعدك
يا ليت مالك عندي من الهوى لى عندك
فطال ليلك بعدي كطول ليلي بعذك
سلتي حياتي أهيا فلست أملك ردك
الدهر عيدي لما أصبحت في الحب عيدك

ومن قول أبي عيادة في مثل هذا :

عذيري من تنبيه إذا أدبر أو أقبل
ومن ورد بخديه إذا جمشته يخجل

ومما اتفقا كذلك فيه، أن سهولة قولهما « وعذوبة لفظهما، قد وافقتا مقام الغزل، فجاء شعرهما مساوفاً للسليقة، متمشياً مع الطبع، ولم تحل قساوة اللفظ وخشونته بينهما وبين ما يريدان، من إظهار اللوعة وذل الغرام والاحتراق بنار الجفوة.

— ٤ —

ومن مدح ابن زيدون لبني جهور، قوله في أبي الوليد، وهو نظم سري اللفظ، سني المعنى، دل في جملته على أنفة القائل واعترافه بالجميل، في عزة لم يباطئ معها رأسه، ولم يتدل ذلك التذلي، الذي يكون عند أكثر الشعراء، قال :

يا بني جهور الدنيا بكم حللت أيامها بعد المعطل
إنما دولتكم واسطة أهدت الحسن إلى عقد الدول
نحن من نعمائكم في زهرة جددت عهد الربيع المقتبل^(١)

(١) اقتل المرء أمره : استأنفه، والربيع المقتبل (بصيغة اسم المفعول) : المستأنف أي المنتظر.

طباب كانوا لنا أثناءها
 زهرت أخلاقكم فابتسمت
 أيها البحر الذي مهما تفض
 من لنا فيك يعيب واحد
 شرف تغنى عن المدح به
 أنا غرس في ثرى العلياء لو
 لي ذكر بالذي أسديته
 فليمت بالداء من حال فنى
 فوعى الحكمة عن قائلهم :
 أقبلت نعماك تهدي نفسها
 فقبلت اليد من يظن يد
 كلنا بلغ ما أمله
 وإذا ما رامك الدهر فقت
 وقال يستعطف ابن جهور :
 أبا الحزم ! إني في عتابك مائل
 حمائم شكوى صبحتك هوادلا
 جواد إذا استن الجياد إلى مدى
 ثوى صافنا في مربيظ الهون يشتكي

فكان الشمس حلت بالحمل
 كابتسام الورد عن لؤلؤ ظل
 بالندى يمتناه فالبحر وشل
 تحذر العين إذا الفضل كمل^(١)
 مثل ما يفنى عن الكحل الكحل
 أبطأت سقياك عنه لذبل
 نابه ود حسود لو حمل
 أدبته سير الناس الأول
 « أزم الصحة يلزمك العمل »
 لم أرع حظي منها بالحيل
 ظهرها الدهر محل للقبل
 فابلق الغاية من كل أمل
 وإذا رمت الأمانسي فنسل

إلى جانب تأوي إليه العلا سهل
 تناديك من آداب أفناني الهدل^(٢)
 تمطر فاستولي على أمد الخصل^(٣)
 بتصهاله ما ناله من أذى الشكل^(٤)

- (١) المعنى أن العين تخشى على المرء إذا كمل، فمن نطلب فيك عيباً لنا من عليك العين.
 (٢) هوادل : جمع هادلة أي حمامة ذات هدبل. هدل : جمع أهدل أي غصن متدل، يشبه شكايه إليه بحمامت تهدل على أغصان شجرة متهدلة.
 (٣) استن الجواد : أسرع. تمطرت الخيل جاءت يسبق بعضها بعضاً. يقال : أحرز حصه وأصاب حصه أي غلب، وأصل الخصل أن يقع السهم بلرق القرطاس.
 (٤) الصافن من الجياد : الذي يقوم على ثلاث قوائم، وطرف حافر الرابعة وهو علامة العتق. الشكل : شديد قوائم الدابة. وفي معنى البيت يقول أبو الطيب.
 وإن تكن محكمات الشكل تمنعني ظهور جري فني فهن تصهال

أفي العدل أن وافقت تتري رسائلي
أعدلك للجلي وآمل أن أرى
وما ذاك وعد النفس لي منك بالمعنى
لئن زعم الواشون ما ليس مزعماً
وأصدي إلى اسعافك السائب الجني
ولو أنني وافقت عمداً خطيئة
فلم أستتر حرب الفجار ولم أطلع
ومثلي قد تهفو به نشوة الصبا
وإني لتنهائي نهاي عن التي
ويقول :

بين وبينك ما لو شئت لم يضع
يا بائعاً حظه مني ولو بذلت
يكفيك أنك لو حملت قلبي ما
ته أحتمل واستطل أصبر وعزأهن
سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع
لي الحياة بحظي منه لم أبع
لا تستطيع قلوب الناس يستطع
وول أقبل وقل أسمع ومر أطلع
وقد أبدع في الغزل حيث يقول :

- (١) عذر كقدم : لم يثبت له عذر، والمعنى تقصر فلا يكون لك عذر تبديها، وأعذر من الأضداد بمعنى ثبت له عذر أو قصر، والمراد هنا هو الثاني.
- (٢) يقول : هل يكون جزائي أن أعطش، ولك إسعاف سائب وأبرز للشمس، أو أتعرض للضرر ولك ظل سائب وارف ؟
- (٣) الفجار : أربعة أيام كانت بين كنانة وهوازن. وإنما سميت فجاراً لأن العرب فجروا فيها فأحلوا القتال في الأشهر الحرم. وأشهر أيام الفجار الرابع، وكان سبه قتل اليراضي الكناني لعروة الرجال لما فضله كسرى عليه وأسند إليه إجارة عبر اللطيمة، وهي تجارة من القطف والطيب كان يبعث بها كسرى إلى بلاد العرب ويستبدل بها حاصلات تلك البلاد. وقد حضر النبي حرب يوم الفجار الرابع وكانت سنة أربع عشرة سنة، وقال فيها : « كنت أنبل على عمومتي يوم الفجار ورميت فيه بأسهم، وما أحب أني لم أكن فعلت ».

انتي ذكرتك بالزهراء مشتاقا
وللنسيم اعتلال في أصائله
والروض عن مائه الفضي ميتسم
يوم كأيام لذات لنا انصرمت
نلهو بما يستميل العين من زهر
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا
لو كان وفي المنى في جمعنا بكم
لا سكن الله قلباً عن ذكركم

والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا^(١)
كأنما رق لي فاعتل اشفاقا^(٢)
كما حلت عن اللبات أطواقا^(٣)
بتنا لها حين نام الدهر سراقا
جال الندى فيه حتى مال اعتاقا
إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا
لكان من أكرم الأيام اخلاقا
فلم يطر بجناح الشوق خفافا

ويقول : يصف موقف الوداع لولادة، وما في صدره من ألم، على
رضاء بالفراق حين ودع، ولم يتبع :

ودع الصبر مسح ودعك
يقرع السن على أن لم يكن
يا أخوا البدر سناء وسنى
ان يطل بعدك ليلي فلکم

ذائع من سره ما استودعك
زاد في تلك الخطا اذ شيعك
حفظ الله زمانا أطلسعك^(٤)
بت أشكو قصر الليل معك

وانظر إليه، وقد تلاعب باللفظ، وأتى بالقياس المحال ليرضي محبوبه،
فجعل نفسه مذنباً وهو مجنى عليه، وطالب الجاني بالصفح، مجاهر
باتهامه. وذلك في قوله :

يا قمرا مطلعته المخرب
ألزمتني الذنب الذي جنته
وإن من أغرب ما مر بي
قد ضاق بن في حبك المذهب
صدقت فاصفح أيها المذنب
أن عذابي فيك مستعذب

(١) الرجل الطلق الوجه : الضاحك المشرق، واليوم الطلق الذي ليس بحار ولا بارد،
والمعنيان صالحان هنا.
(٢) اعتل النسيم : هداً ولم يشتد. الأصائل أصيل وهو الوقت قرب الغروب.
(٣) اللبة : موضع القلادة من العنق.
(٤) السناء : الشرف والرفعة، والسنى : الضوء.

أما قصيدته الحاوية لمعاني حبه، المسجلة لشئى آلامه، الممثلة لآماله
في الحب وأحلامه، التي هي في شعر الأندلس كله نجم يتألق، وعلم
يخفق، فهي قوله يخاطب ولادة، ومطلعها :
أضحى التناهي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
ويقول في آخرها :

أولي وفاء وإن لم تبذلني صلة فالذكر يقنعنا والطيء يكفيننا
وفي الجواب « متاع » لو شفعت به بيض الأيادي التي ما زلت تولينا^١
عليك مني سلام الله ما بقيت صباية منك نخفيها وتخفيننا^٢
ومن مختارات شعره قوله :

كما تشاء فقل لي لست منتقلا لا تخش مني نسيانا ولا بدلا
وكيف ينسأك من لم يدرك بعدك ما طعم الحياة ولا بالبعد عنك سلا
أتلفتني كلفاً، أبليتني أسفاً قطعتني شغفاً أورتنتني عللا
إن كنت سحنت وأضمرت السلو فلا بلغت يا أملي من قربك الأمللا
والله لا علق نفسي بغيركم ولا اتخذت سواكم منكم بدلا

وقوله في بعض مجالس الأتس :

يا أيها الملك الجليل بل بكل ألسنتنا جلالك

(١) هذه رواية الديوان، الذي نشره الأستاذان : عبد الرحمن خليفة وكامل كيلاني. أما
رواية فلاذ العقيان فهي « قناع » ولا معنى لها، إذ يكون أصلها قناعه فحذفت التاء،
ولكن ذلك غير مأثوف، لذلك نرجع الرواية الأولى.
(٢) نخفيها وتخفيننا : الفعل الأول رباعي أو ثلاثي بمعنى ستر، والثاني ثلاثي بمعنى أظهر،
والمعنى إننا نحاول كنم ما عندنا من عشق وصباية، ولكنهما بدلان علينا، بما يتناها
من اضطراب وسقم ولوعة، فنحن نخفي الحب وهو يعلن أمرنا للناس.. ويكون أقرب
إلى الفهم، وأجرى على طريقة الشعراء في القول، أن يكون رباعين بمعنى ستر،
والمراد من إطفاء الصباية لهم أنها تحيل عليهم الهزل والسقم حتى لا تبين أشخاصهم !!
وقد تناول الشعراء هذا المعنى كثيراً، فقال المتنبي :

كفى بجسسي نحولاً أنتي رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

انظر إلى محتنا
نهر وروض نحن بيـ
قد زان ساحته احتلاك
نهما تفيأنا ظلالك

وقوله :

أدراها فقد حسن المجلس
ولا بأس إن كان ولي الربيع
فان خلال أبي عامر
وقد آن أن تترع الأكووس
إذا لم تجد فقهه الأنفس
بها يحضر الورد والرجس

وقوله :

جازيتني عن تمادي الوصل هجرانا
بأنه هل كان قلبي في الهوى خطأ
ما صح ودي إلا اعتل ودك لي
يا أئين الناس أعطافاً وأقتنهم
حسنت خلقاً فأحسن لا تسؤ خلقاً
وعن تمادي الأسي والشوق سلوانا
أم جتته عامداً ظلماً وعدوانا
ولا أطمعتك الا زدت عصيانا
لحظاً وأعطر أنفاساً وأردانا
ما خير ذي الحسن إن لم يول إحسانا

وقوله :

ولما التقينا للوداع غدية وقد
وقرنت الجرد العناق وصفقت
بكينا دماً حتى كأن عيوننا
وكنا نرجي الأوب بعد ثلاثة
خفقت في ساحة القصر رايات
طبول ولاحت للفراق علامات
لجري الدموع الحمر فيها جراحات
فكيف وقد كانت عليها زيادات

وقوله :

وضح الحق المبين
ورأى الأعداء ما غـ
أملوا ما ليس يمني
وتمنوا أن يخود الـ
فاذا الغيب سليم
ونفسى الشك اليقين
رتهم منه الظنون
ورجوا ما لا يكون
مهد مولى لا يخون
وإذا الحب مصون

وقوله :

يا ظبية لطفت منى منازلها
حيى لك الناس طرا يشهدون به
لم يعزب الوصل فيما بيننا ابداً

وقوله :

ألا ليت شعري هل أصادف خلوة
رعى الله يوماً فيه أشكو صباي

وقوله :

يا غزالاً أصارني
لأنسى مذ هجرتني
ليت حظي إشارة
شافعي يا معذبي
كنت خلواً من الهوى
كان سري مكنما
ليس لي عنك مذهب

وقوله :

خنت عهدي ولم أحن
قائلاً هل مزائد
عدتي كنت للزما
أرخص البيع كيف شد
سوف تبلى بغيرنا

وقوله :

وليل أدمنا فيه شرب مدامة
وجاءت نجوم الصبح تضرب في الدجا
إلى أن بدا للصبح في الليل تأثير
فولت نجوم الليل والليل مقهور

فحزنا من اللذات أطيب طيها
خلا أنه لو طال دامت مسرتي
ولم يعرنا هم ولا عاق تكدير
ولكن ليالي الوصل فيهن تقصير
وقوله :

كم ذا أريد ولا أريد؟
أصفي الوداد مدلا
يا سوء ما لقي الفؤاد
لم يصف لي منه الوداد
يقضي علي دلالة
في كل حين أو يكاد
كيف السلو عن الذي
مشواه من قلبي السواد ؟

محنة ابن زيدون كما يصورها في شعره

- ١ -

ألف عام أو يزيد...

مضت على ميلاد الشاعر الخالد، وابن قرطبة العظيم، أبو الوليد أحمد
ابن زيدون...

ويا لها من ذكرى، ويا له من تاريخ، كل صفحاته مشرقة بالطموح
والأمل، وبالحرمان والألم، وبالمجد والعقيرة.

شاعر حاربه الأيام، وجللت صفحات حياته وشعره أسمى المحن
والآلام وعاش يطوي سنى حياته عاماً بعد عام، في محن وعداوات
وغربة عن الوطن^(١).

وكائن رامت الأيا م ترويعي فلم ارتع
إذا صابتني الجلى تجلت عن فتي أروع
على ما فات لا يأسى ومما ناب لا يجزع

وقد ظلت المحن تلاحق الشاعر طيلة حياته يوماً بعد يوم، وعماماً
أثر عام وكان لهذه المحن القاسيات أثرها الكبير في حياة الشاعر وفنه.

(١) الديوان ص ٧١، ٧٢ تحقيق سيد كيلاني - طبع مصطفى الحلبي بالقاهرة.

أما في حياته : فهذا واضح كل الوضوح مما سنذكر نبأه بعد قليل
ويقول الشاعر فيه :
وهو الدهر ليس ينفك ينجو بالمصائب العظيم نحو العظيم
وأما في فنه :

فلقد انطلقت بأروع الشعر في الحنين والأنين، والهمته خوالد القصائد
العذرية الرومانسية الجميلة في الحب والغزل وأوحت اليه بأدب وجداني
عميق عبر فيه الشاعر عن نفسه وذاته ومشاعره وعواطفه أبلغ تعبير،
وكذلك انطقته بروائع القصائد في المدح والاعتذار والشكوى، وجعلته
أرق الناس ديباجة واعذبهم صياغة وأجملهم أسلوباً، بل جعلت منه
أعظم شاعر قديم اتجته الأندلس كما يراه غومس وجب وفيليب^(١)
حتى، عد أكبر شعراء العصر الكلاسيكي الأندلسي الثاني وتميز شعره
بتزعة انسانية عالية كما يرى ليفي برفنسال^(٢)، وصار ممثلاً لأنقى
أسلوب عربي في الأندلس ومن الممكن موازنته بالمتنبي والبحتري كما
يقول نيكل.

— ٢ —

لقد عاش ابن قرطبة النبيل وشاعرها الكبير طفولة مترفة في حياة
والديه الرؤومين: أبيه الجليل، فقيه قرطبة وعالمها، عبدالله بن أحمد
ابن غالب بن زيدون المخزومي الذي وصفه المؤرخون بالنباهة والجلالة
والمعرفة باللغة والآداب^(٣) و أمه الحنون السيدة التقية الجليلة، ابنة

(١) ٦٦٤/٢ تاريخ العرب المطول لحتي.

(٢) ١٥ سلسلة محاضرات في تاريخ الأندلس.

(٣) ٢٥٤ الصلة لابن بشكوال (١٥٧٨هـ) طبع مدريد ١٨٨٢، ٤٤٥/٢ التكملة لكتاب
الصلة لابن الأبار (١٦٥٩هـ) طبع مدريد ١٨٨٧.

القاضي ابي بكر محمد بن ابراهيم بن سعيد القيسي (٣٥٥-٤٣٢هـ)،
والتي رضع منها أفابوق الحنان وابتسم له في ظلها وجه الزمان.

ولكن القدر لم يترك له هذا الصفاء، ولا تلك السعادة، فمات الأب
الحاني وابنه الطفل في الحادية عشرة من عمره عام ٤٠٥هـ.

وكان لذلك اليتيم المبكر اثره العميق في حياة الشاعر، كما كان
أحد الأسباب في فلسفة الألم الذي نجده ماثلاً في شعره.

انه أول محنة امتحن به الشاعر في أول حياته... وعاش في كفالة
جده لأمه القاضي ابي بكر القيسي يتزود من مختلف ألوان الثقافة يزداد
واسع من المعارف والعلوم والآداب، على يد هذا الجد الجليل ابي
بكر (٣٥٥-٤٣٢هـ) وعلى يد استاذه ابي بكر مسلم بن أحمد النحوي
الأديب القرطبي المشهور (٣٧٦-٤٣٣هـ).

ومرت الأيام وابن زيدون الشاب يصعد نجمه ويتألق حظه، وترتفع
في دوائر الثقافة والأدب والشعر منزلته يوماً بعد يوم.

وفي الأزمات السياسية العنيفة التي مرت بقرطبة، وانتهت بانتها
الخلافة الأموية في الأندلس وقيام عصر ملوك الطوائف فيها، عام ٤٢٢هـ
نجد ابن زيدون يشارك في الأحداث، وتقوم في قرطبة الدولة الجهورية،
ويصبح الشاعر أحد أركانها يؤازره في ذلك كرم محتده، وشرف مولده،
وجلال مواهبه، وحدة ذكائه، وسعة ثقافته، وبلاغة أدبه وسحر شعره
وقوة شاعريته.. وأصبح احد وزراء ابي الحزم بن جمهور (٤٢٢-٤٣٥هـ)،
والصديق الحميم لولي عهده ابي الوليد بن حزم، وصار الملك القرطبي
أبو الحزم يدنيه منه، ويقربه اليه ويخصه بوده، ويمزجه بنفسه، وكتب
الشاعر فيه قصائد بليغة ذاتعة، وظلت صلة الشاعر بملكه على قوتها
ووثاقها عدة أعوام.

وفي هذه الأثناء بدأت صلته بولادة بنت الخليفة المستكفي (٣٩٠-٤٨٤هـ) ونظم ابن زيدون في قصة حبه أروع القصائد، وكانت ولادة فتاة مغامرة لها أهداف سياسية بعيدة خفيت على كل الباحثين، انها لم تكن تنشأ الحب، بل كانت تنشأ تدبير بعض المؤامرات من اجل بعث الخلافة الأموية من جديد، ووجدت في الوزير ابن زيدون عوناً لها على تحقيق مآربها السياسية في مساعدة الأمويين على إعادة عرش الخلافة الأموية الذي هوى، ولاين زيدون كذلك مآرب سياسية بعيدة وقد تمتع بلقب الوزير دون أن يسند اليه عمل، ودون أن ينال ما كان يتمناه من أمل، حتى لقد مدح الملك القرطبي أبا الحزم فقال :

مقامي في جواركم الذليل	وحدي في رجائكم الكليل
نصيب من ولايتكم كثير	وحظ من عنايتكم قليل
اتحيا أنفس الآمال فيكم	ولسي اثناءها أمل قتيل
واعجب حادث نظري لديكم	الى غلغل ^(١) النجاح وببي غليل
وقدحي في ودادكمو معلى	وباعي في اعتمادكمو طويل
أبأس من مساعفة الليالي	وانت الى نهايتها سييل ^(٢)

مما يدل على أن صلته بمليكه بدأ الوهن يتطرق إليها، ولاين زيدون كذلك صلوات بالبيت الأموي، وله في تاريخ الخلافة الأموية في الأندلس كتاب^(٣) ثم كان هواه هو ولادة الأميرة الأموية الشاعرة الساحرة :

- (١) الغلل : السيل الضعيف.
(٢) الديوان ص ١٧ و ١٨ تحقيق محمد سيد كيلاني — ونشر مطبعة مصطفى الحلبي.
(٣) سماه التبيين (١٢٣/٢) نفع الطيب، طبع ليدن ١٨٥٥-١٨٦١) — ويذكر بروكلمان أن في المتحف البريطاني نسخة منه برقم ١٠٧٤ وان في مكتبة بودلينا باكسفورد نسخة أخرى برقم ١٣١٨ (راجع الملحق الأول لكتاب بروكلمان في تاريخ الآداب العربية) — ولكن الدكتور علي عبد العظيم يقرر أن الموجود بالمتحف البريطاني =

ربيب ملك كأن الله أنشأه مسكاً، وقدر انشاء الوري طينا
كانت له الشمس ظفرا في أكلته بل ما تجلى لها الا أحيانا
كانما أثبتت في صحن وجنته زهر الكواكب تعويذا وتزيينا^(١)

ويقص ابن زيدون قصة حبه لولادة، من بدئها لختامها فيقول^(٢) :
لما اتصلت اتصال الخلب بالكبد ثم امتزجت امتزاج الروح بالجسد
ساء الوشاة مكاني فيك واتقدت في صدر كل عدو جمرة الحسد
فليسخط الناس لأهدى الرضالهمو ولا يضع لك عهد آخر الأبد
ويقول^(٣) :

والله ما ساءني اني خفيت ضني بل ساءني أن سِرِّي بالضني عَنُّ
لو كان أمري في كتم الهوى بيدي ما كان يعلم ما في قلبي البدن
ويقول^(٤) :

ما كان حيك الا فتنة قدرت هل يستطيع الفتى أن يدفع القدرا
وكان ذلك الحب محنة ثانية امتحن بها الشاعر امتحاناً شديداً حتى
صار يرسل شعره العذري في الشكوى والأنين والحنين، وكتب رسالته
الهزلية المأثورة حول ذلك بل صار موضع اشفاق المشفقين، وتبع
الرواة والشعراء وكل طبقات مجتمع قرطبة الأدبي يقول ابن زيدون
في ولادة فيما يقول^(٥) :

= بهذا الرقم هو رسالتنا ابن زيدون وشرح الصغدني على الرسالة الجديدة وكذلك الأمر
في مكتبة بودليانا راجع ص ٤٣١ و ٤٣٢ من كتاب « ابن زيدون لعلي عبد العظيم »
— طبعة عام ١٩٥٥ ونشر مكتبة الانجلو المصرية.
(١) ١٦٧ الديوان — ط الحلبي.
(٢) ١٧٥ الديوان — الخلب بكسر الخاء لحيمة رقيقة لاصقة بالكبد.
(٣) ص ١٨١ الديوان.
(٤) ١٩٣ الديوان.
(٥) ١٧٥ الديوان.

متى ابثك ما بي يا راحتي وعذابي
متى ينوب لساني في شرحه عن كتابي
ما البدر شف سناه على رقيق السحاب
الا كوجهك لما اضاء تحت النقب

ولكن الوزير ابن عبدوس (٤٧٢هـ) وهو المنافس للدود لابن زيدون استغل فرصة اغفال الملك القرطبي ابي الحزم لشاعره ووزيره، فأخذ يشي به عنده، ويكشف له عن ميول الشاعر السياسية نحو البيت الأموي، فوضع ابن زيدون تحت المراقبة، وأخذت ولادة توري اهدافها السياسية، وتظهر الحب لابن عبدوس لتكون في حمايته، وفي مأمن من انتقام الجمهوريين وتظهر للوزير ابن حزم بعدها عن السياسة ومؤامراتها، وساء ذلك الشاعر، واشتعلت عواطفه، واضطربت مشاعره، وكان أول الأمر يشك في أن يكون لولادة هوى في أبي عامر ابن عبدوس :
قالوا : أبو عامر اضحى يلم بها قلت : القراشة قد تدنو من النار^(١)
وبعد قليل يعتقل ابن زيدون، ويزج به في السجن، بتهمة التآمر على اعادة الخلافة الأموية، وكان ذلك بعد عشر سنوات من قيام حكم الجمهوريين في قرطبة بزعامة أبي الحزم بن جمهور، وكان اعتقاله في أوائل المحرم من عام ٤٣٢هـ حيث ظل فيه حتى شعبان من عام ٤٣٣هـ.

— ٤ —

وكان اعتقال الشاعر وجه محنة ثالثة من المحن التي نكب بها في حياته بل كان أقسى محنة نزلت به على نفسه. وفي السجن عومل ابن زيدون معاملة سيئة ونكل به تنكيلاً شديداً، ولم يجد أمامه عزاء

(١) ٢٢٠ الديوان.

الا في الشعر ينظمه آهات حزينة، وعبرات تصف آلامه وشقائه وأبينه
وحنينه، ويكتب به الى اصدقائه يتحدث فيه، عن محتته، كتب من
السجن لصديقه ابي حفص بن برد يقول^(١) :

ما على ظني باس	يجرح الدهر وياسو
ربما أشرف بالمر	ء على الآمال ياس
ولقد ينجيك اغفا	ل ويرديك احتراس
وكذا الدهر اذا ما	عز ناس ذل ناس
نلبس الدنيا ولكن	متعة ذاك اللباس
انا حيران وللأم	ر وضوح والنباس
ما ترى في معشر حا	لوا عن المهد وخاسوا
ورأوني سامريسا	يتقى منه المساس
أذؤب هامت بلحمي	فانتهاش وانتهاش
كلهم يسأل عن حا	لي وللذئب اعتساس
ان قسا الدهر فللما	ء من الصخر انيجاس
ولكن امسيت محبو	سا فللغيث احتباس
فتأمل كيف يغشى	مقلة المجد النعاس
ويقت المسك في الت	ب فيوطا ويسداس

ويتذكر وهو في السجن أيام حياته، فيقول من موشحة^(٢) :

خليلي ان أجزع فقد وضع العذر
وان استطع صبيرا فمن شيمتي الصبر
وان يك رزعا ما أصاب به الدهر
ففي يومنا أمر وفي غده خمر
رمتني الليالي عن قسي النوائب

(١) ص ٦٥ الديوان.

(٢) راجعها باكملها في الديوان ص ٢٠٠، وهي طويلة.

فما اخطأتني مرسلات المصائب
اقضي نهاري بالأمانى الكواذب
وأوي الى ليل يطيه الكواكب
أقرطبة الفراء هل فيك مطمع؟
وهل كبد حرى ليينك تنقع؟
وهل لليالبيك الحميدة مرجع؟
إذا الحسن مرأى فيك واللهم سمع

ثم يقول منها :

أخواننا للواردين مصادر
ولا أول الا سيتلوه آخر
وانني لأعاقب الزمان لناظر
فقد يستقيل الجد والجد عائر
ظننت وكان الحر يجفى فيظمن
وأصبحت اسلو بالأسى حين احزن
وقر على اليأس الفؤاد الموطن
وان بلادا هنت فيها لأهون

ويرسل وهو في السجن الى أبي الحزم مدائح رائمة واعتذاريات،
رفيعة، تصور همومه وأحزانه وآلامه النفسية العميقة... كتب اليه
يقول^(١) :

ألم بأن ان يبكي الغمام على مثلي ويطلب ثأري البرق متصلت النصل
وهلاً أقامت أنجم الليل مأتما لتندب في الأفاق ما ضاع من نثلي^(٢)

(١) ص ١٢ الديوان.

(٢) نثر الكفاية : استخرج نيلها فترها، وفي الذخيرة ص ٣٠٦ ، نيلي ، يضم التون.

أخص لفهجي^(١) بالقلبي وكأنما
وأجفى على نظمي لكل قلادة
ولو انني اسطيع كي ارضي العدا
شريت ببعض الحلم حظاً من الجهل

ثم يناجي والدته المكلومة من أجل وحيدها المرزاً فيقول من القصيدة نفسها :

أمقتولة الأجنان ما لك والهيا
أقلبي بكاء لست أول حيرة
وفي أم موسى عبرة ان رمت به
ولله فينا علم غيب وحسنا

ثم يأخذ في مدح الملك والاعتذار اليه والاستشفاع لديه وتبرئة ساحته عنده فيقول :

ولو انني واقعت عمداً خطيئة
فلم استثر حرب الفجار ولم اطع
ومثلي قد تهفو به نشوة الصبا
واني لنتهاني نهاي عن التي
وما كنت بالمهدي الي السؤدد الخنا
ولا بالمسيء القول في الحسن الفعل

وفي القصيدة نفسها يقول الشاعر :

أفي العدل ان واقتك تترى رسائلي
أعدك للجلسي وآمل أن أرى
فلم تترك وضعاً لها في يدي عدل
بنعماك موسوما وما أنا بالغفل

والقصيدة جميلة تقف مع روائع النابغة في الاعتذار في منزلة واحدة :
وكتب الشاعر من السجن الى ولي العهد أبي الوليد بن جهور يستعطفه
ويطلب شفاعته فيه، وساعده الحظ واصدقاؤه ومنهم ولي العهد على

(١) أي ذكائي. والذحل: الحقد أو التآر أو العداوة.

الهرب من السجن فخرج من المدينة — قرطبة خائفاً يترقب، وكتب
الى صديقه أبي بكر مسلم بن أحمد قصيدة بعد فراره من السجن
يصور فيها أحداث حياته فيقول :

أأحبنا ألوت بحادث عهدنا حوادث لا عقد عليها ولا شرط
لعمركم أن الزمان الذي قضى بشت جميع الشمل منا لمشتط
ألا هل أتى الفتیان أن فتاهم فريسة من يعدو ونهزة من يسطو
عليك أبا بكر بكرت بهمة لها الخطر العالي وان نالها حط
أبي، بعد ما هيل التراب على أبي ورهطي، فذا، حين لم يبق لي رهط
لك النعمة الخضراء تندى ظلالتها علي ولا جحد لدي ولا غمط
هرمت وما للشيب وخط بمفرقي ولكن لشيب الهم في كيدي وخط
مبون من الأيام خمس قطعها أسيراً، وان لم يبد شد ولا قمط

ثم يقول :

فررت فان قالوا: القرار ارابية فقد فر موسى حين هم به القبط

ويحرضه علي الشفاعة له عند اي الحزم فيقول :
فما لك لا تختصني بشفاعة يلوح علي دهري لميسمها غلط
فان يسعف المولي فتعني هنية تنفس عن نفس الظ لها ضغط
وأن يأب الا قبض مبسوط فضله فقي يد مولي فوقه القبض والبسط

وبذلك انتهى فصل طويل من محنة ابن زيدون هذه المحنة التي

يصورها فيقول :

نار بغي سرى الى جنة الأمن لظاهها، فاصبحت كالصريم

وما أكثر ما يذكر الشاعر كلمة (الأمن) في شعره تنويهاً بضرورته
لحياة الانسان، هذا الأمن الذي شعر بخسارة فقدته له وهو في الحبس،
يقول ابن زيدون فيما يقول منوهاً بنعمة الأمن والأمان :
بحيث مقيل الأمن ضاف ظلالة وفي منهل العيش العذوبة والبرد

ويقول في المعتضد بعد ذلك :
لقد جدت حتى ما بنفس خصاصة وأمنت حتى ما بقلب تخوف
ويقول في المعتمد :
لبسنا لديه الأمن تندى ظلاله وزهرة عيش مثلما ابتع الزهر
وعادت لنا عادات دنيا كأنها بها وسن او هز اعطافها سكر



حط الشاعر رحاله بعد فراره من سجن أبي الحزم في اشبيلية،
يلتمس الأمن في ظلال بني عباد، وأخذ يرسل أهاته الحارة الى بني
جهور في قرطبة وكانوا قد وضعوا اهله وقرابته تحت المراقبة، يقول
الشاعر فيما يقول :
بني جهور احرقتم بجفائكم فؤادي فما بال المدائح تعيق
تظنونني كالعنبر الورد انما تفوح لكم انفاسه حسن يحرق
أخذ الشاعر يحيا مغترباً في ظلال دولة بني عباد، ولازم الاغتراب
الشاعر طيلة حياته، فكان محنة أخرى أشد من أثر محنة الحبس في
نفسه، فلم تزل الأيام (تدنيه وتبعده، وتسوءه وتسعده، وتقذف به
الى كل نازح) كما يقول ابن خاقان^(١).

ويبدو أن اصدقاء الشاعر استطاعوا ان يظفروا بعهد امان لابن زيدون
ان عاد الى قرطبة ليحيا فيها سيرته الأولى، وهي وطنه الحبيب وفيها
امه الحنون، وأحبابه الأعراء على نفسه، وعاد الشاعر في آخر أيام
أبي الحزم، قبل وفاته بنحو سبعة أشهر، ليقيم فيها من جديد، وليطفى

(١) ٧٤ فلاد العيان للفتح بن خاقان.

غلة اشواقه الى معاهدها وملاعب صباه وحبه وشبابه فيها، ونظم نوبته
الرائعة^(١) التي تحدث فيها عن هواه العذري لمحبيته ولادة.
اضحى الثنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تحافينا

ومدح ابن زيدون أبا الحزم بقصائد عديدة، اعلاناً منه لوفائه لاميره
وتعلقه بوطنه ومات أبو الحزم فرثاه الشاعر، ووضع كل آماله لدى
أبي الوليد :

أبا الحزم قد ذابت عليك من الأسى قلوب منها الصبر لو ساعد الصبر
دع الدهر يفجع بالذخائر أهله فما لنقيس مذ طواك الردى قدر

ثم يقول في القصيدة نفسها يعلق كل آماله بالملك الجديد :
لك الخير اني واثق بك شاكر لمثنى أباديك التي كفرها الكفر
فصدق ظنوننا لى وفي فانسى لأهل اليد البيضاء منك ولا فخر

ويمدح أبا الوليد في مبالغة شديدة وهو يهنئه بالولاية، فيقول في
قصيدة أخرى^(٢) :

فرح الرياسة اذ ملكت عنانها فرح العروس بصحة الأملاك
من قال انك لست أوحده في النهى والصالحات فدان بالاشراك

ويطالبه بولاية أو منصب كبير فيقول :
قلدني الرأي الجميل فانه حسبي ليومي زينة وعراك

وعلت منزلة الشاعر عند أبي الوليد، وقدمه الملك وأسنى خطته،
ونوه به، وجعله في الذي اصطنعهم لدولته، وجلله الكرامة كما يقول

(١) ١٦٥-١٦٩ الديوان.

(٢) ٣٨-٣٦ الديوان.

(٣) ٤٤-٤١ الديوان.

ابن حيان معاصره^(١) :

ولكن الشاعر كان يريد أن يكون مكانه بجوار أبي الوليد في ذلك حتى جفاه، وهانت مكانته لديه، وخرج الشاعر من قرطبة مرة أخرى يجوب البلاد، ويسير بين عواصم ملوك الطوائف، فمن بنسية الى بطليوس، الى طرطوشة، وفي كل مكان يحل به يرسل الشكاية والآهات، فيقول وهو في بطليوس :

يا دمع صبت ما شئت أن تصوبا
ويا فؤادي آن ان تذوبا
اذ الرزايا اصبحت ضروبا
لم ار لي، في أهلها، ضريبا
قد ملأ الشوق الحشا ندوبا
في الغرب اذ رحت به غريبا
عليل دهر سامني تعذبا
ادنى الضنى اذ أبعد الطيبا

ولكنه عاد بعد قليل الى قرطبة بعد أن وصله صك أمان من الملك الجمهوري أبي الوليد، فعاش فيها بعيداً عن الأضواء، ولم تلبث قرطبة ان شهدت عام ٤٤٠هـ ثورة عارمة هواها أموي، والقائمون بها هم بنو ذكوان، وكانوا من قبل اصدقاء للشاعر وكاد يزج بابن زيدون في هذه المؤامرة، ولكنه أسرع في اعلان ولائه للملك ونقمته على المتآمرين وبراعته منهم :

ان الأبي كنت من قبل اقتضاحهم مثل الشجاء في لهاهم ليس ينتزع
لم أحظ اذ هم عدى باد تفاقهم الا كما كنت احظى اذ هم شيع

(١) راجع للخيرة في ١ ج ١ ص ٢٩١ — أصدرته جامعة فؤاد (القاهرة) — ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩—١٩٤٢ (٢) ص ٢٠٨ الديوان.

أودعت نعماك منهم شر مفترس لن يكرم الغرس حتى تكرم البقع
لا تستجز وضع قدري بعد رفعك (١) فأنه لا يرفع القدر الذي تضع
ولكن أبا الوليد انصرف عن ابن زيدون وجفا، فعاد الشاعر الى الهجرة
والاغتراب من جديد، حيث رحل الى بطليوس عام ٤٤١هـ ومر به العيد
وهو وفي اغترابه فقال (٢) يحن الى قرطبة ومعاهاها:
خليلي لا فطر يسر ولا أضحي فما حال من أمس مشوقا كما أضحي
ويقول :

الا هل الى الزهراء أوبة نازح تقضي نتائجها مدامع نرحا
وبعد قليل وفي العام نفسه ٤٤١هـ حط رحاله من جديد في اشبيلية
ونزل ببلاط مليكها المعتضد بن عباد (٤٣٣هـ - ٤٦١هـ) ومدح المعتضد
بقصائد بليغة ومما جاء في إحدى هذه المدامع يلوح به الى الملك
الجهوري من بعيد (٣) :

الا هل جاء من فارقت أني بساحات المنى رفل البراح ؟
واني من ظلالك في زمان ندى الأصال رقراق الضواحي

ورفعه المعتضد الى منصب ذي الوزارتين، وجعله سفيره الى ملوك
الطوائف وصار امير الشعر والشعراء في اشبيلية التي كانت تعج بالشعراء.
وفي هذه العاصمة الجميلة وفي ظلال المعتضد عاش الشاعر نحو العشرين
عاماً، ومع مناصبه وجلالة محله من بني عباد، فقد ظل يذكر قرطبة
واحبابه فيها، فنراه يقول :

هل تذكرون غريباً عادته شجن من ذكركم وجفا أجفانه الوسن
بخفي لواعجه والشوق يفضحه فقد تساوى لديه السر والعلن

(١) ٥٧-٥٥ الديوان.

(٢) ٢٠٥ الديوان.

(٣) ١٠٣-١٠٦ الديوان.

يا ويلناه أيقى في جوانحه
وأرق العين والظلماء عاكفة
فبت أشكو وتشكو فوق ايكتها
يا هل أجالس أقواما أحبهمو
أو تحفظون عهداً لا أضيعها
ان كان عاد كموعيد فرب فتى
وافردته الليالي من أحبته
« بم التعلل لا أهل ولا وطن
ولا نديم ولا كأس ولا سكن »
... وهي لوعة غريب، وآهة حبيب الى حبيب...

ويموت المعتضد عام ٤٦١هـ، ويقوم بالملك بعده المعتمد
(٤٦١-٤٨٤هـ)، ويقر الملك الجديد الشاعر علي ما كان عليه في عهد
أبيه، ويزيد في تكريمه^(١).

ويعيش ابن زيدون محتته الأخيرة، محتته بالواشين والحاسدين
والحاقدين وما كان أشدها من محنة على نفسه، وكم كانت في حياة
الشاعر من محن قاسيات، فمن تنكر الأصدقاء الى تهجم الأعداء، وتهجم
الوشاة، وكما يقول ابن زيدون :
كان الوشاة وقد منيت بأفكهم
اسباط يعقوب وكنت الذيبا
وكما يقول :

أذوب هامت بلحمي فانتهاش وانتهاش

فمن خصومة ابن عبدوس، الى عداوة شاعر اشيلية علي بن غالب
ابن حصن، الى خصومة كاتب المعتضد أبي محمد عبدالله بن يوسف
ابن عبد البر الى حسد وزير المعتمد ابن عمار - ٥٨٠ هـ، وحقد قائد
جيشه في فتح قرطبة ابن مرتين... وسواهم.

(١) ٩٧ احباب الكتاب لابن الابار (٦٥٩هـ) مخطوط ٧٧٨ تاريخ تيمور.

وفي مطلع ملك المعتمد هاج حساد الشاعر وكتبوا قصيدة بعثوا بها الى الملك يغرونه فيها بابن زيدون، ليصلوا الى مآربهم من ابعاده عن الحياة السياسية في اشبيلية، وفيها يقولون :

أيهما الملك العلي الأعظم اقطع وريدي كل باغ ينثم^(١)
واحسم بسيفك داء كل منافق ييدي الجميل وضد ذلك يكتم
واذكر صنيع أبيك أول أمره فسي كل متهم فانك تعلم
لم يبق منهم من توهم شره فصفت له الدنيا ولذ المطعم
فعلام تنكل عن صنيع مثله ولأنت امضى في الخطوب واشهم
لا تترك للناس موضع تهمة واحزم فمثلك في العظام احزم

ولكن المعتمد رمى بالقصيدة عرض الحائط، وهو يردد :
كذبت مناكم صرحوا أو جمجموا الدين امتن والسجية أكرم
ختتم ورمتم ان أخون وانما حاولتمو ان يستخف يللم^(٢)
وعلم الشاعر بما حدث فمثل بين يدي الملك يشكره على هذا الموقف

النبيل بقصيدة طويلة جاء فيها :
لي منك فليذب الحسود تلظيا لطف المكانة والمحل الأكرم
وشغوف حظ ليس يفتأ يجتلي غض الشباب وكل حظ يهرم

وفي شعبان من عام ٤٦٢ هـ يفتح جيش المعتمد قرطبة ويضمها الى اشبيلية بفضل تدبير ابن زيدون، فنال من الملك تقديراً وحمداً، وعاد الشاعر الى وطنه يقبل ثراه، ويثه هواه. ولكن السياسة الزمته ان يعود الى اشبيلية في مهمة سياسية، وأقام فيها عدة شهور مسه فيها الوصب، وأضناه التعب وأعياه المرض، وأخيراً مات الشاعر الغريب في اشبيلية بعيداً عن مسقط رأسه، وهوى نفسه قرطبة الجميلة، وكان ذلك في صدر رجب

(١) أي يهيمس.

(٢) أسم جيل.

من عام ٤٦٣ هـ الثالث من ابريل عام ١٠٧١ م، وسكت الصوت الذي كان يهز الجماهير، وخيا النجم الذي كان يضيء الدياجير، ومات فني الأدب، وعمدة الظرف، والشاعر البديع الوصف والرصف، أبو الوليد أحمد ابن زيدون، ذو الأبوة النبيهة بقرطبة، والوسامة والدراية، وحلاوة المنظوم والمنثور، وقوة العارضة والافتتان في المعرفة كما يقول معاصره ابن حيان^(١).

وحمل جثمان الشاعر العظيم فدفن فيها بين بكاء الشعب واجلاله واكبار الوطن واعظامه، وسجلت صفحات التاريخ اسم الشاعر في هالة من النور والمجد والخلود ومرت المحن، وغربة الشاعر عن الوطن، وبقيت الذكرى الخالدة، ذكرى عبقرية شاعر، عاش محنته وغرته، مرفوع الرأس، أبي النفس، كريم الخلق، ممتد الذكر في كل أفق، الشاعر الذي كان يغني للعالم آلامه، ويشدو بالشعر احلامه فيقول :

فان يجذب من الدنيا جناب طالما امرع
فما أن غاض لي صير ولا ان فاض لي مدمع

والذي طالما شكاه دهره الى الناس :

من عذيري من ريب دهر خؤون كل يوم اراع منه بغدر

والذي قاسى في حياته ما لو قاست مثله الجبال لانهد شاهقها :
ما لي وللأيام لج مع الصبا عدوانها فكسا العذار مشيبا
لألم بي ما لو ألم بشاهق لانهد جانبه فصار كشيئا

واذا كانت غربة الشاعر ومحنه قدراً قدر عليه، حتى لا يجد في حياته الأمن والطمأنينة الا بعيداً عن وطنه قرطبة، فقد قدر له كذلك بعد حياته الا يجد المحتفين بعبقرته وبشاعريته، الا بعيداً عن قرطبة، حيث عاصمة الملك العربي المسلم الحسن الثاني، تحتفل بالذكرى الألفية،

(١) الذخيرة قسم ١ ج ١ ص ٢٩١.

لميلاد شاعر عظيم، وهب العربية اسمى كتوزها، ومنح الأدب أجل ذخائره،
وتوج الشعر بارفع قلائده وأبلغ حوالبه واجمل أوابده.
فسلام عليه في الخالدين، وسلام عليه في الأولين، وسلام عليه في
الآخرين.

ابن خفاجة الأندلسي^(١)

٤٥٠ - ٥٣٣ هـ

أسرته :

لما فتحت الأندلس عام ٩٢ هـ واستقر بها المسلمون أقبلت القبائل العربية على الهجرة إليها أفراداً وجماعات، وكان ممن هاجر إلى الأندلس جماعة من القيسيين والعامريين والعقيليين والخفاجيين، ومنهم : محمد بن عبد الملك العبيسي^(٢) وكان يعيش في القرن الخامس الهجري، ومحمد بن غريب العبيسي وكان يعيش في القرن السادس^(٣)، وأبو بكر محمد بن عمر العقيلي المتوفي عام ٥٣٠ هـ^(٤)، ويقول ابن حزم :

(١) راجع : له ترجمة طويلة في قللاند العقيان للفتح بن عافان الأندلسي (٢٤١-٢٥٣)، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٢٣ و ٢٤ ج ١، ١٩٠-٢٠١ بلاغة العرب في الأندلس.

وقد ولد ابن خفاجة بجزيرة شقر من أعمال بلنسية عام ٤٥٠ هـ وتوفي سنة ٥٣٣ هـ، وهو كما يقول المقرئ، أديب الأندلس وشاعرها، وأوحد الناس في وصف الأنهار والأزهار والرياض والحياض والرياحين واليساتين، ويلقب بصنوبري الأندلس (٣٧٨) :
٥ وما بعلمها نفع الطيب - نشر فريد رفاعي .

(٢) ١٢٣ التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار م ٥٦٩ هـ.

(٣) ٢٣٢ التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار.

(٤) ١٢١ المعجم لابن الأبار، ١٦٦ التكملة لابن الأبار.

وخفاجة بطن ضخم منهم النحوي محمد بن معارك المعروف بالعقيلي بقرطبة^(١).

ورأيت نصاً آخر عثرت عليه في المكتبة الأندلسية يؤيد نسبة ابن خفاجة الأندلسي الى بني خفاجة، قال صاحب بغية الملتبس ما نصه : ابراهيم بن الفتح بن عبدالله بن خفاجة، أبو اسحاق الخفاجي، شاعر مشهور متقدم، مبرز، حسن الشعر جداً، خبيث الهجاء، وشعره كثير مجموع، وكانت له همة رفيعة^(٢) وتوفي سنة ٥٣٣ لأربع بقين من شوال^(٣)، وله ترجمة في المعجم لابن الأبار^(٤).

حياته وشاعريته :

ابن خفاجة علم من أعلام الشعراء العرب، المجددين، وهو بحق شاعر الأندلس ووصافها، وابن طبيعتها الساحرة.

ولد أبو إسحق إبراهيم بن الفتح بن خفاجة سنة ٥٤٠هـ ببلدة شقر وتوفي بها سنة ٥٣٣هـ، فعاش زمن ملوك الطوائف وإبان دولة المرابطين. وهذه العصور أزهى عصور الأندلس : فيها قامت دولة الأدب والشعر، وغصت مجالس الأمراء بالشعراء. فكانت بيوتهم أسواقاً للعلماء، وأندية للأدباء، وكانت الحياة إذ ذاك حياة ترف ورخاء. وتبع هذا الترف الميل الى اللهو والمجون وأنواع السرور، وتغلبت هذه الحال على عقول الأدباء والشعراء، فكان الشعر ضرباً من التفكه، وملهاتاً للأمراء، وزينة

(١) ١٧٤ أنساب العرب لابن حزم.

(٢) ٢٠٢ بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي.

(٣) ٢٠٣ المرجع نفسه.

(٤) ٦١-٥٩ المعجم لابن الأبار من أجزاء المكتبة الأندلسية. وفي هامش الترجمة أنه توفي عصر يوم الأحد السادس والعشرين من شوال سنة ٥٣٣هـ.

العقول، وحبلى العلماء. وكان الترف وبهاء الطبيعة يولدان في النفس حب الجمال، وسعة الخيال، وقد كان لابن خفاجة حظ في مناجاة الطبيعة وجمالها، لأن بلدته التي عاش فيها ومات بها كانت من أجمل البلاد وأحسنها بهاء.

ولقد انقطع ابن خفاجة للنظر في جمال الطبيعة، فكان كثير التأمل في المشاهدات، وكانت نظراته تقود عقله، وترسم له طرق التفكير وأنواع الخيال. فكانت كل معلوماته وآرائه من طريق النظر والتأمل في جمال الألوان وتناسق الأشياء، فأصبح عقله أشبه بخزانة منظورات. وقد حملته دقة النظر على دقة التعبير. وكان لا يحب إلا الجمال، ولم يميز من الأشياء التي يراها إلا ما يتفق مع صفاته النفسية. فكان دائماً فرحاً مسروراً، لا تكاد تجده يصف منظرًا محزوناً، أو شيئاً قبيحاً، أو يصف نفساً منقبضة أو يتكلم عن بؤس الأيام وأهوال حوادثها؛ فشعره صورة لحياته النفسية المملوءة بالسرور والإعجاب بالجمال. وكانت نفسه مطمئنة هادئة، ميالة إلى اللهو والمجون، فكان شعره أيضاً به هذا الأطمئنان النفسي والهدوء الفكري، والمجانة الخلقية، فلا ترى في كلامه شيئاً يدل على الشك أو الحيرة، أو الخروج من العالم الخيال إلى عالم الحقيقة، أو ما يدل على تفكيره في الحياة وأهوالها، والناس وأخلاقهم والوجود وما فيه من خير وشر ليتوصل بذلك إلى ذكر حكمة أو عبرة، أو رأي يدل على كد فهمه. ولا تكاد تجد له صورة صحيحة تدل على نفسه وشعوره الخفي، سوى ميله للجمال وحب الطبيعة. وليس ذلك لأنه يشعر بشيء، أو لأن نفسه خالية مما يعلق بالنفوس عادة كالحب والبغض، والهم والحزن وغيرها من أهوال الحياة وحوادثها. ولكنه لم يكن يعنى ذلك، لأن هذا يدعو إلى الهموم والأكدار، ولم يكن هو يميل إلى ذلك، لأنه كان يريد أن يعيش في نوع من الأحلام اللذيذة. لذلك كان أثر هذه الحياة عظيماً في نفسه،

فولدت فيها كثيراً من المعاني الشعرية، واندفع إلى تصويرها وإلى التعبير عنها بما فطر عليه من دقة الإدراك، شأن جميع الشعراء المقتنين، الذين تتسرب نفوسهم في خفايا الجمال وأسراره. فكان الجمال مثار شعره ومبعث خياله وافتتانه، يتتبع روائعه. فإذا امتلأت به نفسه، أخذ في وصفها ورسمها. وكان يتتبع مظاهر جمال الطبيعة، ويخرج إلى البساتين ليسمع خرير الماء، ولينعم بمشاهدة جريانه، ويصف ذلك في شعره، ويجاري الشعراء أحياناً في أوصافهم.

ويشمل شعر ابن خفاجة على المدح، والعتاب والرثاء والشكوى والوصف والمداعبات. ولكن أجود شعره في الوصف فإن الخيال هو كل شيء في شعره ولكنه خيال يدعو إلى حب الجمال ورقة الشعور، ويهذب الذوق، ويملأ القلب بهجة وسروراً، لأن ابن خفاجة مصور ماهر، ووصاف مبدع للمشاهدات، وأكثر معانيه مأخوذة من مشاهداته. وقد امتلأت نفسه بذلك حتى في المدح والرثاء. فنجدته إذا مدح يصف الثناء بأنه ثناء رطب، وأن الصباح ضحك فكشف عن ثنياه البيض، وأن ممدوحه وضاح المحيا، وأنتك حين تنظر إلى بهائه :

تشميم^(١) بصفحتيه بروق بشر تعيد بشاشة الروض الجديد

ويقول :

وقد ضحك الصباح بمجتلاه وراء الليل عن ثغر شنيب^(٢)
أشيم به سنا برق يمان يحفزني إلى المرعى الخصيب

فإذا تحدث عن أيامه الماضية فتح صفحات تلك الأيام وأخذ يستملئ عنها ذكرياته، ويتغنى بها وبأوصافها، كما قال يذكر أيام شبابه. وقد نيف على الستين :

(١) شام البرق نظر إليه.

(٢) أي ذي أسنان بيض.

فأذكرنا ليلة باللسوى وعهداً لعصر الصبا أطربا
وماء بوادي الغضى سلسلا ومرتبعا بالحمسى معشبا
وما كان أعطر تلك الصبا وأندى معاطف تلك الربا
وأطيب ذاك الجنى روضة ورشفة ذاك اللمي^(١) مشربا

فإذا رثي لا يغيب عنه الوصف حتى في موقف البكاء، لأنه يمزج
بكائه بوصفه الجميل، وبما في نفسه من المعاني التي ملكت منه كل
شيء، فيقول :

في كل ناد منك روض ثناء وبكل خد فيك جدول ماء
ولكل شخص هزة الغصن الندي غب اليك^(٢) ورنة المكاء^(٣)

وهو في ذلك الوصف يشبه الدموع السائلة على الخدود بجدول
الماء، ويشبه اضطراب أجسام الباكين وانسكاب دموعهم بهزة الغصن
الذي غمرته السماء بالماء، ويشبه أنينهم وإجهاشهم بالبكاء بصوت قبرة
تصفى وتنوح.

وإذا أقسم أقسم بالثفات الروض عن زرقة النهر، وإشراق جيد الغصن
في حلية الزهر، ويقول وهو سائر في جوف الليل :

وخضت ظلال الليل يسود فحمه ودست عرين^(٤) الليث ينظر عن جمر
أو يقول : « والصبح يمسح عن جبين نهار ».

ويذكر المعاني المستملحة، فيشبه أوراق الشجر بالعداري، والنضارة
بالضحك، واهتزاز الغصون في مهب الريح بمغازلة التسيب لها، وأن
الريح يلثم خدها الخجل. وهو القائل هذه الأبيات الشهيرة يصف نهراً :

(١) اللمي : سيرة في باطن.

(٢) غب اليك بعد اليك.

(٣) طائر أبيض اللون له صغير حسن.

(٤) العرين : بيت الأسد.

لله نهر سال فسي بطلحاء
منعطف مثل السوار كأنه
وقدرق حتى ظن قرصاً مفرغاً
وغدت تحف به الفصون كأنها
والريح تبعث بالفصون وقد جرى
ذهب الأصيل على لجين الماء
أشهى وروداً من لمى الحسناء
والزهر يكتفه مجر سماء^(١)
من فضة في بردة خضراء
هدب يحف بمقلة زرقاء

ويصف السرى في ظلمة الليل الحالك المنبثة في كل ركن من
أركان الفضاء، وما يوحيه هذا المنظر من خوف ورهبة، وما يلاقه
السائر من حيوان مفترس، فيحيل إلى القارىء أنه في جوف القلاة
يلفه الليل بمخاطره، أو كأنه أمام لوح مصور يرى فيه تلك المعاني
مصورة بالألوان البديعة، إذ يقول :

ومفازة^(٢) لا نجم في ظلماتها
تتلهب الشعري^(٣) بها وكأنها
قد لفتني فيها الظلام وطاف بي
والليل يقصر خطوه ولربما
قد شاب من طرف المجرة مفرق
يسري لا فلك بها دوار
في كف زنجي الدجا دينار
ذئب يلم مع الدجى زوار
طالت ليالي الركب وهي قصار
فيه ومن خط الهلال عذار

أو يقول :

وليل كما مد الغراب جناحه
كأنني وأحشاء الفلا تجنني
وسال على وجه السجل مداد
سريرة حب والظلام فؤاد

وأسلوب ابن خفاجة يتجمع فيه قوة الخيال وسعته، وحضور الذهن،
وسلامة العبارة، وسهولتها، مع ميله أحياناً إلى الألفاظ الغريبة، وإلى
المعاني الخفية، وإلى شيء من التكلف والتعمل في ذكر أنواع البديع.

(١) المجرة : منطقة في السماء ذات نجوم كثيرة لا يميزها البصر ترى بقعة بيضاء.

(٢) المفازة : القلاة لا ماء فيها.

(٣) كوكب يظهر في شدة الحر.

بل قد يتغلب عليه ذلك، فتمتلئُ بذلك عباراته، وأكثر وصفه في الليل وسواده، والصبح وبياضه، والرياض والبساتين، والأزهار والأشجار وغصونها، والمياه وجريانها، ولونها الفضي وأشعة الشمس عليها، والنسيم وسريانه، وغير ذلك من مثل هذه المعاني. وقد خالف أكثر الشعراء في نظم القصيدة من حيث البدء بالغزل والنسيب. إذ أكثر قصائده ميدوء بالوصف، ولولا استسلامه إلى الصناعة لعد من الشعراء المغطورين. ولكنه بالمعاني في تتبع أنواع البديع والبيان صار كثير التكلف في معانيه وألفاظه، حتى لا تكاد تجد شيئاً من كلامه إلا استعارة أو مجازاً أو تشبيهاً. وقد يدعو ذلك أحياناً إلى استغراق المعنى على القارئ ولكن شعره في جملته يعتبر معجماً لألفاظ مختارة، وعبارات جميلة، وتشبيهات بديعة، ومعرضاً يجد فيه القارئ خير أنواع المجاز، وكل ما يمكن من ضروب الصناعة اللفظية المختارة.. ومعانيه تشبه أسلوبه لأنها لا تعدو أن تكون تشبيهات أو استعارات.

يقول الفتح بن خاقان عنه في كتابه «قلائد العقيان»: تصرف في فنون الإبداع كيف شاء. فجاء نظامه أرق من النسيم العليل، وأنىق من الروض البليل، يكاد يمتزج بالروح وترتاح إليه النفس، ملك أعتة المحاسن، وناهج طريقها، العارف بترصيعها وتنميقها، الناظم لعقودها، الراقم لبرودها، المجيد لارهافها، العالم بجلالاتها وزفافها.. تصرف في فنون الإبداع كيف شاء، وأبلغ دلوه من الإجادة الرشاء.. فشعشع القول وروقه، ومد في ميدان الإعجاز طلقه!. فجاء نظاماً أرق من النسيم العليل، وأنىق من الروض البليل!. إن شبب فغمزات الجفون، وإن وصف فناهيك من غرض انفرد بمضماره، وإن مدح فلا مدح الأعشى للمحلق، ولا حسان لاهل جلق! وإن تصرف في فنون الأوصاف، فهو فيها كفارس خصاف.

وذكره القاضي ابن خلكان فقال: «ذكره ابن بسام في الذخيرة وأثنى

عليه. وذكره المقرئ في نفع الطيب فقال فيه : أديب الأندلس وشاعرها، أبو أسحق بن خفاجة، وشهرته تغني عن الاطناب فيه. مغرئ يوصف الأنهار، والأزهار ! وأهل الأندلس يسمونه « الجنان »، وأورد له نثراً كالدر المنثور .

وذكره مؤلفو كتاب « المجمل في تاريخ الأديب العربي » فقالوا عنه : « من أشهر وصاف الطبيعة. تكثر في كلماته الاستعارات، وتزاحم المعاني، وقلما تكسب بالشعر » — ومن شعره :

سقى لها من بطاح أنس ودوح حسن بها مطل
فما ترى غير وجه شمس أطل فيه عذار ظل

وقال عنه صاحب كتاب « المنهل في تاريخ الأدب العربي » جزء ثان : « كان أبي النفس، لا يتعرض للتكسب بأدبه. يبرز في وصف الطبيعة أيما تبريز. وبلغ في الرثاء والغزل الغاية. ومن جيد شعره : ومائسة تزدهي وقد خلج الحيا عليها حلح حمرا وأردية حضرا ينوب لها ريق الغمام فضة ويجمد في أعطافها ذهابا نضرا

وقراءة شعره تحتاج إلى التأمل، لأن الرجل عميق الفكر : يمتاز بوصف الطبيعة. وبأنه ممن انطقوا الجماد بالحكمة والموعظة والعبارة، وبأنه جميل التخيلات بديعها. وبأنه بارع في الرثاء، والمدح. مع نفوره من الاستجداء والتكسب. ويمتاز في النثر بأنه يجيد « الإخوانيات من الرسائل »، وكتب الأستاذ عبد الرحمن جبر عدة مقالات في مجلة الرسالة السنة الأولى، عنوانها : « الطبيعة في شعر ابن خفاجة ».

ألوان من حياته :

نشأ الشاعر في زمن تلبلت فيه الأفكار في الأندلس، وتعددت فيه الدول وكثرت العداوة والحروب بين ملوكها العرب حيناً، وبينهم وبين

الأسبان حيناً آخر. فاثقلت عروش وتقلبت دول، وضاعت بهذا السبب
من أيدي ملوك العرب، بلاد إثر بلاد !

وقد مدح^(١) الشاعر أمراء ووزراء. فلم يتعرض في مدحه، لنصح
أو زجر أو تحذير! حتى قصيدته التي قالها في استرداد بلنسية من
العدو لم يتعرض فيها لشيء مما أشرنا إليه. وهي التي يقول فيها :
الآن سح غمام النصر فانهملا وقام صغو عمود الدين فاعتدلا
ولاح للسعد نجم قد حوى فهوى وكر للنصر عصر قد مضى فجلا
وبات يطلع نفع الجيش معتكرا بحيث يطلع وجه الفتح مقتبلا
من عسكر رجفت أرض العدو به حتى كأن به من وطنه وهلا
ما بين ريح طراد سميت فرسا جوراً وليث شرى يدعونه بطلا
من أدهم أحضر الجلياب تحسبه قد استعار رداء الليل واشتملا
وأشهب ناصع القرطاس مؤتلق كأنما خاض ماء الصبح فاغتسلا
ترى به ماء نصل السيف منسكبا يجري، وجاحم نار اليأس مشتعلا
فكم هنالك من ضرغامة سفرت سمر العوالي إلى أحشائه رسلا
قد كر في لأمة حصداء تحسبها بحرأ يلاطم من أعطافه جبلا
وللقنا أعين قد حدقت حنقا وللظبا ألسن قد انصحت جدلا
فزاحم النقع حتى شق برده وناطح الموت حتى خر منجدلا

وكأنما كان ابن خفاجة متفرغاً لوصف طبيعة الأندلس دون ما عدا
ذلك، وكأنه كان يسير على قول : أبي بكر محمد بن عيسى راثيا
بني عباد — بعد أن دالت دولتهم، وعظمت نكبتهم — :
لكل شيء من الأشياء ميقات وللمنى من منايهن غايات
والدهر في صبغة الحرباء منغمس ألوان حالاته فيها استحالات

(١) بنو خفاجة ص ١٤ ج ٦ من كلمة للأستاذ محمد رضوان.

ونحن من لعب الشطرنج في يده وربما قمرت بالبيدق الشاة
فانفض يدك من الدنيا وساكنها فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
فضلاً عن ضياغ أكثر شعره. وروى القاضي خلكان في ترجمته
قال : قال ابن خفاجة :

ه خرجت يوماً بشاطبه إلى باب السمارين، ابتغاء الفرجة على خربير
ذلك الماء بتلك الساقية، في سنة ٤٨٠هـ، وإذا بالفقيه أبي عمران
ابن أبي تليد رحمه الله قد سبقني إلى ذلك. فآلفيته جالساً على دكان
كانت هناك، مبنية لهذا الشأن، فسلمت عليه، وجلست إليه، مستأنساً
به، فجرى أثناء ما تتاشدناه ذكر قول ابن رشيق :

يا من يمر ولا تمر	به القلوب من الفرق
بعمامة من خيره	أو خده منها استرق
فكأنه وكأنها	قمر تعمم بالشفق
فاذا بدا وإذا انتسى	وإذا شدا وإذا نطق
شغل الخواطر والجوا	نح والمسامع والحدق

فقلت : وقد أعجب بها جداً، وأثنى عليها كثيراً. أحسن ما في
القطعة، سياق الأعداد، وإلا فأنت تراه قد استرسل فلم يقابل بين ألفاظ
البيت الأخير والبيت الذي قبله، فينزل بإزاء كل واحدة منها ما يلائمها.

وهل ينزل بإزاء قوله : وإذا نطق، قوله : شغل الحدق، وكأنه نازعي
القول في هذا غاية الجهد، فقلت بديها :

ومهفهف طاوي الحشا	خنت المعاطف والنظر
ملاً العيون بصورة	تليت محاسنها سور
فاذا رنا وإذا مشى	وإذا شدا وإذا سفر
فضح الغزاة والغما	مة والحمامة والقمر

وكان شديد الحب لوطنه، وتعلقه به وحنينه إليه يدلنا عليه قوله :

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد الا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار
لاتختشوا بعد ذآن تدخلوا سقرا فليس يدخل بعد الجنة النار

ولهذه الأبيات حكاية طريفة، تروى ترويحاً للنفس، ومثلاً على الإحسان في الجواب، وهي : حكى أن الخليل قدم رسولاً، إلى سلطان المغرب، فأنشد بحضرة السلطان أبيات ابن خفاجة هذه، فقال السلطان : كذب هذا الشاعر يشير الى قوله : جنة الخلد وأنه لو خير لاختارها — فقال الخليل : يا مولانا، بل صدق الشاعر، لأنها موطن جهاد، والرسول ﷺ يقول : الجنة تحت ظلال السيوف. فاستحسن السلطان قوله، ورفع عن الشاعر لومه، وأجزل صلته .»

ونظر في المرأة فبدت له أول شعرة بيضاء في شعر عذاره، فشمله شعور غريب وهو مزيج بين الأسف على ذهاب الشباب والحزن على الحرمان من عطف الحسان، فصور ذلك تصوير مصور ماهر فقال :

أرقت على الصبا لطلوع نجم أسميه مسامحةً مشيياً
كفاني رزء نفسي أن تبدي وأعظم منه رزءاً أن يخيا
ولولا أن يشق على الغواني للاقت الفتاة به خضياً
فلم أعدم هناك به شفيحاً إلى أمل ولم أبرح حبيياً

واستمر في تعداد بواعث شعوره، حتى جعل ذلك نذير دنو أجله، إلى أن قال :

فأحسن من حمام الشيب عندي غراب شبيبة ألفت النعما
يطيب بنفسه عند الغواني فيغني عن قنيت المسك طيباً

نماذج من شعره :

قال ابن خفاجة في مدح القائد أبي الطاهر تميم ابن أمير المؤمنين :
ولا كف إلا للأمير كريمة تبسم فيها النصل عن مبسم النصر

وهب بها يمضي فيغرى كأنما
تلوذ المنى منه بأصيد أمجد
عليه يمين أن تفيض يمينه
يعب عياب البحر في السلم والوغي
له راية لو زاحم الدهر تحتها
وعزم يذل الطود هذا ونجدة
ووجه وضيء شف عنه لثامه
إذا كتمته بالمفاضة درعه
سرى بين نوار ليزرق أسنة

وقال في الوزير الحسن بن رحيم :

وصرخت : يا لبني رحيم صرخة
من كل طلق الوجه شاه جواده
طلق المحيا واليدين كأنه
ليس الرداء من الثناء مطرزا

ومن شعره قوله في وصف منتزه :

ومجر ذيل غمامة قد نمقت
القيت أرحلنا هناك بقية
وقسمت طرف العين بين رباوة
وشربتها عذراء تحسب أنها

ومن شعره في الزهد قوله :

ألا قصر كل بقاء ذهب
ولا خطة غير إحدى اثنتين
فرحماك يا من عليه الحساب

وقوله في وصف الفرس :

ومطهم شرف الأديم كأنما

شهاب بها ينقض أو قدر يجرى
صقيل فرند الحمد والمجد والبشر
وألا يفض السيف ضغنا على وتر
بيذل اليد الغراء والفتكة البكر
لعدت به دهم الليالي من الشقر
تهز قدود السمر في الحلال الحمر
كما شف رقراق الغمام عن البدر
ترأى هلال منه يطلع من بحر
حداد وأوراق لراياته خضمر

فالتفت الأنجاد حولي عسكريا
زهوا بعزة ربه فتبخترا
قمر تطلع في غمام أمطرا
فوق القميص من الحياة مصفرا

ومن شعره قوله في وصف منتزه :

وشى الريح به يد الأنوار
مضروبة من سرحة غناء
مخضرة وقرارة زرقاء
معصورة من وجنتي عذراء

وعمران كل حياة خراب
فإما نعيم وإما عذاب
وزلفاك يا من إليه المآب

ألفت معاطفه النجيع خضابا

طرب إذا غنى العجاج ممزق ثوب العجاجة جيعة وذهابا
قدحت يد الهيجاء منه بارقا متلهبا يزجي القتام سحابا
ورمى الحفاظ به شياطين العدا فانقض في ليل الغبار شهابا
بسام ثغر الحلبي تحسب أنه كأس أثار بها المزاج حبابا

وقوله يصف ظلمة الليل ومخافة الشكوى فيه :
ومفازة لا نجم في ظلماتها يسري ولا فلك بها دوار
تتلهب الشعري بها وكأنها في كف زنجي الدجا زوار
والليل يقصر خطوه ولربما طالت ليالي الركب وهي قصار

وقوله في صفة قوس : آلة رمي النبل :
عوجاء تعطف ثم ترسل تارة فكأنما هي حية تنساب
وإذا انحنت والسهم منها خارج فهي الهلال انقض منه شهاب

والقوس عند جذبها لرمي السهم، تكون نصف دائرة، فشيها عند ذلك بالحية عند انطوائها، والهلال قبل استكمال استدارته، فانظر كيف أحسن التشبيه بالحية عن الانطواء، والهلال قبل الاستكمال، ثم كيف أحسن تشبيه النبل عند خروجه من القوس حال انطوائها بالشهاب انقض من الهلال.

وقوله في وصف سفينة :
وجارية ركبت بها ظلما يطير من الرياح بها جناح
إذا الماء اطمأن فرق خصرا علا من موجه ردف رداح
وقد فغر الحمام هناك فاه وأتلع جيده الأجل المتاح
فما أدري أموج أم قلوب وأنفاس تصعد أم رياح

فمن ذا الذي يقرأ هذه الأبيات ولا يقشعر بدنه من هول الموقف، بل من هذا الذي لا يخيل إليه أنه راكب في بحر لحي، عظم اضطرابه، وتلاطمت أمواجه، في ليل اشتدّ ظلامه، وتراكم غمامه، فحس عن

العيون مسالك الأمان، فبدأ شيخ الموت فاستسلم العقلاء، لفصل القضاء،
إما بالنجاة أو الفناء.

وقوله يصف معركة حربية :

ركض الجياد إلى الجلال صباحا
واستقبلوا أفق السماء بجحافل
قد ماس في أرجائه شجر القنا
مطر الأعاجم منه عارض سطوة
حتى إذا قضم المهند نبوة
زحمت مناكبه الأعادي زحمة
فحمت حريم المسلمين مصارع

إلى أن قال :

وأقام فوقهم المعجاجة كلة
فانجاب ليل الخطب عن أفق الهدى
وتطلع الفتح المبين صباحا

وقوله يصف شجرة على نهر :

وسرحة خاض منها ظلها نهرا
كما تدانيت من ثغر لمرتشف
كأن افنانها طيبا حمى ملك
أوفت عليه ولم تنقص ولم ترد
ثم اثنت ولم تصدر ولم ترد
أعطى وأعطى فلم يوعد ولم يعد

وهذا تصوير آخر لسيل جارف، دهم البيوت، فاجتاح بعضها وهدم
بعضها، فبدت بدو الوفود استقبلت ملكاً، بعضها راکع وبعضها
ساجد ! وذلك قوله :

وأهوت تخر هناك البنى
وبانت كأن عليها صلاة
كما تتلقى الملوك الوفود
فبعض ركوع وبعض سجود

فمن ذا الذي يقرأ هذا ولا يتصور سيلاً عظيماً دهم الديار فجعلها
خاوية على عروشها، بين زائل لم يبق سوى آثاره، ومنهدم امتزج عاليه

بأسفله : ومن الرثاء في شعره قوله في الوزير أبي محمد بن ربيعة :
شراب الأمانى لو علمت سراب وعقبى الليالى لو فهمت عتاب
إذا ارتجعت ايدي الليالى هباتها فغاية هاتيك الهبات ذهب
وهل مهجة الإنسان إلا طريدة تحوم عليها للحمام عقاب
يخب بها في كل يوم وليلة مطايا إلى دار البلى وركاب
وكيف يفيض الدمع أو يبرد الحشا وقد باد أقران وفات شباب
فما ناب عن خل الصبا خل شبية ولا عاض عن شرخ الشباب خضاب

ويسير بك في طريق سرد هذه الحكم الغالية إلى أن يقول :
فيا لهم من ركب صحب تنابخوا فرادى وهم ملد الغصون شباب
دعا بهم داعي الردى فكأنما تبارت بهم خيل هناك عراب
فهاهم وسلم الدهر حرب كأنما جثا بينهم طعن لهم وضراب
هجوم ولا غير التراب حشية لجنب ولا غير القبور قباب

ولا يزال يأخذك بهذا الكلم الحق إلى أن يقول في المتوفى :
فيا عجباً للدهر كيف سطا به وقد كان يرجى تارة وبهاب
وكيف استلانت صولة الموت عوده فلم ينب عنه للمنية ناب
ولو ان غير الله كان أصابه لجاشت نفوس لا تقاد صعاب

وتستمر مأخوذاً بروعة ما تسمع حتى تصل إلى قوله :
تولى حميد الذكر لم يأت وصمة فتبقى ولم تدنس عليه ثياب
أغر طليق الصفحتين كأنما وراء تراب القبر منه شهاب
ألا إن جسما يستحيل لثربة وإن حياة تنتهي لخسراب
فلا سعي إلا أن يكون لأجل ولا ذكر إلا أن يكون ثواب

فهل رأيت سهولة لفظ، وسمو معنى، وأجمال تعبير، وإشراق وضوح،
في موسيقية وتوقيع — حتى في أوقات تضارب موجات الحزن، وتلاطم
بحار الآلام، أحسن وأجود من هذا.

وهذا هو رثاؤه للوزير أبي محمد عبدالله بن ربيعة، وتأمل كيف غلب عليه حب الطبيعة فأبى إلا أن يمزجها براثه مزجاً غريباً، كامتزاج دموع الحزن بالفرح فجمع بين جمال الطبيعة، ولوعة الفراق. فلم يترك شيئاً من الروض ولا الجدول ولا الغصن ولا الطير المغرد ولا مطلع الأنوار، ولا الأنواء، ولا معهد الشبية ولا الرسم الدائر، ولا السماء ولا الأرض ولا القمر ولا الظلماء ولا الآرام، ولا الفرقدين ولا الجوزاء، إلا ذكره، وذلك حيث يقول :

في كل ناد منك روض ثناء
ولكل شخص هزة الغصن الندي
يا مطلع الأنوار إن بمقلتي
وكفى أسا ألا سفير بيننا
فيم التجميل في زمان بزني
فعريت إلا من قناع كآبة
فاذا مررت بمعهد لشيبيبة
جالت بطرقي للصبابة عيرة
ورفعت كفي بين طرف خاشع
وبسطت في الغبراء خدي ذلة
متمللاً أماً لمصرع سيد
لا والذي أعلقت من تقديسه
وخررت بين يديه أعلم أنه
لا هزني أمل وقد حل الردى
في حيث يذكر ورد ذاك المجتلى
وكفى اكتئاباً أن تعيث يد البلى
فلطالما كنا نريح بظله
فتقت على حكم البشاشة نورها
تنفرج الغماء عنه وكأنه

وبكل خد فيك -جدول ماء
غب اليكاء ورنه المكاء
أسفاً عليك كمنشأ الأنواء
يمشي وأن لا موعد للقاء
ثوب الشباب وحلية النبلاء
وعطلت إلا من حلى بكاء
أو رسم دار للصديق خلاء
كالغيم رق فحال دون سماء
تندى مآقيه وبين دعاء
أستنزل الرحمى من الخضراء
قد كان سابق حلبة النجباء
كفى بحيلي عصمة ورجاء
ذخري ليومي شدة ورخاء
بأبي محمد المحلل النائي
وفرند تلك العزة الغراء
في محو تلك الصورة الحسناء
فريح منه بسرحة غناء
وتنفست في أوجه الجلساء
قمر يمزق شملة الظلماء

قاسمت فيه الرزء أكرم صاحب
يهفو كما هفت الأراكة لوعة
عجبا لها وقدت بصدري جمرة
ولكن تراءى الفرقدان بنا معا
فلطالما كنا نروق المجتلى
يزهى بنا صدر الندي كأننا

فمضى ينوء بأثقل الأعباء
ويبرن طوراً رنة الورقاء
وتفجرت في وجنة عن ماء
فكفناك شهرة سؤدد وعلاء
حسنا ونملاً ناظر العلياء
نسقى هناك قلادة الجوزاء

أما الغزل في شعره فكثير، ومنه يخاطب محبوبه له :

يا رب ليل بتسه
تنهل مزنة دمعتي
أنسيت فيه وقد بكيت
وشرقت فيك بعبرة
فكأنما ينفض عن
ولرب ليل قد صدع
ولهوت فيه بدرة
تندى شقائق وجنتي
وقد استدار بصفحتي
حيث الحيابة دمعة
وتهز منك فتنثني
وتعب من رجراج رد

وكأنه من وصف شعرك
فيه ويندي نور ذكرك
عقيق خدك در ثغرك
قد وردتها نار هجرك
حب لها رمان صدرك
ت ظلامه بجبين بدرك
مكتونة في حق خدرك
ك به وتنفع ربح نشرك
سوسان جيدك ظل درك
تجري بوجنة كأس خمرك
بقضيب قدك ربح سكرك
فك موجة في شط خصرك

وقد تناول ابن خفاجة في شعره الأغراض التي كانت تدور في محيط الناس، وعرض إلى ما عرض له شعراء عصره، ولكن الميدان الذي جال فيه، فال قصب السيق وغدا فارس الحلبة لا يشق له فيه غبار ولا يراحم في مضمار، هو ميدان الوصف الذي انقاد له زمامه ودانته شوارده وأوابده، وهو ينزع عن قوس الطبيعة في سائر أغراضه الشعرية، فإذا مدح يصف الشاء بأنه رطب وأن الصباح ضحك فكشف

عن ثنابا البيض وأن ممدوحه وضاح المحيا، وإذا رثى لا ينسى الوصف
حتى في موقف البكاء فيقول :
في كل ناد منك روض ثناء وبكل حد فيك جدول ماء

وهو في أسلوبه كثير التصنع، لغرامه بالصور البيانية من تشبيه واستعارة
وكتابة وألوان بديعية، فقد كان مولعاً بذلك حتى جاء أكثر شعره يخال
في مطارف التشبيه والمجاز، وربما جره الإمعان في هذا إلى غموض
المعنى واستغراق الفكرة، وكان يعني باصطفاء الألفاظ الجزلة والعبارات
الفحلة والتركيب الرصين، ويتقياً المعنى العميق البعيد الغور ويجنح
إلى المبالغة في أكثر صورهِ الشعرية.

وقد فتن ابن خفاجة بحب الطبيعة وكان لمشاهدها أثر عظيم في
نفسه، فوصفها وأبدع في الوصف وعرض صوراً رائعة حافلة بالمثاني
الأنيقة والأفكار الرشيقة، بل إننا نراه يغوص إلى الأعماق ويستخرج
درر المعاني ولآلئها، ويتكر من الأوصاف ما يعد به شاعر الطبيعة
غير منازع ووصاف معالمها غير مدافع.

تجاوب مع الطبيعة في رقتها وجمالها، فجاء أسلوبه عذباً رائعاً
واختار الألفاظ الناعمة الملمس والأساليب السهلة الرشيقة والعبارات
المشرقة الأنيقة، وعزف عن الغريب عزوفاً تاماً، فلسنا نجد في قصيدته
كلمة يكدي لها الذهن ويستغلق معناها على الفهم.

وهو كثير التصنع في أسلوبه يتبع ألوان البيان من تشبيه واستعارة
حتى لا يكاد يخلو بيت من شعره من هذه الصور البيانية الرائعة التي
تسترعي الأنظار وتستلقت الخواطر بأناقته وجمالها، فليس لديه سوى
الشريف من التشبيهات والطريف من الاستعارات.

نثر ابن خفاجة :

لابن خفاجة قطع ثرية سلك فيها مسلك الشعر من حيث الوصف والخيال، وسار في أسلوبه على نحو أسلوب ابن العميد والهمذاني، من حيث اتباع السجع والتعمل، والقصد إلى ذكر أنواع البيان والبديع، وكان نثره شعر منشور.

يقول وهو من الكتابة المنمقة المملوءة بالألفاظ المختارة والتشبيهات الكبيرة : « ذهبت في لمة من الأخوان، نستيق إلى الراحة ركضاً، ونطوي للفرج أرضاً، فلا ندفع إلا إلى غدیر نمير، قد استدارت منه في كل قرارة سماء سحائبها غماء، وانساب في كل تلة حباب، جلده حباب، فترددنا بتلك الأباطح تهادى تهادى أغصانها، وتتضاحك تضاحك الأفحوان. وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم، تراسل مشى، على بساط وشي، فإذا مر بغدير نسجه درعاً، وأحكمه صنعا، وإن عثر بجذول شطب منه نصلاً، وأخلصه صقلاً، فلا ترى إلا بطاحاً مملوءة سلاحاً، كأنما انهزمت هناك كتائب، فالقت بما لبسته من درع مصقول، وسيف مسلول، فاحتلنا قبة حضراء ممدودة أشطان الأغصان، سندسية رواق الأوراق. وما زلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل، ونتمل عليه برداء نسيم عليل، ونجبل النظر في نهر صقيل، صافي لجين الماء، كأنه مجرة سماء، مؤتلق جوهر الحباب، كأنه من ثغور الأحباب. وقد حضرنا مسمع يجري مع النفوس لطافة، فهو يعلم غرضها وهواها ويغني لها مقترحها ومناها، فصيح لسان النقر.

ومن ذلك قوله لمن كانت بينه وبينه مقاطعة : « أطال الله بقاء سيدي، النبيهة أوصافه، النزيهة عن الاستثناء، المرفوعة إمارته، الكريمة بالابتداء ما انحذفت بآء يرى للجزم، واعتلت واو يغزو بموضع الضم. كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال. وعهد كريم، هو الفعل، لم يدخله اعتلال، والله يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة.

ويعصم هذا بعد من الحروف الجازمة. وإنما استتھض طولك إلى تجديد
عهدك بمطالعة الف الوصل، وتعدية فعل الفصل، وعدولك عن باب
الف القطع، إلى باب الوصل والجمع. حتى تسقط لدرج الكلام بيننا
هاء السكت..

ابن سهل الأندلسي

٦٠٩-٦٤٩هـ

هو إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الأشبيلي الشاعر المشهور، ولد سنة ٦٠٩هـ، وتوفي غريقاً مع حاكم مدينة سبتة سنة ٦٤٩هـ. وكان يهودياً ثم أسلم، سكن آباؤه الأندلس منذ زمن بعيد؛ ثم صاروا من ذوي الجاه والشأن، وقد اتصل ابن سهل ببعض الأمراء فكان كاتباً لصاحب سبتة، وتعلم اللغة والأدب على أشهر علماء زمانه، ومنهم أبو علي الشلوين — ولد بإشبيلية سنة ٥٦٢هـ وتوفي بها سنة ٦٤٥هـ وهو من أكبر علماء النحو واللغة — ثم أخذ في معالجة الشعر حتى برع فيه، فسموه شاعر إشبيلية ووشاحها، وبعد أن أسلم مدح الرسول بقصيدة من أشهر قصائده: وقد عاش ابن سهل في أواخر أيام العرب في الأندلس، أيام بني هود والمرابطين والدولة آخذة في الزوال؛ ولكن العلوم والأدب والترف قد دب في كل ناحية من نواحيها العقلية والاجتماعية وتمكنت الأهواء من النفوس. وهذه البيئة أصلح ما تكون لشاعر مثل ابن سهل؛ لأنه كان كأكثر شعراء زمانه ماجناً امتلأت نفسه بمعاني الغزل.

وأغلب الأغراض في شعر ابن سهل الغزل والثناء والمدح والوصف وله أبيات في التهاني وأبيات في الزهد؛ ولكن أكثر شعره في الغزل.

ولقد حام حول كل ما قيل في ذلك، ولم يدع صغيرة ولا كبيرة مما خطر بنفسه وأمله عليه خياله؛ أو مما عرف في شعر غيره وجادت به أخيلة الشعراء في ذلك إلا ذكره في شعره، وكساه لفظاً من عنده، ونظمه في كلامه حتى لقد يجد العاشق في شعره كل معنى يدب في نفسه، أو شعور يحسه، أو صورة لمن يحبه.

أما معانيه فأكثرها مأخوذة من كلام غيره. وهي أجمع للأوصاف الظاهرة منها للمعاني النفسية؛ كتشبيه حبيبه بالغزال، أو بالفصن النضير، وعيونه بالسيوف، واحمرار خدوده بالجمر. وقوله: إن الحب علمه السهد، وجعله يألف السقام، كما قال:

أهواه حتى العين تألف سهداً فيه وتطرب بالسقام جوارحي

ويقول:

وعذب بالي نعم الله باله وأسهدني لا ذاق طعم التسهد

ويرق في كلامه فيخيل إليك أنه يتكلم بقلبه، وأن ملاقاته حبيبه هي كل أمنية له، ويلتمس له ذنباً كي يجد وسيلة لعنايه. فيقول:

تدنيك زور الأمانسي	منسي وتنأي طلابا
كأنني حين أبغسي	رضاك أبغسي الشيايا
حتى إذا كان ذنب	فصحت للعذر بابا
ظمعت منك لوعد	فكان وردي الشرايا
لا خاب سؤلك أما	سؤلي لديك فخايا

ولقد يمعن في الخيال فتغلبه الألوان بهائها، وتملاً نفسه المناظر الجميلة كقوله في وصف الأصيل:

انظر إلى لون الأصيل كأنه	لا شك لون مودع لقراق
والشمس تنظر نحوه مصفرة	قد خمشت ^(١) خذا من الإشفاق

(١) خمشت الوجه: خدشه ولطمه.

لاقت بحمرتها الخليج فألما خجل الصبا ومدامع العشاق
 سقطت أوان غروبها محمرة كالخمر حرت من أنامل ساق
 ومن بكائه في شعره قوله :
 أبيت أهتف بالشكوى وأشرب من دمعي وأنسق ريا ذكرك العطر
 حتى أخيل أني شارب نمل بين الرياض وبين الكأس والوتر
 ومن معانيه وأخيلته قوله :
 بخده لفؤادي نسبة عجب كلاهما أبدا يدمي من النظر
 أما أسلوبه فيكاد يكون من السهل الممتنع، ولا يؤخذ عليه إلا بعض
 عبارات، ذهب فيها مذهب التكلف في الاستعارة وصورها، محاكياً
 بذلك بعض كبار الشعراء كقوله في الرثاء :
 لئن سود الأفاق يوم حمامه لقد بيضت صحف الحساب فضائله
 وهكذا تجده يمزج السهولة بالتصنع. ولكنه بعد كل هذا شاعر
 مفلور على سلاسة الأسلوب ورقة الألفاظ، كما تجد ذلك في موشحته
 الشهيرة التي تعتبر من أجمل الموشحات. وربما أغرب من الخيال،
 كما شبه ابتسام حبيبه له وهو يبكي بالروض المنور تمطره السماء،
 وكأن القطر بكاء في مأتى، وكأن الروض في جماله عرس جمع أنواع
 السرور إذ يقول في موشحته :
 كلما أشكوه وجدي بسما كالربا بالعارض المنبجس
 إذ يقيم القطر فيها مأتى وهي من بهجتها في عرس

ابن حزم الشاعر :

قد سبق أن تحدثنا عن ابن حزم الفيلسوف المتكلم، ولا يعرف الأدباء عنه أنه كان شاعراً مجيداً، قال عنه التميمي المراكشي أبو محمد محيي الدين عبد الواحد بن علي في كتابه تاريخ الأندلس المسمى « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » :

سكن ابن حزم هو وأبوه قرطبة، وكان أبوه من وزراء المنصور محمد ابن أبي عامر ومن وزراء ابنه المظفر بعده، وكان هو المدير لدولتهما، وكان ابنه أبو محمد الفقيه وزيراً لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ابن الناصر الملقب بالمستظهر بالله أخي المهدي، ثم إنه نبذ الوزارة واطرحها اختياراً وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن فنال من ذلك ما لم ينل أحد قبله بالأندلس وكان على مذهب الإمام الشافعي أقام على ذلك زمناً ثم انتقل إلى القول بالظاهر وأفرط في ذلك حتى أربى على أبي سليمان داود الظاهري وغيره من أهل الظاهر، وله مصنفات كثيرة جليلة القدر شريفة المقصد في أصول الفقه وفروعه على مهيبة الذي يسلكه ومذهبه الذي يتقلده، ومذهب داود بن علي بن خلف الأصبهاني الظاهري ومن قال بقوله من أهل الظاهر ونفاة القياس والتعليل ومبلغ تصانيفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين نحو من اربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، ولا يقاربه في ذلك إلا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري فإنه أكثر أهل الاسلام تصنيفاً، فقد ذكر أبو محمد عبدالله بن محمد بن جعفر الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير أن قوماً من تلاميذ أبي جعفر لخصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفي في سنة ٣١٠هـ وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار لكل يوم أربع عشر ورقة وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بفضل الله.

ولأبي محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة
وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة، فمن شعره :
هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا فجائعه تقي ولذاته تفنى
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات في المعاد وموقف نود لديه أننا لم نكن كنا
حصلنا على هم وإثم وحسرة وفات الذي كنا نقر به عيننا
حين لما ولي وشغل بما أتى وغم لما يرجى فعيشك لا يهنا
كان الذي كنا نسر بكونه إذا حققته النفس لفظ بلا معنى

وله من قصيدة طويلة :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعني الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع لجد على ما ضاع من ذكرى النهب
ولي نحو أكتاف العراق صباية ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فان ينزل الرحمن رحلي بينهم فحيث يدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر وأطلب ما عنه تجيء به الكتب
هنالك يدري أن للبعد قصة وأن كساد العلم أفته القرب

ومنها في الاعتذار عن مدحه لنفسه :

ولكن لي في يوسف خير أسوة وليس على من بالنبي إثم ذنب
يقول وقال الحق والصدق إنني حفيظ عليهم ما على صادق عتب

ومن المختار له قوله :

لا يشمتن حاسدي إن نكبة عرضت فالدهر ليس على حالين يترك
ذو الفضل كالتبر طورا تحت ميقعة وتارة في ذرى تاج على ملك

ومن ذلك قوله :

لئن أصبحت مرتجلا بشخصي فروحي عندكم أبداً مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى له سأل المعانيئة الكليم

ومن أجود ما أحفظ له بيتان قالهما في رجل تمام :
أنم في المرآة في كل ما درى وأقطع بين الناس من قضب الهند
كأن المنايا والزمان تعلمنا تحيله في القطع بين ذوي الود
وقد ولد الأربعاء بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم
من شهر رمضان سنة ٣٨٤ وتوفي في شعبان سنة ٤٥٦، وحسبه أنه
أشهر علماء الأندلس وأكثرهم ذكراً في مجلس الرؤساء وعلى ألسنة
العلماء، وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر،
ولم يشتهر به قبله أحد.

ابن عيدون الشاعر :

كان من ملوك الطوائف^(١) ابن الأقطس الملقب بالمظفر، وكان له
ابن اسمه عمر يكنى أبا محمد لقب بالمتوكل على الله كان يملك
بطليوس وأعمالها ويابره وشتتين والاشبونة، وكان المظفر هذا أحرص
الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونوادير الأخبار
وعيون التاريخ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتاباً كبيراً ترجمه
باسمه على نحو الاختيارات وعيون الأخبار لابن قتيبة، وجاء هذا الكتاب
في نحو من عشرة أجزاء ضخمة، وكان للمتوكل قدم راسخة في
صناعة المنطق والنثر مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة وكان لا يغيب
الغزو ولا يشغله عنه شيء، واتصلت مملكته الى أن قتله المرابطون أصحاب
يوسف بن تاشفين وقتلوا ولديه : الفضل والعباس صبراً، ضربوا أعناقهم
في غرة سنة ٤٨٥ هـ وكانت أيام بني المظفر بمغرب الأندلس أعياداً
ومواسم، وكانوا ملجأً لأهل الآداب، خلدت فيهم قصائد شادت بمآثرهم
وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم، وفيهم يقول الوزير الكاتب

(١) راجع ٤١ المعجب للمراكشي.

ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبدون من أهل مدينة يابرة
قصيدته الغراء، لا بل عقيلته العذراء، التي أزررت على الشعر، وزادت
على السحر، وفعلت في الألياب فعل الخمر، فجلت عن أن تسامى
وأنفقت من أن تضاهي فقل لها النظر، وكثر اليها المشير، وتساوى
في تفضيلها وتقديمها بأقل وجري، فله هي من عقيلة خدر قربت
بسهولتها حتى أطمعت، وبعدت حتى عزت فامتعت، وهي مشهورة
لصححة مبانها، ورشاقة ألفاظها وجودة معانيها. وسلك فيها أبو محمد
رحمه الله طريقة لم يسبق اليها، وورد شرعة لم يراحم عليها فلذلك
قل مثلها لا بل عدم، وعز نظيرها فما توهم ولا علم، وهي :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر
أنهاك أنهاك لا ألوك موعظة
فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة
ولا هوادة بين الرأس تأخذه
فلا تغرنك من دنياك نومتها
ما لليالي أقال الله عثرتنا
نسر بالشيء لكن كي نغربه
كم دولة وليت بالنصر خدمتها
هوت بدارا وقلت غرب قاتله
واسترجعت من بني ساسان ما وهبت
وألحفت أختها طسما وعاد على
وما أقال ذوي الهيآت من يمن
بني المظفر والأيام لا نزلت
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت
من للأسرة أو للأعنة أو
من للظي وعوالي الحظ قد عقدت
وطوقت بالمنايا السود بيضهم

فما البكاء على الأشباح والصور
عن نومة بين ناب الليث والظفر
والبيض والسود مثل البيض والسمر
يد الضراب وبين الصارم الذكر
فما صناعة عينها سوى السهر
من الليالي وخانتها يد الغير
كالإيم نار إلى الجاني من الزهر
لم تبق منها وسل ذكراك من خير
وكان غضباً على الأملاك ذا أثر
ولم تدع لبني يونان من أثر
عاد وجرهم منها ناقض المرر
ولا أجارت ذوي الغايات من مضر
مراحل والورى منها على سفر
بمثله ليللة فسي غابر العمر
من للأسنة يهديها الى الثغر
أطراف ألسنها بالعي والحصر
فاعجب بذاك وما منها سوى الذكر

من للبراعة أو من للبراعة أو
أو دفع كارثة أو ردع رادفة
ويب السماح ويب الباس لو سلما
سقت ثرى الفضل والعباس هامية
ثلاثة كذوات الدهر منذ نأوا
ومر من كل شيء فيه أطيبه
أين الجلال الذي غضت مهابته
أين الإباء الذي أرسوا قواعده
أين الوفاء الذي أصفه شرائعه
كانوا رواسي أرض الله منذ مضوا
كانوا مصابيحها فمذ حيوا عثرت
كانوا شجي الدهر فاستهوتهم خدع
ويل أمه من طلوب الثأر مدركه
من لي ولا من بهم ان أظلمت نوب
من لي ولا من بهم ان عطلت سنن
من لي ولا من بهم ان طبقت محن
على الفضائل إلا الصبر بعدهم
يرجو عسى وله في أختها أمل
قرطت آذان من فيها بفاضحة
مطاعة الأمر في الباب قاضية

من للبراعة أو من للبراعة أو
أو قمع حادثة تعبي على القدر
وحسرة الدين والدنيا على عمر
تعزى اليهم سماحا لا إلى المطر
عنى مضى الدهر لم يربح ولم يحر
حتى التمتع بالآصال والبكر
قلوبنا وعيون الأنجم الزهر
على دعائم من عز ومن ظفر
فلم يرد أحد منها على كدر
عنه استطارت بمن فيها ولم تفر
هذي الخليفة يا الله في صدر
منه بأحلام عاد في خطي الحضر
منهم بأسد شراة في الوغى صبر
ولم يكن ليها يفضي إلى سحر
وأخفيت ألسن الآثار والسير
ولم يكن وردها يدعو إلى صدر
سلام مرتقب للأجر منتظر
والدهر ذو عقب شتى وذو غير
على الحسان حصى الياقوت والدرر
على المسامح ما لم يقض من وطر

وكان ابن عبدون يكتب للمتوكل على الله ونمت حاله معه، وهو
أحد كتاب المغرب، وممن جمع منهم فضيلة الكتابة والشعر على أنه
مقل من النظم لم يثبت له منه إلا يسير النسبة إلى غزارة آدابه ونيابة
قدره، وحكى عن نفسه رحمه الله أنه كان بين يدي مؤدبه وسنه
إذ ذلك ثلاث عشرة سنة، فعن للمؤدب أن قال (الشعر خطة خسف)

وجعل يردد هذا القول؛ قال الوزير ابن عبدون فكتبت في لوحى مجيزاً له : لكل طالب عرف، ثم خطر لي بيت ثان وهو :

للشيخ عيبة عيب وللفتى ظرف ظرف

قال: فنظر إلي المؤدب وقال: يا عبد المجيد ما الذي تكتب فأرئيت اللوح. فلما رآه طمئني وعرك أذني وقال لا تشغل بهذا، وكتب البيتين عنده، ومن غزارة حفظ ابن عبدون ما حدث الوزير أبو بكر محمد ابن عبد الملك ابن زهر قال: بينما أنا قاعد في دهليز دارنا وعندى رجل ناسخ أمرته أن يكتب لي كتاب الأغاني فجاء الناسخ بالكراريس التي كتبها فقلت له : أين الأصل لأقابل معك به ؟ قال : ما أتيت به معي فبينما أنا معه في ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذ الهيئة عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لائها من غير إتقان لها، فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية، فسلم وقعد وقال لي : يا بني استأذن لي على الوزير أبي مروان، فقلت له، هو نائم هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف، حملني على ذلك نزوة الصبي وما رأيت من خشونة هيئة الرجل، ثم سكت عني ساعة وقال ما هذا الكتاب الذي بأيديكما ؟ فقلت له ما سؤالك عنه ؟ فقال أحب أن أعرف اسمه فاني كنت أعرف أسماء الكتب، فقلت هو كتاب الأغاني فقال إلى أين بلغ الكاتب منه ؟ قلت بلغ موضع كذا وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على ما قاله فقال : وما لكاتبك لا يكتب ؟ قلت طلب منه الأصل الذي يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق فقال لم أجيء به معي فقال: يا بني خذ ريشتك وعارض قلت بماذا وأين الأصل قال : كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي قال : فتبسمت من قوله فلما رأى تبسمي قال يا بني أمسك علي. قال : فأمسكت عليه وجعل يقرأ فوالله ان أخطأ واوأ ولا فاء قرأ هكذا نحواً من كراستين ثم أخذت له في وسط السفر وآخره فرأيت حفظه في ذلك كله سواء، فاشتد عجبى وقمت مسرعاً حتى

دخلت على أبي فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل. فقام كما هو من فوره، وكان ملتفاً برداء ليس عليه قميص، وخرج حاسر الرأس حافي القدمين لا يرفق على نفسه وأنا بين يديه، وهو يوسعني لوماً حتى ترامى على الرجل وعانقه وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول : يا مولاي اعذرني فوالله ما أعلمني هذا الخلف إلا الساعة وجعل يسبني والرجل يخفض عليه ويقول : ما عرفني وأبي يقول هبه ما عرفك فما عذره في حسن الأدب، ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثا طويلاً، ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافياً حتى بلغ الباب وأمر بدابته التي يركبها فأسرجت وحلف عليه ليركبها ثم لا ترجع إليه أبداً. فلما انفصل قلت لأبي : من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم قال لي اسكت ويحك هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها في علم الآداب هذا محمد عبد المجيد بن عبدون، أيسر محفوظاته كتاب الأغاني وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته.

أبو بكر بن زهر الشاعر :

أديب الأندلس وشاعرها وعالمها، روى له شعر كثير، منه :
لاح المشيب على رأسي فقلت له الشيب والعيب لا والله ما اجتماعا
يا ساقى الكاس لا تعدل إلي بها فقد هجرت الحميا والحميم معا

ومن شعره :

إني نظرت إلى المرأة إذ جليت فانكرت مقلناي كلما رأتا
رأيت فيها شيخاً لست أعرفه وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى

وله شعر كثير أجاد في أكثره. وأما الموشحات خاصة فهو الامام المقدم فيها، وطريقته هي الغاية القصوى التي يجري كل من بعده اليها، وهو آخر المجيدين في صناعتها.

بنو عباد في إشبيلية ونهضة الشعر في دولتهم

١ — عاشت إشبيلية في عهد ملوك الطوائف تحت حكم بني عباد، وأول من تولاهم منهم بعد بني جهور هو أبو القاسم محمد بن اسماعيل ابن عباد اللخمي وقد أجمع أهل إشبيلية على اختياره لما يعلمونه من حصافة عقله وعلو همته وحسن تديره، يقول المراكشي في كتابه «المعجب»^(١) : تهبب أبو القاسم الاستبداد، وخاف عاقبة الانفراد، وأبى ذلك (أي الإمارة) إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالاً ساهم لهم، يكونون له أعواناً ووزراء. وشركاء لا يقطع أمراً دونهم ولا يحدث حدثاً إلا بمشورتهم^(٢)، ومنهم: الوزير أبو بكر محمد ابن الحسن الزبيدي، ومحمد بن بريم الألهاني، وأبو الأصبغ عيسى ابن حجاج الحضرمي، وأبو محمد عبدالله بن علي الهوازني وسواهم، ففعلوا ذلك، وأجابوه إلى ما أراد؛ وظل يدير الأمور إلى أن مات سنة ٤٣٩هـ.

٢ — فتولى بعده ابنه أبو عمر وعباد بن محمد بن اسماعيل بن عباد المعتضد بالله، فسار على نهج أبيه في إظهار الإصلاح، وحسن التدبير، وبسط العدل، ثم استبد بالأمور وحده، وكان شهماً صارماً حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمّة ذا دهاء وواتته مع هذا المقادير فلم يزل يعمل في قطع هؤلاء الوزراء واحداً واحداً فمنهم من قتله صبراً، ومنهم من نفاه عن البلاد ومنهم من أماته خمولاً وفقراً، التي أن تم له ما اراده من الاستبداد بالأمر ولقب بالمعتضد بالله.

ولم يزل المعتضد يدوخ الممالك وتدين له الملوك من جميع أقطار الأندلس، وبلغ من قسوته أن قتل ابنه وولي عهده «اسماعيل» صبراً، وظل كذلك حتى توفي عام ٤٦٤هـ.

(١) المعجب ص ٤٩.

(٢) هذه هي مجالس الوزراء في الدول العريقة في الديمقراطية.

٣ — وقام بالأمر بعده علي إشبيلية ونواحيها ابنه أبو القاسم محمد ابن عباد بن اسماعيل بن عباد الملقب بالمعتمد على الله.

حكم المعتمد :

وكان المعتمد هذا يشبه بهارون الواثق بالله من ملوك بني العباس: ذكاء نفس وغازاة أدب، وكان شعره كأنه الحلل المنشرة، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس، وكان مقتصراً من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم إليه وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية ما لا يحصى كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة الى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة، وفي الجملة فلا أعلم خصلة تحمد في رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم وضرب له فيها بأوفى سهم، وإذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى أيامه فالمعتمد هذا أحدها بل أكبرها.

ولي أمر اشبيلية بعد أبيه وله سبع وثلاثون سنة واتفقت له المحنة الكبرى بخلعه وإخراجه عن ملكه في شهر رجب الكائن في سنة ٤٨٤ فكانت مدة ولايته الى أن خلع وأسر عشرين سنة كانت له في أضعافها مآثر أعيا على غيره جمعها في مائة سنة وأكثر منها.

وكانت له همة في تخليد النشاء وإبقاء الحمد وكان من جملة شعرائه شاعر من أهل مدينة مرسية اسمه عبد الجليل بن وهيون كان حسن الشعر لطيف المأخذ حسن التوصل الى دقيق المعاني، أنشد يوماً بين يدي المعتمد بعض الحاضرين بيتين لعبد الجليل بن وهيون قالهما قديماً قبل وصوله إلى المعتمد وهما :

قل الوفاء فما تلقاه في أحد ولا يمر لمخلوق على بال
وصار عندهم عنقاء مغربة أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال

فأعجب المعتمد بهما وقال : لمن هذان البيتان ؟ فقالوا : هما لعبد
الجليل ابن وهيون. فقال المعتمد عند ذلك : هذا والله اللؤم البحت،
رجل من خدامنا والمنقطعين الينا يقول : أو مثل ما حدثوا عن ألف
مثقال، وهل يتحدث أحد عنا بأسوأ من هذه الأحدثوة وأمر له بألف
مثقال، فلما دخل عليه يشكره، قال له : يا أبا محمد، هل عاد الخير
عيانا ؟ قال : اي والله يا مولاي، ودعا له بطول البقاء، فلما هم بالانصراف
قال له : يا عبد الجليل الآن حدث بها لا عنها.

ولابن عباد شعر كثير برز في أكثره وأجاد. ومنه قوله :
علل فؤادك قد ابل عليل واغنم حياتك فالبقاء قليل
لو أن عمرك الف عام كامل ما كان حقاً أن يقال طويل
أكذا يقود بك الأسى نحو الردى والعود عود والشمول شمول
لا يستبيك الهم نفسك عنوة والكأس سيف في يدك صقيل
بالعقل تزدهم الهموم على الحشا فالعقل عندي أن تزول عقول
ومن شعره قوله في مملوك له صغير كان يتصرف بين يديه أهده
له صاحب طليظة وكان اسم المملوك (سيفا) :

سموه سيفاً وفيه عينه سيفان هذا لقتلي مسلول وهذان
أما كفت قتلة بالسيف واحدة حتى أتيج من الأجفان ثتان
أسرته وثناني غنج مقلته أسيره فكلانا أسر عاني
يا سيف أمسك بمعروف أسير هوى لا يتغي منك تسريحاً باحسان

ومن شعره الرشيقي الخفيف الروح الذي حكى الماء سلاسة والصخر
ملاسة قوله في هذا المملوك :

تم له الحسن بالعدار واقترن الليل بالنهار
اخضر في أبيض تبدي ذلك آسى وذا بهاري
فقد حوى مجلسي تماما ان كان من ريقه عقاري

وبينا هو يوماً في قبة له يكتب شيئاً أو يطالع وعنده بعض كرائمه،

دخلت عليه الشمس من بعض الكوى الكائنة فيها فقامت جارية دونه
تستره من الشمس فقال :
قامت لتحجب ضوء الشمس قامتها عن ناظري حجبت عن ناظر الغير
علما لعمرك منها أنها قمر هل تكسف الشمس إلا صورة القمر
وكانت جارية من كرائمه قائمة على رأسه تسقيه والكأس في يدها
إذ لمع البرق فارتاعت فقال :
ربعت من البرق وفي كفها برق من القهوة لماع ؟
عجبت منها وهي شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع
وله مقاطع حسان كان يرتجلها في مجالس أنسه، وله شعر قاله
في أيام محنته.

وزراء المعتمد :

كان المعتمد لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حسن
الأدوات، فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله :
١ - فمن جملة وزرائه الوزير الأجل ذو الرياستين أبو الوليد أحمد
ابن عبدالله بن أحمد بن زيدون ذو الأدب البارع والشعر الرائع أحد
شعراء الأندلس المجيدين وفحولها المبرزين كان إذا نسب أنسك كثيراً،
وإذا مدح أزرى بزهر وإذا فخر أناف على امرئ القيس. ومن جملة
مقاطعته التي تشهد له بجودة الطبع واتقان الصنعة قوله :
بيني وبينك ما لو شئت لم يضع سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع
يا بائعاً حظه مني ولو بذلت لي الحياة بحظي منه لم أبيع
يكفيك أنك إن حملت قلبي ما لا تستطيع قلوب الناس يستطع
ته أحتمل واستطل أصر وعزأهن وول أقبل وقل أسمع ومر أطمع
وهو القائل يخاطب بني جهور، وكان قد وزر لهم قبل وزارته للمعتمد،

لأن أصله من مدينة قرطبة فخالته منهم محنة، فخرج عن قرطبة إلى
 اشبيلية وافداً على المعتمد فعلت رتبته عنده، فكان يبلغه عن بني جهور
 ما يسوؤه في نفسه وقرابته بقرطبة، فقال يخاطبهم :
 بني جهور أحرقتمو بجفائكم فؤادي فما بال المدائح تعمق
 تعدوني كالغدير الورد إنما تفوح لكم أنفاسه حين يحرق
 ومن نسيه الذي يختلط بالروح رقة ويمتزج بأجزاء الهواء لطافة :
 قصيدته التي قالها يتشوق ابنة المهدي : ولادة، وهي بقرطبة وهو
 باشبيلية :

ينتم وينا فما ابتلت جوانحنا	شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا	يقضي علينا الأسي لولا تأسينا
حالت لفقدكم أماننا فغدت	سودا وكانت بكم بيضا ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألقنا	ومورد اللهب صاف من تصاقينا

٢ — ومن وزراء ابن عباد كذلك الوزير أبو بكر محمد بن عمار،
 ذو النفس العصامية والآداب الرفيعة، كان أحد الشعراء المجيدين علي
 طريقة أبي القاسم محمد بن هاني الأندلسي، وربما كان أحلى منزعاً
 منه في كثير من شعره، وله ديوان يدور بين أيدي أهل الأندلس، ولا
 نرى شاعراً أندلسياً عاصراً إلا وكان مقدماً له مؤثراً لشعره، وربما
 تعالى بعضهم فشيبهه بأبي الطيب وهيهات، فمن قصائده المشهورة التي
 أجاد فيها ما أراد : قصيدته التي كتب بها من سرقسطة حين فرق
 المعتضد بالله بينه وبين المعتمد لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه وهي :
 علي وإلا ما بكاء الغمامم وفي وإلا ما نواح الحمامم
 وعني أثار الرعد صرخة طالب لثار وهز البرق صفحة صارم
 وما لبست زهر النجوم حدادها لغيري ولا قامت له في ماتم
 وفي هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد بالله :
 أبي أن يراه الله إلا مقلداً خميعة سيف أو حمالة غارم

ومن جيد نسيبه قوله في قصيدة يمدح بها المعتضد بالله :

لا تطلبوا في الحب عزا إنما	عبدانه في حكمه أحراره
قالوا أضربك الهوى فأجبتهم	يا حبهذا وحبذا أضراره
قلبي هو اختار السقام لجسمه	زياً فخلوه وما يختاره
عيرتموني بالنحول وإنما	شرف المهند أن ترق شفاره
ووشيتم لسراق من آفته	ولربما حجب الهلال سراره
أحسبتم السلوان هب نسيمه	أو أن ذاك النوم عاد غراره
إن كان أعيا القلب من حرب الجوى	خذلته من دمعي إذا أنصاره
من قد قلبي إذ تثنى قده	وأقام عذري إذ أطل عذاره
أم من طوى الصبح المنير نقابه	وأحاط بالليل بهيم خماره
غصن ولكن النفوس رياضه	رشاً ولكن القلوب عراره
سخرت بيد التم غرته كما	أزرت على آفاته أزراره
ما زال ليل الوصل من فتكاته	تسري إلي بعرفه أسحاره
حتى سقاني الدهر كأس فراقه	فسكرت سكرأ لا يفيق خماره
ووقفت في مثل المحصب موقفا	للبين من حب القلوب جماره
حيران أعمى الطرف وهو سماؤه	وأذاب فيه القلب وهو قراره
ولئن يذبه وهو مثواه فكم	قد أحرقت عود الثقائب ناره
إن يهنه أنسي أضعت لحيه	قلبي وذاعت عنده أسراره
فليهن قلبي ان شكاه وشاحه	لسواره فاقتص منه سواره
فوحسنه لقد انتدبت لوصفه	بالنجل لولا أن حمصا داره
بلد رمتني بالمتى أغصانه	وتفجرت لي بالندى أنهاره

ولابن عمار مع المعتمد أخيار عني يجمعها أهل الأندلس. وابن عمار هو محمد بن عمار... ويكنى أبا بكر، أصله من شلب، من قرية من أعمالها يقال لها شنبوس، وكان مولده ومولد آبائه بها كان حامل البيت ليس له ولا لاسلافه في الرياسة في قديم الدهر ولا حديثه

حظ ولا ذكر منهم بها أحد، ورد مدينة شلب طفلاً فنشأ بها وتعلم الأدب على جماعة منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعمى، ثم رحل إلى قرطبة فتأدب بها ومهر في صناعة الشعر فكان قصاراه التكسب به فلم يزل يجول في الأندلس مسترفداً، لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم، بل لا يبالي ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سوقه وله في ذلك خبر ظريف، وذلك أنه ورد في بعض سفراته شلب لا يملك إلا دابة لا يجد علفها، فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق، فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيراً ووجه بها إليه، فرآها ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز. ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به الحظ وانتهى أمره أن ولاه المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها، وأول ما أفضى الأمر إليه فدخلها ابن عمار في موكب ضخم وجملة عبيد وحشم، وأظهر نخوة لم يظهرها المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المعتمد بالله، فكان أول شيء سأل عنه صاحبه صاحب الشعير، فقال ما صنع فلان أهو حي قالوا نعم، فأرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله قل له : لو ملأتها برأ لمأناها تبرا، ولم يزل ابن عمار على الحال التي ذكرناها من التقلب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف إلى أن ورد على المعتمد بالله أبي عمر فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل منا العنبرا
وفيها يقول يمدح المعتمد :

قداح زبد المجد لا ينفك من نار الوغى إلا إلى نار القرى
يختار أن يهب الخريدة كاعبا والطرف أجرد والحسام مجوها
وفي هذه القصيدة يقول في وصف وقعة أوقعها المعتمد بالبربر :
شقيت بسيفك أمة لم تعتقد إلا اليهود وإن تسموا بربراً

أثمرت رمحك من رؤوس كمانهم لما رأيت العصن يعشق مثمرا
وخضبت سيفك من دماء نحورهم لما عهدت الحسن يليس أحمر
من أبيات هذه القصيدة :

السيف أفصح من زياد خطيبة في الحرب ان كانت يمينك منبرا
ولما أنشد هذه القصيدة استحسنتها وأمر له بمال وثياب ومركب،
وأمر أن تكتب في ديوان الشعراء، فكان ذلك، ثم تعلق بالمعتمد على
الله وهو إذ ذاك شاب لم تزل حاله معه تزيد، وأسباب خدمته له
تقوى وتتأكد إلى أن صار ابن عمار الصق بالمعتمد في كل شيء،
وأدنى إليه من حبل وريده، كان المعتمد لا يستغني عنه ساعة من
ليل ولا نهار، ثم اتفق أن ولي المعتمد على الله شلب من قبل أبيه
فاستوزر ابن عمار هذا في تلك الولاية وسلم إليه جميع أموره، فغلب
عليه ابن عمار، فرأس المعتضد التفريق بينهما ونفى ابن عمار عن بلاده،
فلم يزل ابن عمار مغترباً في أقاصي بلاد الأندلس إلى ان توفي المعتضد
بالله، فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقرب حتى كان يشاركه فيما لا
يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه، وله معه أيام كونهما بشلب أخبار
طريفة، وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه على ما كانت
العادة جارية به، إلا أنه في تلك الليلة زاد في التحفي به والبره على
المعتاد، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه لتضعن رأسك معي
على وساد واحد، فكان ذلك. قال ابن عمار فهتف بي هاتف في
النوم يقول : لا تغتر أيها المسكين انه سيقنتك لو بعد حين، قال :
انتهت من نومي فرعاً وتعوذت ثم عدت فهتف بي الهاتف على حالته
الأولى، فانتهت ثم عدت فسمعتة ثالثة فتجردت من أثوابي والتفتت
في بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مسخفياً به وقد أزمعت على
أنى إذا أصبحت خرجت مستخفياً حتى آتى البحر فاركبه واقصد بلاد
العدوة فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت، فانتبه المعتمد فاقتدني
فلم يجدني فأمر بطلي فطلبت له في نواحي القصر، وخرج هو بنفسه

يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه، فكان هو الذي وقع علي، وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح فوقف بازاء الحصار الذي كنت فيه فكانت مني حركة فأحس بي وقال ما هذا الذي يتحرك في هذا الحصار، ثم أمر به فنفض فخرجت عرياناً، ليس علي إلا السراويل، فلما رأني فاضت عيناه دموعاً، وقال : يا أبا بكر ما الذي حملك علي هذا، فلم أر بدأ من أن صدقته فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها فضحك، وقال : يا أبا بكر أضغاث أحلام هذه آثار الخمار ثم قال لي : وكيف أقتلك ؟ رأيت أحداً يقتل نفسه، وهل أنت عندي إلا كنفسي، فشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء وتناسى الأمر فتسيه ومرت علي ذلك الأيام والليالي.

ولما أفضى الأمر إلى المعتمد سأله ابن عمار ولاية شلب وهي كانت بلده ومنشأه كما تقدم، فأجابه المعتمد الي ذلك، وولاه إياها أنه ولاية، وجعل إليه جميع أمورها وخارجها وداخلها، فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد اليه وضعف عن احتمال الصبر عنه، فاستدعاه وعزله عنها واستوزره، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد، ولم يزل المعتمد يعده لكل أمر جليل ويؤهله لكل رتبة عالية، وكان ابن عمار مع هذا لا يناط به أمر الا اضطلع به، واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الروم إذ ذكر عنده ابن عمار قال هو رجل الجزيرة، وكان ابن عمار هو الذي رده عن قصد إشبيلية وقرطبة وأعمالهما، وذلك أن خرج من جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعاً فيها فخافه الناس وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعباً منه، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه فتولى ابن عمار رده بالطف حيلة وأيسر تدبير، وذلك أنه أقام سفرة شطرنج في غاية الاتقان والابداع لم يكن عند ملك مثلها جعل صورها من الآبنوس والعود الرطب والصندل وجلاها بالذهب وجعل أرضها في

غاية الأتقان، فخرج من عند المعتمد رسولاً إلى ملك الروم فلقبه في أول بلاد المسلمين، فأعظم الملك قدومه وبالغ في إكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خيائه والمسارة في حوائجه، فإظهار ابن عمار تلك السفارة فرأها بعض خواص الملك فنقل خبرها إليه، وكان الملك مولعاً بالشطرنج، فلما لقي ابن عمار سأله كيف أنت في الشطرنج؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية بمكانة منه فقال له: بلخني إن عندك سفرة في غاية الأتقان، قال ابن عمار نعم، فقال: كيف السبيل إلى رؤيتها؟ فقال ابن عمار لترجمانه: قل له أنا آتيتك بها على أن ألعب معك عليها، فإن غلبتني فهي لك، وإن غلبتني فلي حكمي، فقال له الملك: هلم لننظر إليها، فأمر ابن عمار من جاء بها فلما وضعت بين يدي الملك تعجب وقال: ما ظننت أن اتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد. ثم قال لابن عمار: كيف قلت، فأعاد عليه الكلام الأول، فقال له الملك لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدري ما هو ولعله شيء لا يمكنني، فقال ابن عمار لا ألعب إلا على هذا الوجه، وأمر بالسفرة فطويت، وكشف ابن عمار سر ما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الملك وجعل لهم أموالاً عظيمة على أن يؤازروه على أمره ففعلوا، فتعلقت نفس الملك بالسفرة وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار، فهونوا عليه وقالوا له: إن غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم، وقبحوا عنده إظهار الملك بالمعجز عن شيء يطلب منه، وقالوا له: إن طلب ابن عمار مالاً يمكن فنحن لك نرده عن ذلك، ولم يزالوا به حتى أجاب، وأرسل إلى ابن عمار فجاء ومعه السفارة فقال له: قد قبلت ما رسمته فقال له ابن عمار فاجعل بيني وبينك شهوداً سماهم له، فأمر الملك بهم فحضروا وأخذنا يلعبان، وكان ابن عمار طبقة بالأندلس لا يقوم له أحد فيها، فغلب الملك غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين. فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار: هل صح أن لي حكمي قال نعم، فما ل هو؟ قال: أن ترجع

من هنا إلى بلادك؛ فاسود وجه الملك وقام وقعد وقال لخواصه قد كنت أخاف من هذا حتى هونتموه علي، وهم بالنكث والتمادي لوجهه فقبحوا ذلك عليه، وقالوا : كيف يجمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى في وقتك، فلم يزالوا به حتى سكن وقال لا أرجع حتى آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة، فقال ابن عمار هذا كله لك وجاءه بما أراد فرجع، وكف الله بأسه؛ ودفعه بحوله وحسن دفاعه عن المسلمين ورجع ابن عمار إلى إشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به.

وأخيراً تغيرت نفس المعتمد من ابن عمار فقبض عليه أعوانه، ودخلوا به قرطبة؛ ووافق ذلك كون المعتمد بها، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه على بعل بين عدلي تين وقيوده ظاهرة للناس، وقد كان المعتمد أمر باخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا اليه على تلك الحال، وقد كان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم، فالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام، وغيرهم لا يصل إلا إلى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه، ومنهم من ينظر إليه على بعد لا يستطيع الوصول إليه.

ودخل ابن عمار قرطبة — بعد العزة القعساء والملك الشامخ والرياسة الفارغة — ذليلاً خائفاً فقيراً لا يملك إلا ثوبه الذي عليه، واخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال : لما قربنا من قرطبة بحيث يرانا الناس خرج فارس من البلد يركض يقصدنا، فلما رآه ابن عمار وكان معتماً ازال العمامة عن رأسه فجاء الفارس حتى وصل الينا فنظر الي ابن عمار ودخل معنا في الصف فمشى، فسألناه فيم جاء فقال : الذي جئت فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه فعلمنا أنه ارسل ليزيل عمامته، فادخل على المعتمد على الله يرسف في قيوده، فجعل المعتمد يعدد عليه أبياديه ونعمه وابن عمار في ذلك

كله مطرق لا ينبس، إلى أن انقضى كلام المعتمد، فكان من جواب
 ابن عمار ان قال : ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا أبقاه الله، ولو
 أنكرته لشهدت علي به الجمادات فضلاً عن ينطق، ولكني عثرت
 فأقل، وزلت فاصفح، فقال المعتمد هيهات أنها عشرة لا تقال، وأمر
 به فاحدر في النهر إلى إشبيلية فدخل به إشبيلية على الحال التي دخل
 عليها قرطبة وجعل في غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر
 المبارك، فطال سجنه هناك، وكتب عنه في هذا السجن قصائد لو
 توصل بها إلى الدهر لنزع من جواره، أو إلى الفلك لكف عن دواره،
 فكانت رقي لم تنجح، ودعوات لم تسمع، ونمائم لم تنفع، فمنها قوله :
 سجايك ان عفيت أندى وأسجح وعذرك ان عاقبت أجلي وأوضح
 وان كان بين الخططين مقامة فانت إلى الأدي من الله تجنح
 حنانيك في أخذي برأبك لا تطع عداي ولو أثنوا عليك وأفصحوا
 فان رجائي ان عندك غير ما يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
 ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمة يكران في ليل الخطايا فيصبح
 وهني وقد أعقت أعمال مفسد أما تفسد الأعمال ثم تصلح
 أقلني بما بيني وبينك من رضى له نحو روح الله باب مفتح
 وعف على آثار جرم سلكتها بهية رحى منك تمحو وتمصح
 ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم فكل اناء بالذي فيه يرشح
 سيأتيك في أمري حديث وقد أتى بزور بني عبد العزيز موشح
 وما ذاك الا ما علمت فانني اذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح
 كأنني بهم لا در لله درهم أشاروا تجاهي بالشمات وصرخوا
 وقالوا سيجزيه فلان بفعله فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
 ألا أن بطشاً للمؤيد يرتجى ولكن حلمياً للمؤيد يرجح
 وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا سوى أن ذنبي واضح متصحح
 نعم لي ذنب غير أن لحلمه صفاة يزل الذنب عنها فيسفع
 عليه سلام كيف دار به الهوى إلسي فيدنسو أو علي فينزرح

ويهنئه ان مت السلو فانسي أموت ولي شوق إليه مبرح
وبي ضلوعي من هواه تميمة ستفتح لو أن الحمام يجلس
ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه كان بحضرتة
رجل من البغداديين فجعل يزري على البيت « وبي ضلوعي » ويقول
ما أراد بهذا المعنى فكان من جواب المعتمد رحمه الله ان قال أما
لئن سلبه الله المروءة والوفاء لما أعدمه القطنة والذكاء انما نظر الى
بيت الهذلي من طرف خفي وهو :
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميمة لا تنفع
ولم يزل ابن عمار بسجن المعتمد إلى أن قتله صبراً في شهر
سنة ٤٧٩.

من تاريخ المعتمد : ظل المعتمد والدهر يوازره ويعاضده، إلى أن
انتظم له في ملكه من بلاد الأندلس ما لم ينتظم لملك قبله من المتغلبين،
ودخلت في طاعته مدن من مدائنها أعيت الملوك وأعجزتهم، وامتدت
مملكته إلى أن بلغ مدينة مرسية، وبينها وبين اشبيلية نحو من اثني
عشرة مرحلة وفي خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة، وكان تغلبه
على قرطبة واخراج ابن عكاشة منها يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر
سنة ٤٧١، ثم رجع إلى اشبيلية واستخلف عليها ولده عباداً ولقبه
بالمأمون، وهو أكبر ولد له في حياة أبيه المعتمد وسماه عباداً، فكان
المعتمد يضمه إليه، ويقول يا عباد يا ليت شعري من المقتول بقرطبة
أنا أو أنت ؟ فكان المقتول بها عباد هذا في حياة أبيه المعتمد.

وفي سنة ٤٧٩ جاز المعتمد على الله البحر قاصداً مدينة مراكش
الى يوسف بن تاشفين مستنصراً به على الروم، فلقبه يوسف أحسن
لقاء وأنزله أكرم نزل، وسأله عن حاجته، فذكر أنه يريد غزو الروم
وأنه يريد امداد أمير المسلمين إياه بخيل ورجل ليستعين بهم في حربه
فأسرع أمير المسلمين المذكور الى إجابته إلى ما دعاه إليه وقال له :

أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد الا أنا
بنفسي، فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً باسعاف أمير المسلمين
إياه في طلبه ولم يدر أن تدميره في تديره، وسل سيفاً يحسبه له،
ولم يدر أنه عليه فكان كما قال أبو فراس :
إذا كان غير الله للمرء عدة أتته الرزايا من وجوه القوائد
كما جرت الحنفاء حنف حذيفة وكان يراها عدة للشدايد

فأخذ أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين في أهية العبور إلى جزيرة
الأندلس وذلك في شهر جمادى الأولى من عام ٤٧٩ هـ فاستنفر من
قدر على استنفاه من القواد وأعيان الجند ووجوه قبائل البربر، فاجتمع
له نحو من سبعة آلاف فارس وعدد كثير، فعبر البحر بعسكر ضخم
وكان عبوره من مدينة سبتة، فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء،
وتلقاه المعتمد في وجوه أهل دولته وأظهر من بره وإكرامه فوق ما
كان يظنه أمير المسلمين، وقدم إليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية
ما لم يظنه يوسف عند ملك، فكان هذا أول ما ألفته إلى ملك
جزيرة الأندلس. ثم فصل عن الخضراء بجيوشه قاصداً اشبيلية دار ملك
المعتمد ليستريح فيها أياماً حتى تزول عنه وعشاء السفر، ثم يقصد
قصده ولكنه عاد وقال إنما جئت ناوياً جهاد العدو فحيث ما كان
العدو توجهت وجهته، وكان ملك الأسبان محاصراً لحصن من حصون
المسلمين يعرف بحصن الليط، فلما بلغه عبور البربر ألقع عن الحصن
راجعاً إلى بلاده مستنفرأ عساكره ليلقى بهم البربر، وتوجه يوسف إلى
شرقي الأندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر، والاصلاح بين المعتمد
على الله وبين رجل كان تغلب على مرسية يقال له ابن رشيق، فأصلح
بينهما يوسف أمير المسلمين على أن يخرج له ابن رشيق عن مرسية
ويعرضه المعتمد على ذلك مالا جعله له، ويوليه في جهة اشبيلية أضخم
ولاية، فأجاب ابن رشيق الى ذلك، وتسلم المعتمد مرسية وأعمالها،

ولقي يوسف أمير المسلمين ملوك الأندلس الذين كان عليهم طريقه كصاحب غرناطة والمعتصم ابن صمادح صاحب المرية وابن عبد العزيز أبو بكر صاحب بلنسية، ثم إن يوسف استعرض جنده على حصن الرقة فرأى منهم ما يسره، فقال للمعتد على الله : هلم ما جئنا له من الجهاد وقصد العدو وجعل يظهر التأفف من الإقامة بجزيرة الأندلس ويتشوق إلى مراكش ويصغر قدر الأندلس، ويقول في أكثر أوقاته : كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيماً قبل أن نراها فلما رأيناها وقعت دون الوصف، وهو في ذلك كله يظهر الدهاء، فخرج المعتد بين يديه قاصداً مدينة طليطلة واجتمع للمعتد أيضاً جيش ضخم من أقطار الأندلس وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات، وأمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتد بما قدرا عليه من خيل ورجال، وسلاح فتكامل عدد المسلمين من المتطوعين والمحاربين زهاء عشرين ألفاً والتقوهم بأول بلاد الروم وكان ملك الاسبان لم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه وجاء بجيش ضخم يرهب به ملك البربر. فأما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحد إلا يؤدي إليه الأتاوة، وهم كانوا أحقر من عينه وأقل من أن يحتفل لهم، ولما تراءى الجمعان من المسلمين والنصارى رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيماً هالهم من كثرة عدد وجودة سلاح وخيل وظهور قوة، فقال للمعتد : ما كنت أظن هذا الملك يبلغ هذا الحد، وجمع يوسف أصحابه وندب لهم من يعظهم ويذكرهم، فظهر منهم صدق النية والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ما سر به يوسف والمسلمون، وكانت المعركة يوم الخميس الثاني عشر من شهر رمضان ٤٨٠هـ.

فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ولا امارة عندهم للقتال وبنى يوسف بن تاشفين الأمر على أن الملوك لا تغدر، فخرج هو وأصحابه في ثياب الزينة للصلاة، فأما المعتد فإنه أخذ بالحرز

فركب هو وأصحابه شاكي السلاح وقال لأمير المسلمين : صل في أصحابك فهذا يوم ما تطيب نفسي فيه وها أنا من ورائكم وما أظن العدو إلا قد أضمر الفتك بالمسلمين، فأخذ يوسف وأصحابه في الصلاة. فلما عقدوا الركعة الأولى ثارت في وجوههم الخيل من جهة النصارى، وحمل العدو في أصحابه يظن أنه قد انتهزوا الفرصة وإذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس فاغنى ذلك اليوم غناء لم يشهد لأحد من قبله، وأخذ المرابطون سلاحهم فاستووا على متون الخيل واختلط الفريقان ف أظهر يوسف بن تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والثبات ما لم يكن يحسبه المعتمد، وهزم الله الأعداء واتبعهم المسلمون يقتلونهم في كل وجه، ونجا ملك الأسبان في تسعة من أصحابه، فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالأندلس وتسمى هذه الوقعة عندهم وقعة الزلاقة، وكان لقاء المسلمين عدوهم في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان سنة ٤٨٠، ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين فسر بهم أهل الأندلس، وأظهروا التيمن بأمر المسلمين والتبرك به، وكثر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر، وانتشر له من الثناء بجزيرة الأندلس ما زاده طمعاً فيها.

وكان ممن اختص بأمر المسلمين من ملوك الجزيرة وحظي عنده واشتد تقريب أمير المسلمين له : أبو يحيى بن معن بن صمادح المعتمد صاحب المرية، وكان المعتمد هذا قديم الحسد للمعتمد كثير النفاسة عليه، لم يكن من ملوك الجزيرة من بناوته غيره، وربما كانت بينهما في بعض الأوقات مراسلات قبيحة وكان المعتمد يعيبه في مجالسه وينال منه ويمتنع المعتمد من فعل مثل ذلك مروءته ونزاهة نفسه وطهارة سيرته وشدة ملوكيته، وقد كان المعتمد قبل عبور أمير المسلمين بيسير توجه إلى شرقي الأندلس يتطوف على مملكته ويطالع أحوال أعماله ورعيته، فلما داني أول بلاد المعتمد خرج إليه في وجوه

أصحابه وتلقاه لقاء نبيلاً وعزم عليه ليدخلن بلاده فأبى المعتمد ذلك، ثم اتفقا بعد طول مراودة على أن يجتمعا في أول حدود بلاد المعتصم وآخر حدود بلا المعتمد، فكان ذلك واصطالحا في الظاهر، واحتفل المعتصم في إكرامه وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملوكية المعدة لمجالس الأنس. ما ظنه مكمداً للمعتمد مثيراً لغمه، وقد أعاد الله المعتمد من ذلك وصان خلقه الكريم عنه، وعصمه بفضله منه، ثم افترقا بعد أن أقام المعتمد عنده في ضيافته ثلاثة أسابيع ورجع المعتمد إلى بلاده، وبعد ذلك عبر إلى مراكش ولم يزل ما بينه وبين المعتصم معموراً إلى أن عبر أمير المسلمين كما ذكرنا، فلقبه المعتصم بهدايا فاخرة وتحف جلييلة وتلطف في خدمته حتى قربه أمير المسلمين أشد تقرب لثناء المعتمد عليه ووصفه إياه عنده بكل فضل ولم يكن المعتصم بعيداً من أكثر ما وصفه به، ولما اشتد تمكن المعتصم من أمير المسلمين بدا له ان يسعى في تغيير قلبه على المعتمد وفساد ما بينهما؛ وعبر أمير المسلمين إلى العدو وقد وغر صدره، وتغيرت نفسه.

هذا مع طمعه في الجزيرة وتشوقه إلى ملكها وظهرت للمعتمد قبل عبوره أشياء عرف بها أنه غير عليه ورجع أمير المسلمين إلى مراكش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد، حتى قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : كنت أظن أنني قد ملكت شيئاً فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي، فكيف الحيلة في تحصيلها، فاتفق رأيه ورأي أصحابه على أن يرسلوا إلى المعتمد يستأذنونه في رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس ومجاهدة العدو ببعض الحصون المصاحبة للروم إلى أن يموتوا، ففعلوا وكتبوا إلى المعتمد بذلك فاذن لهم بعد أن وافقه على ذلك ابن الأقطس المتوكل صاحب الثغور، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم ميثوثين بالجزيرة وبلادها فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو اظهار لمملكتهم وجدوا في كل بلد لهم أعواناً، وقد كانت قلوب أهل الأندلس كما

ذكرنا قد اشربت حب يوسف واصحابه فجهز يوسف من خيار اصحابه رجلاً انتخبهم وأمر عليهم اجلاً من قرابته يسمى بلجين واسر إليه ما أراد، فجاز بلجين المذكور وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة. فقال له ابن تأمرني بالاقامة فوجه معه المعتمد من اصحابه من ينزله ببعض الحصون التي اختارها لهم فنزل حيث انزلوه هو واصحابه واقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد.

ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين انتشر ذلك في الأندلس وزحف القوم الذي قدمنا ذكرهم الكاثولون في الحصون إلى قرطبة فحاصروها وفيها عباد بن المعتمد الملقب بالمأمون، وهو من أكبر ولده فدخلوا البلد وقتلوا عباد هذا بعد أن أبلى عذراً وظهر في الدفاع عن نفسه جلدأً وصبراً، وذل في اول صفر سنة ٤٨٤، وظهرت المحنة في إشبيلية.

وفي ذلك يقول المعتمد بعد أن نزل بالعدوة أسيراً :

قالوا الخضوع سياسة	فليبد منك لهم خضوع
وأخذ من طعم الخضوع	على فمي السم النقيع
ان تستلب عني الدنسى	ملكى وتسلمني الجموع
فالقلب ييسن ضلوعه	لم تسلم القلب الضلوع
لم استلب شرف الطيا	ع، أيسلب الشرف الرقيع ؟
قد رمت يوم نزالهم	ألا تحصنتني السدروع
وبرزت ليس سوى القميذ	عص عن الجثى شيء دفوع
وبذلت نفسي كي تسيل	إذا يسيل بها النجيع
أجلني تأخر لم يكن	بهواي ذلى والخشوع
ما سرت قط إلى القتال	وكان من أمني الرجوع

ولم يزل أعوان ملك البربر يعبثون، حتى نهبوا قصور المعتمد، وقتلوا أسرته، وقبضوا على المعتمد ونفوه إلى مراکش، ولما نزل المعتمد

من العدة بطنجة أقام بها أياماً ولقيه بها الحصري الشاعر، فجری معه على عادته فرفع اليه أشعاراً قديمة، قد كان مدحه بها وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدها عند وصوله إليه، ولم يكن عند المعتمد في ذلك اليوم مما زود به فيما بلغني أكثر من ستة وثلاثين مثقالاً، فطبخ عليها، وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قتلها، ولما اتصل بزغانفة الشعراء، وملحفني الناس ما صنع المعتمد رحمه الله مع الحصري، تعرضوا له بكل طريق، وقصدوه من كل فج عميق. فقال في ذلك :

شعراء طنجة كلهم والمغرب ذهبوا من الأعراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير وإنه بسؤالهم حق فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة محمية طي الحشا ساواهم في المطلب
قد كان ان سئل الندى يجزل وان نادى الصريخ بيا به اركب يركب

وله كذلك :

قبح الدهر فماذا صنعا كلما أعطى نفساً نزعاً
قد هوى ظلما بمن عادته أن يتادي كل من يهوى لعا
من إذا الغيث همى منهمرا أعجلتها كفه فانتقطعا
من غمام الجود، من راحته عصفت ريح به فانتعشا
من إذا قيل الخناصم وان نطق العافون همساً سمعا
قل لمن يطمع في نائله قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعوة جبر الله العفاة الضيعا

وأقام المعتمد بطنجة أياماً، ثم انتقل الى مدينة مكناسة فأقام بها أشهراً إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة أغمات فأقاموا بها إلى ان توفي المعتمد رحمه الله ودفن بها، وقبره معروف هناك، وكانت وفاته سنة ٤٨٧هـ، وقيل سنة ٤٨٨هـ وسنه يوم توفي إحدى وخمسون سنة، ومما رثي به المعتمد على الله مقطوعة من شعر ابن اللبانة أولها : لكل شيء من الأشياء ميقات وللمنى من مناياهن غايات

والدهر في صبغة الحرباء منغمس
ونحن من لعب الشطرنج في يده
فانفض يدك من الدنيا وساكنها
وقل لعالمها الأرضي قد كتمت
طوت مظلتها لا بل مثلتها
من كان بين الندى والبأس أنصله
أنكرت الالتواء للقيود به
وقلت هن ذؤابات فلم عكست
رأوه ليشأ فخافوا منه عادية

ولهذا الشاعر قصيدة يرثيه بها
تبكي السماء بدمع راتح غادي
على الجبال التي هدت قواعدها
والرايات عليها الياضعات ذوت
عريسة دخلتها النائبات على
وكعبة كانت الآمال تغمرها
تلك الرماح رماح الحظ ثقفها
والبيض بيض الظبا فلت مضاربها
لما دنا الوقت لم تخلف له عدة
كم من دراري سعد قد هوت ووهدت
نور ونور فهذا بعد نعمته
يا ضيف اقفر بيت المكرمات فخذ
ويا مؤمل واديههم ليسكنهم
ضلت سبيل الندى باين السبيل فسر

وفيها يقول :
نسيت إلا غداة النهر كونهم
في المنشئات كأسموات بألحاد

والناس قد ملئوا العبرين واعتبروا
حط القناع فلم تستر مخدرة
تفرقوا جيرة من بعد ما نشقوا
حان الوداع فضجت كل صارخة
سارت سفاتهم والنوح يتبعها
كم سال في الماء من دمع وكم حملت
من لي بكم يا بني ماء السماء إذا
من لؤلؤ طافيات فوق ازباد
ومزقت أوجه تمزيق أبراد
أهلاً بأهل وأولاداً بأولاد
وصارخ من مفداة ومن فادي
كأنها إبل يحدو بها الحادي
تلك القطائع من قطعات أكباد
ماء السماء أبي سقيا حشا الصادي

وابن اللبانة هو أبو بكر محمد بن عيسى من أهل مدينة دانية،
وهي على ساحل البحر الرومي، كان يملكها مجاهد العامري وابنه
علي الموفق على ما تقدم، ولابن اللبانة أخ اسمه عبد العزيز، وكانا
شاعرين إلا أن عبد العزيز لم يرض الشعر صناعة ولا اتخذه مكسباً،
وإنما كان من جملة التجار، وأما أبو بكر فرضيه بضاعة وتخيره مكسباً
وأكثر منه وقصد به الملوك، فأخذ جوائزهم ونال أسنى الرتب عندهم،
وشعره نبيل المأخذ وهو فيه حسن المهيج، جمع بين سهولة الألفاظ
ورشاقتها، وجودة المعاني ولطافتها، وكان منقطعاً إلى المعتمد معدوداً
في جملة شعرائه، لم يقد عليه إلا آخر مدته فلهدأ قل شعره الذي
يمدحه به، وكان مع سهولة الشعر عليه وإكثاره منه قليل المعرفة بعلمه
لم يجد الخوض في علومه وإنما كان يعتمد في أكثره على جودة
طبعه وقوة قريحته، يدل على ذلك قوله في قصيدة له :
من كان ينفق من سواد كتابه فانا الذي من نور قلبي أنفق

ولما خلع المعتمد على الله وانخرج من إشبيلية لم يزل أبو بكر
هذا يتقلب في البلاد إلى أن لحق بجزيرة ميرة وبها مبشر العامري
الملقب بالناصر، فحظي عنده وعلت حاله معه، وله فيه قصائد أجاد
فيها ما شاء :

فمنها قصيدة ركب فيها طريقة غريبة، وذلك أن جعلها من أولها

إلى آخرها صدر كل بيت فيها غزل وعجزه مدح، وأول القصيدة :
وضحت وقد فضحت ضياء المنير
فكأنما التحفت ببشر مبشر
وتبسمت عن جوهر فحسبته
ما قلدته محامدي من جوهر
وتكلمت فكأن طيب حديثها
تمتت منه بطيب مسك أذفر
هزت بنغمة لفظها نفسي كما
هزت بذكره أعالي المنبر
أذنت واستغفرتها فجرت علي
عادته في المذنب المستغفر
جادت علي بوصلها فكأنه
جدوى يديه علي العقل المقتر
سمعت بتعنيقي فقلت صنعة
سمحت علاه بها فلم تتعذر
نهد كقسوة قلبه في معرك
وحشا كلين طباعه في محضر
ومعاطف تحت الذوائب خلقتها
تحت الخوافق ماله من سمهري
حسنت أمامي في خمار مثل ما
حسن الكمي أمامه في مغفر
وتوحشت فكأنه في جوشن
قد قام عنبره مقام العنبر
غمرت ببعض قسيه من حاجب
ورنت ببعض سهامه من محجر
اومت بمفصول اللحاظ فخلته
يومي بمفصول الصحيفة مشهر
وضعت حشاياها فوق ارائك
وضع السروج، علي الجياد الضمر
من رامة او رومة لا علم لي
آتت عن النعمان أم عن قيسر
بنت الملوك قتل لكسرى فارس
تعزى وإلا فقل لتبسع حمير
عاديت فيها غر قومي فاعتدوا
لا أرضهم أرضي ولا هم معشري
وكذلك الدنيا عهدنا أهلها
يتعاقرون علي الثريد الأعفر
طافت علي بجمرة من حمرة
قرأت مريخاً براحة مشتري
فكأن أنملها سيوف مبشر
وقد اكتست علق النجيع الأحمر
باس الوصي وعزمة الأسكندر
ملك ازرة برده ضمت علي

ومن نسيه قوله يتغزل ويمدح مبشراً هذا :
هلا ثناك علي قلب مشفق فترى فراشاً في فراش يحرق
قد صرت كالرمق الذي لا يرتجي ورجعت كالنفس الذي لا يلحق

وغرقت في دمعي عليك وغمني
هل خدعة بتحية مخفية
أنت المنية والمني فيك استوى
لك قد ذابلة الوشيح ولونها
ويقال إنك ابكة حتى إذا
يا من رشقت إلى السلو فردني
لو في يدي سحر وعندي أخذه
لنذوق ما قد ذقت من ألم الجوى
جسدي من الأعداء فيك لأنه
لم يدرطيفك موضعي من مضجعي
جفت عليك مدامعي ومنابعي
وكان أعلام الأمير مبشر

وله فيها إحسان كثير، وله من
فؤادي معنى الحسان معنت
ولي نفس يخفي ويخفت رقة
وبي ميت الأعضاء حي دلاله
جعلت فؤادي جفن صارم جفنه
أذل له في هجره وهو يتنمي
وما أنبت جبل منه كان في يدي

ومن جيد ما له من قصيدة يمدح بها مبعراً ناصر الدولة أولها:
رق الريح ورق طبع هوائه
فانظر نضارة أرضه وسمائه
واجعل قرين الورد فيه سلاقة
يحكي مشعشعها مصعد مائه
لولا ذبول الورد قلت بأنه
خد الحبيب عليه صبغ حياته
هيهات أين الورد من خد الذي
لا يستحيل عليك عهد وفائه
الورد ليس صفاته كصفاته
والطير ليس غناؤها كغنائها

يتنفس الاصباح والريحان من
ويجول في الأرواح روح ما سرت
صوف الهوى جسمي شبيه خياله

ومن أحسن ما يستجاد له بيتان يصف بهما خالاً، وهما :
بدا على عده خال يزينه فزادني شغفا فيه الى شغف
كأن حية قلبي عند رؤيته طارت فقال لها في الخدمه قف
ولابن اللبانه هذا احسان كثير.

وبلغ من حال المعتمد على الله أغمات أن أثر حظياته وأكرم بناته
ألجئت الى ان تستدعي غزلاً من الناس تسد بأجرته بعض حالها وتصلح
به ما ظهر من اختلالها:

فقد نظرت اليه عيون نحس مضت منه بمعدوم النضير
نحوس كن في عقبي سعود كذاك تدور أقدار القدير
وكم أحظي رضاه من حظي وكم شهرت علاه من شهر
زمان تنافست في الحظ منه ملوك قد تجور على الدهور
بحيث يطير بالأبطال ذعر ويلقى ثم أرجح من ثبير

وقد امتنع ابن اللبانه من قبول هدايا المعتمد، وكتب مجيباً له عن
شعره :

أنا أدري بفضلك منك اني لبست الظل منه في الحرور
غني النفس أنت وإن ألجئت على كفيك حالات الفقير
تصرف في الندى حيل المعالي فتسمح من قليل بالكثير
أحدث منك من نبع غريب تفتح عن جني زهر نضير
وأعجب منك أنك في ظلام وترقع للعفاة منار نور
رويدك سوف توسعني سروراً إذا عاد ارتقاؤك للسريير
وسوف تحلني رتب المعالي غداة تحل في تلك القصور

تزيد على ابن مروان عطاء
تأهب أن تعود إلى طلوع
فراجع المعتمد بهذه الأبيات :
رد بري بغيا علي وبرأ
ومن شعر المعتمد في أسره :
دعا لي بالبقاء وكيف يهوى
أليس الموت أروح من حياة
فمن يك من هواه لقاء حب
أأرغب أن أعيش أرى بناتي
عوادم بنت من قد كان أعلى
وطرد الناس بين يدي ممري
وركض عن يمين أو شمال
يعنيه أمام أو وراء
ولكن الدعاء اذا دعاه
جزيت أبا العلاء جزاء بر
سيسلي النفس عن ما فات عمي

وورد عليه اغمات أبو بكر بن الليانة ملتزماً عهد الوفاء، قاضياً
ما يجب عليه من شكر النعمي، فسر المعتمد بوروده فلما أزمع ابن
الليانة على السفر استنفذ المعتمد وسعه ووجه اليه بعشرين مثقالاً وثوبين
وكتب اليه معها :

اليك النذر من كف الأسير
تقبل ما يذوب له حياء
ولا تعجب لخطب غض منه
ورج لجيره عقيبي نذاه
وكم أعلت علاه من حضيض

فان تقبل تكن عين الشكور
وان عذرت حالات الفقير
أليس الخسف ملتزم البدور
فكم جبرت يده من كسير
وكم حطت ظباه من أمير

وكم من منبر حنت إليه
زمان تراحت عن جانبيه
أعالي مرتفاه ومن سريره
جياذ الخيل بالموت المبير

وكتب إليه كذلك :

وإذا ما طويت في البعض حمدا
يا أبا بكر الغريب وفساء
أي تقع بجدي احتياط شقيق
عاد لومي في البعض سرا وجهرا
لا عدمتاك في المغارب ذخيراً
مت ضرا فكيف أُرهب ضراً

فأجابه ابن اللبانة :

أيها الماجد السميع عذرا
حاش لله ان أجيح كريما
لا أزيد الخفاء فيه شقوقا
ليت لي قوة أو آوى لركن
أنت علمتني السيادة حتى
ربحت صفقة أزيل برودا
وكفاني كلامك الرطب نيلا
لم تمت إنما المكارم ماتت
صرفتي البر انما كان برا
يتشكى فقراً وكم سد فقرا
غدر الدهر بي لمن رمت غدرا
فتسرى للوفاء منى سرا
ناهضت همتي الكواكب قدراً
عن أديمي بها والبس فخراً
كيف ألقى درا واطلب تبراً
لا سقى الله بعدك الأرض قطراً

ومما قاله المعتمد من الشعر عند
قبر الغريب سقاك الراح الغادي
بالحلم بالعلم بالنعمة إذا اتصلت
بالطاعن الضارب الرامي إذا قتلوا
بالدهر في نغم بالبحر في نعم
نعم هو الحق حاباني به قدر
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه
كفناك فارق بما استودعت من كرم
بيكي أخاه الذي غيبت واهله
موته وأمر أن يكتب على قبره :
حقاً ظفرت باشلاء ابن عباد
بالخصب ان أجذبوا بالري للصادي
بالموت أحمر بالضرغامة العادي
باليدر في ظلم بالصدر في النادي
من السماء فوفاني لميعاد
ان الجبال تهادي فوق أعواد
رواك كل قطوب البرق رعاد
تحت الصفيح يدمع راح غادي

حتى يجودك دمع الطل منهجراً من أعين الزهر لم تبخل باسعاد
ولا تنزل صلوات الله دائمة على دفينك لا تحصى بتعداد
وكان للمعتمد على الله ولد يلقب بفخر الدولة رشحه للملك من
بعده وجعله ولي عهده، ولقبه بالمؤيد بنصر الله فعاثته الفتنة عن مراده.
وحالت الأقدار بينه وبين إصداره وإيراده، فما برح بفخر الدولة تغير
الأيام بعد الفتنة الى أن أسلم نفسه في السوق، وتعلم من الصنائع صنعة،
فمر به محمد بن الليانة شاعر أبيه فقال في ذلك :

أذكى القلوب أسي أبكى العيون دما
أفراد عقد المنى منا قد انتثرت
شكاتنا فيك يا فجر الهدى عظمت
طوقت من نائبات الدهر محنقة
وعاد كونك في دكان قارعة
صرفت من آلة الصواع أنملة
يد عهدتك للتقبيل تسطها
يا صائغا كانت العليا تصاغ له
للتفخ في الصور هول ما حكاه سوى
وددت اذ نظرت عيني اليك به
ما حطك الدهر لما حط من شرف
لح في العلى كوكبا ان لم تلح قمرا
واصبر له ايما أحمدت عاقبة
والله لو أنصفتك الشهب لانكسفت
بكي حديثك حتى الدرحين غدا
وروضة الحسن من أزهارها عريت
بعد النعيم ذوي الريحان حين رأى
لم يرحم الدهر فضلاً أنت حاله
شقيقك الصبح إن أضحي بشارقه

خطب وجدناك فيه يشبه العدم
وعقد عروتنا الوثقى قد انفصما
والرزء يعظم فيمن قدره عظما
ضاقك عليك وكم طوقنا نعمنا
من بعد ما كان في قصر حكى إرما
لم تدر الا الندى والسيف والقلم
فتستقل الثريا أن تكون فما
حليا، وكان عليه الحلبي منتظما
هول رأيناك فيه تنفخ الفحما
لو ان عيني تشكو قبل ذاك عما
ولا تحيف من أخلاقك الكرما
وقم بها ربوة ان لم تقم علما
من يلزم الصبر يحمد غب مالزما
ولو وفي لك دمع المزن لانسجما
يحكيك رهطاً وأفاظاً وميتسما
حزناً عليك لأن أشبتها شيما
ريحانك الغض يذوي بعدما نعمنا
من ليس يرحم ذاك الفضل لا رحما
وانت في ظلمة فالصبح قد ظلما

الأدباء في عصر بني عباد

وقد نبغ في الأدب كثيرون في عصر بني عباد وخاصة في عهد المعتمد، ومنهم :

أبو القاسم ابن الجد المعروف بالأحذب أحد رجال البلاغة، وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة، وأبو عبدالله بن أبي الخصال، وأخوه أبو مروان، وأبو محمد عبد المجيد بن عيدون، وجماعة يكثر ذكرهم، وكان من أنبيهم وأكبرهم مكانة أبو عبدالله محمد بن أبي الخصال وحق له ذلك إذ هو آخر الكتاب، وأحد من انتهى إليه علم الآداب، وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى، ومن رسائله رسالة كتبها إلى صديقه أبي الحسن علي بن بسام صاحب كتاب الذخيرة : وصل من السيد المسترق والمالك المستحق، وصل الله انعامه لديه، كما قصر الفضل عليه : كتابه البليغ، واستدراجه المريح، فلولا ان يصلد زند اقتراحه، ويرقد طرف افتتاحه، وتنقبض يد انبساطه، وتغنن صفة اغتباطه، للزمت معه مركز قدرى، وصنت سريرة صدرى، لكنه بنفثات سحره يسمع الصم ويستنزل العصم، ويقناد الصعب فيصحب ويستدر الصخور فتحلب، ولما فجأني ابتداءه، وقرع سمعي نداؤه، فرغت إلى الفكر، وخفق القلب بين الأمن والحذر، فطاردت من الفقر أوابد الفقر، وشوارد عفر، تغبر في وجه سائقها ولا يتوجه للحاق لوجيها ولاحقها، فعلمت انها الاهابة والمهابة. والاصابة والاسترابة، حتى أبأستني الخواطر، وأخلفتني المواطر، الا زيرجا يعقب جواداً، وبهرجا لا يحتمل انتقادا، وأنى لمثلي والقريحة مزجاة، والبضاعة مرجاة، ببراعة الخطاب، وبراعة الكتاب، ولولا دروس معالم البيان، واستيلاء العفاء على هذا الشأن لما فاز لمثلي فيه قدح، ولا تحصل لي في شوقه ربح، لكنه جوخال، ومضمار جهال، وهي حكمة الله في الخلق وقسمته للرزق، وانا اعرك الله أرباً بقدر

الذخيرة عن هذه التنف الأخيرة، وأرى أنها قد بلغت مداها، واستوفت حلاها، وأنا أحشى القدح في اختيارك والاخلال بمختارك. وعلى ذلك فوالله ما من عادتني ان انيت ما أكتب في رسم ينقل، ولا في وضع المراتب عندنا مخاطب يحتفز له ويحتفل، وانما هو عفو فكر، ويسير ذكر، وعذراً أعزك الله فاني خططت ما خططته والنوم مغازل والقر منازل والريح تلعب بالسراج، وتصول عليه صولة الحجاج، فطوراً تسدده سنانا، وتارة تحركه لسانا، وآونة تطويه حيابة واخرى تنشره ذؤابة وتقيمه لإبرة لهب وتعطفه برة ذهب، او حمة عقرب وتقوسه حاجب فتاة ذات غمزات وتسلمه على سليطه وتزيله عن خليطه وتخلعه نجماً وتمده رجماً وتسل روحه من ذبالة وتعهده إلى حاله وربما نصبته اذن جواد ومسخته حدق جراد ومشتقه حروف برق، فلاحظ منه للعين، ولا هداية في الطرس لليدين، والليل زنجي الأديم تيري النجوم، قد حللنا ساحه وأغرقتنا أمواجه، فلا مجال للحظ ولا تعارف الا بلفظ لو نظرت فيه الزرقاء لاكتحلت أو خضبت به الشيبة لما نصلت والكلب قد صافح عيشومه ذنبه وأنكر البيت وطنيه والتوى التواء الحيايب، واستدار استدارة الحيايب، وجلده الجليد وصعد أنفاسه الصعيد فحماء مباح ولا هرير ولا نباح والنار كالرحيق أو كالصديق كلاهما عتقاء مغرب، أو نجم مغرب، استوى الفصل، ولك في الاغضاء الفضل.

وكان لأبي عبدالله محمد بن أبي الخصال ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء أهل الأندلس قد جعلوه مثلاً يحتذونه ونصبوه اماماً يقتفونه، وكان أبو عبدالله وأخوه كاتبين لأمير المسلمين يوسف إلى أن آخر أمير بالمسلمين أبا مروان عن الكتابة لموجدة كانت منه عليه سببها أنه أمره وأخاه عبدالله ان يكتب عنه الى جند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم العدو هزيمة قبيحة وقتل منه مقتلة عظيمة، فكتب أبو عبدالله رسالته المشهورة في ذلك، وهي رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة

أن يحفظوها، أحسن فيها ما شاء، وكتب أبو مروان رسالة في ذلك الغرض أنحى فيها على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر من الحاجة؛ فمن فصولها قوله : أي بني اللثيمة واعيار الهزيمة، إلام يزيغكم الناقد ويردكم الفارس الواحد، فليت لكم بارتباط الخيول ضأناً لها حالب قاعد، لقد أن أن نوسعكم عقاباً وألا تلوثوا على وجه نقابا، وان نعيدكم الى صحرائكم ونظهر الجزيرة من رحضائكم « الخ ».

فاحتق ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته وقال لأبي عبدالله أخيه : كنا في شك من بغض أبي مروان المرابطين والآن قد صح عندنا فلما رأى ذلك أبو عبدالله استعفاه فأعفاه ورجع إلى قرطبة بعدما مات أخوه أبو مروان بمراكش وأقام هو بقرطبة الى أن استشهد في داره في أول الفتنة الكائنة على المرابطين :

الوزير ابن غالب :

قال الوزير الكاتب الشاعر أبو عبدالله محمد بن غالب البلسني المعروف بالرصافي وكان مستوطناً مدينة مالقة؛ يمدح عبد المؤمن ابن علي:

لو جئت نار الهدى من جانب الطور
من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها
فيضية القدح من نور النبوة أو
ما زال يقضمها التقوى بموقدها
حتى أضاعت من الايمان عن قيس
نور طوى الله زند الكون منه على
وأية كآيات الشمس بين يدي
يا دار دار أمير المؤمنين بسف

قيست ما شئت من علم ومن نور
ليلاً لسار ولم تشيب لمقمور
نور الهداية تجلو ظلمة النور
صوام هاجرة قوام ديجور
قد كان تحت رماد الكفر مكفور
سقط إلى زمن المهدي مذخور
غزو على الملك القيسي منذور
ح الطود طود الهدى بوركت في الدور

على الأساسين من قدس وتطهير
قصر على مجمع البحرين مقصور
فيها الخطى بين تسييح وتكبير
فطبيب كل موطوء ومعبور
لواء نصر على البرين منشور
على التقى وصفاء النفس مقطور
بعالم القدس مشهود ومحضور
نودين يا خير أفلاك العلا سيري
بالله مستنصر في الله منصور
منها ويوليه حمداً كل تصرير
تركن شطيه في شك وتحبير
أم خاض من لجه أحشاء مذعور
في الأرض من مهج الأسياف مقطور
وقد رمى نار هيجها بتسعير
شكل الغدائر في سدل وتضفير
ما في سجايه من لين وتعطير
ردعان : من عنبر ورد وكافور
يفرقن في مثل ماء الورد من جور
بمثل أجنحة الفتح الكواسير
في زاخر من يدي يمناه معصور
بساطع من سناه غير ميهور
معظم القدر في الأجيال مذكور
له من الغيم جيب غير مزور
مستمطر الكف والأكتاف ممطور
في الجو حائمة مثل الدنانير
بكل فضل على فوديه مجرور

ذات العمادين من عز ومملكة
ما كان يأتك بالواني الكرامة عن
مواطي من نبي طال ما وصلت
حيث استقلت به نعلاه يوركنا
وحيث قامت قناة الدين ترفل في
في كف منشمر البردين ذي ورع
يلقاك في حال غيب من سريره
تسمن الفلك من سخط المرار وقد
فسرن يحملن أمر الله من ملك
يومي له بسجود كل تحركة
لما تسابقن في بحر الزقاق به
أهز من موجه أثناء مسرور
كانه سالك منه على وشل
من السيوف التي ذابت لسطوته
ذو المنشئات الجواري في أجرتها
أعدى المياه وأنفاس الرياح لها
من كل عذراء حيلي في تراثها
نخالها بين أيدي من مجاذفها
وربما خاضت التيار طائفة
كأنما عبرت تختال عائمة
حتى رمت جبل الفتحين من كتب
لله ما جبل الفتحين من جبل
من شامخ الأنف في سحنائه طلس
معبراً بذراه عن ذرى ملك
تمسي التجوم على أكليل مفرقه
وربما مسحته من ذوائبها

محتك حلب الأيام أشطرها
مقيد الخطر جوال الخواطر في
قد واصل الصمت والإطراق مفتكرا
كأنه مكمد مما تعبده
أخلق به وجبال الأرض راجفة
كفاه فضلاً ان اتنايت مواطئه
مستنشفاً بهما ربح الشفاعة من
ما أتفك آمل أمر منه بين يدي
حتى تصدى من الدنيا على رمق
مستقبل الجانب الغربي مرتقبا
لبارق من حسام سله قدرا
إذا تآلق قيسياً أهاب به
ملك أتى عظما فوق الزمان فما
ما عن في الدين والدنيا له أرب
ولا رمى من أمانيه إلى غرض
حتى كأن له في كل آونة
مميز الجيش ملتفياً مواكب
من الأولى خضعوا قسراً له وعنوا
من بعد ما عاندوا أمراً فما تركوا
بقية الحرب فاتوها وما بهم
لا ينكر القوم مما في أكفهم
إذا صدعت بأمر الله مجتهدا
لا يذهلن لتقليل أخو سيب
قالبحر قد عاد من ضرب العصا يسا
وإنما هو سيف الله قلده
فان يكن بيد المهدي قائمه

وساقها سوق حادي العير للعبير
عجيب أمره من ماض ومنظور
بادي السكينة مغفر الأسارير
خوف الوعدين من دك وتسيير
ان يطمئن غدا من كل محذور
نعلا ملك كريم السعي مشكور
ثرى إمام بأقصى الغرب مقبور
يوم القيامة محتوم ومقدور
يستنجز الوعد قبل النفخ في الصور
كأنه باهت في جو اسمير
بالغرب من أفق البيض المشاهير
إلى شفى من مضاع الدين موتور
يمر فيه بشيء غير محفور
إلا تأتي له من غير تعذير
إلا هدى سهمه نجح المقادير
سلطان رق على الدنيا وتسخير
من كل مثلول عرش الملك مقهور
لأمره بين منهسي وأمور
إذ أمكن العفو ميسوراً لمعسور
في الضرب والظعن سيماء لتقصير
بيض مغاليل أو سمر مكاسير
ضربت وحدك أعناق الجماهير
من الأمور ولا يركن لتكثير
والأرض قد غرقت من فور تنور
أقوى الهداة يداً في دفع محذور
فموضع الحد منه حد مشهور

والشمس ان ذكرت موسى فمانسيت فتاه يوشع قماع الجبابير

وكان الرصافي يوم أنشد هذه القصيدة لم تكمل له عشرون سنة
وهو من مجيدي شعراء عصره لاسيما في المقاطيع، كالخمسة الأبيات
فما دونها، ومن شعره، يصف نهر اشبيلية الأعظم :

ومهل الشطين تحسب أنه متسايل من درة لصفائه
فاهت عليه مع الهجيرة سرحة صدت لفياتها صفيحة مائه
فتراه أزرق في غلالة سمرة كالدارع استلقى بظل لوائه

واجتمع مع اخوان له في بعض الأمسيات الجميلة في بستان لهم
فقال :

ما مثل موضعك ابن رزق موضع روض يرق وجدول يتدفع
فكأنما هو من محاجر عادة فالحسن ينبت في ثراه وينبع
وعشية لبست رداء شحوبها والجو بالغيم الدقيق مقنع
بلغت لنا أمد السرور تألفا والليل نحو فراقنا يتطلع
فابلل بها رمت الغبوق فقد أتى من دون قرص الشمس ما يتوقع
سقطت فلم يملك نديمك ردها فوددت يا موسى لو انك يوشع

وله يصف عشية :

محل ابن رزق جر فيه ذيوله من المرق ساق يحسن الجر والسقيا
ذكرت عشيا فيك لا ذمّ عهده وإن نحن لم نمتع بيهجته لقيا
ولم يعلق بي منك عند افتراقنا سوى عبق من مسك قبتك اللميا
وكتت أراني في الكرى وكأني أناول كالدينار من ذهل الدنيا
فلما انطوى ذاك الأصيل وحسنه على ساعة من أنسنا صحت الرؤيا

وله يصف صوانا :

وذي حنين يكاد شوقا يختلس الأنفس اختلاسا
لما غدا للرياض جارا قال له المحل لامساسا

بيتسم الروض حين يبكي بأدمع ما رأين باسا
من كل جفن يسيل سيفاً صار له غمده رئاسا

وله وقد رأى صبياً يتياكى ويجعل من ريقه على عينيه يحكي بذلك
الدموع :

عذيري من جذلان يدي كآبة وأضلعه مما يحاوله صفر
أميلد مياس إذا قاده الصبي إلى ملح الإدلال أيده السحر
يسيل ماقي زهرتبه بريقه ويحكي البكا عمدا كما ابتسم الزهر
ويوهم أن الدمع بل جفونه وهل عصرت يوماً من الترجس الحمر
وقال يصف نائماً قد تصيب العرق على خده :
ومهفهف كالغصن إلا أنه سلب التثني النوم عن أثنائه
أضحى ينام وقد تحيب خده عرقاً فقلت الورد رش بمائه

ابن طفيل الشاعر

وألف ابن طفيل في الطبيعيات والإلهيات وغير ذلك، فمن رسائله
الطبيعيات رسالة سماها رسالة حي بن يقظان، غرضه فيها بيان مبدأ
النوع الإنساني على مذهبه وهي رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة
في ذلك الفن، ومن تصانيفه الإلهيات رسالة في النفس. وكان قد صرف
عنايته في آخر عمره إلى العلم الإلهي وتبذ ما سواه، وكان حريصاً
على الجمع بين الحكمة والشريعة معظماً لأمر النبوات ظاهراً وباطناً،
هذا مع اتساع العلوم الإسلامية، وكان يأخذ العطاء مع عدة أصناف
من الخدمة من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة الأجناد
إلى غير هؤلاء من الطوائف. وكان يقول : لو نفق عندهم علم الموسيقى
لانفقته عندهم، وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحب
له، بلغني أنه كان يقيم في القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر،
وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر في ذاته وأدواته، وأنشد ابنه
يحيى بمدينة مراکش سنة ٦٠٣ هـ. من شعر أبيه:

وأسرت إلى وادي العقيق من الحما
فما زال ذاك التراب نهبا مقسما
ويحمله الداري أيان يمما
وأن سراها فيه لن يتكنما
فأبدت محيا يدهش المتوسما
كشمس الضحى يعشى بها الطرف كلما
وقد كاد جبل الود أن يتصرما
فلم أدر من شق الدجنة منهما
فلم أدر أينما كان أسجما
قرآن أحوال أذعن المكتما
يهون صعبا أو يرخص مأثما
ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرما

هلا بكيت فراق الروح للبدن
فانحاز علوا واخلى الطين للكفن
أظنها هدنة كانت على دخن
فيا لها صفقة تمت على غبن

للناس في ذا تباين عجب
بين المعاني، أولئك النجب
وليس يدرون لب ما طلبوا
منه، ولا ينقضي لهم أوب
قد قسمت في الطبيعة الرتب

ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار، ويتبه
عليهم، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم، وهو الذي تبه على ابن

ألمت وقد نام المشيخ وهوّما
وجرت على تراب المحصب ذيلها
تناوله أيدي التجار لطيمة
ولما رأته ألا ظلام يجنهما
نضت عذبات الریط عن حروجهما
فكان تجليها حجاب جمالها
ولما التقينا بعد طول تهاجر
جلت عن ثناياها وأومض بارق
وساعدني جفن الغمام على البكا
فقالته وقد رق الحديث وأبصرت
نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهبها
فأمسكت لا مستغنيا عن نوالها

ومن شعره في الزهد :

يا باكيا فرقة الأحباب عن شحط
نور تردد في طين إلى أجل
يا شد ما افترقا من بعدما اعتلقا
إن لم يكن في رضى الله اجتماعهما

وانشدني بعض الكتاب له :

ما كل من شم نال رائحة
قوم لهم فكرة تجول بهم
وفرقة في القشور قد وقفوا
لا غاية تنجلي لناظرهم
لا يتعدى امرؤ جبلته

الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، فمن حيثذ عرفوه ونبه قدره عندهم، قال ابن رشد :

لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر ابن طفيل ليس معهما غيرهما فأخذ أبو بكر يشي علي ويذكر بيتي وسلفي ويضم بفضلته الي ذلك أشياء لا يبلغها قدري. فكان أول ما فاتحتني به أمير المؤمنين بعد أن سألتني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال لي : ما رأيهم في السماء — يعني الفلاسفة — أقديمة هي أم حادثة ؟ فأدركني الحياء والخوف فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة. ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل، ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء، فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألتني عنها، ويذكر ما قاله أرسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم، قرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت فعرف ما عندي من ذلك، فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنية ومركب، وقال ابن رشد :

« استدعاني أبو بكر بن طفيل يوماً فقال لي : سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطو طاليس أو عبارة المترجمين عنه ويذكر غموض أغراضه ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب من أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لقرب مأخذها على الناس، فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل، وإني لأرجو أن توفي به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة، وما يمتعتني من ذلك إلا ما تعلمه من كبر سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه، قال أبو الوليد ابن رشد : فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطو طاليس في جزء واحد في نحو من مائة وخمسين ورقة ».

الباب الثالث

النشر الأندلسي

تمهيد

النثر الأدبي في الأندلس

النثر الفني من مظاهر الحضارة والرفق العقلي، وأثر من آثار العناية باللغة، يقصد فيه إلى جودة العبارة وسلاسة الأسلوب، حتى يجد القارئ من اللذة مثلما يجد من يستمع إلى الشعر الجيد، فهو من مظاهر الجمال، وقد اقتصر في القرن الأول من دخول العرب الأندلس على ما تقتضيه الأحوال من الخطب والرسائل الإدارية والسياسية، لضبط أمور الدولة وإشعال الحماسة في أرواح الجنود؛ لأن ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية لم يكن قد استقر واتسع، فلم يساعد على نمو ملكة الكتابة الفنية في الموضوعات الخيالية والاجتماعية، فكانت الكتابة عربية في موضوعاتها وعباراتها الجزلة، خالية من الصنعة والتكلف.

ثم اتسع المجال للنثر الفني، فشمّل الموضوعات المعروفة لدى المشاركة؛ وابتكر الأندلسيون ما لم يكن شائعاً هناك، فشمّلت رسائلهم مدح الخليفة والتهنئة، والشوق والعتاب، والوصف : كوصف المحافل والمجالس والرياض والأزهار، والأنهار، والكواكب، والتعازي، والحكايات، والقصص، والمناظرات الخيالية بين بلدان الأندلس، أو بين السيف والقلم، وكتبوا في التوسل إلى الله وإلى الرسول، والتصوف والزهد والتقوى.

أنواع النثر الأندلسي :

للنثر الفني الأندلسي أنواع كثيرة أهمها :

١ - نثر الدواوين : وهو ما يصدر عن الملوك والأمراء في تصريف شئون الدولة وأعمالها، أو يصدر عن الكاتب بإرشادهم وتوجيههم، وكانوا إذا علت لديهم مرتبة الكاتب وناب عن الأمير أو الخليفة لقب بالحاجب وهو أشرف الألقاب في الدولة، وكان اسم الوزير يطلق على كل من يجالس الملوك ويختص بهم، أما الذي ينوب عن الملك في سياسة الدولة فكان يلقب « بذي الوزارتين » ويكون غالباً من أهل الأدب.

٢ - نثر الرسائل الخلفي والاجتماعية. ويتناول البحث في شئون الناس وأحوالهم، وما يجب أن يكونوا عليه من خلق فاضل وعدل، ومحبة وسلام.

٣ - نثر الرسائل الأدبية : وهو ما يصدر من الكتاب والأدباء، متناولاً أغراض الشعر من مدح وعتاب وتهنئة ورتاء ووصف ونحوها، ومصوراً عواطف الناس وأهواءهم في حياتهم الخاصة والعامة.

٤ - النثر الخيالي : ويقصد به الترفيه عن النفس بما يلذ قراءته من القصص الموضوعية، وهو ما نسميه الآن النثر الروائي. وهو أنواع : فمنه ما يتناول شرح الحقائق في أسلوب قصصي خيالي، كرسالة ابن شهيد المسماة بالتوايح والزوايح، تناول فيها جمهرة من الأدباء، فعرض صوراً من شعرهم ونقدها، ومنه ما يتناول الأمور الخيالية كالمناظرة بين السيف والقلم، والمناظرة بين بلدان الأندلس، ومنه ما يتناول الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية على شكل قصصي.

٥ - النثر العلمي : وإن كان الأدباء لا يعدونه من النثر الفني، ولكن الأندلسيين لما أبدعوا في التفنن في أساليبه، ونمقوا عباراته، صح

أن يعد عندهم من النثر الفني، وكتب : قلائد العقيان، ومطمح الأنفس، ونفع الطيب تؤيد ذلك.

أسلوب النثر :

كان الأندلسيون يقتفون أثر المشاركة في أساليب الكتابة، لأنهم رأوهم أمتهم في صناعة الكلام، وكان النثر أول عهد العرب بالأندلس سهلاً جزلاً لا تكلف فيه، ولا أثر للصناعة اللفظية إلا ما يجيء منها عفواً. ولما ظهر ابن العميد وحليته في الشرق، أخذ عنهم الأندلسيون طريقتهم في الكتابة فغلب على ترهم الصناعة اللفظية، والتزم فيه السجع، حتى أصبح من خواص النثر الأندلسي، وملاؤه بالتشبيهات والاستعارات والكناية وأشياء من المحسنات البديعية.

ولقد امتازت الكتابة الأندلسية بمميزات اقتضتها طبيعة البلاد وأحوال أهلها، وما حل بدولها أخيراً. منها :

- ١ - كثرة الوصف لمشاهد الكون مما قد يخرج الكاتب عن الغرض الذي يكتب فيه.
 - ٢ - غلبة الخيال الشعري على معانيهم.
 - ٣ - كثرة المناظرات والمحاورات الخيالية بين السيف والقلم والربيع والخريف والمدن والأنهار والأزهار^(١).
 - ٤ - التزام الأطناب في الرسائل السلطانية.
 - ٥ - قلة الغلو والمبالغة في تعظيم الملوك والأمراء، كما كان المشاركة يفعلون.
 - ٦ - وقد ظل النثر الأندلسي محافظاً على عريته وفصاحته، لم تفسده العجمة إلى جلاء المسلمين عنها.
- (١) كما في رسالة ابن برد الأصغر في تفضيل الورد (راجع ١٥٠-١٦١ من كتاب بلاغة العرب في الأندلس).

الفصل الأول

صور من النثر الأندلسي

- ١ -

أ - وصف عبد الرحمن الداخل فراره من بطش العباسيين فقال :
« إنني لجالس يوماً في ظلمة بيت توأرت فيه، لرمد كان بي، وابني
سليمان، بكر ولدي، يلعب قدامي، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها،
إذ دخل الصبي من باب البيت فازعاً باكياً، فأهوى إلى حجري فجعلت
أدفعه لما كان بي، وبأبي إلا التعلق وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان
عند الفزع، فخرجت لأنظر، فإذا بالروع قد نزل بالقرية، ونظرت فإذا
بالرايات السود منحطة، وأخ لي حدث السن كان معي يشتد هارياً،
ويقول لي : « النجاء يا أخي ! فهذه رايات المسودة » فضربت بيدي
إلى دنائير تناولتها، ونجوت بنفسي، والصبي أخي معي، وأعلمت أحوالي
بمتوجهي ومكان مقتصدي، وأمرتهن أن يلحقنني ومولاي بدر معهن،
وخرجت فكمننت في موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعة حتى
أقبلت الخيل فأحاطت بالدار، فلم تجد أثراً، ومضيت، ولحقني بدر،
فأتيت رجلاً من معارفي بشط القرات، فأمرته أن يتتبع لي دواب وما

يصلح لسفري، فدل على عيد سوء له، فما راعنا إلا جليلة الخيل تحفزنا، فاشتدنا في الهرب، وسبقناها إلى الفرات، فرمينا فيه بأنفسنا، والخيل تنادينا من الشط : « ارجعا ! لا بأس عليكما »، فسبحت حائناً لنفسي وكنت أحسن السبح، وسبح الغلام أخي، فلما قطعنا نصف الفرات، قصر أخي ودهش، فالتفت إليه لأقوي من قلبه، وإذا هو قد أصغى إليهم، وهم يخدعونه عن نفسه، فناديت « تقتل يا أخي ! إلي إلي ! » وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشي الغرق، فاستعجل الانقلاب نحوهم، وقطعت أنا الفرات، وبعضهم قد هم بالترحل للسباحة في أثري، فاستكفه أصحابه عن ذلك، فتركوني، ثم قدموا الصبي، أخي، الذي صار إليهم بالأمان، فضربوا عنقه، ومضوا برأسه، وأنا أنظر إليه، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثكلاً ملأني مخافة، ومضيت إلى وجهي أحسب أنني طائر، وأنا ساع على قدمي، فلجأت إلى غيضة أشبه، فتواريت فيها حتى انقطع الطلب، ثم خرجت هارباً أروم المغرب، حتى وصلت إلى افريقية.

ب — وروي أن الداخل كان في بعض مجالسه، فمثل بين يديه رجل من جند قنشرين يستجديه، فقال له : « يا ابن الخلائق الراشدين، والسادة الأكرمين إليك فررت، وبك عذت من زمن ظلوم، ودهر غشوم، قتل المال، وكثر العيال، وشعث الحال، فصير إلى نذاك المآل، وأنت ولي الحمد والمجد، والمرجو للرفد ».

فأجابه عبد الرحمن مسرعاً :

« قد سمعنا مقاتلك، وقضينا حاجتك، وأمرنا بعونك على دهرك، على كرهنا لسوء مقاتلك، فلا تعودن ولا سواك لمثله، من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة والإلحاح في الطلبة، وإذا ألم بك خطب، أو حز بك أمر، فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك، كيما تستر عليك

خلتك، وتكف شمات العدو عنك بعد رفعك لها إلى مالكك مالكتنا عز وجهه — باخلاص الدعاء، وصدق النية.»

قالوا: « وأمر له بجائزة حسنة، وخرج الناس يعجبون من منطقه، وبراعة أديه. وكف فيما بعد ذوو الحاجات عن مقابلته بها شفاها في مجلسه.»

ج — وحدث بعض موالي عبد الرحمن الخاصين به، أنه دخل عليه، اثر قتله ابن أخيه بن الوليد^(١) وهو مطرق شديد الغم، فرجع رأسه إليه وقال:

« ما عجبني إلا من هؤلاء القوم سعينا فيما يضحجهم في مهاد الأمن والنعمة، وخاطرنا فيه بحياتنا، حتى إذا بلغنا منه مطلوبنا، ويسر الله أسبابه، أقبلوا علينا أمام السيوف، ولما أوتيناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله به حتى أمنوا ودرت عليه أخلاف النعم، هزوا أعطافهم، وشمخوا بأنافهم، وسموا إلى العظمى؛ فنازعونا فيما منحنا الله، فخذلهم بكفرهم النعم، إذ أطلعنا على عوراتهم، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا في البريء منهم، وساء أيضاً ظنه فينا، وصار يتوقع من تغييرنا عليه، ما نتوقع نحن منه، وإن أشد ما علي في ذلك أخي؛ والد هذا المخذول، كيف تطيب لي نفسي بمجاورته، بعد قتل ولده، وقطع رحمه، أم كيف يجتمع بصري مع بصره؛ اخرج إليه الساعة

(١) كان الداخل بعد أن استتب ملكه بالأندلس، شديد الارتياح إلى وفود أقاربه من بني مروان، ليشاهدوا ما أنعم الله عليه فتوافدوا عليه، وكان منهم الزبيدي، وعبيد الله بن ابان بن معاوية وهو ابن أخي الداخل، وكانا تحت تدبير بيرماتيه في طلب الأمر، فوشى بهما أحد موالي الثاني، ومما قاله بعد قتلها: « أعظم ما أنعم الله به علي، بعد تمكيني من هذا الأمر، القدرة على إيواء من يصل إلي من أقاربي، والتوسع في الإحسان إليهم، وكبري في أعينهم وأسمائهم ونفوسهم، بما منحني الله من هذا السلطان الذي لا منة علي فيه لأحد غيره.»

فاعتذر إليه، وخذ خمسة آلاف دينار وادفعها إليه واعزم عليه في الخروج عني من هذه الجزيرة، إلى حيث شاء من بر العدو^(١)».

د — وللداخل الخليفة حين اشتد الكرب بين يديه، يوم حربه مع القهري :

« هذا اليوم هو أساس ما بيني عليه، إما ذل الدهر، وإما عز الدهر، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون، تريحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون.

هـ — وله خطبة حين عرض عليه إمارة الأندلس وفد من السكان أتى معه قائلاً :

« أجمع المسلمون الصادقون على انتخابك أمير الجزيرة، فيسعدك أن تبني فيها ملكاً مشيد الأركان، موطن الدعائم، على أساس أقوى من الجبال، معتمداً على عزائمهم القوية، وطاعتهم الصادقة، لا ريب أن ستجد مقاومة وبعض خطر، ولكنك لست وحدك بل بجانبك قتيان أشداء من أبناء من فتحوا الغرب، وشعوب ترغب فيك وتدعوك إليها، ونحن جميعاً نهب إلى الوغى، لنبدل الأرواح في سبيل ارتقائك إلى عرش الإمارة التي تلقى مقاليدها اليك، وتحفظ بنيانها من أن يثلم ».

فسكت عبد الرحمن هينهة يتوقع منه أن يتمم خطابه، لكنه شعر

(١) قال « فلما وصلت إلى أخيه، وجدته أشبه بالأموات منه بالأحياء، فأنسته وعرفته ودفعت له المال، وأبلغته الكلام، فتأوه وقال : « ان المشؤوم لا يكون بليغاً في الشؤم حتى يكون على نفسه وعلى سواه، وهذا الولد العاق الذي سعى في حقه، قد سرى ما سعى فيه إلى رجل طلب العاقية وقع بكسر بيت في كنف من يحمل عنه معسرة الزمان وكله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا مرد لما حكم فيه به وقضاه في الحركة إلى بر العدو » قال : فلما رجعت إلى الأمير، فأعلمته بقول قال : « إنه نطق بالحق، ولكن لا يخدعني القول عما في نفسه، والله لو قدر أن يشرب دمي ما عف عنه لحظة، فالحمد لله الذي أظهرنا عليهم بما نوبناه فيهم، وأذلهم بما نوءه فينا ».

ان الوفد ينتظر إجابته فخطبهم بقوله : أيها السراة الأمجاد ! إجابة لرغائبكم، وسعياً وراء أمانيتكم في إصلاح شؤون مسلمي أسبانيا، أذهب معكم، باذلاً النفس، في سبيل الدفاع عن هذه الغاية الحميدة، فإذا صدقت عزائمكم ودامت طاعتكم وفتح الله لنا باب الفوز، رأيتم مني أحياناً صدقاً يقاسمكم الشقاء والهناء ويعلم الله أنني لا أخشى الشدائد ولا أهوال الحروب، ولا أرهب الموت الأحمر فقد عركتي الدهر وعركته، وكثيراً ما ركبت متون الأخطار على حدائث سني، وإذا كان ما يدعونني إليه هو رغبة مسلمي الأندلس الأشراف، فأنا ألبى نداءهم وأقبل أن أكون أميرهم، وحامي ذمارهم إن شاء الله .

و — وكتب إلى بدر مولاه :

« وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك، وسوء خطلك، وما فيها من إساءة أدبك وتقييم معتقدك، والعجب مني أنك ما أردت أن تبني لنفسك عندنا مقاماً، بل أتيت بما يهدم كل مقام مشيد. فما تمن به — مما قد أضجر الأسماع تكراره، وقدحت النفوس إعادته، استخرنا الله من أجله. على أن أمرنا استئصال مالك، وزدنا في هجرك وإبعادك، وهضنا جناح أعوانك، فعل ذلك يجمع منك ويردعك، حتى يبلغ بك ما نريد — إن شاء الله — فنحن أولى بتأديك من كل أحد، إذ شرك مكتوب في مثاليها؛ وخيرك معدود في مناقبنا.

ز — وبعث إليه بدر برسالته فكتب يجيبه :

« إن لك من الذنوب المترادفة، ما لو سلب معه روحك؛ لكان بعض ما استوجبه، ولا سبيل إلى رد مالك؛ فإن تركك بمعزل، في بلهنية الرفاهية وسعة ذات اليد، والتخلي من شغل السلطان، أشبه بالنعمة منه بالنقمة، فإيأس من ذلك، فإن اليأس مريح .»

ح — وكتب إليه بدر يستعطفه، فكان جوابه عليه أن أمر بنفيه

عن قرطبة إلى أقصى الثغر، وكتب له في ظهر رقعة :
« لتعلم أنك لم تزل بمقتك، حتى ثقلت على العين طلعك، وزدت
إلى أن ثقل على السمع كلامك، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس
جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر، فبالله إلا ما أقصرت،
ولا يبلغ بك زائد المقمت إلى أن تضيق بك معي الدنيا. ورأيتك تشكو
بفلان، وتتألم من فلان وما تقولوه عليك، وما لك عدو أكبر من
لسانك، فما طاح بك غيره، فاقطعه قبل أن يقطعك ».

— ٢ —

أ — واعتذر عبدالله بن محمد (٢٧٥—٣٠٠هـ) يوماً إلى بعض مواليه
فقال له عبدالله :

« إن مخائل الأمور لتدل على خلاف قولك، وتنبئ عن باطل تنصلك،
ولو أقررت بذنبك، واستغفرت لجرمك، لكان أجمل بك وأسدل لستر
العفو عليك ».

فقال : « قد اشتمل الذنب علي، وحق الخطأ بي، وإنما أنا بشر،
وما يقوم لي عذر ! ».

فأجابه عبدالله : « مهلاً عليك ! رويداً بك ! تقدمت لك خدمة،
وتأخرت لك توبة، وما للذنب بينهما مدخل، وقد وسعت الغفران ».

ب — وكتب إلى بعض عماله :

« أما بعد، فلو كان نظرك فيما خصصناك به، واهتياك به، على
حسب متواترك بالكتب، واشتغالك بذلك على مهم أمرك، لكنت من
أحسن رجالنا غناء، وأتمهم نظراً، وأفضلهم حزماً، فأقلل من الكتاب

فيما لا وجه له، ولا نفع فيه، واصرف همتك، وفكرتك، وعنايتك،
إلى ما يبدو فيه اكتفاؤك، ويظهر فيه غناؤك — إن شاء الله ! .

— ٣ —

أ — ولما توفي السلطان أبو عبدالله محمد بن يوسف أول ملوك
بني الأحمر في منتصف جمادى الثاني من عام أحد وسبعين وستمئة
دفن بالمقبرة الجامعة العتيقة بسنام السبيكة ، وكتب على قبره منقوشاً
في الرخام :

« هذا قبر السلطان الأعلى. عز الإسلام، جمال الأنام، فخر الليالي
والأيام، غياث الأمة، غيث الرحمة. قطب الملة، نور الشريعة، حامي
السنة سيف الحق. كافل الخلق، أسد الهيجاء، حمام الأعداء، قوام
الأمر، ضابط الثغور، كاسر الجيوش، قاصع الطغاة، قاهر الكفرة والبيغاة،
أمير المؤمنين، علم المعتدين، قدوة المتقين، عصمة الدين، شرف الملوك
والسلاطين، الغالب بالله، المجاهد في سبيل الله، أبي عبدالله محمد
ابن يوسف بن نصر الأنصاري، رفعه الله إلى أعلى عليين، وألحقه بالذين
أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء والصالحين، ولد رضي
الله عنه وآتاه رحمة من لدنه عام أحد وتسعين وخمسائة. وكانت
وفاته يوم الجمعة بعد صلاة العصر التاسع والعشرين لشهر جمادى
الآخرة عام أحد وسبعين وستمئة . فسبحان من لا يفنى سلطانه، ولا
يبيد ملكه ولا ينقضي زمانه، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم :

هذا محل العلى والمجد والكرم قبر الإمام الهمام الطاهر العلم
لله ما ضم هذا اللحد من شرف جسم ومن شيم علوية الهمم
فالبأس والجود ما تحوي صفائحه لا بأس عترة ولا ندى هرم
مغني الكرامة والرضوان يعمره فخر الملوك الكريم الذات والشيم

مقامه في كلا يومي ندى ووعى
 مآثر تلت آثارها سوراً
 كأنه لم يسر في جحفل لجب
 ولم يغاد العدى منه ببادرة
 ولم يجهز لهم خيلاً مضمرة
 ولم يقم حكم عدل في مسايسة
 من كان يجهل ما أولاه من نعم
 فضلك آثاره في كل مكرمة
 لا زال تهى على قبر تضمنه

كالغيث في المحلث أو كالليث في الأجم
 تقرر بالحق فيها جملة الأمم
 تضيق عنه بلاد العرب والعجم
 يفتقر منها الهدى عن ثغر مبتسم
 لا تشرب الماء إلا من قليب دم
 تأوي رعيته منه إلى حرم
 وما حماه لدين الله من حرم
 أبدى وأوضح من نار على علم
 سحائب الرحمة الوكافة الديم

ب — وكتب على قبر السلطان نصر أحد ملوك بني الأحمر
 (٧١١-٧١٣هـ).

هذا قبر السلطان الفاضل، الإمام العادل، علم الأتقياء، أحد الملوك
 الصالحاء، المخيت^(١) الأواه، المجاهد في سبيل الله، الرضي الأروع،
 الأخشى لله الأخشع، المراقب لله في السر والإعلان، المعمور الجنان
 بذكوره واللسان السالك — في سياسة الخلق وإقامة الحق — منهج التقوى
 والرضوان، كافل الأمة بالكرامة والحنان، الفاتح لها — بفضل سيرته
 وصدق سريره ونور بصيرته، أبواب اليمن والأمان، والمنيب الأبواب،
 العامل بكل ما يجده نوراً مبيناً يوم الحساب، ذي الآثار السنية، والأعمال
 الطاهرة العلية، القائم في جهاد الكفار بماضي العزم وخالص النية، مقيم
 قسطاس العدل منير منهج العلم والفضل، حامي الذمار، وناصر دين
 المصطفى المختار، المقتدي بأجداده الأنصار، المتوسل بما أسلفوه من
 أعمار البر والجهاد ورعاية البلاد والعباد إلى الملك الغفار، أمير المسلمين
 وظهير المؤمنين وقامع المعتدين، المنصور بفضل الله أبي عبدالله ابن

(١) المطيع.

أمير المسلمين السلطان الأعلى، إمام الهدى، غمام الندى، محيي السنة،
ومعز الملة المجاهد في سبيل الله، الناصر لدين الله أبي عبد الله ابن
أمير المسلمين الغالب بالله أبي عبد الله بن يوسف بن نصر، كرم الله
منازه، ونعمه برضاه.

ولد رضي الله عنه يوم الأربعاء الثالث لشعبان المكرم من عام خمسة
وخمسين وستمائة، وتوفي قدس الله روحه وبرد ضريحه ضحوة يوم
الاثنين الثالث لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة، رفعه الله إلى أعلى
منازل أوليائه الأبرار، وألحقه بأئمة الحق الذين لهم عقبى الدار. وصلى
الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

جـ — وكتب في الجانب الآخر هذا الشعر :

رضى الملك الأعلى بروح ويغتنى	على قبر مولانا الإمام المؤيد
مقر العلى والملك والبأس والندى	فقدس من معنى كريم ومشهد
ومثوى الهدى والفضل والعدل والتقى	فيورك في مثوى زكي وملحد
فيا عجباً طود الوقار جلالة	ثوى تحت أطباق الصفيح المنضد
وواسطة العقد الكريم الذي له	مآثر مجد بين مشى وموحد
محمد الأرضي سليل محمد	إمام الهدى نجل الإمام محمد
فيا نخبة الأملاك غير منازع	ويا علم الأعلام غير مفند
بكتك بلاد كنت تحمي ثغورها	بعزم أصيل أو يرأي مسدد
وكم معلم للدين أوضحت رسمه	بنى لك في الفردوس أرفع مصعد
كأنك ما سست البلاد وأهلها	بسيرة ميمون النقيبة مهتد
كأنك ما قدت الجيوش إلى العدى	فصيرتهم نهب القنا المتقصد ^(١)
وفتحت من أقطارهم كل مبهم	افتحت بها باب النعيم المخلد

(١) في نسخة الاسكوريال : « رهن القنا المتقصد ».

كأنك ما أنفقت عمرك في الرضا
 وإنصاف مظلوم وتأمين خائف
 كأنك ما أحييت للحق سنة
 فإن تجهل الدنيا عليك وأهلها
 تعوضت ذخراً من مقام خلافة
 وكل الوري من كان أو هو كائن
 فلا زال جاراً للرسول محمد
 وهذي القوافي قد وفيت بنظمها

بتجديد غزو أو بتشيد مسجد
 وإصراخ مذعور وإسعاف مجتد
 تجادل عنها بالحسام المهند
 فذاك ثواب الله يلقاك في غد
 مقام منيب خاشع متعبد
 صريع الردى إن لم يجر فكأن قد
 بدار نعيم في رضا الله سرمد
 فيا ليت شعري هل تصيح لمنشد

— ٤ —

أ — ومن الرسالة الجدية لابن زيدون^(١) وهي التي كتبها لأبي
 الحزم بن جهور أمير قرطبة وهو في سجنه يستعطفه :

« يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي
 به، ومن أبقاه الله تعالى ماضي حد العزم، واري زند الأمل، ثابت
 عهد النعمة. إن سلبتني — أعزك الله — لباس إنعامك، وعطلتني من
 حلي إيناسك، وأظمأتني إلى برود^(٢) إسعافك، ونفضت بي كف
 حياطتك ؟ وغضضت عني طرف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى
 تأميلي لك، وسمع الأصم ثنائي عليك، وأحس الجماد باستحمادي إليك،
 فلا غرو قد يفض^(٣) بالماء شاربه، ويقتل الدواء المستشفي به، ويؤتى

(١) هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون القرطبي، وزير آل جهور
 بقرطبة ثم آل عباد بأشبيلية، وصاحب الرسائلين : الجدية والهزلية، توفي سنة ٤٦٣ هـ.
 (٢) البرود : الماء البارد، أي إسعافك الذي هو كالماء البارد في رواه للعليل.
 (٣) يفض : يشرق.

الحذر من مأمه، وتكون منية المتمني في أميته، والحين^(١) قد يسبق
 جهد الحريص :
 كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتة الحساد
 وإنني لأتجلد، وأرى الشامتين أني لريب الدهر لا أتضعض، فأقول :
 هل أنا إلا يد أدامها سوارها، وجبين عض به إكليله، ومشرفي^(٢)
 ألصقه بالأرض صاقله، وسمهري^(٣) عرضه على النار مثقفه، وعبد
 ذهب به سيده مذهب الذي يقول :
 فقشا ليزدجروا، ومن يك حازماً فليقس أحيانا على من يرحم ؟
 هذا العتب محمود عواقبه، وهذه النبوة^(٤) غمرة ثم تنجلي، وهذه
 النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع^(٥) ولن يريني من سيدي أن أبطأ
 سيب^(٦)، أو تأخر غير ضنين غناؤه، فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها، وأثقل
 السحائب مشياً أحفلها، وأنفع الحياة ما صادف جدباً، وألذ الشراب ما
 أصاب غليلاً، ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب. له الحمد على
 اهتباله^(٧) ولا عتب عليه في إغفاله :
 فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فافعله اللاتي سررن ألوف
 وأعود فأقول : ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك، والجهل الذي
 لم يأت من ورائه حلمك ؟ والتطاول الذي لم يستغرقه تطولك^(٨)،

- (١) الحين : الهلاك.
 (٢) المشرفي : السيف ينسب إلى مشارف الشام.
 (٣) السمهري : الرمح ينسب إلى سمهر وهو صانع للرماح وزوجه رديئة كانت تعمل
 معه السلاح وإليهما تنسب الرماح.
 (٤) النبوة : الجفوة.
 (٥) تقشع : تكشف وتزول.
 (٦) السيب : العطاء.
 (٧) الاهتبال : الاغتنام، أي اغتنام معروفه.
 (٨) التطول : التكرم.

والتحامل الذي لم يف به احتمالك ؟ ولا أخلو من أن أكون بريئاً،
فأين العدل ؟ أو مسيئاً، فأين الفضل ؟

إلا يكن ذنب فعدلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع
وهل ليس الصباح إلا برداً طرزته بفضائلك^(١) ؟ وتقلدت الجوزاء
إلا عقداً فصلته بما ترك ؟ واستملى الربيع إلا ثناء ملأته بمحاسنك ؟
وبث المسك إلا حديثاً أذعته في محامدك ؟ ما يوم حليلة^(٢) بسر !
وإن كنت لم اكسك سلبياً، ولا حللتك عطلاً، ولا وسمتك غفلاً،
بل وجدت أجراً وجصاً فبنيت ومكان القول ذا سعة فقلت.

ب — وقال الفتح بن خاقان في كتابه قلائد العقيان في ترجمة
أبي الفضل بن حسداي^(٣):

ولما أعرس المستعين بالله بنت الوزير الأجل أبي بكر بن عيد
العزير احتفل أبوه المؤمن بالله في ذلك احتفالاً شهراً، وأبدع فيه
إبداعاً راق من حضره وبهره، فإنه أحضر فيه من الآلات المبتدعة،
والأدوات المخترعة، ما بهر الأكياب، وقطع دون معرفتها الأسباب،
واستدعى إليه جميع أعيان الأندلس من دان وقاص، ومطيع وعاص،
فأتوه مسرعين، وليوه متبرعين وكان مدير تلك الإراغة^(٤) ومدبرها،
ومنتشئ مخاطباتها ومحبرها، الوزير الكاتب أبو الفضل، وصدرت عنه
في ذلك الوقت كتب ظهر إعجازها، وبهر اقتضابها وإيجازها، فمن

(١) يبلغ في أن يباض الصبح مستعار من مشهور ثنائه عليه، وكذلك العبارات الآتية.

(٢) هنا مثل يضرب للأمر المتعالم المشهور، وحليلة هذه، هي بنت الحارث بن أبي
شمر الغساني وجه أبوها جيشاً إلى المنذر بن ماء السماء فضمختهم بالطيب جميعاً،
فقيل : ما يوم.. الخ.

(٣) ابن حسداي : كان وزيراً للؤمن والمستعين من ملوك الطوائف، وكان يهودياً وأسلم،
وله كتابة لينة موجزة تظهر عليها مسحة الفلسفة.

(٤) الإراغة : الإرادة والطلب والدعوة.

ذلك : ما خاطب به صاحب المظالم أبا عبد الرحمن بن طاهر : « محلك أعزك في طي الجوانح ثابت وإن نزحت الدار، وعبانك في أحناء الضلوع باد وإن شط المزار، فالنفس فائزة منك بتمثيل الخاطر بأوفر الحظ، والعين نازعة إلى أن تمتع من لفائف بظفر اللحظ، فلا عائدة أسبغ برداً، ولا موهبة أسوغ ورداً، من تفضلك باللحوق إلى مأنس يتم بمشاهدتك التمام، ويتصل بمحاضراتك انتظامه، ولك فضل الإجمال، بالإمتاع عن ذلك بأعظم الآمال، وأنا (أعزك الله) على شرف سؤددك حاكم، وعلى مشرع سنائك حائم. وحسي ما تتحققه من نزاعي وتشوقي، وتيقنه من تطلعي وتتوقي. وقد تمكن الارتياح باستحكام الثقة، واعتراض الاقتراح، بارتقاب الصلة. وأنت وصل الله سعدك بسماحة شيمتك، وبارع كرمك، تنشئ للمؤانسة عهداً، وتورث بالمكارمة زناً، وتقتضي بالمشاركة شكراً حافلاً وحمداً. لا زلت مهناً بالسعود المقبلة، ومسوغاً اجتلاء غرر الأمانى المتهللة بمنه ».

جـ - وهذا فصل للأديب أبي عامر بن عقال^(١) :

كتب به عن الأمير إبراهيم يصف اجتياز أمير المسلمين البحر سنة خمس عشرة وخمسمائة : في الساعة الثانية من يوم الجمعة، كان جوازه (أيده الله تعالى) من مرسى جزيرة طريف على بحر ساكن قد ذل بعد استصعابه، وسهل بعد أن رأى الشامخ من هضابه، وصار حيه ميتاً، وهدره صمتاً، وجباله لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وضعف تعاطيه، وعقد السلم بين موجه وشاطيه، فغير آمتاً من سطوته، متمكناً لصهواته، على جواد يقطع الجروف لمحا، ويكاد يسبق الريح سبحا، لم يحمل لجاماً ولا سرجاً، ولا عهد غير اللجة الخضراء مرجاً؛ عنانه في

(١) كان أديباً شاعراً كاتباً من كتاب بني قاسم من ملوك الطوائف، ولما ملك المرابطون الأندلس وأزوالوا ملك الطوائف اتصل بالأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين، فكان كاتب إنشائه.

رجله^(١)، وهدب العين يحكي بعض شكله، فله دره من جواد، له جسم وليس له فؤاد، يخرق الهواء ولا يرهبه، ويركب الماء ولا يشربه.



صور من النثر العلمي :

أ — باب ما يهمز فيكون له معنى، فإذا لم يهمز كان له معنى آخر — من كتاب «المخصص»^(٢) :

يقال : قد روات في الأمر، وقد رويت رأسي بالدهن. وقد تملأت من الطعام والشراب، وقد تمليت العيش : إذا عشت ملياً أي طويلاً، وتقول : قد تخطأت له في هذه المسألة، وقد تخطيت القدم، لأنه من الخطوة، وقد قرأت القرآن وما قرأت الناقة سلاقط، أي لم تلق ولدًا، أراد أنها لم تحمل، وقد قرئت الضيف وقد سوات عليه ما صنع، إذا قلت له : أسأت، وقد سويت الشيء. والعرب تقول : إن أصبت فصوتني، وإن أخطأت فخطفتني، وإن أسأت فسوي علي. وقد خبأ الشيء يخبؤه خبياً، وقد خبت النار خبوا : إذا ذهب لهبها، وقد برأت من المرض أبرأ برءاً، وقد بريت القلم، وقد بارأت شريكي — إذا فارقته — وقد بارأ الرجل امرأته، وباريت فلاناً إذا كنت تفعل ما يفعل، وفلان يباري الريح سخاء.

(١) رجل السفينة : سكانها (دخها) أي لأن له مجاديف متراسة متقاربة من الجانبين كأنها الأهداب.

(٢) صاحبه أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي الضرير المعروف بابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ من ٦٠ سنة.

ب - افتتاح كتاب :

قال الشيخ الفقيه الإمام العالم المؤرخ ذو الوزارتين الكاتب البارع الأديب : لسان الدين أبو عبد الله محمد بن الخطيب السلطاني رحمه الله (٧١٣-٧٧٦هـ) في مقدمة كتابه اللوحة البدرية في الدولة النصرانية :
الحمد لله الذي جعل الأزمنة كالأفلاك، ودول الأملاك كأنجم الأحلاك، تطلعها من المشارق نيرة، وتلعب بها مستقيمة أو متحيرة، ثم تذهب بها غائرة متغيرة^(١). السابق عجل، وطبع الوجود مرتجل، والحي من الموت وجل، والدهر لا معتذر ولا عجل؛ بينما ترى الدست عظيم الزحام، والموكب شديد الالتحام؛ والوزعة تشير، والأبواب يقرعها البشير، والسرور قد شمل الأهل والعشير؛ والأطراف يلثمها الأشراف، والطاعة يشهرها الاعتراف، والأموال يحوطها العدل أو يبيحها الإسراف؛ والرايات تعقد، والأعطيات تنقد؛ إذ رأيت الأبواب مهجورة، والدسوت لا مؤملة ولا مزورة؛ والحركات قد سكنت، وأيدي الإدالة قد تمكنت. فكأن لم يسمر سامر، ولا نهى ناه ولا أمر أمر. ما أشبه الليلة بالبارحة، والغادية بالرائحة « إنما مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ». فالويل لمن يترك حسنة تنفعه، أو ذكراً جميلاً يرفعه. فلقد عاش عيش البهيمه النهيمه، وأضاع جواهر عمره الرفيعة القيمة، في السبيل غير المستقيمة، وبذر أمانته سبحانه في المساخط^(٢) العقيمة. وطوبى لمن عرف المصير، وغافض الزمان القصير^(٣)، في اكتساب محمده تبقى بعده شهاباً، وتخلد منقبة تقيده ثناء وثواباً، فالذكر الجميل كلما تخلد استدعى الرحمة وطلبها؛ واستدنى المغفرة واستجلبها، فلمثله فليعمل العاملون، وغايته فليأمل

(١) الغائرة : المترددة. وفي النسخة المراكشية : غائرة.

(٢) في نسخة الاسكوريال : المساقط.

(٣) غافضه : أخذته على غرة.

الآملون، « والدار الآخرة خير لو كانوا يعلمون .. » والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي شرح حقارة الدنيا على الله وبين، وحدد^(١) البلاغ منها وعين، وخفض الكلمة ولين، وحسن الدار الآخرة، وزين، وخفض^(٢) أمر هذه الدار الغرور وهين. وقال — صلاة الله وسلامه عليه — : « أكثروا من ذكر هادم اللذات » كيلا تتشبث بها يد؛ « ولتنظر نفس ما قدمت لغد ».

والرضا عن آله الذين جازوا على جسرها الممدود ومروا. ولقوا الله وهم لم يفتروا، فكانوا إذا عهدوا بروا، وإذا سمعوا اللغو فروا، وإذا تليت عليهم آيات الله خروا. وكانوا عن حدود تقواه لا يرحون؛ وبسوى مواهبه الباقية لا يفرحون. « أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون ».

أما بعد فإن في تاريخ الدول عبرة لأولي النهى، وذكرى لمن غفل عن الله وسها؛ لتحول الأحوال، وتصير الرسوم إلى الزوال، وتلاعب زعازع الأهوال، بالنفوس والأموال، إلى امتاع المجالسة، وإنحاف المؤانسة، عند الملايسة، لاسيما التاريخ الذي لم يهتد لضمه لديوان، لقلعة عيان، أو تأخر زمان، فالنفوس إليه متطلعة، وباجتلاء أنبيائه^(٣) متولعة.

ولذلك ما جليت في هذا الكتاب ذكر (ملوك النصرية) على نسق، وأطلعت منهم في ليل الخير بدور غسق. إذ كنت جبهة أخبارهم، وقطب مدارهم، وزمام دارهم. فذكرت نبأ من أخبار وطنهم الذي سكنوه، وأفقههم الذي حسنوه بسيرهم الحميدة وزينوه. ومن دال به

(١) في نسخة الأستوربال : « وحد ».

(٢) كذا في النسختين؛ وفي هامش المراكشية بخط أحدث : « وحقر ».

(٣) في المراكشية : أقرضه.

قبلهم من أمير، أو ذي حسب شهير. ثم تعاقبهم بحسب الزمان، وسعة الامكان، ومن اختص بهم من قاض، وكانت ووزير، أو كان على عهدهم من ملك كبير، أو حادث يليق بتخليد أو تسطير.. وسميته بـ « اللوحة البدرية، في الدولة النصرية »، فان كانت الإجابة فهو القصد، أو كانت الأخرى بذل الجهد، وحصلت البراءة من التقصير والله الحمد. وها أنا أبدي، وبالله أهتدي، وعفوه يتغمد ما خطته يدي.

ج — ومن كلام أبي عمرو وأحمد بن محمد ابن عبد ربه القرطبي، صاحب « العقد الفريد » المتوفى سنة ٣٢٨هـ في مقدمة كتاب الأجوبة، من كتابه العقد :

هي أصعب الكلام كله مركباً، وأعزه^(١) مطلباً، وأغمضه مذهباً، وأضيقه مسلماً، أن صاحبه يعجل مناجاة الفكرة، واستعمال القريحة^(٢) يروم في بديته نقض ما أبرم القائل في رويته، فهو كمن أخذت عليه الفجاء، وسدت عليه المخارج، وقد اعترض^(٣) الأسته، واستهدف^(٤) للرامي، لا يدري ما يقرع به فيتأهب له، وما يفجؤه من خصمه فيقرعه بمثله، ولا سيما إذا كان القائل قد أخذ بمجامع الكلام، فقادته بزمامه بعد أن روى فيه واحتفل^(٥)، وجمع خواطره واجتهد، وترك الرأي يغيب^(٦) حتى يختم، فقد كرهوا الرأي القطير^(٧)، كما كرهوا

- (١) هي من عز : بمعنى قوي بعد ذلة، أو بمعنى صار نادراً.
- (٢) القريحة : الطبع، وهي في الأصل : أول ما يستبسط من ماء البر، وأول كل شيء.
- (٣) وقف في طريقها.
- (٤) صير نفسه هدفاً.
- (٥) اجتهد وبالغ.
- (٦) أي بمكث، من قولهم غب عندنا أي بات، ومنه : « رويد الشعر يغيب ». أي لا تعجل بالشعر، ودعه حتى تأتي عليه أيام، فنظر كيف عاقبه، أحمده أم يذمه.
- (٧) الذي لم يصدر عن روية.

الجواب الدبري^(١)، فلا يزال في نسج الكلام واستناسه^(٢) حتى إذا اطمأن شارده، وسكن نافرده، صك به خصمه جملة واحدة، ثم قيل له : أجب ولا تخطئ، وأسرع ولا تبطن! فتراه بجواب من غير أناة ولا استعداد، يطبق المفاصل، وينفذ المقاتل^(٣)، كما يرمي الجنديل بالجنديل، ويقرح الحديد بالحديد، فيحل به عراه، وينقض مرآته^(٤) ويكون جوابه على أكثر كلامه كسحابة ليدت عجاجة، فلا شيء أعضل من الجواب الحاضر، ولا أعز من الخصم الألد الذي يقرع صاحبه، ويصرع منازعه، كمثل النار في الحطب الجزل.

د - وكتب الفتح بن خافان المتوفى سنة ٥٢٩ في ترجمة الوزير الكاتب أبي المغيرة بن حزم : « وبنو حزم فتية علم وأدب. وثنية مجد وحسب، وأبو المغيرة هذا في الكتابة أوحده، لا يتعت ولا يحد، وهو فارس المضممار، حامي ذلك الذمار، وبطل الرعيل^(٥)، وأسد ذلك الغيل. بسق في المعجزات، وسبق في المعضلات الموجزات، إذا كتب وشى المهارق^(٦) وديج، وركب في بحر البلاغة الشيخ^(٧). وكان هو وأبو عامر بن شهيد خليلي صفاء، وحليفي وفاء، لا ينفصلان في رواح

- (١) الدبري : رأى يسبح أخيراً عند فوت الحاجة، ولعله نسبة إلى الدبرة (بالتحريك) وهو اسم من الإديار، بمعنى الهزيمة في القتال.
- (٢) استأنس : فعل لازم بمعنى ذهب توحشه. والذي يليق بسياق الكلام هنا التأنيس والإناس وهو إذعاب الوحشة، فلعل الكلمة محرقة عما ذكرنا.
- (٣) أي يجعل السهام تنفذ منها؛ مبالغة في الاصابة، فهي لم تصب فحسب؛ بل مرت فيها وجاوزتها.
- (٤) المرائر : جمع مريرة وهي الحبل الشديد القتل.
- (٥) الرعيل : اسم كل قطعة متقدمة من عيل وجراد وطيور ورجال ونجوم وإبل وغير ذلك.
- (٦) وشى الثوب وشيا وشية : حسنه، ووشاه نمنه ونقشه وحسنه - والمهارق جمع مهرق : الصحيفة البيضاء يكتب فيها فارسي مغرب، وديج : نقش.
- (٧) ليج كل شيء : معظمه ووسطه وأعلى، وجمعه أجاج وثوج.

ولا مقييل، ولا يفترقان كمالك وعقيل. فكانا بطريقة رافعي الوية الصيوة،
وعامري أندية السلوة. إلى أن أخذ أبو عامر في حياطة الردى وعلق،
وغدا رهنه فيما قد غلق^(١). فانفرد أبو المغيرة بذلك الميدان، واسترد
ممن سبقه ما فاته منذ زمان، فلم يذكر له مع أبي عامر حسنة ولا
سرت له فقرة مستحسنة، لتعذر ذلك وامتناعه، بشفوف^(٢) أبي عامر
وامتداد باعه. وأما شعر أبي المغيرة فمرتبط بنثره، ومختلط بزهره، وقد
أثبت له منها فنوناً، تجن بها الأفهام جنوناً. فمن ذلك قوله :

ظننت، وفي أحداجها من شكلها يمين فضحن بحسنهن العينا
ما أنصفت في جنب توضح إذ قرت ضعف الوداد بلايلا وشجوننا
أضحى الغرام قطين ربع فؤاده إذا لم يجد بالرمقتين قطينا

هـ — ومن كتابة ابن بسام في الذخيرة : « وأما ولادة التي ذكرها
ابن زيدون في شعره، فإنها بنت محمد بن عبد الرحمن بن عبيد
الله الناصري، وكانت في نساء زمانها واحدة أوانها، حضور شاهد،
وغزارة أوابد، وحسن منظر ومخير، وحلاوة مورد ومصدر، وكان
مجلسها بقرطبة منتدي لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر،
يعشسو^(٣) أهمل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك
أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها.. إلى سهولة حجابها، وكثرة متابها،

(١) قال سيويه : غلق الرهن في يد المرتهن « كفرح » يغلغ غلقاً وغلوفاً فهو غلق :
استحققه المرتهن، وذلك إذا لم يفتك في الوقت المشروط.
(٢) الشفوف : الفضل والزيادة، من شف عليه يشف شفواً.
(٣) عشا يعشو : إذا أتي ناراً للضيافة، وعشا لي النار عشواً وعشوا واعتشاهوا واعتشى
بها، كله بمعنى : رأها ليلاً على بعد قصدها مستظيلاً قال الحطيط :
متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد
أي متى تأته لا تتبين ناره من ضعف بصرك.

تخلط ذلك بعلو نصاب^(١)، وكرم أنساب وطهارة أثواب. على أنها
— سمح الله لها وتغمد زللها — طرحت التحصيل^(٢)، وأوجدت إلى
القول فيها السبيل، لقللة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها. كتبت
— زعموا — على أحد^(٣) عاتقي ثوبها :
أنا — والله — أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتبه تيهها
وكتبت على الآخر :

أمكن عاشقي من لثم خدي وأعطي قبلي من يشتهيها
هكذا وجدت هذا الخير، وأبرأ إلى الله من عهدة ناقله، وإلى الأدب
من غلط النقل إن كان وقع فيه.

وذكر بعد ذلك : أن أباه يبيع يوم قتل عبد الرحمن المستظهر
يوم السبت ثلاث خلون من ذي العقدة سنة أربع عشرة وأبعمائة،
فسمى بالمستكفي بالله، وكان واهناً متخلفاً ضعيفاً، وكانت دولته
تسعة عشر شهراً صعباً، نكدات سوداً، مشوهات مشومات. ولولادة
في مداعة ابن زيدون، وكان له غلام اسمه علي :

ما لابن زيدون على فضله يفتابني ظلماً، ولا ذنب لي
ينظر لي شزراً إذا جتته كأنما جت لأخصي علي !!!

و — ومن رسالة أبي بكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل المتوفى
سنة ٥٧١هـ، وهي الرسالة المعروفة بالحكمة المشرقية، أو « حي بن
يقظان »، التي تجمع فيها بين الفلسفة والشريعة :

« ثم تأمل في جميع أصناف الحيوان : كيف أعطي كل شيء خلقه،
ثم هداه لاستعماله؛ فلو لا أنه هداه لاستعمال تلك الأعضاء التي خلقت

(١) النصاب والمنصب كمنجس، أي الأصل والمرجع.

(٢) التحصيل : تمييز ما يحصل.

(٣) العائق ما بين المنكب.

له في وجوه المنافع المقصودة به لما انتفع بها الحيوان، وكانت كلا عليه، فعلم بذلك أنه أكرم الكرماء، وأرحم الرحماء.»

ز — ومن رسالة لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفيلسوف صاحب كتاب «الفصل! في الملل والأهواء والنحل» وهي رسالة رد بها على رسالة رجل يدعى أحمد بن الربيب القيرواني، وقد أثبت هذا في رسالته تقصير أهل الأندلس في تخليد علمائهم، ومآثر فضائلهم، وسير ملوكهم، فلما وقف ابن حزم على هذه الرسالة كتب رسالة طويلة، منها: «فأما مآثر بلدنا فقد ألف في ذلك أحمد بن محمد الرازي التاريخي كتاباً جمّة منها كتاب ضخّم ذكر فيه مسالك الأندلس: مراسيها وأمّهات مدنها وأجنادها الستة، وضواحي كل بلد منها، وما فيه ليس في غيره، وهو كتاب مريح مليح.»

ومنها في وصف أهل قرطبة: «فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات والروايات والاطلاع على كثير من الفقه، والبصر بالنحو والشعر واللغة والجبر والطب والحساب والنجوم؛ بما كان رحب الفناء واسع العطن متفاني الأقطار فسيح المجال.» ومنها في ذكر مواد العلوم: «وأما الطب فكتب الوزير يحيى بن اسحاق مشهورة، وهي كتب حسان رفيعة، وكتب محمد بن الحسن المذحجي أستاذنا رحمه الله تعالى وهو المعروف بابن الكناني، وهي كتب رفيعة حسان، وكتب التصريف لأبي القاسم خلف بن عياش الزهراوي.»

ومنها: «ومن الأخبار تواريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس، وخدمتهم وغزواتهم وكتابتهم. وذلك كثير جداً، وكتاب له في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها.

ح — وترجم لسان الدين بن الخطيب لابن خلدون، «الإحاطة في أخبار غرناطة» فقال: عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن ابن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، من ذرية عثمان أخي كريب

المذكور في نبهاء ثوار الأندلس وينسب سلفهم إلى وائل بن حجر، وحاله عند القدوم على رسول الله ﷺ معروفة. انتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك، فاستقر بتونس منهم ثاني المحمدين : محمد بن الحسن، وتنازلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة، وتصرف جد المترجم، به في القيادة.. وأما المترجم به فهو رجل فاضل، حسن الخلق، جم الفضائل، باهر الخصال، رفيع القدر طاهر الحياء أصيل المجد وقور المجلس، خاصي الزي عالي الهمة، عزوف عن الضيم، صعب المقادة، قوي الجأش، طامح لفتن الرياضة، خاطب للحظ، متقدم في فنون عقلية ونقلية، متعدد المزاي، سديد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصور، بارع الحظ، مغري بالتجلة، جواد حسن العشرة، مبدول المشاركة، مقيم لرسم التعين، عاكف على رعي خلال الإصالة، مفخر من مفاخر التخوم المغربية.

ط — وهذه مقامة بلسان الدين بن الخطيب (٧١٣—٧٧٦هـ) وصف بها بلاد الأندلس والعدوة، ومنها :

قلت فمدينة سبتة ؟ قال : تلك العروس المجلى، وثنية الصباح الأجلى تبرزت تبرج العقيلة، ونظرت وجهها في البحر في المرآة الصقيلة، واختص ميزان حسنتها بالأعمال الثقيلة، وإذا قامت بيض أسوارها وكان جبل بنيوشن شمامة أزهارها، والمنارة منار أنوارها، كيف لا ترغب النفوس في جوارها، وتهيم الخواطر بين أنجادها وأغوارها؛ إلى المينا الفلكية، والمراقى الفلكية الذكية الزكية، غير المنزورة ولا المبكية، ذات الوقود الجزل المعد للأزل والقصور المقصورة على الجد والهزل، والوجوه الزهر السحن المضمون بها عن المحن، دار الناشبة والحامية المضرمة للحرب الناشبة، والأسطول المرهوب المحذور الألهوب، والسلام المكتوب المحسوب، والأثر المعروف المنسوب.. كرسي الأمراء، والأشراف، والوسيطه لخامس أقاليم البسيطة؛ فلاحظ لها في الانحراف.

بصرة علوم اللسان، وصنعاء الحلل الحسان، وثمرة امتثال قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الأمانة على الاختزان، القويمة المكيال والميزان، محشر أنواع الحيتان، ومحط قوافل العصير، والحريز، والكتان، وكفاها السكنى بينوشن في فصول الأزمان، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان، والدفن المرحوم غير المرحوم، وخزانة كتب العلوم، والأثار المنبئة عن أصالة الحلوم. إلا أنها فاعرة أفواه الجنوب، للغيث المصبوب، عرضة للرياح ذات الهبوب، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب، ثغر تنبو فيه المضاجع الجنوب وناهيك بحسنة تعد من الذنوب، فأحوال أهلها رقيقة وتكلفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقة، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة، وأنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة، فهم يمصون البلالة مص المحاجم، ويجعلون الخبز في الولاثم يعدد الجماجم وفتنتهم يبلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم، وراعي الجديب بالمطر الساحم، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة، الشك عندي في مكة والمدينة.

ي — ومن رسالة التوايح والزوايح^(١) لأبي أحمد بن أبي مروان بن شهيد حفيد ذي الوزارتين أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر. وقد توفي سنة ٤٢٦هـ :

« وكنت أحن إلى الآداب، وأصبو إلى تأليف الكلام، فابتعت الدواوين وجلست إلى الأسانيد، فنبض في عرق الفهم، ودر لي شريان العلم. وقليل الالتماح^(٢) من النظر يؤيدني، ويسير المطالعة في الكتب يقيدني، إذ صادف شن العلم مني طبقة، ولم أكن كالتلج تقتبس منه نارا، ولا كالحمار يحمل أسفارا، فدعت ثغرة العلم دراكا، وأعلقت أرجل طيره أشراكا، فاتثالت لي العجائب، وانهاالت لي الرغائب ؟ وكان لي

(١) الروبة : الشيطان أو رئيس الجن.

(٢) النظر الخفيف.

أوائل صبيوتي هوى اشتد له كلفي، ثم لحقني بعض ملل في أثناء ذلك الميل، فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملل، فجزعت، وأخذت في رثائه فقلت :

تولى الحمام بظبي الحذور وفاز الردى بالفزال الغرير^(١)

إلى أن انتهيت إلى الاعتذار من الملل الذي كان فقلت :
وكنت مللتك لا عن قلبي ولا عن فساد ثوى في الضمير

فارتج على القول فإذا أنا بفارس بباب المسجد على فرس أدهم كأنما يقل^(٢) وجهه، قد اتكأ على رمحه وصاح بي : أعجزا يا فتى الأئس ؟ فقلت : لا وأبيك للكلام أحيان، وهذا شأن الإنسان. فقال : قل بعده :

كمثل ملال الفتى للنعيم إذا دام فيه، وحال السرور

فأثبت إجازته وقلت : بأبي من أنت ؟ قال زهير بن نمير من أشجع الجن. تصورت لك رغبة في اصطفاك، قلت : أهلاً بك أيها الوجه الوضاح. صادفت قلباً إليك مقلوباً وهوى نحوك مجنوناً وتحادثنا وتذاكرت معه أخبار الخطباء والشعراء ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع الخ.

— ٦ —

أ — وكتب ابن برد الأصغر في الاستزارة. ويقال إن ابن برد هذا أول من وضع المحاورات بين الورد وغيره من الأزهار :
ه اليوم، يوم بكت أمطاره، وضحكت أزهاره، وتقنعت شمس، وتعطر

(١) المخدوع.

(٢) نبت.

نسيمه. وعندنا بلبل أزج، وساق غنج^(١)، وسلافتنا^(٢) سلافة أجدان، وسلافة دنان. قد تشاركنا في الطباع واشتركنا في إثارة السرور. فاحرق إلينا سرادق الدجى، تجد مرأى لا يحسن إلا لك، ولا يتم إلا بك، الزيارة بالليل أخفى، وبالزائر والمزور أخفى^(٣).

ب — ومن النثر قول ابن خفاجة من رسالة يصف فيها متنزهاً :

ولما أكب الغمام إكباباً، لم أجد منه إغياباً، واتصل المطر اتصالاً، لم ألف منه انفصالاً، أذن الله تعالى للصحو أن يطلع صفحته، وينشر صحيفته، فقشعت الريح السحاب، كما طوى السجل للكتاب^(٤)، وطفقت السماء تخلع جلابها، والشمس تميظ نقابها، وطلعة الدنيا تنتهج كأنها عروس تجلت وقد تحلت، ذهبت في لمة^(٥) من الإخوان، نستبق^(٦) إلى الراحة ركضاً، ونطوي للتفرج أرضاً، فلا أندفع إلا إلى غير نعيم، قد استدارت منه في كل قرارة ماء^(٧) سحابة عماء^(٨)،

(١) الزجج : دقة في الحاجبين وطول، وحاجب أزج ومزجج، والغنج في الجارية : تكرر وتدلل : وقيل ملاحمة العينين، وقد غنجت المرأة كقرح، فهي مغناج وغنجة، أما الغنج بفتح النون : فهو الرجل ولا معنى له هنا.

(٢) سلاف الخمر وسلافتها : أول ما يعصر منعا، أو هو ما سال من غير عصر ولا مرت، وهو أخفصها وأفضلها.

(٣) حفى بالرجل حفاوة وحفاوة وحفاية وتحفى به واحضى : بالغ في إكرامه.

(٤) السجل : الطومار وهو ما يكتب فيه، ومعنى طيه للكتاب : أنه يطوي على ما فيه من كتابة، فاللام للتعليل، أي يطوي بسبب أنه صار مكتوباً، أو الكتاب بمعنى المكتوب، أي أن السجل يطوي ما كتب فيه ويضمه، فلا يديه أحد إلا بالقراءة. والمعنى أن السحاب اخضى كما يخطفى المكتوب.

(٥) اللمة « بالضم » : الصاحب والأصحاب في السفر، والمؤنس للواحد والجمع.

(٦) تسابق.

(٧) القرارة : ما اطمأن من الأرض.

(٨) يقال جارية ونخلة عماء، أي طويلة.

وانساب في تعلقه حباب^(١). فترددنا بتلك الأباطح تنهادى تهادي
أغصانها، وتتضحك تضاحك أفعوانها، وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم،
ترسل^(٢) مثنى، على بساط وشى، فإذا مر بغدير نسجه درعاً، وأحكمه
صنعاً، وإن عثر بجدول شطب^(٣) منه نصلاً، وأخلصه صقلاً، فلا ترى
إلا بطاحاً مملوءة سلاحاً، كأنما انهزمت هناك كتائب، فألقت بما
لبسته من درع مصقول، وسيف مسلول.

جـ - وكتب أبو اسحاق بن خلفاجة إلى بعض اخوانه، وكانت
بينهما جفوة :

أطال الله بقاء سيدي، النبيهة أوصافه، الزبيهة عن الاستثناء، المرفوعة
إمارته الكريمة بالابتداء، ما انحذفت ياء يسرى للجزم، واعتلت واو
يفزو لموضع الضم. كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال،
وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال، والله يجعل هاتيك من الأحوال
الثابتة اللازمة، ويعصم هذا من الحروف الجازمة.

(١) الحباب : بالضم والكسر : الحية، والمراد أن الماء تلوى في جريانه، فكان كالحية.
(٢) ترسل : التؤدة والرفق.
(٣) الشطيل : السيف، والشطب القطع. والمعنى في شطب السيف : تصوير الحديدية على
مثاله، والمعنى في كون النسيم يجعل الجدول سيفاً، أنه يمر بصفتيه، فيحدث فيه
طرائق لامعة، كأنها صفحات السيوف.

الفصل الثاني

الكتابة الفنية الأندلسية

تبع في الأندلس كثير من الكتاب البلغاء، الذين كان من بينهم :
أحمد بن عبد ربه القرطبي صاحب « العقد الفريد » المتوفى عام ٣٢٨هـ،
وأبو عامر أحمد بن أبي مروان بن شهيد المتوفى عام ٤٢٦ هـ، صاحب
الزوابع والنوابع، وهو حفيد ذي الوزارتين أحمد بن رشيد، وزير الناصر.
وكذلك : ابن زيدون ولسان الدين بن الخطيب، وابن بسام، والفتح
ابن خاقان، وأبو المطرف بن عميرة، وسواهم.

وصف الكتابة الفنية

— ١ —

أ — لم يكن للكتابة الفنية مجال واسع مدة حكم الأمراء الأولين
في الأندلس، لأن الحالة السياسية والاجتماعية لم تكن استقرت بعد،
فلم يكن هناك ما يساعد على نمو الكتابة في الموضوعات الاجتماعية
أو الخيالية أو الفنية. فاقترنت في القرن الأول من دخول العرب في
الأندلس على ما تقتضيه الحال من الرسائل السياسية والإدارية، لبث الحماسة

في نفوس الجند، وضبط أمور البلاد، مما كان يلقيه الولاة، ويكتبه الأمراء أو الخلفاء للعمال وغيرهم. وكان كل ذلك تمليه الرغبة في تأييد الملك، ويسوده الروح العربي الذي كان يسيطر على العقول في دمشق مدة الأمويين. فكانت الكتابة إذ ذاك عربية في موضوعاتها، وفي أساليبها، وعباراتها الجزلة الرصينة، خالية من الصنعة والتكلف.

فمن ذلك ما كتبه بدر مولى عبد الرحمن الداخل إلى سيده وقد هجره :

« أما كان جزائي — في قطع البحر، وجوب القفر، والإقدام على تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى — غير الهجر الذي أهانني في عيون أكفائي، وأشمت بي أعدائي، وأضعف أمري ونهبي عند من يلوذ بي، وبتز مطامع من كان يكرمني ويخدمني على الطمع والرجاء، وأظن أن أعداءنا بني العباس لو حصلت بأيديهم مابلغوا بي أكثر من هذا، فإننا لله وإنا إليه راجعون ».

فلما وقف عبد الرحمن على رقعة اشتد غضبه ووقع عليها : « وقفت على رقعتك المنبقة عن جهلك، وسوء خطابك، ودناءة أدبك، ولثيم معتقدك. مما قد أضجر الأسماع تكراره، وقدحت في النفوس إعادته، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك، وزدنا في هجرك وإبعادك وهضنا جناح إذلالك. فلعل ذلك يقمع منك، ويردعك، حتى تبلغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى، فنحن أولى بتأديك عن كل أحد، إذ شرك مكنوب في مثالبنا، وخيرك معدود في مناقبنا ».

ومن نثر عبد الرحمن الداخل قوله في كتاب أملاه على كاتبه إلى رجل اسمه سليمان بن الأعرابي : « أما بعد فدعني من معاريف المعاذير، والتعسف عن جادة الطريق، لئلمدن يداً إلى الطاعة، أو لألقين بناتها على رصف المعصية نكالاً بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد ».

٢ — ولما جاء عهد الخلفاء وملوك الطوائف نهضت فنية فذة،
وسلكت مسلكاً جديداً في أغراضها ومعانيها وأسلوبها :

فأما أغراضها : فقد اتسعت إلى أحد أنها تناولت أغراض المشاركة،
وقد علمنا أنها تعددت هناك بتعدد أعمال الدواوين، وبما زاد على
الرسائل الإخوانية من استعمالها في الهجاء والمفاخرة وما إلى ذلك،
بل إن الأغراض هنا زادت على تلك في أكثر ما نجد من مناظرة
ومفاخرة، وجد هزل وخيال شعري متسع الأنحاء.

وأما معانيها : فقد ظهر فيها الخيال الفسيح من آثار ذلك الجمال
الأقليمي البديع الذي ينبت الخيال ثم يغذيه فينميه، وأنا نراه متجلياً
في كل شيء، حتى في بيان الحقائق العميقة، يقربونها من العقول، في تصوير
ممتع رائق، كما في رسالة حي بن يقظان لابن الطفي. وكان لزهدهم
في علوم الفلسفة اثر في كون كتابتهم فطرية ساذجة بعيدة عن التعمق.
ولكنها كانت تظهر في ثوب مهذب تهذيباً عربياً خالصاً من تلك
الشوائب.

وأما الأسلوب : فحدث ولا حرج، عن ألفاظ كأنها نسمات الأشجار
عذوبة ورقة، في أساليب لا يشبهها إلا قائلوها في خفة أرواحهم وفصفاء أذواقهم.
قد اشتملت على تشبيهات واستعارات حالها التوفيق. لا تشعر فيها
بشيء من النبو مهما فضت ورددت. لأنها وحى الصفاء المنزل من
السماء. وهيئات أن يعيه إسفاف، أو يزري به تقصير — ولقد كانوا
يؤثرون السجع القصير لجمال وقعه. إلا أنهم تفانوا فيه تفانياً كلياً
حتى تعدوا الأدب إلى الكتب العلمية والتاريخية. ومع ذلك فهو في الجملة يحف
به القبول لسلامة طبعهم. وصفاء ذهنهم. ولم تكن لهم تكلفات المشاركة
في التهالك على سائر أنواع البديع كالتورية والجناس، بل يتركون ذلك
لعفو الخاطر.

ولكثرة المحفوظ عندهم وعنايتهم بجمع العلوم الإسلامية ظهرت في كتاباتهم عدة اقتباسات من الكتاب الكريم والسنة النبوية، إلى عدة تضمينات من الشعر العربي والأمثال، وقد بالغ بعضهم في هذا النوع، ولعل ابن زيدون فارس هذه الحلية، ففي رسالته الجدية والهزلية العجب العجائب، مما أطال بعض الألسنة بأنه لم يفعل في ذلك أكثر من جمع شتات أمثال وحكم. وكذلك كثرت الإشارة إلى الحوادث التاريخية والأيام العربية، وغلا بعضهم فيه غلواً شديداً. ومن محاسن كتاب هذين العصرين : عدم الحقل بقيود البدء والختام، ولا ألقاب التعظيم التي كان يخصصها المشاركة تقليداً للفرس، فكان لكل من الخليفة والسلطان والعالم والقاضي والخطيب وغير هؤلاء لقب خاص به، ما أنزل به من سلطان، ولا جاء في لسان العرب الأوائل، كما أنهم لم يحفلوا بأنواع الدعاء وتنويعها، ولا صيغ التعظيم وتفخيمها، وإنما كانوا أقرب شيء إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وعني أدباء الأندلس بمحاكاة أدباء الشرق واتباع طرقهم أولاً، ثم دب الترف في النفوس والعقول كما دب في الاجتماع، وتمشى هناك نوع جديد من التفكير، وظهرت آثار الثقافة العلمية والفنية، وتهدبت الأفكار، وتضجت العقول، بما نقل من علوم وفنون، وانتشرت مظاهر الحضارة في المجالس والمجامع. فامتألت نفوس الكتاب بشتى الموضوعات التي وسعت من أحوالهم، وهذبت من إدراكهم، وأكسبتهم صبغة فنية، وبما كان من أبهة الملك، ووصف المباني الضخمة والقصور الفخمة، ومظاهر الترف ومجالس الخلفاء والأمراء. فكان ذلك من العوامل الجديدة في نمو ملكة الكتابة، فنشأ عن ذلك : النثر الإنشائي الفني، واشتمل على كل مظاهر الحياة العلمية والاجتماعية، فكتب الكتاب رسائل في المراسلات والأوصاف والسياسة، والمناظرات الخيالية، والمناقشات العلمية، والقصص الاجتماعية والخيالية، ورسائل الاستعطاف والهجاء المملوءة بالحكم والأمثال، والرسائل الفكاهية، وكتبوا على ألسنة

البلدان والحيوان؛ وكتبوا في الدعوات والإرشاد والتوسل إلى الله، وفي شعائر الحج، كما كتبوا في الزهد والتصوف، وكما كتبوا في المجون، فبرعوا في النثر، كما برعوا في أساليب النظم.

وممن كتب في الاستعطاف والهجاء أبو الوليد بن زيدون، وممن كتب في القصص والفكاهات أبو عامر بن شهيد. وممن كتب في المناظرات بين السيف والقلم ابن برد الأصغر، كما كتب أبو بحر صفوان بن إدريس في المناظرة بين بلدان الأندلس، وكتب ابن طفيل في القصص الفلسفية، وممن أطلال في الرسائل واشتهر فيها لسان الدين ابن الخطيب. فكان النثر أكبر مظاهر الأدب العربي كالشعر سواء بسواء، بل فاق الشعر من حيث تجدد الموضوعات وتطورها، التي كان من أشهرها القصص الخيالية.

وكما كتبوا في الموضوعات الخيالية كتبوا في الزهد والتقوى والتصوف والتوسل إلى الله وإلى الرسل. كل ذلك بعبارة منمقة، وأحياناً متكلفة يسودها الخيال. لذلك كانت كل كتاباتهم بأنواع المجاز من استعارة وتشبيه، مما لا تكاد تخلو جملة منه؛ حتى كانت هذه الصناعة اللفظية لديهم أول ما يقصدون إليه من أغراض الكتابة الفنية، ويوجهون إليه همهمهم. وكان السجع أظهر ضروب الصناعة النثرية في كلامهم. وقد كان هذا الأسلوب الفني في جملته أرق الأساليب وأجملها في تلك الأيام، حين كانت بلاد المشرق تفخر بكتابة ابن العميد والهمذاني، والخوارزمي والحريزي ومن جاراتهم. وبقيت الكتابة الفنية سائرة على هذا المنهج الفني على ما كان فيها من التفاوت قوة وضعفاً على حسب تداول الدول التي انابت حكم هذه البلاد. ومن ذلك رسالة ابن زيدون الجديدة المعروفة.

ولما ذاع أمر الصناعة في المشرق زمن ابن العميد والبديع ومن على طريقتهما، وانتشر السجع والتعمل في الكتابة، وكان الأندلسيون

يحاكون أهل المشرق في كل شيء؛ ذاعت الصنعة في الكتابة، وامتألت بأنواع البديع وطفى السجع على كل أنواعها، من رسائل وقصص جدية وهزلية، وكتب علمية وأدبية وتاريخية، وبالغ في ذلك أهل الأندلس وأمعنوا في ضروب الخيال، وجاء بكل غريب في ذلك. فكان في نثرهم الكلام المسجوع، الذي يكون من السهل الممتنع، مع دقة في اللفظ وجزالة في المعنى؛ ومزج الحقيقة بالخيال، كما في أسلوب الذخيرة لابن بسام حيث يقول في ترجمة ابن شهيد :

« كان أبو عامر شيخ قرطبة وفناها، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها. ينبوع آياتها، ومادة حياتها، ومبنى أسمائها ومسمياتها. نادرة الملك الدوار، وأعجوبة الليل والنهار، إن هزل فسجع الحمام، أو جد فزئير الأسد الضرغام، نظم كما انتسق الدر على النحور، ونثر كما خلط المسك والكافور ».

وكانوا أحياناً يتكلفون في كتاباتهم وكأنها شعر مصنوع، لا تسيغه النفس ولا يتحملة الذوق، كما في بعض رسائل لسان الدين بن الخطيب. وقد يلتزم بعضهم السجع المتكلف، وكأنه مفطور على ذلك. فيمزجه بأساليبه العلمية وكتابه التاريخية، كما في كتب الفتح بن خاقان.

٣ — ولقد بقيت الكتابة في الأندلس فنية ناهضة عربية قوية إلى آخر ملك العرب، على حين شاخت في المشرق، وقد استمسكت فيها بكثير من فضائلها ومع ما أصابها هناك من انحلال وتفكك، ظلت عربية بريئة نقية، على حين هاجمتها العجمة في مقرها الأصلي، ومنشعها الأول، ترى تلك الظواهر حين توازن بين كتاب من القرن السابع أو الثامن — مثلاً — من أهل الأندلس، ونظرائهم من أهل المشرق، فإنك ترى للأولين قولاً سائغاً وأدباً رائعاً، وقوة تعبير، وقدرة على التصوير، على حين ترى كتابة الآخرين — حتى فحولهم المعدودين — متهافتة، ساقطة لا تكاد تنهض بمعنى، ولا تقوى على أداء.

والسر في ذلك أن العرب بالأندلس نزحوا إليها، ولغتهم تامة السليقة بريئة الملكة، ثم كانوا بها جمهرة غالبية، وعنصراً شائعاً، ولملوكتهم الغلبة، وعز السلطان، وهم في الجزيرة في أمن من الطارئين الذين كان يطغى سيلهم بالمشرق على عربيه، فوقاهم الله شر هذا الاختلاط الذي جنى على غيرهم. ولا تنسى أن نوع ثقافتهم كان عربياً خالصاً. ومع ذلك فلم تكن على ما كانت عليه في سابق عهدها : لغبة السجع عليها، وكثرة الإطناب المبعد عن الجادة في فهم المقصود ولا سيما في رسائل الشكوى والاستشفاع التي كانت ترسل إلى النبي ﷺ والصالحين للاستنجاد بهم على العدو الجبار، وظهرت الألقاب والرتب، واستعملت عبارات الاجلال والتعظيم، ولا سيما في عهدي بني هود وبني الأحمر، إلى أن استولى العدو على البلاد.

— ٢ —

وتمتاز الكتابة الأندلسية على العموم بعدة خصائص :
منها غلبة الخيال الشعري وبروزه في كتابتهم. وذلك من آثار البيئة وجمال البقعة واستفاضة النعيم، وإن بقعة يقول فيها ابن خفاجة عفا الله عنه :

لله دركهم يا أهل أندلس ماء وظل وأشجار وانهار
ما جنة الخلد إلا في ديار كمو ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار

لجديرة أن توصف بأنها مباءة الخيال، ومسرح الجمال.. وكذلك كثرة القصص والحكايات والمناظرات بين أصناف الجماد. وأنواع الحيوان. ومن ذلك المناظرة بين بلاد الأندلس، التي خاطب بها أديب الأندلس أبو بحر صفوان بن إدريس، الأمير عبد الرحمن ابن السلطان

يوسف بن عبد المؤمن بن علي^(١)، ومقامة الديك، والتوابع والزوابع لابن شهيد. ورسالة حي بن يقظان لابن طفيل، إلى غير ذلك. كما تمتاز بالإكثار من اقتباس الأمثال والحكم والآيات القرآنية والآثار النبوية ونثر الأبيات الشعرية. كما في رسالتي ابن زيدون : الجدية والهزلية، وبالبراعة في أساليب المجون والدعابة، فكانت لهم النوادر البديعة، والنكات المستظرفة، ومن أشهر الرسائل في ذلك : الرسالة الهزلية لابن زيدون. وبالتورية بمصطلحات العلوم، ولا سيما علوم العربية، لأنها كانت أساس ثقافتهم.

وكررت الكتابة في الزهد والإرشاد والتوسل إلى الرسول ﷺ، وفي شعائر الحج.

وشاع الإطناب في كتاباتهم. وقد يكون هذا الإطناب مقبولاً، وقد يكون ممجوجاً مملوكاً كما في أكثر كتابات لسان الدين بن الخطيب والفتح بن خاقان. واتسمت الكتابة كذلك بغلبة السجع حتى في الكتابة الفنية والعلمية، من تاريخية وغيرها، ومن تراجم العلماء والأدباء ومن كتب جدية وهزلية، ومن أشهر ذلك : كتب الفتح بن خاقان، كقلائد العقيان، وكتب لسان الدين بن الخطيب، كإحاطة في أخبار غرناطة. كما ظهر عليها كثرة الوصف في كتاباتهم. فوصفوا المباني الفخمة من كنائس ومساجد وقصور وآثار وما فيها من صور وتماثيل. ووصفوا الأشياء الجميلة التي غتموها أو عملوها بأيديهم. ووصفوا محافل الملوك والأمراء وأبهة الملك. ووصفوا الرياض والغياض ومجالس الشراب إلى غير ذلك. كما وصفوا نفوس الكبراء والقواد والعلماء ومجالس العلم والأدب.

على أن الكتابة في الأندلس لم تقتصر على كتابة الدواوين والرسائل :

(١) ١/٨٠ نفع الطيب.

قصيرة كانت أو طويلة، مسجعة أو مرسلية، في العشق والغرام أو في
الذم واللوم أو في المدح والاستعطاف الخ. بل شملت كل شيء في
الاجتماع هناك وكانت مظهراً لتلك المدنية؛ والحالة السياسية العقلية
والعلمية.

— ٣ —

وكانت الكتابة الأندلسية كما يقول المقرئ على ضربين :

أعلاهها كاتب الرسائل، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس،
وأشرف أسمائه الكاتب، وبهذه السمة يخصصه من يعظمه في رسالة.
وأهل الأندلس كثيرون الانتقاد على صاحب هذه السمة، لا يكادون
يفغفون عن عثراته لحظة. فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم
ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه. من تسلط الألسن في المحافل والظعن
عليه وعلى صاحبه.

والكاتب الآخر كاتب الزمام. وهكذا يعرفون كاتب الجبهة. ولا
يكون بالأندلس وير العدو نصرانياً ولا يهودياً البتة. إذ هذا الشغل
نبيه، يحتاج إلى صاحبه عظماء الناس ووجههم. وصاحب الأشغال
الخارجية في الأندلس أعظم من الوزير وأكثر اتباعاً وأصحاباً وأجدي
منفعة، فإليه تميل الأعناق، ونحوه تمد الأكف، والأعمال مضبوطة
بالشهود والنظار؛ ومع هذا إن تأثلت حالته، وأغتر بكثرة البناء والاكتماب،
نكب وصورر وهذا راجع إلى تقلب الأحوال، وتبدل السلطان.

صورتان من الكتابة الأندلسية

— ١ —

بيان إلى الشعب — بلقب الخليفة الناصر عام ٣١٦هـ :

أما بعد، فإننا أحق من استوفى حقه، وأجدر من استكمل حظه،
وليس من كرامة أمة الله ما أليسته — للذي فضلنا به، وأظهر أثرنا
فيه، ورفع سلطتنا إليه، ويسر على أيدينا دركه، وسهل لدولتنا مرامه
— وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا، وعلو أمرنا، وأعلن من رجاء
العالمين بنا، وأعان من انحرافهم إلينا، واستبشارهم بدولتنا، والحمد
لله ولي الأنعام — بما أنعم به وأهل الفضل، بما تفضل علينا فيه.

وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين، وخروج الكتب عنا،
وورودها علينا بذلك. إذ كل مدعو بهذا الاسم منتحل له، ودخيل
فيه، ومتسم بما لا يستحقه.

وعلمنا أن التماذي على ترك الواجب لنا من ذلك، حق أضعناه،
واسم ثابت اسقطناه، فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر
مخاطبتك لنا عليه، إن شاء الله، والله المستعان.

ومن رسالة للوزير أبي يحيى محمد بن عاصم^(١) في وصف فتنة سياسية قامت ثم أهدمت؛ وكان الوزير أبو يحيى شاعراً مقلماً وكاتباً مشرقاً، وكان يباري أساطين البلاغة وأرباب البيان، ويتمثل طريقهم، وهو في هذه الرسالة يسلك نهج ابن الخطيب وترسم خطاه، ويحاول أن يبلغ مداه.

قال بعد حمد الله :

أما بعد فإن الله على كل شيء قدير، وإنه على عباده لخبير بصير، وهو لمن أهل نيته وأخلص طويته، نعم المولى ونعم النصير، بيده الرفع والخفض والبسط والقبض، والرشد والغى، والنشر والطي، والمنح والمنع، والضر والنفع، والبطء والعجل، والرزق والأجل، والمسرة والمساءة، والإحسان والإساءة، والإدراك والفوت، والحياة والموت، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وهو الفاعل على الحقيقة، وتعالى عما يقول الآفكون، وهو الكفيل بأن يظهر دينه على الدين كله، ولو كره المشركون، وإن في أحوال الوقت الداهية لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وعبرة لمن يفهم قوله تعالى : « إن الله يفعل ما يشاء، وإن الله يحكم ما يريد »، بينما الدسوت عامرة والولاية

(١) هو الإمام العلامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الشاعر المقلق النائر الموفق أبو يحيى محمد بن عاصم القيسي الأندلسي الغرناطي قاضي الجماعة بها، كان رحمه الله من أكابر فقهاءها وعلمائها ورؤسائها والمؤلفين فيها، ومن تأليفه شرح تحفة والده وذكر فيه أنه ولي القضاء سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة هـ ومنها : كتاب « جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى »، وكتاب : « الروض الأريض في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقريض، وقد ولع بمصانفة البلغاء ومعارضة الفصحاء، وقد وصفه ابن فرج السبتي أحد أدباء الأندلس بأنه الأستاذ المعلم، الصدر، المفتي، رئيس الكتاب ومعدن الساحة، ومنيع الأدب.

آمرة والفتنة مجموعة، والدعوة مسموعة والإمرة مطاعة، إلى أن قال :
والسعيد من اتعظ بغيره ولا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً جعلنا الله
تعالى فيمن قضى عمره بخيره. وبينما الفرقة حاصلة والقطيعة فاصلة،
والمضرة واصلة، والحبل في انبتات، والوطن في شتات، والخلاف يمنع
رعي النبات، والقلوب شتى من قوم أشتات، والطاغية يتمطى لقصم
الوطن وقضمه، ويلحظ لحظ الخائف على هضمه، والأخذ بكظمه،
ويتوقع الحسرة أن يأذن الله بجمع شمله ونظمه، على رغم الشيطان
ورغمه، إذا القلوب قد ائتلفت، والنفوس المتنافرة قد اجتمعت بعدما
اختلفت، والأفئدة بالألفة قد اقتربت إلى الله تعالى وازدلفت، والمتضرعة
إلى الله تعالى قد ابتهلت، في إصلاح الحالة التي سلفت، فألقت الحرب
أوزارها، فأدنت الفرقة النافرة من مزارها، وجلت الألفة الدينية أنوارها،
وأوضحت المعصمة الشرعية آثارها ورفعت الوحشة الناشئة أظفارها
وأعدارها، وأرضت الخلافة الفلانية أنصارها، وغضت الفقة المتعرضة
أبصارها، وأصلح الله تعالى أسرارها، فجمعت الأوطان بالطاعة، والتزمت
الدين بأقصى الاستطاعة، وتسابقت إلى لزوم السنة والجماعة، وألقت
إلى الإمامة الفلانية يد التسليم والضراعة، فتقلبت فيباتهم، وأحمدت
جياتهم، وأسعدت آمالهم، وارتضيت أعمالهم، وكملت مطالبهم، وتممت
مآربهم، وقضيت حاجاتهم واستمعت مناجاتهم، وألستهم بالدعاء قد
انطلقت، ووجهتهم في الخلوص قد صدقت، وقلوبهم على جمع الجملة
قد اتفقت، وأكفهم بهذه الإمامة الفلانية قد اعتلقت، وكانت الإدالة
في الوقت على عدو الدين قد ظهرت وبرقت، إلى أن قال : وكفت
القدرة القاهرة، والعزة الباهرة، من عدوان الطاغية وغوائل الداهية، باعزاز
دين الله الموعود بظهوره على الدين كله فوانح وأوائل، ومعلوم بالضرورة
أن الله تعالى لطيف بعباده حسبما شهد بذلك برهان الوجود، ﴿ وإن
تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ دليل على ما سوغ من الكرم والجود.

كتاب أندلسيون
احمد بن شهيد
٣٨٢-٤٢٦هـ

كاتب من كبار الكتاب في آخر عهد الدولة الأموية في الأندلس، وهو أبو عامر بن أبي مروان عبد الملك.. الشهير بابن شهيد، شاعر ظريف وكاتب مبتكر من كتاب الأندلس وأدبائها. ولد سنة ٣٨٢ هجرية، ومات بقرطبة سنة ٤٢٦هـ، ولقد عاش ابن شهيد في ظلال بني عامر، وتربى في نعمهم، وكانت أيامهم من أحسن أيام الرخاء، أفاض ملوكها عليه المال الكثير لمكاتبته لديهم ومكانة أسرته؛ فقد كان أبوه متصلاً بالمنصور بن عامر، فنشأ ابن شهيد على مثال الملوك: كريماً، متلاقاً، وكان ظريفاً خفيف الروح، مرح المجلس، به ميل إلى النكتة والدعابة، محباً للهزل والمجون، خليعاً كأهل عصره الأدياء، سريع البديهة، حاضر الذهن سديد الرأي، عارفاً بفتون الأدب، كاتباً بارعاً، يغلب الظرف على أخلاقه، فرحاً مسروراً كأكثر شعراء زمانه وأدبائه الذين كانوا يترددون على مجالس الخلفاء والأمراء، لذلك كان محباً للحياة ونعيمها، كما يظهر ذلك من نظمه ونثره.

ولابن شهيد شعر رشيق في المدح والوصف والتشبيه، وقصائد طويلة كثيرة المعاني، تدل على سعة خياله، وأكثر شعره خال من أثر التفكير،

لا يكاد يجد القارئ فيه صبغة جديدة؛ لأنه كان هازلأ أكثر منه رجل
جد، وأكثر شعره في الوصف والغزل.

أما أسلوبه، فتغلب عليه سلاسة العبارة، ليس به كثير من الغموض
والخفاء؛ يجذب القارئ بأخيلته ومعانيه المستظرفة، ولامتزاج هذه
المعاني بنفس الشاعر كان يعبر بلا تكلف. هذا إلى سهولة الموضوعات،
وما تقتضيه من رقة ودعابة، لأنها موضوعات لهو. وأكثر لهوه ظريف
مقبول، لا تكاد تجد فيه فحشاً أو هجرأ.

ونثره ممتاز في موضوعاته وأساليبه ومعانيه؛ فلقد كتب موضوعات
شائعة طريفة، نادرة في النثر العربي، ككتابات القصصية الخيالية، التي
يصفها أدباء العرب بالكتابة الهزلية، فقالوا عنه : « إنه في تنسيق الهزل
والنادرة الحارة أقدر منه على غير ذلك ». ويبدو من هذه الموضوعات
أنه ولع بقراءة القصص، واطلع على ما كتبه أهل الشرق في ذلك،
وجارى بعضهم في أساليبه، كما في رسالته « التوايح والزوايح »، وكرسالته
في الحلواء وغيرها مما كتبه على ألسنة الحيوان.

وهذه الرسائل وإن لم تكن بدعة في نوعها، أو فريدة في أسلوبها،
تدل على ميل خاص للكتابة القصصية، وبراعة في التصرف في المعاني
وأساليب التعبير وسعة الخيال واطلاع واسع على كتب الأدب وآراء
الأدباء. وما كان معروفاً لديهم في النقد الأدبي، على الرغم مما قالوه
عنه من أنه كان لا يقرأ كثيراً. ورسالته : « التوايح والزوايح » أطول
رسائل ابن شهيد وهي أشبه برسالة الغفران لأبي العلاء المعري^(١).

(١) الزبوة الشيطان أو رئيس الجن. وقد سمي رسالته : التوايح والزوايح؛ لأن فيها لكل
شاعر شيطاناً.

(٢) ألفت رسالة الغفران عام ٤٢٤هـ، إذ يقول المعري فيها : « ولا يجوز أن يخبر مخبر
منذ مائة سنة أن أمير حلب في سنة ٤٢٤هـ اسمه فلان بن فلان (٨٤ ج ٢ رسالة
الغفران — نشر كامل كيلاني).

ويبدو أن ابن شهيد اطلع على رسالة أبي العلاء وعمل على محاكاتها. أما موضوعها، فقد تخيل فيه أن له شيطاناً ككل الشعراء، اتصل به وعرفه وسار به الى العالم الآخر، وأركبه فرساً، وطاف به على الشعراء الأقدمين وهم في حياتهم الآخرة، فصار ينشدهم من شعره وينشدونه أشعارهم. وقد تخيل لكل شاعر شيطاناً وجهة ينزل بها، ومتزلاً يقيم به. فوصف هذه المنازل وصفاً شعرياً دقيقاً ووصف مجالس هؤلاء الشعراء وأتى في أثناء وصفهم ومقابلتهم على كثير من نقد شعرهم نقداً بيانياً مبنياً على ما يعطيه اللفظ والعبارة من جمال وبلاغة؛ على حسب ما هو معروف في أساليب النقد الأدبي عند العرب. ووازن بين أشعارهم، وذكر في أثناء ذلك كثيراً من شعره الرقيق، وشيئاً من أشعار هؤلاء الشعراء. فكانت هذه الرسالة قصة أدبية خيالية.

وأسلوب الرسالة مسجوع، به كثير من محاكاة ما شاع من أسلوب المقامات، وكثير من العبارات المتكلفة الغامضة، والإشارة إلى بعض الأسماء والمسائل الأدبية، مما يحتاج إلى شرح وبيان... ولكن هذا الأسلوب يمتاز عن غيره بأنه أسلوب قصصي من الأساليب النادرة في الكتابة العربية. وقد برع ابن شهيد في هذا النوع.

ومن نماذج نثره في هذه الرسالة قوله: «كان لي أوائل صبوتي هوى اشتد له كلفي، ثم لحقتني بعض ملل في أثناء ذلك الميل. فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملل، فجزعت وأخذت في رثائه فقلت:

تولى الحمام^(١) بظبي الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير^(٢)

إلى أن انتهيت إلى الاعتذار من الملل الذي كان، فقلت:

وكنت مللتك لا عن قلبي^(٣) ولا عن فساد ثوي^(٤) في الضمير

(١) الموت. (٢) القلى البغض.
(٣) المخدوع أو الطائش. (٤) أقام واستقر.

فارتج^(١) علي القول. فإذا أنا بفارس بباب المجلس على فرس أدهم^(٢) كأنما بقل وجهه^(٣)، قد اتكأ على رمح وصاح بي : أعجزاً يا فتى الإنس ؟ فقلت : لا وأبيك. للكلام أحيان؛ وهذا شأن الإنسان. فقال قل بعده :

كمثل ملال الفتى للنعيم إذا دام فيه وحال السرور

فأثبت إجازته^(٤). وقلت : بأبي من أنت ؟ فقال زهير بن نمير، من أشجع الجن. تصورت رغبة في اصطفاك. قلت : أهلاً بك أيها الوجه الواضح، صادفت قلباً إليك مقلوباً^(٥)، وهوى نحوك محبوباً. وتحادثنا، وتذاكرت معه أخبار الخطباء والشعراء، ومن كان يألفهم من التواضع والزواجع. وقلت له : هل حيلة في لقاء من نفق منهم ؟ قال : حتى استأذن شيخنا، وطار عني، ثم انصرف، وقد أذن له : فقال : جل على متن^(٦) الأدهم، فسرنا عليه، وسار بنا كالطير يجتاب^(٧) الجو فالجو، ويقطع الدو^(٨) فالدو. حتى لمحت أرضاً لا كأرضنا. وشارفت جواً لا كجونا .. إلى أن قابل صاحب امرئ القيس، وجرت بينهما مطارحة شعرية، ثم قال لي زهير : من تريد بعده ؟ قلت صاحب أبي نواس، قال هو يدبر حنا^(٩)... وسرنا حتى انتهينا إلى أصل دير حنا،

(١) أغلق.

(٢) أسود.

(٣) يريد نبت عناره.

(٤) كتبت ما قاله.

(٥) يريد منصرفاً إليك.

(٦) المتن : الظهر.

(٧) يقطع.

(٨) الغلاة.

(٩) كان يظاهر الكوفة بيوت صغار تسكنها الرهبان بالقرب منها ديران يقال لأحدهما دير عبيد وللآخر دير حنا وهو موضع كثير البساتين والرياض.

فضرب زهير الأدهم. فسار بنا في قنته^(١)، ففتح سمعي قرع النواقيس، فقلت : فصحت^(٢) عن منزل أبي نواس ورب الكعبة... وسرنا نجتاب أدياراً وكنايس وحانات، إلى دير عظيم تبيع روائحه وتصوك نوافحه^(٣). فوقف زهير ببابه وصاح : سلام على أهل دير حنا. فقلت : وسرنا بذات الأكرح^(٤) ؟ قال نعم. وأرقلت^(٥) نحونا الرهايين، مشدودة الزناير^(٦)، وقد قبضت على العكاكير، مبيضة الحواجب واللحي. مكثرين للتسييح، عليهم هدى المسيح. فقالوا : أهلاً بك يا زهير أبي عامر من زائر وصاحب. ما بغيتك ؟ قال حسن الدنان^(٧) قالوا : إنه لفي شرك الخمرة، منذ أيام، وما نراكما منتفعين به. فقال : وعليّ ذلك ؟ ونزلنا وقاد بنا إلى بيت اصطفيت دنانه^(٨) وعكفت غزلاته، وفي دير حنا شيخ طويل الوجه والسيلة^(٩) قد افترش أضغاث^(١٠) زهر، واتكأ على زق^(١١) من خمر... فصاح به زهير : حياك الله أبا الإحسان. فجاب جواباً لا يعقل لغلبة الخمر عليه. فقال لي زهير اقرع أذنيه بإحدى خمرياتك، فإنه ربما تنبه لبعض ذلك فصحت أنشد :

-
- (١) القنة أعلى الجبل.
(٢) يريد أن ما به يفصح ويدل على منزل أبي نواس.
(٣) صاك به الزعفران صوكاً لصق به. والمراد هنا تقوح وتنتشر. والنواقيس من تقح الطيب انتشرت رائحته.
(٤) هي بيوت تسكنها الرهبان بها ديرا عبد وحنا.
(٥) أسرع.
(٦) الزناير جمع زنار يضم الزاي وهو ما يشد على الوسط.
(٧) يريد أبا نواس.
(٨) جمع دن وهو وعاء الخمر.
(٩) الشارب.
(١٠) جمع ضفت قبضة حشيش يختلط فيه الرطب باليابس. ومنها أضغاث أحلام، وهي الأحلام المختلطة الملتبسة.
(١١) المرق : وعاء من جلد يستعمل لحمل الماء والخمر.

ولرب حان قد أدت بديره خمر الصبا مزجت بصفو خموره
والى على طرفه وبكفه فأمال من رأسي لعبٌ كبيره
وترنم الناقوس عند صلاتهم ففتحت من عيني لرجع هديره
فصاح من حباتل نشوته، وقال أشجعي ؟ قلت : أنا ذلك. فاستدعى
ماء قراحاً، فشرب منه وغسل وجهه...

ابن زيدون ونثره الفني

٣٩٤-٤٦٣هـ

ابن زيدون هو الكاتب ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله المشهور بابن زيدون المخزومي الأندلسي.

ولد عام ٣٥٤، ونشأ في مدينة قرطبة^(١)، حيث كان أبوه من أعيان فقهاءها، وتآدب على كبار أئمتها وقال الشعر وأجاده، وحفظ من مشهور شعر القدماء والمحدثين ما جرى مجرى الأمثال، ومن أخبار العرب وأيامها وأمثالها وحكمها شيئاً كثيراً، ولما نبه شأنه بين شعراء قرطبة وكتابتها وأدبائها، اتصل بأبي الوليد بن جهور أحد ملوك الطوائف، فحظي عنده، ومدحه بالقصائد الطنانة، وصدرت عنه في دولته الرسائل البديعة حتى أصبح لسان دولته الناطق؛ وحسامها المسلول. فحسده أعداؤه وأفسدوا ما بينه وبين مليكه، وأحس منه ابن جهور دالة عليه ظننها ممالأة لأعدائه فاعتقله، ومكث في مجلسه مدة استشفع فيها إليه بقصائد أبدعها ورسائل استتفد فيها جهده، فما ألانت له قلباً، ولا ننت له عطفاً، فأعمل الحيلة على فراره من سجنه وخلص إلى المعتضد بن عباد ملك

(١) مدينة عظيمة على نهر الوادي الكبير بالأندلس، وكانت قاعدة الدولة الأموية وآل جهور من ملوك الطوائف بعدهم.

إشبيلية^(١)، إذ كان أشد ملوك الطوائف رغبة فيه، وتولى الوزارة له، وظل على حاله كذلك في عهد المعتمد بن المعتضد، حتى مات بإشبيلية عام ٤٦٣هـ.

وقد كانت ثقافة ابن زيدون ثقافة أدبية؛ فقد شب على القراءة والدرس، وحفظ كثيراً من مسائل الأدب، وكان متقد الذكرة فامتلت نفسه بالمعاني التي قرأها، وأسماء الناس الذين عرفهم في قراءته وكثير من الأمثال والحكم والأبيات التي جرت مجرى الأمثال. ثم كانت زعامة الأدب في المشرق، وقد ظهر ابن العميد ومن على طريقته في الكتابة، وكان أسلوبهم طريفاً، فنسرب إلى بلاد الأندلس، فأعجب ابن زيدون بهذا الأسلوب الأنيق كغيره من الكتاب الذي بالغوا في اتباع طريقة الصناعة اللفظية والشعر المنثور، ولكنه لم يعبأ بالسجع كثيراً لأنه لم يكن كغيره مدفوعاً إلى الكتابة بحب التأنق، بل دفعته إليها الحوادث. وقد تولى الكتابة لابن جهور وابن عباد، فكان من كتاب الدواوين، واشتهر في الكتابة الفنية الأدبية برساليته الجدية والهزلية: كتب الأولى وهو في السجن يستعطف فيها ابن جهور. وكتب الثانية عن لسان ولادة بنت المستكفي (المتوفاة عام ٤٨٠هـ) للوزير ابن عبدوس تهجوه وتقطع صلتها به؛ فاشتهر في عالم الكتابة بهاتين الرسالتين. وقد تكون هاتان الرسالتان من الرسائل النادرة، في الأدب العربي. وأظهر ميزتهما أمران:

- ١ - ما تدلان عليه من نفس كاتبها وأخلاقه وشيمه.
- ٢ - كثرة ما فيهما من مقتبسات في الحكم والأمثال؛ والأشعار وحوادث التاريخ وأسماء الرجال المشهورين، من الحكماء والأدباء والعلماء. كل ذلك جاء ميثوثاً في أثناء كلامه.

(١) مدينة عظيمة على نهر الوادي الكبير أيضاً بالقرب الجنوبي من الأندلس ولا تزال إلى الآن من أعمر مدنها.

وكتابة ابن زيدون كثيراً ما يحلها بأبيات منثورة، وتلميحات إلى حوادث مشهورة، وأمثال وحكم في فغار غير مسجوعة غالباً، سالكاً فيها طريق التهويل والمبالغة في فروضه وأقيسته وتشبيهاته. وجرى على ذلك في رسالته: الهزلية والجدية.

وقد شرحهما الأدباء، وعنوا بتفصيل ما فيهما من الأخبار والأشعار والحكم وتراجم الشعراء، وأشهر تلك الشروح شرح ابن نباتة للهزلية والصفدي للجدية. ولولا جمع هاتين الرسالتين لكثير من فنون اللغة والأدب والتاريخ ما نسخت شهرته بالكتابة عند المتأخرين شهرته بالشعر عند المتقدمين. فقد كان يلقب عندهم ببحتري المغرب، ولا يقدح ذلك في بلاغته، وفصاحة عبارته، فمقام الرجل في سعة اطلاعه وسرعة خاطره أشهر من أن ينوه به، فقد قيل: إنه دفن بتناً له، ووقف ليشكر الناس لتشجيع جنازتها، فما أعاد في ذلك الوقت عبارة قالها أحد السائرة وأسماء الرجال والحوادث؛ فكما دل في رسالته الهزلية على أنه عارف بأساليب الهجاء، سياق في هذا الميدان أيضاً. فقد أقذع في ذم ابن عيدوس إقذاعاً شديداً، وكأنه جمع كل ما يمكن أن يقال في الذم والتهكم وأفرغه على ابن عيدوس في أسلوب جميل خلاب يدل على تمكنه من التصرف في أساليب الكلام، إذ على الرغم مما في هذه الرسالة من الطول وكثرة الاقتباس لأسماء الرجال والأمثال، والحوادث والأبيات الشعرية، والإطناب في كثير من المعاني، لا يكاد يشعر القارئ لها بشيء من الملل والابتذال، على أنها لا تخلو من العيوب، فقد سرد أسماء أكثر من خمسين رجلاً، وأكثر من عبارات الذم مما يحسب ثثرة ولفواً. وجاء عبارات تدل على غلظة طبعه وشدة حقه للانتقام، وعلى قدرته على التهكم والاقتنان في أساليبه.

ورسالته الجدية جمع فيها كل ما يمكن أن يقال في الاستعطاف والمدح بعبارات مزوجة بالأمثال والحكم. وأول شيء يسترعي النظر

في أسلوبها أن ألفائها وجملها تكاد تكون كلها مقتبسة من كلام غير الكاتب، من آثار أدبية وأمثال سائرة وأبيات من الشعر. وهذا إن لن يشهد له بقوة الابتكار دليل على قدرته في تأليف الكلام ونظمه، وبراعته في صناعة الكتابة وإطلاعه الواسع. وقد جمع في هذه الرسالة بين التناسق في المعاني والألفاظ والتأليف والجمع. فبينما تجده يرق في الاستعطف إلى أن يستصغر نفسه، ويجمع من المعاني والألفاظ ما يناسب ذلك، تجده أنسل من هذا الموقف إلى الفخر بنفسه والإشادة بشيمه. فهي رسالة بديعة في نظمها وأسلوبها، كثيرة الفائدة لما اشتملت عليه من الأشعار والأمثال والحكم والحوادث وأسماء الرجال، جامعة لكثير من المعاني كالمدح والاعتذار، والاستعطف والفخر والامتنان ودم الزمان، ولوم الأعداء والحقدهم عليهم والصبر والتجملد. كل ذلك بعبارة أكثرها بليغ سائغ، يدل على طول باع الكاتب في الأدب واللغة والتاريخ. ولكنها ليست على طريقة واحدة من التزام السجع أو الترسل؛ ثم إن كثرة الاقتباس بمناسبة وبغير مناسبة ربما يهوش على القارئ ويصرفه عن الغرض من كتابتها، ويحمله على التفكير في البحث عن معاني الأمثال ومعرفة الرجال والحوادث التي أشار إليها الكاتب.

وأما رسالته الهزلية التي كتبها لابن عبدوس على لسان ولادة يتهمكم به ويذمه، فهي من هذا النوع أيضاً، من حيث الأسلوب، كذكر الأمثال. وفي هذه الرسالة شبه من رسالة الترييح والتدوير، التي كتبها الجاحظ إلى أحمد بن عبد الوهاب، وذلك مما يرجح أن ابن زيدون قلده في لاذع تهكمها، والإكثار من ذكر أعلام عرفوا في التاريخ بصفات، ضرب بهم المثل فيها، ولكن بين الرسالتين فرقاً ظاهراً، فإن الجاحظ لم يسف في الهجاء ولم يعض به، بل كان قوله كله تهكماً، يضحك من المكتوب إليه، وليس فيه من الشدة ما يحملك على رحمته، والحنق

على الكاتب لشناعة حملته، وهذا من فضل الجاحظ، وبمعكس ذلك كان ابن زيدون في هذه الرسالة الهزلية.

ومن الرسالة الجديدة لابن زيدون :

هذا العتب محمود عواقبه^(١)، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي^(٢)، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تنقشع، ولن يرينني من سيدي أن أبطأ سيبه^(٣) أو تأخر غير ضنين غناؤه^(٤)، فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها، وأثقل السحائب مشياً أحفلها، وأنفع الحيا ما صادف جدياً، والذ الشراب ما أصاب غليلاً، ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب^(٥) له الحمد على اهتباله، ولا عتب عليه في اغتفاله^(٦).

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللاتي سررن ألوف^(٧)

وأعود فأقول، ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك ؟ والجهل الذي

(١) من قول المتنبي :

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

(٢) النبوة : إعطاء الضريبة، الغمرة : الشدة، تنجلي : تنكشف، وفي المثل : غمرات ثم بنجلين.

(٣) تنقشع : أصلها تنقشع، فحذف بحذف التاء الأولى، وتنقشعت السحابة : أقلعت، والجملة مثل نقله المبدائي.

(٤) ضنين : بخيل. غناء : نفع.

(٥) مع اليوم غد، أصله من المثل العربي : إن مع اليوم غدا، هو بمعنى المثل : إن غدا لناظره قريب، ولكل أجل كتاب : القياس من القرآن. والأجل : مدة الشيء. والمعنى لكل كتاب أجل أجله الله تعالى كتاب أكتبته فيه، أو هو من المقلوب، والمعنى لكل كتاب أجل ينزل فيه.

(٦) الضمير في له الحمد لابن جهور المستعطف، الاهتبال : انتهاز الفرصة والتعجيل بالأمر، الاغتفال : ترك الشيء على تذكر له، والمعنى أنه يمدح الأمير على ما عجل له من خير، ولا يحب عليه فيما أخر.

(٧) البيت من قول المتنبي.

لم يأت من ورائه حلمك؟ والتطاول الذي لم يستفرقه تطولك^(١)؟
والتحالم الذي لم يف به احتمالك؟ ولا أخلو من أن أكون بريئاً
فأين العدل؟ أو مسيئاً فأين الفضل؟

إلا يكن ذنب فعذلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع
فهنيئاً كالذي قلت طالباً قصاصاً فأين الأخذ يا عز بالفضل

حنانيك! قد بلغ السيل الزبي، ونالني ما حسبي به وكفى، وما
أراني إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت، وقال لي نوح
أركب معنا فقلت سأوي إلى جبل يعصمني من الماء، وأمرت ببناء
صرح لعلني أطلع إلى إله موسى، وعكفت على العجل، واعتدبت في
السبت، وتعاطيت فعقرت وشربت من النهر الذي ابتلى به جيوش طالوت،
وقدت الفيل لأبرهة^(٢) وعاهدت قريشاً على ما في الصحيفة^(٣)،
وتأولت في بيعة العقبة^(٤)، واستنفرت إلى العير ببدر^(٥)، واتخذت بثلت

(١) التطاول: التمدي، والتطول: التفضل، والتطاول من الطول بالضم ضد العرض، والتطول:
الطول بالفتح أي الفضل.

(٢) هو ابن الصباح ملك اليمن، من قبل أسحمة النجاشي، وقد قصد إلى الكعبة بجيش
تقدمه الفيلة، فأرسل الله عليه طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل.

(٣) لما رأت قريش قوة النبي، بهجرة المسلمين إلى الحبشة، وإسلام حمزة وعمر، وفشو
الإسلام في القبائل: أرادوا قتله، وقدموا لأبي طالب عنه عمارة بن الوليد أعز في
فيهم، ليأخذ به بدل ابن أخيه، فأبى، وجمع بني هاشم وبني عبد المطلب. ودخلوا
شعباً احتماوا به، فكتبت قريش صحيفة، تعاقدت فيها على مقاطعتهم حتى سلموا
رسول الله، فمكثوا ثلاث سنين، لا يصل إليهم شيء إلا سراً، وسلط الله الأرض
على الصحيفة، فأكلت ما فيها من ظلم، ولم تبق فيها إلا اسم الله.

(٤) بيعة العقبة ثلاث، ولم يرد أن أحداً من المهاجرين في إحداها تأول، ونقض البيعة،
فيقول كلام ابن زيدون على فرض حصول ذلك.

(٥) الذي نقر إلى قريش ليخبرها بأمر العير هو ضمضم بن عمرو الغفاري، بعته بذلك
أبو سفيان.

الناس يوم أحد^(١) وتخلفت عن صلاة العصر في بني قريظة^(٢)، وجئت بالإفك على عائشة الصديقية، وأنفت من إمارة أسامة^(٣)، وزعمت أن خلافة أبي بكر كانت فلتة^(٤)، ورويت رمحي من كتيبة خالد^(٥)، ومزقت الأديم الذي باركت يد الله عليه^(٦)، وضجيت بأشمط، عنوان السجود به^(٧)، وبذلت لقطام^(٨) :

- (١) المنخلذ يوم أحد، هو عبدالله بن أبي بن سلول.
(٢) أي خالفت النبي في فعله، جاءه أنه عليه الصلاة والسلام، لما رجع من غزوة الخندق، ووضع المسلمون السلاح، جاءه جبريل ظهراً، وقال له « وضعت السلاح وما وضعت الملائكة بعد، إن الله يأمرك بالمشير إلى بني قريظة » فأمر رسول الله مؤذناً ينادي في المسلمين : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة !.
(٣) هو أسامة بن زيد، مولى رسول الله وحبه، وقد أمره رسول الله على بعث إلى الشام، وأمره أن يوطيء الخيل نخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس، ولوعب مع أسامة المهاجرون الأولون.
(٤) هذه كلمة عمر بن الخطاب، وقد قالها في معرض الحمد لله على حصولها، بعد تدبير أصحاب السقيفة، وقد عيب ابن زيدون بإيراد هذه العبارة، لأنه ساقها مساق الذم، وهي ليست كذلك أصلاً؛ وسنورد عليك في ترجمة ابن زيدون، جملة ما تقدمت به رسالتاه.
(٥) إشارة إلى قول أبي شجرة السلمي :
ورويت رمحي من كتيبة خالد وإني لأرجو بعدها أن أعمرا
وكان أبو شجرة هنا من فاك العرب، فعل ذلك مع جيش خالد في حرب أهل الردة، ثم أسلم.
(٦) يريد بالأديم الممزق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قتل أبو لؤلؤة مولى المغيرة بن شعبه، وهذا الاستعمال، من قول بعض من روى عمر :
جزى الله خيراً من إمام وباركت يد الله في ذلك الأديم الممزق
(٧) يريد قتل عثمان، والأشمط : الذي في شعره بياض وسواد، والاستعمال من قول حسان رضي الله عنهما :
ضحو بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا
(٨) يشير إلى مقتل علي رضي الله عنه، وقد قتل الشقي عبد الرحمن بن ملجم وقطام =

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب علي بالحسام المسمم
 وكتبت إلى عمرو بن سعد، أن جمعج بالحسين^(١)، وتمثلت عندما
 بلغني من وقعة الحرة^(٢) :
 ليت أشياخي بيدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
 ورجمت الكعبة، وصلت العائذ^(٣)، علي الثانية، لكان فيما جرى
 علي ما يحتمل أن يكون نكالاً ويدعي ولو علي المجاز عقاباً.
 ومن الرسالة الهزلية التي كتبها علي لسان ولادة إلى الوزير ابن
 عبدوس، وكان هذا أرسل إليها امرأة تستميلها إليه :

« كلامك متممة^(٤)، وحديثك غمغمة^(٥)، وبياناتك فهفهة^(٦) وضحكك
 قهقهة^(٧)، ومشيك هرولة^(٨)، وغتاك مسألة^(٩)، ودينك زندقة^(١٠)، وعلمك

== هذه خطيبته. التي اشترطت عليه في زواجها، أن يمهرها بثلاثة آلاف عبد وقينة ويقتل
 علي، فأجابها بالبيت المذكور، وبعده :

فلا مهر أعلى من علي وإن علا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

- (١) يشير إلى مقتل الحسين، وكان عبدالله بن زياد كتب إلى عمرو بن سعد بن أبي وقاص : أن جمعج الحسين ، وذلك لما أبطأ عمرو عن قتاله وجمعج به : ضيق عليه.
- (٢) يشير إلى ما فعله يزيد في وقعة المدينة عند حرة واقم، بقيادة مسلم بن عقبة الذي سعى مسرفاً، لشدة سرفه في سفك الدماء؛ وقد تمثل يزيد بالبيت المذكور وهو من قول عبدالله بن الزبيري : في وقعة بدر.
- (٣) رجم الكعبة كان من فعل الحجاج؛ لما حاصر بها عبدالله بن الزبير، وقتله وصلبه، ورمى الكعبة بالمنجنيق، وسمى عبدالله « عائذاً » لأنه عاذ بالبيت الحرام؛ واستجار به.
- (٤) التردد في التاء
- (٥) أن يسهح الصوت ولا يبين تقطيع الحروف.
- (٦) العمى في النطق.
- (٧) الضحك الشديد يستدلون به على ضعف العقل.
- (٨) بين المشي والعدو.
- (٩) كدية.
- (١٠) إلحاد.

مخرقة^(١) :

مساو لو قسمن على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق^(٢)

حتى أن باقلاً^(٣) موصف بالبلاغة إذا قرن بك. وهبتقة^(٤)
مستوجب لاسم العقل إذا أضيف إليك. وطويسا^(٥) مأثور عنه يمن
الطالع إذا قيس عليك. فوجودك عدم^(٦). والاعتباط بك ندم. والخيبة
منك ظفر والجنة معك سقر. كيف رأيت لؤمك لكرمي وفاء. وضعتك
لشرفي كفاء^(٧) ١٩! وأني جهلت أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها.
والطير إنما تقع على آلافها!! وهلا علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعان.
وشعرت أن المؤمن والكافر لا يتقاربان وقلت: الخبيث والطيب لا
يستويان^(٨) وتمثلت :

- (١) من الخرق بالضم وهو جهل والحمق يقال خرق الرجل يخرق فهو أخرق والأثنى خرقاء.
- (٢) البيت لأبي تمام.
- (٣) مضرب المثل في العي.
- (٤) مضرب المثل في الخيل وضعف العقل، روي أنه وضع عقداً من الودع في عنقه
ثلاثاً يضيغ، وأن أخاه راقبه حتى نام فأخذ العقده ووضعها في عنقه، فلما تنبه قال
لأخيه: أنت أنا، فأبنا يا ترى من هو أنا ١٩ « وكان يلقب ذا الودعات وهو جاهلي.
- (٥) هو المعنى الماجن المعروف وكان يسكن المدينة، وهو أول من غنى بها على الدف
بالعربة، ويضرب به المثل في الشؤم، لأنه ولد يوم مات النبي ﷺ، وفضل يوم مات
أبو بكر، وحين يوم قتل عمر، وتزوج يوم قتل عثمان وكانت أمه تمشي بالنسيمة
بين الأنصار، وله قصص فيها أدب رائع.
- (٦) إشارة إلى قول المتنبي :
- يا من يمز علينا أن تغارهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم
- (٧) وفاء وكفاء مصدران وافي وكافأ، وكأننا أخذنا من الأثر الشريف، اللهم إني أحمدك
حمداً يوافي نعمك، ويكافئ مزيدك.
- (٨) إشارة إلى قول علي كرم الله وجهه: الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب كلما ازدادت
من إحداهما قرباً، ازدادت من الأخرى بعداً، ومن قول الرسول ﷺ: المؤمن أطيب
من عمله، والكافر أخبث من عمله.

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله ! كيف يلتقيان ؟^(١)
 وذكرت أنني علق لا يباع ممن زاد^(٢) وطائر لا يصيده من أراد.
 وغرض لا يصيبه إلا من أجاد ! ما أحسبك إلا كنت قد تهيأت للتهمة.
 ولولا أن جرح العجماء جبار^(٣) للقيت من الكواعب ما لاقى
 يسار^(٤) فما هم إلا ببعض ما به هممت، ولا تعرض إلا لأيسر ماله
 تعرضت^(٥)، أين ادعاؤك رواية الأشعار، وتعاطيك حفظ السير

(١) قال في اللسان : قال الجوهري : معنى لعمر الله، وعمر الله : أحلف ببقاء الله ودوامه،
 قال : وإذا قلت عمرك الله فكأنك قلت بتعميرك الله، أي بإقرارك له بالبقاء وقول
 ابن أريئة.

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله ! كيف يلتقيان ؟

يريد سألت الله أن يطيل عمرك لأنه لم يرد القسم بذلك.
 (٢) الملق : النفيس، وهو إشارة إلى قول الحرث بن فحطان التميمي — وكانت له فرس
 اسمها سكاب. أراد بعض ملوك اليمن أخذها منه فهرب بها.

أبيت اللعن ! إن سكاب علق نقيس، لا تعار ولا تجاع
 مفسدة مكرمة علينا تجاع لها العيال ولا تجاع
 فلا تطمع — أبيت اللعن — فيها ومنعكها بشيء يستطاع

(٣) هدر، وفي الحديث المعدن جبار والبئر جبار، والعجماء جبار. ومعناه أن تنقلت البهيمة
 العجماء فتصيب في انفلاتها إنساناً أو شيئاً فجرحها هدر، وكذلك البئر العارية يسقط
 فيها إنسان فيهلك قدمه هدر، والمعدن إذا انهار على حافره فقتله قدمه هدر.

(٤) اسم عبد أسود دميم كان النساء يولعن به لقبحه وبحسبهم لغفته معجبات به، نظرت
 إليه مولاته يوماً فضحكك فظنها تغارله. فقال لصاحبه له أسود « قد والله — عشقتني
 مولاتي فؤزورنها الليلة » فقال له صاحبه : يا يسار اشرب لبن العشار — النوق —
 وكل لحم الحوار، وإياك وبنات الأحرار » فقال له : « والله ما رأيتي حرة إلا عشقتني »
 فلما أمسى قال لصاحبه : « احفظ علي إبلي حتى أتصرف وأعود إليك، وذهب فدخل
 على مولاته براودها عن نفسها فقالت له : مكان فإن للحرائر طيباً أشمك إياه »
 فقال لها : هاتيه فأثته بطيب وموسى قاطعة وأجلسته على الطيب وأنحت بالموسى
 على هنيه فقطعتنه، فخرج يعدو حتى أتى صاحبه ودمه يسيل، فذهبت حادثته مثلاً.
 (٥) أي لأنك أقل مني ويسار غير منك.

والأخبار؟ أما ثاب إليك قول الشاعر:
 بنو دارم أكفاؤهم آل مسمع وتكبح في أكفائها الحيطات^(١)
 وهلا عشيت ولم تغثر^(٢)؟! وما أشك في أنك تكون وافد
 البراجم^(٣) أو ترجع بصحيفة الملتمس^(٤)، أو أفعل بك ما فعله عقيل
 بن علفة^(٥) الجهني؛ إذ جاءه خاطباً. فدهن أسته بزيت وأدناه من قرية
 النمل. ومتى كثر تلاقينا، واتصل تراثينا، فيدعوني إليك ما دعا ابنة

(١) البيت للفريزدي، يقوله لرجل من الحيطات بكسر الباء وفتحها، وهم بنو الحرث بن عمرو بن تميم، ويجمعهم البيت مع بني دارم، وإنما نقص قدر الحيطات عنهم لقول الشاعر فيهم:

رأيت الخمر من شر المطايا كما الحيطات شر بني تميم
 وإنما سمو الحيطات لأن أباهم الحرث كان في سفر فأكل أكلاً اتفخ منه ومات،
 وآل مسمع بيت بكر بن وائل في الإسلام.
 (٢) مثل يقال: عش إليك ولا تغثر، وعشيت الرجل يساوي أطعمته العشاء، قال:

بات بعشيتها بعضب بائر يقصد في أسواقها وجائر
 وعشاء نعشبة وأعشاء كمشاه، وفي المثل: سقط العشاء به على سرحان، يضرب
 للرجل يطلب الأمر التافه فيقع في الهلكة، وأصله أن دابة طليت العشاء فهجمت
 على أسد.

(٣) البراجم خمسة من أولاد حنظلة التميمي، زعموا أنه كان لعمرو بن هند وتر عند
 تميم، فحلف لبحرفن مائة منهم فأحرق تسعة وتسعين، وبينما هو يلمس تمام المالة
 إذ مر به رجل من البراجم يسمى عامراً قادماً من سقر، فاشتم رائحة الفئار، فظن
 أن الملك أتخذ طعاماً، فعدل إليه. فقيل له من أنت؟ قال من البراجم فقالوا: إن
 الشقي وافد البراجم، ثم ألقى في النار، ومن هنا عبرت تميم بحب الطعام.

(٤) صحيفة الملتمس وقصته وطرفة مع عمرو بن هند مشهورة.
 (٥) علفة كسكرة والد عقيل المري الشاعر، كانت تصهر إليه ملوك بني أمية وهو القائل
 لعبد الملك بن مروان: جنيتي هجناه أبنائك.

الخنس إلى عيدها، من طول السواد وقرب الوساد^(١) ! وهل فقدت الأرقام فأنكح في جنب^(٢)؟! أو عضلي همام بن مرة فأقول : « زوج من عود، خير من قعود ».

ومن نثر ابن زيدون الذي سار فيه على نهجه في الرسالتين ما أرسل به إلى أحد أصدقائه، وهو مختف بقرطبة بعد فراره من سجن ابن جهور، قال :

« وبلغني أنك أحد اللاتمين لي » ومن أمثالهم « ويل للشجي من الخلي^(٣) » « وهان على الأملس ما لاقى الدبر^(٤) » وعلمت أن العاجز من لا يستبد. فالمرء يعجز لا محالة، ولم استجز أن أكون ثالث الأذلين : العير والوتد، وتذكرت أن الفرار من الظلم، والهرب مما لا يطاق، من سنن المرسلين، وقد قال الله تعالى على لسان موسى: ﴿ ففرت منكم

- (١) امرأة جاهلية، والوساد : المخدة، والسواد بكسر السين مشددة، مصدر ساودها سوادك وساودة، أي سارها مسارة وسرارة فأدنى سواده من سوادها : أي شخصه من شخصها. قيل لابتة الخنس - وقد زنت بعدها - لم زنت وأنت سيدة قومك ؟ فقالت « قرب الوساد، وطول السواد ». ويضرب مثلاً للأمر بلفي صاحبه فيما يكره.
- (٢) الأرقام حي من تغلب، وجنب حي من اليمن. وهو إشارة إلى قول المهلهل

أعز على تغلب بما لقيت أخت بني الأكرمين من جشم
أنكحها فقدها الأرقام في جند ب، وكان الحباء من آدم
لو بأبائين جاء يخطبها ضرج ما أتف مخاطب بدم

- وذلك لما طالت حرب البسوس هرب، ونزل في طريقه على حي من اليمن، فخطبوا إليه ابنته وأجبروه على تزويجها، وسافروا النهر جلوداً.
- (٣) الشجي كفرح : المشغول، وقد شدد في الشعر ويجوز التشديد في المثل أيضاً للمقابلة بالخلي. الخلي كخني : الفارغ، والذي قال هذا المثل، أكنم بن صيفي لما عاد له ابنه بخير رسول الله ﷺ، فجمع قومه ورغبتهم في الإسلام فقال له مالك بن نويرة : قد خرف شيخكم ! فقال له أكنم « ويل للشجي من الخلي ».
- (٤) الأملس : البريء من القروح. الدبر كفرح : من به فرحة الدبرة بالتحريك : يضرب هذا المثل في سوء اعتصام الرجل بشأن صاحبه وكذلك المثل قبله.

لما خفتكم ﴿ فنظرت في مفارقة الوطن، فقديماً ضاع الفاضل
في وطنه، وكسد العلق في معدنه، كمال قال :
أضيق في معشري وكم بلد يكون عود الكباء من حطبه^(١)
فاستخرت الله في إنفاذ العزم، وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمن،
إلا أن الغي لم يرتفع، ومادة البغي لم تنقطع .
ومن نثره الذي ترك فيه طريقته في رسالتيه :

« لقد كان من محاسن الشيم، وشروط المروءة والكرم، أن يهب
لي ما أنكر لما عرف، ويففر ما سخط لما رضي، ويدفع بالثي هي
أحسن، ويؤثر الذي هو أجمل وأرفق، ويتوقف عندما نص^(٢) له من
سعاية، وزف إليه من وشاية، فإن كان باطلاً ألقاه، وفضح المتقرب
به وأقصاه، وإن كان حقاً صبر صبر الحليم، وأغضى إغضاء الكريم،
وقبل إنابة المعتب، واقتصد في مؤاخظة المذنب، فقدم التوقيف قبل
التشفيق، والتأنيب قبل التأديب، فإن الرفق بالجاني عتاب. والحر يلحى،
والعصا للعبد^(٣) .»

ولا نكون مبعدين إذا قلنا ما قاله ابن نباتة في الحكم على نثر
ابن زيدون، قال :

« أما نثره، فإنه أكثر فيه من استعمال أمثال العرب، وحل أشعار
المتقدمين والمتأخرين، إلى أن قيل : إن رسائله أشبه بالمنظوم منها
بالمشور، وعلى ذلك فقد دل على اطلاع معجب، واستحضار معجز .»

(١) الكباء ككساء : عود البخور.

(٢) نص الرجل الحديث : رفعه.

(٣) العتاب : التأنيب على الذنب. لحاه يلجوه : شمه.

عبد الملك بن أبي الخصال المتوفى عام ٥٣٩هـ

عبد الملك بن أبي الخصال الغافقي كاتب من كتاب الأندلس البلغاء وأدبائها الكبار. سكن قرطبة، ثم اتصل بولاية لمتونة بمراكش وفارس، وكان كاتباً لهم. وقد اشتهر برسائله التي كانت من نماذج الكتابة في ذلك الوقت، توفي في سنة ٣٥٩هـ.

كتب إلى بعض أصدقائه : « الحذر أعزك الله يؤتى من الثقة، والحبيب يؤذى من المقة^(١). وقد كنت أرضى من ودك وهو الصحيح بلمحة، واقتنع من ثنائك وهو المسك بنفحة. فما زلت تعرضني للامتحان، وتطالبني بالبرهان وتأخذني بالبيان، وأنا بنفسي أعلم، وعلى مقداري أحوط وأحزم، والمعيدي يسمع به لا أن يرى^(٢) ».

وكتب إلى وزير وقد خلع من وزارته : « مثلك — ثبت الله فؤادك، وخفف عن كاهل المكارم ما أوهى بك وآدك^(٣) — يلقي دهره غير

(١) المقة : المحبة.

(٢) يشير إلى المثل المشهور : « تسمع بالمعيدي خير ما أن تراه ».

(٣) آداه الأمر أوداً وأووداً : بلغ منه المجهود. والأوادي : الدواهي.

مكثرث، وبتنازله بصير غير منتكث^(١)، ويسم عند قطوبه، ويقال^(٢) شباة
خطوبه، فما هي إلا غمرة^(٣) ثم تنجلي، وخطرة يليها من الصنع
الجميل ما يلي. لا جرم أن الحر حيث كان حر، وأن الدر برغم
من جهله در. وهل كنت إلا حساماً انتضاه^(٤) قدر أمضاه، وساعد
ارتضاه، فإن أعمده فقد قضى ما عليه، وإن جرده فذلك فذاك إليه .»

(١) منقوض.

(٢) فل السيف : ثلمه. وغل القوم : هزمهم، يريد أنه يتغلب على الخطوب.

(٣) الغمرة: الشدة.

(٤) انتضى السيف : استله من عمده.

لسان الدين بن الخطيب

٧١٣-٧٧٦هـ

- ١ -

هو ذو الوزارتين، محمد بن عبدالله بن سعيد بن عبدالله بن سعيد ابن علي بن أحمد السلماني. ولد بلوشة على عشرة فراسخ من غرناطة في ٢٥ رجب عام ٧١٣، وينسب بيته إلى سلمان، وهو حي من مراد من عرب اليمن، انتقل إلى الشام ثم هاجر إلى الأندلس فسكن قرطبة أولاً ثم طليطلة ثم لوشة.. وأخيراً استقر في غرناطة^(١).

ولا يعلم بالضبط الوقت الذي هاجرت فيه هذه الأسرة من اليمن إلى الشام، ثم من الشام إلى الأندلس، لكن الظاهر أن الهجرتين كانتا تبعاً للهجرتين الكبيرتين: الهجرة إلى الشام في مدة حكم الأمويين أيام كانت دمشق حاضرة للعرب والإسلام، وحيث كان فيها لليمنيين خاصة مقام محمود ومنزلة كبرى عند ملوكها. والهجرة إلى الأندلس بعد أن فتحها العرب وأشاعوا في البلاد حديث رغدها فأسرع الناس إليها من كل حذب، وخاصة من الشام، بدليل تسميتهم بعض بقاع

(١) راجع نفع الطيب (٣ : ٣) نقلاً عن ترجمة لسان الدين بقلمه في آخر الاحاطة.

الأندلس بأسماء البقاع الشامية. ومهما كان فقد كان بيت لسان الدين بيت شرف وعلم وسيادة ونفوذ، وكان يعرف ببيت الوزير، حتى نشأ سعيد الجيد الأعلى للسان الدين، وكان من أهل العلم والدين، بلوشة، وهو أول من استوطنها منهم، وكان خطيباً بها؛ فعرف هذا البيت منذ ذلك اليوم ببيت الخطيب.

وكان جده سعيد الأدينى على خلال حميدة : من خط، وتلاوة، وفقه، وحساب، وأدب، توفي عام ٦٨٣؛ وأبوه عبدالله من انتقل إلى غرناطة وخدم ملوك بني الأحمر واستعمل على مخازن الطعام، وكان من العلماء بالأدب والطب : قرأ على أبي الحسن البلوطي وأبي جعفر ابن الوزير وغيرهما وأجاز طائفة من أهل المشرق، وتوفي بطريف شهيداً عام ٧٤١.

وكان لورائاته أثر كبير في انصراف لسان الدين إلى العلم والأدب، وتبريزه فيهما.

— ٢ —

وكان لمحمد كذلك — من محيطه المنزلي والاجتماعي، ومن تراث أسرته وانصرافهم للعلم وعناية أهل زمانه به، مع كثرة العلماء حوله وسهولة التحصيل؛ — أكبر عون على بلوغه تلك المنزلة الرفيعة التي نالها بعد.

وكان أول من قرأ عليه القرآن أبو عبدالله بن عبد المولي العواد، فأتقنه كتابة وحفظاً وتجويداً؛ وقرأه أيضاً على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي، وأخذ عنه العربية، وهو أول من انتفع به؛ وقرأ على الخطيب أبي القاسم، ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الإمام أبي عبدالله

الفخار الكبير شيخ النحويين لعهد؛ وقرأ على قاضي الجماعة أبي
عبدالله بن بكر، وتآدب بالرئيس أبي الحسن بن الجياب، وهو سلفه
في الوزارة، وروى عن كثير من الأعيان، وأخذ الطب وصناعة التعديل
عن الإمام أبي زكريا بن يحيى بن هذيل، ولازمه وألف فيه في هذين
العلمين..

— ٣ —

وقد خلف لسان الدين مؤلفات جمّة. وآثاراً قيمة في التاريخ والأدب
وعلوم الشرع والطب، من أهمها :

- الإحاطة في أخبار غرناطة.
- الإماطة عن وجه الإحاطة فيما أمكن من تاريخ غرناطة.
- اللمحة البدرية في الدولة النصرية.
- طرفة العصر في دولة بني نصر.
- رقم الحلل في نظم الدول.
- الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة.
- أعلام الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.
- بستان الدول (أتم منه ٣٠ سقراً).
- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.
- خطرة الصيف، رحلة الشتاء والصيف.
- مفاضلة مالقة وسلا.
- معيار الأخبار.
- التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى.
- الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم (التاج) من الجواهر.
- ريحانة الكتاب (عدة مجلدات).

السحر والشعر.
جيش التوشيح.
الصيب والجهام، وهو ديوان شعره.
النثر في غرض السلطانيات.
عائد الصلة.
النفاية بعد الكفاية.
المختصر في الطريقة الفقهية.
الألفية في أصول الفقه، وله أراجيز أخرى في العلوم.
روضة التعريف في التصوف.
اليوسفي في علم الطب.
المسائل الطبية.
عمل من طب لمن حب.

— ٤ —

ولم يكد لسان الدين يكمل دور الطلب حتى سطع نجمه متلأثاً في سماء الشعر والنثر، وبلغ في المديح مبلغاً جعل أعناق الأمراء تتناول إليه؛ لكنه لم يلتفت إلى أحد منهم، وعكف على مدح السلطان أبي الحجاج «سابع ملوك بني نصر المعروفين ببني الأحمر» حتى امتلأ حوضه — كما يقول ابن خلدون — بنظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه. فذاعت في الدولة مدائحه، وانتشرت في الآفاق رسائله. فرقاه السلطان إلى خدمته، وأثبتته في ديوان الكتابة ببابه مرعوساً بأستاذه أبي الحسن ابن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية، وكتب السلطان بقرناطة... واستقل ابن الجياب برياسة الكتابة من يومئذ إلى أن هلك بالطاعون الجارف عام ٧٤٩.

وخلا الجو للسان الدين بن الخطيب بموت أبي الحسن، فولاه السلطان رئاسة الكتابة ببابه، وثناها بالوزارة ولقبه بها؛ فاستقل بذلك، وصدرت عنه غرائب من الترسل في مكاتبة جيرانهم من ملوك العدو، وقربه السلطان وبلغ به من المخالطة إلى حيث لم يبلغ بأحد من قبله، حتى سفر عنه إلى السلطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة... فجلى من أغراض سفارته، وبقي أثيراً عن السلطان حتى توفي سنة ٧٥٥، فتولى من بعده ابنه محمد، فكان له ابن الخطيب كما كان لأبيه من حيث الوزارة؛ ولكنه اتخذ للكتابة غيره، وجعله رديفاً له، فأدار دفة الأمور معاً، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة. ثم أرسل ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي عنان ليمدهم على عدوهم الطاغية ملك إسبانيا، فقام بهذه المهمة على أحسن ما يرام.

ودامت هذه الحال خمس سنين. ثم بدأ دور أفول نجم لسان الدين بسقوط سلطانه، وتضييق المتغلب عليه في محبسه وهو يرسل الرقي إلى ولاة الأمور من قصائد منمقة ورسائل بليغة؛ فلا تلين لهم قناة ولا ترقق لهم قلباً، حتى سعى له أحد أصدقائه عند ملك المغرب فشفع فيه. وفي أواخر اللوحة البدرية قصيدة له في مدح ملك المغرب والإشارة إلى هذا الدور من حياة لسان الدين.

ويقول لسان الدين يحدثنا عن نفسه بأسلوبه البديع المسجوع، واصفاً حياته عند ملك المغرب، حيث يقول في (الإحاطة) :

« وصلت الشفاعة في مكتبته بخط ملك المغرب، وجعل خلاصي شرطاً في العقدة ومسالمة الدولة، فانتقلت صحبة سلطاني المكفور الحق إلى المغرب. وبالغ ملكه في برى : منزلاً رحباً، وعيشاً خفصاً، وأقطاعاً جمّة، وجراية ما وراءها مرمى. وجعلني بمجلسه صدرأ، ثم أسعف قصدي في تهيؤ الخلوة بمدينة سلا، منوه الصكوك مهناً القرار، متفقداً بالله والخلع، مخول العقار، موقور الحاشية مخلي بيني وبين إصلاح

معادي؛ إلى أن رد الله على السلطان أمير المؤمنين أبي عبدالله بن الحجاج ملكه .

عاد لسان الدين إلى الأندلس وحظي عند ملكه، فولاه الوزارة وأعادته إلى منزلته، فهناً عيشه هناك إلا ما كان من بعض وجهاء البلاد ممن ساءهم نفوذ لسان الدين، فراحوا يكيدون له عند الملك الذي سخط عليهم ونكبهم، فخلا الجو لابن الخطيب ورفع الملك إلى أسمى منزلة وخطط بنيه بندمائه وأهل خلوته، وأفرده بتدبير المملكة فأصبح بيده الحل والعقد، وانصرفت إليه الوجوه وعلقت عليه الآمال، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته فتوافقوا على السعاية به. وقد أصم السلطان أذنه عن قبولها، ولكن الخير نما إلى ابن الخطيب فعزم على الرحيل.

— • —

برم ابن الخطيب بدسائس القوم فاستأذن سلطانه في تفقد الثغور الغربية، فسار إليها في لمة من فرسانه وانحدر منها إلى المغرب حيث وجد فيه كل إكرام، ثم قدم على ملكه عبد العزيز عام ٧٧٣ في تلمسان فاهتزت له الدولة، واستقبل استقبالاً باهراً، وأحل من الدولة في أسمى محل. وأخرج السلطان لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين إلى الأندلس في طلب أهله وولده، وقدم بهم على أحسن حال... ثم وشوا به إلى السلطان، وأحصوا خطيأته، واتهموه بالزندقة، وكان من أكبر العاملين على ذلك ملك الأندلس، لكن عبد العزيز أبت عليه عريته ووفائه أن يخفر جواره، فزاد في إكرامه وإكرام ولده حتى أتته منيته.

فقد لسان الدين بموت عبد العزيز أكبر رجل قادر على حمايته،

فأصبح غرضاً للمصائب والبلايا التي يسمي ليوقه بها أعداؤه الكثيرون.

ووقعت الحرب بين ملك الأندلس وأحد المتغلبين على المغرب، فظفر فيها الأول واشترط على خصمه تسلّم ابن الخطيب، فقبض عليه عدوه الألد سليمان بن داود وحبسه، ثم حاكموه على كلمات من الزندقة وجدت في كتبه، ورغماً عن دفاعه عن نفسه وظهور براءته أرسل إليه سليمان في محبسه بعض حاشيته من السفلة فقتلوه خنقاً، ثم أخرجوه لليوم الثاني وأضرموا حوله النار حتى احترق شعره واسودت بشرته، ثم وضع في حفرة.

— ٦ —

ويقول عنه ابن خلدون في تاريخه : نشأ لسان الدين بغرناطة، وقرأ وتأدب على مشيختها؛ واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في الطب واتحل الأدب، وأخذ عن أشياخه، وكثر نظمه ونثره؛ ونبغ في الشعر والترسل بحيث لا يجارى فيهما، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره، وملاً الدنيا بمدائحهم، وانتشرت في الآفاق، فرقاه السلطان إلى خدمته، وأثبته في ديوان الكتاب ببابه، مرعوساً بأبي الحسن بن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية، وكاتب السلطان بغرناطة، فاستبد ابن الخطيب برياسة الكتاب، مثناة بالوزارة ولقبه بها، فاستقل بذلك، وصدرت عنه غرائب من الترسل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدو... إلى آخر ما ذكره ابن خلدون من حياته ونشأته الأدبية.

وقد ساعد ابن الخطيب اطلاعه الواسع في اللغة العربية وفنونها على أن يكون كاتباً من كبار الكتاب، فألف في كثير من أنواع العلوم والآداب، وكتب كثيراً من الرسائل السياسية والإخوانية والسلطانية، وكتب في التاريخ والأدب والاستعطاف والوصف وغيرها، ورسائله طافحة بمعلوماته في الأدب والتاريخ والعلوم.

ويفترق أسلوبه العلمي عن أسلوبه الأدبي : فهو في أسلوبه العلمي لا يلتزم طريقة السجع، بل يسرد العبارات سرداً، وأحياناً يغلب عليه السجع والمحسنات البديعية، وتغلب عليه الصبغة الأدبية في كتبه العلمية، فهو من أكبر الكتاب، وأوسعهم علماً وأكثرهم تأليفاً.

وكانت عنايته في كتابته الأدبية وفي خصائص أسلوبه موجهة إلى الصناعة اللفظية. إذ كان يعنى باللفظ عناية عظيمة ويقصد إلى التتميق وتعمل السجع، وله عناية خاصة بألفاظ المدح والثناء، وعبارات التمجيل والتعظيم. ولقد يطيل في ذلك إطالة تدعو إلى الملل، وتدلل على التكلف؛ وأسلوبه على نحو أسلوب ابن العميد من حيث تعمل السجع وزاد عليه ميله إلى الإطناب؛ فكثيراً ما كانت معانيه قليلة وألفاظه وجملته كثيرة. فكانت الإجابة في الكتابة عنده في الإحاطة والإطناب.

ولسان الدين بن الخطيب له في الأدب منزلة عالية، ومكانة مرموقة، ومقام معروف، وله في الشعر والنثر إجابة، وأكثر نثره في السياسة وما يتصل بها، وفي الرسائل السلطانية والإخوانية، وتراجم الوزراء والعلماء والأدباء، ممن اتصل منه بسبب : كأسانذته وتلاميذه ومعاصريه، وأكثر شعره في الملوك والسلاطين، ومقدمات السفارات، والاستنجاد ورتاء العظماء من السلاطين وغيرهم، وله مدائح نبوية.

ومنزلة ابن الخطيب ترجع إلى أنه كاتب من أكبر الكتاب، وأوسعهم

علماء، وأكثرهم تأليفاً؛ فقد ترك من المؤلفات في أنواع العلوم والآداب ما يناهز الستين مؤلفاً. عقد لها المقرئ الباب السادس من النفع؛ ناقلاً تعريف المؤلف بها عن (الإحاطة)، وله كثير من الرسائل السياسية والإخوانية والسلطانية وغيرها؛ وكلها تدل على اطلاع واسع، وفكر خصيب.

ويمتاز أسلوبه في الكتابة بالسجع والإطالة، والعناية بالصناعة اللفظية والقصد إلى التتميق واستخدام المحسنات البيهية، وقد يترك السجع في كتاباته العلمية أحياناً، وقد تتغلب عليه النزعة الأدبية، فيسجع فيها كما يسجع في غيرها.

وللنقاد آراء كثيرة في نثر ابن الخطيب. يقول عنه الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر: «هو شاعر الدنيا، وعلم المفرد والثنيا، وكانت الأرض إلى يوم العرض.. آخر من تقدم في الماضي، وسيف مقوله ليس بالكهام إذ هو الماضي. وإلا فانظر كلام الكتاب الأول في العصبية. كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصة للبراعة بالبراعة، وبه أسكت صائلهم. وما حمدت بكرهم وأصائلهم. للجزالة المشربة بالحلاوة، الممكنة من مفاصل الطلاوة، وهو نفيس العدوتين، ورئيس الدولتين، بالاطلاع على العلوم» هو شاعر مفلق، وخطيب مصقع. وكاتب مترسل بليغ. لولا ما في إنشائه من الإكثار الذي لا يكاد يخلو من عثار، والاطناب الذي يقضي إلى الاجتناب والإسهاب الذي يقدر الإهاب ويورث الالتهاب..!

وبواعث المناقسات السياسية عرض ابن خلدون بدمه، فقال في مقدمته: «والمحمود في المخاطبات السلطانية وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا في الأقل وحيث ترسله الملكة أرسالاً من غير تكلف له.. وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم. وما حمل عليه أهل العصر إلا

استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال. فعجزوا عن الكلام المرسل لبعده أمد في البلاغة، وانفساح عطفه، وولعوا بهذا السجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود، ومقتضى الحال فيه، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية؛ ويفعلون عما سوى ذلك وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم، كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد. حتى إنهم ليخلون بالأعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس أو في مطابقة. لا يجتمعان معها. فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الإعراب ويفسدون بنية الكلمة، عساها تصادف التجنيس.

وقال المقري فيهِ : « أما نثره فهو البحر الزخار بل الدر الذي به الافتخار... ».

وحدث هو عن نثره قال : « وأما النثر فيبحر زاخراً، ومدى طوله مستأخراً، وإنك لم يفخر عليك كفاخراً ».

— ٨ —

صور من نثره :

قال لسان الدين في الحض على الجهاد :

« أيها الناس رحمكم الله تعالى. إخوانكم المسلمون بالأندلس، قد دهم العدو — قصمه الله تعالى — ساحتهم، ورام الكفر — خذله الله تعالى — استباحتهم. وزحفت أحزاب الطواغيت اليهم، ومد الصليب ذراعيه عليهم وأيديكم بعزة الله تعالى أقوى، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى، وهو دينكم فانصروه، وجواركم الغريب فلا تخفروه، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه، الجهاد الجهاد، فقد تعين، الجار الجار،

فقد قرر الشرع حقه وبين، الله الله في الاسلام. الله الله في أمة محمد عليه الصلاة والسلام، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله. الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله. قد استغاث بكم الدين فأغيثوه. قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه. أعينوا إخوانكم بما أمكن من الاعانة أعانكم الله تعالى عند الشدائد، جددوا عوائد الخير يصل الله تعالى لكم جميل العوائد، صلوا رحم الكلمة، وأسسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة. كتاب الله بين أيديكم، والسته الآيات تناديكم، وسنة رسول الله ﷺ قائمة فيكم، والله سبحانه يقول فيه : يا أيها الذي آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم، ومما صح عنه قوله : من أغبرت قدماءه في سبيل الله حرماها الله على النار، لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم، من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الاسلام قبل أن يموت. احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عبادته. جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده :

ماذا يكون جوابكم لتيبيكم وطريق هذا العذر غير ممهّد ؟
إن قال : لم فرطتمو في أمّتي وتركتموهم للعدو المعتدي ؟
تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

اللهم اعطف علينا قلوب العباد، اللهم بث لنا الحمية في البلاد، اللهم دافع عن الحریم والضعيف والأولاد. اللهم أنصرنا على أعدائك، بأحبائك وأوليائك يا خير الناصرين، اللهم افرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

ومما كتبه لسان الدين إلى علي بن بدر الدين الطوسي :

سيدي الذي هو فصل جنسه، ومزية يومه على أمسه. فإن افتخر الدين من أيبك بيده، افتخر منك بشمسسه. رحلت عن الممتناً

والقرارة^(١)، ومحل الصبوة^(٢) والفرارة^(٣) فلم تتعلق نفسي، بذخيرة، ولا عهد جيرة خيرة، كتعلقها بتلك الذات التي لطفت لطافة الراح. واشتملت بالمجد الصراح. شفقة أن يصيبها معرة. والله تعالى يقيها، ويحفظها ويقيها. إذ الفضائل في الأزمان الرذلة غوائل. والضد عن ضده منحرف بالطبع مائل فلما تعرفت خلاص سيدي في ذلك الوطن، وإلقاءه وراء الفرضة بالمعطن^(٤)، لم تبق لي تعلقة^(٥) ولا أحرصتني^(٦) له علة، ولا أتى جمع من قلة. فكثبت أهنيء نفسي الثانية بعد هناء نفسي الأولى، واعترف للزمان باليد الطولي^(٧)، الحمد لله الذي جمع الشمل بعد شتاته، وأحيا الأتس بعد مماته. سبحانه لا مبدل لكلماته. وإياه أسأل أن يجعل العصمة حظ سيدي ونصيبه، فلا يستطيع حادث أن يصيبه. وأما حالي فكما علمتم : ملازم كن^(٨) ومهبط تجربة وسن، أزجي^(٩) الأيام، وأروم بعد التفرقة الائتنام. خالي اليد، مليء القلب والخلد^(١٠) بفضل الواحد الصمد، عامل على الرحلة الحجازية التي أختارها لكم ولنفسى، وأصل في التماس الإعانة عليها يومي بأمسي.

وقال لسان الدين بن الخطيب في ترجمة بعض مشايخه :

-
- (١) يريد المكان الذي نشأ واستقر به.
 - (٢) نشوة الشباب.
 - (٣) يريد بالفرارة النهو واللعب.
 - (٤) يريد موطنه.
 - (٥) التعلقة : ما يتعلل به.
 - (٦) أحرصه الحزن أو المرض : أفسد بدنه.
 - (٧) يريد بنعمته العظيمة.
 - (٨) السكن : البيت.
 - (٩) أزجاه وزجاء : سافه ودفعه يرفق.
 - (١٠) الخلد : البال والقلب.

صدر^(١) الصدر الجلة^(٢)، وعلم أعلام هذه الملة، وشيخ الكتابة وبيانها وهاصر أفنان^(٣) البدائع وجانيها. اعتمدته الرياسة فناء بها^(٤) على حبل ذراعه واستعانته به السياسة فدارت أفلاكها على قطب من شياة يراعه^(٥)، فتفياً^(٦) للعناية ظلاً ظليلاً، وتعاقت الدول فلم تر به بديلاً.. لا تمر مذاكرة في فن، إلا وله فيه التبريز، ولا تعرض جواهر الكلام على محاك الأفهام إلا وكلامه الإبريز^(٧). حتى أصبح الدهر راوياً لإحسانه، وناطقاً بلسانه. وغرب ذكره وشرق، وأشأم وأعرق، وتجاوز البحر الأخضر والخليج الأزرق^(٨).

إلى نفس هذبت الآداب شمائلها، وجادت الرياضة خمائلها^(٩)، ومراقبة لربه، واستنشاق لروح الله من مهبه، ودين لا يعجم عوده^(١٠)؟ ولا تخلف وعوده. وكل ما ظهر علينا معشر بنيه من شارة تجلى بها العين، أو إشارة كما سبك اللجين^(١١)، فهي إليه منسوبة، وفي حسناته محسوبة، فإنما هي أنفس راضها^(١٢) بأدابه وأعلها بأهدابه، وهذب طباعها، كالشمس تلقي على النجوم شعاعها، والصور الجميلة تترك في الأجسام الصقيلة انطباعها. وما عسى أن أقول في إمام الأئمة،

(١) الصدر : مقدم كل شيء يريد أنه أول المقدمين.

(٢) يقال قوم جلة أي سادة.

(٣) هصر الفصن : عطفه وجذبه، والأفنان مفردة فنن : وهو الفصن المستقيم.

(٤) نهضن بها.

(٥) الشياة : حد كل شيء. والمراد باليراع القلم.

(٦) استظل وتبع ظلال الشجر.

(٧) الذهب الخالص.

(٨) يريد أن ذكره طبق الآفاق.

(٩) جمع خميلة : وهي الشجر الكثيف الملتف.

(١٠) عجم العود : عضة ليعلم صلاحته من رخاوته. يريد أنه شديد الإيمان.

(١١) الفضة.

(١٢) ذللها.

ونور الدياجي^(١) المدلهمة، والمثل السائر في بعد الصيت وعلو الهمة. وقال من مقامة له تسمى مقامة البلدان يصف مدينة مكناسة.

« مكناسة مدينة أصيلة، وشعب للمحاسن وفضيلة، فضلها الله تعالى ورعاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها. فجنابها مريع وخيرها سريع، اعتدل فيها الزمان وفاقت الفواكه فواكهها ولا سيما الرمان، وحفظ أقاتها الاحتزان ولطفت فيها الأواني والكيزان. ودنا من الحضرة جوارها فكثر قصادها من الوزراء وزوارها. وبها المدارس والفقهاء، ولقصبها الأبهة والمقاصير والأبهاء... »

وهذه رسالة للسان الدين بن الخطيب وجهها إلى السيد الشريف عبدالله ابن نفيس، قال :

جزيت يا ابن رسول الله أفضل ما جزى الإله شريف البيت يوم جزى
إن أعجز الشكر مني منة ضعفت عن بعض حقلك شكر الله ما عجزا

سيدي، أبقى الله شرفك تشهد به الطباع، إذا بعدت المعاهد المقدسة والرباع، وتعترف به الأبصار والأسماع، وإن جحدت عارضها الإجماع... بأي لسان أثني ؟ أم أي الأفنان أهصر وأجني، أم أي المقاصد الكريمة أعني ؟ أمطيت جوادك المبارك، وأسكنت دارك، وأوسعت مطلبي اصطبارك، وهضمت حقلك، وبنأت جوارك، ووصلت للغرباء إيثارك، أشهد بأنك الكريم ابن الكريم، لا أقف في تعدادها عند جد، إلى غير جد، فإن أعان الدهر على مجازاة، وإن ترفع كرمك عن موازاة فحاجة نفسي قضيت، وأحكام آمالي أمضيت، وعلى كل حال؛ فالثناء ذائع، والحمد شائع، واللسان والحمد لله طائع، والله مشتر ما أنت بائع، وقد وجهت من يحاول لسيدته ثمن ما اكتسبه مجده وسفر عنه

(١) الدياجي : الغلطات.

حمده، والعقيدة بعد التراضي وكمال التقاضي، وحميد الصبر وسعة
التغاضي، وكونه الخصم والقاضي، إنه هبة سوغها إنعامه، وأكلة هناها
بطعامه، نسأل الله تعالى أن يعلي ذكره، ويتولى شكره وينمي ماله،
ويرفع قدره، والولد جاره الغريب الذي برز إلى مقارعة الأيام عن خبرة
قاصرة وتجربة غير منجدة على الدهر وناصره، قد جعلته وديعة في
كرم جواره، ووضعته في حجر إيثاره، فإن زاغ فيده العليا في تبصيره،
ومؤاخذته بتقصيره، ومن نبه مثله نام، ومن استنام إليه بمهمة أكرم
بمن إليه استنام، وإن تشوف سيدي لحال محبه، فمطلق للدنيا من
عقال، ورافض أئقال، ومؤمل اعتياض، بخدمة الله تعالى وانتقال.

— ٩ —

وللسان الدين شعر لا يبلغ منزلة نثره وكتابه، فقد كان كاتباً أبلغ
منه شاعراً، وشعره كثير، وله موشحات أعلى في البلاغة طيقة من
سائر أشعاره.

ومن صور شعره هذه القصيدة التي يرثي بها أحد ملوك بني الأحمر :
يا قبر جاد ثراك صوب غمام يهمني عليك برحمة وسلام
بوركت لحداً فيه أي وديعة ملك كريم من نجار كرام
ماشتت من حلم ومن خلق رضي وزكاء أعراق ومجد سام
فاسعد بنصر رابع الأملاك من أبناء نصر ناصر الإسلام
من خزرج الفخر الذين مقامهم في نصر خير الخلق خير مقام
يا أيها المولى المؤسس بيته في معدن الأحساب والأحلام
ما للمنية والشباب مساعد قد أقصدتك بصائب سهام
عجلت على ذاك الجمال فغادرت ربع المحاسن طامس الأعلام
فمحا الردى من حسن وجهك آية محو النهار لسدقة الإظلام

ما كنت إلا بدر تم باهراً
فعلى ضريح أبي الجيوش تحية
وتغمدته رحمة الله التي
أخني الخسوف عليك عند تمام
كالمسك عرفاً عند فض ختام
ترضيه من عدن بدار مقام

ومن شعره هذه القصيدة التي أنشدها لسلطان المغرب عام ٧٦٣هـ :
تألق نجدي ، فأذكرني نجدا
وميض رأى برد الغمامة مغفلا
تبسم في بحرية قد تهجمت
ورأود منها فاركا قد تنعمت
وأغرى بها كف الغلاب فأصبحت
إذا أنت شافهت الديار بطيبة
وأنست نوراً من جناب محمد
فتب عن بعيد الدار في ذلك الحما
وقل : يا رسول الله عبد تقاصرت
ولم يستطع من بعد ما بعد المدى
تداركه يا غوث العباد برحمة
أجار بك الله العباد من الردى
حمى دينك الدنيا وأقطعك الرضا
وطهر منك القلب لما استخصه
دعاه فما ولي، هداه فما غوى
تقدمت مختاراً تأخرت مبعشاً
وعلة هذا الكون أنت، وكل ما
وهل هو إلا مظهر أنت سره
ففسى عالسم ذاتك تجتلسي
وفي عالم الحس اغتديت ميوأ
فما كنت لولا أن ثبت هداية

فماذا عسى يثني عليك مقصر
بماذا عسى يجزيك هاو على شفا
عليك صلاة الله يا كاشف العمى

ولم يأل فيك الذكر مدحاً ولا حمداً
من الغار قد اوردته بعدها الخلدا
ومذهب ليل الروع وهو قد أربدا

وقال يخاطب السلطان أبا عنان،
أبدى لداعي الفوز وجه منيب
كلف الجنان إذا جرى ذكر الحما
والنفس لا تنفك تكلف بالهوى
رحل الصبا فطرحت في أعقابه
أترى التفزل بعد أن ظعن الصبا
أنى لمثلي بالهوى من بعد ما
لبس البياض، وحل ذروة منير
قد كان يسترني ظلام شيبتي
وإذا الجديدان استجدا ألبيا
سلي عن الدهر الخفون وأهله
متقلب الحالات، فاخبر تقله
فكل الأمور إذا اعترتك لربها
قد يخياً المحبوب في مكروها
واصبر على مضض الليالي إنها
واقنع بحظ لم تنله بحيلة
يقع الحريص على الردى ولكم غدا
من رام نيل الشيء قبل أوانه
فإذا جعلت الصبر مفرع معضل
بخليفة الله الذي في كفه
المنتقى من طينة المجد الذي
يرمي الصعاب بصعبه فيقودها

وقد مزج الغزل فيها بالحكم :
وأفاق من عدل ومن تأنيب
والبان حن له حين النيب
والشيب يلحظها بعين رقيب
ما كان من غزل ومن تشيب
شأني الغداة أو النسيب نسيب
للوخط في القودين أي ديب ؟
متي، ووالى الوعظ فعل خطيب
والآن يفضحتي صباح مشيب
من لبسة الأعمار كل قشيب
تسل المهلب عن حروب شيب
مهما أعدت يداً إلى تقليب
ما ضاق لف الرب عن مريب
من يخياً المكروه في المحيوب
لحوامل سيلدن كل عجيب
ما كل رام سهمه بمصيب
رام انتقال بلملم وعسب
رام انتقال بلملم وعسب
عاجلت عنته بطب مجيب
غيث يروض ساح كل جديب
ما كان يوماً صرفه بمشوب
ذلاً على حسب الهوى المرغوب

ويرى الحقائق من وراء حجايها لا فرق بين شهادة ومغيب
من آل عبد الحق حيث توشحت شعب العلا وربت بأي كتيب
ومن أبلغ ما صدر عن لسان الدين رحمه الله تعالى وأبدعه كما
يقول المقرئ في « نفع الطيب »^(١)، لاميته المشهورة، التي خاطب بها
سلطانه حين عاد من المغرب إلى الأندلس، وأعاد الله تعالى عليه ملكه،
الذي كان خلع منه، ويقال إن السلطان أمر بكتابة هذه القصيدة على
قصوره بالحمر، إعجاباً بها وإنها إلى الآن لم تزل مكتوبة بتلك القصور
التي استولى عليها الاسبان، وأول هذه القصيدة :
الحق يعلو، والأباطل تسفل والله عن أحكامه لا يسأل

قال لسان الدين رحمه الله تعالى : نظمها للسلطان أسعده الله تعالى،
وأنا بمدينة سلا، لما انفصل طالباً حقه بالأندلس، وكان صنع الله تعالى
براعة استهلالها، ووجهت بها إليه إلى رندة قبل الفتح، ثم لما قدمت
أنشدتها بعد الفتح. وفاء بنذري؛ وسميتها : « المنح الغريب، في الفتح
القريب »، قال منها :

وإذا استحالت حالة وتبدلت	فإن الله عز وجل لا يتبدل
واليسر بعد العسر موعود به	والصبر بالفرج القريب موكل
والمستعد لما يؤمل ظافر	وكفاك شاهد : قيدوا وتوكلوا
أمحمد والحمد منك سجية	بجليلها دون الورى تنجمل
أما سعودك فهو دون منازع	عقد بأحكام القضاء مسجل
تاب الزمان إليك مما قد جنى	والله يأمر بالمتاب ويقبل
إن كان ماض من زمانك قدمضى	بإساءة، قد سرك المستقبل
هذا بذاك فشفع الجاني الذي	أرضاك فيما قد جناه الأول
والله قد ولاك أمر عياده	لما ارتضاك ولاية لا تعزل
وإذا تغمدك الإله بنصره	وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل؟

(١) ١٧٤ : ٤ نفع الطيب.

صحتهم غرر الجياد كأنما
من كل منجرد أغر محجل
زجل الجناح إذا أجد لغاية
جيد كما التفت الظليم وفوقه
فكأنما هو صورة في هيكل
سد الثنية عارض متهلل
يرمي الجلاذ به أغر محجل
وإذا تغنى للصهيل فيلبل
أذن ممشقة وطرف أكحل
من لطفه، وكأنما هو هيكل

وللسان الدين هذه الموشحة التي عارض بها موشحة ابن سهل :
جادك الغيث، إذا الغيث همي
لم يكن وصلك إلا حلما
إذ يقود الدهر أشتات المنى
زمرأً بين فرادى وثنا
والحيا قد جلل الروض سنا
وروى النعمان عن ماء السما
فكساه الحسن ثوباً معلما
في ليال كتمت سر الهوى
مال نجم الكأس فيها وهوى
وطر ما فيه من عيب سوى
حين لذ الأنس شيقاً، أو كما
غارت الشهب بنا، أو ربما
أي شيء لامرئٍ قد خلصا
تنهب الأزهار منه الفرصا
فإذا الماء تناجى والحصي
تبصر السورد غيوراً برماً
وترى الآس لبيباً فهما
يا أهيل الحي من وادي الغضى
ضاق عن وجددي بكم رحب الفضا

فأعيدوا عهد أنس قد مضى
واتقوا الله، وأحيوا مغرماً
حيس القلب عليكم كرماً
ويقلبي منكم مقترب
قمر أطلع منه المغرب
قد تساوى محسن أو مذنب
ساحر العقلة معسول اللمي
سد السهم وسمى ورمى
إن يكن جار، وخاب الأمل
فهو للنفس حبيب أول
أمره معتمل ممثمل
حكم اللحظ بها فاحتكما
منصف المظلوم ممن ظلما
ما لقلبي كلما هبت صبا
كان في اللوح له مكتبا
جلب الهم له والوصيا
لاعج في أضلعي قد أضرما
لم يدع في مهجتي إلا ذماً
سلمي يا نفس في حكم القضا
دعك من ذكرى زمان قد مضى
واصرفي القول إلى المولى الرضا
الكريم المنتهي والمتمسي
ينزل النصر عليه مثلما
مصطفى الله، سمي المصطفى
من إذا ما عقد العهد وفي
حيث بيت النصر محمي الحما

تعتقوا عانيكم من كربه
يتلاشى نفساً في نفس
أفترضون عفاء الحيس؟
بأحاديث المعنى، وهو بعيد
شقة المغربي به وهو سعيد
في هواه بين وعد ووعد
جال في النفس مجال النفس
فسؤادي نهية المفترس
وفؤاد الصب بالشوق يذوب
ليس في الحب لمحجوب ذنوب
في ضلوع قد براها وقلوب
لم يراقب في ضعاف الأنفس
ومجازي البر منها والمسي
عاده عيد من الشوق جديد
قوله : إن عذابني لشديد
فهو للأشجان في جهد جهيد
فهو نار في هشيم اليبس
كبقاء الصبح بعد الغلس
واعمرني الوقت برجمي ومتاب
بين عتبي قد تفضت وعتاب
ملهم التوفيق في أم الكتاب
أسد السرج، وبدر المجلس
ينزل الوجي بروح القدس
الغني بأشبه عن كل أحد
حيث بيت النصر مرفوع العمد
وجني الفضل زكي المغرس

والهوى ظل ظليل خيما والندى هب إلى المخترس
هاكها يا سبط أنصار العلا والذي إن عثر الدهر أقال
غادة ألبسها الحسن ملا تبهر العين جلاء وصقال

وبعث ملك غرناطة الوزير ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي
عنان، لينالوا العون منه على عدوهم الطاغية، على عادتهم مع سلفه،
فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه، تقدم الوفد الذي معه من وزراء
الأندلس وفقهائها، واستأذنه في إنشاد شعر قدمه بين يدي نجواه، فأذن
له، وأنشد وهو قائم :

خليفة الله، ساعد القدر علاك، ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائيات بدر دجى لنا، وفي المحل كفك المطر
والناس طراً بأرض اندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن في غير عليك ما له وطر
ومن به - مذوصلت حبلهم - ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وقد أهمتهم بأنفسهم فأرسلوني إليك وانتظروا

فاهتز السلطان لهذه الأبيات، وأذن له في الجلوس، وقال له قبل
أن يجلس : ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم، ثم أثقل كاهلهم بالاحسان،
وردهم بجميع ما طلبوه.

وعلى الجملة فيعد ابن الخطيب من كبار شعراء الأندلس، كما يحسب
من الكتاب والأدباء. وقد طرق في شعره جميع الأغراض المعروفة.
وله كثير من القصائد في التوسل والشكوى إلى الله ورسوله. وقد
جرى في شعره مجرى القدماء في ذكر المعاني البدوية وبدء قصائده
بها. والصيغة الغالية على شعره هي صيغة العلماء والفقهاء الذي يميلون
إلى ذكر الحقائق صريحة جافة؛ فليس ابن الخطيب ممن يعتمدون في
شعرهم على الخيال أو الافتتان في القول. ومع هذا فله أحياناً شعر

رقيق في الغزل والوصف، الغالب عليه مسحة الصناعة. كما في موشحته.
وأسلوبه في شعره جزل متين، ولكن به كثيراً من الألفاظ والعبارات
الجافة، مما كانت تقتضيه المعاني والموضوعات التي يعالجها في شعره.

الفصل الثالث

الخطابة في الأندلس

نيج في الأندلس خطباء كثيرون منهم : عبد الرحمن الداخل، وأبو عثمان عبدالله، ومنذر بن سعيد البلوطي، وابن أبي الخصال المتوفى عام ٥٣٩هـ، وسهل بن مالك من أهل القرن السادس، وأحمد بن الحسن الزيات المتوفى عام ٧٢٨هـ، وابن أبي زندقة الطرطوشي المتوفى بالاسكندرية عام ٥٢٠هـ. وقد جمع في القرن السابع كثيراً من الخطب الأندلسية في مجموعة واحدة أبو الربيع الحافظ الكلاعي.

صور من الخطابة الأندلسية

خطبة طارق بن زياد^(١) :

بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وذكر فضل الجهاد، ورغب في الشهادة
قال :

(١) عن رواية نفع الطيب ومن رواية ابن خلكان في ترجمة موسى بن نصير.

أيها الناس ! أين المفر^(١) ؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم^(٢)،
وليس لكم والله إلا الصدق^(٣) والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة،
أضيق من الأيتام في مأدبة^(٤) اللتام^(٥).

وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأسلحته وأقواته موفورة^(٦)، وأنتم لا
وزر^(٧) لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي
عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً،
ذهب ربحكم^(٨)، وتعوضت القلوب من رعيها منكم الجراءة^(٩) عليكم،
فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة^(١٠) هذا

- (١) يجوز أن تكون بكسر الفاء اسم مكان، كذا قرئ قوله تعالى « أين المفر »، وقيل إن اسم الموضع بالفتح وعليه الجمهور.
- (٢) ذكروا أن السفن التي نقلت العرب من سبته إلى الجزيرة كانت أربعاً، وأنها ظلت ذاهبة آتية تنقل الجنود حتى تم حصولهم جميعاً ببر الأندلس، وأنها كانت ليليان، وليست للعرب، فاتخذ طارق من انصرافها وتحصيرهم في الجزيرة بين العدوين : البحر والقوط، سبباً لحملهم على الاستيصال.
- (٣) الصدق هنا الصبر في الشدة.
- (٤) رواية ابن خلكان مأدب، وهي جمع مأدبة، والمأدبة بفتح الدال وضمها، وكذلك الأدبة كحجارة : طعام صنع لدعوة، أو عرس، والقفل أدب كضرب كآدب.
- (٥) اللتام : جمع لقيم، وهو ضد الكريم.
- (٦) شيء وافر وموفور ومستوفر (اسم مفعول) بمعنى كثير ووفر كندم ووعده صار كثيراً ووفره كثره.
- (٧) الوزر : بالتحريك الجبل المنيع، وكل معقل، والملجأ، ويطلق على السلاح لأنه يعصم أصحابه، والوزير من الوزر بالكسر، وهو الحمل الثقيل لأنه يحمل ثقل الأمر ويحمي الملك برأيه، أو من الوزر (بالتحريك) لأن الملجأ إليه في التدبير.
- (٨) من معاني الريح : الغلبة والقوة والدولة، وكل هذه المعاني صالحة هنا، والريح تذكر وتؤنث، لذلك وردت رواية ابن خلكان : « ذهبت ربحكم ».
- (٩) يقال جرؤ ككرم بمعنى شجع فهو جريء، والمصدر جرأة كجرعة، وجره كنية، وجرأة ككراهية، وجرائية ككراهية.
- (١٠) المناجزة : المقاتلة كالتناجر، ونجر كفرح ونصر : انقضى وضي، ونجر (كنصر) الحاجة فضاها كأنجزها، وأنت على نجر من حاجتك : أي على شرف من فضائها،

الطاغية^(١)، فقد ألفت به إليكم مدينته الحصينة^(٢)، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمراً أنا عن بنجوة^(٣)، ولا حملتكم على خطة — أرخص متاع فيها النفوس — أرباً عنها بنفسي^(٤)؛ واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرفه^(٥) الألد طويلاً. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فيما حظكم فيه أوفر من حظي^(٦)، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات الرومان، الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان^(٧)، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك، أمير المؤمنين، من الأبطال عزباً^(٨)، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً^(٩)، ثقة منه

وقولهم المحاجزة قبل المناجزة : أي المسالمة قبل التسجيل بالقتال، يضرب في حزم من عجل الفرار، قبل قتال من لا قبل له به، ولئن يطلب الصلح بعد القتال. والمعنى : قد فات أوان ذلك. كما يقال : الصيف ضيبت اللين.

(١) الطاغية : ملك النصارى كأن العرب فرضوا الظلم لازمة هؤلاء الملوك، فأرجموه هذا الوصف، ثم غلبت عليه الالسمية، وفي رواية ابن خلكان : « هذه الطاغية » وهي خطأ.

(٢) رواية ابن خلكان : « المحصنة ». (٣) النجوة : المكان المرتفع.

(٤) في الأصل بدل أرباً عنها بنفس : أبدأ بنفسي، والكلام عليه لا يتصل، رباً : كمنع ارتفع.

(٥) ربه عيش الرجل : ككرمه، لأن، فالرجل ربه ورافه ورفهان ومرتفعه : مستريح متنعهم، ورفه الرجل كمنع رفاها بالفتح والكسر ورفوها، لأن عيشه.

(٦) في رواية الفتح : « فما حظكم فيه بأوفى من حظي » والمعنى لا يستقيم لأنه يريد أن يقول لهم إن حظكم من الفتح أعظم من حظي، فأنا وال قابل للثقة، أما أنتم فقد صارت لكم البلاد ولأعقابكم، لذلك تؤثر رواية ابن خلكان.

(٧) العقيان : الذهب.

(٨) العزب : بالتحريك كالمعزبة، والعزب من لا أهل له غير المتزوج، وعزباناً جمع عزب، كشجعان وشجعان، وعزب كجذع وجذعان، أو عازب كصاحب وصحبان، أو أعزب — على القول بوروده — فيكون كأعصى وعميان.

(٩) الصهر : بالكسر القرابة، وزوج بنت الرجل أو أخته. والختن : بالتحريك : الصهر، أو ما كان من قبل المرأة كالأب والأخ.

بارتياحكم للطعان، وإسماحكم^(١) بمجالدته^(٢) الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصاً لكم^(٣) من دونه، ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين.

واعلموا أنني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق، فقاتله إن شاء الله تعالى. فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره، ولم يعوزكم^(٤) بطل عاقل تسندون أموركم إليه. وإن هلكت قبل وصولي إليه فاحلقوني في عزيمة هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكشفوا لهم^(٥) من فتح الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون.

(١) في نسخ الطيب وابن خلكان : « استماحكم » وليس في كتب اللغة افضل من هذه المادة، فلا بد أن تكون محرفة عن : إسماحكم، يقال سمح كمنع وأسمح بمعنى جاد وكرم أما سمح ككرم، فمعناها : صار من أهل السماحة، والوصف منه سمح ككتف ويخفف.

(٢) المجالدة من جالدوهم بالسيوف : أي ضاربوهم بها، وتجادلوا واجتلدوا : تضاربوا بها.

(٣) هذه رواية ابن خلكان، ورواية نفع الطيب بإثبات التاء: (خالصة) وتخرجها على جعل يكون تامة بمعنى يحصل، وتكون خالصة حالاً من الهاء في معناها.

(٤) رواية ابن خلكان : « ولن يعوزكم »، وهي كما تعرف أبلغ وأدخل في النفي من رواية النفع.

(٥) في رواية النفع : « واكشفوا لهم » وفي رواية ابن خلكان : « واكشفوا المهم » وأرى أن الروايين غير صالحين لأن صيغة اكشفى لم ترد إلا لازمة تقول اكشفت بكذا بمعنى قعت به واستغثت، ولكن المعنى المراد هنا هو معنى رد ومنع، وكانت تؤديه كلمة كفى كما في قولنا : كفك الله السوء، وكان يصح أن نجعل الكلمة في الخطبة محرفة عن هذا الفعل، فيكون الأصل اكفوا المهم، أي ردوه وامنعوه، ويكون المفعول الأول للفعل محذوفاً، والأصل اكفوا أنفسكم المهم، ولكني أستحسن أن يكون التحريف عن اكشفوا كما أبتناه في نص الخطبة، ويكون المعنى : أزيحوا عنهم عن أنفسكم يقتل هذا الطاغية.

ولهذه الخطبة نص في كتاب الإمامة والسياسة، ولكنه بعيد عن النصين اللذين رجعنا إليهما.

ويقول باحث معاصر^(١) :

« تحيط الرواية الإسلامية ظفر طارق في سل شريش بطائفة من التفاصيل الشائقة، فتقول لنا أولاً إن طارقاً خطب جنده قبل الموقعة، وألقى فيهم خطبته الشهيرة التي ما زال يحفظها الطلاب كنموذج من نماذج النثر المختار والتي يفتتحها بقوله : « أيها الناس ! أين المفر ؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ». ثم يبحث فيها جنده على القتال والاستشهاد في سبيل الله، ويرغبهم في ثمار النصر، ويحذرهم من عواقب التخاذل والتفرق. وتونه الرواية الإسلامية بما كان لهذا الخطاب من أثر قوي في إذكاء همم المسلمين وشجاعتهم، ودفعهم إلى طريق النصر؛ على أنه يسوغ لنا أن نرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق، فإن معظم المؤرخين المسلمين، ولا سيما المتقدمين منهم لا يشير إليها، ولم يذكرها ابن عبيد الحكم ولا البلاذري، وهما أقدم رواة الفتوحات الإسلامية، ولم تشر إليها المصادر الأندلسية المتقدمة، ولم يشر إليها ابن الأثير وابن خلدون، ونقلها المقرئ عن مؤلف لم يذكر اسمه، وهي على العموم أكثر ظهوراً في كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين. ليس بعيداً أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة، فنحن نعرف أن كثيراً من قادة الغزوات الإسلامية الأولى كانوا يخطبون جندهم في الميدان، ولكن في لغة هذه الخطبة وروعة أسلوبها وعبارتها ما يحمل على الشك في نسبتها إلى طارق، وهو بربري لم يكن عريقاً في الإسلام والعروبة، والظاهر أنها من إنشاء بعض المتأخرين صاغها على لسان طارق مع مراعاة ظروف المكان والزمان ».

ومهما كان، فهذه الخطبة تعد من الأدب الأندلسي تجوزاً، لأن

(١) مجلة الثقافة ١٢-١٣-١٩٤٣

طارقاً لم يكن بعد قد عاش في الأندلس، أو تأثر ببيتها، وإنما كان لأول مرة يضع قدميه على أرضها، فهي من الأدب العربي عامة لا الأندلسي خاصة، أو هي صورة للخطابة في المشرق وحده.
خطب للداخل :

١ — يروى أن عبد الرحمن الداخل كان ببعض مجالسه، فمثل بين يديه رجل من جند قنسرين يستجديه قائلاً له : يا ابن الخلائف الراشدين، والسادة الأكرمين، إليك فررت، وبك عدت، من زمن ظلوم، ودهر غشوم، قل المال، وكثر العيال، وشعت الحال، فصير إلى نذاك المال، وأنت ولي الحمد والمجد، المرجو للرفد... فأجابه عبد الرحمن على الفور :

قد سمعنا مقاتلك، وقضينا حاجتك، وأمرنا بعونك على دهرك، على كرهنا لسوء مقاتلك. فلا تعودن — ولا سواك — لمثله من إراقة ماء وجهك، بتصريح المسألة، والإلحاح في الطلبة، وإذا ألم بك خطب، أو حزبك أمر، فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك، كيما تستر عليك خلعتك، وتكف شمات العدو عنك، بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا، عز وجهه بإخلاص الدعاء، وصدق النية.

٢ — وحدث بعض مواليه الخاصين به، قال : دخلت عليه على إثر قتله ابن أخيه المغيرة بن الوليد، وهو مطرق شديد الغم، فرقع رأسه إلي، وقال :

« ما عجبني إلا من هؤلاء القوم ؟ سعينا فيما يرضعهم في مهاد الأمن والنعمة وخاطرنا فيه بحياتنا، حتى إذا بلغنا منه مطلوبنا، وبسر الله أسبابه، أقبلوا علينا أمام السيوف، ولما أوبناهم، وشاركناهم فيما أفردنا الله به، حتى أمتوا، ودرت عليهم أخلاف النعم، هزوا أعطافهم، وشمخوا بأنافهم، وسموا إلى العظمى، فنازعونا فيما منحتنا الله، فخذلهم بكفرهم النعم، إذ أطلعنا على عوراتهم، فعالجناهم قبل أن يعاجلونا،

وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا بالبريء منهم، وأساء أيضاً ظنه فينا، وصار يتوقع من تغييرنا عليه ما نتوقع نحن منه، وإن أشد ما علي في ذلك أخي، والد هذا المخذول، كيف تطيب لي نفس بمجاورته بعد أن قتل ولده، وقطع رحمه، أم كيف يجتمع بصري مع بصره، اخرج إليه الساعة، فاعتذر إليه، وخذ خمسة آلاف دينار فادفعها إليه، واعزم عليه في الخروج عني، من هذه الجزيرة إلى حيث شاء من بر العدو.

٣ — وحكوا عنه أنه لما فتح سرقسطة، وتم له ما أمله من الفوز على أعدائه أقبل بعض خواصه يهتونه، فجرى بينهم أحد من لا يؤبه له من الجند، فهنأه بصوت عال، فقال له الأمير : والله لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ علي فيه النعمة من هو فوقني، فأوجب علي ذلك أن أنعم فيه علي من هو دوني، لاصلينك ما تعرضت له من سوء النكال. من تكون حتى تقبل مهنتاً رافعاً صوتك غير متلجلج، ولا متهيب لمكان الإمارة، ولا عارف بقيمتها، حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك؟! وإن جهلك ليحملك على العود لمثلها، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة. فقال الجندي : ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي، فتشفع لي حتى أتيت بمثل هذه الزلة، لا أعدمنيتها الله. فتهلل وجه الأمير، وقال : ليس هذا باعتذار جاهل، ثم قال : نهبونا على أنفسكم، إذا لم تجدوا من ينهنا عليها... ورفع مرتبته، وزاد في عطائه.

خطبة المنذر بن سعيد :

قالوا : رحل الناصر^(١) لدين الله من قصر الزهراء^(٢) إلى قصر

(١) فتح الطيب ص ١٧٢ ج ١.

(٢) هو عبد الرحمن الناصر لدين الله ثامن ملوك الأندلس، وأول من تلقب بالخلافة منهم، وكانت أيامه أيام جهاد، وكان عادلاً محسناً محباً للعلم، شغوفاً بالعمارة، توفي سنة ٣٥٠هـ.

قرطبة^(١) لدخول وفود الروم عليه، وقعد لهم في بهو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نيلاً، وقعد عن يمينه ولي العهد من يمينه، وقعد عن يساره منذر بن سعيد، وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي وغيرهم، وقد بسط صحن الدار أجمع بعناق البسط، وكرائم الدرانك^(٢)، وظللت أبواب الدار وحناياها بغالي الديجاج ورفع الستور.

فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ودفعوا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية العظمى، وهو في رق^(٣) مصبوغ بلون سماوي، مكتوب بالذهب بالخط الإغريقي، وداخل الكتاب مدرجة^(٤) مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقي أيضاً، فيها وصف هديته التي أرسل بها وعددها، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على وجه منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الملك وصورة ولده.

وكان الكتاب بداخل درج^(٥) فضة منقوش، عليه غطاء ذهب، فيه صورة الملك من الزجاج الملون البديع، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديجاج.

ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال أحب أن يقوم الخطباء

(٣) هي المدينة التي بناها الناصر.

(١) قرطبة : حاضرة الخلافة بالأندلس، وكانت أخت بغداد عزاً وعلواً وحضارة، وفيها المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمن الأموي سنة ٧٩٢م، وهو الآن الكنيسة الكندراتية.

(٢) الدرانك : العنقاص.

(٣) الرق : ما يكتب فيه، وهو جلد رقيق.

(٤) أدرجت الكتاب طويته.

(٥) أصل الدرج: السقيط الصغير تضع فيه المرأة متاعها وطيبها.

والشعراء بين يديه ليذكروا جلاله مقعده، وعظيم سلطانه، ويصفوا ما تهباً من توطيد الخلافة في دولته.

وتقدم إلى الأمير الحكيم ابنه ولي عهده بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء، فأمر الحكيم الفقيه محمد بن عبد البر الكيسانى بالتأهب لذلك، وإعداد خطبة بليغة يقوم بها بين يدي الخليفة، وكان يدعي من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره. وحضر المجلس السلطاني، فلما قام يحاول التكلم بما رأى حاله وبهره حول المقام وأبهة الخلافة، فلم يهتد إلى لفظة، بل غشي عليه وسقط إلى الأرض.

فقيل لأبي علي القالي — وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق وأمير الكلام، وبحر اللغة — قم فارقع هذا الوهي، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم انقطع القول بالقالي، فوقف ساكناً مفكراً في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه؛ فلما رأى ذلك منذر^(١) بن سعيد، قام، فوصل افتتاح أبي علي لأول خطبته بكلام عجيب، ونادى من الإحسان في ذلك المقام كل مجيب، يسحه سحا كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة، وبدأ من المكان الذي انتهى إليه أبو علي فقال: ":

« أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعماه والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه — فإن لكل حادثة مقاماً، ولكل مقام مقالاً، وليس بعد الحق إلا الضلال. وإني قد قمت في مقام كريم، بين يدي ملك عظيم، فاصغوا إلي — معشر الملأ — بأسماعكم، وأتقنوا عني بأفئدتكم، إن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت، وإن الجليل تعالى في سمائه، وتقدس بصفاته وأسمائه،

(١) كان إماماً فقيهاً خطيباً شاعراً فصيحاً، ولي القضاء بقرطبة أيام عبد الرحمن (٢٦٥-٣٥٥هـ).

(٢) الخطبة في نفع الطب ١٧٢-١٧٣-١ طبع المطبعة الأزهرية.

أمر كل يمه موسى صلى الله على نبينا وعلى جميع أنبيائه أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم، وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، وإني أذكركم بأيام الله عندهم وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين، التي لمت شعنتكم، وأمنت سريكم، ورفعت قوتكم، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم، ومستضعفين فقواكم، ومستدلين فنصركم، ولاه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير. فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بيمين سياسته إلى تمهيد كنف العافية، بعد استيطان البلاء، أنشدكم بالله معاشر الملأ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها؟ والسبل مخوفة فأمنها؟ والأموال منتهية فأحرزها وحصنها؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمرها؟ وتغور المسلمين مهتزمة فحماها ونصرها؟

فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم وشفى صدوركم، وصرت يداً على عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم، فأنشدكم الله، ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها؟ ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد، حتى يشره بالقوة والمهجة والأولاد، واعتزال النسوان، وهجر الأوطان، ورفض الدعة، وهي محبوبة، وترك الركون إلى الراحة، وهي مطلوبة، بطوية صحيحة، وعزيمة واجبة، وسلطان قاهر وجد ظاهر، وسيف منصور تحت عدل مشهور، متحملاً للنصب، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها ولم يبق لها غارب إلا جبه، ولا نجم لأهلها قرن إلا جذه، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، وبلغ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأفيين

والأدنين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق، وبلد سحيق، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلاً ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أمور باطنة خافية، دليلها قائم، وجفتها غير نائم، ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات. ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ الآية. وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب. ولكل نبأ مستقر. ولكل أجل كتاب. وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب. ولكل نبأ مستقر. ولكل أجل كتاب. فاحمدوا الله — أيها الناس — على آلائه. واسألوه المزيد من نعمائه. فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين — أيده الله بالعصمة والسداد؛ وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد — أحسن الناس حالاً. وأنعمهم بالآ، وأعزهم قراراً. وأمنعهم داراً وأكتفهم جمعاً. وأجملهم صنفاً. لا تهاجون ولا تذاون. وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون. فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم. والتزام الطاعة لخليفتككم وابن عم نبيكم ﷺ؛ فإن من نزع يداً من الطاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومرق من الدين، فقد خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين. وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها حفظ الأموال، وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء. وأن بقوام الطاعة تقام الحدود، وتوفى العهود، وبها وصلت الأرجام، ووضحت الأحكام. وبها سد الله الخلل، وأمن السبل، ووطأ الأكتاف، ورفع الاختلاف. وبها طاب لكم القرار، واطمأنت بكم الدار، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به. فإنه — تبارك وتعالى — يقول : ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ الآية. وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين و صنوف الملحدين الساعين في شق عصاكم وتفريق ملاكم. الآخذين مخاذلة دينكم، وهتك حريمكم، وتوهين دعوة نبيكم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين. أقول قولِي هذا وأختتم بالحمد

لله رب العالمين، مستغفراً الله الغفور الرحيم، فهو خير الغافرين.»

قال ابن سعيد : فصلب العليح، وغلب على قلبه. وقال : هذا كبير القوم، أو ليس القوم، وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه وثبات جنانه وبلاغة لسانه، وكان الناصر أشدهم تعجباً منه، وأقبل على ابنه الحكم ولم يكن يثبت معرفته، فسأله عنه فقال له : هذا منذر بن سعيد البلوطي، فقال : والله لقد أحسن ما شاء، ولئن أخرنى بعد لأرفعن من ذكره، فضع يدك يا حكم عليه واسخلصه، وذكرني بشأته فما للصنعة مذهب عنه، ثم ولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء، ثم توفي محمد بن عيسى القاضي فولاه قضاء الجماعة بقرطبة وأقره على الصلاة بالزهراء. ومن شعره في هذه الواقعة قوله :

مقالي كحد السيف وسط المحافل	فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكي ترتمي جمراته	كبارق رعد عند رعد الأنامل
فما دحضت رجلي، ولازل مقولي	ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازل
لخير إمام كان أو هو كائن	لمقتبل أو في العصور الأوائل
ترى الناس أفواجاً يؤمون بابيه	وكلهمو ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه	مخافة بأس، أو رجاء لنائل
فغش سالمًا. أقصى حياة، مؤملاً	فأنت رجاء الكل حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب	إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

وقال الناصر لابنه الحكم بعد أن سأله عن منذر بن سعيد : لقد أحسن ما شاء، فلئن كان حبر خطبته هذه وأعدّها مخافة أن يدور ما دار. فيتلافى الوهي. فإنه ليديع من قدرته واحتياطه. ولئن كان أتى بها على البديهة لوقتته فإنه لأعجب وأغرب، ولما فرغ منذر من خطبته أنشد :

هذا المقام الذي ما عابه فند	لكن قائله أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريباً كنت مطرفاً	لكنني منهم فاغتالني التكد

ويروى بدل هذا الشطر : ولا دهاني لهم بغي ولا حسد.
لولا الخلافة — أبقى الله حرمتها — ما كنت أرضى بأرض ما بها أحد
خطبة لابن الفخار :

ولما تألب بنو حسون على القاضي أبي محمد عبدالله الوحيدي
قاضي مالقة انبرى للدفاع عنه العالم الأصولي أبو عبدالله بن الفخار،
فقصده إلى حضرة الإمامة (مراكش) وقام في مجلس أمير المسلمين
يوسف بن تاشفين، وقد غص بأربابه فقال : « إنه لمقام كريم نبدأ
فيه بحمد الله على الدنو منه، ونصلي على خيرة أنبيائه، محمد الهادي
إلى الصراط المستقيم، وعلى آله وصحابه نجوم الليل البهيم؛ أما بعد،
فإننا نحمد الله الذي اصطفاك للمؤمنين أميراً، وجعلك للدين الحنفي
نصيراً وظهيراً، وتفزع إليك مما دهمنا في حماك، ونبت إليك ما لحقنا
من الضيم ونحن تحت ظل علاك، ويأبى الله أن يدهم من احتسى
بأمر المسلمين، ويصاب بضميم من أدرع بحصنه الحصين، شكوى
قمت بها بين يديك، في حق أمرك الذي عضده مؤيده، لتسمع منها
ما تختبره برأيك وتنقده، وإن قاضيك ابن الوحيدي الذي قدمته في
مالقة للأحكام، ورضيت بعدله فيمن بها من الخاصة والعوام، لم يزل
يدل على حسن اختيارك بحسن سيرته، ويرضي الله تعالى ويرضي الناس
بظاهره وسريته، ما علمنا عليه من سوء، ولا درينا له موقف خزي،
ولم يزل جارياً على ما يرضي الله تعالى ويرضيك ورضينا، إلى أن
تعرضت بنو حسون للطعن في أحكامه، والهد من أعلامه، ولم يعلموا
أن اهتضام المقدم راجع على المقدم، بل جمحوا في لجاجهم، فعموا
وصموا، وقلعوا وأمضوا ما به هموا، وإلى السحب يرفع الكف من
قد جف عنه مسيل عين أو نهر ». فملاً سمعه بلاغة أعقبت نصره،
ونصر صاحبه ! ».

خطبة مأثورة لابن تومرت :

يروى أن ابن تومرت قبل موته بأيام يسيرة استدعى هؤلاء المسمين بالجماعة من المصامدة، فلما حضروا بين يديه قام وكان متكئاً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على محمد نبيه ﷺ، ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم والعزيمة في أمرهم، وأن أحدهم كان لا تأخذه في الله لومة لائم، وذكر من حد عمر رضي الله عنه ابنه في الخمر وتصميمه على الحق في أشباه لهذه الفصول، ثم قال: فانتقرضت هذه العصابة نضر الله وجوهها وشكر لها سعيها وجزاها خيراً عن أمة نبيها، وحيطت الناس فتنة تركت الحليم حيراناً والعالم متجاهلاً مداهنأً، فلم ينتفع العلماء بعلمهم بل قصدوا به الملوك واجتلبوا به الدنيا وأمالوا وجوه الناس إليهم في أشباه لهذا القول إلى هلم جراً، ثم إن الله سبحانه وله الحمد من عليكم أيها الطائفة بتأييده، وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيد، وقبض لكم من ألكم ضلالاً لا تهتدون، وعمياً لا تبصرون، ولا تعرفون معروفاً ولا تنكرون منكراً، قد فشت فيكم البدع واستهوتكم الأباطيل وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات أنزه لسانني عن النطق بها، وأربأ بلفظي عن ذكرها، فهذاكم الله به بعد الضلالة، وبصركم بعد العمى، وجمعكم بعد الفرقة، وأعزكم بعد الذلة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيورثكم أرضهم وديارهم، ذلك بما كسبته أيديهم، وأضرته قلوبهم، وما ربك بظلام العبيد، فجددوا لله سبحانه خالص نياتكم، وأروه من الشكر قولاً وفعلأ ما يركي به سعيكم ويتقبل أعمالكم وينشر أمركم، واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء، وكونوا يداً واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم وكثر أتباعكم، وأظهر الله الحق على أيديكم، وإلا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصغار واحقرتكم العامة فتخطفتكم الخاصة، وعليكم في جميع أموركم بمنزج الرأفة بالغلظة واللين بالحنف، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر

هذه الأمة إلا على الذي صلح عليه أمر أولها، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم وجعلناه أميراً عليكم، هذا بعد أن بلونا في جميع أحواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه، واختبرنا سريرته وعلانيته فرأيناه في ذلك كله ثبتاً في دينه متبصراً في أمره، وإنني لأرجو أن لا يخلف الظن فيه، وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه؛ فإن بدل أو نكص على عقبيه أو ارتاب أمره ففي الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير والأمر أمر الله، الله يقلده من شاء من عباده، فبايع القوم عبد المؤمن، ودعا لهم ابن تومرت ومسح وجوههم وصدورهم، وتوفي ابن تومرت بعد عهده ببسير، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن.

خصائص الخطابة الأندلسية

كثرت الدواعي للخطابة في الأندلس منذ دخلها العرب فاتحين : فالعروبة والموهبة وفصاحة اللسان والذكاء وكثرة الحفظ والحرية التي كانوا يعيشون فيها، وحاجتهم إلى الخطابة في تحميس الجند والحض على الجهاد حين الفتح، ثم في النضال والمباهاة والفخر والانتصار حين اشتدت العصبية في عهد الولاة، ثم في أمور الاجتماع والسياسة في عصر الأمويين، ثم في المحاضرة والمناظرة وما إليها في عصر الطوائف، ثم في الدعوة إلى قتال الإيبانيين والمسيحيين الذين كانوا يعملون على طرد العرب من الأندلس في عصر بني الأحمر. كل ذلك ضاعف الحاجة إلى الخطابة، ونهضتها، وازدهارها، وقوتها، ونوع في أغراضها وموضوعاتها، فشملت أغراضاً شتى من شئون الحياة؛ فكان منها الخطابة السياسية التي تلقى في تفصيل خطة يسير عليها الخليفة أو الأمير، أو تحريض على قتال وتنفير من فرار؛ وكان منها الخطابة الاجتماعية، التي تقال في مختلف المناسبات العامة، والمحافل الجامعة، كخطب الاستقبال والتهنئة والاستشفاع والاعتذار، وتأيد الفضائل الخلقية، ونشر المبادئ السامية؛ وكان منها الخطب الدينية، التي تحت على التمسك بأهداب الدين، والتحلي بتعاليمه، وإتباع أوامره واجتناب نواهيه، والتي يكثر ورودها في المناسبات الدينية كالجمع والأعياد والمواسم؛

وكان منها « الوصايا » التي ترتبط مع الخطب بأقوى رابطة، وتشابها في أكثر الأمور. ثم ذاعت بعد ذلك المحاورات والمحاضرات والمناظرات وهي من فنون الخطابة وألوانها، وشملت كذلك الانتصار لرأي، أو لإنسان، أو لمذهب، أو لعصية، كما شملت الدفاع عن النفس بالبلغ من الكلام.

ولقد كان للخطابة في الأندلس منزلة كبيرة، واحترام شديد، وكانت ترفع صاحبها إلى أعلى المناصب وأسمى المراتب، ولذلك كان لقب الخطيب من ألقاب التشريف والتعظيم، وأضيف القضاء إلى الخطابة. فبه شأنها، وعظم أمرها، وزادت الحفاوة بها.

وكانت الخطابة زمن الولاة الفاتحين، سهلة التراكيب قليلة الاستعارة، بعيدة عن الصنعة والابتذال والتكلف؛ فأما معانيها فكانت واضحة بعيدة عن تعمق الفلاسفة والخيال الشعري، وكان الغرض فيها يدور حول أغراض الدين، من الحض على الجهاد والصبر على منازل الخطوب وملافاة الحوادث بصدور رحب، وجنان مطمئن. وكان من أغراضها : التناصر بالعصية لما حدثت الفتنة بين اليمانيين والمضريين آخر ذلك العهد.

وفي دولة بني أمية وملوك الطوائف دخلها الوشي والصنعة، حتى غلب عليها السجع، على أنه قليل التكلف، وغلبت عليها الاستعارة الرقيقة، وكثر فيها الاقتباس، وما إليه من مظاهر الكتابة. ولم يكن في معانيها تعمق ولا صعوبة، لأنهم كانوا إلى أدب العرب أقرب منهم إلى علم الفلسفة والمنطق. فأما الأغراض : فقد اتسعت حين كثرت العلوم، وعني الناس بدرسها، والمناظرة فيها، وزخرت بحور الحضارة، وكثرت مناقبها، فلا بدع إذا تعددت أغراض الخطابة فقبلت في كل ما كان في المشرق من الدين والسياسة ومواقف المناظرة ومدارس العلم، ولم تفارقها الدعوة

إلى العvisية، فقد بقي الخلاف بين أهل تلك البلاد في كل عهد وكل جيل.

وأما في زمن المرابطين والموحدين : فقد ساءت حالها، وضعف شأنها، فدخلتها العبارات الممقوتة الضعيفة والتكلف المبتذل، من سجع غث واستعارة باردة مع الاستغناء عنها بالكتابة في بعض الأمر والاختصار بها على ما يتصل بالدين من الجمعة والإملاك وما إلى ذلك، واستعيض عنها بالمنشورات والأوامر والمراسيم.

لذلك كانت الخطابة عندهم شائعة^(١)، دوت بها ميادين قتالهم، واهتزت منابر محافلهم، ومجالس ملوكهم، وسفرت بها سفراؤهم، في إعلان حرب، أو عرض مهادنة أو صلح، وقد عرفوا لها قيمها، فقدموها على الشعر في الحقل الجامع، والمقام المشهود، فقد تقدم الناصر إلى ابنه الحكيم في إعداد الخطباء والشعراء، ليوم ملاقاته رسول ملك القسطنطينية، وأن يقدم الخطباء على الشعراء في الكلام، لذلك كان للخطابة شأن عند هؤلاء القوم، وبلغ من اهتمامهم بها أن تلقب علماءهم بالخطيب، كما تلقبوا بالفقيه.

وكان للخطابة مظهر آخر غير الحرب والصلح، وهو الوعظ الذي حرص عليه ملوكهم، لإصلاح شؤون رعيتهم، وكان عندهم بمنزلة سامية، كما كان عند أسلافهم من ملوك بني أمية بالمشرق، يحتفلون به ويكلمونه إلى أعظم قضااتهم، وكبار علمائهم. ولم يكن وعظهم فائراً ضيق المجال، موزعاً على المناسبات التي تمر في أيام العام، من حج وفطر وأضحى، بل كان منير المسجد مجتلى الحوادث العظام، من استبشار بنصر، أو حث على جهاد، أو ردع عن منكر حدث، وبدعة ظهرت، بل لقد أدت الخطابة ما تؤديه اليوم الصحافة الجريفة المطلقة من كل

(١) ٣/٥٢ الأدب العربي وتاريخه - محمود مصطفى.

قيد، فإن منذر بن سعيد، قاضي قضاة عبد الرحمن الناصر، وإمام الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة، لما رأى انهماك الخليفة في العناية بالزهراء، وزخرفة قصورها، حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد، خطب الناس في هذا المعنى، وعمد إلى تذكير الخليفة، ووعظه وتقريره، على ما فرط في جنب الله، فابتدأ خطبته بقوله تعالى: ﴿ أتيتون بكل ريع آية تعبثون؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾^(١) ووصل ذلك بكلام جزل، وقول فصل، جاش به صدره، وقذف به على لسانه بحره، وأفضى في ذلك إلى ذم المشيد والاستغراق في زخرفته، والسرف في الإنفاق عليه، فجرى في ذلك طلقاً^(٢) وتلا قوله تعالى: ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير؟ أم من أسس بنيانه على شفا جرف^(٣) هار فانهار به في نار جهنم؟! والله لا يهدي القوم الظالمين. لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم، والله عليم حكيم ﴾^(٤) وأتى بما شاكل المعنى من التخويف بالموت، والتحذير منه، والدعاء إلى الله عز وجل في الزهد من هذه الدنيا، والحض على اعتزالها، حتى بكى الناس، وخشعوا وضجوا وتضرعوا، فعلم الخليفة أنه المقصود، فاستخذى، وبكى، وندم على ما كان منه، واستعاذ بالله من سخطه، إلا أنه وجد على المنذر، وشكا ذلك إلى

(١) الريع: المكان المرتفع أو الطريق أو المنعرج منه في الجبل. الآية هنا: برج الحمام، أو أي بناء مرتفع. المصانع: مأخذ الماء، أو القصور المشيدة، أو الحصون. النعم (بالتحريك ويسكن): الإبل والشاه، أو خاص، بالإبل والجمع أنعام، وجمع الجمع أناعيم. شيد البناء: رفعه، وكذلك شاده في بعض كلام العرب.
(٢) جرى طلقاً (بسكون اللام): غير مفيد. أما جرى القرس طلقاً أو طلقين (بالتحريك) فمعناه شوطاً أو شوطين.
(٣) الجرف: بضمين ويسكن ما جرفه السيل من الوادي، وهار من هار البناء: أن هدمه فهار فهو هائر، وهار مقلوب هائر.

ابنه الحكم، فقال له الحكم : وما يمنعك من عزله ؟ فزجره ، وانتهره ، وقال : بل يصلي بالناس حياته وحياتنا.
ومن أذيع الخطب الأندلسية شهرة خطبة منذر بن سعيد البلوطي^(١)
أمام وفد الروم، وقد ذكرناها آنفاً.

(١) كان كما يقول بقوت في معجم الأديباء : كان نحويًا فاضلاً وخطيباً مصقلاً، وشاعراً بليغاً، ولد سنة خمس وستين ومائتين، ورجل فطن جماعه من العلماء والأدباء، وجلب في رحلته كتاب : الأشراف في اختلاف العلماء رواية عن مؤلفه ابن المنذر النيسابوري، وكتاب العين للخليل رواية أبي العباس ولاد، واتصل بعد الرحمن الناصر فحفظه عنده؛ ولما توفي الناصر وولي ابنه الحكم أقره على القضاء، واستغنى غير مرة عما أعفاه، وكان وفوراً صلياً في الحكم مقدماً في إقامة العدل والحق، وإزهاق الجور والباطل، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر له كتب في السنة والورع، والرد على أهل الأهواء والبدع، ومن مصنفاته المتناولة : أحكام القرآن، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وله رسائل وخطب مجبوعة وأشعار متفرقة مطبوعة. وتوفي منذر ابن سعيد سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

وكان كما يذكر الفتح بن خاقان في « مطمح الأنفس » : آية حركة في سكون، وبركة لم تكن معدة ولا تكون، وآية سفاقة في تحلم، وجهامة ورع في طي نيسم إذ جد تجرد، وإذا هزل نزل، وفي كلنا الحائنين لم ينزل للورع عن مراقب، ولا اكتسب إثماً ولا احتقبت.. وناهيك من عدل أظهر، ومن فضل اشتهر، ومن جور قبض، ومن حق رفع، ومن باطل خفض، وكان مهيباً طيباً صارماً غير جبان ولا عاجز، ولا مراقب لأحد من خلق الله في استخراج حق ودفع ظلم. وكان كذلك شاعراً، ومن شعره يخاطب الغافل عن طاعة الله :

كم تصابي، وقد علاك المشيب	وتعاسى عمدا وأنت اللبيب ؟
كيف تلهو، وقد أذاك نذير	إن يوم الحمام منك قريب ؟
يا سفيها قد حان منه رحيل	بعد ذاك الرحيل يوم عصب
إن للموت سكرة، فارتقيها	لا يداويك — إن أذاك — طيب!
بأمسور المعساة أنت عليهم	فاعملن جاهداً لها يا رتيب
وتذكر يوماً تحاسب فيه	إن من يذكر فسوف يتيب!
ليس من ساعة من الدهر إلا	للمنايا عليك فيها رتيب

ويغضب بعض الباحثين من شأن هذه الخطبة، ويجعلونها قريبة من الخطب الدينية.

ولمنذر خطبة أخرى مأثورة، يروى أنه أصاب الأندلس في عهد الناصر لدين الله أمير المؤمنين قحط شديد، فرأى القاضي الفقيه، الخطيب الواعظ الزاهد، منذر بن سعيد البلوطي، أن يفزع الناس إلى ربهم طلباً للرحمة والسقيا، وأن يصلوا صلاة الاستسقاء، فدعاهم إلى أن يخرجوا حفاة عراة أذلة إلى العراء، يبالبغون في الرجاء، ويلحون في الدعاء، ويسألون الله من رحمته وفضله؛ وتأهب البلوطي لذلك فصام بين يديه ثلاثة أيام تنفلاً وتطهيراً وإنابة واستجداء ورهبة، واجتمع خلق كثير من الأندلسيين بالمصلى الجامع في قرطبة، واعتلى الخليفة سطح قصره ليشترك الناس في الدعاء إلى الله تعالى، ووقف البلوطي الخطيب بين هذه الجموع المترصة وقد شخصوا إليه بأبصارهم، فقال :

« أيها الناس ! سلام عليك، كتب ربكم على نفسه الرحمة، أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم. أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز.. فما أتم الخطبة حتى ظهر الغيث.

=ويقول في الزهد :

ثلاث وستون قد حزنها	فماذا تؤمل، أو تنتظر !!
وحل عليك نذير المشيب	فما ترعوي، بل وما تزدجر !
تسر لياليك مرأ حياً	وأنت على ما أرى مستمر !
فلو كنت تعقل ما ينقصي	من العمر ما اعتضت خيراً بشر
فما لك لا تستعد إذن	لندار المقام، ودار المقر ؟
أترغب عن مفاجأة المنو	ن، وتعلم أن ليس منها وزر ؟
فإما إلى جنة أزلست	وإما إلى سقر تستعر !!

ولما انتشر العلم في بلاد الأندلس، وتعلق الناس بأهدابه، وأقبلوا على المناقشات والمناظرات في مجلس الخلفاء وغيرها مدة بني أمية وزمن ملوك الطوائف تعددت أغراض الخطابة، وتغيرت أساليبها، وتطرفت إليها الصناعة، وامتألت بالسجع على أثر انتشار ذلك في الكتابة الثرية. وبقيت على هذه الحال إلى قيام ملوك البربر. ثم انطفأت شعلة الحماسة في النفوس، وحمدت قوة التفكير على أثر تعصب البرابرة وجهلهم. فانحطت منزلة الخطابة واقتصر فيها على الوعظ في المساجد...

وقد كان هناك جماعة من مشهوري الخطباء مثل: الوليد بن عبد الرحمن بن غانم من خطباء محمد بن عبد الرحمن الأموي، وعبدالله الفخار زمن المرابطين، وغيرهم من الأمراء.

ولكن شأن الخطابة لم يصل إلى ما كان عليه في بلاد المشرق، ولم يعرف من خطباء الأندلس مثل: زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف، أو الخليفة المنصور، ممن كان يحسب كلامهم من الكلام الجيد المنثور البليغ.

أعلام أندلسية

— ١ —

أحمد ابن عبد ربه الأندلسي
٢٤٦—٣٢٨هـ

حياته وأدبه :

أديب الأندلس وشاعرها أبو عمرو شهاب الدين أحمد بن محمد ابن عبد ربه. ينتهي نسبه إلى سالم مولى هشام بن عبد الرحمن الداخل.

كانت ولادته في العاشر من رمضان سنة ٢٤٦هـ. ونشأ بمدينة قرطبة حاضرة الأندلس في عهد بني مروان العصر الذهبي لتلك البلاد، وكان في شبابه لاهياً ولوعاً بالغناء. ولكن ذلك لم يمنعه الدرس والتحصيل، فقد درس علوم العربية وروى الشعر، وحفظ أيام العرب وأخبارها ونوادرها، ونظر في اللغة والنحو. فنبغ في جميع ذلك، على أن درس علوم الدين كما كان الشأن في علماء الأندلس وأدبائها، فهم لم يكونوا يقتصرون على باب واحد من العلم. ولكن امتاز في علوم الشريعة حتى عد فقيه الأندلس في زمانه، إلى جانب امتيازه الأدبي الذي قل أن يشارك فيه، مما خلده له كتابه العظيم : « العقد الفريد ».

وقد قال الشعر في حدائته يغذي به عاطفة اللهو التي حدثتك في شأنها. وقد برع في نظمه لأشعار الصبا واللهو ما بين قصائد ومقطعات في رقة وإمتاع كان يحمل المتنبي — على اعتداده وكبره — أن يقول في وصفه : « مليح الأندلس »، ولكن أحمد أفلح في كبره عن ذلك وعارضه بزهديات سماها المحصنات، تفاؤلاً بأن الله سبحانه يمحص بها ذنوبه.

وله في مديح بني مروان الكثير، لقد عاصر أربعة منهم ومدحهم جميعاً. وقد بقي بقرطبة رئيساً سيداً حتى أصيب بالفالج. ثم مات بعد أن رزح تحت أعبائه عدة سنين، وقد خلف ديوان شعر مفقود، وكتاب اللباب، والكتاب الخالد الذي رفع رأس الأندلس : « العقد الفريد ».

وهذا الكتاب مشهور متداول، ولولا ما خلفه عيب النساخ والمطابع لم يكن كتاب من كتب الأدب أحق منه بالاطلاع وكثرة الرد والنظر، ومهما يكن فإنه مصدر من أهم مصادر كتب الأدب قل أن تجد له نظيراً في ترتيبه وتبويبه وحسن تخير ما فيه من درر الأدب وروائمه — يرجع إليه الأديب واللغوي والنحوي، والعروضي، والمؤرخ والقصاص، والجاد والهازل.

فالكتاب موسوعة أدبية لا تكاد تغادر شيئاً مما يهم الباحث في الأدب وفي لغة العرب^(١). وإن تعجب فإن مؤلفه أندلسي بدون أدب الشرق بما لا يقل عن أقداز المشرق إن لم يزد عليهم — جمع فيه أخبار المشرق وكتابه وأدبائه ليتحف بها أهل وطنه، إلا أن اشتهاره

(١) وقد دل البحث على أن كثيراً مما اجتمع في هذا الكتاب قد عصفت الأيام بمصادره الأولى وبقي العقد خلفاً منها، لا غناء عنه ولا كفاء له. فها هي ذي مشاورة المهدي لأهل بيته مثلاً وعطب الوفود وغير ذلك لا تجدوها في كتاب قبل ذلك.

وجزالة فائدته، جعلاه مرجع أهل المشرق، حتى عدوه من أركان الأدب عندهم، فأقبلوا على دراسته بشغف، وهو يعد في عصرنا أستاذ الكثير من أدبائه هو ومقدمة ابن خلدون.. وفي الكتاب بعض ما أخذ على نقله لبعض أخبار المشرق، وعدوه أنه أديب راوية يستطرف ويتخير، وليس من موضوعه التحريات العلمية، ولا التمحيصات المنطقية، فهي غير مهمة الأديب، ولا سيما بين السابقين.

وكان ابن عبد ربه من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس، وكتابه «العقد الفريد» من الكتب الممتعة، حوى من كل شيء، وجزأه إلى خمسة وعشرين كتاباً كل منها جزآن فهو خمسون جزءاً، وقد سمي كل كتاب منها باسم جوهرة من الجواهر، وذكر فيه أخباراً عديدة عن تاريخ العرب السياسي والأدبي وكثيراً من الشعر والحكايات والنوادر وغير ذلك، ونذكر هنا عنوان كل كتاب :

- الكتاب الأول : اللؤلؤة، في السلطان
- الكتاب الثاني : الفريدة، في الحروب.
- الكتاب الثالث : الزبرجدة، في الأجواد والأصفاد.
- الكتاب الرابع : الجمانة، في الوفود.
- الكتاب الخامس : المرجانة في مخاطبة الملوك.
- الكتاب السادس : الياقوتة، في العلم والأدب.
- الكتاب السابع : الجوهرة، في الأمثال.
- الكتاب الثامن : الزمردة، في المواعظ والزهد.
- الكتاب التاسع : الدرّة، في التعازي والمراتي.
- الكتاب العاشر : اليتيمة، في النسب وفضل العرب.
- الكتاب الحادي عشر : العسجدة، في أعلام الأعراب.
- الكتاب الثاني عشر : المجنبة، في الأجوبة.
- الكتاب الثالث عشر : الواسطة، في الخطب.

الكتاب الرابع عشر : المجنبة الثانية، في التوقيعات والفصول والصدور
وأخبار الكتبية.
الكتاب الخامس عشر : العسجدة الثانية، في الخلفاء وتاريخهم
وأيامهم.
الكتاب السادس عشر : اليتيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج
والبرامكة والعتالبيين.
الكتاب السابع عشر : الدرّة الثانية، في أيام العرب ووقائعها.
الكتاب الثامن عشر : الزمردة الثانية، في فضائل الشعر ومقاطعته
ومخارجه.
الكتاب التاسع عشر : الجوهرة الثانية، في أعاريض الشعر وعلل
القوافي.
الكتاب العشرون : الياقوتة الثانية، في الألحان واختلاف الناس فيها.
الكتاب الحادي والعشرون : المرجانة الثانية، في النساء وصفاتهم.
الكتاب الثاني والعشرون : الجمانة الثانية، في المتنبيين والممروزيين
والبخلاء والطفيليين.
الكتاب الثالث والعشرون : الزبرجدة الثانية، في طباع الانسان وسائر
الحيوان وتفاضل البلدان.
الكتاب الرابع والعشرون : الفريدة الثانية، في الهيئات واللباس والطعام
والشراب.
الكتاب الخامس والعشرون : اللؤلؤة الثانية، في الهيئات واللباس
والتحف والفكاهات والملح.

ويقول ابن عبد ربه في مقدمة كتابه : « وبعد فإن أهل كل طبقة
وجهاذة كل أمة قد تكلموا في الأدب، وتفلسفوا في العلوم على كل
لسان ومع كل زمان، وإن كل متكلم منهم قد استفرغ غايته وبذل
مجهوده في اختصار معاني المتقدمين واختيار جواهر ألفاظ السالفين،

وأكثرها في ذلك حتى احتاج المختصر منها إلى اختصار والتمخير إلى اختيار، ثم رأيت آخر كل طبقة وواضح كل حكمة ومؤلفي كل أدب أعذب ألفاظاً وأسهل بنية وأحكم مذهباً وأوضح طريقة من الأول، لأنه ناقض متعقب، والأول باد متقدم، فليتنظر الناظر إلى الأوضاع المحكمة والكتب المترجمة بعين إنصاف ثم يجعل عقله حكماً عادلاً قاطعاً، فعند ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع طيبة المنبت زكية الثمرة يانعة الثمرة، فمن أخذ بنصيبه منها كان على إرث من النبوة ومنهاج من الحكمة، لا يستوحش صاحبه ولا يضل من تمسك به.. وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان فكان جواهر الجواهر ولياب اللباب، وإنما لي فيه تأليف الاختيار، وحسن الاختصار وفرش لدور كل كتاب وما سواه فمأخوذة من أفواه العلماء ومأثور عن الحكماء والأدباء.

وقد نظرت في بعض الكتب الموضوععة فوجدتها غير متفوقة في فنون الأخبار ولا جامعة لجمال الآثار فجعلت هذا كافياً جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها وتوافقها في مذاهبها، وقرنت بها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور، وسميته كتاب العقد الفريد، لما فيه من مختلف جواهر الكلام، مع دقة المسلك وحسن النظام، وجزأته على خمسة وعشرين كتاباً، كل كتاب منها جزآن، فذلك خمسون جزءاً في خمسة وعشرين كتاباً، قد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد، فأولها كتاب اللؤلؤة في السلطان، ثم كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها، ثم كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد، ثم كتاب الجمانة في الوفود، ثم كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك ثم كتاب الياقوتة في

العلم والأدب، ثم كتاب الجوهرة في الأمثال ثم كتاب الزمردة في المواعظ والزهد، ثم كتاب الدرّة في التعازي والمراثي، ثم كتاب البيّمة في النسب وفضائل العرب ثم كتاب المسجدة في كلام الإعراب، ثم كتاب المجنية في الأجوبة ثم كتاب الواسطة في الخطب، ثم كتاب المجنية الثانية في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة، ثم كتاب المسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأيامهم ثم كتاب البيّمة الثانية في أخبار زياد والحجاج والطلبيين والبرامكة، ثم كتاب الدرّة الثانية في أيام العرب ووقائعهم، ثم كتاب الزمردة الثانية في فضائل الشعر ومقاطعته ومخارجه، ثم الجوهرة الثانية في أعراب الشعر وعلل القوافي ثم كتاب الباقوتة الثانية في الألحان واختلاف الناس فيه، ثم كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهم، ثم كتاب الجمانة الثانية في المتنبين والموسومين والبخلاء والطفيليين، ثم كتاب الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان، ثم كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب، ثم كتاب اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح.

منزله في الأدب الأندلسي :

يقول عنه ياقوت في معجم الأدياء : « كان لأبي عمرو بالعلم جلالة، وبالآداب رياسة وشهرة، مع ديانة وصيانة، واتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نفاق؛ فساد بعد الخمول، وأثرى بعد الفقر، وأشير إليه بالفضل، إلا أنه غلب عليه الشعر.

وأكثر شعر ابن عيد ربه وأجمله في الوصف والغزل، وهو يجمع بين جزالة المشرقيين وعذوبة الأندلسيين، ويكبر شعره وأدبه أدياء المشاركة، يروي ابن الخطيب أن الوليد الأندلسي لما حج عرج في منصرفه على مصر، فلقى بها أبا الطيب المتنبّي في جامع عمرو، فأفاض في الحديث، ثم قال المتنبّي : ألا تنشدني لمليح الأندلس ؟ يريد صاحبنا

ابن عبد ربه، فأنشده الوليد شيئاً من شعره، فاستجاده واستعاده، ثم قال: «يا ابن عبد ربه لقد تأتيتك العراق حبواً».

ولابن عبد ربه فضيلة السبق إلى اختراع الموشحات، هو ومقدم ابن معافر، وله طبع في الشعر القصصي، الذي كان من أروع ما نظم فيه بالعربية أرجوزته في تاريخ الخليفة الناصر الأموي (٣٠٠-٣٥٠هـ)، وإن كانت تخلو من خيال القصص وعذوبة الملحمة وفن التصوير، وقد ذكرها ابن عبد ربه في الجزء الثاني من كتابه «العقد الفريد»، وله أشعار سماها «المحمصات»، وهي في الزهد والتوبة، وقد نقض فيها كل قطعة قالها في الغزل واللهو بقطعة من بحرها ورويها في الزهد والتوبة والموعظة، وكان ابن عبد ربه شاعراً مكثراً، وشاهد الحميدي من ديوانه عشرين جزءاً ونيفاً من جملة ما جمع للحكم ابن عبد الرحمن الناصر وأكثرها بخطه، وفي كتابه «العقد» كثير من نماذج شعره، ويقول في مقدمة هذا الكتاب: «وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها، وتوافقها في مذاهبها، وقرنت منها غرائب من شعري، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته، وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمثور...» وكتابه العقد صورة لأدب المشرق، وليس فيه عن الأندلس وأدبها شيء، ولما سمع الصاحب بن عباد بهذا الكتاب وطالعه قال: «هذه بضاعتنا ردت إلينا، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، فإذا به مشتمل على أخبار بلادنا».

وفي ابن عبد ربه يقول الثعالبي في كتابه «التيمة»: «ابن عبد ربه أحد محاسن الأندلس علماً وأدباً ونيلاً، وشعره في غاية الجزالة والحلاوة، وعليه رونق البلاغة والطلاوة».

وقد ترجم لابن عبد ربه كثيرون منهم: ابن خلكان في الجزء الأول من كتابه «وفيات الأعيان»، وياقوت الحموي في الجزء الثاني

من كتابه « معجم الأدباء »، والضبي في كتابه « بغية الملتبس » — ص ١٣٧ — والثعالبي في الجزء الأول من بئمة الدهر، ولقي كتابه العقد انقريد عناية العلماء والأدباء في كل جيل.

ألوان من أدبه :

١ — من نثر ابن عبد ربه ما ذكره عن كتابه ونهجه فيه، فقال : « ألفت هذا الكتاب، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب، ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجواهر، ولب اللباب، وإنما لي فيه الاختيار، ومأثور عن الحكماء والأدباء، واختيار الكلام أصعب من تأليفه.. وقد نظرت في بعض الكتب الموضوععة، فوجدتها غير متفوقة في فنون الأخبار، ولا جامعة لجمل الآثار، فجعلت هذا الكتاب كافياً جامعاً لأكثر المعاني التي تجرى على أفواه العامة، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر، تجانس الأخبار في معانيها وتوافقها في مذاهبا وقرنت بها غرائب من شعري ».

٢ — ومن شعره قوله :

اشرب على المنظر الأنيق	وامزج بريق الحبيب ربي
واحلل وشاح الكعاب رقفا	خوفاً على خصرها الرقيق
وقل لمن لام في التصابي	حل قليلاً عن الطريق

وله في الغزل :

بذمام الهوى أمت إليه	وبحكم العقار أقضي عليه
بأي من زها علي بوجه	كاد يدمي لما نظرت إليه
كلما علني من الراح صرفا	علني بالرضاب من شفثيه
ناول الكأس واستحال بلحظ	فسقتني عيناه قبل يديه

ومن شعره أيضاً قوله :

ودعنتني بسزورة واعتناق
وبدت لي فأشرق الصبح منها
يا سقيم الجفون من غير سقم
إن يوم الفراق أفضح يوم

وقال في وصف رمح وسيف :

بكل رديسي كأن سنانه
تقاصرت الآجال في طول منته
وذي شطب تقضي المنايا لحكمه
يسلل أرواح الكماة انسلاله

وقال في الغزل :

يا لؤلؤا يسبي العقول أنيقا
ما إن رأيت ولا سمعت يمثله
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه
يا من تقطع خصره من رقة

وآخر شعر نظمته قوله :

بليت وأبليتني الليالي بكرها
ومالي لا أبلى لسبعين حجة
ولست أبالي من تباريح علتي

وتوفي ابن عبد ربه بالفالغ عام ٣٢٨هـ، عن ٨٢ عاماً ودفن في قرطبة.
وقد ترجم الثعالبي في الجزء الأول من العقد لأحمد بن عبد ربه
الأندلسي، ولأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، ولسعيد بن أحمد
ابن عبد ربه الأندلسي ولعباس بن فرناس، ولمحمد بن الحسن الزبيدي
الأندلسي النحوي اللغوي ولابن دراج الأندلسي^(١) :

(١) يقول فيه الثعالبي : كان بالأندلس كالمصنعي بالشام، وهو أحد الفحول وكان يجيد
ما ينظم - ٢/٩٠ البيعة.

التجيبى القرطبي :

هو الشيخ أبو عبدالله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبى القرطبي، (٤٥٨-٥٢٩هـ)، الشهير بابن الحاج، قاضي الجماعة بقرطبة. روى عن أبي جعفر أحمد بن زرق الفقيه، وتفقه عنده، وقيد الغريب واللغة والأدب عن أبي مروان عبد الملك بن سراج، وسمع عن أبي عبدالله محمد بن فرج الفقيه، وعن أبي علي الغساني وغيرهم. وكان من جلة الفقهاء، وكبار العلماء، معدوداً في المحدثين والأدباء، بصيراً بالفتيا، رأساً في الشورى، وكانت الفتيا في وقته تدور عليه، لمعرفته وثقته وديانته، وكان معتنياً بالحديث والآثار، جامعاً لها، مقيداً لما أشكل من معانيها، ضابطاً لأسماء رجالها ورواتها، ذاكراً للغريب والأنساب، واللغة والإعراب، ولعالمها بمعاني الأشعار، والسير والأخبار. قال ابن بشكوال: قيد العلم عمره كله، وعني به عناية كاملة ما أعلم أحداً في وقته عني كعنايته، قرأت عليه وسمعت، وأجازني بخطه؛ وكان له مجلس بالجامع بقرطبة، يسمع الناس فيه، وتقلد القضاء بقرطبة مرتين، وكان في ذاته ليناً صابراً، طاهراً حليماً، متواضعاً، لم يحفظ له جور في قضية، ولا ميل بهوى، ولا إصغاء إلى عناية، وكان كثير الخضوع والذكر لله تعالى، ولم يزل آخر عمره يتولى القضاء بقرطبة، إلى أن قتل ظلماً بالمسجد الجامع بقرطبة، يوم الجمعة وهو ساجد، لأربع بقين من صفر، من سنة تسع وعشرين وخمسمائة. وكتابه في نوازل الأحكام من الدلائل على تقدمه في المعارف وبراعته.

أبو بكر بن العربي :

هو القاضي الشهير المحافظ الإمام أبو بكر محمد بن عبدالله بن عبدالله بن أحمد بن العربي المعافري الإشبيلي، (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ)، رحل إلى المشرق مع أبيه يوم الأحد، مستهل شهر ربيع الأول، سنة خمس وثمانين وأربعمائة، فدخل الشام، ولقي بها أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، وتفقه عنده، ورحل إلى الحجاز في موسم سنة تسع وثمانين، ودخل بغداد مرتين، وصحب أبا بكر الشاشي، وأبا حامد الطوسي الغزالي، وغيرهما من العلماء والأدباء، فأخذ عنهم، ثم صدر عن بغداد، ولقي بمصر والإسكندرية جماعة، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين، وقدم إلى إشبيلية بعلم كثير، لم يدخل به أحد قبله، ممن كان له رحلة إلى المشرق، ولذا نقل عنه أنه قال : كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به أنا والقاضي أبو الوليد الباجي، ولم يرحل غيري وغير الباجي، وأما غيرنا فقد تعب.

وكان من أهل التفتن في العلوم، متقدماً في المعارف كلها، متكلماً في أنواعها، حريصاً على نشرها. واستقضى بمدينة إشبيلية، فقام بما قلد أحمد قيام، وكان من أهل الصرامة في الحق، والشدة والقوة على الظالمين، والرفق بالمساكين، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه.

وتوفي رحمه الله بالعدوة، ودفن بمدينة فاس في ربيع الآخر، سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

ومن يديع نظمه، رحمه الله :

أتتني تونسي بالكفا فأهلا بها وتأتيها
تقول وفي نفسها حسرة أتكي بعين تراني بها
فقلت إذا استحسنت غيركم أمرت جفوني بتعذيبها

وقد وصفه ابن خاقان في «المطمح» فقال: علم الأعلام، الطاهر الأنواب الباهر الألباب، الذي أنسى ذكاء إيباس^(١)، وترك التقليد للقياس، وأنتج الفرع من الأصل؛ وغدا في يد الإسلام أمضى من النصل، سقى الله به الأندلس، بعد ما أجديت من المعارف، ومد عليها منه الظل الوارف، فكساها رونق نبله، وسقاها ريق وبه، وكان أبوه أبو محمد بإشبيلية بديراً في فلكتها، وصدراً في مجلس ملكها، واصطفاه معتمد بني عباد، اصطفاه المأمون لابن أبي داود، ولاه الولايات الشريفة، وبوأة المراتب المنيفة، فلما أقفرت حمص^(٢) من ملكهم وخلت، وألقتهم منها وتخلت، رحل به إلى المشرق، وحل فيه محل الخائف الفرق، فجال في أكنافه، وأجال قدام الرجاء في استقبال العز واستئنافه، فلم يسترد ذاهياً، ولم يجد كعمتده باذلاً واهياً، فعاد إلى الرواية والسماع، وما استفاد من إجمالة تلك الأطماع، وأبو بكر إذ ذاك في ثرى الذكاء قضيب ما دوح، وفي روض الشباب زهر ما صوح، فألزمه مجالس العلم رائحاً وغادياً، ولأزمه سائقاً إليها وحادياً، حتى استقرت به مجالسه، واطردت له مقايسه، فجد في طلبه، واستجد به أبوه منخرق أريه، ثم أدركه حمامه، ووارته (هناك) رجامه، وبقي أبو بكر منفرداً، وللطلب متجرداً، حتى أصبح في العلم وحيداً، ولم تجد عنه الرياسة محيداً، ففكر إلى الأندلس، فحلها والنفوس إليه متطلعة، ولأنبائه متسمعة، فناهيك من حظوة لقي، ومن عزة سقى، ومن رفعة سما إليها ورقى، وحسبك من مفاخر قلدها، ومن محاسن (أنس) أثبتها فيها وخلدها. وقد أثبت من بديع نظمه ما يهز أعطافاً، وترده الأوهام نطقاً، فمن

(١) هو إيباس بن معاوية قاضي البصرة لعمر بن عبد العزيز، المعروف بالركانة والفقهاء. وتوفي عام ١٢٩هـ.

(٢) المراد بها: إشبيلية من مدن الأندلس. سكن بها أهل حمص الشام عند الفتح، فسوموا بها.

ذلك قوله يتشوق إلى بغداد، ويخاطب أهل الوداد :

أمنك سرى الليل يخدع بالفجر
جلا ظلم الظلماء مشرق نوره
ولم يرض بالأرض البسيطة مسحبا
وحت مطايا قد مطاها بعزه
فصارت ثقلاً بالجلالة فوقها
وجرت على ذيل المجرة ذيلها
ومرت على الجرباء توضع فوقها
وسافت أربيع الخلد من جنة العلى
فما حذرت قيساً ولا خيل عامر
سقى الله مصرأ والعراق وأهلها

خيال حبيب قد حوى قصب الفخر
ولم يخبط الظلماء بالأنجم الزهر
فسار على الجوزا إلى فلك يجرى
فأوطأها قسراً على قنة النسر
وسارت عجلاً تتقي ألم الزجر
فمن ثم يبدو ما هناك لمن يسري
فأثار ما مرت به كلف البدر
فدع عنك رملا بالأنعم يستدري
ولا أضمرت خوفاً لقاء بني ضمير
وبغداد والشاميين منهمل القطر

ومن تأليف الإمام أبي بكر بن العربي المذكور : كتاب « القيس،
في شرح موطأ مالك بن أنس »، وكتاب « ترتيب المسالك، في شرح
موطأ مالك »، وكتاب « أنوار الفجر » (في تسعين سفرأ)، وكتاب
« أحكام القرآن » وكتاب « مراقي الزلف »، وكتاب « الخلافات »،
وكتاب « نواهي الدواهي »، وكتاب « سراج المرئدين »، وكتاب
« المشكلين » : مشكل القرآن والسنة، وكتاب « الناسخ والمنسوخ في
القرآن »، وكتاب « قانون التأويل » وكتاب « النيرين، في الصحيحين »
وكتاب « سراج المهتدين » وكتاب « الأمد الأفضى، بأسماء الله الحسنى
وصفاته العليا » وكتاب « في الكلام على » مشكل حديث السبحات
والحجاب »، وكتاب « العقد الأكبر، للقلب الأصغر »، و « تبيين
الصحيح، في تعيين الذبيح »، و « تفصيل التفضيل ».

البطيوسي :

من أعلام الأندلس ابن السيد البطيوسي وهو الفقيه الحافظ، الإمام، أبو محمد : هو عبدالله بن محمد بن السيد البطيوسي، وشلب بيضته، ومنها كانت حركة أبيه ونهضته؛ وفيها كان قرارهم، ومنها تم آسهم وعرارهم؛ ونسب إلى بطيوس، لمولده بها؛ ومن حيث كان فقد طبق الأرض علما، وملاها ذكاء وفهماً. قال فيه الفتح بن خاقان « في المطمح » : لو أن للأيام ألسناً ناطقة، وأوصافاً متناسقة؛ تردد فنون بيانها، كالطير ترجع على أفانها ما جرت إلى إنصافه، ولا درت بعض أوصافه؛ ولو أتى أمددت ببيان سبحان وأيدت تأييد لسان حسان، وأعارني ابن صوحان^(١) القصاحة، وعلمني خالد بن صفوان^(٢) إيضاحه، لما أعربت عن مقداره الرفيع، ولا أغربت بما أنحوه له من التعظيم والترفيح؛ فكيف بلسان (قد) فل غراره، وبنان قد ذوى زنده وعراره؛ وخاطر قد ارتعى في لجاج الأخطار، ووخز بأطراف القنا المخطار؛ فما تذل له عصي إحسانه، ولا تحل النوائب عقدة من لسانه، فحسبي أن أقصر من وصفه على لمحجه، وأعطر من عرفه بنفحه، فأقول : إنه ضارب قداح العلوم ومجيلها، وغرة أيماننا البهيمه وتحجيلها، لو أدركه قيس لما قضى للحلم وترأ ولا شفعاً، ولو عاصره ابن العاص لما ادعى ضراً ولا نفعاً، حلب الدهر أشطره، وتلا حروفه وأسطره، وخدم الرياضات، وعلم طرق السياسات، ونفق وكسد، ووقف وتوسد، وهو اليوم شيخ المعارف وإمامها، ومن في يديه مقودها وزمامها، لديه تنشيد

(١) يريد صعصعة بن صوحان من أصحاب علي بن أبي طالب، وكان من أخطب الناس. (انظر المعارف لابن قتيبة).

(٢) خالد بن صفوان بن عبدالله بن الأعمى المنقري التميمي البصري كان لسنا بيتاً خطيباً، عاش إلى قيام دولة بني العباس. (انظر المعارف).

ضوال الأعراب، وتوجد شوارد اللغات والإعراب، إلى مقطع دمت، ومنزع في النفاسة غير متتكث، وندى خرق به العوائد، وأورق عوده في يد الرائد، وعفاف كف، حتى عن الطيف، وحكى المحرمين بالخيف، ولقد نزلت منه بالتقي الطاهر، ولقيت منه ما لقي عوف بن محلم من ابن طاهر^(١)، ورأيت نار مكارمه تتألق، وبت كأنما على النار الندى والمحلوق، وله تحقق بالعلوم الحديثة والقديمة، وتصرف في طرقها المستقيمة، ما خرج بمعرفتها عن مضمار شرع، ولا نكب عن أصل السنة ولا فرع. وتوالياقه في الشروحات وغيرها صنوف، وهي اليوم في آذان الأيام شنوف. فمتها «المقتبس»، في شرح موطأ بن أنس. و«الافتضاب»، في شرح أدب الكتاب. وكتاب «التنبيه على السبب الموجب لاختلاف العلماء، في اعتقاداتهم وأرائهم، وسائر أغراضهم وأنحائهم»، وغير ذلك مما يشتمل عليه هذا الموضوع ويخفيه، ويوقف على تفسيره فيه. وقد أثبت من محاسنه التي تدور جريالاً، ما ينشي ويسكر، ويحمده الوسمي المبكر.

فمن ذلك أنه حضر مع القادر بالله بن ذي النون بمجلس الناعورة بطليطلة في المنية المتناهية البهاء والإشراق، والمباهية لزوراء العراق؛ التي ينفج شذاها العطر، ويكاد من الغضارة يمطر، والقادر بالله رحمه الله قد التحف الوقار وارتداه، وحكم العقار في جوده ونداه؛ والمجلس يشرق كالشمس في الحمل، ومن حواه يتهج كالنفس عند منال الأمل؛ والزهر العبق، وعلى ماء النهر مصطبيح ومغتيق؛ والدولاب بين كناقاة إثر حوار، أو كشكلي من حر الأوار؛ والجو قد عنبرته أنواؤه، والروض قد بللته أنداءه؛ والأسد قد ففرت أفواهاها، ومجت أمواهاها؛ فقال — يصف الحال :

(١) يشير إلى منزلة عوف بن محلم الشيباني عند عبدالله بن طاهر بن الحسين والي عراسان للمأمون، وكان من المختصين به، المقربين إليه.

يا منظرأ إن رمقت بهجته
 تربه مسك وجو عنبرة
 والماء كاللازورد قد نظمت
 كأنما جائل الحباب به
 تراه يزهى إذا يحيل به الـ
 تخاله إن بدا به قمرا
 كأنما ألبست حدائقه
 كأنما جادها فروضها
 لا زال في عزة مضاعفة

وله يصف فرساً، وهو مما أبدع في التمثيل له والتشبيه، وتبه خاطره
 فيه احسن تشبيه، وخلع عليه شيات لاحق والوجه، وعمه بالمحاسن
 وتوج، ونسبه إلى الخطار وأعوج^(١) :

وأقب من آل الوجه ولاحق
 ملك النواظر والقلوب بحسنه
 ذو منخر رجب وزور ضيق
 قصرت له تسع وطالت أربع
 وتراه أحياناً لعزة نفسه
 وكأنما سال الظلام بمتنه
 وكان راكبه على ظهر الصبا

ودعي ليلة إلى مجلس قد احتشد فيه الأتس والطرب، وقرع السرور
 نبعه بالغرب؛ ولاحت نجوم أكواسه، وقاح نسيم رنده وآسه؛ وأبدت
 صدور أباريقه أسرارها، وضمت عليه المجالس أزرارها؛ والراح يديرها
 أهيف وأوظف، والأمانى تجنى وتقطف، فقال :

(١) لاحق، والوجه، والخطار، وأعوج : أفراس مشهورة عند العرب بالعتق والكرم.

يا رب ليل قد هتكت حجابيه
يسعى بها أحوى الجفون كأنها
بدران : بدر قد أمتت غروبه
فإذا نعمت يرشف بدر غارب
حتى ترى زهر النجوم كأنها
والليل منحفض يطير غرابه

وقال يمدح بعض الأعيان، وهي قصيدة اشتملت على البلاغة :
لما بان مني ما تجن الأضالع
وهاجت لي الشوق الديار البلاقع
تلظي الحشا وارفض مني المدامع
أم المزن في جفني بالودق هامع
وفي الخد من ماء الثشون مراع
هو البدر أو بدر الدجي منه طالع
وإن لاح يوماً فالجيوب مطالع
بخديه من فتك الجفون وقائع
بسهم غدا من مهجتي وهو وادع
ولكنه ما حم لا بد واقع
إلى قلبه من قسوة الهجر شافع
فحاكت لمي الأحياب منه الطبايع
سجاياه أيام السرور الرواجع
تنافسها زهر النجوم الطوالع
ينير فتعشى البارقات اللوامع
فيصدق ظن أو يكذب طامع
فتجذبه نحو الملوك المطامع
يجاذبني فيك الهوى وينازع
تبدت لها فوق اللسان طلائع

أما إنه لولا الدموع الهوامع
وكم هتكت ستر الهوى أعين المها
خليلي ما لي كلما لاح بارق
هل الأفق في جنبي بالبرق لامع
ففي القلب من نار الشجون مصايف
وما حاج هذا الشوق إلا مهفف
إذا غاب يوماً فالقلوب مغارب
يضرج خديه الحياء كأنما
رمانى عن قوس المحاجر لحظه
وما زلت من ألاحظه متوقيا
يرق فتور اللحظ منه كأنه
كما رق بالآداب طبع محمد
رخيم حواشي الطرف حلو كأنما
أبا بكر استوفيت زهر محاسن
قدحت زناداً من ذكائك لم يزل
وما ذاك عن نيل لديك رجوته
ولا أنا ممن يرتضي الشعر خطة
ولكن قلباً بين جنبي قد غدا
طوى لك من محض الوداد كمائنا

أزعم^(١) في نظم البديع ولم يزل
 وأي مقال لي وقولك سائر وأي بديع لي ومنك البدائع
 وقال يتغزل، وتصرف فيه تصرف غيلان مي، ووصف كل حواء
 وحى، وذكر العشق، وارتاد الإبداع، حتى عدا به مصره، فأجاد معانيه :
 تأويه من همه ما تأوبا
 مرت مزن عينيه غداة تحملوا
 دموع هتكن الستر عن مضمع الجوى
 خليلي مالي كلما لاح بارق
 أونس بالنائين نوماً مشرداً
 ومن لي برد الخل إذ جدت النوى
 أفي كل حين أمترى غرب مقلة
 إذا عن لي ظبي بوجرة شادن
 وأرتاح للأرواح من نحو أرضها
 ولولا التهاب الشوق بين جوانحي
 ألا قاتل الله الهوى كيف قادني
 وما كنت أخشى أن أبيت معذبا
 وخذ ألقى دون شم رياضه
 أجدك لم تبصر تألق بارق
 إذا ما بدا في الجو أحمر ساطعا
 كأن الرياض الحو غب سمانه
 كأن الشقيق الغض والفجر ساطع

لك السبق فيه والورى لك تابع
 وأي بديع لي ومنك البدائع
 وقال يتغزل، وتصرف فيه تصرف غيلان مي، ووصف كل حواء
 وحى، وذكر العشق، وارتاد الإبداع، حتى عدا به مصره، فأجاد معانيه :
 تأويه من همه ما تأوبا
 مرت مزن عينيه غداة تحملوا
 دموع هتكن الستر عن مضمع الجوى
 خليلي مالي كلما لاح بارق
 أونس بالنائين نوماً مشرداً
 ومن لي برد الخل إذ جدت النوى
 أفي كل حين أمترى غرب مقلة
 إذا عن لي ظبي بوجرة شادن
 وأرتاح للأرواح من نحو أرضها
 ولولا التهاب الشوق بين جوانحي
 ألا قاتل الله الهوى كيف قادني
 وما كنت أخشى أن أبيت معذبا
 وخذ ألقى دون شم رياضه
 أجدك لم تبصر تألق بارق
 إذا ما بدا في الجو أحمر ساطعا
 كأن الرياض الحو غب سمانه
 كأن الشقيق الغض والفجر ساطع

تذكرت برقا بالعقيق وزينبا
 وأطمع بالثاوين قلباً معذباً
 به وبوصل الحبل أن يتقضيا
 أبي الوجد إلا أن تجود فتغربا^(٢)
 تذكرت من عنى الفؤاد وعذبا
 وتثنى عناني للصبيا نفحة الصبا
 لأمرع خدي بالدموع وأعشبا
 إلى مصرعي طوعاً وقد كنت معصبا^(٣)
 بعذب رضاب من حمى الثغر أشنبا
 من اللحظ هندا وللصدع عقربا
 يجد نشاطاً في ذرى الأفق أهدبا
 حسب الظلام أبوسا مذهبا
 تردين وشي العبقري المخلبا^(٤)
 حدود زهاها الحسن أن تنقبا

(١) يقال زعم يزعم (من باب شرف) : بمعنى ساد ورأس.
 (٢) يقال : أغرب السائق : إذ أكثر الغرب، أي العمل، وأغرب الحوض والإناء : ملاءما.
 (٣) المعصب من الإبل : الفحل الذي لا يتقاد.
 (٤) المخلب (كمعظم) : الكثير الوشي.

تمتع بريعان الشباب وظله فلا بد يوماً أن يبيننا ويذهبها
فما العيش إلا أن تروح وتغتدي محيا يراه سقمه أو محييا
وكتب إلى الكاتب أبي الحسن راشد يستدعيه إلى مجلس قد لاحت
شموس مداء وارتاحت نفوس ندامه :

عندي مشكود^(١) من الخمر عبق
فيه منى مصطبح ومغتبق
يحكي شذا المسك إذا المسك فتق
كأنه من خلقتك الحلو خلق
كأنما ككوسه تحت الغسق
في راحة الساقى نجوم تأتلق
تخالها وهي تظنى كالحرق
أحشاء صب ملكت من الحرق
ترى لدى المزج إذا الماء اندفق
فيها حباباً لآح كالدر النسق
وأنت أنسى والمفدى بالحدق
فاطلع طلوع القمر التم اتسق
في يومنا هذا إذا دجى الغي غسق
وما جداً قد حاز في السبق السبق
لله معنى طابق اسماً لك حق
توافقاً فيك إذا الإسم اتسق

وقال في الزهد وهو غرض قد أكثر القول فيه، وذلك مما يدل
على ورعه، وصفاء منهله في التقى ومشرعه :
إلهي إني شاكر لك حامد وإني لساع في رضاك وجاهد

(١) في الأصول : « مسكود » ولا معنى له، ونظنه محرفاً عما أبتناه. والمشكود : الممنوح.

وإنك مهما زلت النعل بالفتي
تباعدت مجدداً وادنيت تعطفاً
وما لي على شيء سواك معول
أغيرك أدعو لي إلهاً وخالقاً
وقدماً دعا قوم سواك فلم يقم
وبالفلك الدوار قد ضل معشر
وللعقل عباد وللنفس شيعة

وقال يمدح الظافر بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن ذي النون :

لعلكم بعد التجنب والهجر
فإن الذي غادرتم بين أضلعي
ولم تنبكم عني النوى غير أنكم
ومن عجب أني أسائل عنكم
كأن ضياء الصبح في الليل إذ سرى
كأن مها في الأفق ريعت وقد بدا
كأن سنى الشمس المنيرة إذ بدا
وإلا فوجه الظافر الملك انجلى
عجبت لأيام تداعت خطوبها
ولم تدر أني في حمى الظافر الرضا
حللت جناباً منه مد ظلاله
جناب بكت فيه غمائم جوده
وكم نلت مذ أصبحت أئثم كفه
لدى ملك ما لاح ضوء جبينه

وكتب مراجعاً إلى الوزير أبي محمد بن سفيان رحمه الله :
يا سيدي الأعلى، وعمادي الأسنى، ومشربي الأصفى، ومن أدام

(١) في م : «نوبا».

الله عزته، وحمى من الثواب حوزته؛ وافاني لك كتاب سري الموضوع،
سني الموقع، أطال على إيجازه، وأطمع بعد إعجازه، وقابلت الرغبة
التي ضمنتها فيه، بما تقتضيه جلالته مهديه؛ ولكن تراخي الكتاب، عن
حسن في ذلك العتاب؛ فإن المودة لم يقدح فيها من الملل قادح،
ولم يستنج لها من الخلل سائح، بل كانت كالبرد طوى على غره،
إلى أوان جلالته ونشره؛ وقد علم علام الضمائر، والذي يظن غائباً
وهو حاضر، أنني أعتقدك القدح المعلى، وأضرب بك المثل الأعلى،
وأرى أنك تحجیل واضح في دهمة الزمان، وعلق راجح في كفة
الامتحان، وبقية سنخ كريم، ما عهدهم عنا بدميم :
عليهم سلام الله ما ذر شارق ورحمته ما شاء أن يرحمنا

وما أدعي لك جانباً من السيادة، إلا ولك عليه أعدل الشهادة؛
ولكن قديماً سفل ذو الرجحان، وعاد الكمال على أهله بالنقصان،
وكبت الأعالي بارتفاع الأسافل، حتى اقتضى ذلك قول القائل :
فواعجباً كم يدعي الفضل ناقص ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل
وقال المذمور للناجيين متى ذمرت قبلي الأرجل^(١)

وقد جاريتك — أعزك الله — في ميدان من البلاغة أنا فيه كمن
كأثر البحر والمطر، وجلب النمر إلى هجر؛ والذي حداني إليه، أنه
مرابي زمن، ألهي خاطري عنك فيه وسن، فقلت قد كان من العقوق،
ترك رعاية الحقوق؛ فلاستمطرون مزن القول، فقد كنت عهدتها تسجم
فتغدق، ولأستسقين جابية الشيخ العراقي، فقد كانت تطعم فتشهو^(٢)،

(١) هذا البيت للكعبية. والمذمور : الذي يدخل يده في حياء الناقة لينظر أذكار جنبها
أم أتى. يقول : إن التذمير إنما هو في الأعناق لا في الأرجل.

(٢) الجابية : الحوض، والعراقي إذا تمكن من الماء ملأ جابيته لأنه حضري فلا يعرف
مواقع الماء ولا محاله. وفي العبارة إشارة إلى قول الأعشى :

نقى الدم عن رهط المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقي تفهق

أيام كنت أسحب ذيل الشباب، وأسلك مسلك الكتاب، ويعجبني سلوك سهل الكلام وحزونه، والتصرف بين أبحاره وعونه، أستن امتنان الطرف (الجامع، ولا أثني عنان الطرف^(١)) الطامح، وأروي هامتي، وأقول بما صبت علي غمامتي، إلى أن تعمم مفرقي بالقتير^(٢)، وعلنتي أبهة الكبير؛ وودعت زمني الزائل، وعادت سهامي بين رث وناصل^(٣)؛ وعريت أفراس الصبا ورواحله^(٤)، وسددت علي سوى قصد السبيل معادله^(٥)؛ فلئن هريق ماء الشباب، واستشن الأديم^(٦)، وأقشع السحاب، وتجلت الغيوم، فلعل في الأفق ربابه وفي الحوض صباه، وعسى أن يكون في أخلاف المقالة در يرجع، وفي حقايق البلاغة در يرصع؛ ولأزفها عذراء، لا ترتضي إلا الأكفأ، فليس يبين النجد إلا في مازق الهيجاء، ولا يحسن العقد إلا في عنق الحسناء؛ ولأجعلن الشعر لها شعاراً، وفقر النثر لها دثاراً.

وقال يخاطب مكة أعزها الله :

أمكة تفديك النفوس الكرائم ولا برحت تنهل فيك الغمام
وكفت أكف السوء عنك وبلغت منهاها قلوب كي تراك حوائم

(١) - التكملة عن القلائد.

(٢) القتير : رعوس مسامير حلق الدروع؛ شبه بها الشيب إذا نقب في سواد الشعر. (اللسان).

(٣) الناصل من السهام : ما لا تصل له.

(٤) يشير إلى بيت زهير بن أبي سلمى :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعسرى أفراس الصبا ورواحله

(٥) معادل الطريق : مذاهبه ومسالكه. وهو من قول زهير :

وأقصررت عما تعلمين وسددت علي سوى قصد السبيل معادله

(٦) استشن الأديم : يس وتشنج. وجلد الإنسان : تفضن عند الهرم. وهو من قول أبي حية التميمي : هريق شبابي واستشن أديمي.

لعزته ذل الملوك الأعظم
وشادتك أيد برة ومعاصم
تنال به الزلقى وتحمي المآثم
وفيك مقامان : الهدى والمعالم
لهم أولاً في فضله وهو خاتم
كما يكتم اليمنى من الملك لائم
ضحى قدم برهانها متقادم
قطوف من الفج العميق وراسم
ولم يعها إلا ذكي وعالم
فلم تنتهض مني إليك العرائم
إذا ما دعت لله فيك الغمام
خطى فيك لي أو يعلمات رواسم
ومن زمزم يروي بها النفس حائم
إذا بذلت للناس فيك المقاسم
فحطت به عنه الخطايا العظام
وقد أمنت فيك المها والحمام
فإن هوى نفسي عليك لدائم
عليك فإنني بالفؤاد لقادم
بكعبتك العليا وما قام قائم
إليك فمهديها الرياح النواسم
ونفسي فما منها سوى الله عاصم
لعلي به من كبة النار سالم

فإنك بيت الله والحرم الذي
وقد رفعت منك القواعد بالتقى
وساويت في الفضل المقام كلاكما
ومن أين تعدوك الفضائل كلها
نبي حوى فضل النبيين واغتندى
وفيك يمين الله يلتمها الورى
وفي لإبراهيم إذ وطئ الثرى
دعا دعوة فوق الصفا فأجابه
فأعجب بدعوى لم تلج مسمعي فتى
ألهمني لأقدار عدت عنك همتي
فيا ليت شعري هل أرى فيك داعيا
وهل تمحون عني خطايا اقترافها
وهل لي من سقيا حجيجك شربة
وهل لي في أجر الملبين مقسم
وكم زار مغناك المعظم مجرم
ومن أين لا يضحى مرجيك آمنة
لئن فانتني منك الذي أنا رائم
وإن يحموني حامي المقادير مقدما
عليك سلام الله ما طاف طائف
إذا نسسم لم تهد عني تحية
أعوذ بمن أسناك من شر خلقه
وأهدي صلاتي والسلام لأحمد

ابن الأبار :

ومن أعلام الأندلسيين أبو عبدالله بن الأبار من مشيخة أهل بلنسية، وكان علامة في الحديث ولسان العرب، وبلغاً في الترسيل والشعر، وكتب عن السيد أبي عبدالله بن حفص بن عبد المؤمن بلنسية، ثم عن ابنه السيد أبي زيد، ثم دخل معه الحرب حين نزع إلى دين النصرانية، ورجع عنه قبل أن يأخذ به، ثم كتب عن ابن مردنيش. ولما زحف الطاغية إلى بلنسية ونازلها، بعث زيان يوفد بلنسية وبيعتهم، إلى الأمير أبي زكرياء، وكان فيهم ابن الأبار هذا الحافظ، فحضر السلطان، وأنشد قصيدته على روي السين يستصرخه، فبادر السلطان بإغاثتهم، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم، من المال والأقوات والكساء، فوجدهم في عسرة الحصار، إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية، ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس، غبطة بإقبال السلطان عليه، فنزل منه بخير مكان، ورشحه لكتب علامته في صدور رسائله ومكتوباته، فكتبها مدة، ثم إن السلطان أراد صرفها لأبي العباس العسائي، لما كان يحسن كتابتها بالخط المشرفي، وكان آثر عنده من الخط المغربي؛ فسخط ابن الأبار، أنفة من إيثار غيره عليه، وافات على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه، لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه، وأن يبقى مكان العلامة منه لوضعها. فجاهر بالرد، ووضعها استبداداً وأنفة؛ وعوتب على ذلك، فاستشاط غضباً، ورمى بالقلم، وأنشد متمثلاً :

أطلب العز في لظي وذر الذل ولو كان في جنان الخلود

فتمي ذلك إلى السلطان، فأمر بلزومه بيته، ثم استعتب السلطان بتأليف رفعه إليه، عد فيه من عوتب من الكتاب وأعتب، وسماه إعتاب الكتاب، واستشفع فيه بابنه المستنصر بالله، فقفر السلطان له، وأقال عثرته، وأعادته إلى الكتابة. ولما هلك الأمير أبو زكرياء رفعه المستنصر إلى حضور

مجلسه، مع الطبقة الذين كانوا يحضرونه من أهل الأندلس (وأهل تونس). وكان في ابن الأبار أنفة وبأو^(١) وضيق خلق، وكان يزري على المستنصر في مباحته، ويستقصر مداركه، فخشن له صدره، مع ما كان يسخط به السلطان، من تفضيل الأندلس وولائها عليها.

وكانت لابن أبي الحسين فيه سعاية، لحقد قديم، سببه أن ابن الأبار لما قدم في الأسطول من بلنسية، نزل ببنزرت وخطب ابن أبي الحسين بغرض رسالته، ووصف أباه في عنوان مكتوبه بالمرحوم، ونبه على ذلك فاستضحك، وقال : إن أبا لا تعرف حياته من موته لأب كامل، ونميت إلى ابن أبي الحسين، فأسرهما في نفسه، ونصب له، إلى أن حمل السلطان على إشخاصه إلى بجاية، ثم رضي عنه واستقدمه، ورجعه إلى مكانه من المجلس، وعاد هو إلى مساءة السلطان بنزعاته، إلى أن جرى في بعض الأيام ذكر مولد الواثق، وسأل عنه السلطان بعض من حضره فاستبهم، فقدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة وطالعها، فاتهم بتوقع المكروه للدولة والتربص بها، كما كان أعداؤه يشعون عنه، بما كان ينظر في النجوم، فتقبض عليه، وبعث السلطان إلى داره، فرفعت إليه كتبه أجمع، وألقى في أثنائها — فيما زعموا — رقعة أبيات أولها :

طغا بتونس خلف سموه ظلما خليفه

فاستشاط لها السلطان، وأمر بامتحانه ثم بقتله، فقتل قصصاً بالرماح وسط محرم من سنة ثمان وخمسين، يعني وستمائة. ثم أحرق شلوه، وسيقت مجلدات كتبه، وأوراق سماعه ودواوينه، فأحرقت معه.

وله يستصرح أبا زكريا الحفصي لنجدة الأندلس :
أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

(١) البأو : الكبر.

وهب لها من عزيز النصر ما التمس
وحاش مما تعانیه حشاشتها
يا للجزيرة أضحي أهلها جزراً
ففي كل شارقة إلمام باثقة
وكل غاربة إجحاف نائبة
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم
وفي بلنسية منها وقرطبة
مدائن حلها الإشراف ميسما
وصيرتها العوادي العاشات بها
فمن دساكر كانت دونها حرما
يا للمساجد عادت للعدا بيما
لهفي عليها إلى استرجاع فاتتها
وأربعا تمنمت أيدي الربيع لها
كانت حدائق للأحداق موقنة
وحال ما حولها من منظر عجب
سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا
وانتز برتها مما تحيفها
فأين عيش جيناه بها خضراً
حمى محاسنها طاع أتيح لها
ورج أرجاءها لما أحاط بها
خلا له الجو فامتدت يدها إلى
وأكثر الزعم بالتثليث منفردا
صل حيلها أيها المولي الرحيم فما
وأحي ما طمست منها العداة كما

فلم يزل منك عز النصر ملتصا
فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
للحادثات وأمسي جدها نعا
يعود مأتها عند العدا عرسا
تنثي الأمان حذاراً والسرور أسا
ولا عقائلها المحجوبة الأنسا
ما ينسف النفس أو ما يترف النفسا
جدلان وارتحل الإيمان ميسما
يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
ومن كئاس كانت قبلها كئسا
وللنداء غدا أثناءها جرسا
مدارساً للمثاني أصبحت درساً
ما شئت من خلع موشية وكسا
فصوح النظر من أدواحها وكسا
يستجلس الركب أو يستركب الجلسا
عيث الدبا في مغانيها التي كيسا
تحيف الأسد الصاري لما افترسا
وأين^(١) غصن جيناه بها نعا
ما نام عن هضمها حيناً ولا نعا
فغادر الشم من أعلامها خنسا
إدراك ما لم تظاً رجلاه مختلسا
ولو رأى راية التوحيد ما نيسا
أبقى المراس لها حيلاً ولا مرسا
أحييت من دعوة المهدي مقتيسا

(١) في ط: «فأي عيش... وأي».

أيام سرت لنصر الحق مستبقا
وقمت فيها بأمر الله منتصرا
تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم
وتقتضي الملك الجبار مهجته
هذي رسائلها تدعوك من كتب
وافتك جارية بالنجح راجية
خاضت خضارة عليها ويخفضها
وربما سبحت والريح عاتية
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي
ملك تقلدت الأملاك طاعته
من كل عاد على يمينه مستلما
مؤيد لو رمى نجماً لأثبتته
تالله إن الذي ترجى السعود له
إمارة يحمل المقدار رايها
بيدي النهار بها من ضوئه شنياً
ماضي العزيمة والأيام قد نكلت
كأنه البدر والعلياء هالته
تديره وسع الدنيا وما وسعت
قامت على العدل والإحسان دولته
مبارك هديه باد سكينته
قد نور الله بالتقوى بصيرته
برى العصاة وراش الطائعين فقل
ولم يغادر على سهل ولا جيل
فرب أصيد لا تلفي به صيداً

ويت من نور ذاك الهدى مقتبسا
كالصارم اهتز أو كالمعارض انجسا
والصبح ماحية أنواره الغلسا
يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسا
وأنت أفضل مرجو لمن يثسا
منك الأمير الرضا والسيد الندسا
عباه فتعاني اللين والشرسا
كما طلبت بأقصى شدة الفرسا
حفص مقبلة من تربه القدسا
ديناً ودنيا فغشاها الرضا لبسا
وكل صاد إلى نعماء ملتصبا
ولو دعا أفقا لتي وما احجسا
ما جال في خلد يوماً ولا هجسا
ودولة عزها يستصحب القعسا
ويطلع الليل من ظلمائه لعا
طلق المحيا ووجه الدهر قد عيسا
تحف من حوله شهب القنا حرسا
وعرف معروفه وأسى الورى وأسا
وأنشرت من وجود الجود ما رمسا
ما قام إلا إلى حسنى ولا جلسا
فما يبالي طروق الخطب ملتصبا
في الليث مفترساً والغيث مرتجسا
حيا لقاحاً^(١) إذا وفيته بخسا
ورب أشوس لا تلقي له شوسا

(١) حيا لقاحاً : لم يدينوا للملوك، ولم يملكوا، ولم يصيهم سباء.

إلى الملائك ينمي والملوك معا
من ساطع النور صاغ الله جوهره
له الشرى والثريا خطتان فلا
حسب الذي باع في الأخطار يركبها
إن السعيد امرؤ ألقى بحضرته
فظل يوطن من أرجائها حرما
بشرى لعبد إلى الباب الكريم حدا
كأنما يمتطي واليمن يصحبه
فاستقبل السعد وضاحاً أسرته
(وقيل الجود طفاحا غواربه
بأيها الملك المنصور أنت لها
وقد تواترت الأنباء أنك من
طهر بلادك منهم إنهم نجس
وانصر عبيدا بأقصى شرقها شرقت
هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت
فاملأ هنيئاً لك التأيد ساحتها
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه

ومن بديع نثره رحمه الله رسالته الحافلة، التي كتب بها للمستنصر،
وهي الرسالة الغريبة مساقاً، المتألثة نظماً واتساقاً، التي لم ينسج على
منوالها، ولم يأت أحد بمثالها؛ يصف وصول الماء إلى تونس، ويشير
في ذلك إلى إشارات عجيبة، تدل على أن قريحته الوقادة لداعي الإجابة
مجبية؛ وهي :

الحمد لله حمداً لا تقلله. هذا الزمان الذي كنا نؤمله، « بلدة طيبة
ورب غفور »، ودولة مباركة لمحاسنها سفور إلى أبي حفص آلوا،

(١) الزكاء الزوج. الخسا: الفرد.

فهل جالت النجوم حيث جالوا، أو نالت الملوك بعض ما نالوا، ملك
يشتمل الإقبال، وعز يقلقل الأقبال، وكرم صريح الانتماء، في النماء،
وشرف سمت ذوائبه على السماء، إلى عدل وإحسان، هما قوام نوع
الإنسان، مع رفق وإسجاح، ضمناً كل فوز ونجاح، فقد أضت الظلماء
أنواراً، وفاضت البركات أنجاداً وأغواراً، أليس العام ربيعاً، والعالم جميعاً،
والسعود طالعاً، والعصور طائعه، مصالِح الأعمال تحليها، وعلى منصات
الكمال تجليها ؟ فمن ذا أيها المولى يجاريك إلى مدى، أو يباريك
في إقدام صادق وندى، وآياتك للأبصار هدى، وحياتك للكفار ردى،
بسيرتك عدل الدهر وما جار، ولولا نور غرتك ما أنار، لقد حسنت
بك الأوقاف، حتى كأنك في فم الزمن ابتسام أعرقت في المجد والعليا،
وعنت بالدين فعنت لك الدنيا، أي عنيد أو عميد ما ألقى باليد، واتقى
في اليوم عاقبة الغد، إصفاً على التعوض بصفحك وإسعادك، وإشفاقاً
من التعرض لصفحك وصعادك، تعمر بالحسنات آناك، وتتبع في القربات
آباءك، يانياً كما بنوا، بل زائداً على ما أتوا، وبادياً من حيث انتهوا :
أناس من التوحيد صيغت نفوسهم فزهم تر التوحيد شخصاً مركباً
ومن ساكيات المزن فيض أكفهم فزهم ترى ماء الغمام وأعدبا

أمجاد أجواد، في الحياء بحار وفي الحيا أطواد، تقيل أبو زكرياء
نهج أبي محمد، وأيدا جميعاً بأبي حفص المؤيد :
نسب كان عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عموداً

أولئك صفوة الأئمة، وحفظة الأئمة، والقائمون دون الأمة، في
الحوادث المدلهمة، وهذه الدولة المحمدية، الخالدة بمكانها الدعوة
المهدية؛ إليها انتهت المراشد، وعليها التفت المحامد، وبها اعتزت حين
اعترضت العناصر والمحائد، ومن خصائصها انفعال الوجود، ومن
مراسمها الإيثار بالوجود، والبدار إلى إغاثة الملهوف وإعانة المنجود،
ما يرحت للخيرات إيضاعها وغيها، وبالصالحات غرامها وحيها. حتى

لقد فهمت أسرارها، وأودعت أنوارها، وكلفت أو كفلت إفشائها وإظهارها، يميناً أن يمين الحق به طولي، وللآخرة خير لها من الأولى، بمولانا أيده الله عز مكانها، وخلدت سديدة آثارها، شديدة أركانها، لا جرم أنه الظاهر كالماء الذي جليه للطهارة، والظاهر ولأه ولواء في مصعد الخلافة ومقعد الإمارة، بالسعادة الأبدية وجدته وكلفه، وما همه إلا تجاوز ما أسلفه سلفه، فجر من الأرض ينبوعاً، وجدد للجدوى رسوماً عافية وربوعاً، ساحته الحرم وهو زمزم قصاده وحجابه، وراحته البحر الخضم، غير طعمه وارتجاجه، ما أظهره خللاً، وأبهره جلالاً، « هكذا هكذا وإلا فلان » غابت كرامة المعارك وشهد، ونامت ولاية الممالك وسهد، فمتى قسطوا أقسط، وإذا غوروا أنبط، ولذلك ما أبطل عمله أعمالهم وأحبط، غلبهم على صفتي الندى والباس، وسلبهم منقبتى حمزة والعباس.

فلا غرو أن من أمن ووقى، ثم لما كسا وأطعم سقى، آية نعمى وقت بالميعاد، وحسنى مثلها يعود للمعاد، وأنت بماء معين قد أصبح غوراً، وملأت ما بين لابتها جناناً ترف ظلاً وترق نوراً، فيا بشرى لثونس أخصب جديها، وأحسن وصف الروض والغدير أديها، وطالما أطلعت صحراء بل بفضاء، فكم للإمارة قبلها من يد بيضاء، غشيت حبر الحبور والسرور، وعوضت برد الظل من وهج الحرور، خمائل وجدول، تزاول منها العين ما تزاول، تلك يضل من أحصاها، وهذه يصل بها حصاها، ويا لقصرها السعيد ! نعمت أدواحه، وهبت على خضر الأغصان وزرق الغدران أرواحه، هذا وإن بات السماح المفاض يسقيه، والجود الفضيض ينقع فؤاده ويشقيه، وهنياً للمسجد الجامع أن رويت جوانحه الصاديه، وجمعت في شرعته السارية والغادية، فها هو فجره بادي الغرر والأوضاح؛ وصخره منبجس بالزلال القراح، وللجمهور بصفوه المنساب، لهج الغياب بالإياب، وطرب الشيب لذكر

الشباب، أمسوا قد سوغوا مآربهم، وأضحوا قد علم كل أناس مشربهم،
فهم يردون على العذب النмир، ويجدون بركة رأي الأمير، مكرمة ذخرها
لسلطانة الزمان، وكرامة هناها به الإيمان، وقضية إن حجبت عن داود
فما حجب عنها سليمان :

جمعت للناس بين الري والشيع فهم بأخصب مصطاف ومرتبغ
ولم تدع كرمأ إلا أتيت به تضيف مبتدعأ منها لمبتدع
لما ولت خلعت الخير أجمعه عليهم فبدوا في أجمل الخلع
للأ أيامك استوفت محاسنها فلا فضيلة للأعياد والجمع
دامت مساعيك والأقدار تسعدها تولي المساجد إنصافا من البيع

اللهم إن الإيالة الحفصية قد أعليت مظاهرها، ونصرت معاشرها،
وقصرت على المصالح الدينية والدنيوية مواردها ومصادرها، ثم اصطفت
من شرف بيتها الصراح، ومعدن سؤدها الوضاح، مولانا الأمير الأجل،
المؤيد المبارك، أبا عبدالله، فانتضيت حساماً في يدك قائمه، وارتضيت
إماماً لا تلتين في ذاتك صرائمه، ولا يلحق شأوه في النيل من عداتك
رائمه، يمضي بأساً حين لامضاء للحسام العضب، ويهمي جوداً والسماء
في أزر من نجيع الجذب، ويتدب سعياً لكل حسنى أعيت على القريع
الندب.

وله يشكو الزمان :

تحيف حالتي حيف الزمان وصدق اليأس من كذب الأمان
وبرت فسي أليتها الليالي بترويعسي فإنسي بالأمان
أما قنعت وقد كلفت بهضمي وضمي دون أبناء البيان
أحاول أن أقوم لما يواتي فتعدني الخطوب بلا تواني
وأطباق الثرى بالحر أحري إذا ألقى الثراء من الهوان
فهل من آخذ بيدي أحيذ بعين الله شدة ما يعانني

أباما أشتكبه من أيامي عوار في يد البلوى عواني
وما أبغي على تلقى دليلا كفاني أنسي حسي كفاني

وله في معنى التسليم للمقدرو :
ولا تسخط المقدور وارض بما جرى عليك به إن الرضا يفضل السخطا

— ٦ —

محي الدين بن عربي :

هو محمد بن علي بن محمد الطائي بن عربي الصوفي، من أهل
إشبيلية، وأصله من سبتة، يكنى أبا بكر، ويعرف بابن عربي، وبالحناتي
أيضاً.

أخذ عن مشيخة بلده، ومال إلى الأدب، وكتب لبعض الولاة
بالأندلس، ثم رحل إلى المشرق حاجاً، فأدى الفريضة، ولم يعد بعدها
إلى الأندلس، وسمع الحديث من أبي القاسم الخرساني وغيره وسمع
صحيح مسلم من الشيخ أبي الحسن ابن أبي نصر، في شوال سنة
ست وستمائة، وكان يحدث بالإجازة العامة عن أبي طاهر السلفي،
ويقول بها، وبرع في علم التصوف، وله في ذلك تواليف كثيرة، منها :
« ملاك التأويل، في حقائق التنزيل »، و « كتاب الإسراء، إلى المقام
الأسرى »، و « كتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم »،
و « كتاب عنقاء مغرب، في صفة ختم الأولياء وشمس المغرب »،
وكتاب في فضائل شيخه عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدي،
والرسالة الملقية « بمشاهد الأسرار القدسية، ومطالع الأنوار الإلهية »،
في كتب أخرى عديدة.

وقدم على المرية من مرسية مستهل شهر رمضان سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وبها ألف كتابه الموسوم، بمواقع النجوم.
قال ابن الأبار : وقد لقيه جماعة من العلماء، وأخذوا عنه، وتوفي بعد الأربعين وستمائة.

— ٧ —

ابن القصير :

هو عبد الرحمن بن أحمد بن أحمد بن محمد المعروف بابن القصير الأزدي، من أهل غرناطة، يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن القصير، من بيت شوري وجلالة؛ روى عن أبيه القاضي أبي الحسن أحمد بن أحمد، وعن عمه أبي مروان عبد الملك بن أحمد وعن أبي الحسن بن دري وابن الباذش، وأبي الوليد بن رشد، وأبي إسحاق إبراهيم بن رشيق الطليطلي، نزيل وادي آش، وأبي بكر بن العربي، وأبي الحسن بن موهب، وأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، وأبي عبدالله بن أبي الخصال، وأبي الحسن يونس بن مغيث، وأبي القاسم بن ورد وأبي بكر بن مسعود الخشني، وأبي القاسم بن بقي، وأبي الفضل عياض ابن موسى وغيرهم وكان فقيهاً مشاوراً، رفيع القدر، جليلاً بارع الأدب، عارفاً بالوثيقة، نقادا لها، صاحب رواية ودراية، تقلب ببلاد الأندلس، وأخذ الناس عنه بمرسية وغيرها، ورحل إلى مدينة فاس، فأخذ الناس عنه بها، ثم رحل إلى إفريقية، وولي قضاء تقيوس، ببلاد الجريد، بمقربة من توزر، ثم ركب البحر قاصداً الحج، فتوفي شهيداً في البحر، قتلته الروم بمرسى تونس، مع جماعة من المسلمين، صبح يوم الأحد، في العشر الوسط من شهر ربيع الآخر، سنة ست وسبعين وخمسمائة. وله تأليف وخطب ورسائل ومقامات، وجمع مناقب من أدركه من

أهل عصره، واختصر كتاب الحيل لابن خاقان الأصبهاني، وغير ذلك، وألف برنامجاً يضم رواياته.

— ٨ —

القاضي عياض :

قال فيه القاضي أبو عبدالله بن عياض^(١) يصف والده القاضي عياضاً (٤٧٦-٥٤٤هـ حيث توفي بمراكش) :

نشأ أبي على عفة وصيانة، مرضي الحال، محمود الأقوال والأفعال، موصوفاً بالنبل والفهم والحدق، طالباً للعلم، حريصاً عليه، مجتهداً فيه، معظماً عند الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم، والاختلاف إليهم، إلى أن برع أهل زمانه، وساد جملة أقرانه، فكان من حفاظ كتاب الله تعالى، مع القراءة الحسنة، والنغمة العذبة، والصوت الجهير، والحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه؛ وكان من أئمة الحديث في وقته، أصولياً متكلماً، فقيهاً، حافظاً للمسائل، عاقداً للشروط، بصيراً، بالأحكام، نحويماً، حجة في الأدب، شاعراً مجيداً، كاتباً بليغاً، خطيباً حافظاً للغة والأخبار والتواريخ، حسن المجلس، نبيل النادرة حلو الدعابة، صبوراً حليماً، جميل العشرة، جواداً سمحاً، كثير الصدقة، دعواً على العمل، صلباً في الحق، وبلغ في التفتن في العلوم ما هو مشهور.

أخذ عن أشياخ بلدة سبتة، كالقاضي أبي عبدالله بن عيسى، والخطيب أبي القاسم، والفقير أبي إسحاق الفاسي، وغيرهم. ثم رحل إلى الأندلس وكان خروجه من سبتة يوم الثلاثاء منتصف جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة فوصل إلى قرطبة يوم الثلاثاء مستهل جمادى الآخرة بعدها،

(١) ص ٧ وما بعدها ح ٣ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ط مصر ١٩٤٢.

فأخذ بها عن ابن عتاب، وابن حمدين، وابن الحاج، وابن رشد، وأبي الحسين بن سراج، وأبي الحسن بن مغيث، وأبي القاسم بن النحاس، وأبي بحر الأسدي، وأبي القاسم بن بقي، وأبي الوليد هشام بن أحمد ابن العواد، وغيرهم من أعلام قرطبة. ثم خرج إلى مرسية يوم الاثنين لخمس بقين من المحرم، سنة ثمان من التاريخ، فوصل إلى مرسية يوم الثلاثاء الثالث من صفر بعده.

ولقي في رحلته هذه جماعة من أعلام الأندلس، وأجازه أبو علي الجبائي^(١) وشريح وابن شبرين، وغيرهم من أعلام غرب الأندلس، وأجازه أيضاً أبو جعفر بن بشتغير، وابن الأذقر، وأبو زيد بن منتال، وغيره من اعلام شرق الأندلس.

ووصل بلده بعد هذه الرحلة ليلة السبت سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسمائة، وأجلسه أهل بلده للمناظرة في المدونة، وهو ابن اثنين وثلاثين عاماً، وبعد ذلك ييسر أجلس للشورى، ثم ولي القضاء عام خمسة عشر وخمسمائة، لثلاث بقين من صفر، فسار فيها أحسن سيرة، محمود الطريقة، مشكور الحالة، أقام جميع الحدود على ضروبها، واختلاف أنواعها، وبنى الزيادة الغربية في جامع سبتة، التي كمل بها جماله، وبنى في جبل العينا الرابطة المشهورة، إلى غير من الآثار المحمودة، والمساعي المرضية، فعظم جاهه، وبعد صيته.

ثم نقل إلى غرناطة، ووصل إليه الكتاب بذلك في أول يوم من صفر عام أحد وثلاثين وخمسمائة، فنهض إليها، وتقلد خطة قضائها، على المعتاد من شيمته السنية، وأخلاقه المرضية، مشكوراً عند جميع الناس، لكن ابن تاشفين ضاق به ذرعه، وغص بمراقبته، وصد أصحابه عن الباطل، وخدمته عن الظلم، وصرقهم عن الأعمال، فسعى في صرفه

(١) هو الحسين بن محمد بن أحمد الفسائي المعروف بالجبائي توفي سنة ٤٩٨ هـ.

عن قضاء غرناطة، فصرف بعد انفصاله عنها زائراً أهلها، وترك ابن أخيه الزاهد أبا عبد الله رحمه الله، على الأحكام؛ وذلك في رمضان المعظم، عام اثنين وثلاثين وخمسمائة.

ثم ولي قضا سبته ثانية، في آخر عام تسعة وثلاثين وخمسمائة، قدمه إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين، فابتهج أهل بلده بذلك، فسار فيهم السيرة التي عهدوا منه، ثم بادر بالمسابقة إلى الدخول في نظام الموحدين، والاعتصام بحبلهم المتين؛ فأقره أمير المؤمنين، على ما كان عليه، وصرف أمور بلده إليه؛ وخاطبه بالتنويه، وحظي عنده وشكر بداره وسبقه. ثم رحل إليه، فاجتمع به بمدينة سلا، عند توجهه إلى محاصرة مراكش، فأوسع له، وأجزل صلته، ولقي منه برأ تاماً، وإكراماً عاماً، وانصرف على أحسن حال، إلى أن ثارت الفتنة.

وقال الشيخ العلامة أبو زيد عبد الرحمن الغرناطي، المعروف بابن القصير، رحمه الله: لما ورد علينا القاضي عياض غرناطة، خرج الناس للقائه، وبرزوا تيريزاً ما رأيت لأمر مؤمر مثله، وحزرت أعيان البلاد الذين خرجوا إليه ركاباً، نيفاً على مئتي راكب، ومن سواد العامة مالا يحصى كثرة، وخرجت مع أبي في جملة من خرج، فلقينا شخصاً بادي السيادة منياً عن اكتساب المعالي والإفادة.

ولما استقر عندنا كان مثل التمرة: كلما ليكت زادت حلاوة، ولفظه عذب في كل ما صرف من الكلام، للنفس إليه توق وله طلاوة، وكان برأ بلسانه، جواداً بينانه، كثير التخشع في صلاته، مواصلاً لصلاته، وقد جمعنا من سيره جملاً في الكتاب الذي جمعنا فيه مناقب من أدركنا، من أعيان عصرنا وتبهاه، وذكرنا له ما يفاخر برونقه وبهائه؛ وكان مع براعته في علوم الشريعة خطيباً، في تحبيره للخطب وفي لفظه، ظاهر الخشوع عند التلاوة وفي لحظه، سريع العبارة، مديماً للتفكير والعبارة، كاتباً إذا نثر، ناظماً إذا شعر.

أمير أديب :

كان من أمراء البيت الأموي في الأندلس الأمير الأديب الشاعر أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر الأموي (٣٥٢-٤٠٠هـ)، وكان يلقب « ابن معتز الأندلس » ويعرف بالظليق. كان أديباً شاعراً مكثرأ، وأكثر شعره نظمه وهو في السجن، قال أبو محمد بن حزم فيه : « هو في بني أمية كابن المعتز في بني العباس : ملاحه شعر، وحسن تشبيهه ».

وقد سجن الأمير وهو ابن ست عشرة سنة، لأنه كان فيما ذكر يتعشق جارية كان أبوه قد رباها معه وذكرها له ثم بدا له فاستأثر بها، فاشتدت غيرة الشاعر لذلك، فانتضى سيفاً، وانتهاز فرصة من بعض خلوات أبيه معها فقتله، فسجن في أيام المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر، ومكث في السجن ستة عشر عاماً، ثم أطلق سراحه بعد ذلك فلقب « الظليق »، وقد عاش بعد إطلاقه ست عشرة سنة، وتوفي نحو عام ٤٠٠هـ ومن شعره قوله :

غصن يهتز في دعص نقا يجتني منه فؤادي حرقا
أطلع الحسن لنا من وجهه قمرأ ليس يرى ممتحفا
ورنا عن طرف ريم أحور لحظه سهم لقلبي فوقا

ومن هذه القطعة :

أصبحت شمساً وفوه مغرباً ويد الساقى المحيي مشوقاً
فإذا ما غربت في فمه تركت في الخد منه شفقا^(١)

(١) راجع ترجمته في ص ٤٤٧ بغية الملمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضي، وهو الجزء الثاني من المكتبة الأندلسية، وتحمل ترجمته رقم ١١٣٤٣ ونجد بعض =

وعلى أبيات الأمير الأندلسي صبيغة من الجمال الفني، والترف في الأسلوب والصنعة، وحب التشبيه، وعذوبة اللفظ، وسلامة التركيب، وكثرة الصور الفنية في شعره، مما يشبه في ذلك ابن المعتز إلى حد كبير، ومما استوجب من غير شك أن يلقبه النقاد « ابن معتز الأندلس »، ومن الطريف أنه أشبه في النشأة والتكوين الأدبي، وفي الترف.

— ١٠ —

ولادة بنت المستكفي :

ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر لدين الله. وكانت واحدة زمانها، المشار إليها في أوانها، حسنة المحاضرة، مشكورة المذاكرة. وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف؛ وفيها خلع ابن زيدون عذاره.. وكانت أديبة شاعرة، جزلة القول، حسنة الشعر، وكانت تناضل الشعراء، وتساجل الأديباء، وتفوق البلغاء، وعمرت عمراً طويلاً، ولم تتزوج قط، وماتت ليلتين خلتا من صفر سنة ٤٨٠هـ، وقيل سنة ٤٨٤هـ. وكان أبوها المستكفي قد بايعه أهل قرطبة لما خلعوا المستظهر، وكان جاهلاً ساقطاً، وقد خرجت ابنته « ولادة » على نهاية في الأدب والظرف، حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخير، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة لأحرار المصير، وفناؤه ملعباً لحياد النظم والنثر، يعيش أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها.. على أنها وجدت للقول فيها السبيل، لقلّة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها، وهي في المغرب كعلية في المشرق، إلا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق، وكان لها صنعة

== هذه الترجمة في هامش ص ٣/١٨٦ نفع الطيب للمقري نشر فريد رفاعي بتحقيق أحمد يوسف نجاني، وراجع كتاب ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ص ٣٢٢ — للمؤلف.

في الغناء، وكان مجلسها يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها، لما اقتضاه من مثل ذلك.

وقد قال عنها ابن بشكوال في الصلة : « كانت أديبة شاعرة، جزلة القول، حسنة الشعر، وكانت تناضل الشعراء، وتساجل الأدباء، وتفوق البرعاء، عمرت طويلاً ولم تتزوج قط، وكان مجلسها متدي لأهل المصمر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعيش أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، وهي على سهولة حجابها، وكثرة متابها، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب، ولقد تناقل الناس نادرة بدرت منها، دلت على بارع أدبها، وحسن فهمها، وبديع ظرفها فقد مرت بابن عبدوس، وهو جالس بباب داره، وأمامه بركة تتولد من كثرة الأمطار، وربما استمدت مما هنالك من الأقدار، فقالت تخاطبه :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما نهر

فلم يحر جواباً، وحفظت هذه النادرة، وشغل بها الناس حيناً، والبيت لأبي نواس، في مدح الخصيب والي مصر، فتمثلت به ولادة، ونقلته هذا النقل الحسن، من المدح إلى الهجاء ! وتركت ابن عبدوس لا يبحر حرفاً، ولا يرد طرفاً.

ولولادة مكانة عالية بين شعراء الأندلس وشاعراتها، وهي ذات شخصية فذة، جمعت بين عراقة النسب الأموي، والذكاء العربي المفرط، والجمال الساحر، والصبا الأخاذ، هذا إلى لباقة، وظرف في الحديث، وسعة في الاطلاع، وحلاوة في البيان، كل هذا في جو القصور البهيج، وبين الجواري والحواشي.

وتلقت ولادة بعلية المغرب، نسبة لعلية بنت المهدي، التي نبغت في المشرق وعاشت خمسين عاماً في بغداد (١٦٠-٢١٠ هـ).

وكانت أديبة بالفطرة، وشاعرة مجلية بين أقرانها ولداتها، وشعرها قوي

السبك، سهل الألفاظ، سلس العبارات، أقرب إلى شعر الرجال منه إلى شعر المرأة، نظمته في الحب والفخر والفكاهة والدعابة والاجتماع.

وما أروع ما تقول ولادة :

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتبه تيهي
أمكن عاشقي من لثم ثغري وأعطي قبلي من يشتهيها

وكان ابن زيدون من المعجبين بأدبها وجمالها، والمتوددين لها، وينسب إليها شعر نسب لابن زيدون، وهو :

ودع الصبر محبة ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطي إذ شيعك
يا أبا البدر ضياء وسنا حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلکم بت أشكو قصر الليل معك

وفي هذه الأبيات وحدها من جمال السبك، ورقة الشاعرية وحلاوة اللفظ المعبر عن مضطرب الشوق ولاعج العاطفة، ما يكفي لجعل ولادة شاعرة متفوقة بين كبار شعراء عصرها. وتبرز شاعرية ولادة فياضة بمستعر الحب في هذين البيتين الذي قائلهما لابن زيدون، مبينة عظم الهوى الذي ملأ قلبها وسيطر على كيانتها، فانطلقت بصراحة جريفة تقول :

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فإنني رأيت الليل أكرم للسر
وبني منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدن لم يطلع، وبالنجم لم يسر
ومما يروى عن ذلك : أن عتبة غنت مرة — وهي جارية لولادة —
في حضرة ابن زيدون. فسألها الإعادة بغير أمر ولادة وكان قد بدا
عليه الإعجاب الشديد. فاضطربت شاعرتنا عند ذلك وامتقع لونها، وسرت
في كيانتها نفحة نار أحرقتها، ولم تستطع أن تخفي تجهمها وتأثرها،
فعاتبت جاريتها ولامتها، ثم مالت إلى ابن زيدون تقول :
لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا لم تهو جاريتي ولم تتخير

وتركت غصنا مثمراً بجماله وجنحت للغصن الذي لم يثمر
ولقد علمت بأنني بدر السما لكن ولعت لشقوة بالمشتري
ولا بن زيدون فيها قصائد تنوب وجداً وحنيناً وهياماً، ومنها قصيدته
المشهورة :

أضحى الثناني بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحننا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
ويقول فيها مستديماً عهدنا :
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا إن طال ما غير النأي المحيينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

وكذلك بقيت ولادة على حبها له ووفائها، فبعثت إليه تقول :
ألا هل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل حب بما لقي ؟
تمر الليالي لا أرى البين ينقضي ولا الصبر من رق الشوق معتقي
وقد كنت أوقات التزاور في الشتا أبيت على حجر من الشوق محرق
فكيف وقد أمسيت في حال قطعة لقد عجل المقدور ما كنت أتقي

وقد عاشت ولادة بعد ذلك محرومة، وبقيت على عهدها لم تتزوج
مدى حياتها. ومما يؤسف له أن تكون أشعارها مفقودة، مع ما فقد
من مصادر التراث الأندلسي الذي أباده الأسبانيون بعد إجلاء العرب
من الأندلس — وتوفيت ولادة بقرطبة عام ٤٨٠هـ — ١٠٨٧م، وكان
والدها قد توفي عام ٤١٤هـ، وتولى الخلافة شهوراً قليلة في العام نفسه.

ادبيات من الأندلس

- ١ -

من الأدبيات الأندلسيات حفصة الركونية، قال ابن سعيد في الطالع
السعيد : كتبت حفصة إلى بعض أصحابها :
أزورك أم تزور ؟ فإن قلبي إلى ما تشتهي أبداً يميل
فتغري مورد عذب زلال وفرع ذؤابتي ظل ظليل
وقد أملت أن تظما وتضحى إذا وافى إليك بي المقيل
فمجلل بالجواب، فما جميل إباؤك عن بثينة يا جميل !

وهي تشبه أبيات سلمى بنت القراطيسي من أهل بغداد وكانت
مشهورة بالجمال :

عيون مها الصريم فداء عيني وأجساد الأطباء فداء جيدي
أزين بالعقود، وإن نحري لأزين للعقود من العقود
ولا أشكو من الأوصاب ثقلاً وتشكو قامتي ثقل النهود

وبلغت أبيتها أمير المؤمنين المقتفي بالله، فقال : أسألوا : هل تصدق
صفتها قولها ؟ فقالوا : ما يكون أجمل منها، فقال : أسألوا عن عفافها،
فقالوا هي أعف الناس. فأرسل إليها مالا جزيلاً، وقال تستعين به على
صيانة جمالها وروثق بهجتها.

وقال الحجاري في المسهب : إن أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين،
أهدى إلى المعتمد جارية مغنية نشأت بالعدوة، وأهل العدوة بالطبع
يكرهون أهل الأندلس، وجاء بها إلى إشبيلية، وقد كثر الإرجاف بأن
سلطان الملثمين ينتزع بلاد ملوك الطوائف منهم، واشتغل خاطر ابن
عباد بالفكر في ذلك، فخرج بها إلى قصر الزهراء، على نهر إشبيلية
وقعد على الراح، فخطر بفكرها أن غنت عندما انتشى هذه الأبيات :
حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم ولووا عمائمهم على الأقمار
وتقلدوا يوم الوغى هندية أمضى إذا انتضيت من الأقدار
إن خوفوك لقيت كل كريمة أو أمنوك حللت دار قرار
فوقع في قلبه أنها عرضت بساداتها، فلم يملك غضبه، ورمى بها
في النهر فهلكت.

— ٢ —

ومن شاعرات الأندلس، أمة العزيز الشريفة الحسنية، التي تقول :
لحافظكم تجرحنا في الحشا ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح، فاجعلوا ذا بدا فما الذي أوجب جرح الصدود ؟

— ٣ —

ومنهن حفصة الركونية، وكانت تجمع إلى نصاب الأدب، نصاب
الجمال والمال والنسب. وهي القائلة :
ثنائي على تلك الثنايا لأنني أقول على علم وأنطق عن خير
وأنصفها لا أكذب الله إنني رشفت بها ريقاً أرق من الخمر

وتولع لها السيد أبو سعيد ملك غرناطة، ويغير بسببها على أبي
جعفر بن سعيد حتى قتله^(١).

— ٤ —

ومنهن اعتماد جارية المعتمد بن عباد وأم أولاده، وتشتهر بالرميكية،
وهي التي أغرت المعتمد بابن عمار فقتله، لما هجا ابن عمار المعتمد
بقصيدة ذكر فيها الرميكية؛ فقال :

تخيرتها من بنات الهجان رميكية ما تساوي عقالا
فجاءت بكل قصير العذار لعيم النجارين : عما وخالا
قصار القدود ولكنهم أقاموا عليها قروناً طوالا

ويقال إن ابن عباد حقد على ابن عمار قوله^(٢) :
مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهريحكي انتفاخاً صولة الأسد
وفهم أنه يعنيه، فكان هذا إلى ما سبق سبب قتله، بعد أن استوزره
وأحسن إليه.

— ٥ —

ومن غريب ما يحكى عن أمير المؤمنين الناصر أنه أراد الفصد،
فقعد بالبهو في المجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته بالزهراء، واستدعى
الطبيب لذلك، وأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر، فبينما هو إذ

(١) راجع أخبارها في الفتح ج ٢ ص ٤٣٠ وما بعدها.

(٢) ينسب الأكترون هذين البيتين إلى ابن رشيق القيرواني.

أطل زرزور، فصعد على إناء ذهب بالمجلس، وأنشد :
أيها الفاصد رفقا بأمير المؤمنين
إنما تفصد عرفا فيه محيا المسلمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة، فاستظرف الناصر ذلك غاية الاستظراف، وسر به غاية السرور، وسأل عمن اهتدى إلى ذلك وعلم الزرزور، فذكروا له أن السيدة أم ولده ولي عهده الحكم المنتصر بالله صنعت ذلك، وأعدته لذلك الأمر، فوهب لها ما ينيف على ثلاثين ألف دينار.

— ٦ —

ومن شاعرات الأندلس أيضاً غاية المنى، وهي جارية أندلسية متأدبة قدمت إلى المعتصم بن صمادح، فأراد اختبارها، فقال لها. ما اسمك ؟ فقالت : غاية المنى، فقال لها : أجزبي : أسألوا غاية المنى، فقالت :
.....
من كسا جسمي الضنا
وأرانسي مولها سيقول الهوى : أنا

— ٧ —

ومنهن حمدة، ويقال حمدونة بنت زياد المؤدب من وادي آش، وهي غنساء المغرب، وشاعرة الأندلس.
قال المقرئ : خرجت حمدة مرة للوادي مع صبية، فلما نظت عنها ثيابها وعامت، قالت :
أباح الدمع أسراري بواد له للحسن آثار بوادي
فمن نهر يطوف بكل روض ومن روض يرف بكل وادي

ومن بين الظباء مهابة إنس سبت ليبي، وقد ملكت فؤادي
لها لحظ ترقده لأمر وذاك الأمر يمتعني رقادي
إذا سدلت ذوائبها عليها رأيت البدر في أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق فمن حزن تسربل بالحداد

ودخلت على المظفر بن المنصور بن أبي عامر، وبين يديه ولد
له فارتجلت :

أراك الله فيه ما تريد ولا برحت معاليه تزيد
فقد دلت مخايله على ما تؤمله، وطالعه السعود
تشوقت الجياد له، وهز الـ حسام هوى، وأشرفت البنود
وكيف يخيب شبل قد نمته إلى العليا ضراغمة أسود
فسوف تراه بدرأ في سماء من العليا، كواكب الجنود
فأنتم — آل عامر — خير آل زكا الأبناء منكم والجدود
وليدكم لدى رأي كشيخ وشيخكم لدى حرب وليد

— ٨ —

ومنهن زهون الغرناطية، قال في المغرب : هي من أهل المائة
الخامسة، ذكرها الحجاري في المسهب، ووصفها بخفة الروح والانطباع
الزائد، والحلاوة، وحفظ الشعر، والمعرفة بضرب الأمثال، مع جمال
فائق، وحسن رائق، ولها مع الوزراء والشعراء، مساجلات فكهة، نروي
منها لترويح النفس بعض دعاياتها مع أبي بكر المخزومي الشاعر الأعمى،
فمن ذلك أنه قال فيها :

على وجه زهون من الحسن مسحة وتحت الثياب العار لو كان باديا
قواصد زهون، توارك غيرها ومن قصد البحر استقل السواقيا

فأجابته :

إن كان ما قلت حقاً من بعض عهد كريم
فصار ذكري ذمياً يعزى إلى كل لوم
وصرت أفصح شيء في صورة المخزومي^(١)

ودخل بعض الشعراء وهي تقرأ على المخزومي، فقال يخاطبه :
لو كنت تبصر من تجالسه. فأفجم وأطال الفكر، فما وجد شيئاً،
فقال نزهون :

لغدوت أحرص من خلاخله
البدر يطلع من أزرته والغصن يرح في غلاته

ولها :

لله در الليالي، ما أحسنها وما أحسن منها ليلة الأحد
لو كنت حاضرنا وقد غفلت عين الرقيب، فلم تنظر إلى أحد
أبصر شمس الضحى في ساعدي قمر بل ريم حازمة في ساعدي أسد

(١) راجع ١/٨٩ نفع الطيب.

الباب الرابع

الأدب العربي في المغرب وجزر البحر
وهو وثيق الصلة بالأندلس

الأدب العربي في المغرب وجزائر البحر

تمهيد :

أ — تنتظم بلاد المغرب البلاد التي بين برقة والمحيط الإتلانتي من شمال إفريقية وهي :

- ١ — المغرب الأدنى أو إفريقية — بلاد طرابلس وتونس.
- ٢ — المغرب الأوسط — بلاد الجزائر.
- ٣ — المغرب الأقصى أو مراکش.

وهذه البلاد يسكنها من قديم الأزمان أمم حامية أطلق عليهم اسم البربر لعجمتهم. وبهذا كان الرومان ثم العرب يسمونهم، ويزعم كثير من نسابهم أنهم كلهم أو بعضهم من سلائل عربية حميرية ومضرية وليس بصحيح.

ب — وأمم البربر صنوف كثيرة لهم لغات لا تحصى، وهم أهل بدو في معيشتهم لم يخضعوا لأمة من الأمم خضوعاً تاماً لشدة شجاعتهم وعصبيتهم، ولم يلاق المسلمون في تاريخهم للبلاد التي افتتحوها ما لاقوه في هذه البلاد، فقد أسلموا وارتدوا بضع عشرة مرة وغدروا في كل مرة منها بالعرب وفتكوا بهم إلى أن دانوا الإسلام : زمن ولاية موسى بن نصير ثم زمن الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى والأغالبية

بافريقية، ولما أسلموا اتخذوا الاسلام سيفاً بأيديهم ينكرون به علي
الولاة والملوك، باسم الشيعة مرة والأباضية أخرى والسنية حيناً.
ويؤسسون لبعض بيوتاتهم، أو بيوتات الأشراف العلويين، بينهم دولاً
بربرية أو عربية في حمايتهم، ولذلك بقيت لغتهم منتشرة إلى الآن
بالمغرب، وخاصة البلاد المتبعة منه، غير أن هذه اللغة لم تكن لغة
قراءة وكتابة وعلم وأدب، بل كانت اللغة العربية في جميع أطوارهم
هي اللغة الرسمية في السياسة والعلم والأدب. وحكم البلاد ولاة العرب
زمن الأمويين ثم دولة الأدارسة (١٧٢-٢٧٠هـ) مستقلة بالمغرب
الأقصى، والأغالية من قبل العباسيين بافريقية (١٨٤-٢٨٩هـ)، ثم دولة
الفواطم وولاة بني أمية بالأندلس، ثم دولة البربر من المرابطين فالموحدين
فبني مرين بالمغرب الأقصى والأوسط، ومن الصنهاجيين بافريقية. ونشأ
من هذه الدول دول صغيرة بافريقية والمغرب الأوسط حتى ولي الأشراف
السعديون ثم السجلماسيون بالمغرب الأقصى، واستولى الترك العثمانيون
على المغرب الأوسط والأدنى، فمن ذلك ترى أن العصر الأول وهو
عصر الولاة لبني أمية في دولتهم والأغالية من قبل بني العباس، كان
للغرب فيه النفوذ الأعلى، فارتقت اللغة وآدابها وعلومها زمن الأغالية
والفواطم وخلفائهم من الصنهاجيين ارتقاء لم يحظ العرب بعده بمثله.
وكانت مدينة القيروان هي كعبة علوم الدين واللغة والأدب، ونبع فيها
من العلماء والكتاب والشعراء فريق كادوا يلحقون فحول المشرق خطابة
وكتابة وشعراً وعلماً. ثم أدخل الفواطم بمصر كثيراً من العرب الضاريين
بشرقي مصر من بني هلال وسليم وجشم ورياح وغيرهم بلاد المغرب،
تأدياً للصنهاجيين الخارجين عليهم، فانتشروا في المغرب كله وكانوا
بداة جهلة، فخرّبوا كثيراً من مدنه، ونشروا فيه اللسان العربي البدوي
بلا علم ولا أدب مدون.

وبقي العلم والأدب يخمدان تارة ويتعشان أخرى زمن دول البربر
حتى استولى الترك ثم الفرنسيون على المغرب الأدنى والأوسط، فاضمحلا

بهما وبقي منهما ذماء بالمغرب الأقصى أخذ الآن يتحول إلى حياة جديدة متأثراً بالنهضة العامة في مصر والشرق. وكان أكثر الناهضين بالعلم والأدب في هذه الأطوار رجالاً من الأندلسيين أو المشرقيين استوطنوا المغرب وخدموا ملوكه إلا ما كان بافريقية زمن الأغالبة والفاطم وخلفائهم.

جـ — أما جزائر البحر فنقصد بها صقلية وعدداً من الجزائر الواقعة في البحر الأبيض المتوسط حكمها المسلمون مدة طويلة، ونشروا فيها العلم. والإمام أبو حفص عمر بن شعيب القرطبي الأندلسي القائد الزاهد هو فاتح (جزيرة كريت). والإمام القائد اسد بن الفرات الفقيه العابد هو فاتح (جزيرة صقلية).

وقد أنجبت صقلية كثيراً من العلماء والأدباء والشعراء منهم : أبو القاسم علي بن جعفر السعدي الصقلي المعروف بابن القطاع (٤٣٣-٥١٥هـ)، وله كتاب أبنية الأسماء، وكتاب الدرّة الخطيرة في المختار من شعر شعراء الجزيرة — صقلية — وقد ولد بالجزيرة، ورحل عنها إلى مصر عام ٥٠٠هـ لما أشرف الافرنج على تملكها... ومنهم أبو عبدالله محمد بن أبي محمد بن ظفر الصقلي حجة الدين، وقد ولد بصقلية وسكن آخر الوقت في حماة وتوفي بها سنة ٥٦٥هـ، ومنهم أبو بكر محمد بن سابق الصقلي المتوفى بمصر سنة ٤٩٣هـ وأبو عبدالله محمد بن عيسى بن عبد المسغم الصقلي وكان كاتباً شاعراً مهندساً منجماً.

ومن أدبائها : ابن حمديس، وكان قد دخل الأندلس سنة ٤٧١هـ ومدح المعتمد وتوفي سنة ٥٢٧هـ بجزيرة ميورقة وقيل ببجاية.

ومن الأدباء : كذلك أبو العرب مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي، ولد سنة ٤٢٣هـ وخرج عنها لما تغلب عليها الروم سنة ٤٦٤هـ قاصداً المعتمد بن عباد.

د - وأهم منطقة في بلاد المغرب العربية كلها تونس، التي انبعث منها شتى النهضة الدينية والعلمية والأدبية في مختلف العصور، ولا ضير في أن نتحدث عن تاريخ تونس بشيء من التفصيل، ففي الحديث عنها إيضاح لحال الأدب فيها خاصة وفي خلال المغرب عامة :

١ - لما استولى العرب على مصر سنة ١٧هـ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب اتجهوا بفتوحاتهم نحو الشمال، فانتزعوا برقة وطرابلس من يد الروم، ثم حولوا أنظارهم إلى بلاد المغرب، وغزوا إفريقية لأول مرة سنة ٢٧هـ، ثم رجعوا إليها سنة ٤٥هـ، ولكنهم لم يستقروا بها ولم يتركوا وراءهم أثراً يذكر. فكانت هاتان الحملتان تمهيداً للفتح النهائي الذي تم على يد عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ، وقد رأى عقبة أن أحوال إفريقية لا يمكن أن تستقر للعرب إلا إذا أنشأوا لهم مركزاً قاراً بها ومعسكراً يخرجون منه لفتح بقية المغرب، فصرف عنايته لبناء مدينة القيروان^(١)، ومنذ اليوم الذي أصبح فيه للعرب عاصمة في إفريقية اهتموا بفتح بلاد المغرب فتحاً نهائياً، وصاروا يعتبرون إفريقية ولاية مستقلة الشخصية بعد أن كانت تابعة لمصر.

وقد وقف كل من الروم والبربر في وجه استيلاء العرب على إفريقية وبقية المغرب وتحالفوا لمقاومة العرب. ولكن عقبة عرف كيف يقضي على هذه المقاومة في بادئ الأمر، واستطاعت جيوشه أن تستولي على البلاد إلى أن وصلت حتى المحيط الأطلسي. غير أن جيوشه انهزمت في طريق رجوعها من المغرب الأقصى أمام جيوش البربر التي كان يقودها « كسيلة » فخرجت إفريقية من يد العرب للمرة الأولى بعد أن احتل البربر القيروان وأقاموا دولة بربرية في جنوب إفريقية، بينما كان الروم محتفظين بشمالها، ومتحصنين في قرطاجنة وبقية المراكز المحصنة، أن غير انهزام الجيوش العربية لم يمح أثر العرب في إفريقية

(١) توفي عقبة عام ٦٢هـ - ٩٢هـ حسن المحاضرة.

إذ بقي الكثير منهم مقيماً بالقيروان تحت حكم كسيلة، وكانت تناصرهم قبائل بربر الجنوب الذين دخلوا الإسلام منذ الغزوة الأولى، وفي عهد عبد الملك بن مروان توجه العرب إلى القضاء على دولة الروم ودولة البربر، وكسر شوكة قبائل بربر الشمال المحتصمين في الجبال. فاستطاع زهير بن قيس البلوي القضاء على المقاومة البربرية سنة ٦٤هـ. وجاء بعده حسان بن النعمان إلى إفريقية سنة ٧٦هـ، وكانت مهمته القضاء على مقاومة الروم، فتمكن من الاستيلاء على حصونهم وطردهم من عاصمتهم قرطاجنة، ولكن إفريقية خرجت من يد العرب مرة ثانية، إذ انتظمت مقاومة البربر بزعامة امرأة منهم تلقب « بالكاهنة » بينما جاءت مساعدات الروم من بيزنطية نفسها. وعاد حسان إلى إفريقية سنة ٨١هـ، وبقضائه على جيوش الكاهنة قضى على آخر مقاومة قام بها أهل البلاد، ثم اتجهت عنايته إلى الروم فاستولى على قرطاجنة بعد أن حاصرها براً وبحراً. هكذا تم الفتح العربي في إفريقية، وبقي على العرب أن ينظموا شؤون ولايتهم الجديدة وأن يستقروا فيها، وأن يفتحوا بقية المغرب حتى يتم لهم أمر البلاد كلها.

وكانت إدارة البلاد موكلة إلى الوالي الذي يعين من قبل الخليفة. واتخذ العرب مدينة القيروان مركزاً إدارياً، وأنشأوا بها الدواوين المختلفة، وعينوا العمال للإشراف على شؤون الولاية. وبإدارة حسان بإنشاء ميناء جديد يحل محل قرطاجنة، فبنى مدينة تونس التي ما لبثت أن أصبحت المنفذ الذي خرج منه العرب لفتح صقلية وإيطاليا.

وكانت المعاملة الحسنة التي كان العرب يعاملون بها البربر مما ساعد على فتح أجزاء المغرب الأخرى، إذ بمجرد ما دخل البربر في الإسلام واعتبروا متساوين في الحقوق والواجبات مع الغزاة العرب، أصبحوا يشاركونهم في الفتوحات ومناصب الإدارة وغيرها. وقد أدت هذه السياسة في بلاد إفريقية إلى نهوض البربر وأخذهم بأسباب الحضارة

العربية وتعلقهم بلغة العرب ودينهم، واندماجهم شيئاً فشيئاً في العنصر العربي، فأنشأوا عدة دول وأقاموا حضارة زاهرة مميزة في تاريخ الحضارة الإسلامية.

٢ — وقد كان للخلافات التي حدثت في المشرق أواخر القرن الأول الهجري والتي أدت إلى ظهور « الخوارج » صداها في بلاد المغرب فانتشرت حركة الخوارج بسرعة بين قبائل البربر وحتى في بلاد الأندلس التي كانت في ذلك الحين تابعة لإمارة القيروان. وصارت إفريقية بدورها ميداناً للفتن الداخلية. فلم تستقر فيها دولة قوية إذا استثنينا دولة بني المهلب، التي ظهرت الدولة الأغلبية في أواخر القرن الثاني الهجري.

وكان لدعاية الخوارج أثر عظيم في انتشار الإسلام واللغة العربية بين القبائل البربرية. وفي هذا العهد أيضاً وجه الخليفة عمر بن عبد العزيز عنايته إلى نشر الإسلام في المغرب. فأرسل جماعة من مشاهير التابعين لتنظيم هذه المهمة، وبناء صرح المغرب الإسلامي، فأسسوا المساجد في سائر أنحاء البلاد لنشر مبادئ الدين الإسلامي، وأنشأوا الكتاتيب لتعليم اللغة العربية. ويرجع تاريخ بناء جامع الزيتونة إلى هذا العهد (سنة ١١٤ هـ). وبالرغم من الفتن والاضطرابات فقد بدأت تظهر في إفريقية بوادر ازدهار الحضارة العربية، وشرعت إفريقية في ظل الإسلام تأخذ طريقها إلى الحياة السياسية والعقلية الخاصة بها، إلى أن تكونت فيها دول قوية لها شخصيتها وحضارتها، وأولى هذه الدول هي الدولة الأغلبية.

٣ — ولم تستقر الأحوال في إفريقية إلا في عهد الخلافة العباسية عندما عين هارون الرشيد سنة ١٨٤ هـ ابراهيم بن الأغلب والياً عليها، جاعلاً الإمارة وراثية في بيته، وهكذا نشأت في تونس أول دولة عربية قوية مستقلة داخلياً عن الخلافة، وتعاقب أمراؤها على الحكم أكثر من

قرن بلا انقطاع. وقد اتخذ الأغالبة القيروان عاصمة لمملكتهم التي كانت تشمل مقاطعة قسطنطينية (بالجزائر) وطرابلس الغرب وفي ظل الأمن الذي استطاعت الدولة تحقيقه ساد البلاد الرخاء ونمت ثروتها الطبيعية، فانتشرت الزراعة كما كانت في عهد الرومان، وانتظمت وسائل الري في البوادي، وأنشئت المدن، وظهرت فيها الصناعات وبخاصة صناعة نسج الصوف والحزير. وعنت الدولة بالمناجم فاستخرجت منها المعادن، وقيوت الحركة التجارية في الموانئ مع العواصم الأوروبية. وانصرفت الدولة إلى الأعمال العمرانية؛ فجددت مسجد القيروان وأنشأت المساجد في سوسة وصفاقس، وأقامت الأسوار حول المدن والحصون على السواحل، وبنيت السدود والأحواض في أنحاء البلاد لجمع مياه الأنهر والأمطار، وأشهر هذه الأحواض « صهريج الأغالبة » في القيروان الذي ما يزال موجوداً حتى الآن.

وكانت مدينة القيروان في هذا العصر معقلاً من معاقل الحضارة الإسلامية ومنبعاً من منابع إنتاج الفكر العربي، فانتظم التعليم في الكنائس والمساجد والجوامع، وتكونت المكاتب العامة لجميع الكتب الأدبية والعلمية، وأنشئ بالقيروان معهد لدراسة الرياضيات والطب والصيدلة وترجمة الكتب اللاتينية، وسمي هذا المعهد « بيت الحكمة ». وقد ظهر في ذلك العصر من مشاهير الرجال القاضي أسد بن القرات (المتوفى سنة ٢١٣هـ) والقاضي سحنون المتوفى (سنة ٢٤٠هـ) من أئمة المذهب المالكي، ومن الأطباء أحمد بن الجزار. واعتنى الأغالبة بالفن المعماري الذي امتاز في عهدهم بطابع خاص. واشتهر بلاط الأغالبة في القيروان بعظمته وأبهته، وكانت لهذه الدولة صلات ودية بالامبراطور شارلمان. واعتنى الملوك الأغالبة إلى جانب هذا بالفتح فبسطوا نفوذهم على البحر الأبيض المتوسط وكانوا ورثة قرطاجنة وروما. وقد احتلوا جزيرة صقلية سنة ٢١٢هـ واستولوا على جنوب إيطاليا سنة ٢٨٩هـ، وهكذا أوصلوا

الثقافة العربية إلى أوروبا وصار الأساتذة العرب في صقلية ينشرون العلوم ممهدين السبيل للنهضة الأوربية التي ظهرت فيما بعد في إيطاليا. وبالجملة فإن عصر الأغالية كان عصر نهضة اقتصادية وعمرانية وفكرية تركت أثراً عميقاً في بلاد إفريقية.

٤ — وكان للمذاهب المختلفة الناشئة عن الخلافات الدينية والسياسية القائمة في الشرق العربي أثرها في الدولة التي نشأت في المغرب، وقد كانت هذه البلاد حتى أواسط القرن الثالث الهجري يسودها المذهب المالكي الذي وطد أركانه بها كل من الفقيهين المالكيين أسد بن الفرات وسحنون، ولكن شيئاً فشيئاً بدأ البربر يتصلون برجال المذاهب الأخرى، ووجدوا في فرقة الخوارج وصلاتها في الدين تلاؤماً مع طبيعتهم، وسرعان ما أقبلوا على اعتناق مذهبها، وما كان القرن الثالث يوفي على نهايته حتى كان مذهب الأباضية — وهي فرقة من فرق الخوارج — قد انتشر انتشاراً كبيراً في القبائل التي تسكن جنوب المغرب. أما قبائل الشمال : كتامة وصنهاجة وما يتبعهما فقد اعتنقت المذهب الشيعي الذي قام بالدعوة إليه في المشرق عبيد الله المهدي، وأوفد في ذلك الحين داعي أبا عبدالله ليتولى نشر مذهبه ببلاد المغرب، وكانت دولة الأغالية قد أشرفت على نهايتها. فنظم أبو عبدالله الدعوة ضدها، كون الجماعات لنشر المذهب الشيعي وخلع طاعة الأغالية، والعمل على تكوين خلافة شيعية بالمغرب. وعندما رأى عبيدالله المهدي أن الدعوة قد انتشرت بالمغرب، وأن جيوش داعيته قد أصبحت قاب قوسين من النصر، انتقل من دمشق إلى سجلماسة، وظل مخفياً بها إلى أن انتهى الأمر بانهزام جيوش الأغالية، وفر آخر أمير منهم وهو زيادة الله الأغالي بعد أن يس من وصول نجدة العباسيين إليه. فدخل عبيدالله إلى القيروان حيث بويع بها سنة ٢٩٧ ولقب بأمر المؤمنين. وهكذا تكونت بإفريقية خلافة الفاطميين، بينما كانت الخلافة العباسية

ما تزال قائمة ببغداد، والخلافة الأموية بالأندلس. وبعد ذلك أخذ الفاطميون يوطدون أركان دولتهم ببلاد المغرب. فأسسوا عاصمتهم الجديدة سنة ٣٠٨ وأسموها المهديّة، واستطاعوا أن يخضعوا لسلطانهم كافة بلاد المغرب بعد أن قضوا على الدولة الأياضية في تيهرت (الجزائر) والصفرية في سجلماسة (المغرب الأقصى) والأدرسية في فاس، وبعد ذلك اتجه الفاطميون بدعوتهم إلى منبعا الأول في الشرق العربي، وأرادوا أن يسيطروا سلطانهم عليه، فوجهوا جيوشهم بقيادة مولاهم جوهر الصقلي الذي ما لبث أن استولى على مصر ودخل عاصمتها الفسطاط، وأسس بجوارها مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ التي أصبحت منذ ذلك الحين حاضرة الخلافة الفاطمية التي امتد نفوذها من الشام إلى أقصى المغرب؛ وعلى الرغم من الثورات التي انتابت تونس في هذا العهد فإن الحضارة العربية قد ازدهرت بها من جديد، ونشطت النهضة العلمية وانتشرت المعاهد الثقافية ليس في تونس فقط بل حتى في مدن صقلية التي كانت خاضعة لسلطانهم. وإلى جانب هذا احتفظ الفاطميون بالسيادة العربية على البحر الأبيض المتوسط، فكان أسطولهم يجوب البحار ويشن الغارات على المدن الإفرنجية وعلى جزر اليونان، واستطاعوا أن يضموا إلى خلافتهم كلا من جزيرتي أفریطش (كريت) وسردينيا وقسماً من جزيرة كورسيكا.

٥ - ولما انتقلت عاصمة الخلافة إلى القاهرة أصبح المغرب ولاية تابعة لمصر، يدير شؤونها أمير من أصل بربري اسمه بلكين بن زيري ابن مناذ الصنهاجي. وهكذا تأسست الدولة الصنهاجية، وكانت مرتبطة بالخلافة ارتباطاً صورياً فحسب. واستطاع ملوكها الاحتفاظ بمملكتهم الواسعة التي ورثوها عن الفاطميين. ثم خرج عن طاعتهم المغرب الأوسط، حيث تكونت به دولة بني حماد في فجر القرن الخامس هـ. وبقيت مملكة بني زيري محصورة في إفريقية بعد الفتح الإسلامي،

ويعد عصرها من أمهر عصور الحضارة التونسية. وقد مهد لهم السبيل الأغالية والفاطميون في نهضتهم بالبلاد من الوجهة الاقتصادية والعمرائية والثقافية. فشارك الصنهاجيون بأوفر قسط في بناء صرح الحضارة العربية، وبلغت تونس في عهدهم الذروة العليا في الرقي والتمدن. فانتشرت الزراعة في أنحاء البلاد بفضل انتشار وسائل الري، وارتفع مستوى الصناعة الوطنية ونشطت التجارة مع الخارج، أما النهضة الأدبية والفكرية فإنها وصلت إلى درجة لم تبلغها تونس من قبل فامتلاً بلاط ملوكها برجال العلم والأدب، وعنى أغلبهم بالفن المعماري فأنشأوا القصور الفخمة والمتنزهات الجميلة، وتنافسوا في تشييد المعالم كالجسور والطرقات وصهاريج المياه والحصون والأسوار.

٦ — وحوالي سنة ٤٣٥هـ، أظهر الملك المعز بن باديس الصنهاجي انحيازه إلى أهل السنة في القيروان، وأصبح يناصر الخلافة العباسية في بغداد معلناً خروجه عن طاعة الخليفة الفاطمي المستنصر سنة ٤٣٩هـ. فرأى المستنصر أن ينتقم من المعز، وأرسل إلى إفريقية قبائل بني هلال وبني سليم ورباح التي كانت تقيم في الصعيد المصري، فوصلوا إفريقية سنة ٤٤٠هـ، وقد أحدث هذا الزحف العربي العظيم انقلاباً عميقاً في مختلف نواحي الحياة بإفريقية، إذ تم بفضل استعراب البلاد بصورة نهائية، إلا أنه كان من نتائجه أن عمت البلاد الاضطرابات وتمزقت أوصال الدولة الصنهاجية، كما وقع في سائر البلاد التي كان يحكمها العرب شرقاً وغرباً وقتذاك، وبقي بنو زيري محتفظين بالمهدية والمناطق المجاورة لها. وفي تلك الفترة انتزع النورمان من العرب جزيرة صقلية بعد أن كانت تابعة لتونس مدة تقرب من ثلاثة قرون، وصاروا يغزون المهدية بين الحين والآخر حتى استولوا عليها سنة ٥٤٣هـ، كما استولوا على معظم السواحل التونسية، بينما كانت مدن الداخل تخضع لحكم القبائل العربية. وهكذا انقرضت الدولة الصنهاجية في تونس.

٧ - وقد استنجد الملك الحسن بن علي الصنهاجي بعيد المؤمن ابن علي مؤسس الدولة الموحدية في المغرب الأقصى لإنقاذ تونس من أيدي الإفرنج، وكان عيد المؤمن في ذلك الحين قد أخضع لسلطانه المغرب الأقصى كما ضم إلى مملكته بلاد الأندلس، فاستجاب عيد المؤمن لاستنجد الصنهاجيين، وسار إلى إفريقية محتلاً في طريقه المغرب الأوسط، ثم أخذ يحتل بلاد إفريقية، وبعد أن استولى على المناطق الداخلية سار إلى مدن الساحل وطرد منها النورمان. فتم له أمر البلاد سنة ٥٥٥ هـ وهكذا تأسست دولة مترامية الأطراف تضم أقطار المغرب العربي الثلاثة، ودامت أكثر من سبعين سنة استطاع فيها الموحدون أن يخدموا الثورات العديدة التي كانت تقوم ضدهم بين الحين والآخر.

٨ - وعمل ملوك بني حفص على إصلاح البلاد من جراء العهد المضطرب الذي مر على إفريقية، وساروا على منوال الموحدين في تنظيم دواوين الدولة واستطاع أبو زكريا مؤسس الدولة وكذلك المستنصر الذي خلفه توطيد دعائم الأمن في تونس وإخماد نار الفتن بين القبائل والقضاء على الثورات التي نشبت في مختلف أنحاء البلاد، وقد اتسعت المملكة الحفصية حتى شملت طرابلس والجزائر ومراكش التي انضم ملوكها بنو مرين إلى الحفصيين وقدموا لهم فروض الولاء، كما بايعهم أمير مكة وأهل الحجاز سنة ٦٥٨ هـ. وفي عهد المستنصر أغار لويس التاسع ملك فرنسا على تونس في الحملة الصليبية الثامنة، ونزل الطاعون بجيشه فأفتى معظمه ولقي الملك لويس نفسه حتفه بتونس سنة ٦٦٩. (١٢٧٠م) ثم شاهدت الخلافة الحفصية عهداً مضطرباً دام حوالي مائة سنة، وكان التنافس بين أمراء البيت الحفصي وتطلعهم إلى الخلافة من جهة، والخلافات القائمة بين القبائل من جهة أخرى باعثاً لكثير من الفتن التي أضعفت سلطة الخلافة المركزية، فخرج عن طاعة الخليفة أطراف المملكة، واستقل بالحكم بنو يملول في توزر وبنو خلف في نفطة، وبنو مكلي في قابس، وبنو ثابت في طرابلس. وقد شجع التدهور

الذي لحق الخلافة الحفصية في ذلك العهد ملوك بني مرين في المغرب الأقصى على الاستيلاء على إفريقية مرتين دون أن يستقر لهم الحكم بها زمناً طويلاً. وفي أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري عادت البلاد إلى وحدتها القديمة ومجدها السالف، وساد فيها الأمن بفضل أعمال الخليفة أبي العباس والخليفة أبي فارس، فتدعمت أركان الدولة من جديد، وامتد نفوذ بني حفص إلى المغرب الأوسط بعد أن سقطت تلمسان في أيديهم ثم إلم المغرب الأقصى والأندلس. وقد عني كل من هذين الخليفين بإقامة الحصون على السواحل لرد الحملات التي ابتدأ يشنها الصليبيون على تونس، بيد أن الخلفاء الذين تولوا بعدهما لم يستطيعوا أن يحافظوا على مكانة الدولة فساروا بالبلاد في القوضى، وخرج عن سيادتها كثير من الأنحاء حتى لم يبق تابعاً لهم في أواخر القرن التاسع الهجري غير مدينة تونس، وما جاورها من المناطق، واستقلت مدن السواحل بحكم نفسها، وأخذت كل واحدة منها تلعب دوراً هاماً في البحر الأبيض المتوسط.

وفي عهد الدولة الحفصية رأت البلاد عصوراً زاهرة بالرغم مما انتاب البلاد من اضطرابات وضعف سلطة الخلفاء المركزية، وقد عقدت الدولة الحفصية عدة معاهدات لتنظيم الملاحة وتوثيق العلاقات التجارية والسياسية بينها وبين البلاد الأوروبية، كبرشلونة وجنوة وبيزة وصقلية والبندقية ومرسيليا واشتهرت بين التجار الأوربيين أسواق تونس والمهدية وقابس وعنابة وأصبحت قبلة تجار البحر الأبيض المتوسط. وأنبعث الحياة الأدبية والعلمية في هذا العصر، وكان نزوح العرب من الأندلس وصقلية إلى تونس من العوامل التي كان لها أكبر الأثر في انتشار العلوم والفنون، فظهر أثر الفن الأندلسي فيما أنشئ من المباني: كجامع القصاء بعاصمة تونس وضومته المشهورة وأسواق المدينة وأبوابها التي ما تزال موجودة إلى الآن. كما عمل الملوك الحفصيون على تشجيع

العلم والأدب في البلاد، فأسسوا المدارس لسكنى الطلبة ونظموا التعليم بجامع الزيتونة، ومن مشاهير رجال العصر ابن خلدون وابن عرفة والأطباء من آل الصقلي.

٩ — وشهد القرن العاشر الهجري ذلك النزاع الكبير الذي كان قائماً بين الأسيان والأتراك للتحكم في البحر المتوسط والسيطرة عليه، وقد ابتدأ نفوذ الأسيان يمتد الى سواحل المغرب بعد أن طردوا العرب من الأندلس، بينما ظهر في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط بعض القواد الأتراك مثل بابا عروج وأخوه خير الدين الذين كانوا يعملون باسم السلطان العثماني. وهكذا أصبح العثمانيون والاسيان يتسابقون للاستيلاء على سواحل تونس بعد أن عجز أمراء بني حفص على رد هجماتهم. واستطاع أمراء الإفرنج احتلال أهم مركز السواحل التونسية، وسقطت مدينة تونس سنة ٩٥٠هـ، في أيدي الأتراك الذين احتلوها بعد استيلائهم على مدينة الجزائر. ثم انتزعا منهم الأمير الحفصي الحسن وعاد إلى حكمها تحت الحماية الاسبانية سنة ٩٤٢هـ. وفي النهاية استطاع الأتراك طرد الأسيان من مدن السواحل، بفضل الحملات التي شنّها عليهم القائد التركي الشهير درغوث بمساعدة القبائل العربية. وبقيت الحرب بين الأسيان والأتراك قائمة مدة طويلة، وبعد أن استرجع الأتراك مدينة تونس سنة ٩٧٧ بقيادة علي باشا أمير الجزائر عاد إليها الحكم الأسياني الحفصي سنة ٩٨٠، ثم غزاها أسطول تركي جاء من الأستانة بقيادة سنان باشا، بينما زحفت إليها قوات أخرى من طرابلس والقيروان سنة ٩٨١هـ. وهكذا أصبحت تونس ولاية تابعة للسلطنة العثمانية وجزءاً من ممتلكاتها في شمال أفريقية الممتدة من الجزائر إلى القطر المصري.

وعمل سنان باشا قبل مغادرته تونس على تنظيم إدارة شؤون البلاد حسب النظام المعمول به في سائر البلاد التركية، وكان يحكم ولاية

تونس نيابة عن السلطان العثماني والي يحمل لقب الباشا « ويساعده ديوان يتألف من ضباط الجيش، وكانت قيادة الجيش بيد « آغا »، وقيادة كل فرقة عسكرية بيد « الداى »، وعين لجباية المال موظف يسمى « الباى »، وقد أخذ نفوذ الديوان يتسع شيئاً فشيئاً إلى أن أدى الأمر بالبلاد إلى قيام ثورة سنة ٩٩٩هـ (١٥٩٠م) كانت نتيجتها إعطاء مقاليد الأمور إلى أحد « الدايات »، ثم أخذ نفوذ الداى يتسع شيئاً فشيئاً، بينما كان يتضاءل نفوذ « الباشا » الممثل الرسمي للدولة العثمانية في تونس، وقد نظمت شؤون هذه الولاية في عهد عثمان داى الذي عمل على تقوية الجيش وإعطاء قيادته إلى « باى »، وسار على متواله يوسف داى الذي تولى الحكم سنة ١٠١٩هـ (١٦١٠م)، فاستتب الأمن في عهدهما ونهضت البلاد من جديد.

ثم ساءت الأحوال في تونس بعد ذلك، لأن الدايات الذي تعاقبوا على الحكم من سنة ١٠٤٧هـ (١٦٣٧م) إلى سنة ١١١٧هـ (١٧٠٥م) لم يستطيعوا أن يحتفظوا لأنفسهم بالنفوذ، وقد تضاءلت سلطنتهم أمام سلطة « البايات » التي أخذت تتسع يوماً بعد يوم طول القرن الحادى عشر الهجرى. ومن العوامل التي قوت نفوذ البايات ما عمد إليه الباي العالي من إعطائهم لقب « باشا »، وجعل منصب الباي وراثياً وقد امتاز الثلث الأخير من القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر بما انتاب البلاد من حروب واضطرابات ناتجة عن التنافس على العرش. فنشبت الفتن الداخلية، وقامت حروب بين إمارة الجزائر وإمارة تونس، فعمت الفوضى، وتمزقت أوصال الدولة وضعفت السلطة المركزية، مما شجع أساطيل الدول الأوربية على ضرب سواحل تونس بالقنابل مرات عديدة، وعلى أثر غزوة قام بها والى الجزائر سادت البلاد اضطرابات شديدة، وتمكن آغا الجيش حسين بن على من الاستيلاء على الحكم بمساعدة الجيش التركى وموافقة الأهالى سنة ١١١٧هـ (١٧٠٥م).

وهكذا تأسست الدولة الحسينية التي توارثت الحكم في تونس إلى يومنا هذا. فعاد الأمن للبلاد بعد حالة من الاضطرابات دامت أكثر من أربعين سنة. وقضت الدولة الحسينية منذ أوائل عهدها على الثورات التي كان يقوم بها الجيش من حين لآخر لقلب نظام الحكم، وجعلت الولاية وراثية في العائلة الحسينية، واستطاع حسين بن علي مؤسس الدولة الذي دام عهده خمساً وثلاثين سنة إصلاح شؤون البلاد، فانتشر العمران في تونس ونشطت الفلاحة والصناعة والتجارة، وتأسست المنشآت العلمية. ومن بين ملوك البيت الحسيني الذي اشتهروا بأعمالهم ومآثرهم يجب أن نذكر علي باي (١١٤٨هـ - ١١٦٩هـ) : (١٧٢٦م - ١٧٣٥م) الذي استطاع أن يحقق لتونس عشرين سنة من الرخاء والطمأنينة. أما حمودة (١١٩٦هـ - ١٢٢٩هـ) : (١٧٨٢م - ١٨١٤م) فقد اشتهر في التاريخ بتمتين علاقاته مع أوروبا وخاصة مع نابليون سنة ١٨٠٢م، وبحربه مع البندقية التي دامت ثمانين سنوات (١٧٨٤-١٧٩٢) م.

وقد امتاز الحكم التركي في تونس - شأنه في ذلك كشأنه في كل الممالك التي كانت تسيطر عليها الدولة العثمانية - بأنه كان يقوم على القوة وعلى الجيش. وكان هم الدولة العثمانية الاستيلاء على أزمة الحكم في ممتلكاتها مستندة في ذلك على الجيش. ولم يكن لها اتجاه معين في سياستها. ولا مبادئ تسيير عليها في تنفيذ هذه السياسة، ويقدر ما يستطيع الجيش أن يحافظ على الأمن تزدهر الحياة الاقتصادية، وتنمو التجارة والصناعة والفلاحة والعلوم والفنون. وكان يتحكم في البلاد قوتان عظيمتان هما : الجيش من جهة، ويعتمد عليه الوالي في حفظ الأمن وجباية الأموال، وطائفة « الرياس » من جهة أخرى، وهم الذين يتولون عمليات القرصنة، وهي نوع من العمليات الحربية التي كان يقوم بها الجانيان المتحاربان من الدول الأوروبية والشرقية وقد

رأت تونس تحت الحكم التركي عهداً زاهرة بالرغم مما انتاب البلاد من اضطرابات بفضل ما بذله بعض الأمراء الصالحين من مجهود جبار للنهوض بالبلاد في سائر نواحي حياتها. وفي أوائل هذا العهد كان نزوح عدد كبير من العرب الذين طردوا من الأندلس سنة ١٠١٦هـ (١٦٠٩م) من العوامل التي نشطت التجارة والفلاحة والصناعة، وقد استوطن عرب الأندلس في سهول بنزرت ومجردة والدخلة، وشيدوا فيها القرى الفلاحية كطبرية ومجاز الباب وتستور والعالية وقلعة الأندلس وقرنالية وزغوان وسليمان والجديدة وأنشأوا المزارع والبساتين، حتى عادت إلى البلاد رفايتها القديمة، وكانت الغنائم التي يغنمها القرصان في البحر الأبيض المتوسط من عوامل إثراء السكان، وقد قوت القرصنة حركة البلاد التجارية وجعلت أسواق المدن مزدهرة. على أن أعمال القرصنة لم تكن حائلاً دون ربط الصلات بين تونس وأوروبا، واستئناف علاقاتها التجارية مع الدول كاسبانيا والدانمارك والولايات المتحدة، فبمجرد أن انتظمت أحوال الدولة، نشطت تجارتها مع مرسليليا وليفورن وبقية المدن الأوروبية، وقد تكونت علاقات رسمية بين تونس وفرنسا سنة ١٥٧٧م وأرسل ملك فرنسا هنري الثالث قنصلاً إلى تونس بعد الحصول على موافقة الدولة العثمانية التي أعطت لفرنسا امتيازات كبيرة في سائر ممتلكاتها. وقد ابتدأت تونس تسير شيئاً فشيئاً نحو شكلها الحاضر، وبخاصة منذ تولي حسن بن علي الحكم وجعله وراثياً في بيته. وكانت الروابط التي تربط الأمراء الحسينيين بالدولة العثمانية تتلاشى على مر الأيام، وضعف سلطان تركيا في تونس حتى كاد يكون عديم الوجود. وهكذا ابتدأت تنمو في تونس قومية تونسية بالمعنى الحديث وظهرت للوجود دولة تونسية اعترفت الدول الأوروبية بكيانها وعقدت معها المعاهدات، والحقيقة أن العنصر التركي الذي نزل بأرض تونس وأقام الحكم فيها قروناً عديدة لم يدخل تغيراً جوهرياً في أحوال البلاد، ولم يعتبر أهل تونس الغزاة الأتراك أجنب عنهم إذ كانوا يحكمون

البلاد نياية عن السلطان خليفة المسلمين جميعاً على أن العنصر التركي لم يحتفظ بشخصيته بل اندمج بمرور الزمن في العنصر العربي. واستمرت النهضة التونسية التي ابتدأت في عهد الدولة الحفصية. وأخذت طابعها الخاص بلا انقطاع تحت الحكم العثماني، وأخذت تونس تسير بخطى سريعة نحو التطور العصري بعد أن طلع عليها فجر القرن التاسع عشر الميلادي.

وفي أوائل القرن التاسع عشر بدأت تونس تستيقظ متدرجة في طريق النهضة العصرية، وكان يربطها بالدولة العثمانية مجرد روابط روحية، فبادرت بالتححرر من هذه القيود الصورية، واعترفت الدول الأوروبية كفرنسا وانكلترا والنمسا باستقلالها، وعقدت معها المعاهدات والاتفاقات. ثم اتجهت همة أمرائها إلى إدخال الإصلاحات على مرافق البلاد الحيوية، وفي مقدمها إصلاح الحكم بما يتفق والنظام الدستوري السائد في الأمم المتقدمة، وقبل فرض الحماية الفرنسية بنحو أربعين سنة نجد على عرش تونس الباي المصلح الشهير أحمد باشا (١٨٢٧م - ١٨٥٥م)، ثم محمد باشا (١٨٥٥ - ١٨٦٠) وقد أصدر عام ١٨٥٨ دستوراً لبلادها هو أول دستور في العالم العربي ثم الصادق باي (١٨٦٠ - ١٨٨١) وفي عهده فرضت فرنسا حمايتها على تونس في ١٢ مايو ١٨٨١.

الفصل الأول

الحالة الفكرية في بلاد المغرب

تمهيد :

منذ فتح المغرب العربي، وأسست القيروان عام ٥٠هـ، وأنشئ جامع الزيتونة في تونس، والثقافة العربية الإسلامية آخذة في الظهور والوضوح والغلبة، وكانت الصبغة الغالبة على العلماء هي الصبغة الدينية والثقافية الذائعة في المغرب هي ثقافة الشريعة وعلومها، وكان لمذهب مالك السيادة الروحية على هذه البلاد، التي لم ينبغ منها فيلسوف أو عالم كبير في ذلك الحين، وكان أنبغ علمائها إنما ينبغ في علوم الدين أو اللغة أو الأدب.

وكان القرن الرابع أول عهد المغرب بالفلسفة ومباحثها، إذ أن الفاطميين قد نقلوها مع دعوتهم، ومزجوا بمسائلهم عقيدتهم، فأخذت الفلسفة تظهر في ربوع المغرب، مكروهة مضطهدة، يحرمها العامة والفقهاء، وقامت دولة المرابطين في المغرب والأندلس، فاضطهد ملوكها كل من يشتغل بها، أو يجمع كتبها، وحرموا جميع فروعها ما عدا الرياضة والميقات والطب.

ثم قامت دولة الموحدين، فمزج ابن تومرت دعوته بمذهب الأشاعرة

من المتكلمين، وخاض هو وخلفاؤه في مسائل من الفلسفة، وجمعوا كتبها، وقدموا رجالها، وبعد انتهاء دولتهم أخذت الفلسفة تنشط حيناً وتخمد حيناً آخر، وكان أظهر من نبغ فيها من المؤرخين والفلاسفة ابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ)، وسنخص ابن خلدون بعد ذلك بحديث طويل مستفيض، نتحدث عن حياته، ونلم بترائه الفكري، ومذهبه في التاريخ ونقده، ونعرج على كثير من أمهات المسائل التي ابتكرها ابن خلدون وأشار إليها في مقدمته الخصبة الرائعة.

الحياة العلمية :

١ - كان المسلمون في أول أمرهم بالمغرب لا يعنون إلا بعلوم القرآن والحديث والفقه، فأخذوا فقههم عن صاحب مالك بن قاسم المصري، وأولهم أسد بن القرات مفتي الجماعة بالقيروان زمن الأغالية، وتلميذه سحنون الذي نقل مدونة الفقه التي رواها ابن قاسم عن مالك، ولخصها ابن أبي زيد القيرواني. وعندهم انتشر مذهب مالك في المغرب إلى وقتنا هذا، إلا في فترات كان يروج فيها فقه الشيعة الأدارسة والفاطميين وفقه الخوارج، وكان من أعظم المؤيدين لمذهب مالك بالمغرب والعاملين على إيادة فقه الشيعة وغيرهم المعز بن باديس عندما خلع طاعة خلفاء مصر من الفاطميين.

أما علم الحديث فانتشر بالمغرب وجزائره بعد الفقه بقليل. وكان لهم فيه حفاظ ثقات، إلا أن بعد الشقة عليهم جعل أكثرهم لا يرحلون في طلبه إلا إذا خرجوا. للحجج ولذلك كان عمدتهم كتب الحديث التي صحت عند المشاركة ككتب السنة الستة المشهورة، واشتهر عندهم من بينها صحيح مسلم، وفضلوه على صحيح البخاري وشرحه كثير منهم، ومن أشهر شروحه شرح المازري الصقلي. وتعصب المرابطون للسنة وطاردوا المشتغلين بعلم الكلام والفلسفة أي مطاردة.

أما علم الكلام فلم يكن من دأب المغاربة البحث في الجدليات المستمدة من غير الكتاب والسنة، إلا أن القواطم أدخلوا معهم في المغرب عقائدهم في الدين ممزوجة بالفلسفة، فاشتغل بها في زمنهم بعض أهل قرية أفريقية وبعض من دخل في طاعتهم في دولة الأدارسة. ولما نقلوا حاضرة ملكهم إلى القاهرة نسخ مذهب الشيعة في المغرب أو كاد، ولكن الاشتغال بعلوم الأوائل لم يضعف إلا قليلاً ريثما ظهر مهدي الموحدين ابن تومرت ناقلاً مذهب الأشاعرة من المتكلمين عن الغزالي، وجعل علم التوحيد غايته من دعوته، وألف كتباً، وجاء خلفاؤه من بني عبد المؤمن فحفلوا به وشجعوا المؤلفين فيه والمشتغلين بعلوم الأوائل.

٢ — وكانت عناية المغاربة بعلوم العربية لا تقل كثيراً عن عنايتهم بعلوم الدين، وكان أكثر اعتمادهم فيها على ما نقلوه من كتب البصريين والكوفيين، ولم يكن لهم في النحو رواية عن الاعراب ولا مذهب خاص كما صار للأندلسيين فيه.

ولكن اهتمام المعز بن باديس وأهله أنبت في القيروان نابتة من أئمة النحو والأدب واللغة، كالإمام ابن القزاز محمد بن جعفر صاحب المعجم الكبير المسمى الجامع في اللغة، ويعتبر من أمهات كتبها، رتبته على حروف المعجم سنة ٤١٢، وعليه تخرج ابن رشيق وابن شرف وغيرهما من أديب القيروان، والعلامة في كل علم والرحالة إلى كل قطر ابن فضال المجاشعي القيرواني، صاحب التصانيف الممتعة في اللغة والأدب والحديث والتفسير، مات ببغداد سنة ٤٧٩، ومن أشهر علماء النحو والقراءة بصقلية علي بن القطاع الصقلي صاحب كتاب الأسماء وكتاب الأفعال وغيرهما من المؤلفات الضخام، توفي بالقاهرة سنة ٥١٤، وعثمان ابن علي السرقسوسي الصقلي المقرئ النحوي اللغوي وغيرهما. ومن علماء المغاربة الذي برزوا في هذه العلوم، وخاصة الفلك

والجغرافية، الشريف الإدريسي الذي ألف لرجار نرماندي ملك صقلية كتاباً في الفلك والجغرافي، ورسم له الأرض في مصور جغرافي اتخذه من الفضة، فكان أصح من رسم بطليموس.

وممن رحل إلى الغرب من الأندلسيين، أبو عبدالله محمد بن أبي الخصال، وأخوه أبو مروان، وأبو محمد بن عيد المجيد بن عبدون، وقد تخرج عليهم من أبناء البلاد كثير مثل : ابن الميمون وابن محشوة. وقد مر بك أن ابن هانيئ لما ضاقت به بلاد الأندلس لم يجد ملجأ إلا بلاد المغرب، فنزل على الفاطميين بها، فلاقى منهم الإكرام والحفاوة البالغين. والأثر الواضح لاستفادة هذه البلاد من رحلة العلماء والأدباء إليها، بل أهل الصناعات وأرباب الفنون عامة، إنما كان حين انقضاء مدة العرب بالأندلس وإجلالهم عنها، فإنهم انساحوا في بلاد المغرب، فكان لهم عليهم اليد الطولى في الأدب والعلم والصناعة والزراعة حتى أحملوا أهل البلاد. وقطعوا أرزاقهم. وكان لا يستعمل بلدي ما وجد أندلسي. ويقول ابن خلدون في هذا : « وألقت الأندلس أفلاذ أكبادها من أهل المملكة — يريد المملكة العربية — بالجلء إلى إفريقية، ولم يلبثوا أن انقضوا، وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة، لعسر قبول أهل العدو لها، وصعوبتها عليه، وعوج ألسنتهم، ورسوخهم في العجمة البربرية ».

٣ — ومن أهم مراكز الثقافة في القديم والحديث (جامع الزيتونة)، وهناك اليوم أكثر من ستة ملايين مسلم من سكان شمال إفريقية يتطلعون إلى (جامع الزيتونة) بتونس، ويرون فيه ملجأهم وملاذهم، ويعدون ركن الإسلام ومعهد الثقافة العربية، وهذا المسجد من أقدم المعاهد الإسلامية الباقية، فهو أقدم عهداً من الجامع الأزهر، إذ بني في العام التاسع والسبعين للهجرة (٦٩٨هـ) في عهد حسان بن النعمان الغساني والي إفريقية، الذي توجه إلى تونس بأمر الخليفة الأموي عبد الملك

ابن مروان لمقاتلة البيزنطيين سنة ٦٩٣ م في جيش عدته أربعون ألف مقاتل، فهزمه البيزنطيون بادئ الأمر، ثم عاد فثبت أمامهم وانتصر عليهم، ودخل قرطاجنة، عاصمة البلاد وحصنها المنيع، سنة ٦٩٥ م، ولكنه فقدها، ثم عاد إليها ثانية في العام التالي برأ وبحراً فاستولى عليها، وصالحه الرومان على الخراج، غير أنهم ما لبثوا أن ركبوا مراكبهم وهربوا، فتم الأمر لحسان، فأخذ يبذل الجهد ليكون دولة إسلامية قوية في جميع نواحيها. فشيّد مدينة تونس، وبنى بها داراً لصناعة السفن، وأنشأ أسطولاً عظيماً جعل ممالك البحر الأبيض تهاب هذه الدولة العربية الناشئة، وتخشى بأس جيوشها. ولم يمض إلا أعوام قلائل حتى دانت البلاد كلها لحسان، واستتب الأمن بها، واستظلت براية الإسلام، فأخذ يوجه عنايته إلى العلم، فاختر نشراً تظلل أشجار الزيتون، وأمر بتشييد جامع يؤمه المؤمنون للصلاة، ويتلقون فيه أصول دينهم الجديد، فسمي (جامع الزيتون) نسبة إلى موقعه. وقد بني هذا الجامع على طراز مسجد القيروان، ونقلت أعمدته الرخامية المنتشرة في ساحته من خرائب قرطاجنة، وصنعت أبوابه ومئبره من خشب الصندل. وفي سنة خمسين ومائتين للهجرة شيّدت به قبة كقبة مسجد القيروان، مما يدل على أن هذه القبة كانت حينئذ أنموذجاً بارزاً يتبع في بناء القباب. وفي سنة إحدى وثمانين وثلثمائة توج المنصور جامع الزيتون بقبة ثانية، اشتق أصولها من نظام مسجد القيروان أيضاً، وأسماها قبة باب البهو، وبذلك صارت القبتان في هيئة واحدة، وإن كان بينهما مائة وستون سنة، فعناصرهما واحدة، وعدد ما بهما من الأعمدة والعقود والأقواس والضلوع واحد، وكانت مثذنة (جامع الزيتون) مساوية لسطحه أول ما بني، فهدمت في أواخر القرن الماضي، وحلت محلها أخرى يربو ارتفاعها إلى الأبعين متراً، وتعتبر آية من آيات فن البناء، فهي تمتاز عن مآذن المساجد في البلاد الإسلامية الأخرى بتربيع ضخم سامق يكاد يفرد بها في عمارة المآذن، وأحر

بمن يهتم بذلك الفن أن لا يغفل زيارتها إن حرص على أن لا يفوته أثر خالد في ذلك الباب.

وتعاقبت الدول، وتوالى الملوك والولاة على تونس، فلم تصرفهم مشاكل السياسة وشغون الحرب عن العناية بالآداب والعلوم، لا سيما العلوم الإسلامية واللغوية، ممثلة في (جامع الزيتونة)، الذي ما لبث أن صار بعد خمس وثلاثين سنة من إنشائه معهداً علمياً تدرس فيه الفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والطب، بالأسلوب الذي كان معروفاً في ذلك العهد البعيد، فأقبل عليه الطلاب من كل فج، وتخرج فيه الأدباء والعلماء في كل فن، وارتقى إلى مصاف الجامعات الدينية، حتى لقد نafs — في القرن الثالث الهجري — معاهد قرطبة والقيروان ودمشق وبغداد، وفيه تخرج، المؤرخ الفيلسوف (ابن خلدون) والفقير المجتهد (ابن عرفة) الذي ما برحت آراؤه وفتاويه مرجعاً في الأقطار الإسلامية، وخاصة في أفريقية الشمالية.

ولما ارتقى العرش التونسي (الباي أحمد باشا الأول) وضع نصب عينيه أن ينهض بهذا المعهد نهضة تتفق ومكانته الدينية والعلمية. فأصدر في ٢٧ رمضان سنة ١٢٥٨ هجرية قانوناً نظم به الدراسة في الجامع الأعظم. وقد كتب هذا القانون بماء الذهب؛ وسمي (المعلقة)، لأنه علق على باب الشفا من أبواب الجامع. ولا يزال معلقاً إلى اليوم ذكرى طيبة لهذا العاهل العظيم، الذي لم يقف به همه عند هذا الحد، بل أعاد تنظيم مكتبة الجامع. وأهداها آلاف المجلدات النفيسة، ومن بينها مخطوط أثري فريد. هو تفسير القرآن بالمخط الكوفي، كتب في القرن الثالث الهجري.

ومنذ صدور هذا القانون أخذت الحكومات المتعاقبة تؤلف بين الحين والحين لجاناً لوضع برامج التعليم وتنقيحها، ومن بين هذه اللجان لجنة شكلت في سنة ١٣١٥ هجرية، اقترحت وجوب امتحان الطلبة في

بعض العلوم الحديثة، غير أنها لم تخصص لهذه العلوم دروساً معينة بالجامع، اعتماداً منها على دروس يتلقاها الطلبة خارج المعهد، فنظمت المدرسة الخلدونية دروساً ليلية لهذه العلوم، لأن روح المحافظة الجامدة والطرق التربوية العتيقة المتبعة في الجامع قد ناهضت كل محاولة للنهوض به، ووقفت في سبيل كل اجتهاد في العلوم الدينية، أو تقدم في العلوم الدنيوية.

وكان من أثر التطور العلمي الحديث أن ضيق الدائرة أمام خريجي هذا المعهد، فقصر عملهم على المناصب الشرعية التعليمية، كالإمامة والوعظ والقضاء والتدريس. فسبقهم خريجو المعاهد الأخرى. وتبعوا دونهم أسمى مناصب الحكومة. فكان لا بد من ترقية هذا المعهد ليتمشى مع روح العصر. وليخرج طبقة من المثقفين يصلحون لتولي مختلف الوظائف. فشكلت لجنة ثانية في سنة ١٣٣٠ هجرية (١٩١٢م) صدر عنها قانون من إحدى وثمانين مادة، أدخلت بمقتضاه إصلاحات كثيرة على نظام التعليم. فصارت بعض العلوم العصرية تدرس إجبارياً داخل المعهد، وأضحت الامتحانات شفوية وتحريية منظمة. وقد نص في المادة الأولى من هذا القانون على المواد التي تدرس في (الجامع الأعظم) هي: القرآن والقراءات والتجويد والتفسير والحديث ومصطلح الحديث والتوحيد والفقه والأصول والسيرة والنحو والصرف والبلاغة والعروض والإنشاء وأدب اللغة والخط والتاريخ والجغرافيا والحساب والهندسة والرسم والهيئة والمنطق والتصوف. وبعض هذه العلوم يدرس في توسع وإفاضة، فالحديث مثلاً يدرس في الموطأ مع شرح الزرقاني، وصحيح البخاري بشرح القسطلاني، وصحيح مسلم بشرح الأبي. والتوحيد يدرس في شرح الجرجاني على مواقف عضد الدين الأبي، والكبرى للسنوسي، وشرح التفازاني على العقائد للنسفي، وعلم الأصول يدرس في التوضيح لصدر الشريعة عبيدالله المحبوبي، وشرح الأبي

على المختصر لابن الحاجب، وشرح المحلى على جمع الجوامع للسبكي. والنحو يدرس في المغنى لابن هشام. والتصوف في الإحياء للغزالي. والبلاغة في المفتاح للسكاكي مع شرح الجرجاني. واللغة والأدب في المثل السائر لابن الأثير، والمزهر للسيوطي، وفقه اللغة للثعالبي، وشرح المرزوقي على ديوان الحماسة.

وفي سنة ١٣٤٤ هجرية ظهرت الحاجة إلى إصلاح جديد، فتكونت لجنة أخرى لوضع برنامج حديث يتفق وتطور الفكر ونهضة العلم في هذا العصر، غير أن مقترحاتها اصطدمت مرة أخرى بمعارضة المحافظين من الشيوخ والعلماء، فلم يقدر لها أن تبرز إلى الوجود؛ فقد أبى المحافظون إلا صيانة الأثر القديم، وإبقائه كما تسلموه من السلف. ولكن جهود المجددين القائمين على إدارة هذا المعهد — وعلى رأسهم أحد شيوخ الجامع، العالم التونسي الكبير فضيلة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور — تغلبت على معارضة المعارضين، فاستطاعت أن تعدل المنهاج، وتضيف إلى مواد الدراسة علوم التاريخ والجغرافيا والرياضة والفلك والتربية وعلم النفس والفلسفة، وجعلت تدريسها في الكتب الحديثة.

الفصل الثاني أعلام من المغرب

كان أغلب ما يسود تأليف^(١) المشاركة الإيجاز، لتمكن ملكتهم من التصرف، مثل كتاب ابن الحاجب، في فروعه وفي أصوله، والخونجي في المنطق، وغيرهما، وإن كان الغالب على جل أئمة المشاركة الإطناب، مثل الغزالي والإمام الفخر وغيرهما. وأما أهل الأندلس فالغالب عليهم فقه البلاغة، في حسن رصف الكلام وانتقائه، مثل عبارة القاضي عياض في تأليفه، التي لا تسمح القرائح بالإتيان بمثلها، والنسج على منوالها. وقد انتهت صناعة التأليف في علماء المغرب، على صناعة أهل المشرق، لشيخ شيوخ العلماء في وقته : ابن البناء الأزدي المراكشي^(٢) في جميع تصانيفه، أوجب ذلك براءة نسبه من البداوة، وملكنه في التصرف، التي هي نتيجة تحصيله، ولم يظهر من علماء فاس شيء من التأليف المرتجلة ولا الملخصة إلا ما كان سبيله النسج بها على ما هي عليه فقط، كما في التأليف المدونة المنسوبة للشيخ

(١) راجع ص ٢٣-٣ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض.
(٢) هو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي، أبو العباس المراكشي، المشهور بابن البناء، ولد سنة ٦٥٤هـ، وتوفي ببلده سنة ٧٢١هـ. (عن الديباج لابن فرحون).

(أبي الحسن^(١))، وهي التي اعتنى بها طلبته، وبنوها على ما قيدوا عنه من فوائد المجلس، وذلك كله في العشرة الرابعة من المئة الثامنة. ثم تلاهم طلبية الشيخ الجزولي^(٢)، على الرسالة، وتعددت تلك التقايد أيضاً، ونسبت للشيخ، وإنما له فيها ما قيد عنه في المجلس. واختلف نظر الشيخين بحسب تعدد السلكات^(٣). فقيد كل طالب ما سمع. فلا يقال في هذه تأليف، لكونها منسوخة من أماكن معزوة، والعلة في ذلك كون صناعة التعليم، ومملكة التلقي، لم تبلغ فاساً كما هي بمدينة تونس، اتصلت إليهم من الامام المازري^(٤)، كما تلقاها عن الشيخ اللخمي، عن حذاق القرويين، وانتقلت ملكة هذا التعليم إلى الشيخ ابن عبد السلام^(٥)، مفتي البلاد الأفريقية وأصقاعها، المشهود له برتب التبريز والإمامة، واستقرت تلك الملكة في تلميذه ابن عرفة^(٦) رحمه الله، وفي الشيخ ابن الامام التلمساني^(٧)، ونجب طلبه ابن الامام

- (١) هو علي بن محمد بن عبد الحق الزريلي المعروف بالصغير (بصيغة التصغير) توفي عام ٧١٩هـ (عن الديباج).
- (٢) هو أبو زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي، صاحب تقايد الرسالة المشهورة الفقيه الحافظ : توفي سنة ٧٤١هـ (عن الأبهج لأحمد بابا).
- (٣) يراد بالسلكات عند المغاربة : المرات التي يقرأ فيها الشيخ تلاميذه الكتاب، المرة : سلكتة.
- (٤) هو محمد بن علي بن عمر التميمي المازري الصقلي. توفي (سنة ٥٣٦) عن ثلاث وثمانين سنة.
- (٥) هو محمد بن عبد السلام بن يوسف بن كثير قاضي الجماعة بتونس، له تقايد، وشرح مختصر ابن الحاجب شرحاً حسناً، ولد سنة ٦٧٦هـ وتوفي سنة ٧٤٩هـ. (عن الديباج. لأين فرحون).
- (٦) هو محمد بن محمد بن عرفة الورغمي : ولد سنة ٧١٦. وتوفي سنة ٨٠٣هـ وله تقييده الكبير في مذهب مالك في نحو عشرة أسفار.
- (٧) للامام أبي زيد محمد بن عبد الله التلمساني ابنان، هما أبو زيد عبد الرحمن توفي سنة ٧٤٣، وأبو موسى عيسى، توفي سنة ٧٤٩هـ، وهو المراد هنا.

تلميذه الامام أبو عبدالله الشريف^(١)، شارح الجمل، وانتهت طريقته لولده أبي يحيى المفسر العالم. واستقرت أيضاً طريقة ابن الإمام في تلميذه سعيد بن محمد العقباتي^(٢)، وانتهى ذلك إلى ولده أبي الفضل قاسم العقباتي^(٣) : رحمهم الله جميعاً.

قال ابن خلدون، ولمن ذكرنا من أهل المئة الثامنة انتهت طريقة التعليم، وملكة التلقي. يعني بذلك الشريف والعقباتي رحمهما الله... لكونهما ألفا التصانيف البعيدة، وزاحما رتبة الاجتهاد من غير منازع. وكذلك بلغ رتبة التبريز في تحصيل العلم، كل واحد من ولديهما، الفقيه السيد أبو القاسم بن سعيد، والفقيه الأوحى السيد أبو يحيى الشريف^(٤)، إذ بلغا درجة الأمامية والفتيا. وأما الامام بن عرفة، فانتفع به جماعة، فكان أصحابه كأصحاب سحنون^(٥)، أئمة في كل بلد. فمنهم أيضاً من بلغ درجة التأليف، ووقع الاتفاق على إمامته، وتقدمه وسمو رتبته، كشيخنا الامام الحافظ المحصل أبي القاسم ابن أحمد البرزلي، مفتي البلاد الأفريقية، ومؤلف كتاب الاسئلة الحاوي للنوازل والفتاوى. ومنهم شيخنا الإمام الحافظ المجتهد، صاحب التصانيف المفيدة، أبو عبدالله محمد بن مرزوق، وله «المنزعة النبيل»، في شرح مختصر خليل « وشرح التهذيب^(٦)، وغير ذلك من المسائل العلمية.

- (١) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد الشريف التلمساني. ولد سنة ٧١٠ وتوفي سنة ٧٧١هـ.
- (٢) هو سعيد بن محمد بن محمد العقباتي التلمساني. ولد سنة ٧٢٠ وتوفي سنة ٨١١هـ.
- (٣) هو قاسم بن سعيد بن محمد سنة ٨٥٤هـ. يكنى أبا الفضل وأبا القاسم.
- (٤) هو عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني. ولد سنة ٧٥٧، وتوفي سنة ٨٢٦هـ.
- (٥) هو عبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون، الفقيه المالكي المشهور. ولد سنة ١٦٠ وتوفي سنة ٢٤٠هـ.
- (٦) كتاب (التهذيب) لأبي سعيد البراذعي، من علماء القيروان، لخص فيه مختصر المدونة والمختلطة لابن أبي زيد القيرواني، واعتمده المشيخة من أهل إفريقية، وأخذوا به، وتركوا ما سواه. (عن مقدمة ابن خلدون).

وإنما اقتصر على ذكر هذين الشيخين الامامين، لما لهما من المشيخة على الكثيرين، ولشهرتهما بالتأليف، التي تقوم مقام الشاهد لما قلناه، حتى نبعد عن شبهة التعصب.

وأما من نجب من تلامذة شيخ الشيوخ ابن عرفة، وتمكن من ملكة التعليم فخلق يطول عددهم فمنهم من أدركه ابن خلدون، وأخذ عنه، وأجازنا مروياته، و (منهم) من لم يدركه.

وهنا انتهت ملكة الفقه من علماء القيروان عن المازري، إلى من ذكرنا.

وأما ملكة العلوم النظرية، فهي قاصرة على البلاد المشرقية، ولا عناية لحذاق القرويين والإفريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط. ولم يزل الحال كذلك إلى أن رحل الفقيه ابن زيتون^(١) إلى المشرق، فلقى تلاميذ الفخر بن الخطيب. ولآزمهم زماناً، حتى تمكن من ملكة التعليم. وقدم إلى تونس. فانتفع به أهلها. وانتهت طريقته النظرية إلى تلميذه ابن عبد السلام المذكور. واستقل تلميذه ابن عرفة بعده بتلك الطريقة، وكذلك أبو عيسى موسى ابن الإمام التلمساني المذكور، ولهذا تجد أثر العلوم النظرية بتلمسان.

ولم يشاهد في المئة الثامنة من سلك طريق النظار بفاس، بل (في) جميع هذه الأقطار، لأجل انقطاع ملكة التعليم عنهم، ولم يكن منهم من له عناية بالرحلة، بل قصرت مهمهم على طريق تحصيل القرآن ودرس (التهديب) فقط، نعم أخذوا شيئاً من مبادئ العربية من أهل الأندلس، القادمين عليهم من سبتة وغيرها، باستدعاء ملوك بني مرين، ولهذا لم يتصدر من الفاسيين من يقرئ الكتاب^(٢) كما هو متداول

(١) هو أبو القاسم القاسم بن أبي بكر الشهرير بابن زيتون، الفقيه التونسي ولد سنة ٦٦٦، وتوفي سنة ٧٣٠هـ.

(٢) يريد كتاب سيبويه.

بين أهل الأندلس، مثل ابن أبي الربيع والشلوبين وغيرهما؛ لوجود ملكة النحو في قطر الأندلس، بسبب رحلة علمائهم إلى تلقيه من أربابه بالمشرق، كما ارتحل أعلامهم إلى بغداد في تحصيل الفقه عن الأبهري^(١)، وكذا يحيى بن يحيى عن مالك، وغير واحد، وكذلك علوم الحديث وغيره، كرحلة الإمام الحافظ أبي بكر بن العربي.

(١) هو أبو بكر محمد بن عبدالله صالح الأبهري، صاحب التصانيف في شرح مذهب مالك والاحتجاج له والرد على من مخالفه، سكن بغداد وحدث بها عن جماعة، وتوفي بها سنة ٣٩٥هـ.

ابن حازم القرطاجني

٦٠٨-٦٨٤هـ

من أعلام المغرب من الأدباء، وهو الشيخ حازم بن محمد بن حسن ابن محمد بن خلف بن حازم الانصاري القرطاجني النحوي، أبو الحسن، شيخ البلاغة والأدب^(١)، قال أبو حيان : كان أوحده زمانه في النظم، والنثر، والنحو، واللغة، والعروض، وعلم البيان، روى عن جماعة يقاربون الألف، وروى عنه أبو حيان وابن رشيد وذكره في رحلته، فقال : حير البلغاء، وبحر الأدباء، ذو اختيارات فائقة، واختراعات رائقة، لا تعلم أحداً ممن لقيناه جمع من علم اللسان ما جمع، ولا أحكم من معاهد علم البيان ما أحكم، منقول ومبتدع، وأما البلاغة فهو بحر العذب، والمتفرد بحمل رأيها أميراً في الشرق والغرب، وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها، فهو حماد روايتها، وحمال أوقارها، يجمع إلى ذلك جودة التصنيف، وبراعة الخط، ويضرب بسهم في العقليات، والدراية أغلب عليه من الرواية. صنف : سراج البلغاء في البلاغة وكتاباً في القوافي، وقصيدة في النحو على روي الميم، ذكر منها ابن هشام في المعنى آياتاً في المسألة الزنبرية.

(١) ص ١٧٢ ج ٣ أزهار الرياض — بغية الوعاة للسيوطي.

وكان مولده سنة ثمان وستمائة، ومات ليلة السبت الرابع والعشرين من رمضان سنة أربع وثمانين وستمائة. ومن شعره.

من قال حسبي من الوري بشر فحسبي الله حسبي الله
كم آية للإله شاهدة بأنه لا إله إلا هو

ومن بديع نظمه رحمه الله قصيدة جيمية، عربية المنزح، لها صيت عظيم عند الحذاق من أهل الأدب، والمشهورين من الفضلاء. عارض بها في المعنى رائية ابن عمار^(١) الوزير للمعتمد بن عباد. وفضل غير واحد هذه الجيمية الحازمية على تلك الرائية العمارية :

أهو المدامة فالنسيم مؤرج والأرض قد ليست برود جمالها
والرروض مرقوم البرود مديح فكأنما هي كعاب تبيرج
لقيما النسيم عابه متموج والنهر مما ارتاح معطفه إلى
أبدا يوشى صفحه ويدبح يمشي الأصيل بعسجدي شعاعه
فتزيده حسنا بما هي تنسج وتروم أيدي الريح تسلب ما اكتسى

(١) مطلع رائية ابن عمار :

أدر الزجاجاة فالنسيم قد اتبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

ابن خلدون

٧٣٢-٨٠٨هـ

هو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد، ينتهي نسبه إلى جده الأعلى ابن خلدون، وأسرته من بني وائل، وقيل إنها هاجرت إلى الأندلس في القرن الثالث.

ولد في أول رمضان عام ٧٣٢هـ بتونس، من أسرة أندلسية اشتهرت بالعلم والأدب والرياسة، وكان تزوجها من الأندلس في أواسط القرن السابع الهجري من إشبيلية ونشأ عبد الرحمن في تونس في ظلال دولة الحفصيين ودولة بني مرين بالمغرب وكان متهم السلطان أبو الحسن المريني (٧٣١-٧٥٢هـ)، وابنه أبو عنان (٧٥٢-٧٥٨هـ)، ثم سالم ابن أبي الحسن المريني (٧٥٨ - ٧٦٢ هـ). وأكمل دراسته الأولى على والده، وعلى بعض الأساتذة المشهورين، ولكن الوباء الكبير الذي اجتاح البلاد قضى على أسرته في المغرب، فحزن لذلك حزناً شديداً، واشتغل بالكتابة فدعاه السلطان أبو إسحاق ملك تونس عام ٧٥١هـ ليتولى له كتابة «العلامة»^(١)، وقربه إليه ولكن ابن خلدون لم يلبث أن ترك

(١) هي التوقيع على المراسيم السلطانية والمخاطبات الرسمية باسم السلطان.

أبا إسحاق واتصل بالسلطان أبي عنان المريني ملك المغرب الأقصى عام ٧٥٥هـ. فتولى له الكتابة والتوقيع حيناً، ثم اتهم بالتآمر على السلطان فسجن ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة السلطان أبي عثمان، ورد إلى وظائفه، ثم تولى كتابة السر والإنشاء وخطة المظالم للسلطان لأبي سالم ابن أبي الحسن المريني، فأظهر كفاية وإخلاصاً، ولاذ بالسلطان أبي سالم في هذه الفترة ملك الأندلس محمد بن الأحمر ووزيره لسان الدين ابن الخطيب، بعد أن اغتصب العرش منه، فاتصلت رابطة الصداقة والأدب بين ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب من ذلك الحين، ثم توفي السلطان أبي سالم سنة ٧٦٢هـ، ولم يلبث ملك الأندلس أن استرد عرشه. فرحل ابن خلدون إلى الأندلس عام ٧٦٤هـ، وأقام في العاصمة غرناطة مشمولاً يعطف ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب، وأرسله في سفارة رسمية إلى ملك قشتالة باشبيلية، فقام بها خير قيام، بيد أن فتور العلاقة بينه وبين ابن الخطيب كان باعثاً له على الخروج من الأندلس عام ٧٦٦هـ، حيث تولى الحجابة لأمير « بجاية » ولكن عرش هذا الأمير لم يلبث أن اغتصبه مغتصب، فظل ابن خلدون ينتقل من خدمة أمير إلى خدمة أمير، حتى حيكت حوله المؤامرات ففر إلى الأندلس مهاجراً إليها مرة أخرى عام ٧٧٦هـ، ولكن فراره إلى غرناطة وهرب ابن الخطيب منها إلى المغرب الأقصى كان مثاراً لمشكلات سياسية بين ملك بني الأحمر في غرناطة وبني مرين في فاس بالمغرب الأقصى، وقد انتهت الأحداث بقتل ابن الخطيب في فاس وبطرده ابن خلدون من الأندلس.

عاد ابن خلدون إلى المغرب الأقصى، ملتجئاً إلى أحياء شريف بتلمسان، حيث أقام يؤلف كتابه التاريخي الكبير، وهو كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر »، ثم عاد إلى وطنه تونس عام ٧٨٠هـ، فأتم كتابه ، ورفع إلى سلطان تونس أبي العباس الحفصي عام ٧٨٣هـ،

وقربه السلطان إليه، ولكن الوشابات عادت تحوُّك حوله الدسائس من جديد، فعزم على الرحلة إلى المشرق، مستأذناً من السلطان في السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج، فأذن له وركب ابن خلدون سفينة أقلته إلى الاسكندرية فنزل بها وسافر إلى القاهرة، فوصلها عام ٧٨٤هـ، وأخذ ابن خلدون يلقي دروسه في مذهب مالك في الأزهر الشريف، واتصل ببرقوق رأس دولة « المماليك البرجية »، الذي حكم مصر سبعة عشر عاماً (٧٨٤-٨٠١هـ) وولاه التدريس في المدرسة القمحية المالكية بجوار جامع عمرو، وتولى قضاء المالكية أيضاً، فأرسل إلى بلاد المغرب يستقدم أسرته، ولكنها غرقت بها السفينة التي كانت فيها، ولم ينج أحد، فعظم حزن ابن خلدون لذلك.

كان وجود ابن خلدون في مصر وولايته لمنصب قضاء المالكية فيها، مشار دسائس وأحقاد بينه وبين علماء عصره الذين يتطلعون لهذا المنصب، واضطراب الأفق حوله، وعزل عن القضاء، فاستأذن من برقوق في الحج فأذن له، وعاد بعد الحج فعينه برقوق أستاذاً في المدرسة الصرغتمشية — شمال جامع ابن طولون، ثم عينه شيخاً لخانقاه ببيرس، وانقطع إلى التدريس والتعليم. يوطد الصلات السياسية والعلمية بين مصر والمغرب. حتى أعاده برقوق إلى منصب القضاء وظل فيه إلى أن توفي برقوق عام ٨٠١هـ، وتولى بعده ابنه فرج فعزله عن القضاء.

في هذه الأثناء كان جيش تيمورلنك يغزو الشرق، ويعيث في بلاده فساداً، ودخل الشام، فخرج فرج للقائه، وخرج معه ابن خلدون، ولكن فرج رجع مسرعاً ليقتضي على ثورة سياسية قامت في مصر، وأقام الجيش حيث هو، وأقام مع الجيش ابن خلدون، ثم انتصر جيش تيمورلنك، فسار ابن خلدون إلى معسكر الظافرين يفاوض في شروط الصلح، وفي تسليم دمشق بعد أن أنهكها الحصار.. وكما عاد ابن

خلدون إلى مصر أعيد إلى القضاء لثالث مرة، ثم عزل عام ٨٠٤هـ واستمر بين ولاية لقضاء المالكية وعزل منه، حتى تولاه لسادس مرة عام ٨٠٨هـ، فلبث فيه ستة أسابيع توفي بعدها في آخر رمضان عام ٨٠٨هـ، ودفن في مقبرة الصوفية في العباسية خارج باب النصر.

ولابن خلدون كتابه التاريخي العظيم، ومقدمته الرائعة، الخالدة، وقد انقطع عام ٧٧٧ لتأليف تاريخه في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصروهم من ذوي السلطان الأكبر، وأقام سنين يكتب في مقدمته التي أتمها عام ٧٧٩هـ، وفي بعض فصول الكتابة التاريخية، ثم كتب فصولاً أخرى منه في تونس وفي القاهرة، وانتهى أخيراً من الكتاب في القاهرة عام ٧٩٧هـ، وسماه «العبر وديوان المبتدأ والخبر»، وقسمه إلى مقدمة وثلاثة كتب، وأشار في المقدمة إلى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه، ونقد أخطاء المؤرخين وأغالطهم، أما الكتاب الأول فخاص بالعمران وما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم، وما لذلك من علل وأسباب، والكتاب الثاني في أخبار العرب وأحيائهم ودولهم من بدء التاريخ إلى عصره، مشيراً إلى الدول التي عاصرتهم، وسرد في الثالث أخبار البربر ودولهم وملوكهم وقبائلهم، وهذا القسم الأخير هو أهم أقسام الكتاب^(١)، وقد أهدى ابن خلدون نسخة كاملة من الكتاب لسلطان المغرب الأقصى أبي فارس المريني، الذي تولى حكم المغرب ثلاثة أعوام (٧٩٦-٧٩٩هـ)، والكتاب سبعة مجلدات، والمجلد الأول منها في فلسفة التاريخ والاجتماع وهو المشهور بالمقدمة، والستة الباقية في تاريخ العرب والعجم والبربر. وقد خلدت هذه المقدمة النفيسة ابن خلدون، ورفعته إلى مصاف

(١) وهو ما قصد ابن خلدون كما يذكر في المقدمة (ص ٣٢ المقدمة طبعة سنة ١٢٢٠هـ).

الفلاسفة الملهمين، وبوأنه في تاريخ التراث الفكري الإسلامي مكاناً رفيعاً، ويعجب علماء المغرب وفلاسفته بالمقدمة، ويرون أن ابن خلدون بها يعد المبتكر لعلم الاجتماع، وواضح أسس العلوم الاجتماعية والسياسية وفلسفة التاريخ والقانون العام، وقد عرف الغربيون فضل ابن خلدون قبل أن يعرفه الشرقيون، فترجموا المقدمة إلى لغاتهم، وطبعت في القاهرة لأول مرة منذ حوالي تسعين عاماً، وكان لابن خلدون أسلوبه في المقدمة أثر واضح في أساليب الكتاب والأدباء في مصر منذ ذلك الحين، وفي عام ١٩٣٢ أحيا جماعة من أدباء مصر ذكرى ابن خلدون، فكتبوا المقالات والبحوث والدراسات عنه ونشر الأستاذ محمد عبدالله عنان كتاباً عنه.

ولا شك أن المقدمة أثر لحياة ابن خلدون وثقافته وتجاربه وشخصيته التي هي مثل للمفكر والمؤرخ السياسي والرجل السياسي أيضاً، إذ أن تجاربه وصلاته السياسية بعروش دول المغرب، وتوليّه أعظم المناصب فيها، وتقلبه شاباً ورجلاً وكهلاً في الأحداث السياسية، كل هذا خلق منه سياسياً داهية، وهو أيضاً مما عاون الرجل على إخراج مقدمته النفيسة، والمسائل التي عالجها ابن خلدون في المقدمة ذات رقة متناهية، ولم يسبق لأحد من علماء المسلمين أن تناولها بالتأليف على هذا النمط والأسلوب، وهو ينه في المقدمة على أن الكلام فيها « مستحدث جديد أدى إليه البحث والتفكير » وأنه « ليس من علم الخطابة المنطقية ولا من علم السياسة المدنية » وأنه « مستقل » ابتكره وابتدعه ابن خلدون دون أن يطلع على تأليف في معناه، وإن كان بعض الأبجديات التي ذكرها في المقدمة قد تجري لأهل العلوم بالعرض في براهين علومهم، مثل ما يذكره الحكماء في إثبات النبوة من أن البشر متفاوتون في وجودهم فيحتاجون فيه إلى الوازع والحاكم. ومثل ما يذكر في أصول الفقه من أن الناس يحتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون

والاجتماع وتبيان العبارات، ومثل ما ورد في حكم الحكماء وكتب الفلاسفة كالكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة ورسائل ابن المقفع وسراج الملوك للطرطوشي، فقد حوم فيه وبويه على أبواب تشابه أبواب المقدمة ولكنه لم يستوف المسائل، بل يبوب الباب للمساءلة فيستكثر من الأحاديث والحكم بدون تحقيق، فهو نقل وترغيب أشبه بالمواعظ، وكان حوم على الغرض فلم يدركه.. وابن خلدون يؤكد أن المسائل التي ورد ذكرها في المقدمة قد ألهمه الله إياها إلهاماً، فهو الذي نهج للباحثين فيها السبيل، ووضح لهم الطريق.

ويذكر ابن خلدون في مقدمته التاريخ فيصفه بأنه «خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض له من أحوال وما ينشأ عنه من ملك وما ينتج له البشر من صناعات ومعارف»، ويحدده في موضع آخر بأنه «ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل» فأما ذكر الأحوال العامة للأفاق والأجيال فهو أساس ثقافة المؤرخ، وإن كان المسعودي وسواه يفرده بالتأليف.

ويشرح ابن خلدون في مقدمته نظريات عديدة، منها أن الانسان مدني بالطبع، أي لا بدله في الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وأن الترف يقضي — عندما يستشري في جسم الأمة — عليها، ويسير بالدولة إلى الهرم والشيخوخة، وأن العسف مضر بالملك مفسد له، وأن الظلم مؤذن بخراب العمران، وأن الهرم إذا حل بالدولة لا يرتفع إلا إذا جدت عوامل أخرى تدعو إلى تجدد الدولة، ويذكر كذلك أن الحضارة غاية العمران مؤذنة بفساده، وأن العواصم تخرب بخراب الدولة، وسوى ذلك من عديد النظريات.

وابن خلدون يشرح ويفسر لنا حقيقة النبوة وكيفية نزول الوحي على الرسل والأنبياء، ويفرق بين ذلك وبين الرؤى والأحلام، وكلامه في ذلك يعد أساس النظرية الحديثة لفرويد، ولابن خلدون رأي في

العرب عجيب، فهو يذهب إلى أنهم لا يتغلبون إلا على البساط، وإذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الفساد والخراب، وإذا حصل لهم الملك فإنما يحصل لهم بصفة دينية، وهم عنده أبعد الأمم عن سياسة الملك، وهم أبعد الناس عن الصنائع، وأن مبادئهم يسرع إليها الفساد، وحملة العلم في الاسلام عجم، وهذا الرأي الغريب حير الباحثين في تراث ابن خلدون الفكري؛ فعلموه بأسباب مختلفة متناقضة، أما نحن فنعلله بأحد أمرين :

الأول أن ابن خلدون يريد بالعرب البدو في أن مكان كما عبر هو عنهم بهذا أحياناً^(١) لأعرب الجزيرة العربية خاصة، وهذا الرأي محتاج إلى إثبات السر في ترجيحنا هذا المعنى دون المعنى الآخر للفظه عرب.. والثاني أن ابن خلدون يقصد العرب ويريدهم ويتكلم عنهم، ومن الملحوظ من عبر التاريخ أن العرب في جاهليتهم وحين تحللهم من الدين بعد الإسلام كانت أحوالهم كما يصفها ابن خلدون، فكأنما ابن خلدون يقصد بهذه الفصول ذكر طبيعة العرب حين ضعف الدين في نفوسهم، وكأنه يريد التعميم في أحوالهم، فإن العرب حين تمسكهم باسلامهم وشريعتهم، كانوا كما نعرف عدلاً وسياسة وإصلاحاً ونبل حكم، وفي هذا البحث يذكر ابن خلدون أن أهل البادية مغلوبون لأهل الأمصار. أو يذكر ابن خلدون أحوال الموالي والمصطنعين وما يعرض للدول من الحجر على السلطان والاستبداد به ومشاركته في نفوذه وألقابه، وأراء ابن خلدون في الفصل الخامس في المقدمة عن المعاش ووجوهه والكسب والصنائع مباحث قيمة في الاقتصاد السياسي والاجتماعي، وقد اقتبس منها كارل ماركس في كتابه « رأس المال » ومن آراء ابن خلدون في المقدمة :

(١) ص ١١٥ المقدمة ط ١٢٢٠هـ.

١ - أن النقد التاريخي هو تطبيق طبائع العمران على التاريخ وحوادثه،
فما جاز لنا قبوله من التاريخ قبلناه، وما لا يجوز فيه رفضناه.

٢ - أصول التوحيد هي عقائد متلقاة عن الشريعة كما نقلها السلف
من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه، وهنا يذكر ابن خلدون
أن العقل معزول عن الشرع لأن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع
نظافتها عن مدارك الأنظار العقلية، فهي فوقها محيطتها بها، لاستمدادها
من الأنوار الالهية^(١)، ويأخذ في ذم الفلسفة وتحللها، ولا شك ان
ابن خلدون كان بحاجة إلى تأكيد ذلك لبغض المجتمع الاسلامي في
عصره للفلسفة وعلومها وأصحابها وللعنف في البطش بكل ما عرف
عنه أنه محب لها، ولا نخال ابن خلدون سوى فيلسوف ملهم، فأفكاره
في المقدمة أفكار فلسفية عميقة، وكذلك دراسته للفلسفة وعلومها وتاريخ
نشأتها تدل على أنه من أنصارها ومحبيها وعارفي قدرها، ويبدو أنه
كان يقصد التموه على عامة الناس وجمهور العلماء حتى لا يتهم
بالإلحاد والكفر، ويعرض نفسه لمحن لا داعي لها، بل ان المقدمة
نفسها لون من ألوان الفلسفة في عصرنا الراهن، ولا شك أن ابن
خلدون يستحق تقدير المفكرين والتاريخ والانسانية جمعاء. وكان يعاصره
من أعلام تونس ومفكريها : أبو عبدالله بن مرزوق من أدياء القرن
الثامن الهجري وسواه...

(١) راجع ص ٤٦٩ المقدمة.

ابن بطوطة

- ١ -

عني العرب في القرون الوسطى بالأسفار والرحلات وارتداد المناطق البعيدة واكتشاف مجاهل الطرق. وكانت عنايتهم بهذه الناحية شديدة جداً، بحيث لا تقل عن الهمة التي بذلها رواد العصر الحاضر من الأوروبيين ممن وقفوا حياتهم على الأسفار، ولا سيما إذا راعينا وفرة السبل وتنوع وسائل النقل وقلة ما يتعرض له المسافر اليوم من مصاعب وأخطار. وفي الحقيقة أن تلك العناية وهذه الهمة اللتين لمسنا آثارهما في ثنايا التاريخ ليستا بالأمر الغريب نظراً إلى طبائع العرب وجبلتهم التي أورثتها إياهم البيعة الصحراوية التي نشأوا فيها، فالعربي بحكم فطرته الأصلية ميال إلى التنقل شغوف بالرحلة والتجوال. ولعل من الطريف أن نشير هنا إلى ما ذهب إليه أحد علماء اللغة في اشتقاق كلمة «عرب» فقد ذهب هذا الباحث إلى أنها مأخوذة من كلمة «عبر»، وذلك للدلالة على العبور والتنقل وعدم الاستقرار في مكان خاص.

لقد بدأ نشاط العرب في الرحلات من أوائل القرن العاشر للميلاد ولدنيا سجل ضخيم بأسماء الرجال الذين تركوا أوطانهم وساحوا في الأرض في حدود المملكة الإسلامية وفيما وراء حدود المملكة الإسلامية،

مما كانوا يطلقون عليه إذ ذاك اسم « مملكة الكفار »، وقد ترك لنا أولئك الرجال أسفاراً قيمة دونوا ما شاهدوه من العجائب والغرائب وما راق لهم من أحوال الأمم وتقاليدها وعاداتها المختلفة. ومن أقدم أولئك الرحالين : أبو دلف واليعقوبي وقدامة والبلخي وابن حوقل وهؤلاء كلهم من رجال القرن العاشر، يلي هؤلاء طبقة أخرى منهم ياقوت الرومي وأبو عبيد البكري وابن جبير وابن سعيد وابن بطوطة وهذا الأخير من رجال القرن الرابع عشر للميلاد.

لم يكن هذا النشاط الذي بدأ ظهوره في القرن العاشر نتيجة للمصادفة والاتفاق، وإنما هو وليد ظروف سياسية خاصة رافقت حياة العرب في ذلك العصر، فقد كان العالم العربي الإسلامي في تلك الفترة بلغ غايته من التوسع، وامتد حتى شمل أهم أقطار آسيا والساحل الشمالي لأفريقيا وبعض أقسام أوروبا، وهذا العالم الواسع مع تباعد أطرافه كان يموج بالأجناس والألوان والعصبيات المختلفة، ولذا كان هم الخلفاء والولاة ومن بيدهم مقاليد الأمور أن يوجدوا رابطة تجمع شمل هذه العناصر المتباعدة وتصل بعضها ببعض بحيث يمكن القضاء ولو على بعض الفروق، وتخفيف حدة تلك العصبيات وتوجيه الناس إلى غاية واحدة، فأروا في الأسفار خير واسطة لربط تلك الأجزاء وإنشاء صلات بينها، ثم إن الأسفار تمكنهم من دراسة المناطق البعيدة دراسة نافعة تهيء لهم الطريق إلى معالجة المشكلات التي تحدث فيها والتي يتعذر القضاء عليها بدون إلمام بأحوال تلك البلاد. أضف إلى ذلك أن العالم العربي الإسلامي كان يشعر بالرغبة في التقارب بين أجزائه، وكان كل فرد من أفراد المملكة الإسلامية يحن إلى الاتصال بالممالك البعيدة، ويود من صميم القلب لو يعرف ما عليه إخوانه الذين تربطهم وإياه الروابط المتينة، هذا الشعور الجمعي كان من جملة البواعث التي حركت في الناس الرغبة في السفر من حين إلى آخر.

على أن هناك غير واحد من العلماء الذين ساقتهم غريزة حب الاستطلاع، فطافوا في العالم لمجرد الوقوف على أحواله ودراسة شعوبه المختلفة : منهم العلامة المسعودي صاحب كتاب « مروج الذهب » الذي ساح في بلاد فارس والهند والصين، وكان عمره إذ ذاك لم يتجاوز العشرين سنة، ومنهم الفيلسوف الفلكي البيروني الذي توغل في الهند وترك لنا كتابه القيم « تاريخ الهند ».

ويمكن أن يضاف إلى ذلك الرحلات التجارية التي قام بها التجار، وهؤلاء وإن لم يستهدفوا درس البلاد التي وصلوا إليها أنهم أفادوا علمي التاريخ والجغرافيا، بتخطيطهم المدن وذكرهم عدد السكان والحاصلات والطرق التجارية. وهذا ما نلاحظه في رسائل ياقوت صاحب كتاب « معجم الأدباء ».

أما الرحلة لأداء فريضة الحج فهي ديدن المسلمين في جميع العصور، وذلك لأن الرغبة في زيارة الأماكن المقدسة أمنية كل مسلم يرجو الثواب في الآخرة، ولذا كان المسلمون في كل عام يحجون فرادى وجماعات إلى الكعبة وإلى غيرها من الأماكن المقدسة، كالقدس وقبور الأئمة في العراق وغيرها، وهم في طريقهم إليها يزورون البلاد ويتعرفون ما عليه الناس وقد يمكث أحدهم مدة طويلة من الزمن ثم يعود إلى بلاده. والحقيقة أن الشرق الأدنى كان في العصور الوسطى هدفاً لكثير من الزوار الذين كانوا يقدون إليه لا لغرض التبرك بالأماكن المقدسة فحسب، بل لتلقي العلم والتزود من الثقافة مع ذلك. وكان معظم هؤلاء الوافدين من الأندلس ومن شمالي أفريقيا، حتى قال ابن خلدون : « أهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم حتى ليظن الكثير من رحالي أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وأنهم أشد نباهة وأعظم كياساً بفطرتهم الأولى وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس

أهل المغرب؛ ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية ويتشيعون لذلك ويولعون به لما يرون من كسبهم في العلوم والصنائع، فالذي حدا بالناس إلى الرحلة إلى هذه المناطق يرجع إلى تمكن الناس هنا من لغة القرآن ومن الثقافة الإسلامية والثقافة اليونانية القديمة.

وذلك يوم أخذت الكنيسة الشرقية تطارد العلماء وتعتبر فلسفتهم خطراً يتهدد المسيحية على نحو ما فعله جستنيان بمدارس أثينا، فإن أولئك العلماء الذين وسموهم بالوثنيين والزنادقة والذين اعتبروا كتبهم من نوع الهرطقة والإلحاد، لجأوا إلى الشرق الأدنى وتوطنوا في سوريا والعراق وأسسوا فيها عدداً كبيراً من المدارس. ولما فتح العرب هذه البلاد حافظوا على تلك المدارس وشجعوها، لا سيما أيام المأمون الخليفة العباسي.

— ٢ —

ولد ابن بطوطة في مدينة طنجة عام ٧٠٣هـ — ١٣٠٤م من أسرة دينية عريقة في الاشتغال بالعلوم الشرعية وينتهي نسبها إلى قبيلة لواتة، إحدى قبائل العرب التي كانت في وقت ما في بلاد برقة بين مصر وطرابلس. أما ثقافته فلم تكن تتجاوز العلوم الدينية والأدب وممارسة بعض الشعر واللغة الفارسية، ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره أي عام ٧٢٥هـ — ١٣٢٦م خرج في وفد من الحاج إلى مكة، ومنها قطع طريق البادية إلى العراق، وظل ينتقل في بلاد العرب وفارس وتركيا والهند والصين زهاء ربع قرن، حج خلال هذه المدة أربع مرات، وتزوج كثيراً من النساء. وفي سنة ٧٥٠م — ١٣٤٩م، عاد إلى طنجة وكان بلاد المغرب في تلك الفترة تحت سلطان بني مرين الذين كانوا يعطفون على العلماء والشعراء ويجزلون لهم العطاء، فلاذ ابن بطوطة بأبي عنان أمير مراكش وصار من جملة حاشيته وكان يقص في مجالسه

على الناس ما رآه في أسفاره، فطلب إليه الأمير أن يدون رحلته فأملأها على كاتب الأمير الفقيه محمد بن جزي الكلبي، وانتهى من كتابتها سنة ١٣٥٣ وسماها « تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وعاش ابن بطوطة في بلاد فاس حتى توفي سنة ٧٧٩هـ - ١٣٧٧م.

يكاد يجمع المؤرخون على أن الدافع الذي حمل ابن بطوطة على القيام بهذه الرحلة هو الحج، وأنه لما وصل إلى مكة والتقى بالحجاج حصلت له فكرة الطواف حول العالم، وهم يستدلون على ذلك بقول : « وكان خروجي من طنجة معتمداً حج بيت الله الحرام » ثم أنه لم يكن متأهباً للسفر الطويل. بيد أنه يلوح لي أن ابن بطوطة لم يكن يوم خروجه من طنجة بعيداً عن فكرة الطواف حول العالم، إن لم تكن هذه الفكرة الهدف الرئيسي الذي كان يرمي إليه أولاً. لا ينكر أن الحج كان في نظره غاية سامية باعتباره مسلماً شديداً بالآيمان والثقة بالله، لكن لا مانع من أن يكون هذا الآيمان البالغ المتمكن من نفسه بعض ما كان يرومه من تلك الرحلة والدليل على ذلك ما رواه ابن بطوطة نفسه فقد حدث أنه نزل في مصر ضيفاً عند أحد علماء الاسكندرية المسمى « برهان الدين » ثلاثة أيام، فتوسم فيه برهان الدين حب التجول، وأوصاه بأنه إذا ذهب إلى الهند أو السند أو الصين أن يزور أفراداً أسماهم له، ثم ما رواه ابن بطوطة بنفسه أيضاً أنه زار وهو في طريقه إلى القاهرة أحد الأولياء الصالحين الذي كان مقيماً بقرية « قبالة » بلدة « فوه » على النيل. فرأى في منامه وهو عنده أنه زار مكة واليمن والعراق وبلاد الترك والهند. وأما أنه لم يتخذ الأبهة الكافية لهذا السفر الطويل ففي الحقيقة أن ابن بطوطة لم يتأهب حتى بالنسبة إلى الحج، إذ كان جل اعتماده على الهبات والعطايا يوم فارق طنجة. ولعل عدم التأهب هذا يعتبر دليلاً على أنه كان ينوي السفر

الطويل من أول الأمر. إذ يتعذر على مثل ابن بطوطة الذي عرفنا حاله من الفقر والفاقة أن يطوف حول العالم، ويعد ما يكفيه من المال والرزاد لمثل هذا السفر الطويل الشاق.

تعتبر رحلة ابن بطوطة من أهم المصادر التاريخية الجغرافية بالنسبة إلى حياة الأمم الشرقية في القرون الوسطى، وهي ليست بأول مشروع من نوعه في هذا الصدد كما نعلم، لقد قام « ماركو بولو » الإيطالي برحلة في الشرق قبل « ابن بطوطة » بنصف قرن تقريباً ودون مشاهداته إلا أن ابن بطوطة لم يطلع على تلك الرحلة. والذي يميز رحلة ابن بطوطة هو أنها رسمت لنا صورة واضحة للشعوب التي كانت تتكلم في ذلك الوقت اللغة الفارسية كإيران والهند، وذلك راجع إلى تمكن ابن بطوطة من هذه اللغة، في حين أن رحلة « ماركو بولو » تمتاز بناحية أخرى وهي أنها عرفتنا حالة الدول المغولية التي كانت تسيطر نفوذها من شواطئ المحيط الهادئ إلى ما وراء نهر الفولغا بشكل أوضح مما ذكره ابن بطوطة. وسبب ذلك راجع إلى معرفة « ماركو بولو » اللغة المغولية، الأمر الذي ساعده مساعدة كلية على فهم حالة أولئك الأقوام. والحقيقة أن هاتين الرحلتين تعتبر إحداهما مكملتا للأخرى.

لقد أيد « فريسكو بالدي » الرحالة الإيطالي الذي ساح في الشرق بعد ابن بطوطة بأكثر من نصف قرن ما رواه ابن بطوطة في رحلته، ومع هذا يقول « ابن خلدون » : « ورد بالمغرب لعهد السلطان « أبي عنان »، رجل من مشيخة طنجة يعرف « بابن بطوط » كان رحل منذ عشرين سنة إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند، وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب، فتناجى الناس بتكذيبه.

ونلاحظ أن ابن بطوطة في رحلته الثانية خرج من طنجة عام ٧٢٥هـ — ١٣٢٦م للحج فمر بمصر والشام ومكة ثم العراق واليمن وجدة، ثم الصومال وأريتريا، ثم عاد إلى الحجاز ومنها إلى آسيا الصغرى

والأناضول ثم الهند وسيلان وأطراف من الصين وسيلان، ثم عاد إلى الشام فالقاهرة في عهد السلطان حسن قلاوون ودخل مدينة فاس عام ٧٥٠هـ، ثم ذهب إلى طنجة وقام برحلة إلى الأندلس، ثم عاد منها، وقام برحلة أخرى إلى السودان عام ٧٥٣هـ، وعاد منها إلى سجلماسة عام ٧٥٥هـ.

الفصل الثالث

اللغة العربية في بلاد المغرب

لم تنتشر اللغة العربية إلا بين العرب في المدن الكبرى، التي تنتظم المدارس والجامعات والمساجد وعواصم الملك، أما خارج المدن، فأكثر السكان من البربر، وهؤلاء لم يعودوا لسانهم العربية، ولم ينطق بها، ومن ثم كان البربر بعيدين عن اللسان العربي بعداً كبيراً.
يقول باحث^(١) :

ولشدة العجمة في لسان البربر : لم تحسن استفادتهم ممن عاشهم، وقام بتعليمهم من الراحلين إليهم من الأندلس وغيرها، وقد ضرب ابن خلدون المثل بالبربر في قلة استفادة الأعجمي من اللسان العربي، إذا كان معرقاً في العجمة، قال : « وما كان من لغات أهل الأمصار أعرق من للعجمة وأبعد عن لسان مضر، قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية، وحصول ملكتها لتمكن المنافاة حينئذ، واعتبر ذلك في أهل الأمصار، فأهل إفريقية والمغرب لما كانوا أعرق في العجمة وأبعد عن اللسان الأول، كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم ». ولقد

(١) ٣/١٧٣ الأدب العربي وتاريخه - محمود مصطفى.

نقل ابن الرقيق^(١) أن بعض كتاب القيروان كتب إلى صاحب له: « يا أخي ومن لا عدمت فقدته قد أعلمني أبو سعيد كلاماً، أنك ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي وعاقنا اليوم فلم يتهياً لنا الخروج. وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين، فقد كذبوا، هذا باطلاً ليس من هذا حرفاً واحداً، وكتابي إليك، وأنا مشتاق إليك إن شاء الله^(٢). وقد مر ما كان من أمر يوسف بن تاشفين لما قدم الأندلس لمعونة المعتمد بن عباد، وجعل الشعراء ينشدونه أشعارهم، قال له ابن عباد: أيعلم أمير المسلمين ما يقول هؤلاء؟ قال لا أعلم، ولكنهم يطلبون الخير!! وأنه لما عاد يوسف هذا إلى المغرب، كتب إليه المعتمد رسالة ورد فيها البيتان:

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحننا شوقاً إليكم ولا نجفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فعدت سوداً وكانت بكم أيضاً ليالينا
فلما قرئ عليه هذان البيتان قال القارئ: يطلب منا جوارى سوداً
وبيضاً؟ فقال له: يا مولانا! ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير
المسلمين نهاراً، لأن ليالي السرور بيض، فعاد نهاره ببعده ليلاً، لأن
أيام الحزن سود، فقال: والله جيداً! أكتب له جوابه: إن دموعنا
تجري عليه، ورعوسنا توجعنا من بعده!....

وكان أبو العباس الجزاوي أشعر شعراء المغرب الأقصى في وقته.
وله يمدح ملكاً:
إذا كان أملاك الزمان أراقما فإنك فيهم دائم الدهر ثعبان

(١) ابن الرقيق شاعر من أهل القيروان كان يتكسب بالكتابة في دواوين الانشاء، وله كتب منها (تاريخ إفريقية) مات سنة ٤٠٠هـ.
(٢) راجع ٢/١٤ نفع الطيب.
(٣) الرسالة غنية بالخطأ والعامية.

وقد نبغ من أهل المغرب أنفسهم : علماء وكتاب وشعراء، سامى بعضهم أمثالهم بالأندلس. ولكنهم قليلون لا يصح أن ينسب فضلهم إلى بيتهم، وإنما ينسب إلى امتياز ملكاتهم، بما وهبهم الله من خصائص في الإدراك، وإلى ظروف أخرى أحاطت بهم، فابن خلدون منهم، وهو هذا العالم العالمي ذو النظريات التي مرت عليها السنون، وهي باقية تدل على غور إدراكه، وبعد تصوره وصدق تقديره، ولكنك لا تجد من تعدد نظيره في فضله، أو من يقع قريباً منه من أهل هذه البلاد في جميع أطوارها.

ومن أدياء أهل المغرب، أبو إسحق إبراهيم التلمساني الأنصاري، الكاتب الشاعر، الرحالة الذي دخل مصر والشام وغيرهما. ومات بسبته سنة ٦٩٠هـ.

النشر الأدبي

كانت الكتابة وهي أهم ألوان الأدب زمن الولاة مقصورة على الأمراء والعلماء حتى تخرج في الفصاحة الموالي من البربر فشاركوهم فيها، ولما رسخ سلطان الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى ودولة الأغالبة في المغربين الأوسط والأدنى أصبحت الكتابة صناعة اقتدى الكتاب فيها بكتاب الأندلس غرباً وبكتاب المشرق شرقاً ففشأ فيها السجع والتأنق في المجاز والاستعارة. وما جاءت الدولة الفاطمية ثم الصنهاجية إلا ولصناعة الكتابة منزلة عند ملوكها ليس وراءها إلا منزلة أمراء الجيوش وأمراء الأساطيل. ومن أشهر كتاب عصر الصنهاجيين: علي بن أبي الرجال، وابن رشيق، وابن شرف، وابن القزاز. ولما قامت دولة المرابطين جدوا في استدعاء الكثير من أعيان كتاب الأندلس حتى اجتمع في بلادهم

من العدو الإفريقية ما لم يجتمع مثله لملك من ملوك الطوائف في الأندلس، وأشهرهم : أبو عبدالله محمد بن أبي الخصال، وأخوه أبو مروان وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون فنشروا طريقة الأندلسيين في الكتابة وتخرج عليهم كثيرون، ونخ منهم في دولة الموحدين ابن عياش، وابن محشوة، وابن الميمون، ثم اضمحل أمر الكتابة بالتدريج حتى أصبحت مجرد سجع قليل البلاغة متكلف التقفية.

وقد فصل من رسالة كتب بها أبو الميمون عن المستنصر بالله ابراهيم جد الخلفاء الموحدين إلى بعض نوابه وقد نقض العهد على بعض المهادين من النصارى قال بعد الديباجة : وقد بلغنا ما كان منكم من اكتساح النصارى والزيادة على ذلك باختطاف الأسارى، ونعوذ بالله من شهوة تغلب عقلاً ونخوة تعقب هواناً وذللاً. وقد أخطأتم في فعلتكم الشنعاء من ثلاثة أوجه :

أحدها أنه خلاف ما أمر الله من الوفاء بالعهد والوقوف مع العقد.

الثاني : عصيان الأمر العزيز وفيه التفرير بالمهيج، وترك السعة للحرص.

الثالث : أنكم تثيرون على أنفسكم من شر عدوكم — قصمه الله — شرراً يستعرض ضراماً يعدم فيه المنتصر، فليتكم إذا تحلّيتكم بالعصيان، ورضيتم الغدر المحرم في سائر الأديان، تبتم للعدو إذ دهمكم، ولقيتموه بالجانب القوي حين زحمتكم. فإذا وافاكم كتابنا هذا بحول الله وقوته فأدوا من أسرتكم إلى مأمته، وردوا ما انتهيتكم إلى مسرحه، ولا تمسكوا من الأسارى بشعرة، ولا من الماشية بوبرة، ومن سمعنا عنه بعد وصول هذا الكتاب أنه تعدى هذا الرسم، وخالف هذا الحكم، أنفذنا عليه الواجب وحكمتنا فيه المهند الغاضب. فلتسرع من تومة الغفلة إفاقتكم، ولا تتعرضوا من الشر لما تعجز عنه طاقتكم. ونحن متعرفون ما يكون منكم من تأن أو بدار، ومقابلون لكم لما يصدر عنكم من إقرار وإنكار، وهو يرشدكم بمنه.

الفصل الرابع

الشعر العربي

ينتقل الشعر مع العرب أينما تزلوا؛ ولكنه لا يصير صناعة عتيقة يتوافر عليها أناس يكتسبون بها إلا حيثما تكثر جمهرة العرب : بناتل ملكها وتعدد حواضرها. وكل ذلك لم يكن بالغاً أشده في ممالك البربر أوائل الفتح الإسلامي، حتى إذا توطدت للعلوين الأدارسة دولة بالمغرب الأقصى، وللأغالبة التميميين دولة بافريقية من قبل العباسيين، جلا إلى الدولتين جوال من الأندلس والمشرق فيهم العلماء والأدباء والشعراء والنحاة ففرسوا فضائل العلم والأدب بالمغرب ونشأت فيهم نابتة طلبت العلم من معادته، ورحلت إلى المشرق فنمت تلك الغراس وأنبعت ثمارها زمان الدولتين العبيدية الفاطمية وأخلافها من الصنهاجيين، ثم لما غلبت دولة المرابطين من لمتونة والموحدين من المصامدة وغيرهم استقدموا إلى حواضرهم بالمغرب الكتاب والشعراء من مراكش وفاس وتونس، فكانت منهم في المغرب صورة أندلسية في كل العلوم والآداب والشعر.

ولكن الشعر لم يصل في جملة أطواره بالمغرب إلى الغاية التي سما إليها في الأندلس وإن نبغ فيه في بعض العصور من لا يقل عن

الأندلسيين بلاغة قول، وبداعة تصور، وروعة وصف، كعلي الأيادي والحصري وابن رشيق القيرواني وابن شرف القيرواني وابن حمديس الصقلي وغيرهم، وقد حاكى شعراء المغرب الأندلسيين في التوشيح والزجل، وراج بينهم بعيد اكتساح بدو المشرق من : رياح وجشم وهلال وسليم لإفريقية، ضرب من الشعر العامي في شكل القصائد العربية الفصححة من الأوزان والنظام قافية واحدة في القصيدة، وربما أتوا بمربعات من نوع الشعر المسمط ولكنهم لا يلتزمون الإعراب، وتسمى هذه القصائد في المغرب بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعي الراوية الشهير وأكثر ما تكون من بحر الطويل، ويأتي الشاعر فيها أولاً على ذكر اسمه ثم يتبعه بالنسيب أو بالدخول على الغرض.

ومن شعرائهم، عبد الجبار بن حمديس الصقلي^(١)، المشهور بوصف المصانع والحدائق والقصور، وسيمر بك شيء من شعره، وقد توفي سنة ٥٢٧هـ بجزيرة ميورقة. ومنهم ابن شرف القيرواني^(٢)، الكاتب الشاعر المشهور المعروف بالجودة والطبع، الذي كان قرين ابن رشيق في خدمة المعز بن باديس ومنادته، وقد رحل إلى الأندلس بعد موت المعز، وتوفي سنة ٤٦٠هـ المرية، ومن شعره، وكان يشوبه بالبديع وخاصة الجناس :

إن تدعك الغربية في معشر قد جبل الطبع على بغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم

ومنهم ابن رشيق القيرواني، وهو من موالي الأزد، كان أبوه رومياً صائغاً، فتعلم ابنه الأدب، وألف فيه كتابه « العمدة » الذي لم يؤلف مثله في نقد الشعر، وكان من كتاب المعز بن باديس، وقد توفي

(١) هو عربي الأصل، يتصل نسبه بالأزد إحدى قبائل كهلان من عرب اليمن.

(٢) هو عربي من قبيلة جذام البينية.

بجزيرة صقلية سنة ٤٥٦هـ، ومن شعره :
في الناس من لا يرتجى نفعه إلا إذ مس باضـرار
كالعود لا تطلع في طيبه إن أنت لم تمسه بالنار

وقوله :

أحب أخي وإن أعرضت عنه وقل على مسامعه كلامي
ولي في وجهه تقطيب راض كما قطبت في وجه المدام
ورب تجهم من غير بغض وضمن كامن تحت ابتسام

ومنهم ابراهيم بن علي الحصري القيرواني، صاحب « زهر الآداب »
وغيره المتوفى سنة ٤٥٣هـ ومن شعره قوله :

كنمت هواك حتى عيل صبري وأدنتني مكاتمتي لرمسي
ولم أقدر على إخفاء حال يجول بها الأسي دون التأسى
وحبك مالك لحظي ولفظي وإظهاره وإضماري وحسي

ومنهم أيضاً، أبو الحسن علي بن علي عبد الغني الفهري المقرئ
الضريير القيرواني، المعروف بالحصري، ذكر ابن بسام في الذخيرة أنه
« بحر براعة، ورأس صناعة، وزعيم جماعة »، وقد طرأ على الأندلس
في منتصف المائة الخامسة، وتوفي سنة ٤٨٨هـ بطنجة من بلاد المغرب،
وهو رقيق الشعر. أشهر شعره دليته، التي افتتن الشعراء بها، وعارضوها
في كل زمن.

ابن رشيق القيرواني

٣٩٠-٤٦٣هـ

كان من أدباء القيروان وشعرائها وأحد البلغاء والنقاد، واسمه الحسن ابن رشيق ولد بالمسيلة وقيل ولد بالمهدية، وأبوه مملوك رومي من موالي الأزد، كان صائغاً فعلمه أبوه صنعه وقرأ الأدب وقال الشعر، وتآقت نفسه إلى التزويد منه وملاقة أهل الأدب؛ فرحل إلى القيروان عام ٤٠٦هـ ومدح صاحبها وطارت شهرته بها، ولما هجم العرب على القيروان وخربوها انتقل إلى صقلية وأقام في مازر إحدى قرأها حتى توفي عام ٤٥٦هـ، وقيل عام ٤٦٣هـ.

وكان بينه وبين عبدالله بن أبي سعيد بن أحمد المعروف بابن شرف القيرواني مناقضات ومهاجاة، وصنف عدة رسائل في الرد عليه منها رسالة سماها ساجور الكلب ورسالة نجح الطلب، ورسالة قطع الأنفاس ورسالة نقض الرسالة الشعوذية والقصيدة الدعية والرسالة المنقوضة ورسالة رفع الأشكال ودفع المحال، وله كتاب أنموذج الشعراء في شعراء القيروان ورسالة قراضة الذهب، والعمدة في معرفة صناعة الشعر ونقده وغيوبه وهو كتاب جيد وغير ذلك.. قال صاحب الوافي: وقد وقفت على هذه المصنفات والرسائل المذكورة جميعها فوجدتها تدل على تبحره في الأدب واطلاعه على كلام الناس ونقله لمواد هذا الفن وتبحره

في النقد، وله كتاب في شذاذ اللغة بذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة
في بابها.. ومن شعره :

أحب أخي وان أعرضت عنه وقل على مسامحة كلامي
ولي في وجهه تقطيب راض كما قطبت في وجه المدام
ورب تقطب من غير بغض وبغض كامن تحت ابتسام

ومنه :

إذا ما خفت لعهد الصبا أبت ذلك الخمس والأربعونا
وما ثقلت كبراً وطأتني ولكن أجر ورائي الستينا

ومنه :

وقائلة ماذا الشحوب وذا الضنا فقلت لها قول المشوق المتيم
هواك أتاني وهو ضيف أعزه فأطعمته لحمي وأسقيته دمي

ومنه :

ذمت لعينك أعين الغزلان قمر أقر لحسنه القمران
ومشت فلا والله ما حقف النقا مما أرتك ولا قضيب البان
وثن الملاحه غير أن دياتني تأبى علي عبادة الأوثان

ومنها في المديح :

يا بن الأعره من أكابر حمير وسلالة الأملاك من قحطان
من كل أبلج أمر بلسانه يضع السيوف مواضع التيجان

ومن شعره :

في الناس من لا يرتجي نفعه إلا اذا مس باضـرار
كالعود لا يطمع في طيبه الا اذا أحرق بالنار

ومنه :

أقول كالمأسور في ليلة ألفت على الآفاق كلكالها

يا ليلة الهجر التي ليلها هذا وليس الحسن الا لها
ما أحسنت جملاً ولا أجملت هذا وليس الحسن الا لها

ومنه :

ومن حسنات الدهر عندي ليلة من العمر لم تترك لأيامها ذنبا
خلونابها نفي القذى عن عيوننا بلؤلؤة مملوءة ذهباً سكبنا
وملنا لتقبيل الثغور ولثمها كمثل جنوح الطير يلتقط الحبا

قال الأبيرودي وما هذا بأحسن من قول ابن المعتز :
كم من عناق لنا ومن قبل مختلسات حذار مرتقب
نقر العصافير وهي خائفة من النواطير يانع الرطب

ومقام ابن المعتز غير مقام ابن رشيق لأن ابن رشيق ذكر أنه في
ليلة أمن وهي عنده من حسنات الدهر فلهذا حسن تشبيه التقبيل مع
الأمن بالتقاط الطير الحب لأنه يتوالى دفعة بعد دفعة وأما ابن المعتز
فانه كان خائفاً يختلس التقبيل ويسرقه كما يفعل العصفور في نقر
الرطب اليانع لأنه يقدم جازعاً خائفاً من الناطور فلا يطمئن فيما يلتصقه،
ألا يرى الآخر كيف قال فأحسن :

أقبله على جزعي كشرب الطائر الفزع
رأى ماء فواقعه وخاف عواقب الطمع

ومن شعر ابن رشيق :

قد أحكمت مني التجا رب كل شيء غير جودي
أبدأ أقول لمن كسب ست لأقبضن يدي شديد
حتى إذا أنريت عد ت الى السماحة من جديد
ان المقام بمثل حيا لي لا يتم مع القعود
لا بد لي من رحلة تدني من الأمل البعيد

ومنه :

معتقة يعلو الحباب متونها فتسحبه فيها نثير جمان
رأت من لجين راحة لمديرها فطاقت له من عسجد بينان
ومن أسائذة ابن رشيق في الأدب أبو عبدالله محمد بن جعفر القزاز
القيرواني النحوي وغيره من أهل القيروان..

ابن حمديس الصقلي

٤٤٧-٥٣٧هـ

ميلاده ونشأته :

هو أبو محمد، عبد الجبار، بن حمديس، الأزدي الصقلي. أحد وصافي الطبيعة والمشاهد البديعة. ولد في أوسط القرن الخامس الهجري، بجزيرة صقلية، وهي في يد المسلمين العرب، إبان حكم ملوك الطوائف في الأندلس.

ونشأ بصقلية، في أسرة عربية محافظة، تلقى عنها شيئاً من أدب الاسلام، وحفظ طرفاً من الأدب العربي؛ وقرأ القصص والأساطير التي كانت يومئذ حديث الناس، كما طرقت أذنه كثير من أخبار المسلمين وشعر العرب وتثرهم، فاستعذب الشعر، وعالج القريض وهو حدث.

ولبقة صقلية أثرها في شعره وشاعريته، وصقلية ربي نضرة؛ هواؤها بلبل، وماؤها موفور، وجنتها مزهرة، وأشجارها مورقة مثمرة، وطيرها غرد، وأهلها مزيج من العرب والرومان والأندلسيين، وكانت تدين بالطاعة لملوك الطوائف، الحاكمين البلاد. كما كان العرب فيها يعيشون بين: الرجاء في الحاكمين، والخوف من الإفرنجية المغيرين.. وكان الترف واللهو والمجون. وألوان من الحضارة ذائعة بينهم، وكثرت فيهم مجالس

الأنس.. وكان حمديس يرقب هذا عن كثب فيضيق صدره، ويتحرق على الاسلام، في عفة تبيين في شعره، وتحول بينه وبين الراح وإن شهد مجلسها، وتربية شب عليها تمنعه أن يغامر مع الماجنين، كما أن طيب الهواء، وألوان الزهر وتنوع الثمر، وانتهاج الحاكمين سياسة العسف، كل أولئك شحذ ذهنه، وأرهف فكره فشعر، وهو بعد فتى، ونيغ في الشعر وهو في نضرة الشباب، وكان طبعياً أن تؤثر كل هذه المتباينات في خلقه وذهنه، غير أنه على ما يظهر من شعره لم يدنس ولم يسعف، وعاش على دينه وعفته كريماً نبيلاً.

وفي عهد الشاعر كانت الدولة العربية في صقلية في أحرابها، قد نهكتها القرقة وأضعفها الترف، وأمضها ما دبر لها الافرنجة من دواعي الشيوخوخة، وأسباب الاضمحلال، مما اختطه « شارل ماتل »، إذا قال لقومه في القرن الثاني الهجري، عن العرب : لا تعارضوهم فإنهم كالسيل، ولكن أمهلوهم، حتى تمتلئ أيديهم، ويتخذوا الشهوات لهم إماماً، وتشيع بطونهم، ويتنافسوا في الرياسة، ويستعين بعضهم على بعض — فحينئذ تتمكنون منهم —.

وكذلك حقت كلمة ربك فلم تمض على ابن حمديس أيام الشباب، حتى استولى الزمانديون على صقلية وطنه، وهو في شرح الفتوة، فشهد مصرع قومه، وهاجر إلى إشبيلية عام ٤٧١هـ، وقصد إلى سيدها المعتمد ابن عباد من ملوك الطوائف فغفل عنه، ولم يكثر له، فضجر ابن حمديس وهمس (قنطت لخيبتني مع فرط تعبي، وهممت بالنكوص على عقيبي)، ولكن الله نفس الكربة، بغلام السلطان، فركب معه إليه، وأدخل على المعتمد، فأجلسه على حشية من فرو، وقال له: افصح الطاقة التي تملك، ففتحها. وإذا كور من زجاج والنار تلوح من بابه، وواقدة تفتحها تارة، وتسدهما أخرى، ثم أطلال سد أحدهما، فحين تأملهما ابن حمديس قال له المعتمد : أجز :

انظرهما في الظلام قد نجما فقال : كما رنا في الدجاجة الأسد
فقال المعتمد : يفتح عينيه ثم يطبقهما فقال : فعل امرى في جفونه رمد
فقال المعتمد : فابتزته الدهر نور واحدة فقال : وهل نجا من صروفه أحد
فاستحسن المعتمد ذلك، وأمر له بجائزة سنوية، وألزمه خدمته.

ومن هنا لمع كوكب ابن حمديس بهجرته، واتصاله بالمعتمد، وقد بقي مبعجلاً في خدمته، حتى أخذت تيبين دولة المرابطين، وأزالت فيما أزالت ملك المعتمد، إذ عزله ونفاه يوسف بن تاشفين، الذي أذل اشيلية، فبيع ابن حمديس ولي نعمته إلى منفاه، ثم أقام الشاعر بالمهدية قاعدة افريقيا، ورحل إلى سفاقس ثم انتقل إلى ميورقة.

وتصارييف الزمان هذه باين حمديس، أذاقته الحلو فرق شعره، وأطعمته العلقم فانقيض وتشام، وزهد في الدنيا. ولم يأتئنها. ولم يكن لها عوده. على أن هجرته وإن كانت قد نشرت صيته. إلا أنها أفضت مضجعه. فلقد حن إلى صقلية. وملاً شعره حيناً إلى وطنه الأول.

وبيئة الشاعر والحياة السياسية في عصره أوجدتا منه رجلاً مؤمناً رقيق المشاعر يغلب جده هزله، يتشام في افراط، وينقبض نقمة من الناس. وفراراً من شياطين الأنس، لذا سلم منهم وإن خالطهم فلم تمتزج نفسه إلا بالخير، وإن انغمس في الشر، على أن البيئة قد فتقت ذهنه، كما أن السياسة دفعت به إلى المهجر، فاتصل بالمعتمد الذي حجب إليه الحياة.

شعر وشاعريته :

أخلاق الشعراء ومواهبهم تيبين جليلة في أشعارهم، ومن ثم غلب على شعر ابن حمديس : عفة اللفظ ونبل الفكر، والزهد والورع. فشعره

يبين فيه كل هذا، إلى تصرف في التشبيه العذب، وغوص على درر المعنى، وميل إلى الحكمة.

وبمطالعة شعره يتضح لنا أنه أغرم بزهد أبي العتاهية، ففسح على منواله، كما أعجب بالبحثري، فغنى على قيثارته، وافتتن بالمتنبي فقلده في بعض شعره. كما حاكى ابن المعتز في شيء من أدبه.

ويشتمل شعره على أكثر أنواع الشعر المعروفة : من وصف ومدح وغزل ومجون ورتاء وشكوى ودعابة وعبرة، وغير ذلك. ومن المعاني التي مرت بخاطره كثيراً وأكثر من ذكرها في شعره حنينه إلى وطنه، وذكر أيامه الأولى في جزيرة صقلية. حيث يبكي فيها صباه، وتلمي عليه ذكرياته الماضية، كثيراً من الآلام. وأحياناً تذكره ما كان هناك من سرور يمرح في بحبوخته، وكثيراً ما تجده يبكي وطنه لما حل به من المصائب، ويمزج ذلك بذكر الشباب والشكوى من المشيب. ولستنا ممن يقول إن زهده مصنوع، وأنه كان متهماً فيه، كما اتهم أبو العتاهية في زهده بأنه أحب المخالفة لشعراء عصره ليظهر.

على أن ابن حمديس وإن برع في الزهد إلا أنه كان في الوصف أبرع وعلى الرغم من تفوقه حين كان يشكو الزمان، وخاصة بعد أن كف بصره وأخذ يتبرم بالحياة، إلا أنه كان له الوصف المشرق، حتى ليكاد يصل إلى عينك من لفظه الأنيق صورة ملموسة لما وصف، وإن اشتمل لفظه على شيء من الغريب الذي جاء في شعره والذي كان من أسبابه أن اللغة في المغرب لم يسرع بها التغيير مثل ما أسرع بها في المشرق، تجد شاعراً قبله كالشريف الرضي سهل اللفظ، لأن حمديس — الذي تأخر به الزمان عن الرضي نحو نصف قرن — أكثر غريباً، وأغمض لفظاً.

وخياله متسع يقظ، يعنى بتمثيل المحسوسات بالمعقولات،

والمعقولات بالمحسوسات، في أسلوب عذب، وبيان ناصح، وتعبير بليغ. ويعد ابن حمديس من أعلام الشعراء، وقد سبق شعراء العرب إلى « الواقعية » بمعناها العلمي الحديث، فهو يكثر في قصائده من الحديث عما يجول بالنفوس، وما كان يشعر به من آلام الحياة وأحداثها، وما كان يعتره من حيرة وشك، وسخط على الحياة حيناً، ومن أمل وابتسام وتفاؤل وثقة بها حيناً آخر. كل ذلك مع الجد في التعبير ومع تمثيل حركات نفسه وعقله وأسلوبه، ومع اجتماع قوة الفكر وسعة الخيال في قصائده. فهو شاعر وجداني نفسي مفكر، في طليعة الشعراء المفكرين من العرب.

نماذج من شعره

١ — قال ابن حمديس، وهو في المغرب:

تدرعت صبري جنة للنواب	فان لم تسالم يا زمان فحارب
عجمت حصاة لا تلين لعاجم	ورضت شموسا لا تذلل لراكب
كأنك لم تقنع لنفسي بغربة	اذا لم أنقب في بلاد المغرب
فطمت بها عن كل كاس ولذة	وأنفقت كنز العمر في غير واجب
بيت رياش العضب في ثني ساعدي	معاوضة من جيد غداء كاعب
وما ضاجع الهندي الا مثلما	مضاربه يوم الوغى في الضرائب
فكنت وقدي في الصبا مثل قده	عهدت إليه أن منه مكاسبي
فان تك لي في المشرفي مآرب	فكم من عصا موسى له من مآرب
أتحسبني أنسى وما زلت ذاكرة	خيانة دهري أو خيانة صاحبي
تغذى بأخلاقى صغيرا ولم تكن	ضرائبه إلا خلاف ضرائبي
ويا رب نيت تعتريه مرارة	وقد كان يسقي عذب ماء السحائب
علمت بتجريبي أمورا جهلتها	وقد تجهل الأشياء قبل التجارب

ومن ظن أمواه الخضارم عذبة . قضى بخلاف الظن عند المشارب

ومن شعره قوله :

ذكرت صقلية والأسي
ومنزلة للتصابي خلعت
فإن كنت أخرجت من جنة
ولولا ملوحة ماء البكاء

بهيج للنفس تذكّارها
وكان بنو الظرف عمارها
فإنني أحدث أخبارها
حسبت دموعي أنهارها

وقوله :

ولسو أرضي حرة لأتيتها
لكن أرضي كيف لي بفكاكها
أمثلها في خاطري كل ساعة
أحن حنين النيب للوطن الذي
ومن يك أبقى قلبه رسم منزل

بعزم يعد السير ضربة لازب
من الأسر في أيدي العلوج الغواصب
وأمرني لها قطر الدموع السواكب
مغانسي غوانيه إليه جواذب
تمنى له بالجسم أوبة آتب

ومن قوله في الوعظ :

غرتك دنياك التي
بضرك الحرص بها
لا تأمنن متيبة
مغربك القبر الذي
وللحساب . موقف
يراك ذو العرش الذي
فتق به ولا يكن

لها سراب يخدعك
والزهد فيها ينفعك
إن عصاها تفرعك
يكون منه مطلعك
أهواله تسروعك
ناديته ويسمعك
لغيره تضرعك

وقال يصف البحر :

أراك ركبت في الأهوال بحراً
تسير فلكه شرقاً وغرباً
وأصعب من ركوب البحر عندي

عظيماً ليس يؤمن من خطوبه
وتدفع من صباه إلى جنوبه
أمور ألقأتك إلى ركوبه

وقال في الشيب والحنين إلى وطنه (صقلية) :
نفى هم شيبى سرور الشباب
أتعرف لي عن شبابي سلوا
أأكسو المشيب سواد الخضاب
وكيف أرجي وفاء الخضاب
لقد أظلم الشيب لما أضاء
ومن يجد الداء يبغي الدواء
فأجعل للصبح ليلاً غطاء
إذا لم أجد لشبابي وفاء

إلى أن قال:

وأراك يا بحر لي جنة
إذا أنا حاولت منها صباحاً
ركبت الهلال به زورقاً
فلو أنني كنت أعطي المني
ليست النعيم بها لا الشقاء
إذا منع البحر منها اللقاء
تعرضت من دونها لي مساء
لكنك أعانق فيها ذكاء

وقال يتغزل :

زارت علي الخوف من رقيب
كافورة في بياض لون
كادت تروي غليل صب
كان زمان اللقاء منها
كظبية روعت بسذيب
ومسكة في ذكي طيب
فؤاده منه في لهيب
أقصر من جلسة الخطيب

وقال في المروعة والوفاء والتدين :

أدم المروعة والوفاء ولا يكن
والعز أبقى ما تراه لمكرم
حبل الديانة منك غير متين
إكرامه لمروعة أو دين

وقال في العصا :

ولي عصا من طريق الذم أحدها
كأنني قوس رام وهي ولي وتر
بها أقدم في تأخيرها قدمي
أرمني عليها رمي الشيب والهرم

وقال في فرس أدهم :

أدهم كالظلام تشرق فيه
كالذي يخضب المشيب ويبقى
شعرات منيرة للعيون
شاهدات بهن نفي الظنون

وقال في الترفع عن الهجو :
وما أنا ممن يرتضي الهجو خطة
أسالم من ألقيت قدري كقدره
ولو شئت يوماً لانتصرت بمقول

وقال يرثي جوهرة :

يهدم دار الحياة بانيتها
وان تردت من قبلنا أمم
وأوحشتنا من فراق مؤنسة
أذكرها والدموع تسعفني
جوهرة كان خاطري صدفاً
ونفحة الطيب في ذائبها
عانقها الموج ثم فارقها

وقال في الشباب :

بكى الناس قبلي فقد الشباب
وإنسي عليه لمستدرك
لعمرك ما الشيب ما بدا

وقال يرثي أباه :

يد الدهر جارحة آسية
وربك وارث أربابها
رأيت الحمام يبئد الأنام
وأرواحنا ثمرات له
وعارية في الفتى روحه
سقى الله قبر أبي
وسير عن جسمه روحه

على أن بعض الناس أصبح يهجوني
وأعظم من فوقي وأحقر من دوني
يجيل على الأغراض حد السكاكين

فأي حي مخلد فيها
فهي نفوس ردت عواربها
يميتني ذكرها ويحييها
كأنني للأسى أجازيها
لها أفيها به وأحميها
وصبغة الكحل في مآقيها
عن ضمة فاض روحها فيها

بدمع القلوب فما أنصفوه
من البث والحزن ما أهملوه
بفوديك إلا الردى أو أبوه

ودنياك مفنية فانية
ومحيي عظامهم البالية
ولدغته ما لها راقية
يمد إليها يداً حانية
ولا بد من ردة العارية
فسقياه رائحة غادية
إلى الروح والعيشة الراضية

وقال يمدح الأمير أبا الحسن علي بن يحيى ويصف فتحه الأجم :

يمضي لك السيف ما تنويه والقلم
لو شئت أغناك جداً عن محجلة
إلى أن قال :

حصن بنته لصوص الملك كاهنة
كأنه من بروج الجو منفرد
وأعين الخلق منه كلما نظرت
كأنما الحصن من خوف أحاط بهم
إن الصوارم في فتح الحصون لها
إن إن بن يحيى علياً بدر مملكة
قد أشرب الله في قلبي محبته
يا واحد الجود والياس الذي انفقت
زد زادك الله في صون الهدى نظرا

ومن معانيه البديعة في صفة نهر :
ومطررد الأجزاء يصقل منته
جريح بأطراف الحصى كلما جرى
كان جيانا ربيع تحت حبابه

وله من قصيدة :
وأروي غلغل الشوق بما
ولعله من قول البحترى :
وبي ظمناً لا يمكن الماء دفعه

ومن معانيه النادرة :
زادت على كحل العيون تكحلا
وقال يواسي المعتمد بن عباد وهو في معقله بعد عزله عن ملكه :
أتبأس من يوم يناقض أمسه وشهب الدراري في البروج تدور

ويستقل برضوى همك الحجم
شعار فرسانها الإقدام والهمم

وأفرغت فيه من تديرها الحكم
فقطرة منه فوق الأرض تغتم
على العجائب بالألحاظ تزدهم
عليهم وهو المنسي منهدم
ضرب به تجتلي الأجياد والقمم
لصيد آياته الأجداد والقدر
فشب في مدحه طبعي وبي هرم
بلا اختلاف على تفضيله الأمم
إن الصليب ليشقى منك والصنم

صبا أعلنت للعين ما في ضميره
عليها شكاً أوجاعه بخريره
فأقبل ينقي نفسه في غديره

لم يكن في قدرة الماء القراح
إلى نهلة من ريقها البارد العذب

وبسم نصل السهم وهو قتول
وشهب الدراري في البروج تدور

ولما رحلتهم بالندى في أكفكم وقلقل رضوى منكم وثبير
رفعت لساني بالقيامة قد دنت فهذي الجبال الراسيات تسير
ولعل بيته الأخير مأخوذ من قول عبدالله بن المعتز :
قد استوى الناس ومات الكمال وقال صرف الدهر : أين الرجال
هذا أبو القاسم في نعشه قوموا انظروا كيف تزول الجبال
وقال يتبرم بالزمان ويشكو الصحب :
أتحسبني أنسى وما زلت ذاكراً خيانة دهري أو خيانة صاحبي
ولما رأيت الناس يهرب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب
ولأين حمديس ديوان شعر، عرف فضله المستشرقون الطليان قطيعوه،
وقد أحيوا بطبعه ذكر شاعر ممن أنبتهم بلادهم، وإن كان شعره في
غير لغتهم.

فهرس

- مقدمة: سلام عليك يا أندلس ٥
الحضارة العربية في الأندلس ٧

الباب الأول: الأندلس الطبيعة... والتاريخ... والحياة

- الفصل الأول: الأندلس: الجنة الساحرة ٤٩
الطبيعة الأندلسية الفاتنة ٦٠
الفصل الثاني: العرب في الأندلس ٦٧
الفصل الثالث: ٢٢ — الحياة الأندلسية في ظلال الحكم العربي ١٠٠
مشاهد من الحياة الأندلسية ١٠٧
صور أندلسية ١٣٠
٢ — الحياة الفكرية في الأندلس ١٦٧
الثقافة والعلوم في الأندلس ٢٠٥
شخصية أندلسية: أبو علي القالي ٢٤٦
اللغة العربية في الأندلس ٢٥٩

الباب الثاني الشعر الأندلسي

٢٧٣	تمهيد
٢٨٦	الفصل الأول: مواقف للشعر والشعراء
٢٩٣	آراء في الشعر الأندلسي
٣٠٦	من أعلام الشعراء الأندلسيين
٣٠٧	الشعر الأندلسي وتياراته
٣٢٤	الشعر الأندلسي بين التجديد والتقليد
٣٤١	الفصل الثاني: صور من الشعر الأندلسي
٣٨٦	الفصل الثالث: فن الموشحات — صور منها
٣٩٨	فن الموشحات الأندلسية
٤١٤	الزجل في الأدب الأندلسي
٤٢٠	الفصل الرابع: تراجم لأشهر الشعراء الأندلسيين
٤٢٠	ابن هانيء الأندلسي
٤٦٦	مختارات من شعره
٤٧٠	ابن زيدون
٤٨٤	محنة ابن زيدون كما بدت في شعره
٥٠٢	ابن خفاجة الأندلسي
٥٢٢	ابن سهل الأندلسي
٥٢٧	ابن عيود
٥٣٢	بنو عباد
٥٥٩	الأدباء في عصر بني عباد
٥٦١	ابن غالب
٥٦٥	ابن طفيل

الباب الثالث النثر الأندلسي

٥٧١	تمهيد: النثر الأدبي في الأندلس وأنواعه
٥٧٤	الفصل الأول: صور من النثر الأندلسي
٦٠٠	الفصل الثاني: الكتابة الفنية الأندلسية
٦٠٩	صورتان من الكتابة الأندلسية
٦١٢	كتاب اندلسيون: أحمد بن شهيد
٦١٨	ابن زيدون ونثره
٦٣١	عبد الملك بن أبي الخصال
٦٣٣	لسان الدين بن الخطيب
٦٥٥	الفصل الثالث: الخطابة في الأندلس
٦٥٥	صور من الخطابة
٦٧٠	خصائص الخطابة الأندلسية
٦٧٧	أعلام أندلسية
٦٧٧	أحمد ابن عبد ربه
٦٨٦	التنجيبي القرطبي
٦٨٧	أبو بكر بن العربي
٦٩٠	البطليوسي
٧٠٠	ابن الأبار
٧٠٨	محيي الدين بن عربي
٧٠٩	ابن القصير
٧١٠	القاضي عياض
٧١٣	أمير أديب
٧١٤	ولادة بنت المستكفي
٧١٨	أدبيات من الأندلس

الباب الرابع
الأدب العربي في المغرب وجزر البحر

٧٢٧	تمهيد
٧٤٤	الفصل الاول : الحالة الفكرية في بلاد المغرب
٧٥٢	الفصل الثاني : أعلام من المغرب
٧٥٧	ابن حازم القرطاجني
٧٥٩	ابن خلدون
٧٦٧	ابن بطوطة
٧٧٤	الفصل الثالث: اللغة العربية في بلاد المغرب
٧٧٨	الفصل الرابع : الشعر العربي
٧٨١	ابن رشيق القيرواني
٧٨٥	ابن حمديس الصقلي
٧٩٥	الفهرس